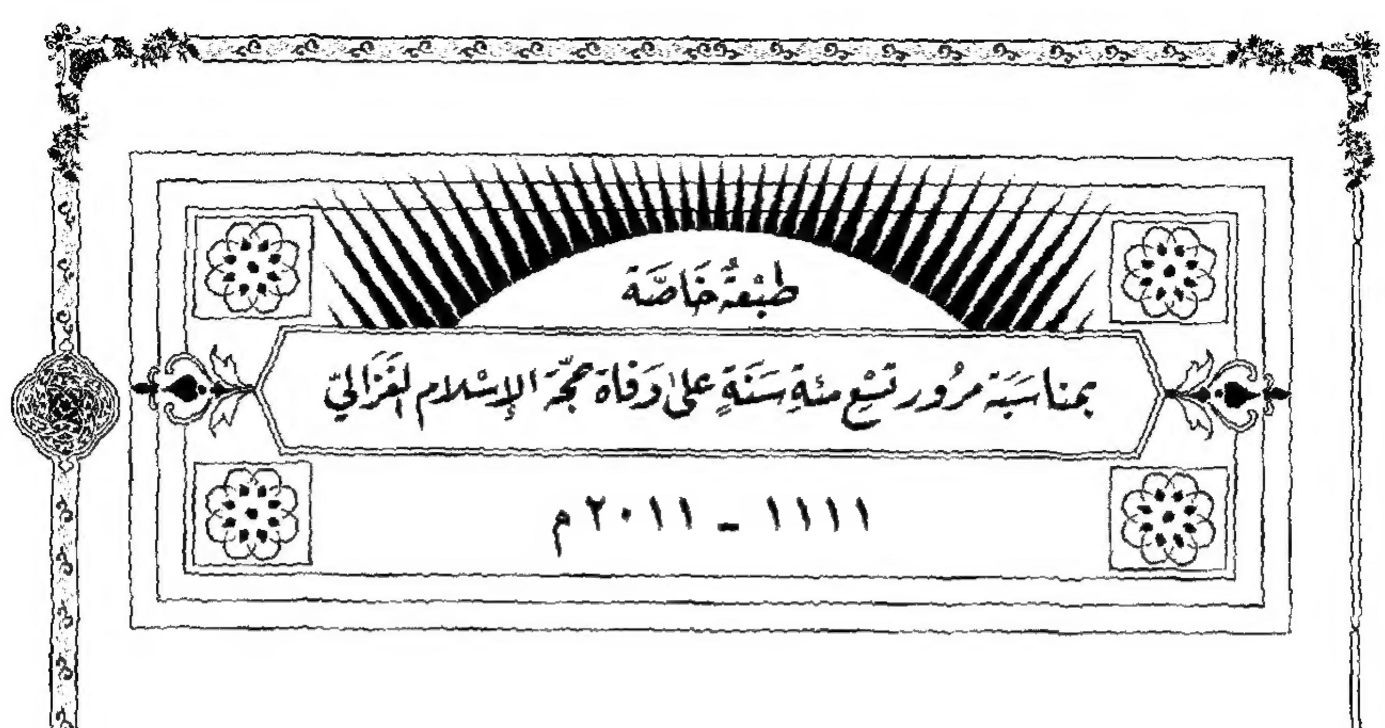
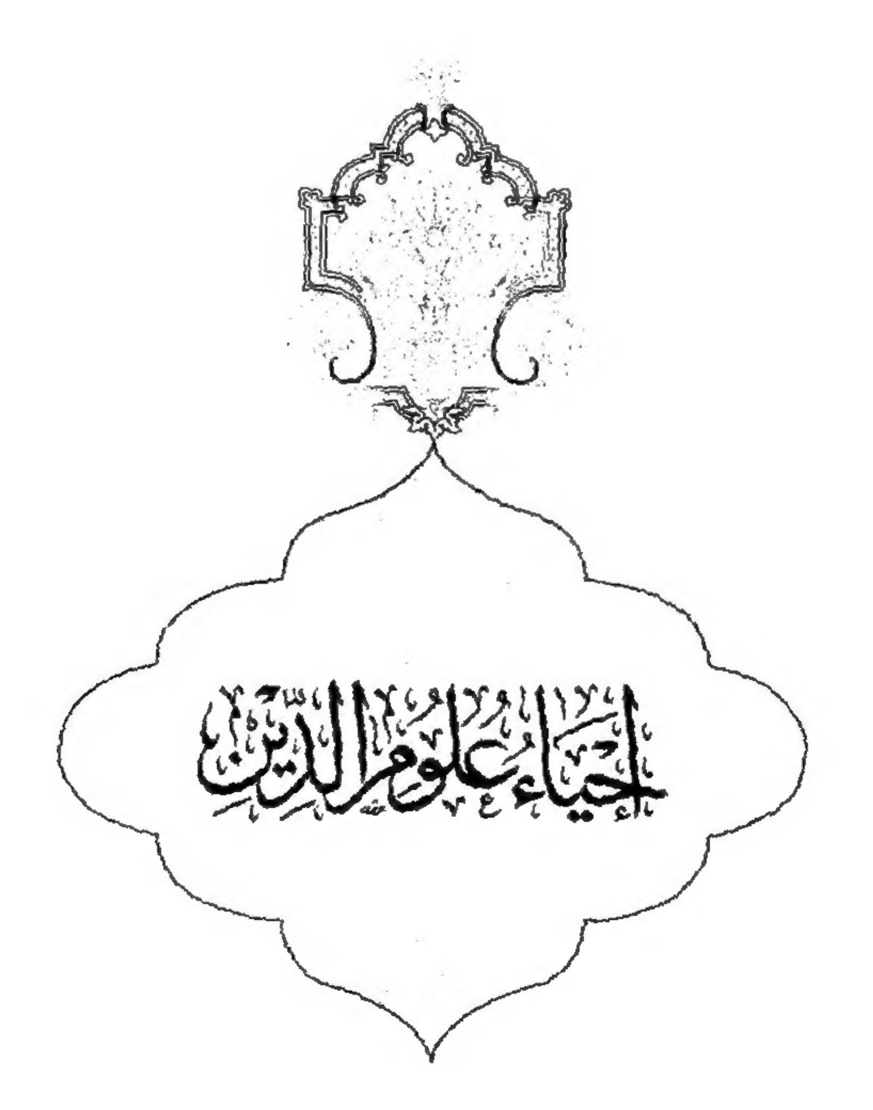
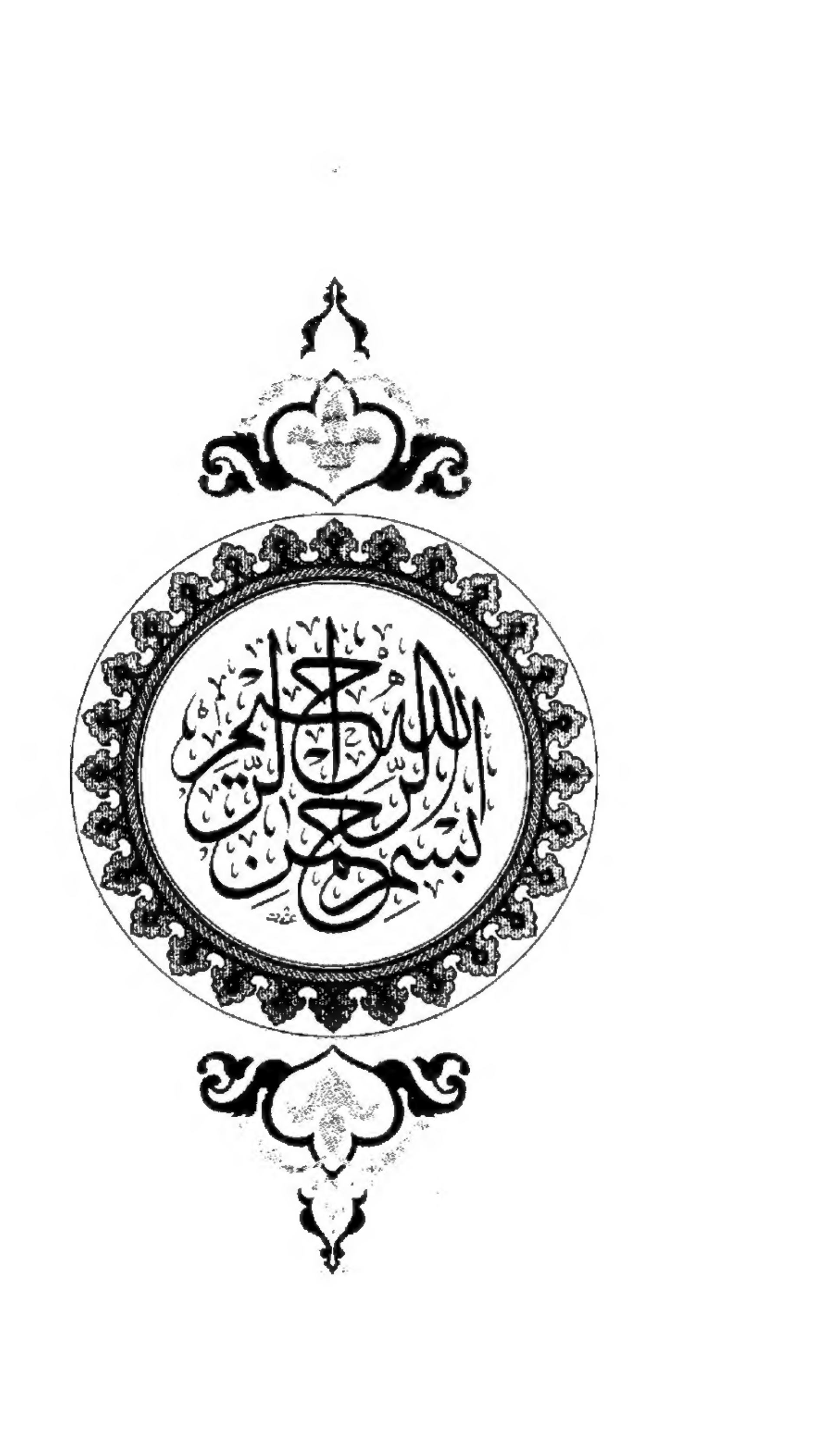

طبعة خاصة
بمناسبة مرور تسع مئة سنة على وفاة حجة الإسلام الغزالي
١١١١ - ٢٠١١م


إحياء علوم الدين


بسم الله الرحمن الرحيم

إحياء علوم الدين

تأليف

الإمام المجدِّد، حجة الإسلام والمسلمين

زين الدين، أبي حامد

محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي

الطوسي الطابراني الشافعي

رضي الله عنه

(٤٥٠ـ٥٠٥هـ) ـ (١٠٥٨ـ١١١١م)

ربع المهلكات / القسم الثاني

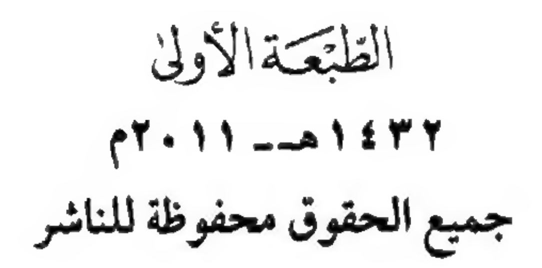
كتاب

ذم الدنيا ـ ذم المال والبخل ـ ذم الجاه والرياء

ذم الكبر والعجب ـ ذم الغرور



دار المنهاج



الطبعة الأولى

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

دار المنهاج للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - جدة

حي الكندرة - شارع أبها تقاطع شارع ابن زيدون

هاتف رئيسي 6326666 - الإدارة 6300655

المكتبة 6322471 - فاكس 6320392

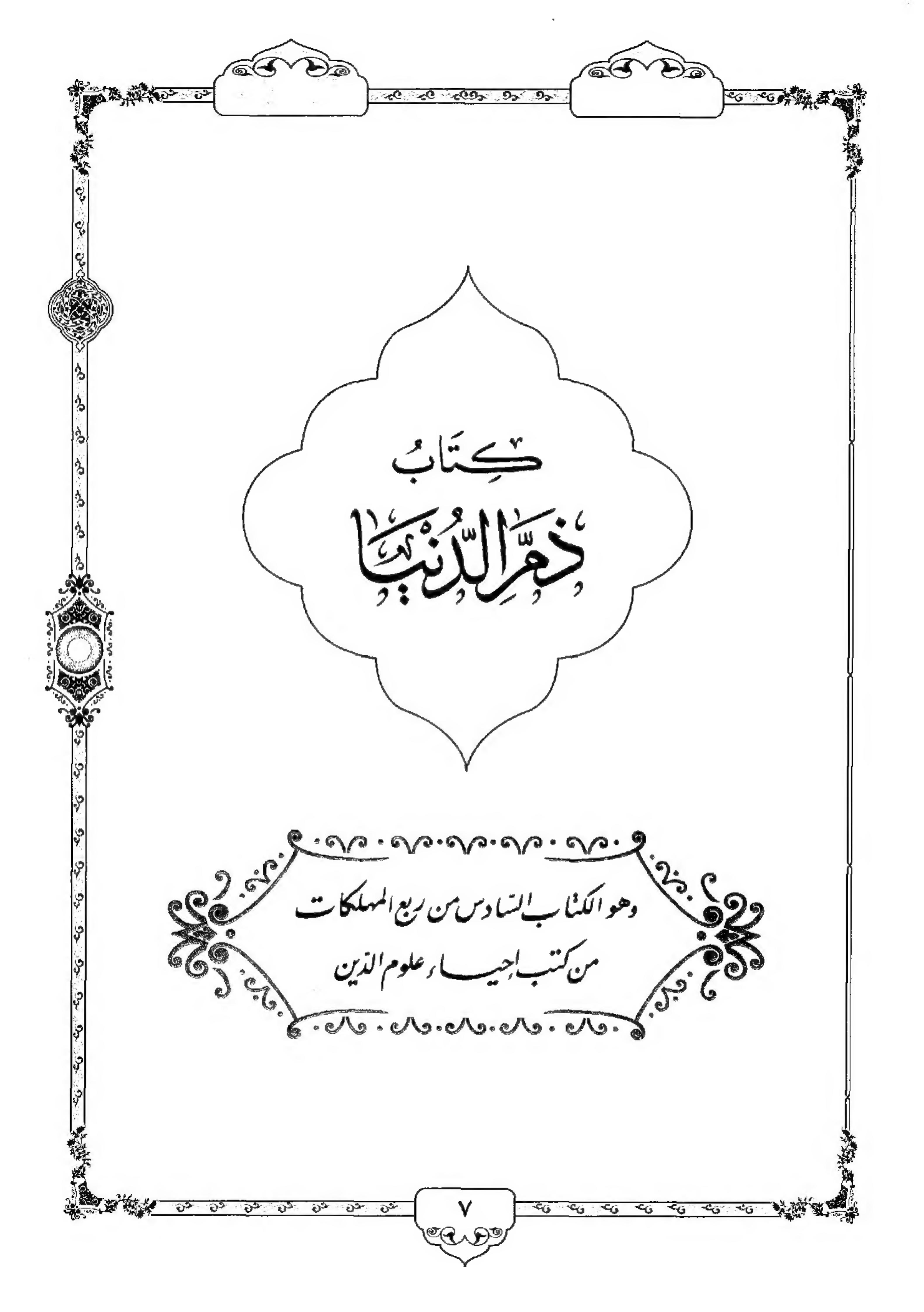
ص. ب 22943 - جدة 21416

www.alminhaj.com

E-mail: info@alminhaj.com

ISBN: 978 - 9953 - 541 - 50 - 1


بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ
أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ
قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ
إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ



كتاب
ذم الدنيا

وهو الكتاب السادس من ربع المهلكات
من كتب إحياء علوم الدين

كتاب ذمّ الدّنيا

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ الذي عرَّفَ أولياءَهُ غوائلَ الدُّنيا وآفاتِها ، وكشفَ لهُمْ عنْ عيوبِها وعوراتِها ، حتَّىٰ نظرُوا في شواهدِها وآياتِها ، ووَزَنُوا بحسناتِها سيِّئاتِها ، فعلمُوا أنَّهُ يزيدُ مُنكَرُها علىٰ معروفِها ، ولا يفي مرجوُّها بمَخُوفِها ، ولا يسلمُ طلوعُها مِنْ كسوفِها ، ولكنَّها في صورةِ امرأةٍ مليحةٍ تستميلُ الناسَ بجمالِها ، ولها أسرارٌ سوءٍ قبائحُ تهلكُ الراغبينَ في وصالِها .

ثمَّ هيَ فرَّارةٌ عنْ طلاَّبِها ، شحيحةٌ بإقبالِها ، وإذا أقبلَتْ . . لمْ يُؤمَنْ شرُّها ووبالُها ، إنْ أحسنَتْ ساعةً . . أساءَتْ سنةً ، وإن أساءَتْ مرَّةً . . جعلَتْها سُنَّةً ، فدوائرُ إقبالِها على التقاربِ دائرةٌ ، وتجارةُ بنيها خاسرةٌ بائرةٌ ، وآفاتُها على التَّوالي لصدورِ طلاَّبِها راشقةٌ ، ومجاري أحوالِها بذلِّ طالبيها ناطقةٌ ؛ فكلُّ متعزِّزٍ بها إلى الذُّلِّ مصيرُهُ ، وكلُّ متكبِّرٍ بها إلى التحسُّرِ مسيرُهُ .

شأنُها الهربُ مِنْ طالبِها ، والطلبُ لهارِبِها ، مَنْ خدمَها . . فاتَتْهُ ، ومَنْ أعرضَ عنها . . واتَتْهُ ، لا يخلو صفوُها عَنْ شوائبِ الكُدوراتِ ، ولا ينفكُّ سرورُها عنِ المنغِّصاتِ ، سلامتُها تعقبُ السَّقَمَ ، وشبابُها يسوقُ إلى

الهرمِ ، ونعيمُها لا يثمرُ إلا الحسرةَ والندمَ .

فهيَ خدَّاعةٌ مكَّارةٌ ، طيَّارةٌ فرَّارةٌ ، لا تزالُ تتزيَّنُ لطلاَّبِها ، حتَّىٰ إذا صاروا مِنْ أحبابِها . . كشرَتْ لهُمْ عن أنيابِها ، وشوَّشَتْ عليهِمْ مناظمَ أسبابِها ، وكشفَتْ لهَمْ عنْ مكنونِ عجابِها ، فأذاقتْهُمْ قواتلَ سِمامِها[1] ، ورشقَتْهُمْ بصوائبِ سِهامِها .

بينَما أصحابُها مِنْها في سرورٍ وإنعامٍ . . إذْ ولَّتْ عنهُمْ كأنَّها أضغاثُ أحلامٍ ، ثمَّ كرَّتْ عليهِمْ بدواهِيها ، فطحنَتْهُمْ طحنَ الحصيدِ ، ووارَتْهُمْ في أكفانِهِمْ تحت الصعيدِ ، إنْ ملَّكَتْ واحداً منهُمْ جميعَ ما طلعَتْ عليهِ الشمسُ . . جعلَتْهُ حصيداً كأنْ لمْ يغنَ بالأمسِ ، تُمنِّي أصحابَها سروراً ، وتعدُهُمْ غروراً ، حتَّىٰ يأملونَ كثيراً ، ويبنونَ قصوراً ، فتصبحُ قصورُهُمْ قبوراً ، وجمعُهُمْ بوراً ، وسعيُهُمْ هباءً منثوراً ، ودعاؤُهُمْ ثبوراً ، هٰذهِ صفتُها ، وكانَ أمرُ اللهِ قدراً مقدوراً .

والصلاةُ علىٰ محمدٍ عبدِهِ ورسولِهِ المرسلِ إلى العالمينَ بشيراً ونذيراً ، وسراجاً منيراً ، وعلىٰ مَنْ كانَ مِنْ أهلِهِ وأصحابِهِ لهُ في الدينِ ظهيراً ، وعلى الظالمينَ نصيراً ، وسلَّمْ تسليماً كثيراً .

أما بعد :

فإنَّ الدنيا عدوَّةٌ للهِ ، وعدوَّةٌ لأولياءِ اللهِ ، وعدوَّةٌ لأعداءِ اللهِ .

---

(١) السِّمام : جمع سمٍّ . « إتحاف » (٨/ ٧٨) .

أمَّا عداوتُها للهِ . . فإنَّها قطعَتِ الطريقَ علىٰ عبادِ اللهِ ، ولذلكَ لمْ ينظرِ اللهُ إليها منذُ خلقَها .

وأمَّا عداوتُها لأولياءِ اللهِ . . فإنَّها تزيَّنَتْ لهمْ بزينتِها ، وعمَّتْهُمْ بزهرَتِها ونضارتِها ، حتَّىٰ تجرَّعُوا مرارةَ الصبرِ في مقاطعتِها .

وأمَّا عداوتُها لأعداءِ اللهِ . . فإنَّها استدرجَتْهُمْ بمكرِها ومكيدتِها ، واقتنصَتْهُمْ بشبكتِها ، حتَّىٰ وثِقُوا بها ، وعوَّلُوا عليها ، فخذلَتْهُمْ أحوجَ ما كانُوا إليها ، فاجتنَوا مِنها حسرةً تتقطَّعُ دونَها الأكبادُ ، ثمَّ حرمَتْهُمُ السعادةَ أبدَ الآبادِ ؛ فهُمْ علىٰ فراقِها يتحسَّرونَ ، ومِنْ مكايدِها يستغيثُونَ فلا يُغاثونَ ، بلْ يُقالُ لهُمْ : ﴿ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ ، ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ .

وإذا عظمَتْ غوائلُ الدُّنيا وشرورُها . . فلا بدَّ أوَّلاً مِنْ معرفةِ حقيقةِ الدُّنيا ، وما هيَ ، وما الحكمةُ في خلْقِها معَ عداوتِها ، وما مداخلُ غرورِها وشرورِها ؛ فإنَّ مَنْ لا يعرفُ الشَّرَّ . . لا يتقيهِ ، ويوشكُ أنْ يقعَ فيهِ .

ونحنُ نذكرُ ذمَّ الدنيا ، وأمثلتَها ، وحقيقتَها ، وتفصيلَ معانيها ، وأصنافَ الأشغالِ المتعلِّقةِ بها ، ووجهَ الحاجةِ إلىٰ أصولِها ، وسببَ انصرافِ الخلقِ عنِ اللهِ بسببِ التشاغلِ بفضولِها ، إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ ، وهوَ المعينُ علىٰ ما يرتضيهِ .

* * *

بيان ذمّ الدّنيا

الآياتُ الواردةُ في ذمِّ الدُّنيا وأمثلتِها كثيرةٌ ، وأكثرُ القرآنِ مشتملٌ علىٰ ذمِّ الدُّنيا ، وصرفِ الخلقِ عنها ، ودعوتِهِمْ إلى الآخرةِ ، بلْ هوَ مقصودُ الأنبياءِ عليهمُ الصلاةُ والسلامُ ، ولمْ يُبعثُوا إلا لذلكَ .

فلا حاجةَ إلى الاستشهادِ بآياتِ القرآنِ لظهورِها ، وإنَّما نوردُ بعضَ الأخبارِ الواردةِ فيها .

فقدْ رُوِيَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مرَّ علىٰ شاةٍ ميتةٍ فقالَ : « أترونَ هٰذهِ الشَّاةَ هيّنةً علىٰ أهلِها ؟ » قالُوا : مِنْ هوانِها ألقَوْها ، قالَ : « والذي نفسِي بيدِهِ ؛ للدنيا أهونُ على اللهِ تعالىٰ مِنْ هٰذهِ الشاةِ علىٰ أهلِها ، ولو كانَتِ الدُّنيا تعدِلُ عندَ اللهِ جناحَ بعوضةٍ .. ما سقىٰ كافراً مِنْها شربةَ ماءٍ »[١] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الدُّنيا سجنُ المؤْمنِ وجنَّةُ الكافرِ »[٢] .

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٢١) ، وابن ماجه (٤١١١) من حديث المستورد بن شداد رضي الله عنه بنحوه ، ورواه ابن ماجه (٤١١٠) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه ، وأفرد الجملة الأخيرة منه الترمذي (٢٣٢٠) من حديثه .

(٢) رواه مسلم (٢٩٥٦) .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الدُّنيا ملعونةٌ ، ملعونٌ ما فيها ، إلا ما كان للهِ مِنْها »(١) .

وقالَ أبو موسى الأشعريُّ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أحبَّ دنياهُ.. أضرَّ بآخرتِهِ ، ومَنْ أحبَّ آخرتَهُ.. أضرَّ بدنياهُ ، فآثروا ما يبقىٰ علىٰ ما يفنىٰ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « حبُّ الدُّنيا رأسُ كلِّ خطيئةٍ »(٣) .

وقالَ زيدُ بنُ أرقمَ : كنَّا معَ أبي بكرٍ الصديقِ رضيَ اللهُ عنهُ ، فدعا بشرابٍ ، فأُتيَ بماءٍ وعسلٍ ، فلمَّا أدناهُ مِنْ فيهِ.. بكىٰ وبكىٰ حتَّىٰ أبكىٰ أصحابَهُ ، فسكتُوا وما سكتَ ، ثمَّ عادَ وبكىٰ حتَّىٰ ظنُّوا أنَّهُمْ لا يقدرونَ علىٰ مسألتِهِ ، قالَ : ثمَّ مسحَ عينيهِ ، فقالُوا : يا خليفةَ رسولِ اللهِ ؛ ما أبكاكَ ؟ قالَ : كنتُ معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فرأيتُهُ يدفعُ عنْ نفسِهِ شيئاً ولمْ أرَ معَهُ أحداً ، فقلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ ما الذي تدفعُ عنْ نفسِكَ ؟ قال : « هٰذهِ الدُّنيا مثُلَتْ لي ، فقلتُ لها : إليكِ عنِّي ، ثمَّ رجعَتْ فقالَتْ : إنَّكَ إنْ أفلتَّ منِّي.. لمْ يفلِتْ منِّي مَنْ بعدَكَ »(٤) .

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٢٢) ، وابن ماجه (٤١١٢) ، وفيه : « إلا ذكر الله وما والاه أو عالماً أو متعلماً » .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٤/٤١٢) ، وابن حبان في « صحيحه » (٧٠٩) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/٣٠٨) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٩) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١١) ، والبزار في « مسنده » (٤٤) ، والحاكم =

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يا عجباً كلَّ العجبِ للمصدِّقِ بدارِ الخلودِ وهوَ يسعىٰ لدارِ الغرورِ ! »(١) .

ورُوِيَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وقفَ علىٰ مزبلةٍ ، فقالَ : « هلمُّوا إلى الدُّنيا » ، وأخذ خرقاً قدْ بليَتْ علىٰ تلكَ المزبلةِ ، وعظاماً قد نخِرَتْ فقالَ : « هـٰذهِ الدنيا »(٢) ، وهـٰذهِ إشارةٌ إلىٰ أنَّ زينةَ الدنيا ستخلُقُ مثلَ تلكَ الخرقِ ، وأنَّ الأجسامَ التي ترىٰ بها ستصيرُ عظاماً باليةً .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الدُّنيا حلوةٌ خَضِرةٌ ، وإنَّ اللهَ مستخلفُكُمْ فيها فناظرٌ كيفَ تعملونَ ، إنَّ بني إسرائيلَ لمَّا بُسِطَتْ لهمُ الدُّنيا ومُهِّدَتْ . تاهُوا في الحليةِ والنِّساءِ والطِّيبِ والثِّيابِ »(٣) .

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (لا تتخذُوا الدُّنيا ربّاً فتتخذَكُمُ الدُّنيا عبيداً ، اكنزُوا كنزَكُمْ عندَ مَنْ لا يضيِّعُهُ ؛ فإنَّ صاحبَ كنزِ الدُّنيا يخافُ عليهِ الآفةَ ، وصاحبَ كنزِ اللهِ لا يخافُ عليهِ الآفةَ)(٤) .

= في « المستدرك » (٣٠٩/٤) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٣٩) .

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٥٠٣) ، وابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١٤) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٥٦) عن أبي جعفر عبد الله بن مسور مرسلاً .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١٩) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٩٨٨) عن أبي ميمون اللخمي مرسلاً .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٠) عن الحسن مرسلاً ، ورواه بنحوه مسلم (٢٧٤٢) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣١) .

وقالَ عليهِ السلامُ : (يا معشرَ الحواريِّينَ ، إنِّي قدْ كبَبتُ لكُمُ الدُّنيا علىٰ وجهِها ، فلا تنعشُوها بعدي ؛ فإنَّ مِنْ خُبْثِ الدُّنيا أنْ عُصيَ اللهُ فيها ، وإنَّ مِنْ خُبْثِ الدُّنيا أنَّ الآخرةَ لا تُدرَكُ إلاَّ بتركِها ، ألاَ فاعبرُوا الدُّنيا ولا تعمرُوها ، واعلمُوا أنَّ أصلَ كلِّ خطيئةٍ حبُّ الدُّنيا ، وربَّ شهوةٍ أورثَتْ أهلَها حزناً طويلاً)[1] .

وقالَ عليهِ السلامُ أيضاً : (بطحتُ لكُمُ الدُّنيا وجلستُمْ علىٰ ظهرِها ، فلا ينازعُكُمْ فيها إلاَّ الملوكُ والنساءُ ، فأمَّا الملوكُ . . فلا تنازعوهُمُ الدُّنيا ؛ فإنَّهُمْ لنْ يَعرِضُوا لكُمْ ما تركتُموهُمْ ودنياهُمْ ، وأمَّا النساءُ . . فاتقوهنَّ بالصومِ والصلاةِ)[2] .

وقالَ عليهِ السلامُ أيضاً : (الدُّنيا طالبةٌ ومطلوبةٌ ، فطالبُ الآخرةِ تطلبُه الدُّنيا ، حتَّىٰ يستكملَ فيها رزْقَهُ ، وطالبُ الدُّنيا تطلبُهُ الآخرةُ حتَّىٰ يجيءَ الموتُ فيأخذَهُ بعنقِهِ)[3] .

وقالَ موسىٰ بنُ يسارٍ : قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ جلَّ

---

(1) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/ ١٤٥) .
(2) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣٤) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص١٧٠) .
(3) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣٥) ، ونحوه رواه الطبراني في « الكبير » (١٠/ ١٦٢) مرفوعاً من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

ثناؤُهُ لمْ يَخلُقْ خلقاً أبغضَ إليهِ مِنَ الدُّنيا ، وإنَّهُ منذُ خلقَها لمْ ينظرْ إليها »[1] .

ورُوِيَ أنَّ سليمانَ بنَ داوودَ عليهما السلامُ مرَّ في موكبِهِ والطيرُ تظلُّهُ ، والجنُّ والإنسُ عنْ يمينِهِ ويسارِهِ ، قالَ : فمرَّ بعابدٍ مِنْ بني إسرائيلَ ، فقالَ : واللهِ يا بنَ داوودَ ؛ لقدْ آتاكَ اللهُ ملكاً عظيماً ، قالَ : فسمعَ سليمانُ فقالَ : لتسبيحةٌ في صحيفةِ مؤمنٍ خيرٌ ممَّا أُعطيَ ابنُ داوودَ ؛ فإنَّ ما أُعطيَ ابنُ داوودَ يذهبُ ، والتسبيحةُ تبقى[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ألهاكُمُ التَّكاثرُ ، يقولُ ابنُ آدمَ : مالي مالي ، وهلْ لكَ مِنْ مالِكَ إلاَّ ما أكلتَ فأفنيتَ ، أوْ لبستَ فأبليتَ ، أوْ تصدَّقتَ فأمضَيتَ ؟ »[3] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الدُّنيا دارُ مَنْ لا دارَ لهُ ، ومالُ مَنْ لا مالَ لهُ ، ولها يجمعُ مَنْ لا عقلَ لهُ ، وعليها يعادي مَنْ لا علمَ عندَهُ ، وعليْها يحسدُ مَنْ لا فقْهَ لهُ ، ولها يسعىٰ مَنْ لا يقينَ لهُ »[4] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٤٠) من حديث ابن يسار بلاغاً .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٤٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣١٣) .
(٣) رواه مسلم (٢٩٥٨) .
(٤) رواه أحمد في « المسند » (٦/ ٧١) من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً ، مقتصراً علىٰ قوله صلى الله عليه وسلم : « الدنيا دار من لا دار له ، ولها يجمع من لا عقل له » ، وزاد ابن أبي الدنيا في روايته له في « ذم الدنيا » (١٨٢) : « ومال من لا مال له » .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أصبحَ والدُّنيا أكبرُ همِّهِ . . فليسَ مِنَ اللهِ في شيءٍ ، وألزمَ اللهُ قلبَهُ أربعَ خصالٍ : همّاً لا ينقطعُ عنهُ أبداً ، وشغلاً لا يتفرَّغُ مِنْهُ أبداً ، وفقراً لا يبلغُ غناهُ أبداً ، وأملاً لا يبلغُ منتهاهُ أبداً »(١) .

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ لي رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يا أبا هريرةَ ؛ ألاَ أريكَ الدُّنيا جميعاً بما فيها ؟ » فقلتُ : بلىٰ يا رسولَ اللهِ ، فأخذَ بيدي ، وأتىٰ بي وادياً مِنْ أوديةِ المدينةِ ، فإذا مزبلةٌ فيها رؤوسُ أناسٍ ، وعذراتٌ ، وخرقٌ ، وعظامٌ ، ثمَّ قالَ : « يا أبا هريرةَ ؛ هٰذهِ الرؤوسُ كانَتْ تحرصُ كحرصِكُمْ ، وتأملُ آمالَكُمْ ، ثمَّ هيَ اليومَ عظامٌ بلا جلدٍ ، ثمَّ هيَ صائرةٌ رماداً ، وهٰذهِ العذِراتُ هيَ ألوانُ أطعمتِهِمْ ، اكتسبُوها مِنْ حيثُ اكتسبُوها ، ثمَّ قذفوها مِنْ بطونِهِمْ ، فأصبحَتْ والنَّاسُ يتحامونَها ، وهٰذهِ الخِرَقُ الباليةُ كانَتْ رياشَهُمْ ولباسَهُمْ ، فأصبحَتْ والرِّياحُ تصفِقُها ، وهٰذهِ العظامُ عظامُ دوابِّهِمُ التي كانُوا ينتجعُونَ عليها أطرافَ البلادِ ، فمَنْ كانَ باكياً على الدُّنيا . . فليبكِ » ، قالَ : فما برحنا حتَّى اشتدَّ بكاؤُنا(٢) .

---

(١) رواه الديلمي في « مسند الفردوس » (٥٨١٨) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما ، وبنحوه رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣٥) عن شعيب بن صالح قال : (قال عيسى ابن مريم عليه السلام : ما سكنت الدنيا قلب عبد إلا وأليط قلبه منها بثلاث . . .) ، فذكرها ، ولم يذكر الأولىٰ من المثبت .

(٢) قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٨/ ٨٤) : (قال العراقي : لم أجد له أصلاً ، قلت : لكن أورده صاحب « القوت » عن الحسن مرسلاً) ، وأورده الحافظ عبد الحق الإشبيلي في « العاقبة في ذكر الموت » (٥٠) .

ويُروىٰ : أَنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لمَّا أهبطَ آدمَ إلى الأرضِ.. قالَ لهُ : ابنِ للخرابِ ، ولِدْ للفناءِ[1] .

وقالَ داوودُ بنُ هلالٍ : (مكتوبٌ في صحفِ إبراهيمَ عليهِ السلامُ : يا دنيا ؛ ما أهونَكِ على الأبرارِ الذينَ تصنَّعتِ لهُمْ وتزيَّنتِ لهُمْ ، إنِّي قذفتُ في قلوبِهِمْ بغضَكِ والصدودَ عنكَ ، وما خلقتُ خلقاً أهونَ عليَّ منكِ ، كلُّ شأنِكِ صغيرٌ ، وإلى الفناءِ تصيرينَ ، قضيتُ عليكِ يومَ خلقتُكِ ألاَّ تدومي لأحدٍ ، ولا يدومَ لكِ أحدٌ ، وإنْ بخلَ بكِ صاحبُكِ وشحَّ عليكِ ، طوبىٰ للأبرارِ الذين أطلعُوني مِنْ قلوبِهمْ على الرضا ، ومِنْ ضميرِهِمْ على الصِّدقِ والاستقامةِ ، طوبىٰ لهُمْ ما لهُمْ عندي مِنَ الجزاءِ إذا وفدُوا إليَّ مِنْ قبورِهِمُ ، النورُ يسعىٰ أمامَهُمْ ، والملائكةُ حافُّونَ بهِمْ ، حتَّىٰ أبلِّغَهُمْ ما يرجونَ مِنْ رحمتي)[2] .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الدُّنيا موقُوفةٌ بينَ السَّماءِ والأرضِ منذُ خلقَها اللهُ تعالىٰ لا ينظرُ إليها ، وتقولُ يومَ القيامةِ : يا ربِّ ؛ اجعلْني لأدنىٰ أوليائِكَ نصيباً اليومَ ، فيقولُ : اسكتي يا لا شيءَ ، إنِّي لمْ أرضَكِ لهُمْ في الدُّنيا ، أأرضاكِ لهُمُ اليومَ ؟! »[3] .

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٢٥٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/٢٨٦) عن مجاهد أو غيره .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١١٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٠/١٥٨) .
(٣) كذا في « القوت » (١/٢٤٤) ، وبنحوه رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/٧) عن =

ورُوِيَ في أخبارِ آدمَ عليهِ السلامُ : أنَّهُ لمَّا أكلَ مِنَ الشجرةِ . . تحركَتْ معدتُهُ لخروجِ الثُّفْلِ ، ولمْ يكنْ ذلكَ مجعولاً في شيءٍ مِنْ أطعمةِ الجنةِ إلا في هـٰذهِ الشجرةِ ، فلذلكَ نُهيا عنْ أكلِها ، قالَ : فجعلَ يدورُ في الجنَّةِ ، فأمرَ اللهُ تعالىٰ ملَكاً يخاطبُهُ ، فقالَ لهُ : قلْ لهُ : أيَّ شيءٍ تريدُ ؟ قالَ آدمُ : أريدُ أنْ أضعَ ما في بطني مِنَ الأذىٰ ، فقيلَ للملكِ : قلْ لهُ : في أيِّ مكانٍ تضعُهُ ؟! على الفُرُشِ ؟! أمْ على السُّرُرِ ؟! أمْ على الأنهارِ ؟! أمْ تحتَ ظلالِ الأشجارِ ؟! هلْ ترىٰ هـٰهنا موضعاً يصلحُ لذلكَ؟! ولكنِ اهبطْ إلى الدُّنيا[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ليجيئَنَّ أقْوامٌ يومَ القيامةِ وأعمالُهمْ كجبالِ تهامةَ ، فيُؤمرُ بِهِمْ إلى النَّارِ » ، قالُوا : يا رسولَ اللهِ ؛ مصلينَ ؟ قالَ : « نعمْ ، كانُوا يصلُّونَ ويصومُونَ ، ويأخذونَ هنةً مِنَ الليلِ ، فإذا عرضَ لهُمْ شيءٌ مِنَ الدُّنيا . . وثبُوا عليهِ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في بعضِ خطبِهِ : « المؤمنُ بينَ مخافتينِ ؛

= علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وروى ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣٦٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه : (الدنيا موقوفة ما بين السماء والأرض ، كالشنِّ البالي ، تنادي ربها منذ يوم خلقها إلىٰ يوم يفنيها : يا رب ، يا رب ؛ لم تبغضني ؟ يا رب ، يا رب ؛ لم تبغضني ؟ فيقول لها : اسكتي يا لا شيء ، اسكتي يا لا شيء) .

(١) قوت القلوب (١/ ٢٥٤) .

(٢) رواه ابن الأعرابي في « معجمه » (١٨٦٥) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٨٨٧٥) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ١٧٧) عن سالم مولىٰ أبي حذيفة رضي الله عنه ، والهنة هنا : القليل .

بينَ أجلٍ قدْ مضىٰ لا يدري ما اللهُ صانعٌ فيهِ ، وبينَ أجلٍ قدْ بقيَ لا يدري ما اللهُ قاضٍ فيهِ ، فليتزوَّدِ العبدُ مِنْ نفسِهِ لنفسِهِ ، ومِنْ دنياهُ لآخرتِهِ ، ومِنْ حياتِهِ لموتِهِ ، ومِنْ شبابِهِ لهرمِهِ ؛ فإنَّ الدُّنيا خُلِقَتْ لكُمْ ، وأنتُمْ خُلقتُمْ للآخرةِ ، والذي نفسي بيدِهِ ؛ ما بعدَ الموتِ مِنْ مستعتبٍ ، ولا بعدَ الدُّنيا مِنْ دارٍ إلا الجنَّةُ أوِ النَّارُ »[١] .

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (لا يستقيمُ حبُّ الدُّنيا والآخرةِ في قلبِ مؤمنٍ ، كما لا يستقيمُ الماءُ والنارُ في إناءٍ واحدٍ)[٢] .

ويُروىٰ أنَّ جبريلَ عليهِ السلامُ قالَ لنوحٍ عليهِ السَّلامُ : يا أطولَ الأنبياءِ عمراً ؛ كيفَ وجدتَ الدُّنيا ؟ قالَ : كدارٍ لها بابانِ ، دخلتُ مِنْ أحدِهِما ، وخرجتُ مِنَ الآخرِ[٣] .

وقيلَ لعيسىٰ عليهِ السَّلامُ : لوِ اتخذتَ بيتاً يكُنُّكَ ، قالَ : يكفينا خُلْقانُ مَنْ كانَ قبلَنا[٤] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (١٩٠) عن الحسن مرسلاً ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٩٧) عن الحسن عن بعض الصحابة مرفوعاً ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٤٢٦١) من حديث جابر رضي الله عنه .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٧٦) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٢٠٠) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٢٩) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦٢/٢٥٧) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١٢٩) .

وقالَ نبيُّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « احذرُوا الدُّنيا ؛ فإنَّها أسحرُ مِنْ هاروتَ وماروتَ »[1] .

وعنِ الحسنِ قالَ : خرجَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ذاتَ يومٍ علىٰ أصحابِهِ فقالَ : « هلْ منكُمْ مَنْ يريدُ أنْ يذهبَ اللهُ عنهُ العمىٰ ويجعلَهُ بصيراً ؟ ألاَ إنَّهُ مَنْ رغِبَ في الدُّنيا وطالَ أملُهُ فيها . . أعمى اللهُ قلبَهُ علىٰ قدْرِ ذلكَ ، ومَنْ زهدَ في الدُّنيا وقصُرَ أملُهُ فيها . . أعطاهُ اللهُ علماً بغيرِ تعلُّمٍ ، وهدىً بغيرِ هدايةٍ ، ألا إنَّهُ سيكونُ بعدَكُمْ قومٌ لا يستقيمُ لهُمُ الملكُ إلاَّ بالقتلِ والتَّجبُّرِ ، ولا الغنىٰ إلاَّ بالفخرِ والبُخْلِ ، ولا المحبَّةُ إلاَّ باتِّباعِ الهوىٰ ، ألاَ فمَنْ أدركَ ذلكَ الزَّمانَ منكُمْ فصبرَ للفقرِ وهوَ يقدِرُ على الغنىٰ ، وصبرَ للبغضاءِ وهوَ يقدِرُ على المحبَّةِ ، وصبرَ على الذُّلِّ وهوَ يقدِرُ على العزِّ ، لا يريدُ بذلكَ إلا وجهَ اللهِ تعالىٰ . . أعطاهُ اللهُ عزَّ وجلَ ثوابَ خمسينَ صديقاً »[2] .

ورُوِيَ أنَّ عيسىٰ عليهِ السلامُ اشتدَّ بهِ المطرُ والرعدُ والبرقُ يوماً ، فجعلَ يطلبُ شيئاً يلجأُ إليهِ فرُفعَتْ لهُ خيمةٌ مِنْ بعيدٍ فأتاها ؛ فإذا فيها امرأةٌ ، فحادَ عنها ؛ فإذا هوَ بكهفٍ في جبلٍ ، فأتاهُ ؛ فإذا فيهِ أسدٌ ، فوضعَ يدَهُ عليهِ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١٣٢) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٢٢) عن أبي الدرداء الرهاوي .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (١٠٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/٣١٢) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٩٨) .

وقالَ : إلٰهي ؛ جعلتَ لكلِّ شيءٍ مأوىً ، ولم تجعلْ لي مأوىً ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : مأواكَ في مستقرٍّ مِنْ رحمتي ، لأزوِّجنَّكَ يومَ القيامةِ مئةَ حوراءَ خلقتُها بيدي ، ولأطعمنَّ في عُرْسِكَ أربعةَ آلافِ عامٍ ، يومٌ منها كعمرِ الدُّنيا ، ولآمرنَّ منادياً ينادي : أينَ الزهادُ في الدُّنيا ؟ زورُوا عرسَ الزاهدِ عيسى ابنِ مريمَ[(1)] .

وقالَ عيسى ابنُ مريمَ عليهِ السلامُ : (ويلٌ لصاحبِ الدُّنيا ، كيفَ يموتُ ويتركُها وما فيها ، ويأمنُها وتغرُّهُ ، ويثقُ بها وتخذُلُهُ ، ويلٌ للمغترِّينَ ، كيفَ أرتْهُمْ ما يكرهونَ ، وفارقَهُمْ ما يحبُّونَ ، وجاءَهُمْ ما يُوعدُونَ ، وويلٌ لمَنِ الدُّنيا همُّهُ ، والخطايا عملُهُ ، كيفَ يُفتضَحُ غداً بذنبِهِ)[(2)] .

وقيلَ : (أوحى اللهُ عزَّ وجلَّ إلىٰ موسىٰ عليهِ السلامُ : يا موسىٰ ؛ ما لكَ ولدارِ الظالمينَ ؟! إنَّها ليسَتْ لكَ بدارٍ ، أخرِجْ منها همَّكَ ، وفارقْها بعقلِكَ ، فبئسَتِ الدارُ هيَ ، إلا لعاملٍ يعملُ فيها فنعمَتِ الدارُ هيَ ، يا موسىٰ ؛ إنِّي مرصدٌ للظالمِ حتَّىٰ آخذَ منهُ للمظلومِ)[(3)] .

ورُويَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بعثَ أبا عبيدةَ بنَ الجراحِ ، فجاءَهُ بمالٍ مِنَ البحرينِ ، فسمعَتِ الأنصارُ بقدومِ أبي عبيدةَ ، فوافَوا صلاةَ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (١١١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٧/ ٤٢١) عن محمد بن سباع النميري .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٩٢) عن عبيد الله بن مسلم .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١٨٣) عن عبادة أبي مروان .

الفجرِ معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فلمَّا صلَّىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . انصرفَ ، فتعرَّضُوا لهُ ، فتبسَّمَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حينَ رآهُمْ ، ثمَّ قالَ : « أظنُّكُمْ سمعتُمْ أنَّ أبا عبيدةَ قدِمَ بشيءٍ ؟ » قالُوا : أجلْ يا رسولَ اللهِ ، قالَ : « فأبشرُوا وأمِّلُوا ما يسرُّكُمْ ، فواللهِ ؛ ما الفقرَ أخشىٰ عليكُمْ ، ولكنِّي أخشىٰ عليكُمْ أن تُبسطَ عليكُمُ الدُّنيا كما بُسطَتْ علىٰ مَنْ كانَ قبلَكُمْ ، فتنافسُوها كما تنافسُوها ، فتُهلكَكُمْ كما أهلكَتْهُمْ »(١) .

وقالَ أبو سعيدٍ الخدريُّ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ أكثرَ ما أخافُ عليكمْ ما يخرجُ اللهُ لكمْ مِنْ بركاتِ الأرضِ » ، فقيلَ : ما بركاتُ الأرضِ ؟ قالَ : « زهرةُ الدُّنيا »(٢) .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تشغلُوا قلوبَكُمْ بذكرِ الدُّنيا »(٣) ، فنهىٰ عنْ ذكرِها فضلاً عَنْ إصابةِ عينِها .

وقالَ عمارُ بنُ سعيدٍ : مرَّ عيسىٰ عليهِ السلامُ بقريةٍ ؛ فإذا أهلُها موتىٰ في الأفنيةِ والطرقِ ، فقالَ لهمْ : يا معشرَ الحواريِّينَ ؛ إنَّ هؤلاءِ ماتُوا عنْ

---

(١) رواه البخاري (٣١٥٨) ، ومسلم (٢٩٦١) .

(٢) رواه البخاري (٢٨٤٢) ، ومسلم (١٠٥٢) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٦٤) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠١٠٠) عن محمد بن النضر الحارثي مرسلاً ، قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٨/ ٨٧) : (لأن الله يغار علىٰ قلب عبده أن يشتغل بغيره) .

سخطةٍ ، ولوْ ماتُوا عنْ غيرِ ذلكَ . . لتدافنُوا ، فقالُوا : يا روحَ اللهِ ؛ وددنا أنَّا علمنا خبرَهُم ، فسألَ ربَّهُ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : إذا كانَ الليلُ . . فنادِهِمْ يجيبوكَ ، فلمَّا كانَ الليلُ . . أشرفَ علىٰ نشْزٍ ، ثمَّ نادىٰ : يا أهلَ القريةِ ؛ فأجابَهُ مجيبٌ : لبَّيكَ يا روحَ اللهِ ؛ فقالَ : ما حالُكُمْ ؟ وما قصَّتُكُمْ ؟ قالوا : بتنا في عافيةٍ ، وأصبحنا في الهاويةِ ، قالَ : وكيفَ ذاكَ ؟ قالَ : بحبِّنا الدُّنيا ، وطاعتِنا أهلَ المعاصي ، قالَ : وكيفَ كانَ حبُّكُمْ للدُّنيا ؟ قالَ : حبُّ الصبيِّ لأمِّهِ ؛ إذا أقبلَتْ . . فرحنا ، وإذا أدبرَتْ . . حزنَّا وبكينا عليها ، قالَ : فما بالُ أصحابِكَ لمْ يجيبوني ؟ قالَ : لأنَّهُمْ ملجمونَ بلُجُمٍ مِنْ نارٍ بأيدي ملائكةٍ غلاظٍ شدادٍ ، قالَ : فكيفَ أجبتَني أنتَ مِنْ بينِهِمْ ؟ قالَ : لأنِّي كنتُ فيهِمْ ولمْ أكنْ منهُمْ ، فلمَّا نزلَ بهِمُ العذابُ . . أصابَني معَهُمْ ، فأنا معلَّقٌ علىٰ شفيرِ جهنَّمَ ، لا أدري أنجو مِنْها أمْ أُكبكبُ فيها ، فقالَ المسيحُ للحواريِّينَ : لأكلُ خبزِ الشعيرِ بالملحِ الجريشِ ، ولبسُ المسوحِ ، والنومُ على المزابلِ . . كثيرٌ معَ عافيةِ الدُّنيا والآخرةِ[1] .

وقالَ أنسٌ : كانَتْ ناقةُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ العضباءُ لا تُسبَقُ ، فجاءَ أعرابيٌّ علىٰ قَعُودٍ فسبقَها ، فشقَّ ذلكَ على المسلمينَ ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّه حقٌّ على اللهِ ألاَّ يرفعَ شيئاً مِنَ الدُّنيا إلاَّ وضعَهُ »[2] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٨٢) ، وفي « الزهد » (٢٩٨) .
(٢) رواه البخاري (٢٨٧٢) ، قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٨/ ٨٨) : (ووجد =

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (مَنْ ذا الذي يبني علىٰ موجِ البحرِ داراً ؟! تلكُمُ الدنيا ، فلا تتَّخذُوها قراراً)[1] .

وقيلَ لعيسىٰ عليهِ السلامُ : علِّمْنا عملاً واحداً يحبُّنا اللهُ عليهِ ، قالَ : أبغضُوا الدُّنيا . . يحبَّكُمُ اللهُ تعالىٰ[2] .

وقالَ أبو الدرداءِ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لوْ تعلمونَ ما أعلمُ . . لضحكتُمْ قليلاً ولبكيتُمْ كثيراً ، ولهانَتْ عليكُمُ الدُّنيا ، ولآثرتُمُ الآخرةَ » ، ثمَّ قالَ أبو الدرداءِ مِنْ قبَلِ نفسِهِ : (لوْ تعلمونَ ما أعلمُ . . لخرجتُمْ إلى الصُّعُداتِ تجأرونَ وتبكونَ علىٰ أنفسِكُمْ ، ولتركتُمْ أموالَكُمْ لا حارسَ لها ، ولا راجعَ إليها إلا ما لا بدَّ لكُمْ مِنْهُ ، ولكنْ يغيبُ عنْ قلوبِكُمْ ذكرُ الآخرةِ ، وحضرَها الأملُ ، فصارَتِ الدُّنيا أملكَ بأعمالِكُمْ ، وصرتُمْ كالذينَ لا يعلمونَ ، فبعضُكُمْ شرٌّ مِنَ البهائمِ التي لا تدعُ هواها مخافةً ممَّا في عاقبتِهِ .

ما لكُمْ لا تحابُّونَ ولا تناصحونَ وأنتم إخوانٌ علىٰ دينِ اللهِ ؟! ما فرَّقَ بينَ أهوائِكُمْ إلاَّ خبثُ سرائِرِكُمْ ، ولوِ اجتمعتُمْ على البرِّ . . لتحاببتُمْ .

= بخط الكمال الدميري قال : أفادني بعض طلبة العلم أنه سمع بعض الحفاظ يقول : الأعرابي الذي جاء علىٰ قعود فسبق ناقة النبي صلى الله عليه وسلم هو جبريل عليه السلام) .

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣٧٠) عن سعيد بن عبد العزيز ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٧/ ٤٣٠) عن مجاهد .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٤١٥) عن سلم بن بشير .

ما لكُمْ تناصحونَ في أمرِ الدُّنيا ولا تناصحونَ في أمرِ الآخرةِ ؟! ولا يملكُ أحدُكُمُ النصيحةَ لمَنْ يحبُّهُ ويعينُهُ علىٰ أمرِ آخرتِهِ ، ما هـٰذا إلاَّ مِنْ قلَّةِ الإيمانِ في قلوبِكُمْ ، لوْ كنتُمْ توقنونَ بخيرِ الآخرةِ وشرِّها كما توقنونَ بالدُّنيا . . لآثرتُمْ طلبَ الآخرةِ ؛ لأنَّها أملكُ بأمورِكُمْ .

فإنْ قلتُمْ : حبُّ العاجلةِ غالبٌ . . فإنَّا نراكُمْ تدَعونَ العاجلةَ مِنَ الدُّنيا للآجلِ مِنْها ، تكُدُّونَ أنفسَكُمْ بالمشقَّةِ والاحترافِ في طلبِ أمرٍ لعلَّكُمْ لا تدركونَهُ ، فبئسَ القومُ أنتُمْ ، ما حقَّقتُمْ إيمانَكُمْ بما يُعرَفُ بهِ الإيمانُ البالغُ فيكُمْ ، فإنْ كنتُمْ في شكٍّ ممَّا جاءَ بهِ محمدٌ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . فأْتونا فلنبيِّنْ لكُمْ ، ولنريكُمْ مِنَ النورِ ما تطمئنُّ إليهِ قلوبُكُمْ ، واللهِ ؛ ما أنتُمْ بالمنقوصةِ عقولُكُمْ فنعذرَكُمْ ، إنَّكُم لتبيِّنُونَ صوابَ الرأيِ في دنياكُمْ ، وتأخذونَ بالحزمِ في أمرِكُمْ .

ما لكُمْ تفرحونَ باليسيرِ مِنَ الدُّنيا تصيبونَهُ ، وتحزنونَ على اليسيرِ مِنْها يفوتُكُمْ ؟! حتَّىٰ يتبيَّنَ ذلكَ في وجوهِكُمْ ، ويظهرَ علىٰ ألسنتِكُمْ ، وتسمُّونَها المصائبَ ، وتقيمونَ فيها المآتمَ ، وعامَّتُكُمْ قدْ تركوا كثيراً من دينِهِمْ ، ثمَّ لا يتبيَّنُ ذلكَ في وجوهِكُمْ ، ولا يتغيَّرُ حالٌ بكُمْ ، إنِّي لأرى اللهَ قدْ تبرَّأَ منكُمْ .

يلقىٰ بعضُكُمْ بعضاً بالسرورِ ، وكلُّكُمْ يكرَهُ أنْ يستقبلَ صاحبَهُ بما يكرَهُ مخافةَ أن يستقبلَهُ صاحبُهُ بمثلِهِ ، فأصبحتُمْ على الغلِّ ، ونبتَتْ مراعيكُمْ على

الدِّمنِ ، وتصافيتُمْ علىٰ رفضِ الأجلِ ، ولوددتُ أنَّ اللهَ تعالىٰ أراحَني منكُمْ ، وألحقَني بمَنْ أحبُّ رؤيتَهُ ، ولو كانَ حياً لمْ يصابرْكُمْ ، فإن كانَ فيكُمْ خيرٌ . . فقدْ أسمعتُكُمْ ، وإنْ تطلبوا ما عندَ اللهِ . . تجدُوهُ يسيراً ، وباللهِ أستعينُ علىٰ نفسي وعليكُمْ)[1] .

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (يا معشرَ الحواريِّينَ ؛ ارضَوا بدنيءِ الدُّنيا معَ سلامةِ الدِّينِ ؛ كما رضيَ أهلُ الدُّنيا بدنيءِ الدِّينِ معَ سلامةِ الدُّنيا)[2] .

وفي معناهُ قيلَ[3] : [من البسيط]

أَرَىٰ رِجالاً بِأَدْنَى ٱلدِّينِ قَدْ قَنِعُوا ... وَما أَراهُمْ رَضُوا فِي ٱلْعَيْشِ بِٱلدُّونِ

فَٱسْتَغْنِ بِٱلدِّينِ عَنْ دُنْيا ٱلْمُلُوكِ كَما ٱسْـ ... ـتَغْنَى ٱلْمُلُوكُ بِدُنْياهُمْ عَنِ ٱلدِّينِ

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (يا طالبَ الدُّنيا لِتبَرَّ ، تركُكَ للدُّنيا أبرُّ)[4] .

---

(١) رواه بتمامه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٤٢٧) ، وروى المرفوع منه البخاري (٤٦٢١) ، ومسلم (٢٣٥٩) من حديث أنس رضي الله عنه ، والصعدات : البراري والقفار . « إتحاف » (٨/ ٨٩) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٤٤٩) عن زكريا بن عدي .

(٣) البيتان متنازع في نسبتهما ، وهما مما نسب لعبد الله بن المبارك في « ديوانه » (ص ٦٩) ، ولأبي العتاهية في « عيون الأخبار » (٢/ ٣٧٣) وليسا في « ديوانه » ، ولمحمود الوراق في « ديوانه » (ص ٢٨١) ، ولإبراهيم بن أدهم في « مختصر تاريخ دمشق » (٤/ ٣٢) .

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » . « إتحاف » (٨/ ٩٠) ، والمعنىٰ : يا من يطلب الدنيا ليكون باراً ببذلها ، فهو لا يطلبها لذاتها ؛ إن تركك لها أبرّ من برّك بها .

وقالَ نبيُّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لتأتيَنَّكُمْ بعدي دنيا تأكلُ إيمانَكُمْ ؛ كما تأكلُ النَّارُ الحطبَ »(١) .

وأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ موسىٰ عليهِ السلامُ : (يا موسىٰ ؛ لا تركنَنَّ إلىٰ حبِّ الدُّنيا ؛ فإنَّكَ لنْ تأتيَني بكبيرةٍ هيَ أشدُّ عليكَ مِنْها)(٢) .

ومرَّ موسىٰ عليهِ السلامُ برجلٍ وهوَ يبكي ، ورجعَ وهوَ يبكي ، فقالَ موسىٰ : يا ربِّ ؛ عبدُكَ يبكي مِنْ مخافتِكَ ، فقالَ : يا بنَ عمرانَ ؛ لوْ نزلَ دماغُهُ معَ دموعِ عينَيهِ ، ورفعَ يديهِ حتَّىٰ تسقطا . . لمْ أغفرْ لهُ وهوَ يحبُّ الدُّنيا(٣) .

❋ ❋ ❋

الآثارُ :

قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (مَنْ جمعَ ستَّ خصالٍ . . لمْ يدعْ للجنةِ مطلباً ، ولا عنِ النارِ مهرباً : مَنْ عرفَ اللهَ فأطاعَهُ ، وعرفَ الشيطانَ فعصاهُ ، وعرفَ الحقَّ فاتبعَهُ ، وعرفَ الباطلَ فاتقاهُ ، وعرفَ الدُّنيا فرفضَها ، وعرفَ الآخرةَ فطلبَها)(٤) .

---

(١) قال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) . « إتحاف » (٨/ ٩٠) ، وروىٰ نعيم بن حماد في « الفتن » (١٢١) : عن أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه : (أبشروا بدنيا عريضة تأكل إيمانكم) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٥) بنحوه .

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » . « إتحاف » (٨/ ٩٠) .

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » . « إتحاف » (٨/ ٩٠) .

وقالَ الحسنُ : (رحمَ اللهُ أقواماً كانَتِ الدُّنيا عندَهُم وديعةً ، فأدَّوها إلىٰ مَنِ ائتمنَهُمْ عليها ، ثمَّ راحوا خِفافاً)(١) .

وقالَ أيضاً رحمهُ اللهُ : (مَنْ نافسَكَ في دينِكَ . . فنافسْهُ ، ومَنْ نافسَكَ في دنياكَ . . فألقِها في نحرِهِ)(٢) .

وقالَ لقمانُ عليهِ السلامُ لابنِهِ : (يا بنيَّ ؛ إنَّ الدُّنيا بحرٌ عميقٌ ، قدْ غرِقَ فيهِ ناسٌ كثيرٌ ، فلتكُنْ سفينتُكَ فيها تقوى اللهِ عزَّ وجلَّ ، وحشوُها الإيمانُ باللهِ عزَّ وجلَّ ، وشراعُها التوكُّلُ على اللهِ عزَّ وجلَّ ؛ لعلَّكَ تنجو ، وما أراكَ ناجياً)(٣) .

وقالَ الفضيلُ : (طالَتْ فكرتي في هٰذهِ الآيةِ : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾) .

وقالَ بعضُ الحكماءِ : (إنَّكَ لنْ تصبحَ في شيءٍ مِنَ الدُّنيا إلاَّ وقدْ كانَ لهُ أهلٌ قبلَكَ ، ويكونُ لهُ أهلٌ بعدَكَ ، وليسَ لكَ مِنَ الدُّنيا إلاَّ عشاءُ ليلةٍ وغداءُ يومٍ ، فلا تهلكْ في أكلةٍ ، وصمْ عنِ الدُّنيا ، وأفطرْ على الآخرةِ ، وإنَّ رأسَ مالِ الدُّنيا الهوىٰ ، وربحَها النارُ)(٤) .

---

(١) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٨/ ٩٠) .
(٢) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٨/ ٩١) ، وروى ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٣٥١) عنه : (إذا رأيت الرجل ينافس في الدنيا . . فنافسه في الآخرة) .
(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٥٣٧) .
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » . « إتحاف » (٨/ ٩١) .

وقيلَ لبعضِ الرهبانِ : كيفَ ترى الدَّهرَ ؟ قالَ : يخلقُ الأبدانَ ، ويجدِّدُ الآمالَ ، ويقرِّبُ المنيَّةَ ، ويبعدُ الأُمنيَّةَ ، قيلَ : فما حالُ أهلِهِ ؟ قالَ : مَنْ ظفرَ بهِ . . تعبَ ، ومَنْ فاتَهُ . . نصبَ(١) .

وفي ذلكَ قيلَ(٢) : [من الطويل]

وَمَنْ يَحْمَدِ ٱلدُّنْيا لِعَيْشٍ يَسُرُّهُ ... فَسَوْفَ لَعَمْرِي عَنْ قَلِيلٍ يَلُومُها
إِذَا أَدْبَرَتْ كانَتْ عَلَى ٱلْمَرْءِ حَسْرَةً ... وَإِنْ أَقْبَلَتْ كانَتْ كَثِيراً هُمُومُها

وقالَ بعضُ الحكماءِ : (كانَتِ الدُّنيا ولمْ أكنْ فيها ، وتذهبُ الدُّنيا ولا أكونُ فيها ، فلا أسكنُ إليها ؛ فإنَّ عيشَها نكدٌ ، وصفوَها كدرٌ ، وأهلَها مِنْها علىٰ وجَلٍ ؛ إمَّا بنعمةٍ زائلةٍ ، أوْ بليَّةٍ نازلةٍ ، أو منيَّةٍ قاضيةٍ)(٣) .

وقالَ بعضُهُمْ : (مِنْ عيبِ الدُّنيا أنَّها لا تُعطي أحداً ما يستحقُّ ، لكنَّها إمَّا أنْ تزيدَهُ ، وإمَّا أنْ تنقصَهُ)(٤) .

وقالَ سفيانُ : (أما ترى النِّعمَ كأنَّها مغضوبٌ عليها ، قدْ وُضِعتْ في غيرِ أهلِها ؟!)(٥) .

---

(١) رواه الخرائطي في « اعتلال القلوب » (٩٠) دون السؤال عن حال أهله ، ونضب : غار وذهب ، وفي بعض النسخ : (نصب) ولا يبعد .

(٢) البيتان لسيدنا علي في « ديوانه » الموسوم بـ«أنوار العقول لوصي الرسول» (ص ٢٢٦).

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ١٣٤) عن الحسن ضمن رسالة بعثها لعمر بن عبد العزيز .

(٤) أورده الآبي في « نثر الدر » (٧/ ٦٧) لبزرجمهر .

(٥) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (١٠/ ٣٧٥) ، وسفيان هو ابن عيينة .

وقالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ : (مَنْ طلبَ الدُّنيا على المحبَّة لها . . لم يُعْطَ مِنْها شيئاً إلاَّ أرادَ أكثرَ ، ومَنْ طلبَ الآخرةَ على المحبَّةِ لها . . لمْ يُعْطَ مِنها شيئاً إلاَّ أرادَ أكثرَ ، وليسَ لهـٰذا غايةٌ ولا لهـٰذا غايةٌ)[١] .

وقالَ رجلٌ لأبي حازمٍ : أشكُو إليكَ حبَّ الدُّنيا وليسَتْ لي بدارٍ ، فقالَ : انظرْ ما آتاكَ اللهُ عزَّ وجلَّ مِنْها ؛ فلا تأخذْهُ إلا مِنْ حِلِّهِ ، ولا تضعْهُ إلا في حقِّهِ ، ولا يضرُّكَ حبُّ الدُّنيا[٢] .

وإنَّما قالَ هـٰذا لأنَّهُ لوْ آخذَ نفسَهُ بذلكَ . . لأتعبَهُ ، حتَّىٰ يتبرَّمَ بالدُّنيا ، ويطلبَ الخروجَ مِنْها .

وقالَ يحيىٰ بنُ معاذٍ : (الدُّنيا حانوتُ الشيطانِ ، فلا تسرِقْ مِنْ حانوتِهِ شيئاً فيجيءَ في طلبِهِ فيأخذَكَ)[٣] .

وقالَ الفضيلُ : (لوْ كانَتِ الدُّنيا مِنْ ذهبٍ يفنىٰ والآخرةُ مِنْ خزفٍ يبقىٰ . . لكانَ ينبغي لنا أنْ نختارَ خزفاً يبقىٰ علىٰ ذهبٍ يفنىٰ ، فكيفَ وقدِ اخترنا خزفاً يفنىٰ علىٰ ذهبٍ يبقى ؟!)[٤] .

وقالَ أبو حازمٍ : (إيَّاكُمْ والدُّنيا ؛ فإنَّهُ بلغَني أنَّهُ يُوقفُ العبدُ يومَ القيامةِ

---

(١) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » . « إتحاف » (٨/ ٩١) .
(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (٧٠٢١) .
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » . « إتحاف » (٨/ ٩٢) .
(٤) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » . « إتحاف » (٨/ ٩٢) .

إذا كانَ معظِّماً للدُّنيا ، فيُقالُ : هـٰذا عظَّمَ ما حقَّرَهُ اللهُ)[1] .

وقالَ ابنُ مسعودٍ : (ما أصبحَ أحدٌ مِنَ النَّاسِ إلا وهوَ ضيفٌ ، ومالُهُ عاريةٌ ، والضيفُ مرتحلٌ ، والعاريةُ مردودةٌ)[2] .

وفي ذلكَ قيلَ[3] : [من الطويل]

وَما ٱلْمالُ وَٱلأَهْلُونَ إِلاَّ وَدِيعَةٌ ... وَلا بُدَّ يَوْماً أَنْ تُرَدَّ ٱلْوَدائِعُ

وزارَ رابعةَ أصحابُها ، فذكرُوا الدُّنيا ، فأقبلُوا علىٰ ذمِّها ، فقالَتِ : اسكتُوا عنْ ذكرِها ، فلولا موقعُها مِنْ قلوبِكُمْ . . ما أكثرتُمْ مِنْ ذكرِها ، ألا مَنْ أحبَّ شيئاً . . أكثرَ مِنْ ذكرِهِ[4] .

وقيلَ لإبراهيمَ بنِ أدهمَ : كيفَ أنتَ ؟ فقالَ[5] : [من الطويل]

نُرَقِّعُ دُنْيانا بِتَمْزِيقِ دِينِنا ... فَلا دِينُنا يَبْقَىٰ وَلا ما نُرَقِّعُ

فَطُوبَىٰ لِعَبْدٍ آثَرَ ٱللهَ رَبَّهُ ... وَجادَ بِدُنْياهُ لِما يَتَوَقَّعُ

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » ، وأبو نعيم في « الحلية » . « إتحاف » (٨/ ٩٢) .

(٢) رواه الطبراني في « الكبير » (٩/ ١٠١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ١٣٤) .

(٣) البيت للبيد في « ديوانه » (ص ١٧٠) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٤٦٤) .

(٥) البيت الأول ينسب إلىٰ عدي بن زيد وهو في « ديوانه » (ص ٢٠٠) ، وإلىٰ عبد الله بن المبارك في « ديوانه » (ص ٨٤) ، وانظر « بهجة المجالس » (٣/ ٢٨٩) .

وَقِيلَ[1] : [من الطويل]

أَرَىٰ طالِبَ ٱلدُّنْيا وَإِنْ طالَ عُمْرُهُ ... وَنالَ مِنَ ٱلدُّنْيا سُرُوراً وَأَنْعُما
كَبانٍ بَنَىٰ بُنْيانَهُ فَأَقامَهُ ... فَلَمَّا ٱسْتَوَىٰ ما قَدْ بَناهُ تَهَدَّما

وقيلَ[2] : [من الوافر]

هَبِ ٱلدُّنْيا تُساقُ إِلَيْكَ عَفْواً ... أَلَيْسَ مَصِيرُ ذاكَ إِلَى ٱنْتِقالِ
وَما دُنْياكَ إِلاَّ مِثْلُ فَيْءٍ ... أَظَلَّكَ ثُمَّ آذَنَ بِٱلزَّوالِ

وقالَ لقمانُ لابنِهِ : (يا بنيَّ ؛ بعْ دُنياكَ بآخرتِكَ تربحْهُما جميعاً ، ولا تبعْ آخرتَكَ بدنياكَ فتخسرَهُما جميعاً)[3] .

وقالَ مطرِّف بنُ عبدِ اللهِ بنِ الشِّخِّيرِ : (لا تنظرْ إلىٰ خفضِ عيشِ الملوكِ ولينِ رياشِهِمْ ، ولكنِ انظرْ إلىٰ سرعةِ ظعنِهِمْ وسوءِ منقلبِهِمْ)[4] .

وقالَ ابنُ عباسٍ : (إنَّ اللهَ تعالىٰ جعلَ الدُّنيا ثلاثةَ أجزاءٍ ؛ جزءٌ للمؤمنِ ، وجزءٌ للمنافقِ ، وجزءٌ للكافرِ ؛ فالمؤمنُ يتزوَّدُ ، والمنافقُ يتزيَّنُ ، والكافرُ يتمتَّعُ)[5] .

---

(١) شرح نهج البلاغة (١٩/ ٢٩١) .
(٢) البيتان لأبي العتاهية . انظر « ديوانه » (ص ٢٩٧)، و«شرح نهج البلاغة» (١٩/ ٢٩١).
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » . « إتحاف » (٨/ ٩٢) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ١٤٣) من قول الحسن .
(٤) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٣٩٤) .
(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » . « إتحاف » (٨/ ٩٣) .

وقالَ بعضُهُمْ : (الدُّنيا جيفةٌ ، فمَنْ أرادَ منْها شيئاً .. فليصبرْ على معاشرةِ الكلابِ)(١) .

وفي ذلكَ قيلَ(٢) : [من السريع]

يا خاطِبَ ٱلدُّنْيا إِلَىٰ نَفْسِها		تَنَحَّ عَنْ خِطْبَتِها تَسْلَمِ
إِنَّ ٱلَّتِي تَخْطُبُ غَدَّارَةٌ		قَرِيبَةُ ٱلْعُرْسِ مِنَ ٱلْمَأْتَمِ

وقالَ أبو الدرداءِ : (مِنْ هوانِ الدُّنيا على اللهِ أنَّهُ لا يُعصىٰ إلاَّ فيها ، ولا يُنالُ ما عندَهُ إلاَّ بتركِها)(٣) .

وفي ذلكَ قيلَ(٤) : [من الطويل]

إِذا ٱمْتَحَنَ ٱلدُّنْيا لَبِيبٌ تَكَشَّفَتْ		لَهُ عَنْ عَدُوٍّ فِي ثِيابِ صَدِيقِ

وقيلَ أيضاً(٥) : [من البسيط]

يا راقِدَ ٱللَّيْلِ مَسْرُوراً بِأَوَّلِهِ		إِنَّ ٱلْحَوادِثَ قَدْ يَطْرُقْنَ أَسْحارا
أَفْنَى ٱلْقُرُونَ ٱلَّتِي كانَتْ مُنَعَّمَةً		كَرُّ ٱلْجَدِيدَيْنِ إِقْبالاً وَإِدْبارا
كَمْ قَدْ أَبادَتْ صُروفُ ٱلدَّهْرِ مِنْ مَلِكٍ		قَدْ كانَ فِي ٱلدَّهْرِ نَفَّاعاً وَضَرّارا
يا مَنْ يُعانِقُ دُنْيا لا بَقاءَ لَها		يُمْسِي وَيُصْبِحُ فِي دُنْياهُ سَفّارا

---

(١) كذا في « الحلية » (٨/ ٢٣٨) عن علي كرم الله وجهه .
(٢) البيتان لأبي العتاهية في « ديوانه » (ص ٦٤٤) .
(٣) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٣٠٩) عن بعض الحكماء .
(٤) البيت لأبي نواس في « ديوانه » (ص ٧١٤) .
(٥) الأبيات لمحمد بن حازم الباهلي في « ديوانه » (ص ٥٦) .

هَلاَّ تَرَكْتَ مِنَ ٱلدُّنْيا مُعانَقَةً حَتَّىٰ تُعانِقَ فِي ٱلْفِرْدَوسِ أَبْكارا
إِنْ كُنْتَ تَبْغِي جِنانَ ٱلْخُلْدِ تَسْكُنُها فَيَنْبَغِـي لَـكَ أَلاَّ تَـأْمَـنَ ٱلنَّـارا

وقالَ أبو أمامةَ الباهليُّ رضيَ اللهُ عنهُ : لمَّا بُعِثَ محمدٌ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . أتَتْ إبليسَ جنودُهُ ، فقالُوا : قدْ بُعِثَ نبيٌّ وأُخرجَتْ أمَّةٌ ، قالَ : يحبُّونَ الدُّنيا ؟ قالُوا : نعمْ ، قالَ : لئنْ كانُوا يحبُّونَها . . ما أبالي ألاَّ يعبدُوا الأوثانَ ، وأنا أغدو عليهِمْ وأَروحُ بثلاثٍ : أخذُ المالِ مِنْ غيرِ حقِّه ، وإنفاقُهُ في غيرِ حقِّهِ ، وإمساكُهُ عنْ حقِّهِ ، والشرُّ كلُّهُ لهـٰذا تبع[١] .

وقالَ رجلٌ لعليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ صفْ لنا الدُّنيا ، قالَ : وما أصفُ لكَ مِنْ دارٍ مَنْ صحَّ فيها . . ما أَمِنَ ، ومنْ سقمَ فيها . . ندِمَ ، ومَنِ افتقرَ فيها . . حزِنَ ، ومَنِ استغنىٰ فيها . . افتُتِنَ ، في حلالِها الحسابُ ، وفي حرامِها العقابُ ، ومتشابهِها العتابُ[٢] .

وقيلَ لهُ ذلكَ مرةً أخرىٰ ، فقالَ : أطوِّلُ أمْ أقصِّرُ ؟ فقيلَ قصِّرْ ، فقالَ : حلالُها حسابٌ ، وحرامُها عذابٌ[٣] .

وقالَ مالكُ بنُ دينارٍ : (اتقُوا السَّحَّارةَ ؛ فإنَّها تسحرُ قلوبَ العلماءِ)[٤] ؛ يعني : الدُّنيا .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١٠) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١٨) ، وفيه : (من صح فيها . . أمن) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١٧) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣٩) .

وقالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ : (إذا كانَتِ الآخرةُ في القلبِ.. جاءَتِ الدُّنيا تزحمُها ، وإذا كانَتِ الدُّنيا في القلبِ.. لمْ تزحمْها الآخرةُ ؛ لأنَّ الآخرةَ كريمةٌ ، والدُّنيا لئيمةٌ)[1] ، وهـٰذا تشديدٌ عظيمٌ ، ونرجو أنْ يكونَ ما ذكرَهُ سيارُ بنُ الحكَمِ أصحَّ ؛ إذْ قالَ : (الدُّنيا والآخرةُ يجتمعانِ في القلبِ ، فأيُّهما غلبَ.. كانَ الآخرُ تبعاً لهُ)[2] .

وقالَ مالكُ بنُ دينارٍ : (بقدْرِ ما تحزنُ للدُّنيا يخرجُ همُّ الآخرةِ مِنْ قلبِكَ ، وبقدْرِ ما تحزنُ للآخرةِ يخرجُ همُّ الدُّنيا مِنْ قلبِكَ)[3] ، وهـٰذا اقتباسٌ ممَّا قالَهُ عليٌّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ : (الدُّنيا والآخرةُ ضرَّتانِ ، فبقدْرِ ما تُرضِي إحداهُما تسخطُ الأخرىٰ)[4] .

وقالَ الحسنُ : (واللهِ ؛ لقدْ أدركتُ أقواماً كانَتِ الدُّنيا أهونَ عليهِمْ مِنَ الترابِ الذي يمشونَ عليهِ ، ما يبالونَ أشرَّقَتِ الدُّنيا أمْ غرَّبَتْ ، ذهبَتْ إلىٰ ذا أمْ ذهبَتْ إلىٰ ذا)[5] .

وقالَ رجلٌ للحسنِ : ما تقولُ في رجلٍ آتاهُ اللهُ مالاً ؛ فهوَ يتصدَّقُ منهُ ، ويصلُ منهُ ، ويحسنُ فيهِ ، أَلَهُ أنْ يتعيَّشَ فيهِ ؟ يعني : التَّنعُّمَ ، فقالَ : لا ،

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١٢١) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١٢٠) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١٢٢) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١١٩) عن وهب بن منبه .
(٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٢٧٢) .

لوْ كانَتْ لهُ الدُّنيا كُلُّها . . ما كانَ لهُ منْها إلاَّ الكفافُ ، ويقدِّمُ ذلكَ ليومِ فقرِه[1] .

وقالَ الفضيلُ : (لوْ أنَّ الدُّنيا بحذافيرِها عُرِضَتْ عليَّ حلالاً ، لا أُحاسبُ بها في الآخرةِ . . لكنتُ أتقذَّرُها ، كما يتقذَّرُ أحدُكُمُ الجيفةَ إذا مرَّ بها أنْ تصيبَ ثوبَهُ)[2] .

وقيلَ : قدِمَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ الشامَ ، فاستقبلَهُ أبو عبيدةَ بنُ الجراحِ علىٰ ناقةٍ مخطومةٍ بحبلٍ ، فسلَّم عليهِ وسألَهُ ، ثمَّ أتىٰ منزلَهُ ، فلمْ يرَ فيهِ إلاَّ سيفَهُ وترسَهُ ورحلَهُ ، فقالَ لهُ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : لوِ اتخذتَ متاعاً ، فقالَ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ إنَّ هـٰذا يبلِّغُنا المقيلَ[3] .

وقالَ سفيانُ : (خذْ مِنَ الدُّنيا لبدنِكَ ، ومِنَ الآخرةِ لقلبِكَ)[4] .

وقالَ الحسنُ : (واللهِ ؛ لقدْ عبدَتْ بنو إسرائيلَ الأصنامَ بعدَ عبادتِهِمُ الرحمـٰنَ بحبِّهِمُ الدُّنيا)[5] .

وقالَ وهبٌ : (قرأتُ في بعضِ الكتبِ : الدُّنيا غنيمةُ الأكياسِ ، وغفلةُ الجهَّالِ ، لمْ يعرفُوها حتَّىٰ خرجُوا منْها ، فسألُوا الرَّجعةَ فلمْ يُرجعوا)[6] .

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/١٩٨) .
(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/٨٩) .
(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٥٨٦) .
(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٧/٢٠) .
(٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/١٩٨) .
(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٦٥) .

وقالَ لقمانُ لابنِهِ : (يا بنيَّ ؛ إنَّكَ استدبرتَ الدُّنيا مِنْ يومَ نزلتَها واستقبلتَ الآخرةَ ؛ فأنْتَ إلىٰ دارٍ تقربُ مِنها أقربُ مِنْ دارٍ تباعدُ عنْها)[1] .

وقالَ سعدُ بنُ مسعودٍ : (إذا رأيتَ العبدَ تزدادُ دنياهُ وتنقصُ آخرتُهُ وهوَ بهِ راضٍ . . فذلكَ المغبونُ الذي يلعبُ بوجهِهِ وهوَ لا يشعرُ)[2] .

وقالَ عمرُو بنُ العاصِ على المنبرِ : (واللهِ ؛ ما رأيتُ قوماً قطُّ أرغبَ فيما كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يزهدُ فيهِ منْكُمْ ، واللهِ ؛ ما مرَّ برسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ثلاثٌ إلاَّ والذي عليهِ أكثرُ مِنَ الذي لهُ)[3] .

وقالَ الحسنُ بعدَ أنْ تلا قولَهُ تعالىٰ : ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ : مَنْ قالَ ذا ؟ مَنْ خلقَها ومَنْ هوَ أعلمُ بها ، إيَّاكُمْ وما شغلَ مِنَ الدُّنيا ؛ فإنَّ الدُّنيا كثيرةُ الأشغالِ ، لا يفتحُ رجلٌ علىٰ نفسِهِ بابَ شغلٍ إلاَّ أوشكَ ذلكَ البابُ أنْ يفتحَ عليهِ عشرةَ أبوابٍ[4] .

وقالَ أيضاً : (مسكينٌ ابنُ آدمَ ؛ رضيَ بدارٍ حلالُها حسابٌ ، وحرامُها عذابٌ ، إنْ أخذَهُ مِنْ حلِّهِ . . حُوسبَ بنعمتِهِ ، وإنْ أخذَهُ مِنْ حرامٍ . . عُذِّبَ

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٧٣) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٩٦) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١٠٦) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١١٠) .

بهِ ، ابنُ آدمَ يستقلُّ مالَهُ ولا يستقلُّ عملَهُ ، يفرحُ بمصيبتِهِ في دينِهِ ، ويجزعُ مِنْ مصيبتِهِ في دنياهُ)(١) .

وكتبَ الحسنُ إلىٰ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ رحمةُ اللهِ عليهِما : سلامٌ عليكَ ، أمَّا بعدُ : فكأنَّكَ بآخرِ مَنْ كُتِبَ عليهِ الموتُ قدْ ماتَ ، فأجابَهُ عمرُ : سلامٌ عليكَ ، كأنَّكَ بالدُّنيا لمْ تكنْ ، وبالآخرةِ لمْ تزَلْ(٢) .

وقالَ الفضيلُ بنُ عياضٍ : (الدُّخولُ في الدُّنيا هيِّنٌ ، لكنَّ التخلُّصَ مِنْها شديدٌ)(٣) .

وقالَ بعضُهُمْ : (عجباً لمَنْ يعرفُ أنَّ الموتَ حقٌّ كيفَ يفرحُ ؟! وعجباً لمَنْ يعلمُ أنَّ النارَ حقٌّ كيفَ يضحكُ ؟! وعجباً لمَنْ يرىٰ تقلُّبَ الدُّنيا بأهلِها كيفَ يطمئنُّ إليها ؟! وعجباً لمَنْ يعلمُ أنَّ القدَرَ حقٌّ كيفَ ينصبُ ؟!)(٤) .

وقدمَ علىٰ معاويةَ رضيَ اللهُ عنهُ رجلٌ مِنْ نجرانَ عمرُهُ مئتا سنةٍ ، فسألَهُ عنِ الدُّنيا كيفَ وجدَها ؟ فقالَ : سُنيّاتُ بلاءٍ ، وسُنيّاتُ رخاءٍ ، يومٌ فيومٌ ، وليلةٌ فليلةٌ ، يُولدُ مولودٌ ، ويهلكُ هالكٌ ، فلولا المولودُ . . بادَ الخلقُ ، ولولا الهالكُ . . ضاقتِ الدُّنيا بمَنْ فيها ، فقالَ له : سلْ ما شئتَ ، قالَ :

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢١١) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٢٢٦) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (٣٩٣) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٢٧) ضمن خبر عن مسعر بن كدام .

عمرٌ مضىٰ فتردُّهُ ، أوْ أجلٌ حضرَ فتدفعُهُ ؟ قالَ : لا أملكُ ذلكَ ، قالَ : لا حاجةَ لي إليكَ[١] .

وقالَ داوودُ الطائيُّ رحمهُ اللهُ : (يا بنَ آدمَ ؛ فرحتَ ببلوغِ أملِكَ ، وإنَّما بلغتَهُ بانقضاءِ أجلِكَ ، ثمَّ سوَّفتَ بعملِكَ ؛ كأنَّ منفعتَهُ لغيرِكَ)[٢] .

وقالَ بشرُ بنُ الحارثِ : (مَنْ سألَ اللهَ الدُّنيا . . فإنَّما يسألُهُ طولَ الوقوفِ بينَ يديهِ)[٣] .

وقالَ أبو حازمٍ : (ما في الدُّنيا شيءٌ يسرُّكَ ، إلا وقدْ أُلْصِقَ بهِ شيءٌ يسوءُكَ)[٤] .

وقالَ الحسنُ : (لا تخرجُ نفسُ ابنِ آدمَ مِنَ الدُّنيا إلا بحسراتٍ ثلاثٍ : أنَّهُ لمْ يشبعْ ممَّا جمعَ ، ولمْ يدرِكْ ما أمَّلَ ، ولمْ يحسنِ الزادَ لما قدمَ عليهِ)[٥] .

وقيلَ لبعضِ العبَّادِ : قدْ نلتَ الغنىٰ ، قالَ : إنَّما نالَ الغنىٰ مَنْ عتقَ مِنْ رقِّ الدُّنيا[٦] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٣٩) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٤٣) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٦١) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٦٣) .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٧٥) .
(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٧٦) .

وقالَ أبو سليمانَ : (لا يصبرُ عنْ شهواتِ الدُّنيا إلا مَنْ كانَ في قلبِهِ ما يشغلُهُ بالآخرةِ)(١) .

وقالَ مالكُ بنُ دينارٍ : (اصطلحنا علىٰ حبِّ الدُّنيا ، فلا يأمرُ بعضُنا بعضاً ، ولا ينهىٰ بعضُنا بعضاً ، ولا يدعُنا اللهُ علىٰ هـٰذا ، فليتَ شعري ؛ أيُّ عذابِ اللهِ ينزلُ بنا ؟!)(٢) .

وقالَ أبو حازمٍ : (يسيرُ الدُّنيا يشغلُ عنْ كثيرِ الآخرةِ)(٣) .

وقالَ الحسنُ : (أهينُوا الدُّنيا ، فواللهِ ؛ ما هيَ لأحدٍ بأهنأَ مِنْها لمَنْ أهانَها)(٤) .

وقالَ أيضاً : (إذا أرادَ اللهُ بعبدٍ خيراً . . أعطاهُ مِنَ الدُّنيا عطيةً ، ثمَّ يمسكُ ، فإذا نفِدَ . . أعادَ عليهِ ، وإذا هانَ عليهِ عبدٌ . . بسطَ لهُ الدُّنيا بسطاً)(٥) .

وكانَ بعضُهُمْ يدعو : (يا ممسكَ السماءِ أنْ تقعَ على الأرضِ إلا بإذنِكَ ؛ أمسكْ عنِّي الدُّنيا)(٦) .

وقالَ محمدُ بنُ المنكدرِ : (أرأيتَ لوْ أنَّ رجلاً صامَ الدَّهرَ لا يفطرُ ،

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٨٤) بلاغاً .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٩٧) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣٠٥) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣١٤) .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣١٥) .
(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣١٧) .

وقامَ الليلَ لا يفترُ ، وتصدَّقَ بمالِهِ ، وجاهدَ في سبيلِ اللهِ ، واجتنبَ محارمَ اللهِ ، غيرَ أنَّهُ يُؤتىٰ بهِ يومَ القيامةِ فيُقالُ : ها إنَّ هـٰذا عظمَ في عينِهِ ما صغَّرَهُ اللهُ ، وصغرَ في عينِهِ ما عظَّمَهُ اللهُ . كيفَ ترىٰ يكونُ حالُهُ ؟ فمَنْ مِنَّا ليسَ هـٰكذا الدُّنيا عظيمةٌ عندَهُ معَ ما اقترفنا مِنَ الذنوبِ والخطايا ؟!)[1] .

وقالَ أبو حازم : (اشتدَّتْ مؤونةُ الدُّنيا والآخرةِ ، فأمَّا مؤونةُ الآخرةِ . . فإنَّكَ لا تجدُ عليها أعواناً ، وأمَّا مؤونةُ الدُّنيا . . فإنَّكَ لا تضربُ بيدِكَ إلىٰ شيءٍ مِنْها إلا وجدتَ فاجراً قدْ سبقَكَ إليهِ)[2] .

وقالَ أبو هريرةَ : (الدُّنيا موقوفةٌ بينَ السماءِ والأرضِ كالشَّنِّ البالي ، تنادي ربَّها منذُ خلقَها إلىٰ يومِ يفنيها : يا ربِّ ، يا ربِّ ؛ لمَ تبغضُني ؟ فيقولُ لها : اسكتي يا لا شيءَ ، اسكتي يا لا شيءَ)[3] .

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ المباركِ : (حبُّ الدُّنيا في القلبِ والذنوبُ قدِ احتوشَتْهُ ، فمتىٰ يصلُ الخيرُ إليهِ ؟!)[4] .

وقالَ وهبُ بنُ منبِّهٍ : (مَنْ فرحَ قلبُهُ بشيءٍ مِنَ الدُّنيا . . فقدْ أخطأَ الحكمةَ ، ومَنْ جعلَ شهوتَهُ تحتَ قدميهِ . . فَرِقَ الشيطانُ مِنْ ظلِّهِ ،

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣٢١) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣٢٥) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣٦٠) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٤٣٧) .

ومَنْ غلبَ علمُهُ هواهُ . . فهوَ الغالبُ)[١] .

وقيلَ لبشرٍ : ماتَ فلانٌ ، فقالَ : جمعَ الدُّنيا وذهبَ إلى الآخرةِ ، ضيَّعَ نفسَهُ ، قيلَ لهُ : إنَّهُ كانَ يفعلُ ويفعلُ ، وذكرُوا أبواباً مِنَ البرِّ ، فقالَ : وما ينفعُ هـٰذا وهوَ يجمعُ الدُّنيا ؟![٢] .

وقالَ بعضُهُمْ : (الدُّنيا تُبغِّضُ إلينا نفسَها ، ونحنُ نحبُّها ! فكيفَ لوْ تحبَّبَتْ إلينا ؟!)[٣] .

وقيلَ لحكيمٍ : الدُّنيا لمَنْ هيَ ؟ قالَ : لمَنْ تركَها ، فقيلَ : الآخرةُ لمَنْ هيَ ؟ قالَ : لمَنْ طلبَها[٤] .

وقالَ حكيمٌ : (الدُّنيا دارُ خرابٍ ، وأخربُ مِنْها قلبُ مَنْ يعمرُها ، والجنةُ دارُ عمرانٍ ، وأعمرُ مِنْها قلبُ مَنْ يطلبُها)[٥] .

وقالَ الجنيدُ : كانَ الشافعيُّ رحمَهُ اللهُ مِنَ المريدينَ الناطقينَ بلسانِ الحقِّ في الدُّنيا ، وعظَ أخاً لهُ في اللهِ ، وخوَّفَهُ باللهِ ، فقالَ : يا أخي ؛ إنَّ الدُّنيا دَحْضُ مزلَّةٍ ، ودارُ مذلَّةٍ ، عمرانُها إلى الخرابِ صائرٌ ، وساكنُها إلى القبورِ زائرٌ ، شملُها على الفرقةِ موقوفٌ ، وغناها إلى الفقرِ مصروفٌ ، الإكثارُ فيها

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٤٥٢) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٤٥٩) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٤٧٠) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٤٧٦) .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٤٧٧) .

إعسارٌ ، والإعسارُ فيها يسارٌ ، فافزعْ إلى اللهِ ، وارضَ برزقِ اللهِ ، ولا تتسلَّفْ مِنْ دارِ بقائِكَ في دارِ فنائِكَ ؛ فإنَّ عيشَكَ فيءٌ زائلٌ ، وجدارٌ مائلٌ ، أكثرْ مِنْ عملِكَ ، وقصِّر مِنْ أملِكَ .

وقالَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ لرجلٍ : أدرهمٌ في المنامِ أحبُّ إليكَ أمْ دينارٌ في اليقظةِ ؟ فقالَ : دينارٌ في اليقظةِ ، فقالَ : كذبتَ ؛ لأنَّ الذي تحبُّهُ في الدُّنيا كأنَّكَ تحبُّهُ في المنامِ ، والذي لا تحبُّهُ في الآخرةِ كأنَّكَ لا تحبُّهُ في اليقظةِ .

وعنْ إسماعيلَ بنِ عياشٍ قالَ : (كانَ أصحابُنا يسمُّونَ الدُّنيا خنزيرةً ، فيقولونَ : إليكِ عنَّا يا خنزيرةُ ، فلوْ وجدُوا لهَا اسماً أقبحَ مِنْ هـٰذا . . لسمَّوها بهِ)(١) .

وقالَ كعبٌ : (لتُحبَّبَنَّ إليكمُ الدُّنيا حتَّىٰ تعبدُوها وأهلَها)(٢) .

وقالَ يحيىٰ بنُ معاذٍ الرازيُّ رحمهُ اللهُ : (العقلاءُ ثلاثةٌ : مَنْ تركَ الدُّنيا قبلَ أنْ تتركَهُ ، وبنىٰ قبرَهُ قبلَ أنْ يدخلَهُ ، وأرضىٰ خالقَهُ قبلَ أنْ يلقاهُ)(٣) .

وقالَ أيضاً : (الدُّنيا بلغَ مِنْ شؤْمِها أنَّ تمنِّيَكَ لها يلهيكَ عَنْ طاعةِ اللهِ ، فكيفَ الوقوعُ فيها ؟!) .

وقالَ بكرُ بنُ عبدِ اللهِ : (مَنْ أرادَ أنْ يستغنيَ بالدُّنيا عنِ الدُّنيا . .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣٤٧) عن إسماعيل بن عياش ، عن أبي راشد التنوخي ، عن يزيد بن ميسرة .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (١٤٠) .

(٣) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٤٨٨) .

كانَ كمطفىءِ النَّارِ بالتِّبنِ)[١] .

وقالَ بندارٌ : (إذا رأيتَ أبناءَ الدُّنيا يتكلَّمونَ في الزهدِ . . فاعلمْ أنَّهُمْ في سخرةِ الشيطانِ)[٢] .

وقالَ أيضاً : (مَنْ أقبلَ على الدُّنيا . . أحرقَتْهُ نيرانُها ـ يعني : الحرصَ ـ حتَّىٰ يصيرَ رماداً ، ومَنْ أقبلَ على الآخرةِ . . صفَّتْهُ نيرانُها ، فصارَ سبيكةَ ذهبٍ يُنتفعُ بهِ ، ومَنْ أقبلَ على اللهِ عزَّ وجلَّ . . أحرقَتْهُ نيرانُ التوحيدِ ، فصارَ جوهراً لا حدَّ لقيمتِهِ) .

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (إنَّما الدُّنيا ستَّةُ أشياءَ : مطعومٌ ، ومشروبٌ ، وملبوسٌ ، ومركوبٌ ، ومنكوحٌ ، ومشمومٌ ، فأشرفُ المطعوماتِ العسلُ ، وهوَ مذقةُ ذبابٍ ، وأشرفُ المشروباتِ الماءُ ، يستوي فيهِ البَرُّ والفاجرُ ، وأشرفُ الملبوساتِ الحريرُ ، وهوَ نسجُ دودةٍ ، وأشرفُ المركوباتِ الفرسُ ، وعليهِ يُقتلُ الرِّجالُ ، وأشرفُ المنكوحاتِ المرأةُ ، وهيَ مبالٌ في مبالٍ ، واللهِ ؛ إنَّ المرأةَ لتزيِّنُ أحسنَ شيءٍ مِنْها ، ويُرادُ أقبحُ شيءٍ مِنْها ، وأشرفُ المشموماتِ المسكُ ، وهوَ دمُ حيوانٍ)[٣] .

* * *

---

(١) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٩٢) .
(٢) يعني : لا يتكلم في الزهد إلا من كان زاهداً ؛ حتىٰ يكون لكلامه التأثير . « إتحاف » (٨/ ٩٨) .
(٣) أورده الراغب في « الذريعة » (ص ٢١٨) .

بيان المواعظ في ذمّ الدّنيا وصفتها

قالَ بعضُهُمْ : (يا أيُّها الناسُ ؛ اعملُوا على مهلٍ ، وكونُوا مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ على وَجَلٍ ، ولا تغترُّوا بالأملِ ونسيانِ الأجلِ ، ولا تركنُوا إلى الدُّنيا ؛ فإنَّها غدَّارةٌ خدَّاعةٌ ، قدْ تزخرفَتْ لكُمْ بغرورِها ، وفتنَتْكُمْ بأمانيها ، وتزيَّنَتْ لخطَّابِها ، فأصبحَتْ كالعروسِ المجلوَّةِ ، العيونُ إليها ناظرةٌ ، والقلوبُ عليها عاكفةٌ ، والنفوسُ لها عاشقةٌ ، فكمْ مِنْ عاشقٍ لها قتلَتْ ، ومطمئنٍّ إليها خذلَتْ .

فانظرُوا إليها بعينِ الحقيقةِ ؛ فإنَّها دارٌ كثُرَتْ بوائقُها ، وذمَّها خالقُها ، جديدُها يبلىٰ ، ومُلْكُها يفنىٰ ، وعزيزُها يذلُّ ، وكثيرُها يقلُّ ، وحيُّها يموتُ ، وخيرُها يفوتُ ، فاستيقظُوا رحمَكمُ اللهُ مِنْ غفلتِكُمْ ، وانتبهُوا مِنْ رقدتِكُمْ ، قبلَ أنْ يُقالَ : فلانٌ عليلٌ ، أوْ مدنفٌ ثقيلٌ ، فهلْ على الدواءِ مِن دليلٍ ؟ وهلْ إلى الطبيبِ مِنْ سبيلٍ ؟ فيُدعىٰ لكَ الأطباءُ ، ولا يُرجىٰ لكَ الشفاءُ ، ثمَّ يُقالُ : فلانٌ أوصىٰ ، ومالَهُ أحصىٰ ، ثمَّ يُقالُ : قدْ ثقُلَ لسانُهُ ، فما يكلِّمُ إخوانَهُ ، ولا يعرفُ جيرانَهُ ، وعرِقَ عندَ ذلكَ جبينُكَ ، وتتابعَ أنينُكَ ، وثبتَ يقينُكَ ، وطمحَتْ جفونُكَ ، وصدقَتْ ظنونُكَ ، وتلجْلَجَ لسانُكَ ، وبكىٰ إخوانُكَ ، وقيلَ لكَ : هٰذا ابنُكَ فلانٌ ، وهٰذا أخوكَ فلانٌ ، ومُنعتَ الكلامَ فلا تنطقُ ، وخُتمَ علىٰ لسانِكَ فلا ينطلقُ ، ثمَّ حلَّ بكَ القضاءُ ، وانتُزِعَتْ نفسُكَ مِنَ الأعضاءِ ، ثمَّ عُرِجَ بها إلى السماءِ ، فاجتمعَ

عندَ ذلكَ إخوانُكَ ، وأُحضرَتْ أكفانُكَ ، فغسَّلوكَ وكفَّنوكَ ، فانقطعَ عوَّادُكَ ، واستراحَ حسَّادُكَ ، وانصرفَ أهلكَ إلىٰ مالكَ ، وبقيتَ مرتهناً بأعمالِكَ) .

وقالَ بعضُهُمْ لبعضِ الملوكِ : (إنَّ أحقَّ الناسِ بذمِّ الدُّنيا وقِلاها مَنْ بُسطَ لهُ فيها ، وأُعطيَ حاجتَهُ مِنْها ؛ لأنَّهُ يتوقَّعُ آفةً تعدو علىٰ مالِهِ فتجتاحُهُ ، أوْ علىٰ جمعِهِ فتفرِّقُهُ ، أوْ تأتي سلطانَهُ فتهدمُهُ مِنَ القواعدِ ، أوْ تدبُّ إلىٰ جسمِهِ فتسقمُهُ ، أوْ تفجعُهُ بشيءٍ هوَ ضنينٌ بهِ مِنْ أحبابِهِ ، فالدُّنيا أحقُّ بالذَّمِّ ، هيَ الآخذةُ ما تعطي ، الراجعةُ فيما تهبُ ، بينا هيَ تضحِكُ صاحبَها إذْ أضحكَتْ منْهُ غيرَهُ ، وبينا هيَ تبكي لهُ إذْ أبكَتْ عليهِ ، وبينا هيَ تبسطُ كفَّها بالإعطاءِ إذْ بسطَتْها بالاستردادِ ، تعقدُ التاجَ علىٰ رأسِ صاحبِها اليومَ ، وتعفِّرُهُ في الترابِ غداً ، سواءٌ عليها ذهابُ ما ذهبَ وبقاءُ ما بقيَ ، تجدُ في الباقي مِنَ الذاهبِ خلفاً ، وترضىٰ بكلٍّ مِنْ كلٍّ بدلاً)[1] .

وكتبَ الحسنُ البصريُّ إلىٰ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ : (أمَّا بعدُ : فإنَّ الدُّنيا دارُ ظعنٍ ليسَتْ بدارِ إقامةٍ ، وإنَّما أُنزلَ آدمُ عليهِ السلامُ مِنَ الجنةِ إليها عقوبةً ، فاحذرْها يا أميرَ المؤمنينَ ؛ فإنَّ الزادَ مِنْها تركُها ، والغنىٰ مِنْها فقرُها ، لها في كلِّ حينٍ قتيلٌ ، تذلُّ مَنْ أعزَّها ، وتفقرُ مَنْ جمعَها ، هيَ كالسُّمِّ يأكلُهُ مَنْ لا يعرفُهُ وهوَ حتفُهُ ، فكنْ فيها كالمداوي جراحتَهُ ، يحتمي

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (٤٧) .

قليلاً مخافةَ ما يكرهُ طويلاً ، ويصبرُ علىٰ شدَّةِ الدواءِ مخافةَ طولِ البلاءِ .

فاحذرْ هٰذهِ الدارَ الغدَّارةَ ، الختَّالةَ الخدَّاعةَ ، التي قدْ زيَّنَتْ بخدعِها ، وفتنَتْ بغرورِها ، وتحلَّتْ بآمالِها ، وتشوَّقَتْ لخطَّابِها ، فأصبحَتْ كالعروسِ المجلوَّةِ ، العيونُ إليها ناظرةٌ ، والقلوبُ عليها والهةٌ ، والنفوسُ لها عاشقةٌ ، وهيَ لأزواجِها كلِّهِمْ قاتلةٌ ، فلا الباقي بالماضي معتبرٌ ، ولا الآخرُ بالأوَّلِ مزدجرٌ ، ولا العارفُ باللهِ عزَّ وجلَّ حينَ أخبرَهُ عنها مدَّكرٌ ، فعاشقٌ لها قدْ ظفرَ مِنْها بحاجتِهِ ، فاغترَّ وطغىٰ ، ونسيَ المعادَ ، فشغلَ فيها لُبَّهُ ، حتَّىٰ زلَّتْ عنْها قدَمُهُ ، فعظُمَتْ ندامتُهُ ، وكثُرَتْ حسرتُهُ ، واجتمعَتْ عليهِ سكراتُ الموتِ بألمِهِ ، وحسراتُ الفوتِ بغصَّتِهِ ، وراغبٌ فيها لمْ يدركْ مِنْها ما طلبَ ، ولمْ يروِّحْ نفسَهُ مِنَ التَّعبِ ، فخرجَ بغيرِ زادٍ ، وقدِمَ علىٰ غيرِ مهادٍ ، فاحذرْها يا أميرَ المؤمنينَ .

وكنْ أسرَّ ما تكونُ فيها أحذرَ ما تكونُ لها ؛ فإنَّ صاحبَ الدُّنيا كلَّما اطمأنَّ مِنْها إلىٰ سرورٍ . أشخصَتْهُ إلىٰ مكروهٍ ، السارُّ فيها لأهلِها غارٌّ ، والنافعُ مِنْها غداً ضارٌّ ، وقدْ وُصِلَ الرَّخاءُ مِنْها بالبلاءِ ، وجُعِلَ البقاءُ فيها إلىٰ فناءٍ ، فسرورُها مشوبٌ بالأحزانِ ، لا يرجعُ مِنْها ما ولَّىٰ وأدبرَ ، ولا يُدرىٰ ما هوَ آتٍ فينتظرَ .

أمانيها كاذبةٌ ، وآمالُها باطلةٌ ، وصفوُها كدرٌ ، وعيشُها نكدٌ ، وابنُ آدمَ فيها علىٰ خطرٍ ، إنْ عقَلَ ونظَرَ . فهوَ مِنَ النَّعماءِ علىٰ خطرٍ ، ومِنَ البلاءِ علىٰ حذرٍ ، فلوْ كانَ الخالقُ لمْ يُخبِرْ عنها خبراً ، ولمْ يضربْ لها مثلاً . .

لكانَتِ الدُّنيا قدْ أيقظَتِ النائمَ ، ونبَّهَتِ الغافلَ ، فكيفَ وقدْ جاءَ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ عنها زاجرٌ ، وفيها واعظٌ ، فما لَها عندَ اللهِ جلَّ ثناؤُهُ قدرٌ ، وما نظرَ إليها منذُ خلقَها .

ولقدْ عُرِضَتْ علىٰ نبيِّكَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بمفاتيحِها وخزائنِها لا ينقصُهُ ذلكَ عندَ اللهِ جناحَ بعوضةٍ ، فأبىٰ أنْ يقبلَها ؛ إذْ كرِهَ أنْ يخالفَ على اللهِ أمرَهُ ، أوْ يحبَّ ما أبغضَ خالقُهُ ، أوْ يرفعَ ما وضعَ مليكُهُ ، فزواها عنِ الصالحينَ اختباراً ، وبسطَها لأعدائِهِ اغتراراً .

فيظنُّ المغرورُ بها المقتدرُ عليها أنَّهُ أُكرمَ بها ، ونسيَ ما صنعَ اللهُ عزَّ وجلَّ بمحمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حينَ شدَّ الحجرَ علىٰ بطنِهِ ، ولقدْ جاءَتِ الرِّوايةُ عنهُ عنْ ربِّهِ تباركَ وتعالىٰ : أنَّهُ قالَ لموسىٰ عليهِ السَّلامُ : إذا رأيتَ الغِنىٰ مقبلاً . . فقلْ : ذنبٌ عُجِّلَتْ عقوبتُهُ ، وإذا رأيتَ الفقرَ مُقبلاً . . فقلْ : مرحباً بشعارِ الصالحينَ ، وإنْ شئتَ . . اقتديتَ بصاحبِ الروحِ والكلمةِ عيسى ابنِ مريمَ عليهِ السلامُ ؛ فإنَّهُ كانَ يقولُ : إدامي الجوعُ ، وشعاري الخوفُ ، ولباسي الصوفُ ، وصِلائي في الشتاءِ مشارقُ الشمسِ ، وسراجي القمرُ ، ودابَّتي رجلايَ ، وطعامي وفاكهتي ما أنبتَتِ الأرضُ ، أبيتُ وليسَ لي شيءٌ ، وأصبحُ وليسَ لي شيءٌ ، وليسَ على الأرضِ أحدٌ أغنىٰ منِّي)[1] .

---

(١) كذا رواه بطوله ومرفوعه ابنُ أبي الدنيا في « الزهد » (٥٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٣١٣) عن الحسن ، فالمرفوع فيه مرسل ، وخبر إعراضه صلى الله عليه وسلم عن الدنيا وقد عرضت عليه رواه الترمذي (٢٣٤٧) عن أبي أمامة مرفوعاً : « عرض علي =

وقالَ وهبُ بنُ منبِّهٍ : (لمَّا بعثَ اللهُ عزَّ وجلَّ موسىٰ وهارونَ عليهما السلامُ إلىٰ فرعونَ . . قالَ : لا يَرُوعنَّكُما لباسُهُ الذي لبسَ مِنَ الدُّنيا ؛ فإنَّ ناصيتَهُ بيدي ، ليسَ ينطِقُ ولا يطرِفُ ولا يتنفَّسُ إلا بإذني ، ولا يعجبنَّكُما ما تمتَّعَ بهِ مِنْها ؛ فإنَّما هيَ زهرةُ الحياةِ الدُّنيا وزينةُ المترفينَ ، فلوْ شئتُ أنْ أزيِّنَكُما بزينةٍ مِنَ الدُّنيا ، يعرفُ فرعونُ حينَ يراها أن مقدرتَهُ تعجزُ عمَّا أُوتيتُما . . لفعلتُ ، ولكنِّي أرغبُ بكُما عنْ ذلكَ ، فأزوي ذلكَ عنْكُما ، وكذلِكَ أفعلُ بأوليائي ، إنِّي لأذودُهُمْ عنْ نعيمِها ، كما يذودُ الرَّاعي الشفيقُ غنمَهُ عنْ مراتعِ الهَلَكَةِ ، وإنِّي لأجنِّبُهُمْ سلوتَها كما يجنِّبُ الراعي الشفيقُ إبلَهُ عنْ مباركِ العُرَّةِ[1] ، وما ذاكَ لهوانِهِمْ عليَّ ، ولكنْ ليستكملُوا نصيبَهُمْ مِنْ كرامتِي سالماً موفراً ، إنَّما يتزيَّنُ لي أوليائي بالذُّلِّ والخشوعِ ، والخوفِ والخضوعِ ، والتقوىٰ تثبتُ في قلوبِهِمْ ، فتظهرُ علىٰ أجسادِهِمْ ؛ فهيَ ثيابُهُمُ التي يلبسونَ ، ودثارُهُمُ الذي يظهرونَ ، وضميرُهُمُ الذي يستشعرونَ ، ونجاتُهُمُ التي بها يفوزونَ ، ورجاؤُهُمُ الذي إيَّاهُ يأملونَ ، ومجدُهُمُ الذي بهِ يفخرونَ ، وسيماهُمُ التي بها يُعرفُونَ ، فإذا لقيتَهُمْ . . فاخفضْ لهُمْ جناحَكَ ، وذلِّلْ لهُمْ قلبَكَ ولسانَكَ ، واعلمْ أنَّهُ مَنْ أخافَ لي

= ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً ، قلت : لا يا رب ، ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً » ، وخبر موسىٰ عليه السلام رواه الديلمي في « مسند الفردوس » (٤٤٦٩) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه .

(١) العُرَّة : الجرب .

وليّاً . فقدْ بارزَني بالمحاربةِ ، ثمَّ أنا الثائرُ لهُ يومَ القيامةِ)[1] .

وخطبَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنْهُ يوماً فقالَ : (اعلمُوا أنَّكُمْ ميِّتُونَ ، ومبعوثونَ مِنْ بعدِ الموتِ ، وموقوفونَ علىٰ أعمالِكُمْ ، ومجزيُّونَ بها ، فلا تغرنَّكُمُ الحياةُ الدُّنيا ؛ فإنَّها بالبلاءِ محفوفةٌ ، وبالفناءِ معروفةٌ ، وبالغدْرِ موصوفةٌ ، وكلُّ ما فيها إلىٰ زوالٍ ، وهيَ بينَ أهلِها دولٌ وسجالٌ ، لا تدومُ أحوالُها ، ولا يسلمُ مِنْ شرِّها نُزَّالُها ، بينا أهلُها مِنْها في رخاءٍ وسرورٍ ؛ إذا هُمْ مِنْها في بلاءٍ وغرورٍ ، أحوالٌ مختلفةٌ ، وتاراتٌ متصرِّفةٌ ، العيشُ فيها مذمومٌ ، والرخاءُ فيها لا يدومُ ، وإنَّما أهلُها فيها أغراضٌ مستهدفةٌ ، ترميهِمْ بسهامِها ، وتقصمُهُمْ بحِمامِها ، وكلٌّ حتفُهُ فيها مقدورٌ ، وحظُّهُ فيها موفورٌ .

واعلمُوا عبادَ اللهِ أنَّكُمْ وما أنتمْ فيهِ مِنْ هـٰذهِ الدُّنيا علىٰ سبيلِ مَنْ قَدْ مضىٰ ممَّنْ كانَ أطولَ منكُمْ أعماراً ، وأشدَّ منكُمْ بطشاً ، وأعمرَ دياراً ، وأبعدَ آثاراً ، فأصبحَتْ أصواتُهُمْ هامدةً خامدةً مِنْ بعدِ طولِ تقلُّبِها ، وأجسادُهُمْ باليةً ، وديارُهُمْ علىٰ عروشِها خاليةً ، وآثارُهُمْ عافيةً .

واستبدلُوا بالقصورِ المشيدةِ والسررِ والنمارقِ الممهَّدةِ الصخورَ والأحجارَ المسندةَ في القبورِ اللاطئةِ الملحدةِ ، فمحلُّها مقتربٌ ، وساكنُها مغتربٌ بينَ أهلِ عمارةٍ موحشينَ ، وأهلِ محلَّةٍ متشاغلينَ ، لا يستأنسونَ بالعمرانِ ، ولا يتواصلونَ تواصلَ الجيرانِ والإخوانِ ، علىٰ ما بينَهُمْ مِنْ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (٦٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ١١) .

قربِ المكانِ والجوارِ ودنوِّ الدارِ ، وكيفَ يكونُ بينَهُمْ تواصلٌ ، وقدْ طحنَهُمْ بكَلْكَلِهِ البلىٰ ، وأكلَتْهُمُ الجنادلُ والثرىٰ ، فأصبحُوا بعدَ الحياةِ أمواتاً ، وبعدَ غضارةِ العيشِ رُفاتاً .

فُجعَ بهِمُ الأحبابُ ، وسكنُوا تحتَ الترابِ ، وظعنُوا فليسَ لهُمْ إيابٌ ، هيهاتَ هيهاتَ ، ﴿ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ ، فكأنْ قدْ صرتُمْ إلىٰ ما صارُوا إليهِ مِنَ البلىٰ ، والوحدةِ في دارِ المثوىٰ ، وارتهنتُمْ في ذلكَ المضجعِ ، وضمَّكُمْ ذلكَ المستودعُ .

فكيفَ بكُمْ لوْ عاينتُمُ الأمورَ ، وبُعثرَتِ القبورُ ، وحُصِّلَ ما في الصدورِ ، وأُوقِفتُمْ للتحصيلِ بينَ يدي الملكِ الجليلِ ، فطارَتِ القلوبُ لإشفاقِها مِنْ سالفِ الذنوبِ ، وهُتكَتْ عنكُمُ الحجُبُ والأستارُ ، وظهرَتْ منكُمُ العيوبُ والأسرارُ ، هنالكَ تُجزىٰ كلُّ نفسٍ بما كسبَتْ ، إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يقولُ : ﴿ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ . . . ﴾ الآيةَ ، جعلَنا اللهُ وإيَّاكُمْ عاملينَ بكتابِهِ ، ومتبعينَ لأوليائِهِ ؛ حتَّىٰ يُحِلَّنا وإيَّاكُمْ دارَ المُقامةِ مِنْ فضلِهِ ، إنَّهُ حميدٌ مجيدٌ)[1] .

وقالَ بعضُ الحكماءِ : (الأيامُ سهامٌ ، والناسُ أغراضٌ ، والدهرُ يرميكَ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (٢١٢) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٣٦٤) .

كلَّ يومٍ بسهامِهِ ، ويخترمُكَ بلياليهِ وأيامِهِ ، حتَّىٰ يستغرقَ جميعَ أجزائِكَ ، فكمْ بقاءُ سلامتِكَ معَ وقوعِ الأيامِ بكَ ، وسرعةِ الليالي في بدنِكَ ؟ لوْ كُشفَ لكَ عمَّا أحدثَتِ الأيامُ فيكَ مِنَ النقصِ . . لاستوحشْتَ مِنْ كلِّ يومٍ يأتي عليكَ ، واستثقلتَ ممرَّ الساعاتِ بكَ ، ولكنْ تدبيرُ اللهِ سبحانَهُ فوقَ تدبيرِ الاعتبارِ ، وبالسلوِّ عنْ غوائلِ الدُّنيا وُجِدَ طعمُ لذاتِها ، وإنَّها لأمَرُّ مِنَ العلقمِ إذا عجمَها الحكيمُ[1] ، وقدْ أعيتِ الواصفَ لعيوبِها بظاهرِ أفعالِها ، وما تأتي بهِ مِنَ العجائبِ أكثرُ ممَّا يحيطُ بهِ الواعظُ ، فنستوهبُ اللهَ رشداً إلى الصوابِ)[2] .

وقالَ بعضُ الحكماءِ وقدِ استُوصفَ الدُّنيا وقدْرَ بقائِها : (الدُّنيا وقتُكَ الذي يرجعُ إليكَ فيهِ طرفُكَ ؛ لأنَّ ما مضىٰ عنكَ . . فقدْ فاتَكَ إدراكُهُ ، وما لمْ يأتِ . . فلا علمَ لكَ بهِ ، والدَّهرُ يومٌ مقبلٌ تنعاهُ ليلتُهُ ، وتطويهِ ساعتُهُ ، وأحداثُهُ تتوالىٰ على الإنسانِ بالتغييرِ والنقصانِ ، والدهرُ موكَّلٌ بتشتيتِ الجماعاتِ ، وانخرامِ الشَّملِ ، وتنقُّلِ الدُّولِ ، والأملُ طويلٌ ، والعمرُ قصيرٌ ، وإلى اللهِ تصيرُ الأمورُ)[3] .

وخطبَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رحمةُ اللهِ عليهِ فقالَ : (أيُّها الناسُ ؛ إنَّكُمْ

---

(١) عجمها ؛ يقال : عجمَ الشيء يعجمه عجماً ؛ عضَّه ليعلم صلابته من خوره ، وكذا العين تعجم إذا نظرت فاحصة مختبرة .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١٩٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٠ / ١٥٠) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١٩٧) .

خُلِقتُمْ لأمرٍ إنْ كنتُمْ تصدِّقُونَ بهِ . . إنَّكُمْ حمقىٰ ، وإنْ كنتُمْ تكذِّبونَ بهِ . . إنَّكُمْ لهلكىٰ ، إنَّما خُلِقتُمْ للأبدِ ، ولكنَّكُمْ مِنْ دارٍ إلىٰ دارٍ تُنقلونَ ، عبادَ اللهِ ؛ إنَّكُمْ في دارٍ لكُمْ فيها مِنْ طعامِكُمْ غصصٌ ، ومِنْ شرابِكُمْ شَرَقٌ ، لا تصفُو لكُمْ نعمةٌ تُسرُّونَ بها إلاَّ بفراقِ أخرىٰ تكرهونَ فراقَها ، فاعملُوا لما أنتُمْ صائرونَ إليهِ ، وخالدونَ فيهِ) ، ثمَّ غلبَهُ البكاءُ فنزلَ[١] .

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ في خطبتِهِ : (أوصيكُمْ بتقوى اللهِ ، والتركِ للدُّنيا التاركةِ لكُمْ وإنْ كنتُمْ لا تحبونَ تركَها ، المبليةِ أجسامَكُمْ وإنْ كنتُمْ تريدونَ تجديدَها ، فإنَّما مثلُكُمْ ومثلُها كمَثَلِ سَفْرٍ سلكُوا طريقاً وكأنَّهُمْ قدْ قطعُوهُ ، وأفضَوا إلىٰ عَلَمٍ فكأنَّهُمْ بلغُوهُ ، وكمْ عسىٰ أنْ يجريَ المجرىٰ حتَّىٰ ينتهيَ إلى الغايةِ ؟ وكمْ عسىٰ أنْ يبقىٰ مَنْ لَهُ يومٌ في الدُّنيا وطالبٌ حثيثٌ يطلبُهُ حتَّىٰ يفارقَها ؟ فلا تجزعُوا لبؤسِها وضرَّائِها ؛ فإنَّهُ إلى انقطاعٍ ، ولا تفرحُوا بنعيمِها ؛ فإنَّهُ إلىٰ زوالٍ ، عجبتُ لطالبِ الدُّنيا والموتُ يطلبُهُ ، وغافلٍ وليسَ بمغفولٍ عنْهُ)[٢] .

وقالَ محمدُ بنُ الحسينِ[٣] : (لمَّا علمَ أهلُ العقلِ والعلمِ والمعرفةِ والأدبِ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قدْ أهانَ الدُّنيا ، وأنَّهُ لمْ يرضَها لأوليائِهِ ، وأنَّها عندَهُ حقيرةٌ قليلةٌ ، وأنَّ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ زهدَ فيها ، وحذَّرَ أصحابَهُ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٣٤) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٤١٤) .
(٣) في (ب) : (الحسن) بدل (الحسين) .

مِنْ فتنتِها . . أكلُوا منها قصداً ، وقدَّمُوا فضلاً ، وأخذُوا مِنْها ما يكفي ، وتركُوا ما يُلهِي ، لبسوا مِنَ الثيابِ ما سترَ العورةَ ، وأكلُوا مِنَ الطعامِ أدناهُ ممَّا سدَّ الجوعةَ ، نظرُوا إلى الدُّنيا بعينِ أنَّها فانيةٌ ، وإلى الآخرةِ أنَّها باقيةٌ ، فتزوَّدُوا مِنَ الدُّنيا كزادِ الراكبِ ، فخرَّبُوا الدُّنيا ، وعمرُوا بها الآخرةَ ، ونظرُوا إلى الآخرةِ بقلوبِهِمْ ، فعلمُوا أنَّهُمْ سينظرونَ إليها بأعينِهِمْ ، فارتحلُوا إليها بقلوبِهِمْ لمَّا علمُوا أنَّهُمْ سيرتحلُونَ إليها بأبدانِهِمْ ، صبروا قليلاً وتنعَّموا طويلاً ، كلُّ ذلكَ بتوفيقِ مولاهُمُ الكريمِ ، أحبُّوا ما أحبَّ لهُمْ ، وكرهُوا ما كرهَ لهُمْ) .

* * *

بيان صفة الدنيا بالأمثلة

اعلمْ : أنَّ الدُّنيا سريعةُ الفناءِ ، قريبةُ الانقضاءِ ، تعِدُ بالبقاءِ ، ثمَّ تُخلِفُ بالوفاءِ ، تنظرُ إليها فتراها ساكنةً مستقرَّةً ، وهيَ سائرةٌ سيراً عنيفاً ، ومرتحلةٌ ارتحالاً سريعاً ، ولكنَّ الناظرَ إليها قدْ لا يحسُّ بحركتِها ، فيطمئنُّ إليها ، وإنَّما يحسُّ عندَ انقضائِها .

❊ ❊ ❊

ومثالُها : الظِّلُّ ، فإنَّهُ متحركٌ ساكنٌ ، متحركٌ في الحقيقةِ ، ساكنٌ في الظاهرِ ، لا تُدركُ حركتُهُ بالبصرِ الظاهرِ ، بلْ بالبصيرةِ الباطنةِ .

ولمَّا ذكرتِ الدُّنيا عندَ الحسنِ البصريِّ رحمةُ اللهِ عليهِ . أنشدَ[1] : [من الكامل]

أَحْلامُ نَوْمٍ أَوْ كَظِلٍّ زائِلٍ		إِنَّ ٱللَّبِيبَ بِمِثْلِها لا يُخْدَعُ

وكانَ الحسنُ بنُ عليٍّ بنِ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُما يتمثلُ ويقولُ[2] : [من البسيط]

يا أَهْلَ لَذَّاتِ دُنْيا لا بَقاءَ لَها		إِنَّ ٱغْتِراراً بِظِلٍّ زائِلٍ حُمُقُ

وقيلَ : إنَّ هاذا مِنْ قولِهِ .

---

(١) البيت منسوب إلىٰ عمران بن حطان ، انظر « شعر الخوارج » (ص ١٥٥) ، وإلى ابن أبي حصينة في « ديوانه » (١/ ٣٧٦) .

(٢) انظر « ربيع الأبرار » (١/ ٧٠) ، و« المدهش » (١/ ٣٩٥) .

ويُقالُ : نزلَ أعرابيٌّ بقومٍ ، فقدَّموا إليهِ طعاماً ، فأكلَ ، ثمَّ قامَ إلىٰ ظلِّ خيمةٍ لهُمْ ، فنامَ هناكَ ، فاقتلعُوا الخيمةَ ، فأصابَتْهُ الشمسُ ، فانتبهَ وقامَ وهوَ يقولُ : [من الطويل]

أَلا إِنَّمـا ٱلـدُّنْيـا كَظِـلِّ بَنَيْتَـهُ ... وَلا بُـدَّ يَـوْمـاً أَنَّ ظِلَّـكَ زائِـلُ[1]

وكذلكَ قيلَ[2] : [من الطويل]

وَإِنَّ ٱمْـرَأً دُنْيـاهُ أَكْبَـرُ هَمِّـهِ ... لَمُسْتَمْسِـكٌ مِنْهـا بِحَبْلِ غُـرُورِ

مثالٌ آخرُ :

الدُّنيا مِنْ حيثُ التغريرُ بخيالاتِها ، ثمَّ الإفلاسُ مِنْها بعدَ إفلاتِها . . تشبهُ خيالاتِ المنامِ ، وأضغاثَ الأحلامِ .

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الدُّنيا حلمٌ ، وأهلُها عليها مجازونَ ومعاقبونَ »[3] .

وقالَ يونسُ بنُ عبيدٍ : (ما شبَّهتُ نفسي في الدُّنيا إلاَّ كرجلٍ نامَ ، فرأىٰ في منامِهِ ما يكرَهُ وما يحبُّ ، فبينَما هوَ كذلكَ إذِ انتبهَ)[4] ، فكذلكَ الناسُ

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٥) .
(٢) انظر « الإمتاع والمؤانسة » (ص ٤٦٩) ، و« ربيع الأبرار » (١/ ٤٦) .
(٣) قال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) . « إتحاف » (٨/ ١٠٧) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (٢٢) .

نيامٌ ، فإذا ماتُوا . . انتبهُوا[1] ، فإذا ليسَ بأيديهِمْ شيءٌ ممَّا ركنُوا إليهِ وفرحُوا بهِ .

وقيلَ لحكيمٍ : أيُّ شيءٍ أشبهُ بالدُّنيا ؟ قالَ : أحلامُ النائمِ[2] .

❊ ❊ ❊

مثالٌ آخرُ للدُّنيا في عداوتِها لأهلِها ، وإهلاكِها بنِيها :

اعلمْ : أنَّ طبعَ الدُّنيا التلطُّفُ في الاستدراجِ أوَّلاً ، والتوصُّلُ إلى الإهلاكِ آخراً ، وهيَ كامرأةٍ تتزيَّنُ للخطَّابِ ، حتَّىٰ إذا نكحَتْهُمْ . . ذبحَتْهُمْ .

وقدْ رُوِيَ أنَّ عيسىٰ عليهِ السلامُ كُوشفَ بالدُّنيا ، فرآها في صورةِ عجوزٍ هتماءَ ، عليها مِنْ كلِّ زينةٍ ، فقالَ لها : كمْ تزوجتِ ؟ قالَتْ : لا أحصيهِمْ ، قالَ : فكلُّهُمْ ماتَ عنكِ أوْ كلُّهُمْ طلقَكِ ؟ قالَتْ : بلْ كلَّهُمْ قتلتُ ، فقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : بؤساً لأزواجِكِ الباقينَ كيفَ لا يعتبرونَ بأزواجِكِ الماضينَ ؟! كيفَ تهلكينَهُمْ واحداً بعدَ واحدٍ ولا يكونونَ منكِ علىٰ حذرٍ ؟![3] .

❊ ❊ ❊

---

(١) تقدم أنه من قول سفيان الثوري .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٢) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٧) .

مثالٌ آخرُ للدُّنيا في مخالفةِ باطنِها لظاهرِها :

اعلمْ : أنَّ الدُّنيا مزيَّنَةُ الظَّواهرِ ، قبيحةُ السرائرِ ، وهيَ تشبهُ عجوزاً متزيِّنةً تخدعُ الناسَ بظاهرِها ، فإذا وقفوا علىٰ باطنِها ، وكشفوا القناعَ عنْ وجهِها . . تمثلَتْ لهُمْ قبائحُها ، فندموا على اتباعِها ، وخجلوا مِنْ ضعفِ عقولِهِمْ في الاغترارِ بظاهرِها .

وقالَ العلاءُ بنُ زيادٍ : (رأيتُ في المنامِ عجوزاً كبيرةً مُتغضِّنةَ الجلدِ ، عليها مِنْ كلِّ زينةِ الدُّنيا ، والناسُ عُكُوفٌ عليها متعجِّبونَ ينظرونَ إليها ، فجئتُ ونظرتُ وتعجَّبتُ مِنْ نظرِهِمْ إليها ، وإقبالِهِمْ عليها ، فقلتُ لها : ويلَكِ ! مَنْ أنتِ ؟ قالَتْ : أوَما تعرفُني ؟! قلتُ : لا ، ما أدري مَنْ أنتِ ، قالَتْ : فإنِّي أنَا الدُّنيا ، قلتُ : أعوذُ باللهِ مِنْ شرِّكِ ، قالَتْ : فإنْ أحببتَ أنْ تُعاذَ مِنْ شرِّي . . فأبغضِ الدرهمَ)[1] .

وقالَ أبو بكرِ بنُ عياشٍ : (رأيتُ الدُّنيا في النومِ عجوزاً مشوَّهةً شمطاءَ ، تصفِّقُ بيديها ، وخلفَها خلقٌ يتبعونَها يصفِّقونَ ويرقصُونَ ، فلمَّا كانَتْ بحذائِي . . أقبلَتْ عليَّ ، فقالَتْ : لوْ ظفرتُ بكَ . . لصنعتُ بكَ ما صنعتُ بهؤلاءِ) ، ثمَّ بكىٰ أبو بكرٍ ، وقالَ : (رأيتُ هـٰذا قبلَ أنْ أقدمَ إلىٰ بغدادَ)[2] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٨) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣٠) .

وقالَ الفضيلُ بنُ عياضٍ : قالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (يُؤتىٰ بالدُّنيا يومَ القيامةِ في صورةِ عجوزٍ شمطاءَ زرقاءَ ، أنيابُها باديةٌ ، مشوَّهٌ خَلْقُها ، فتشرفُ على الخلائقِ ، فيُقالُ : أتعرفونَ هـٰذهِ ؟ فيقولونَ : نعوذُ باللهِ مِنْ معرفةِ هـٰذهِ ، فيُقالُ : هـٰذهِ الدُّنيا التي تناحرتُمْ عليها ، بها تقاطعتُمُ الأرحامَ ، وبها تحاسدتُمْ وتباغضتُمْ واغتررتُمْ ، ثمَّ تُقذفُ في جهنَّمَ ، فتنادي : أيْ ربِّ ؛ أينَ أتباعي وأشياعي ؟ فيقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ : ألحقُوا بها أتباعَها وأشياعَها)(١) .

وقالَ الفضيلُ : (بلغَني أنَّ رجلاً عُرِجَ بروحِهِ ؛ فإذا امرأةٌ علىٰ قارعةِ الطريقِ ، عليها مِنْ كلِّ زينةٍ مِنَ الحليِّ والثيابِ ، وإذا لا يمرُّ بها أحدٌ إلاَّ جرحَتْهُ ، وإذا هيَ أدبرَتْ . . كانَتْ أحسنَ شيءٍ رآهُ الناسُ ، وإذا أقبلَتْ . . كانَتْ أقبحَ شيءٍ رآهُ الناسُ ، عجوزٌ شمطاءُ ، زرقاءُ عمشاءُ ، قالَ : فقلتُ : أعوذُ باللهِ منكِ ، قالَتْ : لا واللهِ ؛ لا يعيذُكَ اللهُ منِّي حتَّىٰ تبغضَ الدرهمَ ، قلتُ : مَنْ أنتِ ؟ قالَتْ : أنا الدُّنيا)(٢) .

* * *

مثالٌ آخرُ للدُّنيا وعبورِ الإنسانِ بها :

اعلمْ : أنَّ الأحوالَ ثلاثةٌ : حالةٌ لمْ تكنْ فيها شيئاً ، وهيَ ما قبلَ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١٢٣) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١٢٤) .

وجودِكَ إلى الأزلِ ، وحالةٌ لا تكونُ فيها مشاهداً للدُّنيا ، وهيَ ما بعدَ موتِكَ إلى الأبدِ ، وحالةٌ متوسطةٌ بينَ الأبدِ والأزلِ ، وهيَ أيامُ حياتِكَ في الدُّنيا ، فانظرْ إلىٰ مقدارِ طولِها وانسبْهُ إلىٰ طرفَيِ الأزلِ والأبدِ ؛ حتَّىٰ تعلمَ أنَّهُ أقلُّ مِنْ منزلٍ قصيرٍ في سفرٍ طويلٍ .

ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما لي وللدُّنيا ، إنَّما مَثلي ومَثلُ الدُّنيا كمثَلِ راكبٍ سارَ في يومٍ صائفٍ ، فرُفِعَتْ لهُ شجرةٌ ، فقالَ تحتَ ظلِّها ساعةً ، ثمَّ راحَ وتركَها »(١) .

ومَنْ رأى الدُّنيا بهٰذهِ العينِ . . لمْ يركُنْ إليها ، ولمْ يبالِ كيفَ انقضَتْ أيامُهُ ؛ في ضرٍّ وضيقٍ ، أوْ في سعةٍ ورفاهيةٍ ، بلْ لا يبني لبنةً علىٰ لبنةٍ ، تُوفيَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وما وضعَ لبنةً علىٰ لبنةٍ ، ولا قصبةً علىٰ قصبةٍ(٢) .

ورأىٰ بعضَ الصحابةِ يبني بيتاً مِنَ خُصٍّ ، فقالَ : « ما أرى الأمرَ

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٧٧) ، وابن ماجه (٤١٠٩) .

(٢) فقد روى الطبراني في « الأوسط » (٣٢٦٥) عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً : « من سأل عني أو سرَّه أن ينظر إلي . . فلينظر إلىٰ أشعث شاحب مشمِّر ، لم يضع لبنة علىٰ لبنة ، ولا قصبة علىٰ قصبة ، رفع إليه عَلَم فشمَّر إليه ، اليوم المضمار وغداً السباق ، والغاية الجنة والنار » .
وروى ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٣٣٩) عن عمر بن عبد العزيز وكان لا يبني بنياناً : (سنة رسول الله خير من الدنيا وما فيها ، لم يبن بنياناً ، ولم يضع لبنة علىٰ لبنة ، ولا قصبة علىٰ قصبة) .

إلا أعجلَ مِنْ ذلكَ » ، وأنكرَ ذلكَ[1] .

وإلىٰ هـٰذا أشارَ عيسىٰ عليهِ السلامُ حيثُ قالَ : (الدُّنيا قنطرةٌ ، فاعبروها ولا تعمروها)[2] .

وهوَ مثالٌ واضحٌ ؛ فإنَّ الحياةَ الدُّنيا معبرٌ إلى الآخرةِ ، والمهدُ هوَ الميلُ الأولُ علىٰ رأسِ القنطرةِ ، واللَّحدُ هوَ الميلُ الثاني ، وبينَهُما مسافةٌ محدودةٌ ، فمِنَ الناسِ مَنْ قطعَ نصفَ القنطرةِ ، ومنهُمْ مَنْ قطعَ ثلثَها ، ومنهُمْ مَنْ قطعَ ثلثيها ، ومنهُمْ مَنْ لمْ يبقَ لهُ إلا خطوةٌ واحدةٌ وهوَ غافلٌ عنها ، وكيفمَا كانَ . . فلا بدَّ لهُ مِنَ العبورِ ، فالبناءُ على القنطرةِ وتزيينُها بأصنافِ الزينةِ وأنتَ عابرٌ عليها . . غايةُ الجهلِ والخذلانِ .

❊ ❊ ❊

مثالٌ آخرُ للدُّنيا في لينِ موردِها وخشونةِ مصدرِها :

اعلمْ : أنَّ أوائلَ أمورِ الدنيا تبدو هيِّنةً ليِّنةً ، يظنُّ الخائضُ فيها أنَّ حلاوةَ خفضِها كحلاوةِ الخوضِ فيها ، وهيهاتَ ! فإنَّ الخوضَ في الدُّنيا سهلٌ ، والخروجَ مِنْها معَ السلامةِ شديدٌ .

وقدْ كتبَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ إلىٰ سلمانَ الفارسيِّ رضيَ اللهُ عنهُ بمثالِها ،

---

(١) رواه أبو داوود (٥٢٣٥) ، والترمذي (٢٣٣٥) ، وكان قد مرَّ صلى الله عليه وسلم بعبد الله بن عمرو وهو يطيِّن مع أمه حائطاً له .

(٢) كذا في « القوت » (١/٢٥٦) ، ورواه بنحوه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣٣) .

فقالَ : (مثلُ الدُّنيا مثلُ الحيَّةِ ليِّنٌ مسُّها ، ويقتلُ سمُّها ، فأعرضْ عمَّا يعجبُكَ مِنْها لقلةِ ما يصحبُكَ مِنْها ، وضعْ عنكَ همومَها لما أيقنتَ مِنْ فراقِها ، وكنْ أسرَّ ما تكونُ فيها أحذرَ ما تكونُ لها ؛ فإنَّ صاحبَها كلَّما اطمأنَّ مِنْها إلىٰ سرورٍ . . أشخصَهُ عنهُ مكروهٌ ، والسلامُ)(١) .

* * *

مثالٌ آخرُ للدُّنيا في تعذُّرِ الخلاصِ مِنْ تبعاتِها بعدَ الخوضِ فيها :

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّما مَثَلُ صاحبِ الدُّنيا كمثَلِ الماشي في الماءِ ، هلْ يستطيعُ الذي يمشي في الماءِ ألاَّ تبتلَّ قدماهُ ؟! »(٢) .

وهٰذا يعرِّفُكَ جهالةَ قومٍ ظنُّوا أنَّهُمْ يخوضُونَ في نعيم الدُّنيا بأبدانِهِمْ وقلوبُهُمْ عنها مطهَّرةٌ ، وعلائقُها عَنْ بواطنِهِمْ منقطعةٌ ، وذلكَ مكيدَةٌ مِنَ الشيطانِ ، بلْ لوْ أُخرِجُوا ممَّا همْ فيهِ . . لكانوا أعظمَ المتفجِّعينَ بفراقِها ، فكما أنَّ المشيَ على الماءِ يقتضي بللاً لا محالةَ يلتصقُ بالقدمِ ، فكذلكَ ملابسةُ الدُّنيا تقتضي علاقةً وظلمةً في القلبِ ، بلْ علاقةُ القلبِ معَ الدُّنيا تمنعُ حلاوةَ العبادةِ .

قالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (بحقٍّ أقولُ لكُمْ : كما ينظرُ المريضُ إلى

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٧٤) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٨٩) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٩٩) عن الحسن بلاغاً ، ووصله في « الشعب » (٩١٤١) ، وفي « الزهد الكبير » (٢٥٧) عن الحسن عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً .

الطعامِ فلا يلتذُّ بهِ مِنْ شدَّةِ الوجعِ ؛ كذلكَ صاحبُ الدُّنيا لا يلتذُّ بالعبادةِ ولا يجدُ حلاوتَها معَ ما يجدُ مِنْ حبِّ الدُّنيا ، وبحقٍّ أقولُ لكُمْ : إنَّ الدابَّةَ إذا لمْ تُركبْ وتُمتهَنْ . . تصعَّبَتْ وتغيَّرَ خُلُقُها ؛ كذلكَ القلوبُ إذا لمْ تُرقَّقْ بذكرِ الموتِ وبنصَبِ العبادةِ . . تقسو وتغلظُ ، بحقٍّ أقولُ لكُمْ : إنَّ الزِّقَّ ما لمْ يتَخرَّقْ أوْ يقحَلْ[1] يوشكُ أنْ يكونَ وعاءً للعسلِ ؛ كذلكَ القلوبُ ما لمْ تخرقْها الشهواتُ أوْ يدنِّسْها الطمعُ أوْ يقسِّها النعيمُ فسوفَ تكونُ أوعيةً للحكمةِ)[2] .

وقالَ نبيُّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّما بقيَ مِنَ الدُّنيا بلاءٌ وفتنةٌ ، وإنَّما مثلُ عملِ أحدِكُمْ كمثَلِ الوعاءِ إذا طابَ أعلاهُ . . طابَ أسفلُهُ ، وإذا خبُثَ أعلاهُ . . خبُثَ أسفلُهُ »[3] .

❁ ❁ ❁

مثالٌ آخرُ لما بقيَ مِنَ الدُّنيا وقلَّتِهِ بالإضافةِ إلىٰ ما سبقَ :

قالَ أنسٌ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مثلُ هٰذهِ الدُّنيا مثَلُ ثوبٍ شُقَّ مِنْ أوَّلِهِ إلىٰ آخرِهِ ، فبقيَ متعلِّقاً بخيطٍ في آخرِهِ ، فيوشكُ ذلكَ الخيطُ أنْ ينقطعَ »[4] .

❁ ❁ ❁

---

(١) أي : ييبس .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٩٠) .

(٣) رواه ابن ماجه (٤١٩٩) ولم يذكر صدره، وهو بتمامه عند أحمد في « المسند » (٤/ ٩٤).

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٢١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/ ١٣١) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٧٥٩) .

مثالٌ آخرُ لتأديةِ علائقِ الدُّنيا بعضِها إلىٰ بعضٍ حتَّى الهلاكِ :

قالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (مثَلُ طالبِ الدُّنيا مثَلُ شاربِ ماءِ البحرِ ، كلَّما ازدادَ شرباً . . ازدادَ عطشاً حتَّىٰ يقتلَهُ)(١) .

❊ ❊ ❊

مثالٌ آخرُ لمخالفةِ آخرِ الدُّنيا أولَها ، ولنضارةِ أوائلِها وخبثِ عواقبِها :

اعلمْ : أنَّ شهواتِ الدُّنيا في القلبِ لذيذةٌ ؛ كشهواتِ الأطعمةِ في المعدةِ ، وسيجدُ العبدُ عندَ الموتِ لشهواتِ الدُّنيا في قلبِهِ مِنَ الكراهةِ والنتنِ والقبحِ ما يجدُهُ للأطعمةِ اللذيذةِ إذا بلغَتْ في المعدةِ غايتَها ، وكما أنَّ الطعامَ كلَّما كانَ ألذَّ طعماً ، وأكثرَ دسماً ، وأظهرَ حلاوةً . . كانَ رجيعُهُ أقذرَ وأشدَّ نتناً ؛ فكذلكَ كلُّ شهوةٍ في القلبِ هيَ أشهىٰ وألذُّ وأقوىٰ فنَتْنُها وكراهتُها والتأذِّي بها عندَ الموتِ أشدُّ ، بلْ هيَ في الدُّنيا مشاهدةٌ ؛ فإنَّ مَنْ نُهبَتْ دارُهُ وأُخِذَ أهلُهُ وولدُهُ ومالُهُ . . فتكونُ مصيبتُهُ وألمُهُ وتفجُّعُهُ في كلِّ ما فقدَهُ بقدْرِ لذَّتِهِ بهِ ، وحبِّهِ لهُ وحرصِهِ عليهِ ، فكلُّ ما كانَ عندَ الوجودِ أشهىٰ عندَهُ وألذَّ . . فهوَ عندَ الفقدِ أدهىٰ وأمرُّ ، وما للموتِ معنىً إلا فقدُ ما في الدُّنيا .

وقدْ رُوِيَ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ للضحَّاكِ بنِ سفيانَ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣٤٢) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٢٤٦) .

الكلابيّ : « ألستَ تُؤتَىٰ بطعامِكَ وقَدْ مُلِّحَ وقُزِّحَ ثمَّ تشربُ عليهِ اللَّبنَ والماءَ ؟ » قالَ : بلىٰ ، قالَ : « فإلامَ يصيرُ ؟ » قالَ : إلىٰ ما قدْ علمتَ يا رسولَ اللهِ ، قالَ : « فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ ضربَ مثلَ الدُّنيا لما يصيرُ إليهِ طعامُ ابنِ آدمَ »(١) .

وقالَ أُبيُّ بنُ كعبٍ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الدُّنيا ضُربَتْ مثلاً لابنِ آدمَ ، فانظرْ إلىٰ ما يخرُجُ مِن ابنِ آدمَ وإنْ قزَّحَهُ وملَّحَهُ إلامَ يصيرُ ؟ »(٢) .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ ضربَ الدُّنيا لمطعمِ ابنِ آدمَ مثلاً ، وضربَ مطعمَ ابنِ آدمَ للدُّنيا مثلاً وإنْ قزَّحَهُ وملَّحَهُ » ، وقالَ الحسنُ : (قدْ رأيتُهُمْ يطيبونَهُ بالأفاويهِ والطيبِ ، ثمَّ يرمونَ بهِ حيثُ رأيتُمْ)(٣) .

وقدْ قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴾ ، قالَ ابنُ عباسٍ : (إلىٰ رجيعِهِ)(٤) .

وقالَ رجلٌ لابنِ عمرَ : إنِّي أريدُ أنْ أسألَكَ وأستحيي ، قالَ : فلا

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٣/٤٥٢) ، والطبراني في « الكبير » (٨/٢٩٩) ، وليس فيه ذكر الملح والقزح ، والقِزْح : الأبزار التي يستصلح بها الطعام .
(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٤٩٤) .
(٣) كذا روى المرفوع مع قول الحسن ابنُ المبارك في « الزهد » (٤٩٥) ، والبيهقي في « الشعب » (٥٢٦٤) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢١٣) .

تستحيِ وسلْ ، قالَ : إذا قضىٰ أحدُنا حاجتَهُ فقامَ ينظرُ إلىٰ ذلكَ منهُ ؟! قالَ : نعمْ ، إنَّ الملكَ يقولُ لهُ : انظرْ ، هـٰذا ما بخلتَ بهِ ، انظرْ إلىٰ ماذا صارَ[1] .

وكانَ بُشيرُ بنُ كعبٍ يقولُ : انطلقُوا حتَّىٰ أريَكُمُ الدُّنيا ، فيذهبُ بهِمْ إلىٰ مزبلةٍ ، فيقولُ : انظرُوا إلىٰ ثمارِهِمْ ، ودجاجِهِمْ ، وعسلِهِمْ ، وسمنِهِمْ[2] .

* * *

مثالٌ آخرُ في نسبةِ الدُّنيا إلى الآخرةِ :

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما الدُّنيا في الآخرةِ إلا مثلُ ما يجعلُ أحدُكُمْ إصبَعَهُ في اليمِّ ، فلينظُرْ بمَ يرجعُ إليهِ »[3] .

* * *

مثالٌ آخرُ للدُّنيا وأهلِها في اشتغالِهِمْ بنعيمِ الدُّنيا وغفلتِهِمْ عنِ الآخرةِ وحسراتِهِمُ العظيمةِ بسببِها :

اعلمْ : أنَّ أهلَ الدُّنيا في غفلَتِهِمْ مثلُهُمْ مثلُ قومٍ ركبوا سفينةً ، فانتهَتْ

---

(١) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٨/ ١١٢) ، وفي « القوت » (١/ ٢٤٤) : (وكذلك روينا في تأويل قوله تعالىٰ : ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ ، قيل : مواضع الغائط والبول) .

(٢) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٨/ ١١٣) .

(٣) رواه مسلم (٢٨٥٨) .

بِهِمْ إلىٰ جزيرةٍ ، فأمرَهُمُ الملاَّحُ بالخروجِ لقضاءِ الحاجةِ ، وحذَّرَهُمُ المقامَ وخوفَهُمْ مرورَ السفينةِ واستعجالَها ، فتفرَّقُوا في نواحي الجزيرةِ ، فقضىٰ بعضُهُمْ حاجتَهُ ، وبادرَ إلى السفينةِ ، فصادفَ المكانَ خالياً ، فأخذَ أوسعَ الأماكنِ وألينَها وأوفقَها لمرادِهِ .

وبعضُهُمْ توقَّفَ في الجزيرةِ ينظرُ إلىٰ أنوارِها وأزهارِها العجيبةِ ، وغياضِها الملتفَّةِ ، ونغماتِ طيورِها الطيبةِ ، وألحانِها الموزونةِ الغريبةِ ، وصارَ يلحظُ مِنْ تربتِها أحجارَها وجواهرَها ومعادنَها المختلفةَ الألوانِ والأشكالِ ، الحسنةَ المنظرِ ، العجيبةَ النقوشِ ، السالبةَ أعينَ الناظرينَ بحسنِ زِبْرِجِها وعجائبِ صورِها ، ثمَّ تنبَّهَ لخطرِ فواتِ السفينةِ ، فرجعَ إليها ، فلمْ يصادفْ إلا مكاناً ضيقاً حرجاً فاستقرَّ فيهِ .

وبعضُهُمْ أكبَّ علىٰ تلكَ الأصدافِ والأحجارِ ، وأعجبَهُ حسنُها ، ولمْ تسمحْ نفسُهُ بإهمالِها ، فاستصحَبَ منها جملةً ، فلمْ يجدْ في السفينةِ إلا مكاناً ضيقاً ، وزادَهُ ما حملَهُ مِنَ الحجارةِ ضيقاً ، وصارَ ثقلاً عليهِ ووبالاً ، فندمَ علىٰ أخذِهِ ولم يقدرْ علىٰ رميهِ ، ولمْ يجدْ مكاناً لوضعِهِ فحملَهُ في السفينةِ علىٰ عنقِهِ ، وهوَ متأسِّفٌ علىٰ أخذِهِ ، وليسَ ينفعُهُ التأسُّفُ .

وبعضُهُمْ تولَّجَ الغياضَ ، ونسيَ المركبَ ، وبعُدَ في متفرَّجِهِ ومتنزَّهِهِ ، حتَّىٰ لمْ يبلغْهُ نداءُ الملاَّحِ ؛ لاشتغالِهِ بأكلِ تلكَ الثمارِ ، واشتمامِ تلكَ الأنوارِ ، والتفرُّجِ بينَ تلكَ الأشجارِ ، وهوَ معَ ذلكَ خائفٌ علىٰ نفسِهِ مِنَ

السباعِ ، وغيرُ خالٍ مِنَ السقطاتِ والنكباتِ ، ولا ينفكُّ عنْ شوكٍ يتشبَّثُ بثيابِهِ ، وغصنٍ يجرحُ بدنَهُ ، وشوكةٍ تدخلُ في رِجْلِهِ ، وصوتٍ هائلٍ يفزعُ مِنْهُ ، وعوسَجٍ يخرِقُ ثيابَهُ ويهتِكُ عورتَهُ ، ويمنعُهُ عنِ الانصرافِ لوْ أرادَهُ ، فلمَّا بلغَهُ نداءُ أهلِ السفينةِ . . انصرفَ بعضُهُمْ مثقلاً بما معَهُ ولمْ يجدْ في المركبِ موضعاً ، فبقيَ على الشطِّ حتَّىٰ ماتَ جوعاً ، وبعضُهُمْ لمْ يبلغْهُ النداءُ ، وسارَتِ السفينةُ ، فمنهُمْ مَنِ افترسَتْهُ السباعُ ، ومنهُمْ مَنْ تاهَ فهامَ علىٰ وجهِهِ حتَّىٰ هلَكَ ، ومنهُمْ مَنْ ماتَ في الأوحالِ ، ومنهُمْ مَنْ نهشَتْهُ الحيَّاتُ ، وتفرقُوا كالجيفِ المنتنةِ .

وأما مَنْ وصلَ إلى المركبِ بثقلِ ما أخذَهُ مِنَ الأزهارِ والأحجارِ المزبرجةِ . . فقدِ استرقَّتْهُ ، وشغلَهُ الحزنُ بحفظِها ، والخوفُ مِنْ فوتِها ، وقدْ ضيَّقَتْ عليهِ مكانَهُ ، فلمْ يلبثْ أنْ ذبلَتْ تلكَ الأزهارُ ، وكمدَتْ ألوانُ الأحجارِ ، وظهرَ نتْنُ رائحتِها ، فصارَتْ معَ كونِها مضيِّقةً عليهِ مؤذيةً لهُ بنتْنِها ووحشتِها ، فلمْ يجدْ حيلةً إلاَّ أنْ ألقاها في البحرِ هرباً مِنْها ، وقدْ أثَّرَ فيهِ ما أكلَ مِنْها ، فلمْ ينتهِ إلى الوطنِ إلاَّ بعدَ أنْ ظهرَتْ عليهِ الأسقامُ بتلكَ الروائحِ ، فبلغَ سقيماً مدبراً .

ومَنْ رجعَ قريباً . . فما فاتَهُ إلا سعةُ المحلِّ ، فتأذَّىٰ بضيقِ المكانِ مدّةً ، ولكنْ لمَّا وصلَ إلى الوطنِ . . استراحَ .

ومَنْ رجعَ أوَّلاً . . وجدَ المكانَ الأوسعَ ووصلَ إلى الوطنِ سالماً .

فهٰذا مثالُ أصنافِ أهلِ الدُّنيا في اشتغالِهِمْ بحظوظِهِمُ العاجلةِ ، ونسيانِهِمْ موردَهُمْ ومصدرَهُمْ ، وغفلتِهِمْ عنْ عاقبةِ أمرِهِمْ ، وما أقبحَ مَنْ يزعُمُ أنَّهُ بصيرٌ عاقلٌ أنْ تغرَّهُ أحجارُ الأرضِ وهيَ الذهبُ والفضةُ ، وهشيمُ النبتِ ، وهيَ زينةُ الدُّنيا ، وشيءٌ مِنْ ذلكَ لا يصحَبُهُ عندَ الموتِ ! بلْ يصيرُ كلاًّ ووبالاً عليهِ ، وهوَ في الحالِ شاغلٌ لهُ بالحزنِ والخوفِ عليهِ ، وهٰذهِ حالُ الخلقِ كلِّهِمْ ، إلا مَنْ عصمَهُ اللهُ تعالىٰ .

❀ ❀ ❀

مثالٌ آخرُ لاغترارِ الخلقِ بالدُّنيا وضعفِ إيمانِهِمْ بقولِ اللهِ تعالىٰ في تحذيرِهِ إياهُمْ غوائلَ الدُّنيا :

قالَ الحسنُ رحمهُ اللهُ : بلغَني أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ لأصحابِهِ : « إنَّما مثَلي ومثلُكُمْ ومثَلُ الدُّنيا كمثلِ قومٍ سلكُوا مفازةً غبراءَ ، حتَّىٰ إذا لمْ يدروا ما سلكوا مِنْها أكثرَ ، أو ما بقيَ . . أنفدُوا الزَّادَ ، وحسروا الظَّهرَ[1] ، وبقوا بينَ ظهرانيِ المفازةِ لا زادَ ولا حمولةَ ، فأيقنُوا بالهَلَكَةِ ، فبينا هُمْ كذلكَ إذْ خرجَ عليهِمْ رجلٌ في حُلَّةٍ يقطرُ رأسُهُ ، فقالُوا : هٰذا قريبُ عهدٍ بريفٍ ، وما جاءَكُمْ هٰذا إلا مِنْ قريبٍ ، فلمَّا انتهىٰ إليهِمْ . . قالَ : يا هؤلاءِ ؛ قالوا : يا هٰذا ؛ قالَ : علامَ أنتُمْ ؟ قالوا : علىٰ ما ترىٰ ؛ قالَ : أرأيتكُمْ إنْ هديتُكُمْ إلىٰ ماءٍ رُواءٍ ورياضٍ خُضْرٍ ما تعملُونَ ؟

(١) أي : أعروه ، وهو كناية عن هلاك ما يركبونه . « إتحاف » (٨/ ١١٤) .

قالوا : لا نعصيكَ شيئاً ، قالَ : عهودكُمْ ومواثيقَكُمْ باللهِ ، فأعطَوهُ عهودَهُمْ ومواثيقَهُمْ باللهِ لا يعصونَهُ شيئاً ، قالَ : فأوردَهُمْ ماءً رُواءً ورياضاً خضراً ، فمكثَ فيهِمْ ما شاءَ اللهُ ، ثمَّ قالَ : يا هؤلاءِ ؛ قالُوا : يا هـٰذا ؛ قالَ : الرَّحيلَ ، قالُوا : إلىٰ أينَ ؟ قالَ : إلىٰ ماءٍ ليسَ كمائِكُمْ ، وإلىٰ رياضٍ ليسَتْ كرياضِكُمْ ، فقالَ أكثرُهُمْ : واللهِ ؛ ما وجدنا هـٰذا حتَّىٰ ظننَّا أنَّا لنْ نجدَهُ ، وما نصنعُ بعيشٍ خيرٍ مِنْ هـٰذا ؟ قالَ : وقالَتْ طائفةٌ وهُمْ أقلُّهُمْ : ألمْ تعطوا هـٰذا الرَّجلَ عُهُودَكُمْ ومواثيقَكُمْ باللهِ ألا تعصُوهُ شيئاً وقدْ صدقَكُمْ في أوَّلِ حديثِهِ ؟! فواللهِ ؛ ليصدقَنَّكُمْ في آخرِهِ ، فراحَ فيمَنِ اتَّبعَهُ وتخلَّفَ بقيَّتُهُمْ ، فبدَرَ بِهِمْ عدوٌّ ، فأصبحوا مِن بينِ أسيرٍ وقتيلٍ »[1] .

❊ ❊ ❊

مثالٌ آخرُ لتنعُّمِ الناسِ بالدُّنيا ثمَّ تفجُّعِهِمْ علىٰ فراقِها :

اعلمْ : أنَّ مثلَ الناسِ فيما أُعطوا مِنَ الدُّنيا مثَلُ رجلٍ هيَّأَ داراً وزيَّنَها ، وهوَ يدعُو إلىٰ دارِهِ على الترتيبِ قوماً واحداً بعدَ واحدٍ ، فدخلَ واحدٌ دارَهُ ، فقُدِّمَ إليهِ طبقُ ذهبٍ عليهِ بخورٌ ورياحينُ ليشَمَّهُ ويتركَهُ لمَنْ يلحقُهُ ، لا ليتملَّكَهُ ويأخذَهُ ، فجهلَ رسمَهُ ، فظنَّ أنَّهُ قدْ وُهِبَ ذلكَ لَهُ ، فتعلَّقَ بهِ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٨٨) عن الحسن بلاغاً ، وروىٰ نحوه أحمد في « مسنده » (١/ ٢٦٧) ، والطبراني في « الكبير » (١٢/ ٢١٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما في رؤيا أريها النبي صلى الله عليه وسلم وحدَّث بها أصحابه ، وأنه صلى الله عليه وسلم مثل الرجل الهادي للقوم .

قلبُهُ لما ظنَّ أنَّهُ لهُ ، فلمَّا استُرجِعَ منهُ . . ضجِرَ وتفجَّعَ ، ومَنْ كانَ عالماً برسمِهِ . . انتفعَ بهِ وشكرَهُ ، وردَّهُ بطيبةِ قلبٍ وانشراحِ صدرٍ .

فكذلكَ مَنْ عرفَ سُنَّةَ اللهِ في الدُّنيا . . علمَ أنَّها دارُ ضيافةٍ ، سُبِّلَتْ على المجتازينَ لا على المقيمينَ ؛ ليتزوَّدُوا مِنْها وينتفعُوا بما فيها كما ينتفعُ المسافرونَ بالعواري ، ولا يصرفُونَ إليها كلَّ قلوبِهِمْ حتىٰ تعظُمَ مصيبتُهُمْ عندَ فراقِها .

فهٰذهِ أمثلةُ الدُّنيا وآفاتِها وغوائِلِها ، نسألُ اللهَ تعالى اللطيفَ الخبيرَ حسْنَ العونِ بكرمِهِ وحلمِهِ .

* * *

بيان حقيقة الدّنيا وماهيتها في حقّ العبد

اعلمْ : أنَّ معرفةَ ذمِّ الدُّنيا لا تكفيكَ ما لمْ تعرفِ الدُّنيا المذمومةَ ما هيَ ، وما الذي ينبغي أنْ يُجتنبَ منْها ، وما الذي لا يُجتنبُ ، فلا بدَّ وأنْ نبيِّنَ الدُّنيا المذمومةَ المأمورَ باجتنابِها ؛ لكونِها عدوةً قاطعةً لطريقِ اللهِ تعالىٰ ما هيَ ؟

فنقولُ : دنياكَ وآخرتُكَ عبارةٌ عنْ حالتينِ مِنْ أحوالِ قلبِكَ ، فالقريبُ الداني منْها يُسمَّىٰ دنيا ، وهوَ كلُّ ما قبلَ الموتِ ، والمتراخي المتأخِّرُ يُسمَّىٰ آخرةً ، وهوَ ما بعدَ الموتِ ، فكلُّ ما لكَ فيهِ حظٌّ وغرضٌ ونصيبٌ وشهوةٌ ولذَّةٌ في عاجلِ الحالِ قبلَ الوفاةِ . . فهوَ الدُّنيا في حقِّك .

إلا أنَّ جميعَ ما لكَ إليهِ ميلٌ وفيهِ نصيبٌ وحظٌّ . . فليسَ بمذمومٍ ، بلْ هوَ ثلاثةُ أقسامٍ :

القسمُ الأولُ : ما يصحبُكَ في الآخرةِ ، وتبقىٰ معَكَ ثمرتُهُ بعدَ الموتِ ، وهوَ شيئانِ : العلمُ والعملُ فقطْ .

وأعني بالعلمِ : العلمَ باللهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ ، وملائكتِهِ ، وكتبِهِ ، ورسلِهِ ، وملكوتِ أرضِهِ وسمائِهِ ، والعلمِ بشريعةِ نبيِّهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

وأعني بالعملِ : العبادةَ الخالصةَ لوجهِ اللهِ تعالىٰ .

وقدْ يأنسُ العالمُ بالعلمِ ، حتَّىٰ يصيرَ ذلكَ ألذَّ الأشياءِ عندَهُ ، فيهجرَ النومَ والمنكحَ والمطعمَ في لذَّتِهِ ؛ لأنَّهُ أشهىٰ عندَهُ مِنْ جميعِ ذلكَ ، فقدْ صارَ حظّاً عاجلاً في الدُّنيا ، ولكنَّا إذا ذكرنا الدُّنيا المذمومةَ . . لمْ نعدَّ هٰذا مِنَ الدُّنيا أصلاً ، بلْ قلنا : إنَّهُ مِنَ الآخرةِ .

وكذلكَ العابدُ قدْ يأنسُ بعبادتِهِ فيستلذُّها ؛ بحيثُ لوْ مُنِعَ عنها . . لكانَ ذلكَ أعظمَ العقوباتِ عليهِ ، حتَّىٰ قالَ بعضُهُمْ : (ما أخافُ مِنَ الموتِ إلا مِنْ حيثُ يحولُ بيني وبينَ قيامِ الليلِ)[1] .

وكانَ آخرُ يقولُ : (اللَّهمَّ ؛ ارزقْني قوَّةَ الصلاةِ والركوعِ والسجودِ في القبرِ)[2] ، فهٰذا قدْ صارَتِ الصلاةُ مِنَ حظوظِهِ العاجلةِ ، وكلُّ حظٍّ عاجلٍ فاسمُ الدُّنيا ينطلقُ عليهِ مِنْ حيثُ الاشتقاقُ مِنَ الدنوِّ ، ولكنَّا لسنا نعني بالدُّنيا المذمومةِ ذلكَ .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « حُبِّبَ إليَّ مِنْ دنياكُمْ ثلاثٌ : الطِّيبُ والنِّساءُ وقرَّةُ عيني في الصَّلاةِ »[3] ، فجعلَ الصلاةَ مِنْ جملةِ ملاذِّ الدُّنيا ؛

---

(١) فقد روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٩/ ٢٧٥) عن أبي سليمان الداراني قوله : (لأهل الطاعة بالهمّ ألذ من أهل اللهو بلهوهم ، ولولا الليل . . ما أحببت البقاء في الدنيا) .

(٢) وهو ثابت البناني ، روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣١٩) دعاءه : (اللهم ؛ إن أذنت لأحد أن يصلي في قبره . . فأذن لثابت أن يصلي في قبره) .

(٣) رواه النسائي (٧/ ٦١) ، وأحمد في « المسند » (٣/ ١٢٨) ، وليس لفظ (ثلاث) منه ، وتبع المصنف هنا في لفظه صاحب « القوت » (٢/ ٢٤٩) ، قال الحافظ ابن حجر في « التلخيص الحبير » (٥/ ٢١٥٥) : (وقد اشتهر على الألسنة بزيادة =

وذلكَ لأنَّ كلَّ ما يدخلُ في الحسِّ والمشاهدةِ فهوَ مِنْ عالمِ الشهادةِ ، وهوَ مِنَ الدُّنيا ، والتلذُّذُ بتحريكِ الجوارحِ بالركوعِ والسجودِ إنَّما يكونُ في الدُّنيا ؛ فلذلكَ أضافَها إلى الدُّنيا ، إلاَّ أنَّا في هٰذا الكتابِ لسنا نتعرَّضُ إلاَّ للدُّنيا المذمومةِ ، فنقولُ : هٰذهِ ليسَتْ مِنَ الدُّنيا .

* * *

القسمُ الثاني ـ وهوَ المقابلُ لهُ على الطرفِ الأقصىٰ ـ : كلُّ ما فيهِ حظٌّ عاجلٌ ، ولا ثمرةَ لهُ في الآخرةِ أصلاً ؛ كالتلذذِ بالمعاصي كلِّها ، والتنعُّمِ بالمباحاتِ الزائدةِ علىٰ قدرِ الضروراتِ والحاجاتِ ، الداخلةِ في جملةِ الرفاهيةِ والرعوناتِ ؛ كالتنعُّمِ بالقناطيرِ المقنطرةِ مِنَ الذهبِ والفضةِ ، والخيلِ المسوَّمةِ ، والأنعامِ ، والحرثِ ، والغلمانِ ، والجواري ، والخيولِ ، والمواشي ، والقصورِ ، والدورِ ، ورفيعِ الثيابِ ، ولذائذِ الأطعمةِ ؛ فحظُّ العبدِ مِنْ هٰذهِ كلِّها هيَ الدُّنيا المذمومةُ ، وفيما يُعدُّ فضولاً أوْ في محلِّ الحاجةِ نظرٌ طويلٌ ؛ إذْ رُويَ عنْ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ : أنَّهُ استعملَ أبا الدرداءِ علىٰ حمصَ ، فاتخذَ كنيفاً أنفقَ عليهِ درهمينِ ، فكتبَ إليهِ عمرُ : (مِنْ عمرَ بنِ الخطابِ أميرِ المؤمنينَ إلىٰ عويمرٍ ، قدْ كانَ لكَ في

= « ثلاث » ، وشرحه الإمام أبو بكر بن فورك في جزء مفرد علىٰ ذلك ، وكذلك ذكره الغزالي في « الإحياء » ، ولم نجد لفظ « ثلاث » في شيء من طرقه المسندة) ، وعلىٰ فرض عدمها لا يمنع ما ذكره المصنف هنا ؛ لنفي قطعية كون الصلاة من الآخرة بالنص .

بناءِ فارسَ والرومِ ما تكتفي بهِ عنْ عمرانِ الدُّنيا حينَ أذنَ اللهُ بخرابِها ، فإذا أتاكَ كتابي هـٰذا . . فقدْ سيَّرتُكَ وأهلَكَ إلىٰ دمشقَ)[1] ، فلمْ يزلْ بها حتَّىٰ ماتَ ، فهـٰذا رآهُ فضولاً مِنَ الدُّنيا ، فتأملْ فيهِ .

❀ ❀ ❀

القسمُ الثالثُ ـ وهوَ متوسِّطٌ بينَ الطرفينِ ـ : كلُّ حظٍّ في العاجلِ مُعِينٍ علىٰ أعمالِ الآخرةِ ؛ كقدْرِ القوتِ مِنَ الطعامِ ، والقميصِ الواحدِ الخشنِ ، وكلِّ ما لا بدَّ منْهُ ليتأتَّىٰ للإنسانِ البقاءُ والصحةُ التي بها يتوصلُ إلى العلمِ والعملِ ، وهـٰذا ليسَ مِنَ الدُّنيا كالقسمِ الأولِ ؛ لأنَّهُ مُعِينٌ على القسمِ الأوَّلِ ووسيلةٌ إليهِ ، فمهما تناولَهُ العبدُ علىٰ قصدِ الاستعانةِ بهِ على العلمِ والعملِ . . لمْ يكنْ بهِ متناولاً للدُّنيا ، ولمْ يصِرْ بهِ مِنْ أبناءِ الدُّنيا ، وإنْ كانَ باعثُهُ الحظَّ العاجلَ دونَ الاستعانةِ على التقوىٰ . . التحقَ بالقسمِ الثاني ، وصارَ مِنْ جملةِ الدُّنيا .

❀ ❀ ❀

ولا يبقىٰ معَ العبدِ عندَ الموتِ إلا ثلاثُ صفاتٍ : صفاءُ القلبِ ـ أعني : طهارتَهُ عنْ أدناسِ الدُّنيا ـ وأنسُهُ بذكرِ اللهِ تعالىٰ ، وحبُّهُ للهِ تعالىٰ ، وصفاءُ القلبِ وطهارتُهُ لا يحصلانِ إلاَّ بالكفِّ عنْ شهواتِ الدُّنيا ، والأنسُ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٢٦٦) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٢٥١) .

لا يحصلُ إلا بكثرةِ ذكرِ اللهِ تعالىٰ والمواظبةِ عليهِ ، والحبُّ لا يحصلُ إلا بالمعرفةِ ، ولا تحصلُ معرفةُ اللهِ إلا بدوامِ الفكرِ ، وهـٰذهِ الصفاتُ الثلاثُ هيَ المنجياتُ المسعداتُ بعدَ الموتِ ، وهيَ الباقياتُ الصالحاتُ .

أمَّا طهارةُ القلبِ عنْ شهواتِ الدُّنيا. . فهيَ مِنَ المنجياتِ ؛ إذْ تكونُ جُنَّةً بينَ العبدِ وبينَ عذابِ اللهِ ؛ كما وردَ في الأخبارِ : « أنَّ أعمالَ العبدِ تناضلُ عنهُ ، فإذا جاءَ العذابُ مِنْ قبَلِ رجليهِ . . جاءَ قيامُ الليلِ يدفعُ عنهُ ، وإذا جاءَ مِنْ قبَلِ يديهِ . . جاءتِ الصَّدقةُ تدفعُ عنهُ . . . » الحديثَ[1] .

وأمَّا الأنسُ والحبُّ. . فهما مِنَ المسعداتِ ، وهما موصلانِ العبدَ إلىٰ لذَّةِ اللقاءِ والمشاهدةِ ، وهـٰذهِ السعادةُ تتعجَّلُ عقيبَ الموتِ إلىٰ أنْ يدخلَ أوانُ الرؤيةِ في الجنةِ ، فيصيرُ القبرُ روضةً مِنْ رياضِ الجنَّةِ ، وكيفَ لا يكونُ القبرُ عليهِ روضةً مِنْ رياضِ الجنَّةِ ولمْ يكنْ لهُ إلا محبوبٌ واحدٌ ، وكانَتِ العوائقُ تعوقُهُ عنِ الأنسِ بدوامِ ذكرِهِ ومطالعةِ جمالِهِ ، فارتفعَتِ العوائقُ ، وأفلَتَ مِنَ السجنِ ، وخُلِّيَ بينَهُ وبينَ محبوبِهِ ، فقدمَ عليهِ مسروراً سليماً مِنَ الموانعِ ، آمناً مِنَ الفراقِ ؟!

---

(١) رواه بنحوه وبطوله الطبراني في « الأحاديث الطوال » (٣٩) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٤/٤٠٦) ، وروىٰ أحمد في « مسنده » (٦/٣٥٢) من حديث أسماء رضي الله عنها مرفوعاً : « إذا دخل الإنسان قبره ؛ فإن كان مؤمناً . . أحف به عمله ؛ الصلاة والصيام ، قال : فيأتيه الملك من نحو الصلاة ، فترده ، ومن نحو الصيام فيرده . . . » الحديث .

وكيفَ لا يكونُ محبُّ الدُّنيا عندَ الموتِ معذَّباً ولمْ يكنْ لهُ محبوبٌ إلا في الدُّنيا ، وقد غُصِبَ منهُ ، وحيلَ بينَهُ وبينَهُ ، وسُدَّتْ عليهِ طرُقُ الحيلةِ في الرجوعِ إليهِ ؟!

[من السريع]

مـا حـالُ مَـنْ كـانَ لَـهُ واحِـدٌ غُيِّـبَ عَنْـهُ ذَلِـكَ ٱلْـواحِـدُ(١)

وليسَ الموتُ عدماً ، إنَّما هوَ فراقٌ لمحابِّ الدُّنيا ، وقدومٌ على اللهِ تعالىٰ .

فإذاً ؛ سالكُ طريقِ الآخرةِ هوَ المواظبُ علىٰ أسبابِ هـٰذهِ الصفاتِ الثلاثِ ؛ وهيَ الذكرُ ، والفكرُ ، والعملُ الذي يفطِمُهُ عنْ شهواتِ الدُّنيا ، ويبغِّضُ إليهِ ملاذَّها ، ويقطعُهُ عنها ، وكلُّ ذلكَ لا يمكنُ إلا بصحَّةِ البدنِ ، وصحةُ البدنِ لا تُنالُ إلا بقوتٍ وملبسٍ ومسكنٍ ، ويحتاجُ كلُّ واحدٍ إلىٰ أسبابٍ ، فالقدْرُ الذي لا بدَّ منهُ مِنْ هـٰذهِ الثلاثةِ إذا أخذَهُ العبدُ مِنَ الدُّنيا للآخرةِ . . لمْ يكنْ مِنْ أبناءِ الدُّنيا ، وكانَتِ الدُّنيا في حقِّه مزرعةً للآخرةِ ، وإنْ أخذَ ذلكَ لحظِّ النفسِ وعلىٰ قصدِ التَّنعُّمِ . . صارَ مِنْ أبناءِ الدُّنيا والراغبينَ في حظوظِها .

إلا أنَّ الرغبةَ في حظوظِ الدُّنيا تنقسمُ إلىٰ ما يعرِّضُ صاحبَهُ لعذابِ الآخرةِ ، ويُسمَّىٰ ذلكَ حراماً ، وإلىٰ ما يحولُ بينَهُ وبينَ الدرجاتِ العُلا ، ويعرِّضُهُ لطولِ الحسابِ ، ويُسمَّىٰ ذلكَ **حلالاً** ، والبصيرُ يعلمُ أنَّ طولَ

---

(١) انظر « التمثيل والمحاضرة » (ص ٢١١) .

الموقفِ في عَرصاتِ القيامةِ لأجلِ المحاسبةِ أيضاً عذابٌ ؛ فمنْ نُوقِشَ الحسابَ.. عُذِّبَ[1] ؛ إذْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « حلالُها حسابٌ ، وحرامُها عذابٌ »[2] ، وقدْ قالَ أيضاً : « حلالُها عذابٌ » ، إلا أنَّهُ عذابٌ أخفُّ مِنْ عذابِ الحرامِ ، بلْ لوْ لمْ يكنِ الحسابُ.. لكانَ ما يفوِّتُ مِنَ الدرجاتِ العُلا في الجنةِ ، وما يردُ على القلبِ مِنَ التحسُّرِ علىٰ تفويتِها بحظوظٍ حقيرةٍ خسيسةٍ لا بقاءَ لها هوَ أيضاً عذابٌ ، وقسْ بهِ حالَكَ في الدُّنيا إذا نظرتَ إلىٰ أقرانِكَ وقدْ سبقوكَ بسعاداتٍ دنيويَّةٍ كيفَ يتقطَّعُ قلبُكَ عليها حسرةً ، معَ علمِكَ بأنَّها سعاداتٌ منصرمةٌ لا بقاءَ لها ، ومنغصةٌ بكدوراتٍ لا صفاءَ لها ، فما حالُكَ في فواتِ سعادةٍ لا يحيطُ الوصفُ بعظمتِها ، وتنقطعُ الدُّهورُ دونَ غايتِها ؟!

فكلُّ مَنْ تنعَّمَ في الدُّنيا ولوْ بسماعِ صوتٍ مِنْ طائرٍ ، أوْ بالنظرِ إلىٰ خُضْرةٍ ، أوْ بشربةِ ماءٍ باردٍ.. فإنَّهُ ينقصُ مِنْ حظِّهِ في الآخرةِ أضعافُهُ ، وهوَ المعنيُّ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لعمرَ رضيَ اللهُ عنهُ : « هـٰذا مِنَ النَّعيمِ الذي تُسألُ عنهُ »[3] ، أشارَ بهِ إلى الماءِ الباردِ ، والتعرُّضُ لجوابِ السؤالِ

---

(١) كما رَوىٰ ذلك مرفوعاً البخاري (١٠٣ ، ٦٥٣٦) ، ومسلم (٢٨٧٦) .

(٢) رواه الديلمي في « مسند الفردوس » (٨١٩٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً .

(٣) رواه النسائي (٦/٢٤٦) ، وأحمد في « المسند » (٣/٣٣٨) ، والبيهقي في « الشعب » (٤٢٧٩) .

فيهِ ذلٌّ ، وخوفٌ ، وخطرٌ ، ومشقةٌ ، وانتظارٌ ، وكلُّ ذلكَ مِنْ نقصانِ الحظِّ ، ولذلكَ قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (اعزلُوا عنِّي حسابَها) حيثُ كانَ بهِ عطشٌ ، فعُرِضَ عليهِ ماءٌ باردٌ بعسلٍ ، فأدارَهُ في كفِّهِ ، ثمَّ امتنعَ عنْ شربِهِ[1] .

فالدُّنيا قليلُها وكثيرُها ، حلالُها وحرامُها ملعونةٌ ، إلا ما أعانَ علىٰ تقوى اللهِ ؛ فإنَّ ذلكَ القدْرَ ليسَ مِنَ الدُّنيا ، وكلُّ مَنْ كانَتْ معرفتُهُ أقوىٰ وأتقنَ . . كانَ حذرُهُ مِنْ نعيمِ الدُّنيا أشدَّ ، حتَّىٰ إنَّ عيسىٰ عليهِ السلامُ وضعَ رأسَهُ علىٰ حجرٍ لمَّا نامَ ، ثمَّ رمىٰ بهِ ؛ إذْ تمثَّلَ لهُ إبليسُ وقالَ لهُ : رغبتَ في الدُّنيا[2] .

وحتَّىٰ إنَّ سليمانَ عليهِ السلامُ في ملكِهِ كانَ يطعمُ الناسَ لذائذَ الأطعمةِ وهوَ يأكلُ خبزَ الشعيرِ ، فجعلَ المُلْكَ علىٰ نفسِهِ بهٰذا الطريقِ امتحاناً وشدةً ؛ فإنَّ الصبرَ عنْ لذائذِ الأطعمةِ معَ القدرةِ عليها ووجودِها أشدُّ[3] .

ولهٰذا زوى اللهُ تعالى الدُّنيا عنْ نبيِّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فكانَ يطوي

---

(١) رواه أحمد في « الزهد » (٦٢٨) ، وروى ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٤٩٢) عن بكير بن عتيق قال : سقيت سعيد بن جبير شربة من عسل في قدح ، فشربها ثم قال : والله ؛ لأسألنَّ عن هٰذا ، فقلت : لِمَهْ ؟ فقال : شربته وأنا أستلذُّه .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (٥٥٧) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤١٦/٤٧) .
(٣) رواه بنحوه أحمد في « الزهد » (٤٦٦) .

أياماً[١] ، وكانَ يشدُّ الحجرَ علىٰ بطنِهِ مِنَ الجوعِ[٢] .

ولهٰذا سلَّطَ اللهُ البلاءَ والمحنَ على الأنبياءِ والأولياءِ ، ثمَّ الأمثلِ فالأمثلِ ، كلُّ ذلكَ نظراً لهُمْ ، وامتناناً عليهِمْ ؛ ليتوفَّرَ مِنَ الآخرةِ حظُّهُمْ ؛ كما يمنعُ الوالدُ الشفيقُ ولدَهُ لذَّةَ الفواكهِ ، ويلزمُهُ ألَمَ الفصدِ والحجامةِ ؛ شفقةً عليهِ ، وحبّاً لهُ ، لا بخلاً عليهِ .

وقد عرفتَ بهٰذا أنَّ كلَّ ما ليسَ للهِ . . فهوَ مِنَ الدُّنيا ، وما هوَ للهِ عزَّ وجلَّ . . فذلكَ ليسَ مِنَ الدُّنيا .

* * *

فإنْ قلتَ : فما الذي هوَ للهِ سبحانَهُ ؟

فأقولُ : الأشياءُ ثلاثةُ أقسامٍ :

مِنْها : ما لا يُتصوَّرُ أنْ يكونَ للهِ عزَّ وجلَّ ، وهوَ الذي يُعبَّرُ عنهُ بالمعاصي

---

(١) فقد روى الترمذي (٢٣٦٠) ، وابن ماجه (٣٣٤٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (كان رسول الله يبيت الليالي المتتابعة طاوياً وأهله لا يجدون عشاء ، وكان أكثر خبزهم خبز الشعير) ، وأما أنه سبحانه زوى الدنيا عنه صلى الله عليه وسلم . . فتقدم في غير خبر ، منها ما رواه البخاري (٢٤٦٨) ، ومسلم (١٤٧٩) عن عمر رضي الله عنه وقد قال للنبي صلى الله عليه وسلم : هٰذا الحصير قد أثَّر في جنبك ، وهٰذه خزانتك لا أرىٰ فيها إلا ما أرىٰ ، وذاك قيصر وكسرىٰ في الثمار والأنهار وأنت رسول الله وصفوته وهٰذه خزانتك ؟ فقال : « يا بن الخطاب ؛ ألا ترضىٰ أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا ؟! » .

(٢) روىٰ ذلك البخاري في قصة الخندق (٤١٠١) .

والمحظوراتِ ، وأنواعُ التنعُّماتِ في المباحاتِ ، وهيَ الدُّنيا المحضُ المذمومةُ ، فهيَ الدُّنيا صورةً ومعنىً .

ومِنْها : ما صورتُهُ للهِ ، ويمكنُ أنْ يُجعلَ لغيرِ اللهِ ، وهيَ ثلاثةٌ : الفكرُ ، والذكرُ ، والكفُّ عنِ الشهواتِ ؛ فإنَّ هـٰذهِ الثلاثةَ إذا جرَتْ سرّاً ولمْ يكنْ عليها باعثٌ سوىٰ أمرِ اللهِ واليومِ الآخرِ . . فهيَ للهِ وليسَتْ مِنَ الدُّنيا ، وإنْ كانَ الغرضُ مِنَ الفكرِ طلبَ العلمِ للتشوُّفِ بهِ ، وطلبِ القبولِ بينَ الخلقِ بإظهارِ المعرفةِ ، أوْ كانَ الغرضُ مِنْ تركِ الشهوةِ حفظَ المالِ ، أوِ الحميةَ لصحَّةِ البدنِ ، أوِ الاشتهارَ بالزهدِ . . فقدْ صارَ هـٰذا مِنَ الدُّنيا بالمعنىٰ وإنْ كانَ يُظنُّ بصورتِهِ أنَّهُ للهِ تعالىٰ .

ومِنْها : ما صورتُهُ لحظِّ النفسِ ، ويمكنُ أنْ يُجعلَ معناهُ للهِ سبحانَهُ ، وذلكَ كالأكلِ ، والنكاحِ ، وكلِّ ما يرتبطُ بهِ بقاؤُهُ وبقاءُ ولدِهِ ، فإنْ كانَ القصدُ حظَّ النفسِ . . فهوَ مِنَ الدُّنيا ، وإنْ كانَ القصدُ الاستعانةَ بهِ على التقوىٰ . . فهوَ للهِ بمعناهُ وإنْ كانَتْ صورتُهُ صورةَ الدُّنيا ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ طلبَ الدُّنيا حلالاً مُفاخِراً مُكاثِراً . . لقيَ اللهَ وهوَ عليهِ غضبانُ ، ومَنْ طلبَها استعفافاً عنِ المسألةِ وصيانةً لنفسِهِ . . جاءَ يومَ القيامةِ ووجهُهُ كالقمرِ ليلةَ البدرِ »[1] ، فانظرْ كيفَ اختلفَ ذلكَ بالقصدِ .

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٢٦٢٥) ، وابن أبي الدنيا في « العيال » (٣٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/١٠٩) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٨٩٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً .

فإذاً ؛ الدُّنيا حظُّ نفسِكَ العاجلُ ، الذي لا حاجةَ إليهِ لأمرِ الآخرةِ ، ويُعبَّرُ عنهُ بالهوىٰ ، وإليهِ أشارَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ .

ومجامعُ الهوىٰ خمسةُ أمورٍ ، وهيَ ما جمعَهُ اللهُ تعالىٰ في قولِهِ : ﴿ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ﴾ ، والأعيانُ التي تحصلُ مِنْها هٰذهِ الخمسةُ سبعةٌ ، يجمعُها قولُهُ تعالىٰ : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ .

فقدْ عرفتَ أنَّ كلَّ ما هوَ للهِ فليسَ مِنَ الدُّنيا ، وقدْرُ ضرورةِ القُوتِ ، وما لا بدَّ منهُ مِنْ مسكنٍ وملبسٍ . . فهوَ للهِ إنْ قُصِدَ بهِ وجهُ اللهِ ، والاستكثارُ مِنْهُ تنعمٌ ، وهوَ لغيرِ اللهِ ، وبينَ التنعُّمِ والضرورةِ درجةٌ يُعبَّرُ عنها بالحاجةِ ، ولها طرفانِ وواسطةٌ ، طرفٌ يقربُ مِنْ حدِّ الضرورةِ ، فلا يضرُّ ؛ فإنَّ الاقتصارَ علىٰ حدِّ الضرورةِ غيرُ ممكنٍ ، وطرفٌ يزاحمُ جانبَ التنعُّمِ ويقربُ مِنْهُ ، وينبغي أنْ يُحْذرَ منهُ ، وبينَهُما وسائطُ متشابهةٌ ، ومَنْ حامَ حولَ الحمىٰ يوشكُ أنْ يقعَ فيهِ ، والحزمُ في الحذرِ والتقوىٰ ، والتقريبِ مِنْ حدِّ الضرورةِ ما أمكنَ ؛ اقتداءً بالأنبياءِ صلواتُ اللهِ عليهِمْ أجمعينَ والأولياءِ ؛ إذْ كانُوا يردُّونَ أنفسَهُمْ إلىٰ حدِّ الضرورةِ .

حتَّىٰ إنَّ أويساً القَرَنيَّ كانَ يظنُّ أهلُهُ أنَّهُ مجنونٌ ؛ لشدَّةِ تضييقِهِ علىٰ

نفسِهِ ، فبنَوا لهُ بيتاً علىٰ بابِ دارِهِمْ ، فكانَ يأتي عليهمُ السنةُ والسنتانِ والثلاثُ لا يرونَ لهُ وجهاً ، وكانَ يخرجُ أولَ الأذانِ ، ويأتي إلىٰ منزلِهِ بعدَ العشاءِ الآخرةِ ، وكانَ طعامُهُ أنْ يلتقطَ النوىٰ ، فكلَّما أصابَ مِنَ الحشفِ . . خبَّأَهُ لإفطارِهِ ، وإنْ لمْ يصبْ ما يقوتُهُ مِنَ الحشفِ . . باعَ النوىٰ ، واشترىٰ بهِ ما يقوتُهُ ، وكانَ لباسُهُ ما يلتقطُ مِنَ المزابلِ ، فيلتقطُ قطعَ الأكسيةِ ، فيغسلُها في الفراتِ ، ويلفِّقُ بعضَها إلىٰ بعضٍ ، ثمَّ يلبسُها ، فكانَ ذلكَ لباسَهُ[1] ، وكانَ ربَّما مرَّ بالصبيانِ فيرجمونَهُ ، ويظنونَ أنَّهُ مجنونٌ ، فيقولُ لهُمْ : (يا إخوتاهُ ؛ إنْ كانَ ولا بدَّ أنْ ترمُوني . . فارمُوني بأحجارٍ صغارٍ ، فإنِّي أخافُ أنْ تُدمو عقبي فيحضرَ وقتُ الصلاةِ ولا أصيبَ الماءَ)[2] ، فهكذا كانَتْ سيرتُهُ ، ولهـٰذا عظَّمَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أمرَهُ ، فقالَ : « إنِّي لأجدُ نفَسَ الرَّحمـٰنِ مِنَ جانبِ اليمنِ » إشارةً إليهِ رحمهُ اللهُ[3] .

ولمَّا وليَ الخلافةَ عمرُ بنُ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ . . قالَ : أيُّها الناسُ ؛ مَنْ كانَ منكُمْ مِنْ أهلِ العراقِ . . فليقمْ ؛ قالَ : فقاموا ، فقالَ : اجلسُوا إلاَّ مَنْ كانَ مِنْ أهلِ الكوفةِ فجلسُوا ، فقالَ : اجلسوا إلا مَنْ كانَ مِنْ مرادٍ ، فجلسوا ، فقالَ : اجلسوا إلا مَنْ كانَ مِنْ قرنٍ ، فجلسوا كلُّهُمْ إلا رجلاً

---

(١) خبر أويس إلىٰ هنا رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٩/ ٤٣١ ـ ٤٣٢) .
(٢) الرسالة القشيرية (ص ٤١٢) .
(٣) رواه الطبراني في « الكبير » (٧/ ٥٢) ، وعند أحمد في « المسند » (٢/ ٥٤٠) : « نفَس ربكم » بدل « نفس الرحمـٰن » .

واحداً ، فقالَ لهُ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : أقرنيٌّ أنتَ ؟ فقالَ : نعمْ ، فقالَ : أتعرفُ أويسَ بنَ عامرٍ القرنيَّ ؟ فوصفَهُ لهُ ، فقالَ : نعمْ ، وما تسألُ عنْ ذلكَ يا أميرَ المؤمنينَ ؟! فواللهِ ؛ ما فينا أحمقُ منهُ ، ولا أجنُّ منهُ ، ولا أحوجُ منهُ ، ولا أدنىٰ منهُ ، فبكىٰ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ ، ثمَّ قالَ : ما قلتُ ما قلتُ إلا أنِّي سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « يدخلُ في شفاعتِهِ مثلُ ربيعةَ ومضرَ » .

فقالَ هَرِمُ بنُ حيَّانَ : فلمَّا سمعتُ هٰذا القولَ مِنْ عمرَ بنِ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ . قدمتُ الكوفةَ ، فلمْ يكنْ لي همٌّ إلا أنْ أطلبَ أويساً القرنيَّ وأسألَ عنهُ ، حتَّىٰ سقطتُ عليهِ جالساً علىٰ شاطىءِ الفراتِ نصفَ النهارِ يتوضَّأُ ويغسلُ ثوبَهُ ، قالَ : فعرفتُهُ بالنعتِ الذي نُعِتَ لي ؛ فإذا رجلٌ لحيمٌ شديدُ الأدمةِ ، محلوقُ الرأسِ ، كثُّ اللحيةِ ، متغيرٌ جداً ، كريهُ الوجهِ ، مهيبُ المنظرِ .

قالَ : فسلَّمتُ عليهِ ، فردَّ عليَّ السلامَ ونظرَ إليَّ ، فقلتُ : حيَّاكَ اللهُ مِنْ رجلٍ ، ومددتُ يدي لأصافحَهُ ، فأبىٰ أنْ يصافحَني ، فقلتُ : رحمَكَ اللهُ يا أويسُ وغفرَ لكَ ، كيفَ أنتَ رحمَكَ اللهُ ؟ وخنقَتْني العبرةُ مِنْ حُبِّي إيَّاهُ ورقَّتي عليهِ ؛ إذْ رأيتُ مِنْ حالِهِ ما رأيتُ ، حتىٰ بكيتُ وبكىٰ ، قالَ : وأنتَ فحيَّاكَ اللهُ يا هَرِمَ بنَ حيانَ ، كيفَ أنتَ يا أخي ، ومَنْ دلَّكَ عليَّ ؟ قالَ : قلتُ : اللهُ ، فقالَ : لا إلٰهَ إلا اللهُ ، سبحانَ اللهِ ، ﴿ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ .

قالَ فعجبتُ حينَ عرفَني ، ولا واللهِ ؛ ما رأيتُهُ قبلَ ذلكَ ولا رآني ، فقلتُ : مِنْ أينَ عرفتَ اسمي واسمَ أبي ، وما رأيتُكَ قبلَ اليومِ ولا رأيتَني ؟ قالَ ﴿ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ ، وعرفَتْ روحي روحَكَ حينَ كلَّمَتْ نفسي نفسَكَ ، إنَّ الأرواحَ لها أنفسٌ كأنفسِ الأجسادِ ، وإنَّ المؤمنينَ ليعرفُ بعضُهُمْ بعضاً ، ويتحابُّونَ بروحِ اللهِ وإنْ لمْ يلتقوا ، يتعارفونَ ويتكلمونَ وإنْ نأتْ بهِمُ الدارُ وتفرقَتْ بهِمُ المنازلُ .

قالَ : قلتُ : حدِّثْني رحمَكَ اللهُ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بحديثٍ أسمعُهُ منكَ ، قالَ : إنِّي لمْ أدركْ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ولمْ يكنْ لي معَهُ صحبةٌ بأبي وأمِّي رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ولكنِّي رأيتُ رجالاً قدْ رأَوهُ ، وبلغَني مِنْ حديثِهِ نحوٌ ممَّا بلغَكَ ، ولستُ أحبُّ أنْ أفتحَ هـٰذا البابَ علىٰ نفسِي أنْ أكونَ محدِّثاً ، أو مفتياً ، أو قاصّاً ، في نفسي شغلٌ عَنِ الناسِ يا هرمَ بنَ حيانَ .

فقلتُ : يا أخي ؛ اقرأْ عليَّ آياتٍ مِنْ كتابِ اللهِ أسمعُها منكَ ، وادعُ لي بدعواتٍ ، وأوصني بوصيةٍ أحفظُها عنكَ ؛ فإنِّي أحبُّكَ في اللهِ حبّاً شديداً .

قالَ : فقامَ وأخذَ بيدي علىٰ شاطىءِ الفراتِ ، ثمَّ قالَ : أعوذُ باللهِ السميعِ العليمِ مِنَ الشيطانِ الرجيمِ ، ثم بكىٰ ، ثمَّ قالَ : قالَ ربِّي ، وأحقُّ القولِ قولُهُ ، وأصدقُ الحديثِ حديثُهُ ، وأصدقُ الكلامِ كلامُهُ ، ثمَّ قرأَ : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ حتَّى

انتهىٰ إلىٰ قولِهِ : ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ ، فشهقَ شهقةً ظننتُ أنَّهُ قدْ غُشِيَ عليهِ ، ثمَّ قالَ : يا بنَ حيَّانَ ؛ ماتَ أبوكَ حيَّانُ ، ويوشكُ أنْ تموتَ أنتَ ، فإمَّا إلىٰ جنَّةٍ وإمَّا إلىٰ نارٍ ، وماتَ أبوكَ آدمُ ، وماتَتْ أمُّكَ حواءُ ، وماتَ نوحٌ ، وماتَ إبراهيمُ خليلُ الرحمـٰنِ ، وماتَ موسىٰ نجيُّ الرحمـٰنِ ، وماتَ داوودُ خليفةُ الرحمـٰنِ ، وماتَ محمدٌ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ رسولُ ربِّ العالمينَ ، وماتَ أبو بكرٍ خليفةُ المسلمينَ ، وماتَ أخي وصفيِّي عمرُ بنُ الخطابِ .

ثمَّ قالَ : يا عمراهُ يا عمراهُ، قالَ : فقلتُ : رحمَكَ اللهُ ؛ إنَّ عمرَ لمْ يمتْ ، قالَ : قدْ نعاهُ إليَّ ربِّي ، ونعىٰ إليَّ نفسِي ، ثمَّ قالَ : وأنا وأنتَ في الموتىٰ كأنَّهُ قدْ كانَ ، ثمَّ صلَّىٰ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ثمَّ دعا بدعواتٍ خفيَّاتٍ .

ثمَّ قالَ : هـٰذهِ وصيَّتي إيَّاكَ يا هرمَ بنَ حيَّانَ ؛ كتابَ اللهِ ، ونعيَ الصالحينَ المؤمنينَ[1] ، فقدْ نُعيتْ إليَّ نفسِي ونفسُكَ ، عليكَ بذكرِ الموتِ لا يفارقُ قلبَكَ طرفةَ عينٍ ما بقيتَ ، وأنذرْ قومَكَ إذا رجعتَ إليهِمْ ، وانصحْ للأمةِ جميعاً ، وإيَّاكَ أنْ تفارقَ الجماعةَ قيدَ شبرٍ فتفارقَ دينَكَ وأنتَ لا تعلمُ ، فتدخلَ النارَ يومَ القيامةِ ، ادعُ لي ولنفسِكَ .

ثمَّ قالَ : اللهمَّ ؛ إنَّ هـٰذا يزعمُ أنَّهُ يحبُّنِي فيكَ ، وزارَني مِنْ أجلِكَ ،

---

(١) في (أ) : (وصيتي إياك ذكر الله تعالىٰ ، والصلاة على النبي عليه السلام ، ونعي المسلمين وغيرهم من الصالحين) ، وفي (ب) : (وسير نعي الصالحين) ، وفي نسخة الحافظ الزبيدي (٨/ ١٢٦) : (ونهج الصالحين) بدل (ونعي الصالحين) .

فعرِّفْني وجهَهُ في الجنةِ ، وأدخلْهُ عليَّ في دارِكَ دارِ السلامِ ، واحفظْهُ ما دامَ في الدُّنيا حيّاً ، وضمَّ عليهِ ضيعتَهُ ، وأرضِهِ مِنَ الدُّنيا باليسيرِ ، وما أعطيتَهُ مِنَ الدُّنيا فيسِّرْهُ لهُ تيسيراً ، واجعلْهُ لما أعطيتَهُ مِنْ نعمائِكَ مِنَ الشاكرينَ ، واجزِهِ عنِّي خيرَ الجزاءِ .

ثمَّ قالَ : أستودعُكَ اللهَ يا هرمَ بنَ حيَّانَ ، والسلامُ عليكَ ورحمةُ اللهِ وبركاتُهُ ، لا أراكَ بعدَ اليومِ ـ رحمَكَ اللهُ ـ تطلبُني ، فإنِّي أكرهُ الشهرةَ ، والوحدةُ أعجبُ إليَّ ؛ لأنِّي كثيرُ الهمِّ ، شديدُ الغمِّ معَ هؤلاءِ الناسِ ما دمتُ حيّاً ، فلا تسألْ عنِّي ولا تطلبْني ، واعلمْ أنَّكَ منِّي علىٰ بالٍ وإنْ لم أرَكَ ولمْ ترني ؛ فاذكرْني ، وادعُ لي ؛ فإنِّي سأذكرُكَ وأدعو لكَ إنْ شاءَ اللهُ ، انطلقْ أنتَ هاهنا حتَّىٰ أنطلقَ أنا هاهنا ، فحرصتُ أنْ أمشيَ معَهُ ساعةً فأبىٰ عليَّ ، ففارقتُهُ ، فبكىٰ وأبكاني ، وجعلتُ أنظرُ في قفاهُ حتَّىٰ دخلَ بعضَ السككِ ، ثمَّ سألتُ عنْهُ بعدَ ذلكَ ، فما وجدتُ أحداً يخبرُني عنهُ بشيءٍ ، رحمَهُ اللهُ وغفرَ لهُ[1] .

فهكذا كانَتْ سيرةُ أبناءِ الآخرةِ المعرضينَ عنِ الدُّنيا ، وقدْ عرفتَ ممَّا

---

(١) روىٰ أجزاء الخبر ابن سعد في « طبقاته » (٨/ ٢٨٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٨٤) ، وهو بطوله ومرفوعه عند ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٩/ ٤٣١ـ ٤٣٤) ، وروى ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٣٠٩٩) عن الحسن مرسلاً : « يدخل الجنة بشفاعة رجل من أمتي مثل ربيعة ومضر » ، قال الحسن : أويس القرني . وروى الترمذي (٢٤٣٩) عنه أيضاً مرسلاً : « يشفع عثمان بن عفان يوم القيامة بمثل ربيعة ومضر » ، وروى الطبراني في « الكبير » (٨/ ٢٣٥) من حديث أبي أمامة مرفوعاً : « من المؤمنين من يدخل بشفاعته الجنة مثل ربيعة ومضر » ، ولم يسم رجلاً .

سبقَ في بيانِ الدُّنيا ، ومِنْ سيرةِ الأنبياءِ والأولياءِ : أنَّ حدَّ الدُّنيا كلُّ ما أظلَّتْهُ الخضراءُ ، وأقلَّتْهُ الغبراءُ ، إلا ما كانَ للهِ عزَّ وجلَّ مِنْ ذلكَ ، وضدُّ الدُّنيا الآخرةُ ، وهوَ كلُّ ما أُريدَ بهِ اللهُ عزَّ وجلَّ ، ممَّا يُؤخذُ بقدْرِ الضرورةِ مِنَ الدُّنيا ؛ لأجلِ قوَّةِ طاعةِ اللهِ ، وذلكَ ليسَ مِنَ الدُّنيا .

* * *

ونبيِّنُ هٰذا بمثالٍ : وهوَ أنَّ الحاجَّ إذا حلفَ أنَّهُ في طريقِ الحجِّ لا يشتغلُ بغيرِ الحجِّ ، بلْ يتجرَّدُ لهُ ، ثمَّ اشتغلَ بحفظِ الزادِ ، وعلفِ الجملِ ، وخرزِ الراويةِ ، وكلِّ ما لا بدَّ للحجِّ منهُ . . لمْ يحنثْ في يمينِهِ ، ولمْ يكنْ مشغولاً بغيرِ الحجِّ ؛ فكذلكَ البدنُ مركَبُ النفسِ ، تُقطعُ بهِ مسافةُ العمرِ ، فتعهُّدُ البدنِ بما تبقىٰ بهِ قوَّتهُ علىٰ سلوكِ الطريقِ بالعلمِ والعملِ هوَ مِنَ الآخرةِ لا مِنَ الدُّنيا .

نعمْ ، إذا قصدَ تلذُّذَ البدنِ وتنعُّمَهُ بشيءٍ مِنْ هٰذهِ الأسبابِ . . كانَ منحرفاً عنِ الآخرةِ ، ويُخشىٰ علىٰ قلبِهِ القسوةُ .

قالَ الطنافسيُّ : (كنتُ علىٰ بابِ بني شيبةَ في المسجدِ الحرامِ سبعةَ أيامٍ طاوياً ، فسمعتُ في الليلةِ الثامنةِ منادياً وأنا بينَ اليقظةِ والنومِ : ألا مَنْ أخذَ مِنَ الدُّنيا أكثرَ ممَّا يحتاجُ إليهِ أعمى اللهُ عينَ قلبِهِ)[1] .

فهٰذا بيانُ حقيقةِ الدُّنيا في حقِّكَ ، فاعلمْ ذلكَ . . ترشدْ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

* * *

---

(١) رواه ابن حبيب في « عقلاء المجانين » (ص ٢٣٤) ولكن عن سمنون المحب .

بيان ماهية الدّنيا في نفسها وأشغالها التي استغرقت هِمم الخلق حتّىٰ أنستْهم أنفسهم وخالقهم ومصدرهم وموردهم

اعلمْ : أنَّ الدُّنيا عبارةٌ عنْ أعيانٍ موجودةٍ ، وللإنسانِ فيها حظٌّ ، ولهُ في إصلاحِها شغلٌ ، فهٰذهِ ثلاثةُ أمورٍ قدْ يُظَنُّ أنَّ الدُّنيا عبارةٌ عنْ آحادِها ، وليسَ كذلكَ .

أمَّا الأعيانُ الموجودةُ التي الدُّنيا عبارةٌ عنها . . فهيَ الأرضُ وما عليها ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ ، فالأرضُ فراشٌ للآدميِّينَ ومهادٌ ومسكنٌ ومستقرٌّ ، وما عليها لهُمْ ملبسٌ ومطعمٌ ومشربٌ ومنكحٌ .

ويجمعُ ما على الأرضِ ثلاثةُ أقسامٍ : المعادنُ ، والنباتُ ، والحيوانُ .

أمَّا النباتُ . . فيطلبُهُ الآدميُّ للاقتياتِ وللتداوي .

وأمَّا المعادنُ . . فيطلبُها الآدميُّ للآلاتِ والأواني ، كالنحاسِ والرصاصِ ، وللنقدِ ؛ كالذهبِ والفضةِ ، ولغيرِ ذلكَ مِنَ المقاصدِ .

وأمَّا الحيوانُ . . فينقسمُ إلى الإنسانِ والبهائمِ ، أمَّا البهائمُ . . فيطلبُ لحومَها للمآكلِ ، وظهورَها للمراكبِ والزينةِ ، وأمَّا الإنسانُ . . فقدْ يطلبُ الآدميُّ أنْ يملكَ أبدانَ الناسِ ليستخدمَهُمْ ويستسخرَهُمْ ؛ كالغلمانِ ، أو

ليتمتَّعَ بهِمْ ؛ كالجواري والنسوانِ ، ويطلبُ قلوبَ الناسِ ليملكَها ، بأنْ يغرسَ فيها التعظيمَ والإكرامَ ، وهوَ الذي يُعبَّرُ عنهُ بالجاهِ ؛ إذْ معنى الجاهِ : ملْكُ قلوبِ الآدميِّينَ .

فهـٰذهِ هيَ الأعيانُ التي يُعبَّرُ عنها بالدُّنيا ، وقدْ جمعَها اللهُ تعالىٰ في قولِهِ : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ ﴾ وهـٰذا مِنَ الإنسِ ، ﴿ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ ﴾ وهـٰذا مِنَ الجواهرِ والمعادنِ ، وفيهُ تنبيهٌ علىٰ غيرِها مِنَ اللآلىءِ واليواقيتِ وغيرِها ، ﴿ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ وهيَ البهائمُ والحيواناتُ ، ﴿ وَٱلْحَرْثِ ﴾ وهوَ النباتُ والزرعُ .

فهـٰذهِ هيَ أعيانُ الدُّنيا ، **إلا أنَّ لها معَ العبدِ علاقتينِ** :

علاقةٌ معَ القلبِ : وهوَ حبُّهُ لها ، وحظُّهُ مِنْها ، وانصرافُ همِّهِ إليها ، حتَّىٰ يصيرَ قلبُهُ كالعبدِ ، أوِ المحبِّ المستهترِ بالدُّنيا ، ويدخلُ في هـٰذهِ العلاقةِ جميعُ صفاتِ القلبِ المتعلِّقةِ بالدُّنيا ؛ كالكبرِ ، والغلِّ ، والحسدِ ، والرياءِ ، والسمعةِ ، وسوءِ الظَّنِّ ، والمداهنةِ ، وحبِّ الثناءِ ، وحبِّ التكاثرِ والتفاخرِ ، وهـٰذهِ هيَ الدُّنيا الباطنةُ ، وأمَّا الظاهرةُ .. فهيَ الأعيانُ التي ذكرناها .

العلاقةُ الثانيةُ : معَ البدنِ : وهوَ اشتغالُهُ بإصلاحِ هـٰذهِ الأعيانِ لتصلحَ لحظوظِهِ وحظوظِ غيرِهِ ، وهيَ جملةُ الصناعاتِ والحرفِ التي الخلقُ مشغولونَ بها .

والخلقُ إنَّما نسوا أنفسَهُمْ ومآبَهُمْ ومنقلبَهُمْ بالدُّنيا لهاتينِ العلاقتينِ ؛ علاقةِ القلبِ بالحبِّ ، وعلاقةِ البدنِ بالشغلِ ، ولوْ عرفَ نفسَهُ ، وعرفَ ربَّهُ ، وعرفَ حكمةَ الدُّنيا وسرَّها . . علمَ أنَّ هٰذهِ الأعيانَ التي سمَّيناها دنيا لمْ تُخلق إلا لعلفِ الدابّةِ التي يسيرُ بها إلى اللهِ تعالىٰ ، وأعني بالدابةِ : البدنَ ؛ فإنَّهُ لا يبقىٰ إلا بمطعمٍ ومشربٍ وملبسٍ ومسكنٍ ؛ كما لا يبقى الإبلُ في طريقِ الحجِّ إلاَّ بعلفٍ وماءٍ وجِلالٍ[1] .

ومثالُ العبدِ في الدُّنيا في نسيانِهِ نفسَهُ ومقصدَهُ مثالُ الحاجِّ الذي يقفُ في منازلِ الطريقِ ولا يزالُ يعلفُ الناقةَ ، ويتعهَّدُها وينظِّفُها ، ويكسوها ألوانَ الثيابِ ، ويحملُ إليها أنواعَ الحشيشِ ، ويبرِّدُ لها الماءَ بالثلجِ ، حتَّىٰ تفوتَهُ القافلةُ ، وهوَ غافلٌ عنِ الحجِّ وعنْ مرورِ القافلةِ ، وعنْ بقائِهِ في الباديةِ فريسةً للسباعِ هوَ وناقتُهُ ، والحاجُّ البصيرُ لا يهمُّهُ مِنْ أمرِ الجملِ إلاَّ القدْرُ الذي يقوىٰ بهِ على المشيِ ، فيتعهَّدُهُ وقلبُهُ إلى الكعبةِ والحجِّ ، وإنَّما يلتفتُ إلى الناقةِ بقدْرِ الضرورةِ ؛ فكذلكَ البصيرُ في سفرِ الآخرةِ لا يشتغلُ بتعهُّدِ البدنِ إلا بالضرورةِ ، كما لا يدخلُ بيتَ الماءِ إلا لضرورةٍ ، ولا فرقَ بينَ إدخالِ الطعامِ في البطنِ وبينَ إخراجِهِ مِنَ البطنِ في أنَّ كلَّ واحدٍ منهما ضرورةُ البدنِ ، ومَنْ همَّتُهُ ما يدخلُ بطنَهُ . . فقيمتُهُ ما يخرجُ منهُ ، وأكثرُ ما شغلَ الناسَ عنِ اللهِ هوَ البطنُ ؛ فإنَّ القوتَ ضروريٌّ ، وأمرُ المسكنِ

(١) جِلال : جمع جُل ، وهو ما يقي ظهره لئلا يتقبه الرحل . « إتحاف » (٨/ ١٢٨) .

والملبسِ أهونُ ، ولوْ عرفُوا سببَ الحاجةِ إلىٰ هـٰذهِ الأمورِ واقتصروا عليها . . لمْ تستغرقْهُمْ أشغالُ الدُّنيا ، وإنَّما استغرقَتْهُمْ لجهلِهِمْ بالدُّنيا وحكمتِها وحظوظِهِمْ منها ، ولكنَّهُمْ جهلُوا وغفلوا ، وتتابعَتْ أشغالُ الدُّنيا عليهِمْ ، واتصلَ بعضُها ببعضٍ ، وتداعَتْ إلىٰ غيرِ نهايةٍ محدودةٍ ، فتاهوا في كثرةِ الأشغالِ ، ونسُوا مقصودَها .

* * *

ونحنُ نذكرُ **تفاصيلَ أشغالِ الدُّنيا** ، وكيفيةَ حدوثِ الحاجةِ إليها ، وكيفيةَ غلطِ الناسِ في مقاصدِها ؛ حتَّىٰ تتضحَ لكَ أشغالُ الدُّنيا كيفَ صَرَفَتِ الخلقَ عنِ اللهِ تعالىٰ ، وكيفَ أنستْهُمْ عاقبةَ أمورِهِمْ ، فنقولُ :

الأشغالُ الدُّنيويَّةُ : هيَ الحِرَفُ ، والصناعاتُ ، والأعمالُ التي ترى الخلقَ منكبِّينَ عليها ، وسببُ كثرةِ الأشغالِ : هوَ أنَّ الإنسانَ مضطرٌّ إلىٰ ثلاثٍ : القوتِ ، والمسكنِ ، والملبسِ ، فالقوتُ للغذاءِ والبقاءِ ، والملبسُ لدفعِ الحرِّ والبردِ ، والمسكنُ لدفعِ الحرِّ والبردِ ولدفعِ أسبابِ الهلاكِ عنِ الأهلِ والمالِ ، ولمْ يخلقِ اللهُ القوتَ والمسكنَ والملبسَ مُصْلَحاً بحيثُ يُستغنىٰ عنْ صنعةِ الإنسانِ فيهِ ، نعمْ ، خلقَ اللهُ ذلكَ للبهائمِ ؛ فإنَّ النباتَ يغذِّي الحيوانَ مِنْ غيرِ طبخٍ ، والحرُّ والبردُ لا يؤثِّرُ في بدنِهِ ، فيستغني عنِ البناءِ ، ويقنعُ بالصحراءِ ، ولباسُها شعورُها وجلودُها ، فيستغني عنِ اللباسِ ، والإنسانُ ليسَ كذلكَ ، فحدثَتِ الحاجةُ إلىٰ خمسِ

صناعاتٍ، هيَ أصولُ الصناعاتِ، وأوائلُ الأشغالِ الدنيويّةِ ؛ وهيَ الفلاحةُ، والرعايةُ ، والاقتناصُ ، والحياكةُ ، والبناءُ .

أمّا البناءُ.. فللمسكنِ ، والحياكةُ وما يكتنفُها مِنَ الغزلِ والخياطةِ.. فللملبسِ ، والفلاحةُ للمطعمِ ، والرعايةُ للمواشي والخيلِ أيضاً للمطعمِ والمركبِ ، والاقتناصُ نعني بهِ : تحصيلَ ما خلقَهُ اللهُ مِنْ صيدٍ ، أوْ معدنٍ ، أوْ حشيشٍ ، أوْ حطبٍ ، فالفلاحُ يحصِّلُ النباتَ ، والرَّاعي يحفظُ الحيواناتِ ويستنتجُها ، والمقتنصُ يحصِّلُ ما نبتَ ونتجَ بنفسِهِ مِنْ غيرِ صنعِ آدميٍّ ، وكذلكَ يأخذُ مِنْ معادنِ الأرضِ ما خُلِقَ فيها مِنْ غيرِ صنعةِ آدميٍّ ، ونعني بالاقتناصِ ذلكَ ، ويدخلُ تحتَهُ صناعاتٌ وأشغالٌ عدَّةٌ .

ثمَّ هـٰذهِ الصناعاتُ تفتقرُ إلىٰ أدواتٍ وآلاتٍ ؛ كالحياكةِ ، والفلاحةِ ، والبناءِ ، والاقتناصِ ، والآلاتُ إنَّما تُؤخذُ إمَّا مِنَ النباتِ وهيَ الأخشابُ ، أوْ مِنَ المعادنِ كالحديدِ والرصاصِ وغيرِهِ ، أوْ مِنْ جلودِ الحيواناتِ ؛ فحدثَتِ الحاجةُ إلىٰ ثلاثةِ أنواعٍ أُخَرَ مِنَ الصناعاتِ ؛ وهيَ النِّجارةُ ، والحدادةُ ، والخَرْزُ ، وهؤلاءِ همْ عمَّالُ الآلاتِ ، ونعني بالنجَّارِ : كلَّ عاملٍ في الخشبِ كيفما كانَ ، وبالحدَّادِ : كلَّ مَنْ عمِلَ في جواهرِ المعادنِ حتَّى النَّحَّاسِ والإبْرِيِّ وغيرِهِما ، وغرضُنا ذكرُ الأجناسِ ، فأمَّا آحادُ الحرفِ.. فكثيرةٌ ، وأمَّا الخرَّازُ.. فنعني بهِ : كلَّ عاملٍ في جلودِ الحيواناتِ وأجزائِها ، فهـٰذهِ أمهاتُ الصناعاتِ .

ثمَّ إنَّ الإنسانَ خُلِقَ بحيثُ لا يعيشُ وحدَهُ ، بلْ يُضطرُّ إلى الاجتماعِ معَ غيرِهِ مِنْ جنسِهِ ؛ وذلكَ لسببينِ :

أحدُهُما : حاجتُهُ إلى النسلِ لبقاءِ جنسِ الإنسانِ ، ولا يكونُ ذلكَ إلا باجتماعِ الذكرِ والأنثىٰ وعشرتِهِما .

والثاني : التعاونُ علىٰ تهيئةِ أسبابِ المطعمِ والملبسِ وتربيةِ الولدِ ، فإنَّ الاجتماعَ يفضي إلى الولدِ لا محالةَ ، والواحدُ لا يستقلُّ بحفظِ الولدِ وتهيئةِ أسبابِ القوتِ ، ثمَّ ليسَ يكفيهِ الاجتماعُ معَ الأهلِ والولدِ في المنزلِ ، بلْ لا يمكنُهُ أنْ يعيشَ كذلكَ ما لمْ تجتمعْ طائفةٌ كثيرةٌ ؛ ليتكفَّلَ كلُّ واحدٍ بصناعتِهِ ؛ فإنَّ الشخصَ الواحدَ كيفَ يتولَّى الفلاحةَ وحدَهُ وهوَ يحتاجُ إلىٰ آلاتِها ، وتحتاجُ الآلةُ إلىٰ حدادٍ ونجارٍ ، ويحتاجُ الطعامُ إلىٰ طحَّانٍ وخبَّازٍ ؟! وكذلكَ كيفَ ينفردُ بتحصيلِ الملبسِ وهوَ يفتقرُ إلىٰ حراثةِ القطنِ ، وآلاتِ الحياكةِ والخياطةِ ، وأعمالٍ كثيرةٍ ؟! فلذلكَ امتنعَ عيشُ الإنسانِ وحدَهُ ، وحدثَتِ الحاجةُ إلى الاجتماعِ .

ثمَّ لوِ اجتمعُوا في صحراءَ مكشوفةٍ . . لتأذَّوا بالحرِّ والبردِ والمطرِ واللصوصِ ؛ فافتقرُوا إلىٰ أبنيةٍ محكمةٍ ، ومنازلَ ينفردُ كلُّ أهلِ بيتٍ بهِ ، وبما معَهُ مِنَ الآلاتِ والأثاثِ ، والمنازلُ لدفعِ الحرِّ والبردِ والمطرِ ، ولدفعِ أذى الجيرانِ مِنَ اللصوصيَّةِ وغيرِها ، لكنَّ المنازلَ قدْ تقصِدُها جماعةٌ مِنَ اللصوصِ مِنْ خارجِ المنازلِ ، فافتقرَ أهلُ المنازلِ إلى التناصرِ والتعاونِ

والتحصُّنِ بسورٍ يحيطُ بجميعِ المنازلِ ، فحدثتِ البلادُ لهاذهِ الضرورةِ .

ثمَّ مهما اجتمعَ النَّاسُ في المنازلِ والبلادِ وتعاملُوا . . تولَّدَتْ بينَهُمْ خصوماتٌ ؛ إذْ تحدثُ رئاسةٌ وولايةٌ للزوجِ على الزوجةِ ، وولايةٌ للأبوينِ على الولدِ لأنَّهُ ضعيفٌ محتاجٌ إلىٰ قوَّامٍ بهِ ، ومهما حصلتِ الولايةُ علىٰ عاقلٍ . . أفضىٰ إلى الخصومةِ ، بخلافِ الولايةِ على البهائمِ ؛ إذْ ليسَ لها قوَّةُ المخاصمةِ وإنْ ظُلِمَتْ ، فأمَّا المرأةُ . . فتخاصمُ الزوجَ ، والولدُ يخاصمُ الأبوينِ ، هاذا في المنزلِ .

وأمَّا أهلُ البلدِ أيضاً . . فيتعاملُونَ في الحاجاتِ ، ويتنازعونَ فيها ، ولو تُركوا كذلكَ . . لتقاتلوا وهلكوا ، وكذلكَ الرعاةُ وأربابُ الفلاحةِ يتواردونَ على المراعي والأراضي والمياهِ ، وهيَ لا تفي بكلِّ أغراضِهِمْ ، فيتنازعونَ لا محالةَ ، ثمَّ قدْ يعجزُ بعضُهُمْ عنِ الفلاحةِ والصناعةِ بعمىً أوْ مرضٍ أوْ هرمٍ ، وتعرضُ عوارضُ مختلفةٌ ، ولوْ تُرِكَ ضائعاً . . لهلكَ ، ولوْ وُكِّلَ تفقُّدُهُ إلى الجميعِ . . لتخاذلوا ، ولو خُصَّ واحدٌ مِنْ غيرِ سببٍ يخصُّهُ . . لكانَ لا يذعَنُ لهُ ؛ فحدثَ بالضرورةِ مِنْ هاذهِ العوارضِ الحاصلةِ بالاجتماعِ صناعاتٌ أخرىٰ ، فمِنْها صناعةُ المِساحةِ التي بها تُعرَفُ مقاديرُ الأرضِ ؛ لتمكنَ القسمةُ بينَهُمْ بالعدلِ ، ومِنْها صناعةُ الجنديَّةِ ؛ لحراسةِ البلدِ بالسيفِ ، ودفعِ اللصوصِ عنهُمْ ، ومِنْها صناعةُ الحُكمِ ، والتوصُّلِ لفصلِ الخصومةِ ، ومِنْها الحاجةُ إلى الفقهِ ، وهوَ معرفةُ القانونِ الذي ينبغي أنْ يُضبطَ بهِ الخلقُ ، ويُلْزموا الوقوفَ علىٰ حدودِهِ ، حتَّىٰ لا يكثرَ النزاعُ ، وهوَ

معرفةُ حدودِ اللهِ تعالىٰ في المعاملاتِ وشروطِها .

فهٰذهِ أمورٌ سياسيَّةٌ لا بدَّ مِنْها ، ولا يشتغلُ بها إلا مخصوصونَ بصفاتٍ مخصوصةٍ مِنَ العلمِ والتمييزِ والهدايةِ ، وإذا اشتغلوا بها . . لمْ يتفرَّغُوا لصناعةٍ أخرىٰ ، ويحتاجونَ إلى المعاشِ ، ويحتاجُ أهلُ البلدِ إليهِمْ ؛ إذْ لوِ اشتغلَ أهلُ البلدِ بالحربِ معَ الأعداءِ مثلاً . . تعطَّلَتِ الصناعاتُ ، ولوِ اشتغلَ أهلُ الحربِ والسلاحِ بالصناعاتِ لطلبِ القوتِ . . تعطَّلَتِ البلادُ عنِ الحرَّاسِ ، واستضرَّ الناسُ ؛ فمسَّتِ الحاجةُ إلىٰ أنْ يُصرفَ إلىٰ معايشِهِمْ وأرزاقِهِمُ الأموالُ الضائعةُ التي لا مالكَ لها إنْ كانَتْ ، أو تُصرفَ إليهمُ الغنائمُ إنْ كانَتِ العداوةُ معَ الكفارِ ، فإنْ كانُوا أهلَ ديانةٍ وورعٍ . . قنعوا بالقليلِ مِنْ أموالِ المصالحِ ، وإنْ أرادوا التَّوسُّعَ . . فتمسُّ الحاجةُ ـ لا محالةَ ـ إلىٰ أنْ يمدَّهُمْ أهلُ البلدِ بأموالِهِمْ ؛ ليمدُّوهُمْ بالحراسةِ ، فتحدثُ الحاجةُ إلى الخراجِ .

ثمَّ يتولَّدُ بسببِ الحاجةِ إلى الخراجِ الحاجةُ إلىٰ صناعاتٍ أخرَ ؛ إذْ يُحتاجُ إلىٰ مَنْ يوظِّفُ الخراجَ بالعدلِ على الفلاحينَ وأربابِ الأموالِ ، وهمُ العمالُ ، وإلىٰ مَنْ يستوفي مِنْهُمْ بالرفقِ ، وهمُ الجباةُ والمستخرجونَ ، وإلىٰ مَنْ يُجمَعُ عندَهُ ليحفظَهُ إلىٰ وقتِ التفرقةِ ، وهمُ الخُزَّانُ ، وإلىٰ مَنْ يفرِّقُ عليهِمْ بالعدلِ ، وهوَ الفارضُ للعساكرِ .

وهٰذهِ الأعمالُ لوْ تولاها عددٌ لا تجمعُهُمْ رابطةٌ . . انخرمَ النِّظامُ ،

فحدثَتْ منهُ الحاجةُ إلىٰ مَلِكٍ يدبِّرُهُمْ ، وأميرٍ مطاعٍ يعيِّنُ لكلِّ عملٍ شخصاً ، ويختارُ لكلِّ واحدٍ ما يليقُ بهِ ، ويراعي النصَفَةَ في أخذِ الخراجِ وإعطائِهِ ، واستعمالِ الجندِ في الحربِ ، وتوزيعِ أسلحتِهِمْ ، وتعيينِ جهاتِ الحربِ ، ونصبِ الأميرِ والقائدِ علىٰ كلِّ طائفةٍ منهُمْ ، إلىٰ غيرِ ذلكَ مِنْ صناعاتِ الملكِ ، فيحدثُ مِنْ ذلكَ ـ بعدَ الجندِ الذينَ هُمْ أهلُ السلاحِ ، وبعدَ الملكِ الذي يراقبُهُمْ بالعينِ الكالئةِ ويدبِّرُهُمْ ـ الحاجةُ إلى الكُتَّابِ ، والخزَّانِ ، والحسَّابِ ، والجباةِ ، والعمَّالِ .

ثمَّ هؤلاءِ أيضاً يحتاجونَ إلىٰ معيشةٍ ، ولا يمكنُهُمُ الاشتغالُ بالحِرَفِ ، فتحدُثُ الحاجةُ إلىٰ مالِ الفرعِ معَ مالِ الأصلِ ، وهوَ المسمَّىٰ فرعَ الخراجِ .

وعندَ هـٰذا يكونُ النَّاسُ في الصناعاتِ ثلاثَ طوائفَ :

الأولىٰ : الفلاحونَ ، والرعاةُ ، والمحترفونَ .

والثانيةُ : الجنديَّةُ الحماةُ لهُمْ بالسيوفِ .

والثالثةُ : المتردِّدونَ بينَ الطائفتينِ في الأخذِ والعطاءِ ، وهمُ العمَّالُ ، والجباةُ ، وأمثالُهُمْ .

فانظرْ كيفَ ابتدأَ الأمرُ مِنْ حاجةِ القوتِ والمسكنِ والملبسِ ، وإلىٰ ماذا انتهىٰ ، وهـٰكذا أمورُ الدُّنيا لا يُفتحُ منها بابٌ إلا وينفتحُ بسببِهِ عشرةُ أبوابٍ أخرَ ، وهـٰكذا تتناهىٰ إلىٰ غيرِ حدٍّ محصورٍ ، وكأنَّها هاويةٌ لا نهايةَ لعمقِها ، مَنْ وقعَ في مهواةٍ منها . . سقطَ منها إلىٰ أُخرىٰ ، وهـٰكذا على التَّوالي .

فهٰذهِ هيَ الحرفُ والصناعاتُ ، إلا أنَّها لا تتمُّ إلا بالأموالِ والآلاتِ ، والمالُ عبارةٌ عنْ أعيانِ الأرضِ وما عليها ممَّا يُنتفعُ بهِ ، وأعلاها الأغذيةُ ، ثمَّ الأمكنةُ التي يأوي الإنسانُ إليها ، وهيَ الدورُ ، ثمَّ الأمكنةُ التي يسعىٰ فيها للتعيُّشِ ؛ كالحوانيتِ ، والأسواقِ ، والمزارعِ ، ثمَّ الكسوةُ ، ثمَّ أثاثُ البيتِ وآلاتُهُ ، ثم آلاتُ الآلاتِ ، وقدْ يكونُ في الآلاتِ ما هوَ حيوانٌ ؛ كالكلبِ آلةِ الصيدِ ، والبقرِ آلةِ الحراثةِ ، والفرسِ آلةِ الحربِ ، ثمَّ يحدثُ مِنْ ذلكَ حاجةُ البيعِ ، فإنَّ الفلاَّحَ رُبَّما يسكنُ قريةً ليسَ فيها آلةُ الفلاحةِ ، والحدَّادُ والنَّجارُ يسكنانِ قريةً لا يمكنُ فيها الزراعةُ ؛ فبالضرورةِ يحتاجُ الفلاحُ إليهما ، ويحتاجانِ إلى الفلاَّحِ ، فيحتاجُ أحدُهُما أنْ يبذلَ ما عندَهُ للآخرِ حتَّىٰ يأخذَ منهُ غرضَهُ ، وذلكَ بطريقِ المعاوضةِ .

إلا أنَّ النَّجارَ مثلاً إذا طلبَ مِنَ الفلاَّحِ الغذاءَ بآلتِهِ ربَّما لا يحتاجُ الفلاحُ في ذلكَ الوقتِ إلى الآلةِ ؛ فلا يبيعُهُ ، والفلاحُ إذا طلبَ الآلةَ مِنَ النَّجارِ بالطعامِ ربَّما كانَ عندَهُ طعامٌ في ذلكَ الوقتِ ؛ فلا يحتاجُ إليهِ ، فتتعوَّقُ الأغراضُ ، فاضطُرُّوا إلىٰ حانوتٍ يجمعُ آلةَ كلِّ صناعةٍ يترصَّدُ بها صاحبُها أربابَ الحاجاتِ ، وإلىٰ أنبارٍ يُجمَعُ إليها ما يحملُهُ الفلاحونَ ، فيشتريهِ منهُمْ صاحبُ الأنبارِ[1] يترصَّدُ بهِ أربابَ الحاجاتِ ، فظهرَ لذلكَ الأسواقُ والمخازنُ ، فيحملُ الفلاحُ الحبوبَ ، فإذا لمْ يصادفْ محتاجاً.. باعَها

---

(١) في (ب) : (أبيات) و(الأبيات) بدل (أنبار) و(الأنبار) .

بثمنٍ رخيصٍ مِنَ الباعةِ ، فيخزِّنونَها في انتظارِ أربابِ الحاجاتِ ؛ طمعاً في الربحِ ، وكذلكَ في جميعِ الأمتعةِ والأموالِ .

ثمَّ يحدثُ ـ لا محالةَ ـ بينَ البلادِ والقرىٰ تردُّدٌ ، فيتردَّدُ الناسُ يشترونَ مِنَ القرى الأطعمةَ ، ومِنَ البلادِ الآلاتِ ، وينقلونَها ويتعيَّشونَ بهَا ؛ لتنتظمَ أمورُ الناسِ في البلادِ بسببِهِمْ ؛ إذْ كلُّ بلدٍ ربما لا تُوجدُ فيهِ كلُّ آلةٍ ، وكلُّ قريةٍ لا يُوجدُ فيها كلُّ طعامٍ ، والبعضُ يحتاجُ إلى البعضِ ، فيحوجُ إلى النَّقلِ ، فيَحدُثُ التجَّارُ المتكلِّفونَ بالنقلِ ، وباعثُهُمْ عليهِ حرصُ جمعِ المالِ لا محالةَ ، فيتعبونَ طولَ الليلِ والنهارِ في الأسفارِ لأغراضِ غيرِهِمْ ، ونصيبُهُمْ منها جمعُ المالِ الذي يأكلُهُ ـ لا محالةَ ـ غيرُهُمْ ، إمَّا قاطعُ طريقٍ ، وإمَّا سلطانٌ ظالمٌ ، ولكنْ جعلَ اللهُ تعالىٰ في غفلتِهِمْ وجهلِهِمْ نظاماً للبلادِ ، ومصلحةً للعبادِ ، بلْ جميعُ أمورِ الدُّنيا انتظمَتْ بالغفلةِ وخسَّةِ الهمَّةِ ، ولوْ عقلَ الناسُ وارتفعَتْ هممُهُمْ . . لزهدوا في الدُّنيا ، ولوْ فعلوا ذلكَ . . لبطلتِ المعايشُ ، ولوْ بطلَتْ . . لهلكوا ، ولهلكَ الزُّهادُ أيضاً .

ثمَّ هٰذهِ الأموالُ التي تُنقلُ لا يقدرُ الإنسانُ علىٰ حملِها ؛ فتحتاجُ إلىٰ دوابَّ تحملُها ، وصاحبُ المالِ قدْ لا يملكُ دابةً ، فتحدثُ معاملةٌ بينَهُ وبينَ مالكِ الدابَّةِ تُسمَّى الإجارةَ ، ويصيرُ الكراءُ نوعاً مِنَ الاكتسابِ أيضاً .

ثمَّ تحدثُ بسببِ البِياعاتِ الحاجةُ إلى النقدينِ[1] ؛ فإنَّ مَنْ يريدُ أنْ

(١) البياعات : الأشياء التي يتبايع بها في التجارة .

يشتريَ طعاماً بثوبٍ . فمِنْ أينَ يدري أنَّ المقدارَ الذي يساويهِ مِنَ الطعامِ كمْ هوَ ؟ والمعاملةُ تجري في أجناسٍ مختلفةٍ ؛ كما يُباعُ ثوبٌ بطعامٍ ، وحيوانٌ بثوبٍ ، وهاذهِ أمورٌ لا تتناسبُ ؛ فلا بدَّ مِنْ حاكمٍ عدلٍ يتوسَّطُ بينَ المتاعينِ ، يعدِّلُ أحدَهُما بالآخرِ ، فيُطلَبُ ذلكَ العِدْلُ مِنْ أعيانِ الأموالِ .

ثمَّ يُحتاجُ إلىٰ مالٍ يطولُ بقاؤُهُ ؛ لأنَّ الحاجةَ إليهِ تدومُ ، وأبقى الأموالِ المعادنُ ؛ فاتخذَتِ النقودُ مِنَ الذهبِ والفضةِ والنحاسِ .

ثمَّ مسَّتِ الحاجةُ إلى الضربِ والنَّقشِ والتقديرِ ؛ فحدثَتِ الحاجةُ إلىٰ دارِ الضرْبِ وإلى الصيارفةِ .

وهكذا تتداعى الأشغالُ والأعمالُ بعضُها إلىٰ بعضٍ ، حتَّى انتهَتْ إلىٰ ما تراهُ .

فهاذهِ أشغالُ الخلقِ ، وهيَ معايشُهُمْ .

وشيءٌ مِنْ هاذهِ الحِرَفِ لا يمكنُ مباشرتُهُ إلا بنوعِ تعلُّمٍ وتعبٍ في الابتداءِ ، ومِنَ الناسِ مَنْ يغفُلُ عنْ ذلكَ في الصِّبا فلا يشتغلُ بهِ ، أوْ يمنعُهُ عنهُ مانعٌ ، فيبقىٰ عاجزاً عنِ الاكتسابِ ؛ لعجزِهِ عنِ الحرفِ ، فيحتاجُ إلىٰ أنْ يأكلَ ممَّا يسعىٰ فيهِ غيرُهُ ، فتحدثُ منهُ حرفتانِ خسيستانِ : اللصوصيَّةُ ، والكِديةُ[1] ؛ إذْ يجمعُهُما أنَّهما يأكلانِ مِنْ سعيِ غيرِهِما .

ثم إنَّ الناسَ يحترزونَ مِنَ اللصوصِ والمكدينَ ، ويحفظونَ عنهُمْ

---

(1) الكِدية : هي الشحاذة ؛ أي : التكفف من الناس . « إتحاف » (٨/ ١٣٥) .

أموالَهُمْ ، فافتقرُوا إلىٰ صرفِ عقولِهِمْ في استنباطِ الحيلِ والتدابيرِ ، أمَّا اللصوصُ . . فمنهُمْ مَنْ يطلبُ أعواناً ، ويكونُ في يديهِ شوكةٌ وقوَّةٌ ، فيجتمعونَ ويتكاثرونَ ويقطعونَ الطرقَ ؛ كالأعرابِ والأكرادِ ، وأمَّا الضعفاءُ منهُمْ . . فيفزعونَ إلى الحيَلِ ؛ إمَّا بالنقبِ والتسلُّقِ عندَ انتهازِ فرصةِ الغفلةِ ، وإمَّا بأنْ يكونَ طرَّاراً أو سلاَّلاً[1] ، إلىٰ غيرِ ذلكَ مِنْ أنواعِ التلصُّصِ الحادثةِ بحسبِ ما أنتجَتْهُ الأفكارُ المصروفةُ إلى استنباطِها .

وأمَّا المُكدي : فإنَّهُ إذا طلبَ ما سعىٰ فيهِ غيرُهُ . . قيلَ لهُ : اتعبْ واعملْ كما عملَ غيرُكَ ، فما لكَ وللبطالةِ ؟! فلا يُعطىٰ شيئاً ، فافتقرَ إلىٰ حيلةٍ في استخراجِ الأموالِ وتمهيدِ العذرِ لأنفسِهِمْ في البطالةِ ، فاحتالُوا للتعلُّلِ بالعجْزِ ؛ إمَّا بالحقيقةِ ؛ كجماعةٍ يعمونَ أولادَهُمْ وأنفسَهُمْ بالحيلةِ ليُعذروا بالعمىٰ فيُعطَونَ ، وإمَّا بالتعامي ، والتفالجِ ، والتجانُنِ ، والتمارضِ وإظهارِ ذلكَ بأنواعٍ مِنَ الحيَلِ معَ بيانِ أنَّ تلكَ محنةٌ أصابَتْ مِنَ غيرِ استحقاقٍ ، ليكونَ ذلكَ سببَ الرحمةِ .

وجماعةٌ يلتمسونَ أقوالاً وأفعالاً يتعجَّبُ الناسُ مِنْها حتَّىٰ تنبسطَ قلوبُهُمْ عندَ مشاهدَتِها ، فيسخوا برفعِ اليدِ عنْ قليلٍ مِنَ المالِ في حالِ التعجُّبِ ، ثمَّ قدْ يندمُ بعدَ زوالِ التعجُّبِ ، ولا ينفعُ الندمُ ، وذلكَ قدْ يكونُ بالتمسخرِ ،

---

(١) **الطرار** : هو الذي يقطع النفقات ويأخذها علىٰ غفلة من أهلها ، **والسلال** : المختلس . « إتحاف » (٨/ ١٣٥) .

والمحاكاةِ ، والشعبذةِ ، والأفعالِ المضحكةِ ، وقدْ يكونُ بالأشعارِ الغريبةِ ، والكلامِ المنثورِ المسجعِ معَ حسنِ الصوتِ ، والشعرُ الموزونُ أشدُّ تأثيراً في النفسِ ، لا سيَّما إذا كانَ فيهِ تعصُّبٌ يتعلَّقُ بالمذاهبِ ؛ كأشعارِ مناقبِ الصحابةِ ، وفضائلِ أهلِ البيتِ رضيَ اللهُ عنهُمْ ، أوِ الذي يحرِّكُ داعيةَ العشقِ مِنْ أهلِ المجانةِ ؛ كصنعةِ الطبَّالينَ في الأسواقِ ، أوْ تسليمِ ما يشبهُ العوضَ وليسَ بعوضٍ ؛ كبيعِ التعويذاتِ والحشائشِ التي يخيِّلُ بائعُها أنَّها أدويةٌ ، فيخدعُ بذلكَ الصبيانَ والجهَّالَ ، وكأصحابِ القرعةِ والفألِ مِنَ المنجِّمينَ ، ويدخلُ في هٰذا الجنسِ الوعَّاظُ المكدونَ علىٰ رؤوسِ المنابرِ ، إذا لمْ يكنْ وراءَهُمْ طائلٌ علميٌّ ، وكانَ غرضُهُمْ استمالةَ قلوبِ العوامِّ وأخذَ أموالِهِمْ ، وأنواعُ الكدية تزيدُ على ألفِ نوعٍ وألفينِ ، وكلُّ ذلكَ استنبطَ بدقيقِ الفكرِ لأجلِ المعيشةِ .

فهٰذهِ هيَ أشغالُ الخلقِ وأعمالُهُمْ التي أكبُّوا عليها ، وجرَّهُمْ إلىٰ ذلكَ كلِّهِ الحاجةُ إلى القوتِ والكسوةِ ، ولكنْ نسوا في أثناءِ ذلكَ أنفسَهُمْ ومقصودَهُمْ ومنقلبَهُمْ ومآبَهُمْ ، فضلُّوا وتاهُوا ، وسبقَ إلىٰ عقولِهِمُ الضعيفةِ بعدَ أنْ كدَّرَتْها زحمةُ أشغالِ الدُّنيا خيالاتٌ فاسدةٌ ، فانقسمَتْ مذاهبُهُمْ ، واختلفَتْ آراؤُهُمْ علىٰ عدَّةِ أوجهٍ :

فطائفةٌ غلبَهُمُ الجهلُ والغفلةُ ، فلمْ تنفتحْ أعينُهُمْ للنظرِ إلىٰ عاقبةِ أمرِهِمْ ، فقالوا : المقصودُ أنْ نعيشَ أياماً في الدُّنيا ، فنجتهدَ حتَّىٰ نكتسبَ القوتَ ، ثمَّ نأكلَ حتَّىٰ نقوىٰ على الكسبِ ، ثمَّ نكتسبَ حتَّىٰ نأكلَ ،

فيأكلونَ ليكسِبوا ، ثمَّ يكسِبونَ ليأكلُوا ، وهـٰذا مذهبُ الفلاحينَ والمحترفينَ ، ومَنْ ليسَ لهُ تنعُّمٌ في الدُّنيا ، ولا قدمٌ في الدِّينِ ؛ فإنَّهُ يتعبُ نهاراً ليأكلَ ليلاً ، ويأكلُ ليلاً ليتعبَ نهاراً ، وذلكَ كسيرِ السَّواني[1] ؛ فهوَ سفرٌ لا ينقطعُ إلا بالموتِ .

وطائفةٌ أخرىٰ زعمُوا أنَّهُم تفطَّنُوا للأمرِ ، وهوَ أنَّهُ ليسَ المقصودُ أنْ يشقى الإنسانُ بالعملِ ولا يتنعمَ في الدُّنيا ، بلِ السعادةُ في أنْ يقضيَ وطرَهُ مِنْ شهواتِ الدُّنيا ، وهيَ شهوةُ البطنِ والفرجِ ؛ فهؤلاءِ نسوا أنفسَهُمْ ، وصرفوا هممَهُمْ إلى اتباعِ النسوانِ ، وجمعِ لذائذِ الأطعمةِ ، فيأكلونَ كما تأكلُ الأنعامُ ، ويظنونَ أنَّهُمْ إذا نالوا ذلكَ . . فقدْ أدركُوا غايةَ السعاداتِ ، فشغلَهُمْ ذلكَ عنِ اللهِ تعالىٰ واليومِ الآخرِ .

وطائفةٌ أخرىٰ ظنُّوا أنَّ السعادةَ في كثرةِ المالِ ، والاستغناءِ بكثرةِ الكنوزِ ، فأسهرُوا ليلَهُمْ ، وأتعبُوا نهارَهمْ في الجمعِ ، فهُمْ يتعبونَ في الأسفارِ طولَ الليلِ والنهارِ ، ويتردَّدونَ في الأعمالِ الشاقةِ ، ويكتسبونَ ويجمعونَ ، ولا يأكلونَ إلا قدْرَ الضرورةِ ؛ شحّاً وبخلاً عليها أنْ تنقصَ ، وهـٰذهِ لذَّتُهُمْ ، وفي ذلكَ دأبُهُمْ وحركتُهُمْ إلىٰ أنْ يدركَهُمُ الموتُ ، فيبقىٰ تحتَ الأرضِ ، أوْ يظفرُ بهِ مَنْ يأكلُهُ في الشهواتِ واللذَّاتِ ، فيكونُ للجامعِ

---

(١) السواني : جمع سانية ، الناقة تدور ويستسقىٰ عليها الماء ، وفي المثل : سير السواني سفر لا ينقطع .

تعبُها ووبالُها ، وللآكل لذتُها ، ثمَّ الذينَ يجمعونَ ينظرونَ إلىٰ أمثالِ ذلكَ ولا يعتبرونَ .

وطائفةٌ أخرىٰ ظنُّوا أنَّ السعادةَ في حُسنِ الاسمِ ، وانطلاقِ الألسنةِ بالثناءِ ، والمدحِ بالتجمُّلِ والمروءةِ ، فهؤلاءِ يتعبونَ في كسبِ المعاشِ ، ويضيِّقونَ علىٰ أنفسِهِمْ في المطعمِ والمشربِ ، ويصرفونَ جميعَ أموالِهِمْ إلى الملابسِ الحسنةِ ، والدوابِّ النفيسةِ ، ويزخرفونَ أبوابَ الدورِ ، وما يقعُ عليهِ أبصارُ الناسِ ؛ حتَّىٰ يُقالَ : إنَّهُ غنيٌّ ، وإنَّهُ ذو ثروةٍ ، ويظنُّونَ أنَّ ذلكَ هوَ السعادةُ ، فهمَّتُهُمْ ليلَهُمْ ونهارَهُمْ في تعهُّدِ موقعِ نظرِ الناسِ .

وطائفةٌ أخرىٰ ظنُّوا أنَّ السعادةَ في الجاهِ والكرامةِ بينَ الناسِ وانقيادِ الخلقِ بالتواضعِ والتوقيرِ ؛ فصرفُوا هممَهُمْ إلى استجرارِ الناسِ إلى الطاعةِ بطلبِ الولاياتِ ، وتقلُّدِ الأعمالِ السلطانيةِ ؛ لينفذَ أمرُهُمْ بها علىٰ طائفةٍ مِنَ الناسِ ، ويرونَ أنَّهُمْ إذا اتسعَتْ ولايتُهُمْ ، وانقادَتْ لهُمْ رعاياهُمْ .. فقدْ سعدوا سعادةً عظيمةً ، وأنَّ ذلكَ غايةُ المطلبِ ، وهـٰذهِ أغلبُ الشهواتِ علىٰ قلوبِ المتعاقلينَ مِنَ الناسِ[1] ، فهؤلاءِ شغلَهُمْ حبُّ تواضعِ الناسِ لهُمْ عنِ التواضعِ للهِ ، وعنْ عبادتِهِ ، وعنِ التفكرِ في آخرتِهِمْ ومعادِهِمْ .

ووراءَ هؤلاءِ طوائفُ يطولُ حصرُها ، تزيدُ علىٰ نيفٍ وسبعينَ فرقةً ،

---

(1) في (د) : (المتغافلين) ، وفي نسخة الحافظ الزبيدي (٨/ ١٣٦) : (الغافلين) بدل (المتعاقلين) .

كلُّهُمْ قدْ ضَلُّوا وأضلُّوا عنْ سواءِ السبيلِ ، وإنَّما جرَّهُم إلىٰ جميعِ ذلكَ حاجةُ المطعمِ والملبسِ والمسكنِ ، ونسوا ما تُرادُ لهُ هٰذهِ الأمورُ الثلاثةُ ، والقدْرَ الذي يكفي منها ، وانجرَّتْ بهِمْ أوائلُ أسبابِها إلىٰ أواخرِها ، وتداعىٰ بهِمْ ذلكَ إلىٰ مهاوٍ لمْ يمكنْهُمُ الترقِّي منها .

فمَنْ عرفَ وجهَ الحاجةِ إلىٰ هٰذهِ الأسبابِ والأشغالِ ، وعرفَ غايةَ المقصودِ منها . . فلا يخوضُ في شغلٍ وحرفةٍ وعملٍ إلا وهوَ عالمٌ بمقصودِهِ ، وعالمٌ بحظِّهِ ونصيبِهِ منهُ ، وأنَّ غايةَ مقصودِهِ تعهُّدُ بدنِهِ بالقوتِ والكسوةِ حتَّىٰ لا يهلكَ .

وذلكَ إنْ سلكَ فيهِ سبيلَ التقليلِ . . اندفعَتِ الأشغالُ عنهُ ، وفرغَ القلبُ ، وغلبَ عليهِ ذكرُ الآخرةِ ، وانصرفَتِ الهمَّةُ إلى الاستعدادِ لهُ ، وإنْ تعدَّىٰ بهِ قدْرَ الضرورةِ . . كثرَتِ الأشغالُ ، وتداعى البعضُ إلى البعضِ ، وتسلسلَ إلىٰ غيرِ نهايةٍ ، فتشعَّبَتْ بهِ الهمومُ ، ومَنْ تشعَّبَتْ بهِ الهمومُ في أوديةِ الدُّنيا . . فلا يبالي اللهُ تعالىٰ في أيِّ وادٍ أهلكَهُ[1] .

فهٰذا شأنُ المنهمكينَ في أشغالِ الدُّنيا .

وتنبَّهَ لذلكَ طائفةٌ ، فأعرضُوا عنِ الدُّنيا ، فحسدَهُمُ الشيطانُ ، ولمْ يتركْهُمْ ، وأضلَّهُمْ في الإعراضِ أيضاً ، حتَّى انقسمُوا إلىٰ طوائفَ :

---

(١) فقد روى ابن ماجه (٢٥٧) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً : « من جعل الهموم هماً واحداً همَّ الآخرة . . كفاه الله هم دنياه ، ومن تشعَّبت به الهموم في أحوال الدنيا . . لم يبال الله في أي أوديتها هلك » .

فظنَّتْ طائفةٌ أنَّ الدُّنيا دارُ بلاءٍ ومحنةٍ ، وأنَّ الآخرةَ دارُ سعادةٍ لكلِّ مَنْ وصلَ إليها ، سواءٌ تعبَّدَ في الدُّنيا أوْ لمْ يتعبَّدْ ؛ فرأوا أنَّ الصوابَ في أنْ يقتلوا أنفسَهُمْ ؛ للخلاصِ مِنْ محنةِ الدُّنيا .

وإليهِ ذهبَ طائفةٌ منَ العبَّادِ مِنْ أهلِ الهندِ بلْ طوائفُ[1] ، فهُمْ يتهجَّمُونَ على النارِ ويقتلونَ أنفسَهُمْ بالإحراقِ ، ويظنُّونَ أنَّ ذلكَ خلاصٌ لهُمْ مِنْ محنِ الدُّنيا .

وظنَّتْ طائفةٌ أخرىٰ أنَّ القتلَ لا يخلِّصُ ، بلْ لا بدَّ أوَّلاً مِنْ إماتةِ الصفاتِ البشريةِ ، وقطعِها عنِ النفسِ بالكلِّيَّةِ ، وأنَّ السعادةَ في قطعِ الشهوةِ والغضبِ .

ثمَّ أقبلوا على المجاهدةِ ، وشدَّدُوا علىٰ أنفسِهِمْ ، حتَّىٰ هلَكَ بعضُهُمْ بشدَّةِ الرياضةِ ، وبعضُهُمْ فسدَ عقلُهُ وجُنَّ ، وبعضُهُمْ مرضَ وانسدَّ عليهِ طريقُ العبادةِ ، وبعضُهُمْ عجزَ عنْ قمعِ الصفاتِ بالكلِّيَّةِ ، فظنَّ أنَّ ما كلَّفَهُ الشرعُ محالٌ ، وأنَّ الشرعَ تلبيسٌ لا أصلَ لهُ ، فوقعَ في الإلحادِ .

وظهرَ لبعضِهِمْ أنَّ هـٰذا التعبَ كلَّهُ للهِ ، وأنَّ اللهَ تعالىٰ مستغنٍ عنْ عبادةِ العبادِ ، لا ينقصُهُ عصيانُ عاصٍ ، ولا تزيدُهُ عبادةُ عابدٍ ، فعادُوا إلى الشهواتِ ، وسلكُوا مسلكَ الإباحةِ ، وطوَوا بساطَ الشرعِ والأحكامِ .

---

(١) هم البراهمة المعروفة بالجركية . « إتحاف » (٨/ ١٣٨) .

وزعمُوا أنَّ ذلكَ مِنْ صفاءِ توحيدِهِمْ ، حيثُ اعتقدُوا أنَّ اللهَ مستغنٍ عنْ عبادةِ العبادِ .

وظنَّتْ طائفةٌ أخرىٰ أنَّ المقصودَ مِنَ العباداتِ المجاهدةُ حتَّىٰ يصلَ العبدُ بها إلىٰ معرفةِ اللهِ تعالىٰ ، فإذا حصلَتِ المعرفةُ . . فقدْ وصلَ ، وبعدَ الوصولِ يستغني عنِ الوسيلةِ والحيلةِ .

فتركُوا السعيَ والعبادةَ ، وزعمُوا أنَّهُ ارتفعَ محلُّهُمْ في معرفةِ اللهِ سبحانَهُ عنْ أنْ يُمتهَنوا بالتكاليفِ ، وإنَّما التكاليفُ علىٰ عوامِّ الخلقِ .

ووراءَ هٰذا مذاهبُ باطلةٌ ، وضلالاتٌ هائلةٌ يطولُ إحصاؤُها ، إلىٰ أنْ تبلغَ نيفاً وسبعينَ فرقةً .

وإنَّما الناجي مِنْها فرقةٌ واحدةٌ ، وهيَ السالكةُ ما كانَ عليهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وأصحابُهُ .

وهوَ ألاَّ يتركَ الدُّنيا بالكلِّيَّةِ ، ولا يقمعَ الشهواتِ بالكلِّيَّةِ .

أمَّا الدُّنيا . . فيأخذُ مِنْها قدْرَ الزادِ .

وأمَّا الشهواتُ . . فيقمعُ مِنْها ما يخرجُ عنْ طاعةِ الشرعِ والعقلِ ؛ فلا يتبعُ كلَّ شهوةٍ ، ولا يتركُ كلَّ شهوةٍ ، بلْ يتبعُ العدلَ ، ولا يتركُ كلَّ شيءٍ مِنَ الدُّنيا ، ولا يطلبُ كلَّ شيءٍ مِنَ الدُّنيا .

بلْ يعلمُ مقصودَ كلِّ ما خلقَ اللهُ مِنَ الدُّنيا ، ويحفظُهُ علىٰ حدِّ مقصودِهِ ، فيأخذُ مِنَ القوتِ ما يقوِّي بهِ البدنَ على العبادةِ ، ومِنَ المسكنِ ما يحفظُهُ مِنَ

اللصوصِ والحرِّ والبردِ ، ومِنَ الكسوةِ كذلكَ ، حتَّىٰ إذا فرغَ القلبُ مِنْ شغلِ البدنِ . . أقبلَ على اللهِ تعالىٰ بكُنْهِ همَّتِهِ ، واشتغلَ بالذكرِ والفكرِ طولَ العمرِ ، وبقيَ ملازماً لسياسةِ الشهواتِ ، ومراقباً لها حتَّىٰ لا يجاوزَ حدودَ الورعِ والتقوىٰ .

ولا يعلمُ تفصيلَ ذلكَ إلا بالاقتداءِ بالفرقةِ الناجيةِ .

والفرقةُ الناجيةُ : هُمُ الصحابةُ ؛ فإنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمَّا قالَ : « النَّاجي منها واحدةٌ » . . قالُوا : يا رسولَ اللهِ ؛ ومَنْ هُمْ ؟ قالَ : « أهلُ السنَّةِ والجماعةِ » ، فقيلَ : ومَنْ أهلُ السنَّةِ والجماعةِ ؟ قالَ : « ما أنا عليهِ وأصحابِي »[1] .

وقدْ كانُوا على المنهجِ القصْدِ ، وعلى السبيلِ الواضحِ الذي فصَّلناهُ مِنْ قبلُ .

فإنَّهُمْ ما كانوا يأخذونَ الدُّنيا للدُّنيا ، بلْ للدِّينِ .

---

(١) وهو الحديث الذي رواه الترمذي (٢٦٤١) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما مرفوعاً : « ليأتين علىٰ أمتي ما أتىٰ علىٰ بني إسرائيل حذو النعل بالنعل ، حتىٰ إن كان منهم من أتىٰ أمه علانية . . لكان في أمتي من يصنع ذلك ، وإن بني إسرائيل تفرَّقت علىٰ ثنتين وسبعين ملة ، وتفترق أمتي علىٰ ثلاث وسبعين ملة ، كلهم في النار إلا ملة واحدة » ، قالوا : ومن هي يا رسول الله ؟ قال : « ما أنا عليه وأصحابي » .
وعند أبي داوود (٤٥٩٧) من حديث معاوية رضي الله عنه بنحوه ، وفيه : « وهي الجماعة » ، والكلام علىٰ هـٰذا الحديث طويل الذيل عند المحدثين وعلماء الكلام ، وانظر « الإتحاف » (٨/ ١٤٠) .

وما كانوا يترهَّبونَ ويهجرونَ الدُّنيا بالكلِّيَّةِ .

وما كانَ لهُمْ في الأمورِ تفريطٌ ولا إفراطٌ ، بلْ كانَ أمرُهُمْ بينَ ذلكَ قَواماً ، وذلكَ هوَ العدْلُ والوسطُ بينَ الطرفينِ ، وهو أحبُّ الأمورِ إلى اللهِ تعالىٰ كما سبقَ ذكرُهُ في مواضعَ ، واللهُ أعلمُ .

والحمدُ للهِ أولاً وآخراً ، وصلَّى اللهُ علىٰ سيدِنا محمَّدٍ وآلِهِ وصحبِهِ وسلَّمَ .

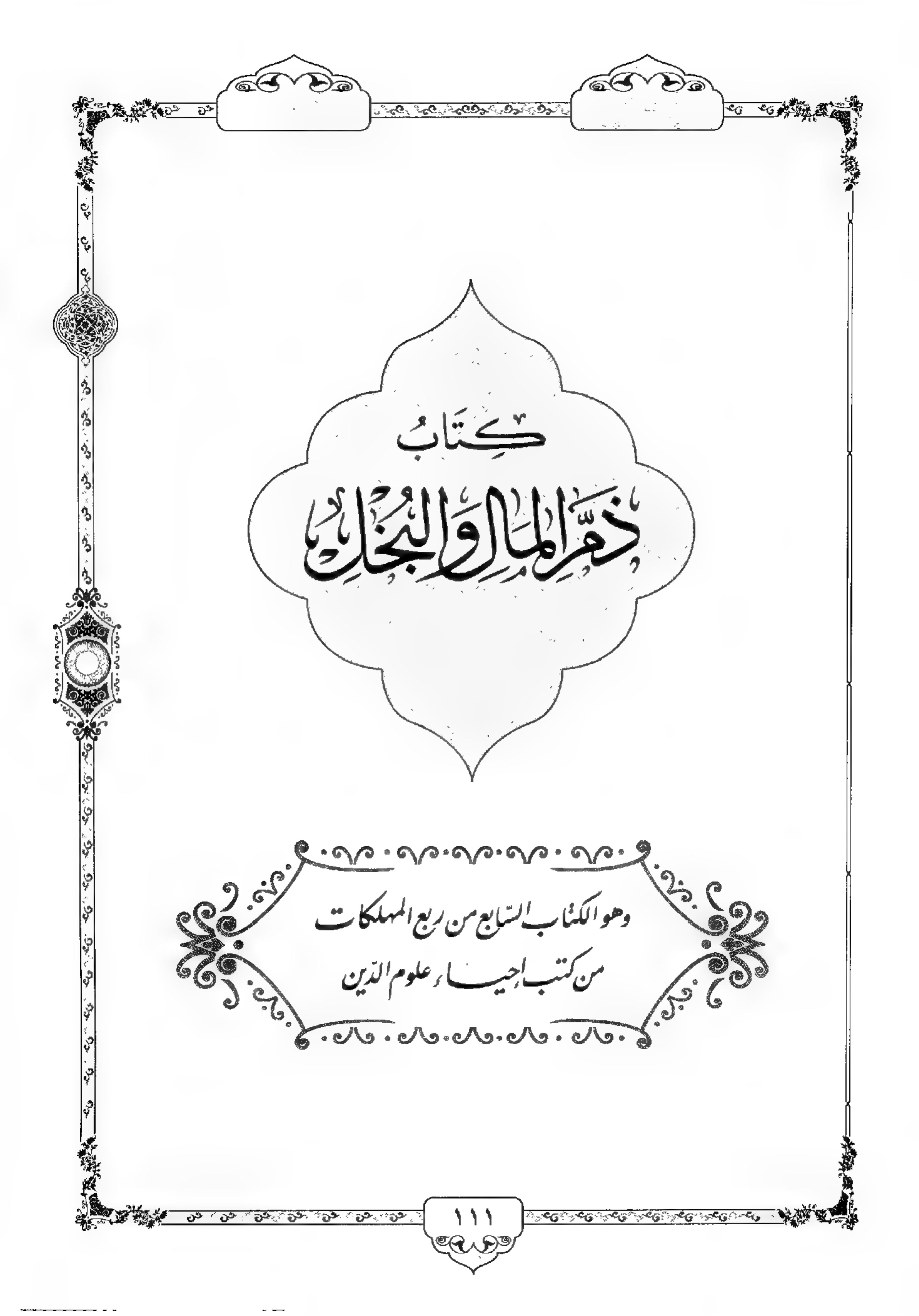
* * *

تمَّ كتابُ ذمِّ الدُّنيا

وهو الكتابُ السَّادسُ من ربعِ المهلكاتِ من كتبِ إحياءِ علومِ الدِّينِ

وصلَّى اللهُ على سيِّدِنا محمَّدٍ النَّبيِّ العربيِّ المصطفىٰ وعلى آلهِ الطَّيِّبينَ الطَّاهرينَ وصحبِهِ أجمعينَ

يتلوهُ كتابُ ذمِّ المالِ والبخلِ



كتاب ذم المال والبخل

وهو الكتاب السابع من ربع المهلكات
من كتب إحياء علوم الدين

كتاب ذمّ المال والبخل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ مستوجبِ الحمدِ برزقِهِ المبسوطِ ، وكاشفِ الضُّرِّ بعدَ القنوطِ ، الذي خلقَ الخلقَ ووسَّعَ الرزقَ ، وأفاضَ على العالمينَ أصنافَ الأموالِ ، وابتلاهُمْ فيها بتقلُّبِ الأحوالِ ، وردَّدَهُمْ فيها بينَ العُسرِ واليُسرِ ، والغنىٰ والفقرِ ، والطمعِ واليأسِ ، والثروةِ والإفلاسِ ، والعجزِ والاستطاعةِ ، والحرصِ والقناعةِ ، والبخلِ والجودِ ، والفرحِ بالموجودِ ، والأسفِ على المفقودِ ، والإيثارِ والإنفاقِ ، والتوسُّعِ والإملاقِ ، والتبذيرِ والتقتيرِ ، والرضا بالقليلِ ، واستحقارِ الكثيرِ ، كلُّ ذلكَ ليبلوَهُمْ أيُّهُمْ أحسنُ عملاً ، وينظرَ أيُّهُمْ آثرَ الدنيا على الآخرةِ بدلاً ، وابتغىٰ عنِ الآخرةِ عُدولاً وحِوَلاً ، واتخذَ الدنيا ذخيرةً وخَوَلاً .

والصلاةُ علىٰ محمدٍ الذي نسخَ بملَّتِهِ مِللاً ، وطوىٰ بشريعتِهِ أدياناً ونِحَلاً ، وعلىٰ آلِهِ وأصحابِهِ الذينَ سلكوا سبيلَ ربِّهِمْ ذُلُلاً ، وسلَّمَ تسليماً كثيراً .

أما بعد :

فإنَّ فتنَ الدنيا كثيرةُ الشُّعَبِ والأطرافِ ، واسعةُ الأرجاءِ والأكنافِ ،

ولكنَّ الأموالَ أعظمُ فتنِها ، وأطمُّ محنِها ، وأعظمُ فتنةٍ فيها أنَّهُ لا غنىٰ لأحدٍ عنها ، ثمَّ إذا وُجِدَتْ . . فلا سلامةَ مِنْها ، فإنْ فُقِدَ المالُ . . حصلَ مِنْهُ الفقرُ الذي يكادُ أنْ يكونَ كفراً ، وإنْ وُجِدَ . . حصلَ منه الطُّغيانُ الذي لا يكونُ عاقبةُ أمرِهِ إلا خُسْراً .

وبالجملةِ : فهي لا تخلو مِنَ الفوائدِ والآفاتِ ، وفوائدُها مِنَ المنجياتِ ، وآفاتُها مِنَ المهلكاتِ ، وتمييزُ خيرِها مِنْ شرِّها مِنَ المعوصاتِ ، التي لا يقوىٰ عليها إلا ذوُو البصائرِ في الدينِ ، مِنَ العلماءِ الراسخينَ دونَ المترسمينَ المغترينَ .

وشرحُ ذلكَ مهمٌّ على الانفرادِ ، فإنَّ ما ذكرْناهُ في كتاب ذمِّ الدُّنيا لمْ يكنْ نظراً في المالِ خاصةً ، بلْ في الدنيا عامةً ؛ إذِ الدنيا تتناولُ كلَّ حظٍّ عاجلٍ ، والمالُ بعضُ أجزاءِ الدنيا ، والجاهُ بعضُها ، واتباعُ شهوةِ البطنِ والفرجِ بعضُها ، وتشفِّي الغيظِ بحُكْمِ الغضبِ والحسدِ بعضُها ، والكبْرُ وطلبُ العلوِّ بعضُها ، ولها أبعاضٌ كثيرةٌ ، ويجمعُها كلُّ ما للإنسانِ فيهِ حظٌّ عاجلٌ .

ونظرُنا الآنَ في هٰذا الكتابِ في المال وحدَهُ ؛ إذْ فيهِ آفاتٌ وغوائلُ ، وللإنسانِ مِنْ فقدِهِ صفةُ الفقرِ ، ومِنْ وجودِهِ صفةُ الغنىٰ ، وهما حالتانِ يحصلُ بهما الاختبارُ والامتحانُ .

ثمَّ للفاقدِ حالتانِ : القناعةُ والحرصُ ، وإحداهُما مذمومةٌ والأخرىٰ محمودةٌ .

وللحريصِ حالتانِ : طمعٌ فيما في أيدي الناسِ ، أوْ تشمُّرٌ للحرفِ والصناعاتِ معَ اليأسِ عنِ الخلقِ ، والطمعُ شرُّ الحالتينِ .

وللواجدِ حالتانِ : إمساكٌ بحكمِ البخلِ والشحِّ وإنفاقٌ ، وإحداهما مذمومةٌ والأخرىٰ محمودةٌ .

وللمنفقِ حالتانِ : تبذيرٌ واقتصادٌ ، والمحمودُ هوَ الاقتصادُ .

وهـٰذهِ أمورٌ متشابهةٌ ، وكشفُ الغطاءِ عنِ الغموضِ فيها مهمٌّ ، ونحنُ نشرحُ ذلكَ في أربعةَ عشرَ فصلاً إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ ، وهيَ : بيانُ ذمِّ المالِ ، ثمَّ مدحِهِ ، ثمَّ تفصيلِ فوائدِ المالِ وآفاتِهِ ، ثمَّ ذمِّ الحرصِ والطمعِ ، ثمَّ علاجِ الحرصِ والطمعِ ، ثمَّ فضيلةِ السخاءِ ، ثمَّ حكاياتِ الأسخياءِ ، ثمَّ ذمِّ البخلِ ، ثمَّ حكاياتِ البخلاءِ ، ثمَّ الإيثارِ وفضلِهِ ، ثمَّ حدِّ السخاءِ والبخلِ ، ثمَّ علاجِ البخلِ ، ثمَّ مجموعِ الوظائفِ في المالِ ، ثمَّ ذمِّ الغنىٰ ومدحِ الفقرِ .

* * *

بيان ذمّ المال وكراهة حبّه

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴾ .

فمَنِ اختارَ مالَهُ وولدَهُ علىٰ ما عندَ اللهِ . . فقدْ خسرَ وغبنَ خسراناً عظيماً .

وقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا . . . ﴾ الآيةَ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۞ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴾ .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « حبُّ المالِ والشرفِ ينبتانِ النفاقَ في القلبِ كما ينبتُ الماءُ البقلَ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما ذئبانِ ضاريانِ أُرسلا في زريبةِ غنمٍ بأكثرَ فساداً فيها مِنْ حُبِّ الشرفِ والمالِ والجاهِ في دينِ الرجلِ المسلمِ »(٢) .

---

(١) قال الحافظ العراقي : (لم أجده بهـٰذا اللفظ ، وذكره بعد هـٰذا بلفظ الجاه بدل الشرف) . « إتحاف » (٨/ ١٤٤) .

(٢) رواه الترمذي (٢٣٧٦) من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه بلفظ : « ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه » ، وبنحو لفظ المصنف مروي عند الطبراني في « الأوسط » (٦٢٧٥) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « هلكَ الأكثرونَ إلاَّ مَنْ قالَ بهِ في عبادِ اللهِ هٰكذا وهٰكذا ، وقليلٌ ما هُمْ »(١) .

وقيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ أيُّ أمَّتِكَ شرٌّ ؟ قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « الأغنياءُ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « سيأتي بعدَكُمْ قومٌ يأكلونَ أطايبَ الدنيا وألوانَها ، ويركبونَ فُرْهَ الخيلِ وألوانَها ، وينكحونَ أجملَ النساءِ وألوانَها ، ويلبسونَ ألينَ الثيابِ وألوانَها ، لهُمْ بطُونٌ مِنَ القليلِ لا تشبعُ ، وأنفسٌ بالكثيرِ لا تقنعُ ، عاكفونَ على الدنيا يغدونَ ويروحونَ إليها ، اتَّخذوها آلهةً مِنْ دونِ إلٰهِهِمْ ، وربّاً دونَ ربِّهِمْ ، إلىٰ أمرِها ينتهونَ ، وهواهُمْ يتَّبعونَ ، فعزيمةٌ مِنْ محمدِ بنِ عبدِ اللهِ لمَنْ أدركَ ذلكَ الزمانَ مِنْ عقبِ عقبِكُمْ وخلفِ خلفِكُمْ ألا يسلِّمَ عليهِمْ ، ولا يعودَ مرضاهُمْ ، ولا يتَّبعَ جنائزَهُمْ ، ولا يوقِّرَ كبيرَهُمْ ، فمَنْ فعلَ ذلكَ . . فقدْ أعانَ علىٰ هدمِ الإسلامِ »(٣) .

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٢/ ٥٣٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وتقدم حديث « هم الأخسرون . . . » الذي رواه البخاري (٦٦٣٨) ، ومسلم (٩٩٠) .

(٢) كذا أورده المحاسبي في « الوصايا » (ص٧٠) ، وروى ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٥٠) من حديث السيدة فاطمة عليها السلام مرفوعاً : « شرار أمتي الذين غذوا بالنعيم ، الذين يأكلون ألوان الطعام ، ويلبسون ألوان الثياب ، ويتشدقون في الكلام » .

(٣) كذا أورده المحاسبي في « الوصايا » (ص٩٦) وبتمامه ، وروىٰ بعضه الطبراني في « الكبير » (٨/ ١٠٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٩٠) من حديث أبي أمامة مرفوعاً ، ولفظه : « سيكون رجال من أمتي يأكلون ألوان الطعام ، ويشربون ألوان الشراب ، ويلبسون ألوان اللباس ، ويتشدقون في الكلام ، أولـٰئك شرار أمتي » ، =

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « دعُوا الدنيا لأهلِها ، مَنْ أخذَ مِنَ الدنيا فوقَ ما يكفيهِ . . أخذَ حتفَهُ وهوَ لا يشعرُ »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يقولُ ابنُ آدمَ : مالي مالي ، وهلْ لكَ مِنْ مالِكَ إلا ما أكلتَ فأفنيتَ ، أوْ لبستَ فأبلَيتَ ، أوْ تصدَّقتَ فأمضَيتَ ؟! »[2] .

وقالَ رجلٌ : يا رسولَ اللهِ ؛ ما لي لا أحبُّ الموتَ ؟ فقالَ : « هل معَكَ مِنْ مالٍ ؟ » ، قالَ : نعمْ يا رسولَ اللهِ ، قالَ : « قدِّمْ مالَكَ ؛ فإنَّ قلْبَ المؤمنِ معَ مالِهِ ، إنْ قدَّمَهُ . . أحبَّ أنْ يلحقَهُ ، وإنْ خلَّفَهُ . . أحبَّ أنْ يتخلَّفَ معَهُ »[3] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أخلاَّءُ ابنِ آدمَ ثلاثةٌ : واحدٌ يتبعُهُ إلىٰ قبضِ روحِهِ ، والثاني إلىٰ قبرِهِ ، والثالثُ إلىٰ محشرِهِ ؛ فالذي يتبعُهُ إلىٰ قبضِ روحِهِ فمالُهُ ، والذي يتبعُهُ إلىٰ قبرِهِ فأهلُهُ ، والذي يتبعُهُ إلىٰ محشرِهِ فعملُهُ »[4] .

= **وفُرْه** : جمع فاره ، النشيط المليح القوي .

(١) رواه البزار في « مسنده » (٦٤٤٤) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً ، وفيه : (جيفة) بدل (حتفه) ، وبلفظ المصنف رواه تمام في « فوائده » (١٦٢١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٥/١٩١) ، **والحتف** : الهلاك .

(٢) رواه مسلم (٢٩٥٨) .

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٦٣٤) .

(٤) رواه البزار في « مسنده » (٨٣٥٦) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٩٩٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وعند البخاري (٦٥١٤) ، ومسلم (٢٩٦٠) من حديث =

وقالَ الحواريونَ لعيسىٰ عليهِ السلامُ : ما لكَ تمشي على الماءِ ولا نقدرُ علىٰ ذلكَ ؟ فقالَ لهُمْ : ما منزلةُ الدينارِ والدرهمِ عندَكُمْ ؟ قالُوا : حسنةٌ ، قالَ : لكنَّهُما عندي والمدرَ سواءٌ[1] .

وكتبَ سلمانُ الفارسيُّ إلىٰ أبي الدرداءِ[2] : يا أخي ؛ إيَّاكَ أنْ تجمعَ مِنَ الدنيا ما لا تؤدِّي شكرَهُ ؛ فإنِّي سمعْتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « يُجاءُ بصاحبِ الدنيا الذي أطاعَ اللهَ فيها ومالُهُ بينَ يديهِ ، كلَّما تكفَّأَ بهِ الصِّراطُ . . قالَ لهُ مالُهُ : امضِ ؛ فقدْ أدَّيتَ حقَّ اللهِ فيَّ ، ثمَّ يُجاءُ بصاحبِ الدنيا الذي لمْ يطعِ اللهَ فيها ومالُهُ بينَ كتفيهِ ، كلَّما تكفَّأَ بهِ الصِّراطُ . . قالَ لهُ مالُهُ : ويلَكَ ؛ ألا أدَّيتَ حقَّ اللهِ فيَّ ، فما يزالُ كذلكَ حتَّىٰ يدعوَ بالويلِ والثبورِ »[3] .

وكلُّ ما أوردناهُ في كتابِ الفقرِ والزهدِ في ذمِّ الغنىٰ ومدحِ الفقرِ يرجعُ جميعُهُ إلىٰ ذمِّ المالِ ؛ فلا نطوِّلُ بتكريرِهِ ، وكذا كلُّ ما ذكرناهُ في ذمِّ الدنيا

= أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « يتبع الميت ثلاثة ، فيرجع اثنان ويبقىٰ معه واحد ، يتبعه أهله وماله وعمله ، فيرجع أهله وماله ويبقىٰ عمله » .

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « اليقين » (٤٠) عن الفضيل بن عياض .

(٢) كذا في النسخ ، وإنما هو كتاب من أبي الدرداء إلىٰ سلمان رضي الله تعالىٰ عنهما كما هو مثبت في مصادر تخريج الخبر ، ونص عليه الحافظ العراقي . انظر « الإتحاف » (١٤٦/٨) .

(٣) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (٩٦/١١) ، وابن أبي الدنيا في « الزهد » (٣٤٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢١٤/١) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠١٧٤).

فيتناولُ ذمَّ المالِ بحكمِ العمومِ ؛ لأنَّ المالَ أعظمُ أركانِ الدنيا ، وإنَّما نذكرُ الآنَ ما وردَ في المالِ خاصةً .

قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا ماتَ العبدُ . . قالَتِ الملائكةُ : ما قدَّمَ ؟ وقالَ النَّاسُ : ما خلَّفَ ؟ »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تتَّخذُوا الضَّيعَةَ فتحبُّوا الدُّنيا »[2] .

❀ ❀ ❀

الآثارُ :

رُوِيَ أنَّ رجلاً نالَ مِنْ أبي الدرداءِ وأراهُ سوءاً ، فقالَ : (اللهمَّ ؛ مَنْ فعلَ بي سوءاً . . فأصحَّ جسمَهُ ، وأطِلْ عمرَهُ ، وأكثِرْ مالَهُ)[3] ، فانظرْ كيفَ رأىٰ كثرةَ المالِ غايةَ البلاءِ معَ صحةِ الجسمِ وطولِ العمرِ ؛ لأنَّهُ لا بدَّ وأن يفضيَ إلى الطغيانِ .

ووضعَ عليٌّ رضي الله عنه درهماً علىٰ كفِّهِ وقالَ : (أما إنَّكَ ما لمْ تخرجْ عنِّي لا تنفعُني)[4] .

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٨٥١) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٩٩٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) رواه الترمذي (٢٣٢٨) ، وفيه : (فترغبوا) بدل (فتحبوا) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٩١) عن عامر بن عبد الله بن عبد قيس أنه دعا بهٰذا ، وقال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٨/ ١٤٧) : (نقله صاحب « القوت ») .

(٤) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٨/ ١٤٧) .

ورُوِيَ أنَّ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ أرسلَ إلىٰ زينبَ بنتِ جحشٍ بعطائِها ، فقالَتْ : ما هـٰذا ؟ قالوا : أرسلَهُ إليكِ عمرُ بنُ الخطابِ ، فقالَتْ : غفرَ اللهُ لهُ ، ثمَّ حلَّتْ ستراً كانَ لها ، فقطعَتْهُ وجعلَتْهُ صرراً ، وقسَّمَتْها في أهلِ بيتِها ورحمِها وأيتامِها ، ثمَّ رفعَتْ يديها وقالَتْ : اللهمَّ ؛ لا يدركَنِّي عطاءُ عمرَ بعدَ عامي هـٰذا ، فكانَتْ أولَ نساءِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لحوقاً بهِ[1] .

وقالَ الحسنُ : (واللهِ ؛ ما أعزَّ الدرهمَ أحدٌ إلا أذلَّهُ اللهُ تعالىٰ)[2] .

وقيلَ : إنَّ أوَّلَ ما ضُربَ الدينارُ والدرهمُ . . رفعَهُما إبليسُ ، ثمَّ وضعَهُما علىٰ جبهتِهِ ، ثمَّ قبَّلَهُما وقالَ : مَنْ أحبَّكُما . . فهوَ عبدي حقّاً[3] .

وقالَ شُمَيطُ بنُ عجلانَ : (إنَّ الدينارَ والدرهمَ أزِمَّةُ المنافقينَ ، يُقادُونَ بها إلى النارِ)[4] .

وقالَ يحيىٰ بنُ معاذٍ : إنَّ الدرهمَ عقربٌ ؛ فإنْ لمْ تحسنْ رُقيتَهُ . . فلا تأخذْهُ ؛ فإنَّهُ إنْ لدغَكَ . . قتلَكَ سمُّهُ ، قيلَ : وما رقيتُهُ ؟ قالَ : أخذُهُ مِنْ حلِّهِ ، ووضعُهُ في حقِّهِ[5] .

---

(١) رواه ابن سعد في « طبقاته » (١٠٦/١٠) .
(٢) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٢٨١) .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٢٨/١) عن ابن عباس رضي الله عنهما .
(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٢٨/٣) .
(٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦٠/١٠) دون الاستفهام .

وقالَ العلاءُ بنُ زيادٍ : (تمثَّلَتْ ليَ الدنيا وعليها مِنْ كلِّ زينةٍ ، فقلْتُ : أعوذُ باللهِ مِنْ شرِّكِ ، فقالَتْ : إنْ سرَّكَ أنْ يعيذَكَ اللهُ مِنْ شرِّي . . فأبغضِ الدرهمَ)[1] .

وذلكَ لأنَّ الدينارَ والدرهمَ هُما الدنيا كلُّها ؛ إذْ يُتوصَّلُ بهِما إلىٰ جميعِ أصنافِها ، فمَنْ صبرَ عنهُما . . صبرَ عنِ الدنيا ، وفي ذلكَ قيلَ[2] : [من الكامل]

إنِّي وَجَدْتُ فَلا تَظُنُّوا غَيْرَهُ هَـٰذَا ٱلتَّوَرُّعَ عِنْدَ هَـٰذا ٱلدِّرْهَمِ
فَإِذا قَدَرْتَ عَلَيْهِ ثُمَّ تَرَكْتَهُ فَٱعْلَمْ بِأَنَّ تُقاكَ تَقْوَى ٱلْمُسْلِمِ

وفي ذلكَ قيلَ[3] : [من مجزوء الرمل]

لا يَغُرَّنْكَ مِنَ ٱلْمَرْ ءِ قَمِيصٌ رَقَعَهْ
أَوْ إِزارٌ فَوْقَ كَعْبِ ٱلسَّـ ـاقِ مِنْهُ رَفَعَهْ
أَوْ جَبِينٌ لاحَ فِيهِ أَثَرٌ قَدْ قَلَعَهْ[4]
وَلَدَى ٱلدِّرْهَمِ فَٱنْظُرْ غَيَّهُ أَوْ وَرَعَهْ

ويُروىٰ عنْ مسلمةَ بنِ عبدِ الملكِ أنَّهُ دخلَ علىٰ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ رحمةُ اللهِ عليهِ عندَ موتِهِ ، فقالَ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ صنعْتَ صنيعاً لم

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣١١٥٨) .
(٢) البيتان لسفيان الثوري ، انظر « معجم الأدباء » (١/ ١٠٠) .
(٣) الأبيات في « المدهش » (١/ ٢١١) من غير نسبة .
(٤) أثر قد قلعه : تشبيه كثرة السجود وأثرها على الجبين بركبة العنز كيف فيها أثر القلع ، وقد يكون هـٰذا مصطنعاً بمعالجة . انظر « الإتحاف » (٥/ ٥٠٥) .

يصنعْهُ أحدٌ قبلَكَ ، تركْتَ ولدَكَ ليسَ لهُمْ دينارٌ ولا درهمٌ ـ وكانَ عندَهُ ثلاثةَ عشرَ مِنَ الولدِ ـ فقالَ عمرُ : أقعدوني ، فأقعدوهُ ، فقالَ : أمَّا قولُكَ : لمْ أدعْ لهُمْ ديناراً ولا درهماً . . فإنِّي لمْ أمنعْهُمْ حقّاً لهُمْ ، ولمْ أعطِهِمْ حقّاً لغيرِهِمْ ، وإنَّما ولدي أحدُ رجلينِ ؛ إمَّا مطيعٌ للهِ ، فاللهُ كافيهِ واللهُ يتولَّى الصالحينَ ، وإمَّا عاصٍ للهِ ، فلا أبالي علىٰ ما وقعَ[1] .

ورُوِيَ أنَّ محمدَ بنَ كعبٍ القرظيَّ أصابَ مالاً كثيراً ، فقيلَ لهُ : لوِ ادَّخرْتَهُ لولدِكَ مِنْ بعدِكَ ، قالَ : لا ، ولكنِّي أدخرُهُ لنفسِي عندَ ربِّي ، وأدَّخرُ ربِّي لولدِي[2] .

ويُروىٰ أنَّ رجلاً قالَ لأبي عبدِ ربٍّ : يا أخي ؛ لا تذهبْ بشرٍّ وتتركَ أولادَكَ بخيرٍ ، فخرجَ أبو عبدِ ربٍّ مِنْ مئةِ ألفِ درهمٍ[3] .

وقالَ يحيىٰ بنُ معاذٍ : مصيبتانِ لمْ يسمعِ الأولونَ والآخرونَ بمثلِهِما للعبدِ في مالِهِ عندَ موتِهِ ، قيلَ : وما هما ؟ قالَ : يُؤخذُ منهُ كلُّهُ ، ويُسألُ عنهُ كلِّهِ[4] .

* * *

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٣٣٣) بنحوه .
(٢) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٤٣٦) .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/ ١٦٠) بنحوه ، وأبو عبد ربّ هو عبيدة بن مهاجر .
(٤) رواه الخطيب في « الزهد » (١١) .

بيان مدح المال، والجمع بينه وبين الذمّ

اعلمْ : أنَّ اللهَ تعالىٰ قدْ سمَّى المالَ خيراً في مواضعَ مِنَ القرآنِ ، فقالَ جلَّ وعزَّ : ﴿ إِن تَرَكَ خَيْرًا . . . ﴾ الآيةَ .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « نعمَ المالُ الصالحُ للرَّجلِ الصالحِ »(١) .

وكلُّ ما جاءَ في ثوابِ الصدقةِ والحجِّ . . فهوَ ثناءٌ على المالِ ؛ إذْ لا يمكنُ الوصولُ إليهما إلا بهِ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ ممتناً علىٰ عبادِهِ : ﴿ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴾ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كادَ الفقرُ أنْ يكونَ كفراً »(٢) ، وهوَ ثناءٌ على المالِ .

ولا تَقِفُ علىٰ وجهِ الجمعِ بينَ المدحِ والذمِّ إلا بأنْ تعرفَ حكمةَ المالِ ، ومقصودَهُ ، وآفاتِهِ ، وغوائلَهُ ؛ حتَّىٰ ينكشفَ لكَ أنَّهُ خيرٌ مِنْ وجهٍ ، وشرٌّ

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٤/١٩٧) ، وابن حبان في « صحيحه » (٣٢١٠) .

(٢) رواه أبو الشيخ في « التوبيخ والتنبيه » (٧٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/٥٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٦١٨٨) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً .

مِنْ وجهٍ ، وأنَّهُ محمودٌ مِنْ حيثُ هوَ خيرٌ ، ومذمومٌ مِنْ حيثُ هوَ شرٌّ ؛ فإنَّهُ ليسَ بخيرٍ محضٍ ، ولا هوَ بشرٍّ محضٍ ، بلْ هوَ سببٌ للأمرينِ جميعاً ، وما هٰذا وصفُهُ فيُمدحُ ـ لا محالةَ ـ تارةً ويُذمُّ أخرىٰ ، ولكنَّ البصيرَ المميِّزَ يدركُ أنَّ المحمودَ منهُ غيرُ المذمومِ .

وبيانُهُ بالاستمدادِ ممَّا ذكرْناهُ في كتابِ الشكرِ مِنْ بيانِ الخيراتِ ، وتفصيلِ درجاتِ النعمِ .

والقدْرُ المقنعُ فيهِ : هوَ أنَّ مقصدَ الأكياسِ وأربابِ البصائرِ سعادةُ الآخرةِ التي هيَ النعيمُ الدائمُ والملكُ المقيمُ ، والقصدُ إلىٰ هٰذا دأبُ الكرامِ والأكياسِ ؛ إذْ قيلَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : مَنْ أكرمُ الناسِ وأكيسُهُمْ ؟ فقالَ : « أكثرُهُمْ للموتِ ذكراً ، وأشدُّهُمْ لهُ استعداداً »[1] .

وهٰذه السعادةُ لا تُنالُ إلا بثلاثِ وسائلَ في الدنيا ، وهيَ :

الفضائلُ النفسيةُ : كالعلمِ ، وحسنِ الخلُقِ .

والفضائلُ البدنيةُ : كالصحةِ ، والسلامةِ .

والفضائلُ الخارجةُ عنِ البدنِ : كالمالِ ، وسائرِ الأسبابِ .

وأعلاها النفسيةُ ، ثمَّ البدنيةُ ، ثمَّ الخارجةُ ، فالخارجةُ أخسُّها ، والمالُ مِنْ جملةِ الخارجاتِ ، وأدناها الدراهمُ والدنانيرُ ؛ فإنَّهما خادمانِ ، ولا خادمَ لهُما ، ومرادانِ لغيرِهما ، ولا يُرادانِ لذاتِهما ؛ إذِ النفسُ هيَ

---

(١) رواه ابن ماجه (٤٢٥٩) .

الجوهرُ الشريفُ المطلوبُ سعادتُها ؛ فإنَّها تخدمُ العلمَ والمعرفةَ ومكارمَ الأخلاقِ ؛ لتحصِّلَها صفةً في ذاتِها ، والبدنُ يخدمُ النفسَ بواسطةِ الحواسِّ والأعضاءِ ، والمطاعمُ والملابسُ تخدُمُ البدنَ ، وقدْ سبقَ أنَّ المقصودَ مِنَ المطاعمِ إبقاءُ البدنِ ، ومِنَ المناكحِ إبقاءُ النسلِ ، ومِنَ البدنِ تكميلُ النفسِ وتزكيتُها وتزيينُها بالعلمِ والخُلُقِ .

ومَنْ عرفَ هـٰذا الترتيبَ . . فقدْ عرفَ قدْرَ المالِ ووجهَ شرفِهِ ، وأنَّهُ مِنْ حيثُ هوَ ضرورةُ المطاعمِ والملابسِ التي هيَ ضرورةُ بقاءِ البدنِ الذي هوَ ضرورةُ كمالِ النفسِ . . هوَ خيرٌ ، ومَنْ عرفَ فائدةَ الشيءِ وغايتَهُ ومقصدَهُ ، واستعملَهُ لتلكَ الغايةِ ملتفتاً إليها غيرَ ناسٍ لها . . فقدْ أحسنَ وانتفعَ ، وكانَ ما حصلَ لهُ الغرضُ محموداً في حقِّهِ .

فإذاً ؛ المالُ آلةٌ ووسيلةٌ إلىٰ مقصودٍ صحيحٍ ، ويصلحُ أنْ يُتَّخذَ آلةً ووسيلةً إلىٰ مقاصدَ فاسدةٍ ، وهيَ المقاصدُ الصادَّةُ عنْ سعادةِ الآخرةِ ، وتسدُّ سبيلَ العلمِ والعملِ ، فهوَ إذاً محمودٌ مذمومٌ ؛ محمودٌ بالإضافةِ إلى المقصودِ المحمودِ ، ومذمومٌ بالإضافةِ إلى المقصودِ المذمومِ ، فمَنْ أخذَ مِنَ الدنيا أكثرَ ممَّا يكفيهِ . . فقدْ أخذَ حتفَهُ وهوَ لا يشعرُ ؛ كما وردَ بهِ الخبرُ(١) .

---

(١) رواه البزار في « مسنده » (٦٤٤٤) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً ، وتمام في « فوائده » (١٦٢١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٥/١٩١) .

ولمَّا كانَتِ الطباعُ مائلةً إلى اتباعِ الشهواتِ القاطعةِ لسبيلِ اللهِ ، وكانَ المالُ مسهِّلاً لها وآلةً إليها . . عظُمَ الخطرُ فيما يزيدُ علىٰ قدْرِ الكفايةِ ، فاستعاذَ الأنبياءُ صلواتُ اللهِ عليهِمْ مِنْ شرِّهِ ، حتَّىٰ قالَ نبيُّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اللهمَّ ؛ اجعلْ قوتَ آلِ محمدٍ كَفافاً »[1] .

فلمْ يطلبْ مِنَ الدنيا إلا ما يتمحَّضُ خيرُهُ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: « اللهمَّ ؛ أحيني مسكيناً وأمتْني مسكيناً ، واحشرْني في زمرةِ المساكينِ »[2] .

واستعاذَ إبراهيمُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : ﴿ وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾ ، وعنىٰ بها هـٰذينِ الحجرينِ الذهبَ والفضةَ ؛ إذْ رتبةُ النبوَّةِ أجلُّ مِنَ أنْ يُخشىٰ عليها أنْ تعتقدَ الإلـٰهيةَ في شيءٍ مِنْ هـٰذهِ الحجارةِ ؛ إذْ قدْ كُفيَ قبلَ النبوّةِ عبادتَها معَ الصغرِ .

وإنَّما معنىٰ عبادتِها حبُّها ، والاغترارُ بها ، والركونُ إليها .

قال نبيُّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تعِسَ عبدُ الدينارِ ، وتعسَ عبدُ الدرهمِ ، تعسَ ولا انتعشَ ، وإذا شِيكَ . . فلا انتقشَ »[3] ، بيَّنَ عليهِ

---

(1) رواه البخاري (٦٤٦٠) ، ومسلم (١٠٥٥) ، وفيهما : (قوتاً) بدل (كفافاً) ، وبلفظ المصنف رواه ابن حبان في « صحيحه » (٦٣٤٣) .

(2) رواه الترمذي (٢٣٥٢) ، وابن ماجه (٤١٢٦) ، والمسكنة هنا : الإخبات والخمول لا القلة .

(3) رواه البخاري (٢٨٨٧) ، وابن ماجه (٤١٣٦) ، وليس فيهما : (تعس =

الصلاةُ والسلامُ أَنَّ محبَّهُما عبدٌ لهُما ، ومَنْ عبدَ حجراً . . فهوَ عابدُ صنمٍ ؛ بلْ كلُّ مَنْ كانَ عبداً لغيرِ اللهِ فهوَ عابدُ صنمٍ ؛ أي : مَنْ قطعَهُ ذلكَ عنِ اللهِ تعالىٰ ، وعنْ أداءِ حقِّهِ . . فهوَ كعابدِ صنمٍ ، وهوَ شرْكٌ ، إلا أَنَّ الشركَ شركانِ ؛ شركٌ خفيٌّ لا يوجبُ الخلودَ في النارِ ، وقلَّما ينفكُّ عنهُ المؤمنونَ ؛ فإنَّهُ أخفىٰ مِنْ دبيبِ النملِ ، وشركٌ جليٌّ يوجبُ الخلودَ في النارِ ، نعوذُ باللهِ منَ الجميعِ .

* * *

= ولا انتعش) ، بل : (تعس وانتكس) ، وأورد (انتعش) العسكري في « تصحيفات المحدثين » (١/ ٢٩٩) وعدَّها تصحيفاً لـ (انتقش) ، ويقال : (انتعش العاثر ؛ نهض من عثرته) .

بيان تفصيل آفات المال وفوائده

اعلمْ : أنَّ المالَ مثلُ حيَّةٍ فيها سُمٌّ وترياقٌ ، ففوائدُها ترياقُهَا ، وغوائلُها سمومُها .

فمَنْ عرفَ غوائلَها وفوائدَها . . أمكنَهُ أن يحترزَ من شرِّها ، ويستدرَّ مِنْها خيرَها .

❀ ❀ ❀

أمَّا الفوائدُ : فهيَ تنقسمُ إلىٰ دنيويةٍ ودينيةٍ :

أمَّا الدُّنيويةُ : فلا حاجةَ إلىٰ ذكرِها ؛ فإنَّ معرفتَها مشتركةٌ بينَ أصنافِ الخلقِ ، ولولا ذلكَ . . لمْ يتهالكوا علىٰ طلبِها .

وأمَّا الدِّينيةُ : فتنحصرُ جميعُها في ثلاثةِ أنواعٍ :

النوعُ الأولُ : أنْ ينفقَهُ علىٰ نفسِهِ :

إمَّا في عبادةٍ ، أوْ في الاستعانةِ علىٰ عبادةٍ .

أمَّا في العبادةِ . . فهوَ كالاستعانةِ بهِ على الحجِّ والجهادِ ؛ فإنَّهُ لا يتوصَّلُ إليهِما إلا بالمالِ ، وهُما مِنْ أمهاتِ القرباتِ ، والفقيرُ محرومٌ منْ فضلِهِما .

وأمَّا فيما يقوِّيهِ على العبادةِ . . فذلكَ هو المطعمُ ، والملبسُ ، والمسكنُ ، والمنكحُ ، وضروراتُ المعيشةِ ؛ فإنَّ هـٰذهِ الحاجاتِ إذا لمْ

تتيسَّرْ . . كانَ القلبُ منصرفاً إلىٰ تدبيرِها ، فلا يتفرَّغُ للدِّينِ ، وما لا يُتوصَّلُ إلى العبادةِ إلا بهِ . . فهوَ عبادةٌ ، فأخْذُ الكفايةِ مِنَ الدنيا لأجلِ الاستعانةِ على الدِّينِ مِنَ الفوائدِ الدينيَّةِ ، ولا يدخلُ في هٰذا التنعُّمُ والزيادةُ على الحاجةِ ؛ فإنَّ ذلكَ مِنْ حظوظِ الدنيا فقطْ .

❁ ❁ ❁

النوعُ الثاني : ما يصرفُهُ إلى الناسِ :

وهوَ أربعةُ أقسامٍ : الصدقةُ ، والمروءةُ ، ووقايةُ العرضِ ، وأجرةُ الاستخدامِ .

أمَّا الصدقةُ . . فلا يخفىٰ ثوابُها ، وإنَّها لتطفىءُ غضبَ الربِّ عزَّ وجلَّ ، وقدْ ذكرْنا فضائلَها فيما تقدَّمَ .

وأمَّا المروءةُ . . فنعني بها : صرفَ المالِ إلى الأغنياءِ والأشرافِ في ضيافةٍ وهديةٍ وإعانةٍ وما يجري مجراها ، فإنَّ هٰذهِ لا تُسمىٰ صدقةً ، بلِ الصدقةُ ما يُسلَّمُ إلىٰ محتاجٍ ، إلا أنَّ هٰذا أيضاً مِنَ الفوائدِ الدينيَّةِ ؛ إذْ بهِ يكتسبُ العبدُ الإخوانَ والأصدقاءَ ، وبهِ يكتسبُ صفةَ السخاءِ ، ويلتحقُ بزمرةِ الأسخياءِ ؛ فلا يُوصفُ بالجودِ إلا مَنْ يصطنعُ المعروفَ ويسلكُ سبيلَ الفتوةِ والمروءةِ ، وهٰذا أيضاً ممَّا يعظمُ الثوابُ فيهِ ، فقدْ وردَتْ أخبارٌ كثيرةٌ في الهدايا ، والضيافاتِ ، وإطعامِ الطعامِ مِنْ غيرِ اشتراطِ الفقرِ والفاقةِ في مصارفِها .

وأمَّا وقايةُ العِرضِ . . فنعني بهِ بذلَ المالِ لدفعِ هجوِ الشعراءِ وثلبِ السفهاءِ ، وقطعِ ألسنتِهِمْ ودفعِ شرِّهِمْ ، وهوَ أيضاً معَ تنجُّزِ فائدتِهِ في العاجلةِ مِنَ الحظوظِ الدينيَّةِ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما وقىٰ بهِ المرءُ عرضَهُ . . كُتبَ لهُ بهِ صدقةٌ »[1] ، وكيفَ لا وفيهِ منعُ المغتابِ عنْ معصيةِ الغيبةِ ، واحترازٌ عمَّا يثورُ مِنْ كلامِهِ مِنَ العداوةِ التي تحملُ في المكافأةِ والانتقامِ علىٰ مجاوزةِ حدودِ الشريعةِ ؟!

وأمَّا الاستخدامُ . . فهوَ أنَّ الأعمالَ التي يحتاجُ إليها الإنسانُ لتهيئةِ أسبابِهِ كثيرةٌ ، ولوْ تولَّاها بنفسِهِ . . ضاعَتْ أوقاتُهُ ، وتعذَّرَ عليهِ سلوكُ سبيلِ الآخرةِ بالفكرِ والذكرِ اللذينِ هُما أعلىٰ مقاماتِ السالكينَ ، ومَنْ لا مالَ لهُ . . فيفتقرُ إلىٰ أنْ يتولَّىٰ بنفسِهِ خدمةَ نفسِهِ مِنْ شراءِ الطعامِ ، وطبخِهِ ، وكنسِ البيتِ ، حتَّىٰ نسخِ الكتابِ الذي يحتاجُ إليهِ ، وكلُّ ما يُتصوَّرُ أنْ يقومَ بهِ غيرُكَ ، ويحصلَ بهِ غرضُكَ . . فأَنتَ مغبونٌ إذا اشتغلتَ بهِ ؛ إذْ عليكَ مِنَ العلمِ والعملِ والفكرِ والذكرِ ما لا يُتصوَّرُ أنْ يقومَ بهِ غيرُكَ ، فتضييعُ الوقتِ في غيرِهِ خسرانٌ .

❀ ❀ ❀

النوعُ الثالثُ : ما لا يصرفُهُ إلىٰ إنسانٍ معيَّنٍ ، ولكنْ يحصلُ بهِ خيرٌ عامٌّ :

كبناءِ المساجدِ ، والقناطرِ ، والرباطاتِ ، ودورِ المرضىٰ ، ونصبِ

---

(1) رواه الدارقطني في « سننه » (٣/ ٢٨) ، والحاكم في « المستدرك » (٢/ ٥٠) .

الحِبابِ في الطرُقِ[1] ، وغيرِ ذلكَ مِنَ الأوقافِ المرصدةِ للخيراتِ ، وهيَ مِنَ الخيراتِ المؤبَّدةِ ، الدَّارَّةِ بعدَ الموتِ ، المستجلبةِ بركةَ أدعيةِ الصالحينَ إلىٰ أوقاتٍ متماديَةٍ ، وناهيكَ بها خيراً .

فهـٰذهِ جملةُ فوائدِ المالِ في الدينِ سوىٰ ما يتعلَّقُ بالحظوظِ العاجلةِ ؛ مِنَ الخلاصِ مِنْ ذلِّ السؤالِ ، وحقارةِ الفقرِ ، والوصولِ إلى العزِّ والمجدِ بينَ الخلقِ ، وكثرةِ الإخوانِ والأعوانِ والأصدقاءِ ، والوقارِ والكرامةِ في القلوبِ ، فكلُّ ذلكَ ممَّا يقتضيهِ المالُ مِنَ الحظوظِ الدُّنيويةِ .

* * *

وأمَّا الآفاتُ : فدينيَّةٌ ، ودنيويَّةٌ :

أمَّا الدينيَّةُ . . فثلاثٌ :

الأولىٰ : أنَّهُ يجرُّ إلى المعاصي :

فإنَّ الشهواتِ متقاضيةٌ[2] ، والعجزُ قدْ يحولُ بينَ المرءِ وبينَ المعصيةِ ، ومِنَ العصمةِ ألا يقدرَ ، ومهما كانَ الإنسانُ آيساً عنْ نوعٍ مِنَ المعصيةِ . . لمْ تتحرَّكْ داعيتُهُ ، فإذا استشعرَ القدرةَ عليها . . انبعثَتْ داعيتُهُ ، والمالُ نوعٌ مِنَ القدرةِ يحرِّكُ داعيةَ المعاصي وارتكابِ الفجورِ ، فإنِ اقتحمَ ما اشتهاهُ . .

---

(١) حباب : جمع حُبّ ، لفظة فارسية معربة ، وهي الخابية ، والمراد بالتي على الطريق مخازن المياه .

(٢) إذ بعضها يقتضي وجود بعض ويدعو إليه .

هلكَ ، وإنْ صبرَ . . وقعَ في شدَّةٍ ؛ إذِ الصبرُ معَ القدرةِ أشدُّ ، وفتنةُ السرَّاءِ أعظمُ مِنْ فتنةِ الضرَّاءِ .

الثانيةُ : أنَّهُ يجرُّ إلى التَّنعُّمِ في المباحاتِ :

وهٰذا أقلُّ الدرجاتِ ، فمتىٰ يقدرُ صاحبُ المالِ علىٰ أنْ يتناولَ خبزَ الشعيرِ ، ويلبسَ الثوبَ الخشنَ ، ويتركَ لذائذَ الأطعمةِ ؛ كما كانَ يقدرُ عليهِ سليمانُ بنُ داوودَ عليهما الصلاةُ والسلامُ في ملكِهِ ؟! فأحسنُ أحوالِهِ أنْ يتنعَّمَ بالدنيا ، ويمرِّنَ علىٰ ذلكَ نفسَهُ ؛ فيصيرُ التنعُّمُ مألوفاً عندَهُ ، ومحبوباً لا يصبرُ عنهُ ، ويجرُّهُ البعضُ مِنْهُ إلى البعضِ .

فإذا اشتدَّ أنسُهُ بهِ . . ربَّما لا يقدرُ على التوصُّلِ إليهِ بالكسبِ الحلالِ ؛ فيقتحمُ الشبهاتِ ، ويخوضُ في المراءاةِ ، والمداهنةِ ، والكذبِ ، والنفاقِ ، وسائرِ الأخلاقِ الرديئةِ ؛ لينتظمَ لهُ أمرُ دنياهُ ، ويتيسَّرَ لهُ تنعُّمُهُ ؛ فإنَّ مَنْ كثُرَ مالُهُ . . كثُرَتْ حاجتُهُ إلى الناسِ ، ومَنِ احتاجَ إلى الناسِ . . فلابدَّ وأنْ ينافقَهُمْ ، ويعصيَ اللهَ تعالىٰ في طلبِ رضاهُمْ ؛ فإنْ سلِمَ الإنسانُ مِنَ الآفةِ الأولىٰ ـ وهيَ مباشرةُ المحظوراتِ ـ فلا يسلمُ عنْ هٰذهِ أصلاً ، ومِنَ الحاجةِ إلى الخلقِ تثورُ العداوةُ والصداقةُ ، وينبني عليهِ الحسدُ ، والحقدُ ، والرياءُ ، والكبرُ ، والكذبُ ، والغيبةُ ، والنميمةُ ، وسائرُ المعاصي التي تخصُّ القلبَ واللسانَ ، ولا تخلو عنِ التعدي أيضاً إلىٰ سائرِ الجوارحِ ، وكلُّ ذلكَ يلزمُ مِنْ شؤمِ المالِ ، والحاجةِ إلىٰ حفظِهِ وإصلاحِهِ .

الثالثةُ ـ وهيَ التي لا ينفكُّ عنها أحدٌ ـ : وهيَ أنَّهُ يلهيهِ إصلاحُ مالِهِ عنْ ذكرِ اللهِ تعالىٰ :

وكلُّ ما شغلَ العبدَ عنِ اللهِ . . فهوَ خسرانٌ ، ولذلكَ قالَ عيسىٰ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : في المالِ ثلاثُ آفاتٍ : أنْ يأخذَهُ مِنْ غيرِ حلِّهِ ، فقيلَ : إنْ أخذَهُ مِنْ حلِّهِ ؟ فقالَ : يضعُهُ في غيرِ حقِّهِ ، فقيلَ : إنْ وضعَهُ في حقِّهِ ؟ فقالَ : يشغلُهُ إصلاحُهُ عنِ اللهِ تعالىٰ[1] .

وهٰذا هوَ الداءُ العضالُ ، فإنَّ أصلَ العباداتِ ومخَّها وسرَّها ذكرُ اللهِ تعالىٰ والفكرُ في جلالِهِ ، وذلكَ يستدعي قلباً فارغاً ، وصاحبُ الضَّيعةِ يمسي ويصبحُ متفكِّراً في خصومةِ الفلاحِ ومحاسبتِهِ ، وفي خصومةِ الشركاءِ ومنازعتِهِمْ في الماءِ والحدودِ ، وخصومةِ أعوانِ السلطانِ في الخراجِ ، وخصومةِ الأُجَراءِ في التقصيرِ في العمارةِ ، وخصومةِ الفلاحينَ في خيانتِهِمْ وسرقتِهِمْ ، وصاحبُ التجارةِ يكونُ متفكراً في خيانةِ شريكِهِ ، وانفرادِهِ بالربحِ ، وتقصيرِهِ في العملِ ، وتضييعِهِ للمالِ ، وكذلكَ صاحبُ المواشي ، وهٰكذا سائرُ أصنافِ الأموالِ ، وأبعدُها عنْ كثرةِ الشغلِ النقدُ المكنوزُ تحتَ الأرضِ ، ولا يزالُ الفكرُ متردِّداً فيما يُصرفُ إليهِ ، وفي كيفيةِ حفظِهِ ، وفي الخوفِ ممَّنْ يعثرُ عليهِ ، وفي دفعِ أطماعِ الناسِ عنهُ ، وأوديةُ أفكارِ الدنيا لا نهايةَ لها ، والذي معَهُ قوتُ يومِهِ في سلامةٍ عنْ جميعِ ذلكَ .

---

(١) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٢٤٨) عن سفيان بن سعيد يحكيه .

فهٰذِهِ جملةُ الآفاتِ الدُّنيويةِ سوىٰ ما يقاسيهِ أربابُ الأموالِ في الدنيا ؛ مِنَ الخوفِ ، والحزنِ ، والغمِّ ، والهمِّ ، والتعبِ في دفعِ الحسَّادِ ، وتجشُّمِ المصاعبِ في حفظِ الأموالِ وكسبِها .

فإذاً ؛ ترياقُ المالِ أخذُ القوتِ منهُ ، وصرفُ الباقي إلى الخيراتِ ، وما عداهُ سمومٌ وآفاتٌ ، نسألُ اللهَ تعالىٰ السلامةَ وحسنَ العونِ بلطفِهِ وكرمِهِ ، إنَّهُ علىٰ ذلكَ قديرٌ .

* * *

بيان ذمّ الحرص والطّمع ، ومدح القناعة واليأس ممّا في أيدي النّاس

اعلمْ : أنَّ الفقرَ محمودٌ ؛ كما أوردناهُ في كتابِ الفقرِ ، ولكنْ ينبغي أنْ يكونَ الفقيرُ قانعاً منقطعَ الطمعِ عنِ الخلقِ ، غيرَ ملتفتٍ إلىٰ ما في أيديهِمْ ، ولا حريصاً على اكتسابِ المالِ كيفَ كانَ ، ولا يمكنُهُ ذلكَ إلا بأنْ يقنعَ بقدْرِ الضرورةِ مِنَ المطعمِ والملبسِ والمسكنِ ، ويقتصرَ علىٰ أقلِّهِ قدراً وأخسِّهِ نوعاً ، ويردَّ أملَهُ إلىٰ يومِهِ أوْ إلىٰ شهرِهِ ، ولا يشغلَ قلبَهُ بما بعدَ شهرٍ .

فإنْ تشوَّفَ إلى الكثيرِ أوْ طوَّلَ أملَهُ . . فاتَهُ عزُّ القناعةِ ، وتدنَّسَ ـ لا محالةَ ـ بالطمعِ وذلِّ الحرصِ ، وجرَّهُ الحرصُ والطمعُ إلىٰ مساوئِ الأخلاقِ وارتكابِ المنكراتِ الخارقةِ للمروءاتِ ، وقدْ جُبِلَ الآدميُّ على الحرصِ والطمعِ وقلَّةِ القناعةِ .

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لوْ كانَ لابنِ آدمَ واديانِ مِنْ ذهبٍ . . لابتغىٰ إليهما ثالثاً ، ولا يملأُ جوفَ ابنِ آدمَ إلاَّ الترابُ ، ويتوبُ اللهُ علىٰ مَنْ تابَ »(١) .

وعنْ أبي واقدٍ الليثيِّ قالَ : كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا أُوحِيَ إليهِ . . أتيناهُ يعلِّمُنا ممَّا أُوحيَ إليهِ ، فجئتُهُ ذاتَ يومٍ فقالَ : « إنَّ اللهَ

---

(١) رواه البخاري (٦٤٣٦ ، ٦٤٣٩) ، ومسلم (١٠٤٨ ، ١٠٤٩) .

عزَّ وجلَّ يقولُ : إنَّا أنزلْنا المالَ لإقامِ الصلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ ، ولوْ أنَّ لابنِ آدمَ وادياً مِنْ ذهبٍ . . لأحبَّ أنْ يكونَ إليهِ الثاني ، ولوْ كانَ لهُ الثاني . . لأحبَّ أنْ يكونَ إليهِما الثالثُ ، ولا يملأُ جوفَ ابنِ آدمَ إلا الترابُ ، ويتوبُ اللهُ علىٰ مَنْ تابَ »(١) .

وقالَ أبو موسى الأشعريُّ : نزلَتْ سورةٌ نحوُ (براءةٌ) ، ثمَّ رُفعَتْ ، وحُفظَ مِنْها : (إنَّ اللهَ يؤيدُ هٰذا الدينَ بأقوامٍ لا خلاقَ لهُمْ ، ولوْ أنَّ لابنِ آدمَ واديينِ مِنْ مالٍ . . لتمنَّىٰ وادياً ثالثاً ، ولا يملأُ جوفَ ابنِ آدمَ إلا الترابُ ، ويتوبُ اللهُ علىٰ مَنْ تابَ)(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « منهومانِ لا يشبعانِ ؛ منهومُ العلمِ ، ومنهومُ المالِ »(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يهرمُ ابنُ آدمَ ويشبُّ منهُ اثنتانِ ؛ الأملُ ، وحبُّ المالِ »(٤) ، أوْ كما قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

ولمَّا كانَتْ هٰذهِ جبلَّةً للآدميِّ مضلةً ، وغريزةً مهلكةً . . أثنى اللهُ تعالىٰ

---

(١) رواه أبو عبيد في « فضائل القرآن » (ص ٣٢٢) ، وأحمد في « المسند » (٥/٢١٨) ، والطبراني في « الكبير » (٣/٢٤٧) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٨٠٠) .

(٢) رواه أبو عبيد في « فضائل القرآن » (ص ٣٢٣) واللفظ له ، وأصله عند مسلم (١٠٥٠) .

(٣) رواه الحاكم في « المستدرك » (١/٩٢) من حديث أنس مرفوعاً ، ولفظه : « منهومان لا يشبعان ؛ منهوم في علم لا يشبع ، ومنهوم في دنيا لا يشبع » .

(٤) رواه البخاري (٦٤٢١) ، ومسلم (١٠٤٧) .

ورسولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ على القناعةِ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « طوبىٰ لمَنْ هُدِيَ إلى الإسلامِ وكانَ عيشُهُ كفافاً وقنِعَ بهِ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما مِنْ أحدٍ غنيٍّ ولا فقيرٍ إلا ودَّ يومَ القيامةِ أنَّهُ كانَ أُوتيَ قوتاً في الدنيا »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ليسَ الغنىٰ عنْ كثرةِ العَرَضِ ، إنَّما الغنىٰ غنى النَّفسِ »(٣) .

ونهىٰ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنْ شدَّةِ الحرصِ والمبالغةِ في الطلبِ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ألا أيُّها النَّاسُ ؛ أجملوا في الطَّلبِ ؛ فإنَّهُ ليسَ لعبدٍ إلا ما كُتِبَ لهُ ، ولَنْ يذهبَ عبدٌ مِنَ الدنيا حتَّىٰ يأتيَهُ ما كُتِبَ لهُ مِنَ الدنيا وهيَ راغمةٌ »(٤) .

ورُوِيَ أنَّ موسىٰ عليهِ السلامُ سألَ ربَّهُ تعالىٰ فقالَ : أيُّ عبادِكَ أغنى ؟ قالَ : أقنعُهُمْ بما أعطيتُهُ ، قالَ : فأيُّهُمْ أعدلُ ؟ قالَ : مَنْ أنصفَ مِنْ نفسِهِ(٥) .

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٤٩) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (٩٧٩٣) من حديث فضالة بن عبيد رضي الله عنه ، وعند مسلم (١٠٥٤) من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً : « قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنَّعه الله بما آتاه » .

(٢) رواه ابن ماجه (٤١٤٠) .

(٣) رواه البخاري (٦٤٤٦) ، ومسلم (١٠٥١) .

(٤) روى الحاكم في « المستدرك » (٢/٤) نحوه .

(٥) رواه هناد في « الزهد » (٤٨٩) .

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ روحَ القدسِ نَفَثَ في روعي أنَّ نفساً لَنْ تموتَ حتَّىٰ تستكملَ رزقَها ، فاتَّقوا اللهَ وأجملوا في الطَّلبِ »[1] .

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ لي رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يا أبا هريرةَ ؛ إذا اشتدَّ بكَ الجوعُ . . فعليكَ برغيفٍ وكوزٍ مِنْ ماءٍ وعلى الدنيا الدَّمارُ »[2] .

وقالَ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كنْ ورعاً . . تكنْ أعبدَ الناسِ ، وكنْ قَنِعاً . . تكنْ أشكرَ الناسِ ، وأحِبَّ للناسِ ما تُحبُّ لنفسِكَ . . تكنْ مؤمناً »[3] .

ونهىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنِ الطمعِ فيما رواهُ أبو أيوبَ الأنصاريُّ : أنَّ أعرابياً أتى النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ عِظْني وأوجزْ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا صلَّيتَ . . فصلِّ صلاةَ مودِّعٍ ، ولا تحدِّثَنَّ بحديثٍ تعتذرُ منهُ غداً ، وأَجْمِعِ اليأسَ ممَّا في أيدي الناسِ »[4] .

وقالَ عوفُ بنُ مالكٍ الأشجعيُّ : كنَّا عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ تسعةً أوْ ثمانيةً أوْ سبعةً ، فقالَ : « ألا تبايعونَ رسولَ اللهِ ؟ » قلْنا : أَوَليسَ

---

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (٤/٢) ، وابن ماجه (٢١٤٤) .
(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (٩٨٨١) .
(٣) رواه ابن ماجه (٤٢١٧) ، والبيهقي في « الشعب » (٥٣٦٦) .
(٤) رواه ابن ماجه (٤١٧١) .

قدْ بايعناكَ يا رسولَ اللهِ ؟ ثمَّ قالَ : « ألا تبايعونَ رسولَ اللهِ ؟ » فبسطنا أيديَنا فبايعْناهُ ، فقالَ قائلٌ منَّا : قدْ بايعناكَ يا رسولَ اللهِ ، فعلىٰ ماذا نبايعُكَ ؟ قالَ : « علىٰ أنْ تعبدوا اللهَ ولا تشركوا بهِ شيئاً ، والصلواتِ الخمسِ ، وتسمعوا وتطيعوا ـ وأسرَّ كلمةً خفيَّةً ـ ولا تسألوا الناسَ شيئاً » ، قالَ : فلقدْ كانَ بعضُ أولئكَ النفرِ يسقطُ سوطُهُ فلا يسألُ أحداً أنْ يناولَهُ إيَّاهُ[١] .

❁ ❁ ❁

الآثارُ :

قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (إنَّ الطمعَ فقرٌ ، وإنَّ اليأسَ غنىً ، وإنَّهُ مَنْ أيسَ ممَّا عندَ الناسِ . . استغنىٰ عنهُمْ)[٢] .

وقيلَ لبعضِ الحكماءِ: ما الغنى ؟ قالَ: قلَّةُ تمنِّيكَ، ورضاكَ بما يكفيكَ[٣] .

وفي ذلكَ قيلَ[٤] : [مجزوء الكامل]

اَلْعَيْشُ ساعاتٌ تَمُرْ ... وَخُطُوبُ أَيَّامٍ تَكُرْ
اِقْنَعْ بِعَيْشِكَ تَرْضَهُ ... وَاتْرُكْ هَواكَ وَأَنْتَ حُرْ[٥]
فَلَرُبَّ حَتْفٍ ساقَهُ ... ذَهَبٌ وَياقُوتٌ وَدُرْ

---

(١) رواه مسلم (١٠٤٣) ، وأبو داوود (١٦٤٢) ، والنسائي (١/ ٢٢٩) .
(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٦٣١) .
(٣) رواه أبو بكر الشاشي في « فوائده » (٦) .
(٤) انظر « شرح نهج البلاغة » (١٩/ ١٦٣) .
(٥) في (أ) : (تعيش) بدل (وأنت) .

وكانَ محمدُ بنُ واسعٍ يبلُّ الخبزَ اليابسَ بالماءِ ويأكلُهُ ويقولُ : مَنْ قنعَ بهـٰذا . . لمْ يحتجْ إلىٰ أحدٍ[1] .

وقالَ سفيانُ : (خيرُ دنياكُمْ ما لمْ تُبتلَوا بهِ ، وخيرُ ما ابتليتُمْ بهِ ما خرجَ مِنْ أيديكُمْ)[2] .

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (ما مِن يومٍ إلا وملكٌ ينادي : يا بنَ آدمَ ؛ قليلٌ يكفيكَ خيرٌ مِنْ كثيرٍ يطغيكَ)[3] .

وقالَ شُمَيطُ بنُ عجلانَ : (إنَّما بطنُكَ يا بنَ آدمَ شبرٌ في شبرٍ ؛ فلِمَ يدخلُكَ النارَ ؟)[4] .

وقيلَ لحكيمٍ : ما مالُكَ ؟ قالَ : التَّجمُّلُ في الظاهرِ ، والقصدُ في الباطنِ ، واليأسُ ممَّا في أيدي الناسِ .

ويُروىٰ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قالَ : يا بنَ آدمَ ؛ لوْ كانتِ الدنيا كلُّها لكَ . . لمْ يكنْ لكَ مِنْها إلا القوتُ ، فإذا أنا أعطيتُكَ مِنْها القوتَ ، وجعلتُ حسابَها علىٰ غيرِكَ . . فأنا إليكَ محسنٌ .

---

(١) روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٣٥٣) أن محمد بن واسع أريد على القضاء فأبىٰ ، فعاتبته امرأته فقالت : لك عيال وأنت محتاج ، قال : ما دمت تريني أصبر على الخل والبقل . . فلا تطمعي في هـٰذا مني .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٥٤١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٢١) بنحوه .

(٣) كذا في « القوت » . « إتحاف » (٨/ ١٦١) .

(٤) كذا في « القوت » . « إتحاف » (٨/ ١٦١) .

وقالَ ابنُ مسعودٍ : (إذا طلبَ أحدُكُمُ الحاجةَ . . فليطلبْها طلباً يسيراً ، ولا يأتي الرجلَ فيقولَ : إنَّكَ وإنَّكَ فيقطعُ ظهرَهُ ، فإنَّما يأتيهِ ما قُسِمَ لهُ أوْ ما رُزِقَ)(١) .

وكتبَ بعضُ بني أميةَ إلىٰ أبي حازمٍ يعزمُ عليهِ إلا رفعَ إليهِ حوائجَهُ ، فكتَبَ إليهِ : قدْ رفعتُ حوائجي إلىٰ مولايَ ، فما أعطاني مِنْها . . قبلتُ ، وما أمسكَ عنِّي . . قنعتُ(٢) .

وقيلَ لبعضِ الحكماءِ : أيُّ شيءٍ أسرُّ للعاقلِ ؟ وأيُّما شيءٍ أعونُ علىٰ دفعِ الحزنِ ؟ فقالَ : أسرُّها إليهِ ما قدَّمَ مِنْ صالحِ العملِ ، وأعونُها لهُ علىٰ دفعِ الحزنِ الرضا بمحتومِ القضاءِ(٣) .

وقالَ بعضُ الحكماءِ : (وجدتُ أطولَ الناسِ غمّاً الحسودَ ، وأهنأَهُمْ عيشاً القنوعَ ، وأصبرَهُمْ على الأذى الحريصَ إذا طمعَ ، وأخفضَهُمْ عيشاً أرفضَهُمْ للدنيا ، وأعظمَهُمْ ندامةً العالمَ المفرِّطَ) .

وفي ذلكَ قيلَ(٤) : [من البسيط]

أَرْفِهْ بِبالِ فَتىً يُمْسِي عَلَىٰ ثِقَةٍ   أَنَّ ٱلَّذِي قَسَّمَ ٱلأَرْزاقَ يَـرْزُقُـهُ

---

(١) رواه البخاري في « الأدب المفرد » (٧٧٩) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٢٣٧) .

(٣) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٨/ ١٦٢) .

(٤) الأبيات للعطوي في « ديوانه » (ص ٨٤) (ضمن مجلة المورد ، المجلد الأول ١٣٩١ـ ١٩٧١ ـ العددان ١+٢) ، والثالث في « بهجة المجالس » (٣/ ٣٠٩) .

فَٱلْعِرْضُ مِنْهُ مَصُونٌ لا يُدَنِّسُهُ وَٱلْوَجْهُ مِنْهُ جَدِيدٌ لَيْسَ يُخْلِقُهُ
إِنَّ ٱلْقَناعَةَ مَنْ يَحْلُلْ بِساحَتِها لَمْ يَلْقَ فِي دَهْرِهِ شَيْئاً يُؤَرِّقُهُ

وقدْ قيلَ أيضاً[1] : [من البسيط]

حَتَّىٰ مَتَىٰ أَنا فِي حِلٍّ وَتَرْحالِ وَطُولِ سَعْيٍ وَإِدْبارٍ وَإِقْبالِ
وَنازِحُ ٱلدَّارِ لا أَنْفَكُّ مُغْتَرِباً عَنِ ٱلأَحِبَّةِ لا يَدْرُونَ ما حالِي
بِمَشْرِقِ ٱلأَرْضِ طَوْراً ثُمَّ مَغْرِبِها لا يَخْطُرُ ٱلْمَوْتُ مِنْ حِرْصِي عَلَىٰ بالِ
وَلَوْ قَنِعْتُ أَتانِي ٱلرِّزْقُ فِي دَعَةٍ إِنَّ ٱلْقُنُوعَ ٱلْغِنَىٰ لا كَثْرَةُ ٱلْمالِ[2]

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (ألا أخبرُكُمْ بما أستحلُّ مِنْ مالِ اللهِ عزَّ وجلَّ ؟ حُلَّتانِ لشتائي وقيظي ، وما يسعُني مِنَ ٱلظَّهْرِ لحجِّي وعُمرتي ، وقوتي بعدَ ذلكَ كقوتِ رجلٍ مِنْ قريشٍ ، لسْتُ بأرفعِهِمْ ولا بأوضعِهِمْ ، فواللهِ ؛ ما أدري أيحلُّ ذلكَ أمْ لا ؟)[3] ، كأنَّهُ شكَّ في أنَّ هـٰذا القدْرَ هلْ هوَ زيادةٌ على الكفايةِ التي تجبُ القناعةُ بها ؟

وعاتبَ أعرابيٌّ أخاهُ على الحرصِ فقالَ : (يا أخي ؛ أنتَ طالبٌ

---

(١) الأبيات مما نسب إلىٰ أبي العتاهية في « ديوانه » (ص ٦٢٨) ، وإلىٰ كلثوم العتابي . انظر « العقد الفريد » (٣/ ٢٠٨ـ٢٠٩) .

(٢) رواها الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٣٧١) للمأمون وهو قافل إلىٰ طرسوس .

(٣) رواه ابن زنجويه في « الأموال » (٩٨٩) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٤/ ٢٧٠) .

ومطلوبٌ ، يطلبُكَ مَنْ لا تفوتهُ ، وتطلبُ أنتَ ما قدْ كُفيتَهُ ، وكأنَّ ما غابَ عنكَ قدْ كُشِفَ لكَ ، وما أنتَ فيهِ قدْ نُقِلْتَ عنهُ ؛ كأنَّكَ ـ يا أخي ـ لمْ ترَ حريصاً محروماً ، وزاهداً مرزوقاً)[1] .

وقيلَ في ذلكَ[2] : [من الوافر]

أَراكَ يَـزِيـدُكَ ٱلإِثْـراءُ حِـرْصـاً ... عَلَـى ٱلـدُّنيا كَـأَنَّـكَ لا تَمُـوتُ
فَهَلْ لَكَ غَايَةٌ إِنْ صِرْتَ يَوْماً ... إِلَيْهـا قُلْـتَ حَسْبِـي قَـدْ رَضِيـتُ

وحكى الشَّعبيُّ : أنَّ رجلاً صادَ قُنْبَرةً ، فقالَتْ : ما تريدُ أنْ تصنعَ بي ؟ قالَ : أذبحُكِ وآكُلُكِ ، قالَتْ : واللهِ ؛ ما أشفي مِنْ قرَمٍ ، ولا أشبِعُ مِنْ جوعٍ ، ولكنْ أعلِّمُكَ ثلاثَ خصالٍ هيَ خيرٌ لكَ مِنْ أكلي ؛ أمَّا واحدةٌ . . فأعلِّمُكَ وأنا في يدِكَ ، وأمَّا الثانيةُ . . فإذا صرتُ على الشجرةِ ، وأمَّا الثالثةُ . . فإذا صرْتُ على الجبلِ ، فقالَ : هاتِ الأولىٰ ، قالَتْ : لا تلهفَنَّ علىٰ ما فاتَكَ ، فخلاَّها ، فلمَّا صارَتْ على الشجرةِ . . قالَ : هاتِ الثانيةَ ، قالَتْ : لا تصدِّقَنَّ بما لا يكونُ أنَّهُ يكونُ ، ثمَّ طارَتْ فصارَتْ على الجبلِ ، قالَتْ : يا شقيُّ ؛ لوْ ذبحتَني . . لأخرجتَ مِنْ حوصلتي دُرَّتينِ زِنةُ كلِّ واحدةٍ عشرونَ مثقالاً ، قالَ : فعضَّ علىٰ شفتيهِ وتلهَّفَ ، وقالَ : هاتِ الثالثةَ ، قالَتْ : قدْ نسيتَ اثنتينِ ؛ فكيفَ أخبرُكَ بالثالثةِ ؟! ألمْ أقلْ لكَ : لا تلهفَنَّ علىٰ ما فاتَكَ ، ولا تصدِّقَنَّ بما لا يكونُ أنَّهُ يكونُ ؟! أنا ولحمي

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (٣١٤) .
(٢) البيتان لمحمود الوراق في « ديوانه » (ص ٨٩) .

ودمي وريشي لا يكونُ عشرينَ مثقالاً ، فكيفَ يكونُ في حوصلتي درَّتانِ في كلِّ واحدةٍ عشرونَ مثقالاً ، ثمَّ طارَتْ فذهبَتْ[1] .

وهـٰذا مثالٌ لفرطِ طمعِ الآدميِّ ؛ فإنَّهُ يُعميهِ عنْ دركِ الحقِّ حتَّىٰ يقدِّرَ ما لا يكونُ أنَّهُ يكونُ .

وقالَ ابنُ السمَّاكِ : (إنَّ الرجاءَ حبلٌ في قلبِكَ ، وقيدٌ في رِجْلِكَ ، فأخرجِ الرجاءَ مِنْ قلبِكَ . . يخرجِ القيدُ مِنْ رجلِكَ)[2] .

وقالَ أبو محمدٍ اليزيديُّ : دخلتُ على الرشيدِ ، فوجدتُهُ ينظرُ في ورقةٍ مكتوبٍ فيها بالذهبِ ، فلمَّا رآني . . تبسَّمَ ، فقلْتُ : فائدةٌ أصلحَ اللهُ أميرَ المؤمنينَ ؟ قالَ : نعمْ ، وجدتُ هـٰذينِ البيتينِ في بعضِ خزائنِ بني أميَّةَ فاستحسنتُهُما ، وقدْ أضفْتُ إليهما ثالثاً ، وأنشدَني[3] : [من الطويل]

إذا سُدَّ بابٌ عَنْكَ مِنْ دُونِ حاجَةٍ ... فَدَعْهُ لأُخْرَىٰ يَنْفَتِحْ لَكَ بابُها
فَإِنَّ قُرابَ ٱلْبَطْنِ يَكْفِيكَ مِلْؤُهُ ... وَيَكْفِيكَ سَوْءاتِ ٱلأُمُورِ ٱجْتِنابُها
وَلا تَكُ مِبْذالاً لِعِرْضِكَ وَٱجْتَنِبْ ... رُكُوبَ ٱلْمَعاصِي يَجْتَنِبْكَ عِقابُها

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ سلامٍ لكعبٍ : ما يُذهبُ العلمَ مِنْ قلوبِ العلماءِ بعدَ إذْ وعَوْهُ وعقلوهُ ؟ قالَ : الطمعُ ، وشرَهُ النفسِ ، وطلبُ الحوائجِ[4] .

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٣١٦) .
(٢) رواه ابن حبان في « روضة العقلاء » (ص ١٤٣) .
(٣) انظر « بهجة المجالس » (٣/ ٣١٠) ، و« مختصر تاريخ دمشق » (٢٧/ ٢٥) .
(٤) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٠/ ١٧١) .

وقالَ رجلٌ للفضيلِ : فسِّرْ لي قولَ كعبٍ ، قالَ : يطمعُ الرجلُ في الشيءِ فيطلبُهُ ، فيُذهِبُ عليهِ دينَهُ ، وأمَّا الشَّرهُ . . فشرهُ النفسِ في هـٰذا وفي هـٰذا ، حتَّىٰ لا تحبَّ أنْ يفوتَها شيءٌ ، ويكونُ لكَ إلىٰ هـٰذا حاجةٌ وإلىٰ هـٰذا حاجةٌ ، فإذا قضاها لكَ . . خزمَ أنفَكَ ، وقادَكَ حيثُ شاءَ ، واستمكنَ منكَ ، وخضعتَ لهُ ، فمِنْ حبِّكَ للدنيا سلَّمتَ عليهِ إذا مررتَ بهِ ، وعدتَهُ إذا مرضَ ، لمْ تسلِّمْ عليهِ للهِ عزَّ وجلَّ ، ولمْ تعدْهُ للهِ عزَّ وجلَّ ، فلوْ لمْ يكنْ لكَ إليهِ حاجةٌ . . كانَ خيراً لكَ ، ثمَّ قالَ : هـٰذا خيرٌ لكَ مِنْ مئةِ حديثٍ عنْ فلانٍ وفلانٍ[1] .

وقالَ بعضُ الحكماءِ : (مِنْ عجيبِ أمرِ الإنسانِ أنَّه لوْ نُوديَ بدوامِ البقاءِ في أيامِ الدنيا . . لمْ يكنْ في قوىٰ خلقتِهِ مِنَ الحرصِ على الجمعِ أكثرُ ممَّا قدِ استعملَهُ معَ قصرِ مدَّةِ التمتُّعِ وتوقُّعِ الزوالِ)[2] .

وقالَ عبدُ الواحدِ بنُ زيدٍ : مررتُ براهبٍ ، فقلتُ لهُ : مِنْ أينَ تأكلُ ؟ قالَ : مِنْ بيدرِ اللطيفِ الخبيرِ ، الذي خلقَ الرَّحىٰ هوَ يأتيها بالطحينِ ، وأشارَ بيدِهِ إلىٰ رحىٰ أضراسِهِ[3] ، فسبحانَ القديرِ الخبيرِ .

* * *

---

(١) رواه ـ وفيه الخبر السابق ـ القاضي عياض في « الإلماع » (ص ١٩٤) .
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا . « إتحاف » (٩/ ١٦٤) .
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا . « إتحاف » (٩/ ١٦٤) ، ورواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦/ ١١) ضمن خبر طويل ولكن عن السليط بن سبيع .

بيان علاج الحرص والطمع، والدواء الذي تكتسب به صفة القناعة

اعلمْ : أنَّ هٰذا الدواءَ مركَّبٌ مِنْ ثلاثةِ أركانٍ : الصبرِ ، والعلمِ ، والعملِ .

ومجموعُ ذلكَ خمسةُ أمورٍ :

الأولُ ـ وهوَ العملُ ـ : الاقتصادُ في المعيشةِ ، والرفقُ في الإنفاقِ : فمَنْ أرادَ عزَّ القناعةِ . . فينبغي أنْ يسدَّ عنْ نفسِهِ أبوابَ الخرْجِ ما أمكنَهُ ، ويردَّ نفسَهُ إلىٰ ما لا بدَّ منهُ ؛ فمَنْ كثرَ خرجُهُ ، واتسعَ إنفاقُهُ . . لمْ تمكنْهُ القناعةُ ، بلْ إنْ كانَ وحدَهُ . . فينبغي أنْ يقنعَ بثوبٍ واحدٍ خشنٍ ، ويقنعَ بأيِّ طعامٍ كانَ ، ويقلِّلَ مِنَ الإدامِ ما أمكنَهُ ، ويوطِّنَ نفسَهُ علىٰ ذلكَ ، وإنْ كانَ لهُ عيالٌ . . فيردُّ كلَّ واحدٍ إلىٰ هٰذا القدْرِ ، فإنَّ هٰذا القدْرَ يتيسَّرُ بأدنىٰ جهدٍ ، ويمكنُ معَهُ الإجمالُ في الطلبِ .

فالاقتصادُ في المعيشةِ هوَ الأصلُ في القناعةِ ، ونعني بهِ : الرفقَ في الإنفاقِ ، وتركَ الخُرقِ فيهِ[1] .

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « **إنَّ اللهَ يحبُّ الرفقَ في الأمرِ كلِّهِ** »[2] .

---

(١) **الخُرق** : ضد الرفق ، وهو أيضاً ألا يحسن الرجل العمل والتصرف في الأمور .
(٢) رواه البخاري (٦٠٢٤) ، ومسلم (٢١٦٥) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما عالَ مَنِ اقتصَدَ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ثلاثٌ منجياتٌ ؛ خشيةُ اللهِ في السرِّ والعلانيةِ ، والقصدُ في الغنىٰ والفقرِ ، والعدلُ في الرضا والغضبِ »(٢) .

ورُوِيَ أَنَّ رجلاً أبصرَ أبا الدرداءِ يلتقطُ حبّاً مِنَ الأرضِ وهوَ يقولُ : (إنَّ مِنْ فقهِكَ رفقَكَ في معيشتِكَ)(٣) .

وقالَ ابنُ عباسٍ : قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الاقتصادُ ، وحسنُ السَّمتِ ، والهدْيُ الصالحُ . . جزءٌ مِنْ بضعٍ وعشرينَ جزءاً مِنَ النبوَّةِ »(٤) .

وفي الخبرِ : « التدبيرُ نصفُ العيشِ »(٥) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنِ اقتصدَ . . أغناهُ اللهُ ، ومَنْ بذَّرَ . .

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (١/ ٤٤٧) ، وابن أبي الدنيا في « إصلاح المال » (٣٤٨) ، والطبراني في « الكبير » (١٠/ ١٠٨) ، **وما عال** : ما افتقر ، **من اقتصد** : من أنفق قصداً ولم يجاوزه إلى الإسراف . « إتحاف » (٨/ ١٦٤) .

(٢) رواه الخرائطي في « اعتلال القلوب » (١٠٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٤٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٣١) .

(٣) رواه البيهقي في « الشعب » (٦١٤٤) ، ورواه من حديثه أيضاً مرفوعاً (٦١٤٥) .

(٤) رواه أبو داوود (٤٧٧٦) مع تقديم وتأخير ، والترمذي (٢٠١٠) وفيه : (التؤدة) بدل (الهدي الصالح) .

(٥) رواه القضاعي في « مسند الشهاب » (٣٢) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٣٤٢١) ، **والتدبير هنا** : النظر في عواقب الإنفاق ؛ إذ به يحترز عن الإسراف والتقتير . « إتحاف » (٨/ ١٦٥) .

أفقَرَهُ اللهُ ، ومَنْ ذكرَ اللهَ عزَّ وجلَّ . . أحبَّهُ اللهُ »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا أردْتَ أمراً . . فعليكَ بالتُّؤدَةِ حتَّىٰ يجعلَ اللهُ لكَ فرجاً ومخرجاً »[2] ، والتؤدةُ في الإنفاقِ مِنْ أهمِّ الأمورِ .

❊ ❊ ❊

الثاني : أنَّهُ إذا تيسَّرَ لهُ في الحالِ ما يكفيهِ . . فلا ينبغي أنْ يكونَ شديدَ الاضطرابِ لأجلِ المستقبلِ : ويعينُهُ علىٰ ذلكَ قصرُ الأملِ ، والتحققُ بأنَّ الرزقَ الذي قُدِّرَ لهُ لا بدَّ وأَنْ يأتيَهُ وإنْ لمْ يشتدَّ حرصُهُ ، وأنَّ شدةَ الحرصِ ليسَ هيَ السببَ لوصولِ الأرزاقِ ، بلْ ينبغي أنْ يكونَ واثقاً بوعدِ اللهِ تعالىٰ ؛ إذْ قالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ وذلكَ لأنَّ الشيطانَ يعدُهُ الفقرَ ويأمرُهُ بالفحشاءِ ، ويقولُ : إنْ لمْ تحرصْ على الجمعِ والادخارِ . . فربَّما تمرضُ وتعجزُ ، وتحتاجُ إلى احتمالِ الذلِّ في السؤالِ ، فلا يزالُ طولَ العمرِ يتعبُهُ في الطلبِ خوفاً مِنَ التعبِ ، ويضحكُ عليهِ في احتمالِهِ التعبَ نقداً معَ الغفلةِ عنِ اللهِ عزَّ وجلَّ لتوهُّمِ تعبٍ في ثاني الحالِ ، وربَّما لا يكونُ .

وفي مثلِهِ قيلَ[3] : [من الطويل]

وَمَنْ يُنْفِقِ ٱلسَّاعاتِ فِي جَمْعِ مالِهِ ... مَخافَةَ فَقْرٍ فَٱلَّذِي فَعَلَ ٱلْفَقْرُ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « إصلاح المال » (٣٢٨) بتمامه .
(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٥٨٢١)، والبخاري في « الأدب المفرد » (٨٨٨).
(٣) البيت للمتنبي في « ديوانه بشرح العكبري » (٢/ ١٥٠) .

وقدْ دخلَ ابنا خالدٍ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ لهُما : « لا تيئسا مِنَ ٱلرزقِ ما تهزهزَتْ رؤوسُكُما ؛ فإنَّ الإنسانَ تلدُهُ أمُّهُ أحمرَ ليسَ عليهِ قشرٌ ، ثمَّ يرزقُهُ اللهُ تعالىٰ »[1] .

ومرَّ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بابنِ مسعودٍ وهوَ حزينٌ ، فقالَ لهُ : « لا تكثِرْ همَّكَ ، ما يقدَّرْ . . يكنْ ، وما تُرزقْ . . يأتِكَ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ألا أيُّها الناسُ ؛ أجملوا في الطلبِ ؛ فإنَّهُ ليسَ لعبدٍ إلا ما كُتبَ لهُ ، ولنْ يذهبَ عبدٌ مِنَ الدنيا حتَّىٰ يأتيَهُ ما كتبَ لهُ مِنَ الدنيا وهيَ راغمةٌ »[3] .

ولا ينفكُّ الإنسانُ عنِ الحرصِ إلا بحسنِ ثقتِهِ بتدبيرِ اللهِ تعالىٰ في تقديرِ أرزاقِ العبادِ ، وأنَّ ذلكَ يصلُ ـ لا محالةَ ـ معَ الإجمالِ في الطلبِ ، بلْ ينبغي أنْ يعلمَ أنَّ رزقَ العبدِ مِنْ حيثُ لا يحتسبُ أكثرُ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ ، فإذا انسدَّ عليهِ بابٌ كانَ ينتظرُ الرزقَ منهُ . . فلا ينبغي أنْ يضطربَ قلبُهُ لأجلِهِ .

---

(١) رواه ابن ماجه (٤١٦٥) ، والطبراني في « الكبير » (٧/٤) ، وابنا خالد هما حبة وسواء رضي الله عنهما ، وتهزهزت ـ وعند ابن ماجه (تهزَّزت) ـ : تحركت .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الفرج بعد الشدة » (١٩) ، وأبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٩٤٤/٢) ، والبيهقي في « الشعب » (١١٤٤) .

(٣) روى الحاكم في « المستدرك » (٤/٢) نحوه .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أبى اللهُ أنْ يرزقَ عبدَهُ المؤمنَ إلا مِنْ حيثُ لا يحتسبُ »[1] .

وقالَ سفيانُ : (اتقِ اللهَ ؛ فما رأيتُ تقيّاً محتاجاً)[2] أيْ : لا يتركُ التقيَّ فاقداً لضرورتِهِ ، بلْ يُلقي اللهُ في قلوبِ المسلمينَ أنْ يوصلوا إليهِ رزقَهُ[3] .

وقالَ المفضَّلُ الضبيُّ : قلتُ لأعرابيٍّ : مِنْ أينَ معاشُكَ ، قالَ : بورودِ الحاجِّ ، قلتُ : فإذا صدَروا ؟ فبكىٰ وقالَ : لوْ لمْ نعشْ إلا مِنْ حيثُ ندري . . لمْ نعشْ[4] .

وقالَ أبو حازمٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (وجدتُ الدنيا شيئينِ ؛ شيئاً منهُما هوَ لي ؛ فلنْ أعجلَهُ قبلَ أجلِهِ ولوْ طلبتُهُ بقوَّةِ السماواتِ والأرضِ ، وشيئاً منهُما هوَ لغيري ؛ فذلكَ لمْ أنلْهُ فيما مضىٰ ، فلا أرجوهُ فيما بقيَ ، يُمنَعُ الذي لغيري منِّي كما يُمنَعُ الذي لي مِنْ غيري ؛ ففي أيِّ هٰذين أُفني عمري ؟!)[5] .

---

(1) رواه ابن حبان في « المجروحين » (١/١٦١) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٥٨٥) ، والبيهقي في « الشعب » (١١٥٢) .

(2) قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٨/١٦٨) : (أخرجه صاحب « الحلية » ، وكأنه استنبط ذلك من قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ . . . ﴾ الآية ؛ أي : فلا يتصور الاحتياج مع التقوىٰ) .

(3) من غير إشراف نفس منه ولا مسألة . « إتحاف » (٨/١٦٨) .

(4) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٦/٢٤٨) .

(5) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣/٢٣٧) ، والبيهقي في « الشعب » (١٢٤٠) .

فهـٰذا دواءٌ مِنْ جهةِ المعرفةِ لا بدَّ منهُ لدفعِ تخويفِ الشيطانِ وإنذارِهِ بالفقرِ .

* * *

الثالثُ : أنْ يعرفَ ما في القناعةِ مِنْ عزِّ الاستغناءِ ، وما في الطمعِ والحرصِ مِنَ الذلِّ : فإذا تحقَّقَ عندَهُ ذلكَ . . انبعثَتْ رغبتُهُ إلى القناعةِ ؛ لأنَّهُ في الحرصِ لا يخلو مِنْ تعبٍ ، وفي الطمعِ لا يخلو مِنْ ذلٍّ ، وليسَ في القناعةِ إلا ألمُ الصبرِ عنِ الشهواتِ والفضولِ ، وهـٰذا ألمٌ لا يطلعُ عليهِ أحدٌ إلا اللهُ ، وفيهِ ثوابُ الآخرةِ ، وذلكَ ممَّا يُضافُ إليهِ نظرُ الناسِ ، وفيهِ الوبالُ والمأثمُ ، ثمَّ يفوتُهُ عزُّ النفسِ ، والقدرةُ علىٰ متابعةِ الحقِّ ؛ فإنَّ مَنْ كثُرَ طمعُهُ وحرصُهُ . . كثُرَتْ حاجتُهُ إلى الناسِ ، فلا يمكنُهُ دعوتُهُمْ إلى الحقِّ ، بلْ تلزمُهُ المداهنةُ ، وذلكَ يهلكُ دينَهُ ، ومَنْ لا يؤْثِرُ عزَّ النفسِ علىٰ شهوةِ البطنِ . . فهوَ ركيكُ العقلِ ، ناقصُ الإيمانِ .

قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « عزُّ المؤمنِ استغناؤُهُ عنِ الناسِ »[1] .

ففي القناعةِ الحريةُ والعزُّ ، ولذلكَ قيلَ : (استغنِ عمَّنْ شئتَ . . فأنتَ

---

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (٤٢٩٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٥٣/٣) عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : جاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : (يا محمد ؛ عش ما شئت فإنك ميت ، واعمل ما شئت فإنك مجزي به ، وأحبب من شئت فإنك مفارقه ، واعلم أن شرف المؤمن قيام الليل ، وعزَّه استغناؤه عن الناس) .

نظيرُهُ ، واحتجْ إلىٰ مَنْ شئتَ . . فأنتَ أسيرُهُ ، وأحسنْ إلىٰ مَنْ شئتَ . . فأنتَ أميرُهُ)(١) .

❊ ❊ ❊

الرابعُ : أنْ يكثِرَ تأمُّلَهُ في تنعُّمِ اليهودِ والنصارىٰ ، وأراذلِ الناسِ ، والحمقىٰ مِنَ الأكرادِ والأعرابِ الأجلافِ ، ومَنْ لا دينَ لهمْ ولا عقلَ ، **ثمَّ ينظرَ إلىٰ أحوالِ الأنبياءِ والأولياءِ** ، وإلىٰ سمتِ الخلفاءِ الراشدينَ ، وسائرِ الصحابةِ والتابعينَ ، ويستمعَ أحاديثَهُمْ ، ويطالعَ أحوالَهُمْ ، ويخيِّرَ عقلَهُ بينَ أنْ يكونَ علىٰ مشابهةِ أراذلِ الناسِ ، أوْ على الاقتداءِ بمَنْ هوَ أعزُّ أصنافِ الخلقِ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ حتَّىٰ يهونَ عليهِ بذلكَ الصبرُ على القليلِ ، والقناعةُ باليسيرِ ؛ فإنَّهُ إنْ تنعَّمَ في البطنِ . . فالحمارُ أكثرُ أكلاً منهُ ، وإنْ تنعَّمَ في الوقاعِ . . فالخنزيرُ أعلىٰ رتبةً منهُ ، وإنْ تزيَّنَ في الملبسِ والخيلِ . . ففي اليهودِ مَنْ هوَ أعلىٰ رتبةً منهُ ، وإنْ قنعَ بالقليلِ ورضيَ بهِ . . لمْ يساهمْهُ في رتبتِهِ إلا الأنبياءُ والأولياءُ .

❊ ❊ ❊

الخامسُ : أنْ يفهمَ ما في جمعِ المالِ مِنَ الخطرِ : كما ذكرناه في آفاتِ المالِ ، وما فيهِ مِنْ خوفِ السرقةِ والنهبِ والضياعِ ، وما في خلوِّ اليدِ مِنَ الأمنِ والفراغِ ، ويتأملَ ما ذكرناهُ مِنْ آفاتِ المالِ ، معَ ما يفوتُهُ مِنَ المدافعةِ

---

(١) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦٧/ ١٨٤) عن أبي محمد الأنصاري أنه قرأه علىٰ حجر ببيت المقدس .

عنْ بابِ الجنةِ إلىٰ خمسِ مئةِ عامٍ ، فإنَّهُ إذا لمْ يقنعْ بما يكفيهِ . . التحقَ بزمرةِ الأغنياءِ ، وأُخرِجَ مِنْ جريدةِ الفقراءِ ، ويتمُّ ذلكَ بأنْ ينظرَ أبداً إلىٰ مَنْ دونَهُ في الدنيا ، لا إلىٰ مَنْ فوقَهُ ، فإنَّ الشيطانَ أبداً يصرفُ نظرَهُ في الدنيا إلىٰ مَنْ فوقَهُ ، فيقولُ : لِمَ تفترُ عنِ الطلبِ وأربابُ الأموالِ يتنعَّمونَ في المطاعمِ والملابسِ ؟ ويصرفُ نظرَهُ في الدِّينِ إلىٰ مَنْ دونَهُ ، فيقولُ : لِمَ تضيِّقُ علىٰ نفسِكَ وتخافُ اللهَ وفلانٌ أعلمُ منكَ وهوَ لا يخافُ اللهَ ، والناسُ كلُّهُمْ مشغولونَ بالتنعُّمِ ؟ فلمَ تريدُ أنْ تتميَّزَ عنهُمْ ؟!

قالَ أبو ذرٍّ رضيَ اللهُ عنهُ : (أوصاني خليلي صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : أنْ أنظرَ إلىٰ مَنْ هوَ دوني ، ولا أنظرَ إلىٰ مَنْ هوَ فوقي)[1] أيْ : في الدنيا .

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا نظرَ أحدُكُمْ إلىٰ مَنْ فُضِّلَ عليهِ في المالِ والخَلْقِ . . فلينظُرْ إلىٰ مَنْ هوَ أسفلَ منهُ ممَّنْ فُضِّلَ عليهِ »[2] .

فبهٰذهِ الأمورِ يقدرُ على اكتسابِ خُلُقِ القناعةِ ، وعمادُ الأمرِ الصبرُ وقصرُ الأملِ ، وأنْ يعلمَ أنَّ غايةَ صبرِهِ في الدنيا أيامٌ قلائلُ ليتمتَّعَ دهراً طويلاً ، فيكونَ كالمريضِ الذي يصبرُ علىٰ مرارةِ الدواءِ لشدةِ طمعِهِ في انتظارِ الشفاءِ .

* * *

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٥/ ١٥٩) ، وابن حبان في « صحيحه » (٤٤٩) .
(٢) رواه البخاري (٦٤٩٠) ، ومسلم (٢٩٦٣) .

بيان فضيلة السخاء

اعلمْ : أنَّ المالَ إنْ كانَ مفقوداً.. فينبغي أنْ يكونَ حالُ العبدِ القناعةَ وقلَّةَ الحرصِ ، وإنْ كانَ موجوداً.. فينبغي أنْ يكونَ حالُهُ الإيثارَ والسخاءَ ، واصطناعَ المعروفِ ، والتباعدَ عنِ الشحِّ والبخلِ ؛ فإنَّ السخاءَ مِنْ أخلاقِ الأنبياءِ عليهمُ السلامُ ، وهوَ أصلٌ مِنْ أصولِ النجاةِ ، وعنهُ عبَّرَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حيثُ قالَ : « السَّخاءُ شجرةٌ منْ شجرِ الجنَّةِ ، أغصانُها متدلِّيةٌ إلى الأرضِ ، فمَنْ أخذَ بغصْنٍ مِنْها.. قادَهُ ذلكَ الغصْنُ إلى الجنَّةِ »[1] .

وقالَ جابرٌ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قالَ جبريلُ عليهِ السلامُ : قالَ اللهُ تعالىٰ : إنَّ هٰذا دينٌ ارتضيتُهُ لنفسِي ، ولنْ يصلحَهُ إلا السَّخاءُ وحسْنُ الخُلُقِ ، فأكرموهُ بهِما ما استطعتُمْ » ، وفي روايةٍ : « فأكرموهُ بهِما ما صحبتُموهُ »[2] .

وعنْ عائشةَ الصدِّيقةِ رضيَ اللهُ عنها قالَتْ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ

---

(١) رواه ابن عدي في « الكامل » (١/٢٣٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٧/٩٢) ، والخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٢١) ، وسيأتي بتمامه .

(٢) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٣٩ ، ٥٥٩) ، والطبراني في « الأوسط » (٨٩١٥) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٣٦٦) ، ولفظه بروايتيه عند الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٢٢) .

وسلَّمَ : « ما جَبَلَ اللهُ تعالىٰ وليّاً لهُ إلا على السَّخاءِ وحُسْنِ الخُلُقِ »[1] .

وعنْ جابرٍ قالَ : قيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ أيُّ الأعمالِ أفضلُ ؟ قالَ : « الصبرُ والسماحةُ »[2] .

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ عمرٍو : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « خُلُقانِ يحبُّهما اللهُ عزَّ وجلَّ ، وخُلُقانِ يبغضُهما اللهُ عزَّ وجلَّ ، فأمَّا اللذانِ يحبُّهما اللهُ عزَّ وجلَّ . . فحسنُ الخُلُقِ والسخاءُ ، وأمَّا اللذانِ يبغضُهما اللهُ عزَّ وجلَّ . . فسوءُ الخُلُقِ والبخلُ ، وإذا أرادَ اللهُ بعبدٍ خيراً . . استعملَهُ في قضاءِ حوائجِ الناسِ »[3] .

وروى المقدامُ بنُ شريحٍ عنْ أبيهِ ، عنْ جدِّهِ قالَ : قلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ دلَّني علىٰ عملٍ يدخلُني الجنةَ ، قالَ : « إنَّ مِنْ موجباتِ المغفرةِ بذلَ الطعامِ ، وإفشاءَ السلامِ ، وحسنَ الكلامِ »[4] .

وقالَ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « السخاءُ شجرةٌ في الجنَّةِ ؛ فمَنْ كانَ سخيّاً . . أخذَ بغصْنٍ مِنْها ، فلمْ يترُكْهُ

---

(١) هو عند الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص ١٠٥) ، والخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٢٢) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٦٢٢٨) .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣١٠٣٢) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (١٨٥٤) ، ورواه أحمد في « مسنده » (٤/ ٣٨٥) من حديث عمرو بن عنبسة رضي الله عنه .

(٣) رواه البيهقي في « الشعب » (٧٢٥٣) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٢٩٨٩) .

(٤) رواه الطبراني في « الكبير » (٢٢/ ١٨٠) بروايتين ، جمع هنا بينهما ، وهو كما أورده المصنف عند الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٢٣) .

ذلكَ الغصْنُ حتَّىٰ يدخلَهُ الجنَّةَ ، والشُّحُّ شجرةٌ في النارِ ؛ فمَنْ كانَ شحيحاً . . أخذَ بغصْنٍ مِنْها ، فلمْ يتركْهُ ذلكَ الغصْنُ حتَّىٰ يدخلَهُ النارَ »[١] .

وقالَ أبو سعيدٍ الخدريُّ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يقولُ اللهُ تعالىٰ : اطلبوا الفضلَ عندَ الرحماءِ مِنْ عبادي . . تعيشوا في أكنافِهِمْ ؛ فإنِّي جعلتُ فيهِمْ رحمتي ، ولا تطلبوهُ مِنَ القاسيةِ قلوبُهُمْ ؛ فإنِّي جعلتُ فيهِمْ سخَطِي »[٢] .

وعنِ ابنِ عباسٍ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تجافَوا عنْ ذنبِ السخيِّ ؛ فإنَّ اللهَ آخذٌ بيدِهِ كلَّما عثرَ »[٣] .

وقالَ ابنُ مسعودٍ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الرزقُ إلىٰ مُطعمِ الطعامِ أسرعُ مِنَ السكِّينِ إلىٰ ذُروةِ البعيرِ ، وإنَّ اللهَ تعالىٰ ليُباهي بمُطعمِ الطعامِ الملائكةَ عليهمُ السلامُ »[٤] .

---

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (١٠٣٧٧) .

(٢) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٥٦٨) ، وابن حبان في « المجروحين » (٢/ ٢٩٩) ، والطبراني في « الأوسط » (٤٧١٤) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٧٠٠) .

(٣) رواه الطبراني في « الأوسط » (٥٧٠٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٩/ ٣٩٧) ، ورواه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه (٤/ ١٠٨) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٣٦٩) .

(٤) كذا عند الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٢٤) ، وقد روى ابن ماجه (٣٣٥٦ ، ٣٣٥٧) من حديث أنس وابن عباس رضي الله عنهم مرفوعاً : « الخير أسرع إلى البيت الذي يؤكل فيه ـ أو يُغشىٰ ـ من الشفرة إلىٰ سنام البعير » ، ورواه بنحوه هنا الرافعي في « تاريخ قزوين » (٤/ ١٢٠) من حديث جابر رضي الله عنه .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ جوادٌ يحبُّ الجودَ ، ويحبُّ معاليَ الأخلاقِ ، ويكرهُ سَفْسافَها »(١) .

وقالَ أنسٌ رضيَ اللهُ عنهُ : إنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمْ يُسأَلْ على الإسلامِ شيئاً إلا أعطاهُ ، فأتاهُ رجلٌ فسألَهُ ، فأمرَ لهُ بشاءٍ كثيرٍ بينَ جبلينِ مِنْ شاءِ الصدقةِ ، فرجعَ إلىٰ قومِهِ فقالَ : يا قومِ ؛ أسلموا ، فإنَّ محمداً يعطي عطاءَ مَنْ لا يخافُ الفاقةَ(٢) .

وقالَ ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهما : قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ للهِ عباداً يخصُّهُمْ بالنِّعمِ لمنافعِ العبادِ ، فمنْ بخلَ بتلكَ المنافعِ عنِ العبادِ.. نقلَها اللهُ عزَّ وجلَّ عنهُ ، وحوَّلَها إلىٰ غيرِهِ »(٣) .

وعنِ الهلاليِّ قالَ : أُتيَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بأسرىٰ مِنْ بني العنبرِ ، فأمرَ بقتلِهِمْ ، وأفردَ منهُمْ رجلاً ، فقالَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ : يا رسولَ اللهِ ؛ الربُّ واحدٌ ، والدينُ واحدٌ ، والذنبُ واحدٌ ؛ فما بالُ هـٰذا مِنْ بينِهِمْ ؟ فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « نزلَ عليَّ

---

(١) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٥٧٢) عن طلحة بن عبيد الله بن كريز مرسلاً ، ورواه ابن حبان في « روضة العقلاء » (ص ١٦) ، والطبراني في « الكبير » (٦/ ١٨١) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه مرفوعاً ، وقد تقدم بعضه .

(٢) رواه مسلم (٢٣١٢) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « قضاء الحوائج » (٥) ، والطبراني في « الأوسط » (٥١٥٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/ ١١٥) و(١٠/ ٢١٥) .

جبريلُ فقالَ : اقتلْ هؤلاءِ واتركْ هـٰذا ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ شكرَ لهُ سخاءً فيهِ »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ لكلِّ شيءٍ ثمرةً ، وثمرةُ المعروفِ تعجيلُ السَّراحِ »[2] .

وعنْ نافعٍ عنِ ابنِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « طعامُ الجوادِ دواءٌ ، وطعامُ البخيلِ داءٌ »[3] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ عظُمَتْ نعمةُ اللهِ عندَهُ . . عظُمَتْ مؤنةُ الناسِ عليهِ ، فمَنْ لمْ يحتملْ تلكَ المؤنةَ . . عرَّضَ تلكَ النعمةَ للزوالِ »[4] .

---

(١) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٢٥) ، وفيه : (الهذلي) بدل (الهلالي) ، وزاد : فقال الأسير : لِمَ لم ألحق بأصحابي ؟ فقال : « إن الله تعالىٰ شكر سخاء فيك » ، فأسلم وحسن إسلامه ببركة سخاوته .
وقال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) . « إتحافه » (٨/ ١٧٥) .

(٢) قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٨/ ١٧٥) : (قال العراقي : لم أقف له علىٰ أصل . قلت : ولكن المعنىٰ صحيح ، ومنه قولهم : إما نعم صريحة وإلا مريحة) ، وقد سقط الخبر من مطبوع « تهذيب الأسرار » للخركوشي مع أن السياق عنده .

(٣) كذا أورده الديلمي في « مسند الفردوس » (٣٩٥٤) ، وقال الحافظ العراقي : (رواه ابن عدي والدارقطني في « غرائب مالك » ، وأبو علي الصوفي في « عواليه » وقال : رجاله ثقات أئمة ، قال ابن القطان : وإنهم لمشاهير ثقات إلا مقدام بن داوود ؛ فإن أهل مصر تكلموا فيه) . « إتحاف » (٨/ ١٧٥) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « قضاء الحوائج » (٤٨) من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً ، ورواه ابن عدي في « الكامل » (١/ ١٧٤) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٧٩٨) ، من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه مرفوعاً أيضاً .

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : استكثروا مِنْ شيءٍ لا تأكلُهُ النارُ ، قيلَ : وما هوَ ؟ قالَ : المعروفُ[(١)] .

وقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الجنةُ دارُ الأسخياءِ »[(٢)] .

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ السخيَّ قريبٌ مِنَ اللهِ ، قريبٌ مِنَ الناسِ ، قريبٌ مِنَ الجنَّةِ ، بعيدٌ مِنَ النارِ ، وإنَّ البخيلَ بعيدٌ مِنَ اللهِ ، بعيدٌ مِنَ الناسِ ، بعيدٌ مِنَ الجنَّةِ ، قريبٌ مِنَ النارِ ، وجاهلٌ سخيٌّ أحبُّ إلى اللهِ مِنْ عابدٍ بخيلٍ ، وأدوأُ الداءِ البخلُ »[(٣)] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اصنعِ المعروفَ إلىٰ مَنْ هوَ أهلُهُ وإلىٰ مَنْ ليسَ بأهلِهِ ؛ فإنْ أصبتَ أهلَهُ . . فقدْ أصبتَ أهلَهُ ، وإنْ لمْ تصِبْ أهلَهُ . . فأنتَ مِنْ أهلِهِ »[(٤)] .

---

(١) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٢٧) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٣٧١) عن الزهري .

(٢) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٥٩٧) ، وابن حبان في « الثقات » (٥/ ٢٣) ، وابن عدي في « الكامل » (١/ ١٨٧) .

(٣) رواه الترمذي (١٩٦١) دون الجملة الأخيرة ، ورواها الخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (٣٧٤) .

(٤) رواه أبو بكر الشافعي في « الغيلانيات » (٧٨) ، والجصاص في « أحكام القرآن » (٣/ ٢٦٧) ، والسلمي في « آداب الصحبة » (١٣٨) ، وهو عند الدارقطني في « العلل » (٣/ ١٠٧) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ بدلاءَ أمَّتي لمْ يدخلوا الجنَّةَ بصلاةٍ ولا صيامٍ ، ولكنْ دخلوها بسخاءِ الأنفسِ ، وسلامةِ الصدورِ ، والنصحِ للمسلمينَ »(١) .

وقالَ أبو سعيدٍ الخدريُّ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ جعلَ للمعروفِ وجوهاً مِنْ خلقِهِ ، حبَّبَ إليهمُ المعروفَ ، وحبَّبَ إليهمْ فعالَهُ ، ووجَّه طلاَّبَ المعروفِ إليهمْ ، ويسَّر عليهمْ إعطاءَهُ ؛ كما يسَّرَ الغيثَ إلى البلدةِ الجدبةِ فيحييها ويحيي بها أهلَها »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كلُّ معروفٍ صدقةٌ ، وكلُّ ما أنفقَ الرجلُ علىٰ نفسِهِ وأهلِهِ كُتبَ لهُ صدقةً ، وما وقىٰ بهِ المرءُ عرضَهُ .. فهوَ لهُ صدقةٌ ، وما أنفقَ الرَّجلُ مِنْ نفقةٍ .. فعلى اللهِ خلَفُها »(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كلُّ معروفٍ صدقةٌ ، والدالُّ على الخيرِ كفاعلِهِ ، واللهُ يحبُّ إغاثةَ اللَّهفانِ »(٤) .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الأولياء » (٥٨) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٣٩٣ ، ١٠٣٩٤) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « قضاء الحوائج » (٤) ، ورواه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣٢١) من حديث أمير المؤمنين علي رضي الله عنه بنحوه .

(٣) رواه ابن عدي في « الكامل » (٦/ ٤٣١) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٢٢٩) ، والجملة الأولىٰ منه رواها البخاري (٦٠٢١) ، ومسلم (١٠٠٥) .

(٤) رواه البيهقي في « الشعب » (٧٢٥١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كلُّ معروفٍ فعلتَهُ إلىٰ غنيٍّ أوْ فقيرٍ صدقةٌ »[١] .

ورُوِيَ أنَّ اللهَ تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ موسىٰ عليهِ السلامُ : لا تقتلِ السامريَّ ؛ فإنَّهُ سخيٌّ[٢] .

وقالَ جابرٌ : بَعَثَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بعثاً عليهِمْ قيسُ بنُ سعدِ بنِ عبادةَ ، فجهدوا ، فنحرَ لهمْ قيسٌ تسعَ ركائبَ ، فحدَّثوا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بذلكَ ؛ فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الجودَ لِمِنْ شيمةِ أهلِ ذلكَ البيتِ »[٣] .

❀ ❀ ❀

الآثارُ :

قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : إذا أقبلَتِ الدنيا عليكَ . . فأنفقْ منها ؛ فإنَّها لا تفنىٰ ، وإذا أدبرَتْ عنكَ . . فأنفقْ منها ؛ فإنَّها لا تبقىٰ ، وأنشدَ[٤] : [من البسيط]

لا تَبْخَلَنَّ بِدُنْيا وَهْيَ مُقْبِلَةٌ فَلَيْسَ يَنْقُصُها ٱلتَّبْذِيرُ وَٱلسَّرَفُ

---

(١) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٧٢) ، والطبراني في « مكارم الأخلاق » (١١٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٤٩) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه .

(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٣٥) ، والثعلبي في « تفسيره » (٦/ ٢٥٨) .

(٣) رواه أبو بكر الشافعي في « الغيلانيات » (١٠٩١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٩/ ٤١١) .

(٤) ديوان سيدنا علي الموسوم بـ« أنوار العقول لوصي الرسول » (ص ١٨٠) .

فَإِنْ تَوَلَّتْ فَأَحْرَىٰ أَنْ تَجُودَ بِها ... فَٱلْحَمْدُ مِنْها إذا ما أَدْبَرَتْ خَلَفُ

وسألَ معاويةُ الحسنَ بنَ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُمْ عنِ المروءةِ والنجدةِ والكرمِ ، فقالَ :

أمَّا المروءةُ . . فحفظُ الرجلِ دينَهُ ، وحذرُهُ نفسَهُ ، وحسنُ قيامِهِ بضيفِهِ ، وحسنُ المنازعةِ ، والإقدامُ في الكراهيةِ .

وأمَّا النجدةُ . . فالذبُّ عنِ الجارِ ، والصبرُ في المواطنِ .

وأمَّا الكرمُ . . فالتبرُّعُ بالمعروفِ قبلَ السؤالِ ، والإطعامُ في المحْلِ ، والرأفةُ بالسائلِ معَ بذلِ النائلِ (١) .

ورفعَ رجلٌ إلى الحسنِ بنِ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُما رقعةً ، فقالَ : حاجتُكَ مقضيَّةٌ ، فقيلَ لهُ : يا بنَ رسولِ اللهِ ؛ لوْ نظرتَ في رقعتِهِ ثمَّ رددتَ الجوابَ علىٰ قدْرِ ذلكَ! فقالَ : يسألُني اللهُ عزَّ وجلَّ عنْ ذلِّ مقامِهِ بينَ يديَّ حتَّىٰ أقرأَ رقعتَهُ (٢) .

وقالَ ابنُ السماكِ : (عجبتُ لمَنْ يشتري المماليكَ بمالِهِ ولا يشتري الأحرارَ بمعروفِهِ) (٣) .

---

(١) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٣/ ٢٥٧) بنحوه ، وبلفظه عند الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٢٩) .

(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٢٩) .

(٣) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٣٠) ، ورواه البيهقي في « الشعب » (١٠٤٢١) .

وسُئلَ بعضُ الأعرابِ : مَنْ سيدُكُمْ ؟ فقالَ : مَنِ احتملَ شتْمَنا ، وأعطىٰ سائلَنا ، وأغضىٰ عنْ جاهلِنا[1] .

وقالَ عليُّ بنُ الحسينِ رضيَ اللهُ عنهُما : (مَن وُصِفَ ببذلِ مالِهِ لطلابِهِ . . لمْ يكنْ سخيّاً ، وإنَّما السخيُّ مَنْ يبتدئُ بحقوقِ اللهِ تعالىٰ في أهلِ طاعتِهِ ، ولا تنازعُهُ نفسُهُ إلىٰ حبِّ الشكرِ لهُ إذا كانَ يقينُهُ بثوابِ اللهِ تامّاً)[2] .

وقيلَ للحسنِ البصريِّ : ما السخاءُ ؟ فقالَ : أنْ تجودَ بمالِكَ في اللهِ عزَّ وجلَّ ، قيلَ : فما الحزمُ ؟ قالَ : أنْ تمنعَ مالكَ فيهِ ، قيلَ : فما الإسرافُ ؟ قالَ : الإنفاقُ لحبِّ الرئاسةِ[3] .

وقالَ جعفرٌ الصادقُ رحمةُ اللهِ عليهِ : (لا مالَ أعودُ مِنَ العقلِ[4] ، ولا مصيبةَ أعظمُ مِنَ الجهلِ ، ولا مظاهرةَ كالمشاورةِ ، ألا وإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يقولُ : إنِّي جوادٌ كريمٌ لا يجاورُني لئيمٌ ، واللؤمُ مِنَ الكفرِ ، وأهلُ الكفرِ في النارِ ، والجودُ والكرمُ مِنَ الإيمانِ ، وأهلُ الإيمانِ في الجنةِ)[5] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (٤٠) عن معاوية رضي الله عنه يسأل أحد أعراب طيء ، وقصدوا به خريم بن أوس .
(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٣٢) .
(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٣٢) .
(٤) أي : أكثر عائدة منه .
(٥) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٣٣) .

وقالَ حذيفةُ رضيَ اللهُ عنهُ : (رُبَّ فاجرٍ في دينِهِ ، أخرقُ في معيشتِهِ ، يدخلُ الجنةَ بسماحتِهِ)(١) .

ورأى الأحنفُ بنُ قيسٍ رجلاً في يدِهِ درهمٌ ، فقالَ : لمَنْ هـٰذا الدرهمُ ، فقالَ : لي ، فقالَ : أما إنَّهُ ليسَ لكَ حتَّىٰ يخرجَ مِنْ يدِكَ(٢) .

وفي معناهُ قيلَ(٣) : [من الرمل]

أَنْـتَ لِلْمَـالِ إذا أَمْسَكْتَـهُ ... فَـإِذا أَنْفَقْتَـهُ فَـالْمَـالُ لَـكْ

وسُمِّي واصلُ بنُ عطاءٍ الغزَّالَ ؛ لأنهُ كانَ يجلسُ إلى الغزَّالينَ ، فإذا رأى امرأةً ضعيفةً . . أعطاها شيئاً(٤) .

وقالَ الأصمعيُّ : كتبَ الحسنُ بنُ عليٍّ إلى الحسينِ بنِ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهمْ يعتبُ عليهِ في إعطاءِ الشعراءِ ، فكتبَ إليهِ : خيرُ المالِ ما وُقِيَ بهِ العرضُ(٥) .

وقيلَ لسفيانَ بنِ عيينةَ : ما السخاءُ ؟ قالَ : السخاءُ البرُّ بالإخوانِ ، والجودُ بالمالِ(٦) .

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٣٥) .
(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٣٥) ، ورواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٤٣/٢٤) ، وأنه تمثَّل بالبيت بعده عندهما .
(٣) انظر « عيون الأخبار » (١٨١/٣) .
(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٣٧) .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « مداراة الناس » (١٣٩) .
(٦) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٣٨) .

قالَ : وورثَ أبي خمسينَ ألفَ درهمٍ ، فبعثَ بها إلىٰ إخوانِهِ صرراً ، وقالَ : قدْ كنتُ أسألُ اللهَ تعالىٰ لإخواني الجنَّةَ في صلاتي ، أفأبخلُ عليهمْ بالمالِ ؟!(١) .

وقالَ الحسنُ : (بذلُ المجهودِ في بذلِ الموجودِ منتهى الجودِ)(٢) .

وقيلَ لبعضِ الحكماءِ : مَنْ أحبُّ الناسِ إليكَ ؟ قالَ : مَنْ كثُرَتْ أياديهِ عندي ، قيلَ : فإنْ لمْ يكنْ ؟ قالَ : مَنْ كثُرَتْ أياديَّ عندَهُ(٣) .

وقالَ عبدُ العزيزِ بنُ مروانَ : (إذا الرجلُ أمكنَني مِنْ نفسِهِ حتَّىٰ أضعَ معروفي عندَهُ . . فيدُهُ عندي مثلُ يدي عندَهُ)(٤) .

وقالَ المهديُّ لشَبيبِ بنِ شيبةَ : كيفَ رأيتَ الناسَ في داري ؟ فقالَ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ إنَّ الرجلَ منهمْ ليدخلُ راجياً ويخرجُ راضياً(٥) .

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٣٨) ، وعنده : (وورث الحسن) بدل (قال : وورث أبي) ، وبنحوه حكاه الطرطوشي في « سراج الملوك » (١/ ٣٧٣) عن عبد الملك بن بحر ، وفي (ب) : (وورث عبد الرحمن بن الحارث) .
(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٤٠) عن الحماني .
(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٤٠) ، وقريب منه عند الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٨٤) .
(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٤٠) .
(٥) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٩/ ٢٧٦) .

وتمثلَ متمثلٌ عندَ عبدِ اللهِ بنِ جعفرٍ فقالَ[1] : [من الكامل]

إِنَّ ٱلصَّنِيعَـةَ لا تكُـونُ صَنِيعَـةً حَتَّىٰ يُصابَ بِها طَرِيقُ ٱلْمَصْنَعِ
فَإِذا ٱصْطَنَعْتَ صَنِيعَةً فَٱعْمَدْ بِها للهِ أَوْ لِـذَوِي ٱلْقَـرابَـةِ أَوْ دَعِ

فقالَ عبدُ اللهِ بنُ جعفرٍ : إنَّ هـٰذينِ البيتينِ ليبخلانِ الناسَ ، ولكنْ أمطرِ المعروفَ مطراً ؛ فإنْ أصابَ الكرامَ . . كانُوا لهُ أهلاً ، وإنْ أصابَ اللئامَ . . كنتَ لهُ أهلاً[2] .

* * *

(١) البيتان لسيدنا حسان في « ديوانه » (١/ ٤٩٣) .
(٢) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٣٦) ، ورواه بنحوه ابن حبان في « روضة العقلاء » (ص ٢٥٤) .

حكايات الأسخياء

عنْ محمدِ بنِ المنكدرِ ، عنْ أمِّ درَّةَ[1] ـ وكانَتْ تخدمُ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها ـ قالَتْ : إنَّ ابنَ الزبيرِ بعثَ إليها[2] بمالٍ في غِرارتينِ ثمانينَ ومئةِ ألفِ درهمٍ ، فدعَتْ بطبقٍ ، فجعلَتْ تقسمُهُ بينَ الناسِ ، فلما أمسَتْ ، قالَتْ : يا جاريةُ ؛ هلمِّي فُطُوري ، فَجَاءَتْها بخبزٍ وزيتٍ ، فقالَتْ لها أمُّ درة : ما استطعتِ فيما قسمتِ اليومَ أنْ تشتري لنا بدرهمٍ لحماً نفطرُ عليهِ ؟ فقالَتْ : لوْ كنتِ ذكرتيني . . لفعلتُ[3] .

وعنْ أبانَ بنِ عثمانَ قالَ : أرادَ رجلٌ أنْ يضارَّ عبدَ اللهِ بنَ عباسٍ ، فأتىٰ وجوهَ قريشٍ فقالَ : يقولُ لكمْ عبدُ اللهِ : تغدَّوا عندي اليومَ ، فأتوهُ حتَّىٰ ملؤوا عليهِ الدارَ ، فقالَ : ما هـٰذا ، فأُخبرَ الخبرَ ، فأمرَ عبدُ اللهِ بشراءِ فاكهةٍ ، وأمرَ قوماً فطبخوا ، وخبزوا ، وقُدِّمَتِ الفاكهةُ إليهِمْ ، فلمْ يفرغوا منها حتَّىٰ وُضعَتِ الموائدُ ، فأكلوا حتَّىٰ صدروا ، فقالَ عبدُ اللهُ لوكلائِهِ : أموجودٌ كلَّما أردتُ في السوقِ مثلُ هـٰذا ؟ قالوا : نعمْ ،

---

(١) قال الحافظ الزبيدي في «الإتحاف» (٨/ ١٨١): (هـٰكذا ضبطه غير واحد بضم الدال المهملة)، وضبطه الحافظ ابن حجر في «تبصير المنتبه» (٢/ ٥٦٠): ذَرَّة، بفتح الذال المعجمة.

(٢) أي : لعائشة رضي الله تعالىٰ عنها .

(٣) رواه هناد في « الزهد » (٦١٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٤٧) ، ولفظه عند الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٤٢٧) .

قالَ : فليتغدَّ عندَنا هؤلاءِ في كلِّ يومٍ[1] .

وقالَ مصعبُ بنُ الزبيرِ : حجَّ معاويةُ رضيَ اللهُ عنهُ ، فلمَّا انصرفَ . . مرَّ بالمدينةِ ، فقالَ الحسينُ بنُ عليٍّ لأخيهِ الحسنِ رضيَ اللهُ عنهمْ : لا تلقَهُ ولا تسلِّمْ عليهِ ، فلمَّا خرجَ معاويةُ . . قالَ الحسنُ : إنَّ علينا دَيناً ولا بدَّ لنا مِنْ إتيانِهِ ، فركبَ في أثرِهِ فلحقَهُ ، فسلَّمَ عليهِ وأخبرَهُ بدَينِهِ ، فمرُّوا عليهِ ببُخْتيٍّ عليهِ ثمانونَ ألفَ دينارٍ وقدْ أعيا وتخلَّفَ عنِ الإبلِ وقومٌ يسوقونَهُ ، فقالَ معاويةُ : ما هٰذا ؟ فذُكِرَ لهُ ، فقالَ : اصرفوهُ بما عليهِ إلىٰ أبي محمدٍ[2] .

وعنْ واقدِ بنِ محمدٍ الواقديِّ قالَ : حدثَنا أبي أنَّهُ رفعَ رقعةً إلى المأمونِ يذكرُ فيها كثرةَ الدينِ وقلَّةَ صبرِهِ عليهِ ، فوقَّعَ المأمونُ علىٰ ظهرِ رقعتِهِ : إنَّكَ رجلٌ اجتمعَ فيكَ خصلتانِ : سخاءٌ ، وحياءٌ ، فأمَّا السخاءُ . . فهوَ الذي أطلقَ ما في يديكَ ، وأمَّا الحياءُ . . فهوَ الذي يمنعُكَ مِنْ تبليغِنا ما أنتَ عليهِ ، وقدْ أمرتُ لكَ بمئةِ ألفِ درهمٍ ، فإنْ كنتُ قدْ أصبتُ . . فازدَدْ في بسطِ يدِكَ ، وإنْ لمْ أكنْ قدْ أصبتُ . . فجنايتُكَ علىٰ نفسِكَ ، وأنتَ حدَّثتَني وكنتَ علىٰ قضاءِ الرشيدِ : عنْ محمدِ بنِ إسحاقَ ، عنِ الزهريِّ ، عنْ أنسٍ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ للزبيرِ بنِ العوَّامِ :

---

(1) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٤٢٨) ، والقشيري في « رسالته » (ص٤٢٢) .

(2) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٤٢٨) .

« يا زبيرُ ؛ اعلمْ أنَّ مفاتيحَ أرزاقِ العبادِ بإزاءِ العرشِ ، يبعثُ اللهُ عزَّ وجلَّ إلىٰ كلِّ عبدٍ بقدْرِ نفقتِهِ ؛ فمَنْ كثَّرَ . . كثَّرَ لهُ ، ومَنْ قلَّلَ . . قلَّلَ لَهُ » ، وأنتَ أعلمُ . قالَ الواقديُّ : فواللهِ ؛ لَمذاكرةُ المأمونِ إيَّايَ الحديثَ أحبُّ إليَّ مِنَ الجائزةِ وهيَ مئةُ ألفِ درهمٍ (١) .

وسألَ رجلٌ الحسنَ بنَ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُما حاجةً فقالَ لهُ : يا هٰذا ؛ حقُّ سؤالِكَ إيايَ يعظمُ لديَّ ، ومعرفتي بما يجبُ لكَ تكبرُ عليَّ ، ويدي تعجزُ عنْ نيلِكَ بما أنتَ أهلُهُ ، والكثيرُ في ذاتِ اللهِ تعالىٰ قليلٌ ، وما في ملكي وفاءٌ لشكرِكَ ، فإنْ قبلتَ الميسورَ ، ورفعتَ عنِّي مؤنَةَ الاحتمالِ والاهتمامِ لما أتكلَّفُهُ مِنْ واجبِكَ . . فعلتُ ، فقالَ : يا بنَ رسولِ اللهِ ؛ أقبلُ وأشكرُ العطيَّةَ ، وأعذرُ على المنعِ ، فدعا الحسنُ بوكيلِهِ ، وجعلَ يحاسبُهُ علىٰ نفقاتِهِ حتَّى استقصاها ، فقالَ : هاتِ الفاضلَ مِنَ الثلاثِ مئةِ ألفِ درهمٍ ، فأحضرَ خمسينَ ألفاً ، قالَ : فما فعلتَ بالخمسِ مئةِ دينارٍ ؟ قالَ : هيَ عندي ، قالَ : أحضرْها ، فأحضرَها ، فدفعَ الدنانيرَ والدراهمَ إلى الرجلِ ، وقالَ : هاتِ مَنْ يحملُها لكَ ، فأتاهُ بحمالينَ ، فدفعَ إليهِ الحسنُ رداءَهُ لكراءِ الحملِ ، فقالَ لهُ مواليهِ : واللهِ ؛ ما عندَنا درهمٌ ، فقالَ :

---

(١) رواه بتمامه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٢٢٨/٣) ، وهو عند الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٤٢٨) ، وروى المرفوع وحده أبو نعيم في « الحلية » (٢١٦/١٠) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٨٥٥٤) بنحوه .

ولكنِّي أرجو أنْ يكونَ لي عندَ اللهِ أجرٌ عظيمٌ[١] .

واجتمعَ قرَّاءُ البصرةِ إلى ابنِ عباسٍ وهوَ عاملُ البصرةِ ، فقالوا : لنا جارٌ صوَّامٌ قوَّامٌ يتمنَّىٰ كلُّ واحدٍ منَّا أنْ يكونَ مثلَهُ ، وقدْ زوَّجَ بنيَّةً لهُ مِنِ ابنِ أخيهِ وهوَ فقيرٌ وليسَ عندَهُ ما يجهِّزُها بهِ ، فقامَ عبدُ اللهِ بنُ عباسٍ ، فأخذَ بأيديهِمْ ، وأدخلَهُمْ دارَهُ ، وفتحَ صندوقاً فأخرجَ منهُ ستَّ بُدَرٍ ، فقالَ : احملوا ، فحملوا ، فقالَ ابنُ عباسٍ : ما أنصفْناهُ ، أعطيناهُ ما يشغلُهُ عنْ قيامِهِ وصيامِهِ ، ارجعُوا بنا . . نكنْ أعوانَهُ علىٰ تجهيزِها ، فليسَ للدنيا مِنَ القدْرِ ما يشغلُ مؤمناً عنْ عبادةِ ربِّهِ تعالىٰ ، وما بنا مِنَ التكبُّرِ ما لا نخدمُ أولياءَ اللهِ تعالىٰ ، ففعلَ وفعلوا[٢] .

وحُكيَ أنَّهُ لمَّا أجدبَ الناسُ بمصرَ وعبدُ الحميدِ بنُ سعدٍ أميرُهُمْ ، فقالَ : واللهِ ؛ لأُعْلِمَنَّ الشيطانَ أنِّي عدوُّهُ ، فعالَ محاويجَهُمْ إلىٰ أنْ رخُصَتِ الأسعارُ ، ثمَّ عُزِلَ عنهُمْ ، فرحلَ وللتجارِ عليهِ ألفُ ألفِ درهمٍ ، فرهنَهُمْ بها حليَّ نسائِهِ ، وقيمتُهُ خمسةُ آلافِ ألفِ درهمٍ[٣] ، فلمَّا تعذَّرَ عليهِ ارتجاعُها . . كتبَ إليهِمْ ببيعِها ، ودفعِ الفاضلِ مِنْها عنْ حقوقِهِمْ إلىٰ مَنْ لمْ تنلْهُ صِلاتُهُ[٤] .

---

(١) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٤٣١) ، وأورده مختصراً القشيري في « رسالته » (ص٤٢٣) .

(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٤٣١) ، وانظر « ثمرات الأوراق » (ص٤٤٠) ، و« المستطرف » (١/ ٤٩٢ـ٤٩٣) .

(٣) في غير (ج) : (وقيمته خمس مئة ألف ألف درهم) .

(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٤٣٢) .

وكانَ أبو طالبِ بنُ كثيرٍ شيعياً ، فقالَ لهُ رجلٌ : بحقِّ عليِّ بنِ أبي طالبٍ ؛ لمَّا وهبتَ لي نِحلتَكَ بموضعِ كذا ، قالَ : قدْ فعلتُ ، وحقِّهِ ؛ لأعطينَّكَ ما يليها ، وكانَ ذلكَ أضعافَ ما طلبَ الرجلُ(١) .

وكانَ أبو مرثدٍ أحدَ الكرماءِ ، فمدحَهُ بعضُ الشعراءِ ، فقالَ للشاعرِ : واللهِ ؛ ما عندي ما أعطيكَ ، ولكنْ قدِّمْني إلى القاضي وادَّعِ عليَّ بعشرةِ آلافِ درهمٍ ، حتَّىٰ أقرَّ لكَ بها ، ثمَّ احبسْني ، فإنَّ أهلي لا يتركوني محبوساً ، ففعلَ ذلكَ ، فلمْ يُمسِ حتَّىٰ دُفعَ إليهِ عشرةُ آلافِ درهمٍ ، وأُخرِجَ أبو مرثدٍ مِنَ الحبسِ(٢) .

وكانَ معنُ بنُ زائدةَ عاملاً على العراقينِ بالبصرةِ ، فحضرَ بابَهُ شاعرٌ ، فأقامَ مدَّةً ، وأرادَ الدخولَ علىٰ معنٍ ، فلمْ يتهيَّأْ لهُ ، فقالَ يوماً لبعضِ خدمِ معنٍ : إذا دخلَ الأميرُ البستانَ . . فعرِّفْني ، فلمَّا دخلَ . . أعلمَهُ ، فكتبَ الشاعرُ بيتاً علىٰ خشبةٍ وألقاها في الماءِ الذي يدخلُ بستانَ معنٍ ، وكانَ معنٌ علىٰ رأسِ الماءِ ، فلمَّا بصرَ بالخشبةِ . . أخذَها وقرأَها ؛ فإذا فيها مكتوبٌ : [من الطويل]

أَيا جُودَ مَعْنٍ ناجِ مَعْناً بَحاجَتِي ... فَما لِي إِلَىٰ مَعْنٍ سِواكَ شَفِيعُ

فقالَ : مَنْ صاحبُ هٰذهِ ؟ فدُعيَ بالرجلِ ، فقالَ لهُ : كيفَ قلتَ ؟

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٤٣٢) .
(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٤٣٢)، والقشيري في « رسالته » (ص٤٢٣).

فقالَهُ ، فأمرَ لهُ بعشرِ بُدَرٍ ، فأخذَها ، ووضعَ الأميرُ الخشبةَ تحتَ بساطِهِ ، فلمَّا كانَ اليومُ الثاني . . أخرجَها مِنْ تحتِ البساطِ وقرأَ ما فيها ، ودعا بالرجلِ فدفعَ إليهِ مئةَ ألفِ درهمٍ ، فلمَّا أخذَها الرجلُ . . تفكَّرَ وخافَ أنْ يأخذَ منهُ ما أعطاهُ ، فخرجَ ، فلمَّا كانَ اليومُ الثالثُ . . قرأَ ما فيها ودعا بالرجلِ ، فطُلبَ فلمْ يُوجدْ ، فقالَ معنٌ : حقٌّ عليَّ أنْ أعطيَهُ حتَّىٰ لا يبقىٰ في بيتِ مالي درهمٌ ولا دينارٌ(١) .

وقالَ أبو الحسنِ المدائنيُّ : خرجَ الحسنُ والحسينُ وعبدُ اللهِ بنُ جعفرٍ رضيَ اللهُ عنهُمْ حُجاجاً ، ففاتَهُمْ أثقالُهُمْ ، فجاعوا وعطشوا ، فمرُّوا بعجوزٍ في خباءٍ لها ، فقالوا : هلْ مِنْ شرابٍ ؟ فقالَتْ : نعمْ ، فأناخوا إليها وليسَ لها إلا شُويهةٌ في كسرِ الخيمةِ ، فقالَتِ : احلبوها وامتذقوا لبنَها ، ففعلوا ذلكَ ، ثمَّ قالوا لها : هلْ مِنْ طعامٍ ؟ قالَتْ : لا إلا هـٰذهِ الشاةُ ، فليذبحْها أحدُكُمْ حتَّىٰ أهيِّئَ لكمْ ما تأكلونَ ، فقامَ إليها أحدُهُمْ فذبحَها وكشطَها ، ثمَّ هيأَتْ لهُمْ طعاماً ، فأكلُوا وأقاموا حتَّىٰ أبردوا ، فلمَّا ارتحلوا . . قالوا لها : نحنُ نفرٌ مِنْ قريشٍ نريدُ هـٰذا الوجهَ ، فإذا رجعنا سالمينَ . . فألمِّي بنا ؛ فإنَّا صانعونَ بكِ خيراً ، ثمَّ ارتحلوا ، وأقبلَ زوجُها فأخبرَتْهُ بخبرِ القومِ والشاةِ ، فغضبَ الرجلُ ، وقالَ : ويلَكِ ؛ تذبحينَ شاتي لقومٍ لا تعرفينَهُمْ ، ثمَّ تقولينَ : نفرٌ مِنْ قريشٍ ، قالَ : ثمَّ بعدَ مدةٍ ألجأتْهُما الحاجةُ إلىٰ دخولِ

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٤٣٢) ، وانظر « ثمرات الأوراق » (ص٤٤٠) ، و« المستطرف » (١/ ٤٩٢ـ٤٩٣) .

المدينةِ ، فدخلاها وجعلا ينقلانِ البعرَ إليها ويبيعانِهِ ، ويتعيَّشانِ بثمنِهِ ، فمرَّتِ العجوزُ في بعضِ سككِ المدينةِ ؛ فإذا الحسنُ بنُ عليٍّ جالسٌ علىٰ بابِ دارِهِ ، فعرفَ العجوزَ وهيَ لهُ منكرةٌ ، فبعَثَ غلامَهُ ودعا العجوزَ ، فقالَ لها : يا أمةَ اللهِ ؛ أتعرفيني ؟ قالَتْ : لا ، قالَ : أنا ضيفُكِ يومَ كذا وكذا ، قالتِ العجوزُ : بأبي أنتَ وأمّي ، أنتَ هوَ ؟ قالَ : نعمْ ، ثمَّ أمرَ الحسنُ فاشترَوا لها مِنْ شاءِ الصدقةِ ألفَ شاةٍ ، وأمرَ لها معَها بألفِ دينارٍ ، وبعثَ بها معَ غلامِهِ إلى الحسينِ ، فقالَ لها الحسينُ : بكمْ وصَلَكِ أخي ؟ قالَتْ : بألفِ شاةٍ وألفِ دينارٍ ، فأمرَ لها الحسينُ أيضاً بمثلِ ذلكَ ، ثمَّ بعثَ بها معَ غلامِهِ إلىٰ عبدِ اللهِ بنِ جعفرٍ ، فقالَ لها : بكمْ وصلكِ الحسنُ والحسينُ ؟ قالَتْ : بألفي شاةٍ وألفي دينارٍ ، فأمرَ لها عبدُ اللهِ بألفي شاةٍ وألفي دينارٍ ، وقالَ لها : لوْ بدأتِ بي . . لأتعبتُهُما ، فرجعَتِ العجوزُ إلىٰ زوجِها بأربعةِ آلافِ شاةٍ ، وأربعةِ آلافِ دينارٍ(١) .

وخرجَ عبدُ اللهِ بنُ عامرِ بنِ كريزٍ مِنَ المسجدِ يريدُ منزلَهُ ، وهوَ وحدَهُ ، فقامَ إليهِ غلامٌ مِنْ ثقيفٍ ، فمشىٰ إلىٰ جانبِهِ ، فقالَ لهُ عبدُ اللهِ : ألكَ حاجةٌ يا غلامُ ؟ قالَ : صلاحُكَ وفلاحُكَ ، رأيتُكَ تمشي وحدَكَ ، فقلتُ : أقيكَ بنفسي ، وأعوذُ باللهِ إنْ طارَ بجنابِكَ مكروهٌ ، فأخذَ عبدُ اللهِ بيدِهِ ومشىٰ معَهُ إلىٰ منزلِهِ ، ثمَّ دعا بألفِ دينارٍ ، فدفعَها إلى الغلامِ ، وقالَ :

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٤٣٣) ، وقال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٨/ ١٨٥) : (هكذا أخرجه المدائني بأسانيده) .

استنفقْ هـٰذهِ ، فنعمَ ما أدَّبَكَ أهلُكَ[1] .

وحُكِيَ أنَّ قوماً مِنَ العربِ جاؤوا إلىٰ قبرِ بعضِ أسخيائِهِمْ للزيارةِ ، فنزلوا عندَ قبرِهِ ، وباتوا عندَهُ وقدْ كانوا جاؤوا مِنْ سفرٍ بعيدٍ ، فرأىٰ رجلٌ منهمْ في النومِ صاحبَ القبرِ وهوَ يقولُ لَهُ : هلْ لكَ أنْ تبادلَ بعيرَكَ بنجيبي ؟ وكانَ السخيُّ الميتُ قدْ خلَّفَ نجيباً معروفاً بهِ ، ولهـٰذا الرجلِ بعيرٌ سمينٌ ، فقالَ لهُ في النومِ : نعمْ ، وباعَ في النومِ بعيرَهُ بنجيبِهِ ، فلمَّا وقعَ بينهُما العقدُ . . عمدَ هـٰذا الرجلُ إلىٰ بعيرِهِ فنحرَهُ في النومِ ، فانتبَهَ الرجلُ مِنْ نومِهِ ؛ فإذا الدمُ يثجُّ مِنْ نحرِ بعيرِهِ ، فقامَ الرجلُ منَ النومِ فنحرَهُ ، وقسَّمَ لحمَهُ ، فطبخوهُ وقضَوا حاجتَهُمْ منهُ ، ثمَّ رحلوا وساروا ، فلما كانَ اليومُ الثاني وهمْ في الطريقِ . . استقبلَهُمْ ركبٌ ، فقالَ رجلٌ منهُمْ : مَنْ فلانُ بنُ فلانٍ منكمْ ؟ باسمِ ذلكَ الرجلِ ، فقالَ : أنا ، فقالَ : هلْ بعتَ مِنْ فلانٍ شيئاً ؟ وذكرَ الميتَ صاحبَ القبرِ ، قالَ : نعمْ ، بعتُ منهُ بعيري بنجيبِهِ في النومِ ، فقالَ : خذْ ، هـٰذا نجيبُهُ ، ثمَ قالَ : هوَ أبي ، وقدْ رأيتُهُ في النومِ وهوَ يقولُ : إنْ كنتَ ابني . . فادفعْ نجيبي إلىٰ فلانٍ وسمَّاهُ[2] .

وقدمَ رجلٌ مِنْ قريشٍ مِنَ السفرِ ، فمرَّ برجلٍ مِنَ الأعرابِ علىٰ قارعةِ

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٤٣٤) ، وفيه : (صار) بدل (طار) ، وقال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٨/ ١٨٥) : (هكذا أخرجه أبو الحسن المدائني في « أخبار الأسخياء ») .

(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٤٣٦) .

الطريقِ قدْ أقعدَهُ الدهرُ ، وأضرَّ بهِ المرضُ ، فقالَ : يا هٰذا ؛ أعِنَّا على الدهرِ ، فقالَ الرجلُ لغلامِهِ : ما بقيَ معكَ مِنَ النفقةِ . . فادفعْهُ إليهِ ، فصبَّ الغلامُ في حجرِ الأعرابيِّ أربعةَ آلافِ درهمٍ ، فذهبَ لينهضَ ، فلمْ يقدرْ مِنَ الضعفِ فبكىٰ ، فقالَ لهُ الرجلُ : ما يبكيكَ ؟ لعلَّكَ استقللتَ ما أعطيناكَ ؟ قالَ : لا ، ولكنْ ذكرتُ ما تأكلُ الأرضُ مِنْ كرمِكَ فأبكاني[1] .

واشترىٰ عبدُ اللهِ بنُ عامرٍ مِنْ خالدِ بنِ عقبةَ بنِ أبي معيطٍ دارَهُ التي في السوقِ بتسعينَ ألفَ درهمٍ ، فلمَّا كانَ الليلُ . . سمعَ بكاءَ أهلِ خالدٍ ، فقالَ لأهلِهِ : ما لهؤلاءِ ؟ قالوا : يبكونَ لدارِهِمْ ، قالَ : يا غلامُ ؛ ائتِهِمْ فأعلمْهُمْ أنَّ الدارَ والمالَ لهُمْ جميعاً[2] .

وقيلَ : أنفذَ هارونُ الرشيدُ إلىٰ مالكِ بنِ أنسٍ رضيَ اللهُ عنهُما خمسَ مئةِ دينارٍ ، فبلغَ ذلكَ الليثَ بنَ سعدٍ ، فأنفذَ إليهِ ألفَ دينارٍ ، فغضبَ هارونُ وقالَ : أعطيتَهُ خمسَ مئةٍ وتعطيهِ ألفاً وأنتَ مِنْ رعيَّتي ؟! فقالَ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ إنَّ لي مِنْ غلَّتي كلَّ يومٍ ألفَ دينارٍ ، فاستحييتُ أنْ أعطيَ مثلَهُ أقلَّ مِنْ دخلِ يومٍ[3] .

وحُكِيَ أنَّهُ لمْ تجبْ عليهِ الزكاةُ معَ أنَّ دخلَهُ كلَّ يومٍ ألفُ دينارٍ[4] .

---

(١) رواه ابن حبان في « روضة العقلاء » (ص٢٤٨) .
(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (١٠٣٨٨) .
(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٤٣٩) .
(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٤٣٩) .

ورُوِيَ أنَّ امرأةً سألَتِ الليثَ بنَ سعدٍ رحمةُ اللهِ عليهِ شيئاً مِنْ عسلٍ ، فأمرَ لها بزقٍّ مِنْ عسلٍ ، فقيلَ لهُ : إنَّها كانَتْ تقنعُ بدونِ هٰذا ، فقالَ : إنَّها سألَتْ علىٰ قدرِها ، ونعطيها علىٰ قدْرِ النعمةِ علينا(١) .

وكانَ الليثُ بنُ سعدٍ لا يتكلَّمُ كلَّ يومٍ حتَّىٰ يتصدَّقَ علىٰ ثلاثِ مئةٍ وستينَ مسكيناً(٢) .

وقالَ الأعمشُ : اشتكتْ شاةٌ عندي ، فكَانَ خيثمةُ بنُ عبدِ الرحمٰنِ يعودُها بالغداةِ والعشيِّ ، ويسألُني : هلِ استوفَتْ علفَها ؟ وكيفَ صبرُ الصبيانِ منذُ فقدوا لبنَها ؟ وكانَ تحتي لَبَدٌ أجلسُ عليهِ ؛ فإذا خرجَ . . قال : خذْ ما تحتَ اللَّبدِ ، حتَّىٰ وصلَ إليَّ في علَّةِ الشاةِ أكثرُ مِنْ ثلاثِ مئةِ دينارٍ مِنْ برِّهِ ، حتَّىٰ تمنيتُ أنَّ الشاةَ لمْ تبرأْ(٣) .

وقالَ عبدُ الملكِ بنُ مروانَ لأسماءَ بنِ خارجةَ : بلغَني عنكَ خصالٌ ، فحدِّثْني بها ، فقالَ : هي مِنْ غيري أحسنُ منها مِنِّي ، قالَ : عزمتُ عليكَ إلا حدثتَني بها ، فقالَ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ ما مددتُ رجلي بينَ يدي جليسٍ لي قطُّ ، ولا صنعتُ طعاماً قطُّ فدعوتُ إليهِ قوماً إلا كانوا أمنَّ عليَّ منِّي عليهِمْ ، ولا نصبَ لي رجلٌ وجهَهُ قطُّ ليسألَني شيئاً فاستكثرتُ شيئاً أعطيتُهُ إيَّاهُ(٤) .

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٤٣٩)، والقشيري في « رسالته » (ص٤٢٣).
(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٤٣٩) .
(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٤٣٩) .
(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٤٤٠) .

ودخلَ سعيدُ بنُ خالدٍ علىٰ سليمانَ بنِ عبدِ الملكِ ، وكانَ سعيدٌ رجلاً جواداً ، فإذا لمْ يجدْ شيئاً . . كتبَ لِمَنْ سألَهُ صكّاً علىٰ نفسِهِ حتَّىٰ يخرجَ عطاؤُهُ ، فلمَّا نظرَ إليهِ سليمانُ . . تمثَّلَ بهـٰذا البيتِ فقالَ : [من الكامل]

إِنِّي سَمِعْتُ مَعَ ٱلصَّباحِ مُنادِياً   يا مَنْ يُعِينُ عَلَى ٱلْفَتَى ٱلْمِعْوانِ

ثمَّ قالَ : حاجتُكَ ؟ قالَ : دَيني ، قالَ : وكمْ هوَ ؟ قالَ : ثلاثونَ ألفَ دينارٍ ، قالَ : دَيْنُكَ ومثلُهُ[1] .

وقيلَ : مرضَ قيسُ بنُ سعدِ بنِ عبادةَ ، فاستبطأَ إخوانَهُ ، فقيلَ : إنَّهُمْ يستحيونَ ممَّا لكَ عليهِمْ مِنَ الدَّينِ ، فقالَ : أخزى اللهُ مالاً يمنعُ الإخوانَ مِنَ الزيارةِ ، ثمَّ أمرَ منادياً فنادىٰ : مَنْ كانَ عليهِ لقيسٍ حقٌّ . . فهوَ منهُ في حِلٍّ ، قالَ : فكُسِرَتْ درجتُهُ بالعشيِّ ؛ لكثرةِ مَنْ عادَهُ[2] .

وعنْ أبي إسحاقَ قالَ : صلَّيتُ الفجرَ في مسجدِ الأشعثِ بالكوفةِ أطلبُ غريماً لي ، فلمَّا صليتُ . . وُضِعَ بينَ يديَّ حلةٌ ونعلانِ ، فقلتُ : لستُ مِنْ أهلِ هـٰذا المسجدِ ، فقيلَ : إنَّ الأشعثَ بنَ قيسٍ الكنديَّ قدمَ البارحةَ مِنْ مكةَ فأمرَ لكلِّ مَنْ صلَّىٰ في المسجدِ بحلَّةٍ ونعلينِ[3] .

---

(١) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٤٤٠) ، و« ربيع الأبرار » (١/٥٩٥ـ٥٩٦) .

(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٤٤٠) .

(٣) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٤٤١) ، ورواه ابن أبي الدنيا في « الإخوان » (٢٢٢) دون ذكر أبي إسحاق السبيعي .

وقالَ الشيخُ أبو سعدٍ الخَرْكُوشيُّ النيسابوريُّ رحمهُ اللهُ : سمعتُ محمدَ بنَ محمدٍ الحافظَ يقولُ : سمعتُ الشافعيَّ المجاورَ بمكةَ يقولُ : كانَ بمصرَ رجلٌ عُرِفَ بأنَّهُ يجمعُ للفقراءِ شيئاً ، فوُلِدَ لبعضِهِمْ ولدٌ ، قالَ : فجئتُ إليهِ ، فقلتُ لهُ : وُلِدَ لي مولودٌ ، وليسَ معي شيءٌ ، فقامَ معي ، ودخلَ علىٰ جماعةٍ ، فلمْ يُفتحْ بشيءٍ ، فجاءَ إلىٰ قبرِ رجلٍ ، وجلسَ عندَهُ ، وقالَ : رحمَكَ اللهُ ؛ كنتَ تفعلُ وتصنعُ ، وإنِّي دُرتُ اليومَ وكلَّفتُ جماعةً دفعَ شيءٍ لمولودٍ ، فلمْ يتفقْ لي شيءٌ ، قالَ : ثمَّ قامَ ، وأخرجَ ديناراً وكسرَهُ نصفينِ ، وناولَني نصفَهُ ، وقالَ : هـٰذا دينٌ عليكَ إلىٰ أنْ يُفتحَ لكَ بشيءٍ ، قالَ : فأخذتُهُ وانصرفتُ ، فأصلحتُ ما اتفقَ لي بهِ ، فرأىٰ ذلكَ المحتسبُ تلكَ الليلةَ ذلكَ الشخصَ في منامِهِ ، فقالَ : سمعتُ جميعَ ما قلتَ ، وليسَ لنا إذنٌ بالجوابِ ، ولكنِ احضرْ منزلي ، وقلْ لأولادي يحفرُوا مكانَ الكانونِ ، ويخرجوا قرابةً فيها خمسُ مئةِ دينارٍ ، واحملْها إلىٰ هـٰذا الرجلِ ، فلمَّا كانَ مِنَ الغدِ . . تقدَّمَ إلىٰ منزلِ الميتِ ، وقصَّ عليهِمُ القصةَ ، فقالوا لهُ : اجلسْ ، وحفروا الموضعَ ، فأخرجوا الدنانيرَ ، وجاؤوا بها فوضعوها بينَ يديهِ ، فقالَ : هـٰذا مالُكُمْ ، وليسَ لرؤيايَ حكمٌ ، فقالوا : هوَ يتسخَّىٰ ميتاً ، ولا نتسخَّىٰ نحنُ أحياءً ! فلما ألحُّوا عليهِ . . حملَ الدنانيرَ إلى الرجلِ صاحبِ المولودِ ، وذكرَ لهُ القصةَ ، قالَ : فأخذَ مِنْها ديناراً وكسرَهُ نصفينِ ، فأعطاهُ النصفَ الذي أقرضَهُ ، وحملَ النصفَ الآخرَ ، وقالَ : يكفيني هـٰذا ، وتصدَّقْ بها على

الفقراءِ ، فقالَ أبو سعدٍ : فلا أدري أيُّ هؤلاءِ أسخىٰ[1] .

ورُوِيَ أنَّ الشافعيَّ رضيَ اللهُ عنهُ لما مرضَ مرضَ موتِهِ . . قالَ : مروا فلاناً يغسلُني[2] ، فلمَّا تُوفيَ . . بلغَه خبرُ وفاتِهِ ، فحضرَ وقالَ : ائتوني بتذكرتِهِ ، فأُتيَ بها ، فنظرَ فيها ؛ فإذا على الشافعيِّ رحمَهُ اللهُ سبعونَ ألفَ درهمٍ دينٌ ، فكتبَها علىٰ نفسِهِ، وقضاها عنهُ، وقالَ : هـٰذا غسلي إيَّاهُ ؛ أيْ : أرادَ بهِ هـٰذا.

وقالَ أبو سعدٍ الواعظُ الخركوشيُّ رحمَهُ اللهُ : لمَّا قدمتُ مصرَ . . طلبتُ منزلَ ذلكَ الرجلِ ، فدلُّوني عليهِ ، فرأيتُ جماعةً مِنْ أحفادِهِ وزرتُهُمْ ، فرأيتُ فيهمْ سيما الخيرِ وآثارَ الفضلِ ، فقلتُ : بلغَ أثرُهُ في الخيرِ إليهمْ ، وظهرَتْ بركتُهُ فيهمْ ؛ مستدلاً بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَـٰلِحًا ﴾[3] .

وقالَ الشافعيُّ رحمَهُ اللهُ : لا أزالُ أحبُّ حمادَ بنَ أبي سليمانَ لشيءٍ بلغَني عنهُ ؛ أنَّهُ كانَ ذاتَ يومٍ راكباً حمارَهُ ، فحرَّكَهُ فانقطعَ زرُّهُ ، فمرَّ علىٰ خياطٍ ، فأرادَ أنْ ينزلَ إليهِ ليسوِّيَ زرَّهُ ، فقالَ الخياطُ : واللهِ ؛ لا نزلتَ ، فقامَ الخياطُ إليهِ ، فسوَّىٰ زرَّهُ ، فأخرجَ إليهِ صرَّةً فيها عشرةُ دنانيرَ ، فسلَّمَها إلى الخياطِ ، واعتذرَ إليهِ مِنْ قلَّتِها[4] .

---

(١) رواه الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٤٤١) .
(٢) وعنىٰ به : محمد بن عبد الله بن عبد الحكم . « إتحاف » (٨/ ١٨٩) .
(٣) تهذيب الأسرار (ص٤٤٢) .
(٤) كذا هو عند الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٤٤٢) ، ورواه البيهقي في « مناقب الشافعي » (٢/ ٢٣٢) .

وأنشدَ الشافعيُّ رضيَ اللهُ عنهُ لنفسهِ[1] : [من البسيط]

يا لَهْفَ قَلْبي عَلَىٰ مالٍ أُفَرِّقُهُ عَلَى الْمُقِلِّينَ مِنْ أَهْلِ الْمُرُوءاتِ
إِنَّ اعْتِذارِي إِلَىٰ مَنْ جاءَ يَسْأَلُني ما لَيْسَ عِنْدِي لَمِنْ إِحْدَى الْمُصِيباتِ

وعنِ الربيعِ بنِ سليمانَ قالَ : أخذَ رجلٌ بركابِ الشافعيِّ رحمَهُ اللهُ ، فقالَ : يا ربيعُ ؛ أعطِهِ أربعةَ دنانيرَ واعتذرْ إليهِ عنِّي[2] .

وقالَ الربيعُ : سمعتُ الحميديَّ يقولُ : قدمَ الشافعيُّ مِنْ صنعاءَ إلىٰ مكةَ بعشرةِ آلافِ دينارٍ ، فضربَ خباءَهُ في موضعٍ خارجاً مِنْ مكةَ ، فنثرَها علىٰ ثوبٍ ، ثمَّ أقبلَ علىٰ كلِّ مَنْ دخلَ عليهِ يقبضُ قبضةً ويعطيهِ حتَّىٰ صلَّى الظهرَ ، ونفضَ الثوبَ وليسَ عليهِ شيءٌ[3] .

وعنْ أبي ثورٍ قالَ : أرادَ الشافعيُّ الخروجَ إلىٰ مكةَ ومعَهُ مالٌ ، وكانَ قلَّما يمسكُ شيئاً مِنْ سماحتِهِ ، فقلتُ لهُ : ينبغي أنْ تشتريَ بهـٰذا المالِ ضيعةً تكونُ لكَ ولولدِكَ ، قالَ : فخرجَ ، ثمَّ قدمَ علينا ، فسألتُهُ عنْ ذلكَ المالِ ، فقالَ : ما وجدتُ بمكةَ ضيعةً يمكنُني أنْ أشتريَها ؛ لمعرفتي بأصلِها ، وقدْ وُقِفَ أكثرُها ، ولكنِّي بنيتُ بمنىً مضرباً

---

(١) ديوان الإمام الشافعي (ص ٤٣) .
(٢) رواه البيهقي في « مناقب الشافعي » (٢/ ٢٢٠) .
(٣) رواه البيهقي في « مناقب الشافعي » (٢/ ٢٢٠) ، والخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٤٤٣) .

يكونُ لأصحابِنا إذا حجُّوا أنْ ينزلوا فيهِ(١) .

وأنشدَ الشافعيُّ رحمَهُ اللهُ(٢) : [من الوافر]

أَرَىٰ نَفْسِي تَتُوقُ إِلَىٰ أُمُورٍ ... يُقَصِّرُ دُونَ مَبْلَغِهِنَّ مَالِي
فَنَفْسِي لا تُطَاوِعُنِي بِبُخْلٍ ... وَمَالِي لا يُبَلِّغُنِي فِعَالِي

وقالَ محمدُ بنُ عبادٍ المهلبيُّ : دخلَ أبي على المأمونِ ، فوصلَهُ بمئةِ ألفِ درهمٍ ، فلمَّا قامَ مِنْ عندِهِ.. تصدَّقَ بها ، فأُخبِرَ بذلكَ المأمونُ ، فلمَّا عادَ إليهِ.. عاتبَهُ المأمونُ في ذلكَ ، فقالَ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ منعُ الموجودِ سوءُ ظنٍّ بالمعبودِ ، فوصلَهُ بمئةِ ألفٍ أخرىٰ(٣) .

وقامَ رجلٌ إلىٰ سعيدِ بنِ العاصِ فسألَهُ ، فأمرَ لهُ بمئةِ ألفِ درهمٍ ، فبكىٰ ، فقالَ لهُ سعيدٌ : ما يبكيكَ ؟ قالَ : أبكي على الأرضِ أنْ تأكلَ مثلَكَ ، فأمرَ لهُ بمئةِ ألفٍ أخرىٰ(٤) .

ودخلَ أبو تمامٍ علىٰ إبراهيمَ بنِ شكلةَ بأبياتٍ امتدحَهُ بها ، فوجدَهُ عليلاً ، فقبِلَ منهُ المِدْحَةَ ، وأمرَ حاجبَهُ بنيلِهِ ما يصلحُهُ ؛ وقالَ : عسىٰ أنْ

---

(١) رواه البيهقي في « مناقب الشافعي » (٢/ ٢٢٣) .
(٢) البيتان مما نسب إلى الإمام الشافعي في « ديوانه » (ص ١١٤) ، ولعبد الله بن معاوية في « ديوانه » (ص ٦٧) .
(٣) كذا هو عند الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٤٤٤) ، ورواه بنحوه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٣/ ١٧٦) .
(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٤٤٦) ، ورواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢١/ ١٣٢) .

أقومَ مِنْ مرضي فأكافئَهُ ، فأقامَ شهرينِ ، فأوحشَهُ طولُ المقامِ ، فكتبَ إليهِ يقولُ[1] : [من المنسرح]

إنَّ حَراماً قَبُولُ مِدْحَتِنا وَتَرْكُ ما نَرْتَجِي مِنَ ٱلصَّفَدِ
كَما ٱلدَّنانِيرُ وَٱلدَّراهِمُ فِي الـ ـبَيْعِ حَرامٌ إلاَّ يَداً بِيَدِ

فلمَّا وصلَ البيتانِ إلىٰ إبراهيمَ . . قالَ لحاجبِهِ : كمْ أقامَ بالبابِ ؟ قالَ : شهرينِ ، قالَ : أعطِهِ ثلاثينَ ألفاً ، وجئْني بدَواةٍ ، فكتبَ إليهِ[2] : [من الكامل]

أَعْجَلْتَنا فَأَتاكَ عاجِلُ بِرِّنا قُلاًّ وَلَوْ أَمْهَلْتَنا لَمْ نُقْلِلِ
فَخُذِ ٱلْقَلِيلَ وَكُنْ كَأَنَّكَ لَمْ تَقُلْ وَنَكُونُ نَحْنُ كَأَنَّنا لَمْ نَفْعَلِ

ويُروىٰ أنَّهُ كانَ لعثمانَ علىٰ طلحةَ رضيَ اللهُ عنهُما خمسونَ ألفَ درهمٍ ، فخرجَ عثمانُ يوماً إلى المسجدِ ، فقالَ لهُ طلحةُ : قدْ تهيأَ مالُكَ فاقبضْهُ ، فقالَ : هوَ لكَ يا أبا محمدٍ معونةً لكَ علىٰ مروءَتِكَ[3] .

وقالَتْ سُعدىٰ بنتُ عوفٍ : دخلتُ علىٰ طلحةَ ، فرأيتُ منهُ ثقلاً ، فقلتُ : ما لكَ ؟ فقالَ : اجتمعَ عندي مالٌ وقدْ غمَّني ، فقلتُ : وما يغمُّكَ ؟! ادعُ قومَكَ ، فقالَ : يا غلامُ ؛ عليَّ بقومي ، فقسَّمَهُ فيهم ،

(١) البيتان ليسا في « ديوان أبي تمام » انظر « المحاسن والمساوىء » (ص ٢٤٩) ، و« التمثيل والمحاضرة » (ص ١٦٩) .
(٢) البيتان منسوبان إلىٰ غير واحد ، وهما في « المنصف » لابن وكيع (١/١٠٨) ، وانظر تخريجها ثمة .
(٣) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٥/١٠٣) .

فسألتُ الخادمَ : كمْ كانَ ؟ قالَ : أربعَ مئةِ ألفٍ[1] .

وجاءَ أعرابيٌّ إلىٰ طلحةَ ، فسألَهُ وتقرَّبَ إليهِ برحمٍ ، فقالَ : إنَّ هـٰذهِ الرَّحمَ ما سألَني بها أحدٌ قبلَكَ ، إنَّ لي أرضاً قدْ أعطاني بها عثمانُ ثلاثَ مئةِ ألفٍ ، فإنْ شئتَ . . فاقبضْها ، وإنْ شئتَ . . بعتُها مِنْ عثمانَ ، ودفعتُ إليكَ الثمنَ ، فقالَ : الثمنُ ، فباعَها مِنْ عثمانَ ، ودفعَ إليهِ الثمنَ[2] .

وقيلَ : بكىٰ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ يوماً ، فقيلَ لهُ : ما يبكيكَ ؟ فقالَ : لمْ يأتني ضيفٌ منذُ سبعةِ أيامٍ ، أخافُ أنْ يكونَ اللهُ قدْ أهانَني[3] .

وأتىٰ رجلٌ صديقاً لهُ ، فدقَّ عليهِ البابَ ، فقالَ : مَا جاءَ بكَ ؟ قالَ : عليَّ أربعُ مئةِ درهمٍ دينٌ ، فوزنَ أربعَ مئةِ درهمٍ وأخرجَها إليهِ ، وعادَ يبكي ، فقالَتْ لهُ امرأتُهُ : لمَ أعطيتَهُ إذْ شقَّ عليكَ ؟ فقالَ : إنَّما أبكي لأنِّي لمْ أتفقدْ حالَهُ حتَّى احتاجَ إلىٰ مفاتحَتي بهِ[4]، فرحمَ اللهُ مَنْ هـٰذهِ صفاتُهُمْ ، وغفرَ لهُمْ أجمعينَ .

* * *

(١) رواه ابن سعد في « طبقاته » (٣/ ٢٠١) .
(٢) رواه أبو بكر الشافعي في « الغيلانيات » (١٠٨٣) .
(٣) أورده القشيري في « رسالته » (ص٢٢٤) .
(٤) أورده القشيري في « رسالته » (ص٤٢١) .

بيان ذم البخل

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إيَّاكُمْ والشُّحَّ ؛ فإنَّهُ أهلكَ مَنْ كانَ قبلَكُمْ ، حملَهُمْ علىٰ أنْ يسفكوا دماءَهُمْ ، واستحلُّوا محارمَهُمْ »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إيَّاكُمْ والشُّحَّ ؛ فإنَّهُ دعا مَنْ كانَ قبلَكُمْ فسفكوا دماءَهُمْ ، ودعاهُمْ فاستحلُّوا محارمَهُمْ ، ودعاهُمْ فقطعوا أرحامَهُمْ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يدخلُ الجنَّةَ بخيلٌ ، ولا خَبٌّ ، ولا خائنٌ ، ولا سيِّءُ المَلَكَةِ » .

وفي روايةٍ : « ولا جبارٌ » ، وفي روايةٍ : « ولا منَّانٌ »[3] .

---

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (١٠٣٣٨) ، والطبراني في « الأوسط » (٨٥٥٦) .
(٢) رواه الخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (٣٥٦) .
(٣) كذا رواه بروايته هنا الخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (٣٦١ـ ٣٦٢) ، ونحوه عند الترمذي (١٩٦٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ثلاثٌ مهلكاتٌ : شحٌّ مطاعٌ ، وهوىً متَّبعٌ ، وإعجابُ المرءِ بنفسِهِ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ تعالىٰ يبغضُ ثلاثةً : الشَّيخَ الزَّانيَ ، والبخيلَ المنَّانَ ، والمعيلَ المختالَ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مثلُ المنفقِ والبخيلِ كمثلِ رجلينِ عليهِما جُبّتانِ مِنْ حديدٍ مِنْ لدنْ ثُدِيِّهِما إلىٰ تراقِيهِما ، فأمَّا المنفقُ . . فلا ينفقُ شيئاً إلا سبَغَتْ أو وَفرَتْ علىٰ جلدِهِ حتَّىٰ تُخفِيَ بنانَهُ ، وأمَّا البخيلُ . . فلا يريدُ أنْ ينفقَ شيئاً إلا قلصَتْ ولزمَتْ كلُّ حَلقةٍ مكانَها حتَّىٰ أخذَتْ بتراقيهِ ، فهوَ يوسِّعُها ولا تتَّسعُ »(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « خصلتانِ لا تجتمعانِ في مؤمنٍ : البخلُ ، وسوءُ الخلقِ »(٤) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ مِنَ البُخلِ ، وأعوذُ

---

(١) رواه الخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (٣٦٩) ، والطبراني في « الأوسط » (٥٤٤٨) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٣١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/٣٤٣) .

(٢) رواه الخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (٣٧٥) .

(٣) رواه الخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (٣٧٦) ، وأصله عند البخاري (١٤٤٤) ، ومسلم (١٠٢١) .

(٤) رواه الترمذي (١٩٦٢) ، والخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (٣٧٧) .

بكَ مِنَ الجبْنِ ، وأعوذُ بكَ أنْ أُردَّ إلىٰ أرذلِ العُمُرِ »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إيَّاكُمْ والظُّلمَ ؛ فإنَّ الظُّلمَ ظلماتٌ يومَ القيامةِ ، وإيَّاكُمْ والفُحْشَ ؛ فإنَّ اللهَ لا يحبُّ الفاحشَ ولا المتفحِّشَ ، وإيَّاكُمْ والشُّحَّ ؛ فإنَّما أهلكَ مَنْ كانَ قبلَكُمُ الشُّحُّ ، أمرَهُمْ بالكذبِ فكذبوا ، وأمرَهُمْ بالظُّلمِ فظلموا ، وأمرَهُمْ بالقطيعةِ فقطعوا »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « شرُّ ما في الرَّجلِ شحٌّ هالعٌ ، وجبنٌ خالعٌ »[3] .

وقُتِلَ شَهيدٌ علىٰ عهدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فبكتْهُ باكيةٌ ، فقالَتْ : واشهيداهُ ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما يدريكِ أنَّهُ شهيدٌ ؟! فلعلَّهُ كانَ يتكلَّمُ فيما لا يعنيهِ ، أوْ يبخلُ بما لا ينقصُهُ »[4] .

وقالَ جبيرُ بنُ مطعمٍ : بينا نحنُ نسيرُ معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ومعَهُ الناسُ مَقْفَلَهُ مِنْ حُنينٍ .. علقَتْ برسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ الأعرابُ يسألونَهُ ، حتَّى اضطرُّوه إلىٰ سَمُرةٍ ، فخطفَتْ رداءَهُ ، فوقفَ

(١) رواه البخاري (٦٣٦٥) ، وهو عند الخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (٣٨١) .
(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (٧٠٥٥) .
(٣) رواه أبو داوود (٢٥١١) ، وهالع : جازع ؛ يعني : شحاً يحمل على الحرص على المال ، والجزع علىٰ ذهابه ، وقيل : هو ألا يشبع ، كلما وجد شيئاً .. بلعه ، ولا قرار له ، وخالع : شديد ؛ كأنه يخلع فؤاده من شدة خوفه من الخلق . انظر « الإتحاف » (١٩٤/٨) .
(٤) رواه أبو يعلىٰ في « مسنده » (٦٦٤٦) ، وقريب منه عند الترمذي (٢٣١٦) .

رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : « أعطوني ردائِي ، فوالَّذي نفسِي بيدِهِ ؛ لوْ كانَ لي عددُ هـٰذهِ العِضاهِ نَعماً . . لقسمتُهُ بينَكُمْ ، ثمَّ لا تجدوني بخيلاً ولا كذوباً ولا جباناً »(١) .

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : قسمَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قَسْماً ، فقلتُ : غيرُ هؤلاءِ كانوا أحقَّ بهِ منهُمْ ، فقالَ : « إنَّهُمْ يخيِّروني بينَ أنْ يسألوني بالفحشِ ، أو يبخِّلوني ولستُ بباخلٍ »(٢) .

وقالَ أبو سعيدٍ الخدريُّ رضيَ اللهُ عنهُ : دخلَ رجلانِ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فسألاهُ ثمنَ بعيرٍ ، فأعطاهُما دينارينِ ، فخرجا مِنْ عندِهِ ، فلقيَهُما عمرُ بنُ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ ، فأثنيا وقالا معروفاً ، وشكرا ما صنعَ بهما ، فدخلَ عمرُ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فأخبرَهُ بما قالا ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لكنْ فلانٌ أعطيتُهُ ما بينَ عشرةٍ إلىٰ مئةٍ ولمْ يقلْ ذلكَ ، إنَّ أحدَكُمْ ليسألُني فينطلقُ في مسألتِهِ متأبِّطَها وهيَ نارٌ » ، فقالَ عمرُ : فلِمَ تعطيهمْ ما هوَ نارٌ ؟ فقالَ : « يأبونَ إلا أنْ يسألوني ، ويأبى اللهُ لي البخلَ »(٣) .

وعنِ ابنِ عباسٍ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الجودُ مِنْ جُودِ اللهِ تعالىٰ ، فجودوا . . يجُدِ اللهُ عليكُمْ ، ألا إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ خلقَ

---

(١) رواه البخاري (٢٨٢١) .
(٢) رواه مسلم (١٠٥٦) .
(٣) رواه أبو يعلىٰ في « مسنده » (١٣٢٧) ، وبنحوه عند أحمد في « المسند » (٣/ ٤) .

الجُودَ فجعلَهُ في صورةِ رجلٍ ، وجعلَ أُسَّهُ راسخاً في أصلِ شجرةِ طُوبىٰ ، وشدَّ أغصانَها بأغصانِ سِدرةِ المُنتهىٰ ، ودلَّىٰ بعضَ أغصانِها إلى الدنيا ، فمَنْ تعلَّقَ بغصنٍ منها. . أدخلَهُ الجنَّةَ ، ألا إنَّ السَّخاءَ مِنَ الإيمانِ ، والإيمانُ في الجنَّةِ ، وخلقَ البخلَ مِنْ مقتِهِ ، وجعلَ أصلَهُ راسخاً في أصلِ شجرةِ الزَّقُّومِ ، ودلَّىٰ بعضَ أغصانِها إلى الدنيا ؛ فمَنْ تعلَّقَ بغصْنٍ منها. . أدخلَهُ النَّارَ ، ألا إنَّ البخلَ من الكفرِ ، والكفرُ في النارِ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « السخاءُ شجرةٌ تنبتُ في الجنَّةِ ؛ فلا يلجُ الجنَّةَ إلا سخيٌّ ، والبخلُ شجرةٌ تنبتُ في النارِ ؛ فلا يلجُ النار إلا بخيلٌ »(٢) .

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لوفدِ بني لِحيانَ : « مَنْ سيِّدُكُمْ يا بني لِحيانَ ؟ » قالوا : سيدُنا جَدُّ بنُ قيسٍ ، إلا أنَّهُ رجلٌ فيهِ بخلٌ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « وأيُّ داءٍ أدوأُ مِنَ البخلِ ، ولكنْ سيِّدُكُمْ عمرُو بنُ الجموحِ »(٣) ، وفي روايةٍ : أنَّهُمْ قالوا : سيدُنا جَدُّ بنُ قيسٍ ، فقالَ : « بمَ تسوِّدونَهُ ؟ » ، قالوا : إنَّهُ أكثرُنا مالاً ، وإنَّا علىٰ ذلكَ

---

(١) قال المتقي الهندي في « كنز العمال » (١٦٢١٧) : (رواه الخطيب في كتاب « البخلاء » عن ابن عباس ، وفي سنده أبو بكر النقاش ، صاحب مناكير) .
(٢) كذا هو عند صاحب « مسند الفردوس » (٣٥٤٣) .
(٣) رواه البيهقي في « الشعب » (١٠٣٥٨) ، ورواه من حديث جابر رضي الله عنه البخاري في « الأدب المفرد » (٢٩٦) بنحوه .

لنَزْنُهُ بالبُخلِ ، فقالَ : صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « وأيُّ داءٍ أدوأُ مِنَ البخلِ ، ليسَ ذلكَ سيِّدَكُمْ » ، قالوا : فمَنْ سيِّدُنا يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « سيِّدُكُمْ بِشرُ بنُ البراءِ »[1] .

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ يبغضُ البخيلَ في حياتِهِ ، السَّخيَّ عندَ موتِهِ »[2] .

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « السخيُّ الجهولُ أحبُّ إلى اللهِ تعالىٰ مِنَ العابدِ البخيلِ »[3] .

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يجتمعُ الشحُّ والإيمانُ في قلبِ عبدٍ »[4] .

وقالَ أيضاً : « خصلتانِ لا يجتمعانِ في مؤمنٍ ؛ البخلُ ، وسوءُ الخُلُقِ »[5] .

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (٢/ ٣٥) ، والحاكم في « المستدرك » (٣/ ٢١٩) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٣٥٩) ، ولنَزْنُه : لنتَّهمُه .
(٢) كذا هو عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٦٢٧) ، وأشار السيوطي كما في « فيض القدير » (٢/ ٢٨٥) إلىٰ رواية الخطيب له في كتاب « البخلاء » ، وقال العلامة المناوي : (وهو مما بيَّض له الديلمي لعدم وقوفه له علىٰ سنده) .
(٣) رواه الترمذي (١٩٦١) .
(٤) رواه النسائي (٦/ ١٣) .
(٥) رواه الترمذي (١٩٦٢) ، والخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (٣٧٧) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا ينبغي للمؤمنِ أنْ يكونَ بخيلاً ولا جباناً »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يقولُ قائلُكُمْ : الشحيحُ أعذرُ مِنَ الظالمِ ، وأيُّ ظلمٍ أظلمُ عندَ اللهِ مِنَ الشحِّ ؟! حلفَ اللهُ تعالىٰ بعزَّتِهِ وعظمتِهِ وجلالِهِ ؛ لا يدخلُ الجنَّةَ شحيحٌ ولا بخيلٌ »(٢) .

ورُويَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يطوفُ بالبيتِ ؛ فإذا رجلٌ متعلِّقٌ بأستارِ الكعبةِ ، وهوَ يقولُ : بحرمةِ هٰذا البيتِ إلا غفرتَ لي ذنبي ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « وما ذنبُكَ ؟ صفْهُ لي » قالَ : هوَ أعظمُ مِنْ أنْ أصفَهُ لكَ ، قالَ : « ويحَكَ ! ذنبُكَ أعظمُ أمِ الأرَضُونَ ؟ » ، قالَ : بلْ ذنبي يا رسولَ اللهِ ، قالَ : « ويحَكَ ! ذنبُكَ أعظمُ أمِ الجبالُ ؟ » قالَ : بلْ ذنبي أعظمُ يا رسولَ اللهِ ، قالَ : « فذنبُكَ أعظمُ أمِ البحارُ ؟ » قالَ : بلْ ذنبي يا رسولَ اللهِ ، قال : « فذنبُكَ أعظمُ أمِ السماواتُ ؟ » قالَ : بلْ ذنبي يا رسولَ اللهِ ، قالَ : « فذنبُكَ أعظمُ أمِ العرشُ ؟ » قال : بلْ ذنبي أعظمُ يا رسولَ اللهِ ، قالَ : « فذنبُكَ أعظمُ أمِ اللهُ ؟ » قالَ : بلِ اللهُ أعظمُ وأعلىٰ ،

---

(١) رواه هناد في « الزهد » (٦١٦) عن أبي جعفر الباقر مرسلاً ، وقال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٨/١٩٧) : (ورواه الخطيب من حديث أبي عبد الرحمٰن السلمي موقوفاً) .

(٢) رواه الطبراني في « الأوسط » (٤٠٧٨) عن نافع قال : سمع ابن عمر رجلاً يقول : الشحيح أعذر من الظالم ، فقال ابن عمر : كذبت ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الشحيح لا يدخل الجنة » ، فليسَ أوله مرفوعاً .

قالَ : « ويحَكَ ! فصفْ لي ذنبَكَ » ، قالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ إنِّي رجلٌ ذو ثروةٍ مِنَ المالِ ، وإنَّ السائلَ ليأتيني ليسألَني ، فكأنَّما يستقبلُني بشعلةٍ مِنْ نارٍ .

فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إليكَ عنِّي لا تحرقُني بنارِكَ ، فوالَّذي بعثَني بالهدايةِ والكرامةِ ؛ لوْ قمتَ بينَ الرُّكنِ والمقامِ ثمَّ صلَّيتَ ألفي ألفِ عامٍ ، وبكيتَ حتَّىٰ تجريَ مِنْ دمُوعِكَ الأنهارُ ، وتُسقىٰ بها الأشجارُ ، ثمَّ متَّ وأنتَ لئيمٌ . . لأكبَّكَ اللهُ في النارِ ، ويحَكَ ! أما علمتَ أنَّ البخلَ كفرٌ ، وأنَّ الكفرَ في النارِ ، ويحَكَ ! أما علمتَ أنَّ اللهَ تعالىٰ يقولُ : ﴿ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦ ﴾ ، ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ »[1] .

* * *

الآثارُ :

قالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : لمَّا خلقَ اللهُ تعالىٰ جنةَ عدنٍ . . قالَ لها : تزيني ، فتزينَتْ ، ثمَّ قالَ لها : أظهري أنهارَكِ ، فأظهرَتْ عينَ السلسبيلِ ، وعينَ الكافورِ ، وعينَ التسنيمِ ، فتفجرَ منها في الجنانِ أنهارُ الخمرِ ، وأنهارُ العسلِ واللبنِ ، ثمَّ قالَ لها : أظهري سُررَكِ ، وحِجالَكِ ،

---

(١) رواه الفاكهي في « أخبار مكة » (٢/ ٢٧٨) من حديث الهيكل بن جابر رضي الله عنه ، وأورده الحارث المحاسبي في « الوصايا » (ص١٠٢) بلاغاً ، وقال الحافظ العراقي كما في « الإتحاف » (٨/ ١٩٧) : (الحديث بطوله باطل لا أصل له) ، وانظر « أسد الغابة » (٥/ ٤٢٤) ، و« الإصابة » (٣/ ٥٨١) .

وكراسيَّكِ ، وحُليَّكِ ، وحُلَلَكِ ، وحورَ عِينِكِ ، فأظهرَتْ ، فنظرَ إليها ، فقالَ : تكلَّمي ، فقالَتْ : طوبىٰ لمَنْ دخلَنِي ، فقالَ اللهُ تعالىٰ : وعزتي وجلالِي لا أسكنتُكِ بخيلاً[1] .

وقالَتْ أمُّ البنينَ أختُ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ : (أفٍّ للبخيلِ ، لوْ كانَ البخلُ قميصاً . . ما لبستُهُ ، ولوْ كانَ طريقاً . . ما سلكْتُهُ)[2] .

وقالَ طلحةُ بنُ عبيدِ اللهِ رضيَ اللهُ عنهُ : (إنَّا لنجدُ بأموالِنا ما يجدُ البخلاءُ ، ولكنَّا نتصبَّرُ)[3] .

وقالَ محمدُ بنُ المنكدرِ : (كانَ يُقالُ : إذا أرادَ اللهُ بقومٍ شرّاً . . أمَّرَ عليهِمْ شرارَهُمْ ، وجعلَ أرزاقَهُمْ بأيدي بخلائِهِمْ)[4] .

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ في خطبتِهِ : (إنَّهُ سيأتي على الناسِ زمانٌ عضوضٌ ، يعضُّ المؤمنُ علىٰ ما في يدِهِ ولمْ يُؤمرْ بذلكَ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾)[5] .

---

(١) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٢/ ١٥٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً : « لما خلق الله عز وجل جنة عدن . . خلق فيها ما لا عين رأت ولا خطر علىٰ قلب بشر ، ثم قال لها : تكلمي ، فقالت : قد أفلح المؤمنون » ، وزاد أحد رواته : « ثم قالت : أنا حرام علىٰ كل بخيل ومراءٍ » ، وقريب منه ولكن عن شعيب الجبائي عند الخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (٣٧٢) .

(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٤٢٨) .

(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٤٣٨) .

(٤) رواه الخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (٣٥٧) .

(٥) رواه أبو داوود (٣٣٨٢) ، والخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (٣٥٨) .

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ عمرٍو : (الشحُّ أشدُّ مِنَ البخلِ ؛ لأنَّ الشحيحَ هوَ الذي يشحُّ علىٰ ما في يدِ غيرِه حتَّىٰ يأخذَهُ ، ويشحُّ بما في يديهِ فيحبسُهُ ، والبخيلُ هوَ الذي يبخلُ بما في يديهِ)[1] .

وقالَ الشعبيُّ : (لا أدري أيُّهما أبعدُ غوراً في نارِ جهنمَ : البخلُ أوِ الكذبُ ؟!)[2] .

وقيلَ : وردَ علىٰ أنوشُروانَ حكيمُ الهندِ وفيلسوفُ الرومِ ، فقالَ للهنديِّ : تكلَّمْ ، فقالَ : خيرُ الناسِ مَنْ أُلفيَ سخياً ، وعندَ الغضبِ وقوراً ، وفي القولِ متأنِّياً ، وفي الرِّفعةِ متواضعاً ، وعلىٰ كلِّ ذي رحمٍ مشفقاً ، فقالَ للروميِّ : تكلَّمْ ، فقالَ : مَنْ كانَ بخيلاً . . ورثَ عدوُّهُ مالَهُ ، ومَنْ قلَّ شكرُهُ . . لمْ ينلِ النجحَ ، وأهلُ الكذبِ مذمومونَ ، وأهلُ النميمةِ يموتونَ فقراءَ ، ومَنْ لمْ يَرحَمْ . . سُلِّطَ عليهِ مَنْ لا يرحمُهُ[3] .

وقالَ الضحاكُ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا ﴾ قالَ : (البخلُ ، أمسكَ اللهُ تعالىٰ أيديَهُمْ عنِ النفقةِ في سبيلِ اللهِ ؛ فهُمْ لا يبصرونَ الهدىٰ)[4] .

وقالَ كعبٌ : (ما مِنْ صباحٍ إلا وقدْ وُكِّلَ بهِ ملَكانِ يناديانِ : اللهمَّ ؛

---

(١) رواه الخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (٣٥٩) .
(٢) رواه الخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (٣٦٠) .
(٣) رواه الخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (٣٦٤) .
(٤) رواه الخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (٣٧٠) .

عجِّلْ لممسكٍ تلفاً ، ولمنفقٍ خلفاً)(١) .

وقالَ الأصمعيُّ : سمعتُ أعرابياً وقدْ وصَفَ رجلاً فقالَ : (لقد صَغُرَ فلانٌ في عيني ؛ لعظمِ الدنيا في عينِهِ ، وكأنَّما السائلُ إذا رآهُ . . ملكُ الموتِ إذا أتاهُ)(٢) .

وقالَ أبو حنيفةَ رحمَهُ اللهُ : (لا أرىٰ أنْ أعدِّلَ بخيلاً ؛ لأنَّهُ يحملُهُ البخلُ على الاستقصاءِ ، فيأخذُ فوقَ حقِّهِ ؛ خيفةً مِنْ أنْ يُغبَنَ ، فمَنْ كان هٰكذا . . لا يكونُ مأمونَ الأمانةِ)(٣) .

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (ما استقصىٰ كريمٌ قطُّ حقَّهُ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ﴾)(٤) .

وقالَ الجاحظُ : (ما بقيَ مِنَ اللذاتِ إلا ثلاثٌ : ذمُّ البخلاءِ ، وأكلُ القديدِ ، وحكُّ الجربِ) .

وقالَ بشرُ بنُ الحارثِ : (البخيلُ لا غيبةَ لهُ ؛ قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ

---

(١) رواه الخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (٣٨٤) ، وليس فيه : (ولمنفق خلفاً) ، ورواه مرفوعاً البخاري (١٤٤٢) ، ومسلم (١٠١٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (٦٢٤) عن أبي الحسن القرشي عن رجل من الأنصار بنحوه .
(٣) بنحوه أورده صاحب « القوت » (٢/ ٢٦٤) ، ونقله ابن عبد البر في « الاستذكار » (٢٧/ ٣٥٥) .
(٤) كذا في « القوت » (٢/ ٢٦٤) ، ومختصراً عند ابن عبد البر في « الاستذكار » (٢٧/ ٣٥٥) ورواه الدينوري ضمن خبر عن سفيان (ص٩) .

وسلَّمَ : « إنَّكَ لبخيلٌ » ، ومُدِحَتِ امرأةٌ عندَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالوا : صوَّامةٌ قوَّامةٌ ، إلا أنَّ فيها بخلاً ، قالَ : « فما خيرُها إذاً ؟! »)(١) .

وقالَ بشرٌ أيضاً : (النظرُ إلى البخيلِ يقسِّي القلبَ) ، و(بقاءُ البخلاءِ كربٌ على قلوبِ المؤمنينَ)(٢) .

وقالَ يحيىٰ بنُ معاذٍ : (يأبى القلبُ للأسخياءِ إلا حبّاً ولوْ كانوا فجّاراً ، وللبخلاءِ إلا بغضاً وإنْ كانوا أبراراً)(٣) .

وقالَ ابنُ المعتزِّ : (أبخلُ الناسِ بمالهِ أجودُهُمْ بعرضِهِ)(٤) .

ولقي يحيىٰ بنُ زكريا عليهما السلامُ إبليسَ في صورتِهِ ، فقالَ لهُ : يا إبليسُ ؛ أخبرْني بأحبِّ الناسِ إليكَ وأبغضِ الناسِ إليكَ ، قالَ : أحبُّ الناسِ إليَّ المؤمنُ البخيلُ ، وأبغضُ الناسِ إليَّ الفاسقُ السخيُّ ، قالَ لهُ : لمَ ؟ قالَ : لأنَّ البخيلَ قدْ كفاني بخلُهُ ، والفاسقُ السخيُّ أتخوَّفُ أنْ يطَّلعَ اللهُ عليهِ في سخائِهِ فيقبلَهُ ، ثمَّ ولّىٰ وهوَ يقولُ : لولا أنَّكَ يحيىٰ . . لما أخبرتُكَ(٥) .

* * *

---

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (١٠٤١٠) .
(٢) رواهما أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٣٥٠) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٤١٢) .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٦٦) .
(٤) أورده الثعالبي في « التمثيل والمحاضرة » (ص٤٤٠) .
(٥) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦٤/ ٢٠٤) .

حكايات البخلاء

قيلَ : كانَ بالبصرةِ رجلٌ موسرٌ بخيلٌ ، فدعاهُ بعضُ جيرانِهِ وقدَّمَ إليهِ طَباهِجةً ببيضٍ[1] ، فأكلَ منهُ فأكثرَ ، وجعلَ يشربُ الماءَ ، فانتفخَ بطنُهُ ، ونزلَ بهِ الكربُ والموتُ ، فجعلَ يتلوَّىٰ ، فلمَّا أجهدَهُ الأمرُ . . وصفَ حالَهُ للطبيبِ ، فقالَ : لا بأسَ عليكَ ، تقيأْ ما أكلتَ ، فقالَ : هاهِ ، أتقيأُ طباهجةً ببيضٍ ؟! الموتُ ـ واللهِ ـ ولا أتقيَّأُ طباهجةً ببيضٍ .

وقيلَ : أقبلَ أعرابيٌّ يطلبُ رجلاً وبينَ يديهِ تينٌ ، فغطَّى التينَ بكسائِهِ ، فجلسَ الأعرابيُّ ، فقالَ لهُ الرجلُ : هلْ تحسنُ مِنَ القرآنِ شيئاً ؟ قالَ : نعمْ ، فقرأَ : ﴿ وَٱلزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ ، فقالَ : وأينَ التينُ ؟ قالَ : هوَ تحتَ كسائِكَ .

ودعا بعضُهُمْ أخاً لهُ ، ولمْ يطعمْهُ شيئاً إلى العصرِ ، حتَّى اشتدَّ جوعُهُ ، وأخذَهُ مثلُ الجنونِ ، فأخذَ صاحبُ البيتِ العودَ وقالَ لهُ : بحياتي ؛ أيَّ صوتٍ تشتهي أن أسمعَكَ ؟ قالَ : صوتَ المِقْلَىٰ .

ويُحكىٰ أنَّ محمدَ بنَ يحيىٰ بنِ خالدِ بنِ برمكَ كانَ بخيلاً قبيحَ البخلِ ، فسُئِلَ نسيبٌ لهُ كانَ يعرفُهُ عنهُ ، فقيلَ لهُ : صفْ لي مائدتَهُ ، فقالَ : هيَ فِتْرٌ

---

(١) طباهجة : معرَّب تباهجه ، لفظة فارسية ، وهو الكباب ، اللحم المدقوق دقّاً ناعماً ، ويطلق أيضاً على العجَّة .

في فترٍ ، وصحافةُ منقورةٌ مِنْ حبِّ الخشخاشِ ، قيلَ : فمَنْ يحضرُها ؟ قالَ : الكرامُ الكاتبونَ ، قيلَ : فما يأكلُ معَهُ أحدٌ ؟ قالَ : بلىٰ ، الذبابُ ، فقيلَ : سوءةً لهُ ، أنتَ خاصٌّ بهِ وثوبُكَ مخرَّقٌ ؟! فقالَ : إنِّي ـ واللهِ ـ ما أقدرُ علىٰ إبرةٍ أخيطُهُ بها ، ولوْ ملكَ محمدٌ بيتاً مِنْ بغدادَ إلى النَّوْبةِ مملوءاً إبراً ، ثمَّ جاءَهُ جبريلُ وميكائيلُ ، ومعَهُما يعقوبُ النبيُّ عليهِ السَّلامُ يضمنانِ عنهُ إبرةً ، ويسألونَهُ إعارتَهُمْ إيَّاها ليخيطَ بها قميصَ يوسفَ الذي قُدَّ مِنْ دُبُرٍ . . ما فعلَ .

ويُقالَ : كانَ مروانُ بنُ أبي حفصةَ لايأكلُ اللحمَ بخلاً حتىٰ يقرمَ إليهِ ، فإذا قَرِمَ إليه . . أرسلَ غلامَهُ فاشترىٰ لهُ رأساً ، فأكلَهُ ، فقيلَ لهُ : نراكَ لا تأكلُ إلا الرؤوسَ في الصيفِ والشتاءِ ، فلِمَ تختارُ ذلكَ ؟ قالَ : نعمْ ، الرأسُ أعرِفُ سعرَهُ ، فآمنُ خيانةَ الغلامِ ، ولا يستطيعُ أن يغبنَني فيه وليسَ بلحمٍ يطبخُهُ الغلامُ ، فيقدرَ أنْ يأكلَ منهُ ، إنْ مسَّ عيناً أوْ أذناً أوْ خدّاً . . وقفتُ علىٰ ذلكَ ، وآكلُ مِنْهُ ألواناً ، فآكلُ عينَهُ لوناً ، وأذنَهُ لوناً ، ولسانَهُ لوناً ، وغَلْصَمَتَهُ لوناً ، ودماغَهُ لوناً ، وأُكفىٰ مؤنَةَ طبخِهِ ، فقدِ اجتمعَتْ لي فيهِ مرافقُ[1] .

وخرجَ يوماً يريدُ الخليفةَ المهديَّ ، فقالَتْ لهُ امرأةٌ مِنْ أهلِهِ : ما لي عليكَ إنْ رجعتَ بالجائزةِ ؟ قالَ : إنْ أُعطيتُ مئةَ ألفٍ . . أعطيتُكِ درهماً ،

---

(١) رواها ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٧/ ٢٩٥) .

فأُعطيَ ستينَ ألفاً ، فأعطاها أربعةَ دوانيقَ[1] .

واشترىٰ مرةً لحماً بدرهمٍ ، فدعاهُ صديقٌ لهُ ، فردَّ اللحمَ إلى القصابِ بنقصانِ دانقٍ وقالَ : أكرهُ الإسرافَ[2] .

وكانَ للأعمشِ جارٌ لا يزالُ يعرضُ عليهِ المنزلَ فيقولُ : لو دخلتَ فأكلتَ كِسْرةً وملحاً ، فيأبىٰ عليهِ الأعمشُ ، فعرضَ عليهِ ذاتَ يومٍ ، فوافقَ جوعَ الأعمشِ ، فقالَ : مُرَّ بنا ، فدخلَ منزلَهُ ، فقرَّبَ إليهِ كِسْرةً وملحاً ، إذْ سألَ سائلٌ ، فقالَ لهُ ربُّ المنزلِ : بُورِكَ فيكَ ، فأعادَ عليهِ المسألةَ ، فقالَ لهُ : بُورِكَ فيكَ ، فلما سألَ الثالثةَ . . قالَ لهُ : اذهبْ وإلا واللهِ . . خرجتُ إليكَ بالعصا ، فناداهُ الأعمشُ وقالَ : اذهبْ ويحَكَ ! فلا واللهِ ؛ ما رأيتُ أحداً أصدقَ مواعيدَ منهُ ، هوَ منذُ مدةٍ يعدُني بكِسرَةٍ وملحٍ ، فلا واللهِ ؛ ما زادَني عليهِما .

* * *

(١) رواها ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٧/٢٩٦) .
(٢) رواها ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٧/٢٩٦) .

بيان الإيثار وفضله

اعلمْ : أنَّ السخاءَ والبخلَ كلُّ واحدٍ منهُما ينقسمُ إلىٰ درجاتٍ ، فأرفعُ درجاتِ السخاءِ الإيثارُ ، وهو أنْ يجودَ بالمالِ معَ الحاجةِ إليهِ ، وإنَّما السخاءُ عبارةٌ عنْ بذلِ ما لا يحتاجُ إليهِ لمحتاجٍ أوْ لغيرِ محتاجٍ ، والبذلُ معَ الحاجةِ أشدُّ .

وكما أنَّ السخاوةَ قدْ تنتهي إلىٰ أنْ يسخوَ الإنسانُ علىٰ غيرِهِ معَ الاحتياجِ . . فالبخلُ قدْ ينتهي إلىٰ أنْ يبخلَ علىٰ نفسِهِ معَ الحاجةِ ، فكمْ مِنْ بخيلٍ يمسكُ المالَ ويمرضُ فلا يتداوىٰ ، ويشتهي الشهوةَ فلا يمنعُهُ منها إلا البخلُ بالثمنِ ، ولوْ وجدَها مجاناً . . لأكلَها ، فهٰذا يبخلُ علىٰ نفسِهِ معَ الحاجةِ ، وذلكَ يؤثرُ علىٰ نفسِهِ غيرَهُ معَ أنَّهُ محتاجٌ إليهِ ، فانظرْ ما بينَ الرجلينِ ؛ فإنَّ الأخلاقَ عطايا يضعُها اللهُ تعالىٰ حيثُ يشاءُ ؟

وليسَ بعدَ الإيثارِ درجةٌ في السخاءِ ، وقدْ أثنى اللهُ على الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ بهِ فقالَ تعالىٰ: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أيُّما امرئٍ اشتهىٰ شهوةً فردَّ شهوتَهُ وآثرَ علىٰ نفسِهِ . . غُفِرَ لَهُ »(١) .

---

(١) رواه ابن عدي في « الكامل » (٥/١٢٧) ، ورواه أيضاً ضمن قصة ابن عمر رضي الله =

وقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : (ما شبعَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ثلاثةَ أيامٍ متواليةٍ حتَّىٰ فارقَ الدنيا ، ولوْ شئنا . . لشبعنا ، ولكنَّا كُنَّا نؤثرُ علىٰ أنفسِنا)[1] .

ونزلَ برسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ضيفٌ ، فلمْ يجدْ عندَ أهلِهِ شيئاً ، فدخلَ عليهِ رجلٌ مِنَ الأنصارِ ، فذهبَ بهِ إلىٰ أهلِهِ فوضعَ بينَ يديهِ طعاماً ، وأمرَ امرأتَهُ بإطفاءِ السراجِ ، وجعلَ يمدُّ يدَهُ إلى الطعامِ كأنَّهُ يأكلُ ولا يأكلُ ، حتَّىٰ أكلَ الضيفُ الطعامَ ، فلمَّا أصبحَ . . قالَ لهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لقدْ عجبَ اللهُ عزَّ وجلَّ مِنْ صنيعِكُمُ الليلةَ إلىٰ ضيفِكُمْ » ، ونزلَتْ : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾[2] .

فالسخاءُ خُلقٌ مِنْ أخلاقِ اللهِ تعالىٰ[3] ، والإيثارُ أعلىٰ درجاتِ السخاءِ ،

= عنهما المتقدمة في اشتهائه السمكة الخركوشيُّ في « تهذيب الأسرار » (ص٤٤٧) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣١/ ١٤٢) ، وسياق المصنف عنده .

(١) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٤٤٩) ، وعند البخاري (٥٣٧٤) ، ومسلم (٥٤١٦) من حديثها رضي الله عنها : (ما شبع آل محمد صلى الله عليه وسلم منذ قدم المدينة من طعام البرِّ ثلاث ليال تباعاً حتىٰ قبض) ، وللبيهقي في « الشعب » (١٣٩٦) بسنده عن بشر عنها : (لو شئنا أن نشبع . . شبعنا ، ولكن محمداً صلى الله عليه وسلم كان يؤثر علىٰ نفسه) ، وتقدم بعضه .

(٢) كذا عند الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٤٤٩) ، ورواه البخاري (٣٧٩٨) ، ومسلم (٢٠٥٤) .

(٣) روىٰ أبو نعيم في « تاريخ أصبهان » (١/ ١٧٨) من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنه مرفوعاً : « السخاء خلق الله الأعظم » .

وكانَ ذلكَ مِنْ دأْبِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، حتَّىٰ سمَّاه اللهُ تعالىٰ عظيماً ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[1] .

وقالَ سهلُ بنُ عبدِ اللهِ التستريُّ : قالَ موسىٰ عليهِ السلامُ : يا ربِّ ؛ أرني بعضَ درجاتِ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وأمتِهِ ، وقالَ : يا موسىٰ ؛ إنَّكَ لن تطيقَ ذلكَ ، ولكنْ أريكَ منزلةً مِنْ منازلِهِ جليلةً عظيمةً ، فضَّلتُهُ بها عليكَ وعلىٰ جميعِ خلقي ، قالَ : فكشفَ لهُ عنْ ملكوتِ السماءِ ، فنظرَ إلىٰ منزلةٍ كادَتْ تتلفُ نفسُهُ مِنْ أنوارِها وقربِها مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فقالَ : يا ربِّ ؛ بماذا بلغتَ بهِ إلىٰ هـٰذه الكرامةِ ؟ قالَ : بخُلُقٍ اختصصتُهُ بهِ مِنْ بينِهِمْ ، وهوَ الإيثارُ ، يا موسىٰ ؛ لا يأتيني أحدٌ مِنْهُمْ قدْ عملَ بهِ وقتاً مِنْ عمُرِهِ إلا استحييتُ مِنْ محاسبتِهِ ، وبوَّأتُهُ مِنْ جنَّتي حيثُ يشاءُ[2] .

وقيلَ : خرجَ عبدُ اللهِ بنُ جعفرٍ إلىٰ ضيعةٍ لهُ ، فنزلَ علىٰ نخيلِ قومٍ وفيها غلامٌ أسودُ يعملُ فيها ؛ إذْ أتى الغلامُ بقوتِهِ ، ودخلَ الحائطَ كلبٌ ودنا مِنَ الغلامِ ، فرمىٰ إليهِ الغلامُ بقرصٍ فأكلَهُ ، ثمَّ رمىٰ إليهِ بالثاني والثالثِ فأكلَهُ ، وعبدُ اللهِ ينظرُ إليهِ ، فقالَ : يا غلامُ ؛ كمْ قوتُكَ كلَّ يومٍ ؟ قالَ : ما رأيتَ ، قالَ : فلِمَ آثرتَ بهِ هـٰذا الكلبَ ؟ قالَ : ما هيَ بأرضِ كلابٍ ، إنَّهُ جاءَ مِنْ مسافةٍ بعيدةٍ جائعاً ، فكرهتُ ردَّهُ ، قالَ : فما أنتَ صانعٌ اليومَ ؟ قالَ : أطوي يومي هـٰذا ، فقالَ عبدُ اللهِ بنُ جعفرٍ : ألامُ على السخاءِ ؟! إنَّ

---

(١) كذا عند الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٤٥٢) نقلاً عن الجنيد .

(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٤٥٤) .

هـٰذا لأسخىٰ منِّي ، فاشترى الحائطَ والغلامَ وما فيهِ مِنَ الآلاتِ ، فأعتقَ الغلامَ ، ووهبَهُ منهُ[1] .

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : أُهديَ إلىٰ رجلٍ مِنْ أصحابِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ رأسُ شاةٍ ، فقالَ : إنَّ أخي فلاناً أحوجُ منِّي إليهِ ، فبعثَ بهِ إليهِ ، فلمْ يزلْ يبعثُ بهِ الواحدُ إلىٰ آخرَ حتَّىٰ تداولَهُ سبعةُ أبياتٍ ، حتَّىٰ رجعَ إلى الأولِ[2] .

وباتَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ علىٰ فراشِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ جبريلَ وميكائيلَ عليهِما السلامُ : إنِّي آخيتُ بينَكُما ، وجعلتُ عمرَ أحدِكما أطولَ مِنَ عمرِ الآخرِ ، فأيُّكُما يؤثِرُ صاحبَهُ بالحياةِ ، فاختارا كلاهما الحياةَ ؟ فأوحى اللهُ عزَّ وجلَّ إليهِما : أفلا كنتُما مثلَ عليِّ بنِ أبي طالبٍ؟! آخيتُ بينَهُ وبينَ نبيِّي محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فباتَ علىٰ فراشِهِ يفديهِ بنفسِهِ ، ويؤثِرُهُ بالحياةِ ، اهبطا إلى الأرضِ فاحفظاهُ مِنْ عدوِّهِ ، فكانَ جبريلُ عليهِ السلامُ عندَ رأسِهِ وميكائيلُ عندَ رجليهِ، وجبريلُ عليهِ السلامُ يقولُ : بخٍ بخٍ ، مَنْ مِثلُكَ يا بنَ أبي طالبٍ يباهي اللهُ بكَ الملائكةَ ؟! فأنزلَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾[3] .

---

(١) الرسالة القشيرية (ص٤٢١) .

(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » (٢/ ١٨٤) عن ابن عمر رضي الله عنهما ، والبيهقي في « الشعب » (٣٢٠٤) .

(٣) كذا هو عند الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٤٥٠) ، والثعلبي في « تفسيره » (٢/ ١٢٥) .

وعنْ أبي الحسنِ الأنطاكيِّ أنَّهُ اجتمعَ عندَهُ نيّفٌ وثلاثونَ نفساً ، وكانوا في قريةٍ بقربِ الرَّيِّ ، ولهُمْ أرغفةٌ معدودةٌ لم تشبعْ جميعَهُمْ ، فكسروا الرُّغفانَ وأطفؤوا السراجَ ، وجلسوا للطعامِ ، فلمَّا رُفِعَ .. فإذا الطعامُ بحالِهِ ، ولمْ يأكلْ واحدٌ منهُمْ شيئاً ؛ إيثاراً لصاحبِهِ علىٰ نفسِهِ[1] .

ورُوِيَ أنَّ شعبةَ جاءَهُ سائلٌ ولمْ يكنْ عندَهُ شيءٌ ، فنزعَ خشبةً منْ سقفِ بيتِهِ فأعطاهُ ، ثمَّ اعتذرَ إليهِ[2] .

وقالَ حذيفةُ العدويُّ : انطلقتُ يومَ اليرموكِ أطلبُ ابنَ عمٍّ لي ، ومعي شيءٌ مِنْ ماءٍ ، وأنا أقولُ : إنْ كانَ بهِ رمقٌ .. سقيتُهُ ، ومسحتُ بهِ وجهَهُ ، فإذا أنا بهِ ، فقلتُ : أسقيكَ ؟ فأشارَ أيْ : نعمْ ، فإذا رجلٌ يقولُ : آهْ ، فأشارَ ابنُ عمِّي أنِ انطلقْ بهِ إليهِ ، قالَ : فأتيتُهُ ؛ فإذا هوَ هشامُ بنُ العاصِ ، فقلتُ : أسقيكَ ؟ فسمعَ آخرَ يقولُ : آهْ ، فأشارَ هشامٌ أنِ انطلقْ بهِ إليهِ ، فجئتُهُ ؛ فإذا هوَ قدْ ماتَ ، فرجعتُ إلىٰ هشامٍ ؛ فإذا هو قدْ ماتَ ، فرجعتُ إلى ابنِ عمِّي ؛ فإذا هوَ قدْ ماتَ ، رحمةُ اللهِ عليهِمْ أجمعينَ[3] .

وقالَ عباسُ بنُ دهقانَ : ما خرجَ أحدٌ مِنَ الدنيا كما دخلَها إلا بشرُ بنُ

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٤٤٨) .
(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٤٤٨) .
(٣) كذا هو عند الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٤٤٨) ، وقد رواه ابن المبارك في « الزهد » (٥٢٥) ، والبيهقي في « الشعب » (٣٢٠٨) .

الحارثِ ، فإنَّهُ أتاهُ رجلٌ في مرضِهِ فشكا إليهِ الحاجةَ ، فنزعَ قميصَهُ فأعطاهُ إيَّاهُ ، واستعارَ ثوباً فماتَ فيهِ[١] .

وعنْ بعضِ الصوفيةِ قالَ : كنَّا بطرسوسَ ، فاجتمعنا جماعةً ، وخرجنا إلىٰ بابِ الجهادِ ، فتبعَنا كلبٌ مِنَ البلدِ ، فلمَّا بلغنا بابَ الجهادِ . . إذا نحنُ بدابةٍ ميتةٍ فصعدنا إلىٰ موضعٍ خالٍ وقعدنا ، فلمَّا نظرَ الكلبُ إلى الميتةِ . . رجعَ إلى البلدِ ، ثمَّ عاد بعدَ ساعةٍ ومعَهُ مقدارُ عشرينَ كلباً ، فجاءَ إلىٰ تلكَ الميتةِ وقعدَ ناحيةً ووقعَتِ الكلابُ في الميتةِ ، فما زالَتْ تأكلُها ، وذلكَ الكلبُ قاعدٌ ينظرُ إليها حتَّىٰ أكلَتِ الميتةَ وبقيَتِ العظامُ ، ورجعَتِ الكلابُ إلى البلدِ ، فقامَ ذلكَ الكلبُ وجاءَ إلىٰ تلكَ العظامِ فأكلَ ما بقيَ عليها قليلاً ، ثمَّ انصرفَ[٢] .

وقد ذكرنا جملةً مِنْ أخبارِ الإيثارِ وأحوالِ الأولياءِ في كتابِ الفقرِ والزهدِ ، فلا حاجةَ إلى الإعادةِ هـٰهنا ، وباللهِ التوفيقُ ، وعليهِ التوكُّلُ فيما يرضيهِ عزَّ وجلَّ .

* * *

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٤٥١) وفيه : (عياش) بدل (عباس) وهو موافق لما في (ب) .
(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٤٥٤) .

بيان حد السخاء والبخل وحقيقتهما

لعلكَ تقولُ : قدْ عُرِفَ بشواهدِ الشرعِ أنَّ البخلَ مِنَ المهلكاتِ ، ولكنْ ما حدُّ البخلِ ؟ وبماذا يصيرُ الإنسانُ بخيلاً ؟

وما مِنْ إنسانٍ إلا وهوَ يرىٰ نفسَهُ سخياً ، وربَّما يراهُ غيرُهُ بخيلاً ، وقدْ يصدرُ فعلٌ مِنْ إنسانٍ ، فيختلفُ فيهِ الناسُ ؛ فيقولُ قومٌ : هـٰذا بخلٌ ، ويقولُ آخرونَ : ليسَ هـٰذا مِنَ البخلِ ، وما مِنْ إنسانٍ إلا ويجدُ في نفسِهِ حبّاً للمالِ ، ولأجلِهِ يحفظُ المالَ ويمسكُهُ ، فإنْ كانَ يصيرُ بإمساكِ المالِ بخيلاً . . فإذاً لا ينفكُّ أحدٌ عنِ البخلِ ، وإذا كانَ الإمساكُ مطلقاً لا يوجبُ البخلَ ولا معنىً للبخلِ إلا الإمساكُ . . فما البخلُ الذي يوجبُ الهلاكَ ؟

وما حدُّ السخاءِ الذي يستحقُّ بهِ العبدُ صفةَ السخاوةِ وثوابَها ؟

فنقولُ : قدْ قالَ قائلونَ : حدُّ البخلِ : منعُ الواجبِ ؛ فكلُّ مَنْ أدَّىٰ ما يجبُ عليهِ . . فليسَ ببخيلٍ ، وهـٰذا غيرُ كافٍ ، فإنَّ مَنْ يردُّ اللحمَ مثلاً إلى القصابِ والخبزَ إلى الخبازِ بنقصانِ حبةٍ أوْ نصفِ حبةٍ . . فإنَّهُ يُعدُّ بخيلاً بالاتفاقِ ، وكذلكَ مَنْ يسلِّمُ إلىٰ عيالِهِ القدْرَ الذي يفرضُهُ القاضي ، ثمَّ يضايقُهُمْ في لقمةٍ زادوا عليهِ أوْ تمرةٍ أكلوها مِنْ مالِهِ . . يُعدُّ بخيلاً ، ومَنْ كانَ بينَ يديهِ رغيفٌ ، فحضرَ مَنْ يظنُّ أنَّهُ يأكلُ معَهُ ، فأخفاهُ . . عُدَّ بخيلاً .

وقالَ قائلونَ : البخيلُ هوَ الذي يستصعبُ العطيةَ ، وهوَ أيضاً قاصرٌ ، فإنَّهُ إنْ أُريدَ بهِ أنَّهُ يستصعبُ كلَّ عطيةٍ . . فكمْ مِنْ بخيلٍ لا يستصعبُ العطيةَ القليلةَ ؛ كالحبةِ وما يقربُ منها ، ويستصعبُ ما فوقَ ذلكَ ، وإنْ أُريدَ بهِ أنَّهُ يستصعبُ بعضَ العطايا . . فما مِنْ جوادٍ إلا وقدْ يستصعبُ بعضَ العطايا ، وهوَ ما يستغرقُ جميعَ مالِهِ ، أوِ المالَ العظيمَ ، وهـٰذا لا يوجبُ الحكمَ بالبخلِ .

وكذلكَ تكلَّموا في الجودِ ، فقيلَ : الجودُ عطاءٌ بلا مَنٍّ ، وإسعافٌ مِنْ غيرِ رويَّةٍ .

وقيلَ : الجودُ عطاءٌ مِنْ غيرِ مسألةٍ علىٰ رؤيةِ التقليلِ .

وقيلَ : الجودُ السرورُ بالسائلِ ، والفرحُ بالعطاءِ لما أمكنَ .

وقيلَ : الجودُ عطاءٌ علىٰ رؤيةِ أنَّ المالَ للهِ تعالىٰ والعبدَ للهِ تعالىٰ ، فيعطي عبدَ اللهِ مالَ اللهِ علىٰ غيرِ رؤيةِ الفقرِ .

وقيلَ : مَنْ أعطى البعضَ وأبقى البعضَ . . فهوَ صاحبُ سخاءٍ ، ومَنْ بذلَ الأكثرَ وأبقىٰ لنفسِهِ شيئاً . . فهوَ صاحبُ جودٍ ، ومن قاسى الضرَّ وآثرَ غيرَهُ بالبلغةِ . . فهو صاحبُ إيثارٍ ، ومَنْ لمْ يبذلْ شيئاً . . فهوَ صاحبُ بخلٍ .

* * *

وجملةُ هـٰذهِ الكلماتِ غيرُ محيطةٍ بحقيقةِ البخلِ والجودِ ، بلْ نقولُ :

المالُ خُلِقَ لحكمةٍ ومقصودٍ ، وهوَ صلاحُهُ لحاجاتِ الخلقِ ، ويمكنُ إمساكُهُ عنِ الصرفِ إلىٰ ما خُلِقَ للصرفِ إليهِ ، ويمكنُ بذلُهُ بالصرفِ إلىٰ ما لا يحسنُ الصرفُ إليهِ ، ويمكنُ التصرفُ فيهِ بالعدلِ ، وهوَ أنْ يُحفظَ حيثُ يجبُ الحفظُ ، ويُبذلَ حيثُ يجبُ البذلُ ، فالإمساكُ حيثُ يجبُ البذلُ بخلٌ ، والبذلُ حيثُ يجبُ الإمساكُ تبذيرٌ ، وبينَهُما وسطٌ هوَ المحمودُ ، وينبغي أنْ يكونَ السخاءُ والجودُ عبارةً عنهُ ؛ إذْ لمْ يُؤمَرْ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلا بالسخاءِ ، وقدْ قيلَ لهُ : ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ .

فالجودُ وسطٌ بينَ الإسرافِ والإقتارِ ، وبين البسطِ والقبضِ ، وهوَ أنْ يُقدِّرَ بذلَهُ وإمساكَهُ بقدْرِ الواجبِ ، ولا يكفي أنْ يفعلَ ذلكَ بجوارحِهِ ما لمْ يكنْ قلبُهُ طيباً بهِ غيرَ منازعٍ لهُ فيهِ ، فإنْ بذلَ في محلِّ وجوبِ البذلِ ونفسُهُ تنازعُهُ وهوَ يصابرُها . . فهوَ متسخٍّ وليس بسخيٍّ ، بلْ ينبغي ألا يكونَ لقلبِهِ علاقةٌ معَ المالِ إلا مِنْ حيثُ يُرادُ المالُ لهُ ، وهوَ صرفُهُ إلىٰ ما يجبُ صرفُهُ إليهِ .

* * *

فإنْ قلتَ : فقدْ صارَ هٰذا موقوفاً علىٰ معرفةِ الواجبِ ، فما الذي يجبُ بذلُهُ ؟

فأقولُ : إنَّ الواجبَ قسمانِ ؛ واجبٌ بالشرعِ ، وواجبٌ بالمروءةِ والعادةِ ، والسخيُّ هوَ الذي لا يمنعُ واجبَ الشرعِ ولا واجبَ المروءةِ ، فإن منعَ

واحداً منهما . . فهوَ بخيلٌ ، ولكنَّ الذي يمنعُ واجبَ الشرعِ أبخلُ ؛ كالذي يمنعُ أداءَ الزكاةِ ، ويمنعُ عيالَهُ وأهلَهُ النفقةَ ، أوْ يؤدِّيها ولكنْ يشقُّ عليهِ ، فإنَّهُ بخيلٌ بالطبعِ ، وإنَّما يتسخَّىٰ بالتكلُّفِ ، أوْ كالذي يتيمَّمُ الخبيثَ مِنْ مالِهِ ولا يطيبُ لهُ أنْ يعطيَ مِنْ أطيبِ مالِهِ ، أوْ مِنْ وسطِهِ ؛ فهـٰذا كلُّهُ بخلٌ .

وأمَّا واجبُ المروءةِ . . فهوَ تركُ المضايقةِ والاستقصاءِ في المحقَّراتِ ، فإنَّ ذلكَ مستقبحٌ ، واستقباحُ ذلكَ يختلفُ بالأحوالِ والأشخاصِ ، فمَنْ كَثُرَ مالُهُ . . يُستقبحُ منهُ ما لا يُستقبحُ مِنَ الفقيرِ مِنَ المضايقةِ ، ويُستقبحُ مِنَ الرجلِ المضايقةُ معَ أهلِهِ وأقاربِهِ ومماليكِهِ ما لا يُستقبحُ معَ الأجانبِ ، ويُستقبحُ معَ الجارِ ما لا يُستقبحُ معَ البعيدِ ، ويُستقبحُ في الضيافةِ مِنَ المضايقةِ ما لا يُستقبحُ أكثرُ منهُ[1] في المبايعةِ والمعاملةِ ، فيختلفُ ذلكَ بما فيهِ مِنَ المضايقةِ في ضيافةٍ أوْ معاملةٍ ، وبما بهِ المضايقةُ مِنْ طعامٍ أوْ ثوبٍ ؛ إذْ يُستقبحُ في الأطعمةِ ما لا يُستقبحُ في غيرِها ، ويُستقبحُ في شراءِ الكفنِ مثلاً أوْ شراءِ الأضحيةِ أوْ شراءِ خبزِ الصدقةِ ما لا يُستقبحُ في غيرِهِ مِنَ المضايقةِ ، وكذلكَ يختلفُ بمَنْ معَهُ المضايقةُ ؛ مِنْ صديقٍ ، أوْ أخٍ ، أوْ قريبٍ ، أوْ زوجةٍ ، أو ولدٍ ، أوْ أجنبيٍّ ، وكذلكَ يختلفُ بمَنْ منهُ المضايقةُ ؛ مِنْ صبيٍّ وامرأةٍ ، وشيخٍ وشابٍّ ، وعالمٍ وجاهلٍ ، وموسرٍ وفقيرٍ .

فالبخيلُ : هوَ الذي يمنعُ حيثُ ينبغي ألاَّ يمنعَ ؛ إمَّا بحكمِ الشرعِ ، وإمَّا

---

(١) في (أ ، ب ، د) : (أقل منه) بدل (أكثر منه) .

بحكمِ المروءةِ ، وذلكَ لا يمكنُ التنصيصُ علىٰ مقدارِهِ .

ولعلَّ حدَّ البخلِ : هوَ إمساكُ المالِ عنْ غرضٍ ، ذلكَ الغرضُ هوَ أهمُّ مِنْ حفظِ المالِ ؛ فإنَّ صيانةَ الدينِ أهمُّ مِنْ حفظِ المالِ ، فمانعُ الزكاةِ والنفقةِ بخيلٌ ، وصيانةُ المروءةِ أهمُّ مِنْ حفظِ المالِ ، والمضايقُ في الدقائقِ معَ مَنْ لا تحسنُ المضايقةُ معَهُ هاتكٌ سترَ المروءةِ لحبِّ المالِ ؛ فهوَ بخيلٌ .

وتبقىٰ درجةٌ أخرىٰ ، وهوَ أنْ يكونَ الرجلُ ممَّنْ يؤدي الواجبَ ، ويحفظُ المروءةَ ، ولكنْ معَهُ مالٌ كثيرٌ قدْ جمعَهُ ليسَ يصرفُهُ إلى الصدقاتِ وإلى المحتاجينَ ، فقدْ تقابلَ غرضُ حفظِ المالِ ليكونَ لهُ عُدَّةً علىٰ نوائبِ الزمانِ وغرضُ الثوابِ ليكونَ رافعاً لدرجاتِهِ في الآخرةِ ، فإمساكُ المالِ عنْ هٰذا الغرضِ بخلٌ عندَ الأكياسِ ، وليسَ ببخلٍ عندَ عوامِّ الخلقِ ؛ وذلكَ لأنَّ نظرَ العوامِّ كالمقصورِ علىٰ حظوظِ الدنيا ، فيرونَ إمساكَهُ لدفعِ نوائبِ الزمانِ مهمّاً ، وربَّما يظهرُ عندَ العوامِّ أيضاً سمةُ البخلِ عليهِ إنْ كانَ في جوارِهِ محتاجٌ ، فمنعَهُ وقالَ : (قدْ أديتُ الزكاةَ الواجبةَ ، وليسَ عليَّ غيرُها) ، ويختلفُ استقباحُ ذلكَ باختلافِ مقدارِ مالِهِ ، وباختلافِ شدَّةِ حاجةِ المحتاجِ وصلاحِهِ ودينِهِ واستحقاقِهِ ، فمَنْ أدَّىٰ واجبَ الشرعِ وواجبَ المروءةِ اللائقةِ بهِ . . فقدْ تبرَّأَ مِنَ البخلِ .

نعمْ ، لا يتصفُ بصفةِ الجودِ والسخاءِ ما لمْ يبذلْ زيادةً علىٰ ذلكَ لطلبِ الفضيلةِ ونيلِ الدرجاتِ ، فإذا اتسعَتْ نفسُهُ لبذلِ المالِ حيثُ لا يوجبُهُ الشرعُ

ولا تتوجَّهُ إليهِ الملامةُ في العادةِ . . فهوَ جوادٌ بقدْرِ ما تتسعُ لهُ نفسُهُ مِنْ قليلٍ أوْ كثيرٍ ، ودرجاتُ ذلكَ لا تنحصرُ ، وبعضُ الناسِ أجودُ مِنْ بعضٍ .

واصطناعُ المعروفِ وراءَ ما توجبُهُ العادةُ والمروءةُ هوَ الجودُ ، ولكنْ بشرطِ أنْ يكونَ عنْ طيبِ نفسٍ ، ولا يكونَ عنْ طمعٍ ، ورجاءِ خدمةٍ أوْ مكافأةٍ ، أوْ شكرٍ أوْ ثناءٍ ، فإنَّ مَنْ طمعَ في الشكرِ والثناءِ . . فهوَ بياعٌ وليسَ بجوادٍ ، فإنَّهُ يشتري المدحَ بمالِهِ ، والمدحُ لذيذٌ ، وهوَ مقصودٌ في نفسِهِ ، والجودُ هوَ بذلُ الشيءِ مِنْ غيرِ عوضٍ ، هـٰذا هوَ الحقيقةُ[1] ، ولا يُتصوَّرُ ذلكَ إلا مِنَ اللهِ تعالىٰ .

فأمَّا الآدميُّ . . فاسمُ الجودِ عليهِ مجازٌ ؛ إذْ لا يبذلُ الشيءَ إلا لغرضٍ ، ولكنَّهُ إذا لمْ يكنْ غرضُهُ إلا الثوابَ في الآخرةِ أوِ اكتسابَ فضيلةِ الجودِ ، وتطهيرَ النفسِ عنْ رذالةِ البخلِ . . فيُسمَّىٰ جواداً ، فإنْ كانَ الباعثُ عليهِ الخوفَ مِنَ الهجاءِ مثلاً ، أوْ مِنْ ملامةِ الخَلْقِ ، أوْ ما يتوقَّعُهُ مِنْ نفعٍ ينالُهُ مِنَ المنعَمِ عليهِ . . فكلُّ ذلكَ ليسَ مِنَ الجودِ ؛ لأنَّهُ مضطرٌّ إليهِ بهـٰذهِ البواعثِ ، وهيَ أعواضٌ معجَّلةٌ لهُ عليهِ ، فهوَ معتاضٌ لا جوادٌ ، كما رُوِيَ عنْ بعضِ المتعبِّداتِ أنَّها وقفَتْ علىٰ حبَّانَ بنِ هلالٍ وهوَ جالسٌ معَ أصحابِهِ ، فقالَتْ : هلْ فيكُمْ مَنْ أسألُهُ عنْ مسألةٍ ؟ فقالوا لها : سلي عمَّا شئتِ ، وأشاروا إلىٰ حبَّانَ بنِ هلالٍ ، فقالَتْ : ما السخاءُ عندَكُمْ ؟ قالوا : العطاءُ ،

---

(١) أي : الحقيقة اللغوية . « إتحاف » (٨/٢٠٦) .

والبذلُ ، والإيثارُ ، قالَتْ : هـٰذا السخاءُ في الدنيا ، فما السخاءُ في الدينِ ؟ قالوا : أنْ نعبدَ اللهَ سبحانَهُ سخيةً بها أنفسُنا غيرَ مكرهةٍ ، قالَتْ : فتريدونَ علىٰ ذلكَ أجراً ؟ قالوا : نعمْ ، قالَتْ : ولِمَ ؟ قالوا : لأنَّ اللهَ تعالىٰ وعدَنا بالحسنةِ عشرَ أمثالِها ، قالَتْ : سبحانَ اللهِ ! فإذا أعطيتُمْ واحدةً وأخذتُمْ عشرةً . . فبأيِّ شيءٍ تسخيتُمْ عليهِ ؟!

قالوا لها : فما السخاءُ عندَكِ يرحمُكِ اللهُ ؟ قالَتِ : السخاءُ عندي : أن تعبدوا اللهَ تعالىٰ متنعِّمينَ متلذِّذينَ بطاعتِهِ ، غيرَ كارهينَ ، لا تريدونَ علىٰ ذلكَ أجراً حتَّىٰ يكونَ مولاكُمْ يفعلُ بكُمْ ما يشاءُ ، ألا تستحيونَ مِنَ اللهِ أنْ يطَّلعَ علىٰ قلوبِكُمْ فيعلمَ مِنْها أنَّكُمْ تريدونَ شيئاً بشيءٍ ؟! إنَّ هـٰذا في الدنيا لقبيحٌ .

وقالَتْ بعضُ المتعبِّداتِ : أتحسبونَ أنَّ السخاءَ في الدرهمِ والدينارِ فقطْ ؟ قيلَ : ففيمَ ؟ قالَتِ : السخاءُ عندي في المهَجِ .

وقالَ المحاسبيُّ : (السخاءُ في الدينِ : أن تسخوَ نفسُكَ بتلفِهَا للهِ عزَّ وجلَّ ، ويسخوَ قلبُكَ ببذلِ مهجتِكَ وإهراقِ دمِكَ للهِ تعالىٰ بسماحةٍ مِنْ غيرِ إكراهٍ ، لا تريدُ بذلكَ ثواباً عاجلاً ولا آجلاً ، وإنْ كنتَ غيرَ مستغنٍ عنِ الثوابِ ، ولكنْ يغلبُ علىٰ قلبِكَ حسنُ كمالِ السخاءِ ، بتركِ الاختيارِ على اللهِ تعالىٰ ، حتَّىٰ يكونَ مولاكَ هوَ الذي يفعلُ بكَ ما لا تحسنُ اختيارَهُ لنفسِكَ) .

* * *

بيان علاج البخل

اعلمْ : أنَّ البخلَ سببُهُ حبُّ المالِ .

ولحبِّ المالِ سببانِ :

أحدُهُما : حبُّ الشهواتِ التي لا وصولَ إليها إلا بالمالِ معَ طولِ الأملِ ، فإنَّ الإنسانَ لوْ علمَ أنَّهُ يموتُ بعدَ يومٍ . . ربَّما كانَ لا يبخلُ بمالِهِ ؛ إذِ القدْرُ الذي يحتاجُ إليهِ في يومٍ أو في شهرٍ أوْ في سنةٍ قريبٌ ، وإنْ كانَ قصيرَ الأملِ ولكنْ كانَ لهُ أولادٌ . . قامَ الولدُ مقامَ طولِ الأملِ ، فإنَّهُ يقدِّرُ بقاءَهُمْ كبقاءِ نفسِهِ ، فيمسكُ لأجلِهِمْ ؛ ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الولدُ مبخلةٌ مجبنةٌ مجهلةٌ »(١) ، فإذا انضافَ إلىٰ ذلكَ خوفُ الفقرِ وقلَّةُ الثقةِ بمجيءِ الرزقِ . . قويَ البخلُ لا محالةَ .

السببُ الثاني : أنْ يحبَّ عينَ المالِ ، فمِنَ الناسِ مَنْ معَهُ ما يكفيهِ لبقيةِ عمرِهِ إذا اقتصرَ علىٰ ما جرتْ بهِ عادتُهُ بنفقتِهِ وتفضلُ آلافٌ ، وهوَ شيخٌ لا ولدَ لهُ ، ومعَهُ أموالٌ كثيرةٌ ، ولا تسمحُ نفسُهُ بإخراجِ الزكاةِ ، ولا بمداواةِ نفسِهِ عندَ المرضِ ، بل صارَ محبّاً للدنانيرِ عاشقاً لها ، يلتذُّ بوجودِها في يدِهِ وبقدرتِهِ عليها ، فيكنزُها تحتَ الأرضِ ، وهوَ يعلمُ أنَّهُ

---

(١) رواه ابن ماجه (٣٦٦٦) وليس فيه : (مجهلة) ، وهي عند عبد الرزاق في « المصنف » (١١/١٤٠) ، والطبراني في « الكبير » (٢٤/٢٤١) ، والحاكم في « المستدرك » (٣/٢٩٦) .

يموتُ فتضيعُ أوْ يأخذُها أعداؤُهُ ، ومعَ هـٰذا فلا تسمحُ نفسُهُ بأنْ يأكلَ أوْ يتصدَّقَ مِنْها بحبةٍ واحدةٍ !

وهـٰذا مرضٌ للقلبِ عظيمٌ عسيرُ العلاجِ ، لا سيما في كبرِ السنِّ ، وهوَ مرضٌ مزمنٌ لا يُرجىٰ علاجُهُ ، ومثالُ صاحبِهِ مثالُ رجلٍ عشقَ شخصاً ، فأحبَّ رسولَهُ لنفسِهِ ، ثمَّ نسيَ محبوبَهُ واشتغلَ برسولِهِ ، فإنَّ الدنانيرَ رسولٌ مبلِّغٌ إلى الحاجاتِ ، فصارَتْ محبوبةً لذلكَ ؛ لأنَّ الموصلَ إلى اللذيذِ لذيذٌ ، ثمَّ قدْ ينسى الحاجاتِ ، ويصيرُ الذهبُ عندَهُ كأنَّهُ محبوبٌ في نفسِهِ ، وهوَ غايةُ الضلالِ ، بلْ مَنْ رأىٰ بينَهُ وبينَ الحجرِ فرقاً . . فهوَ لجهلِهِ ، إلا مِنْ حيثُ قضاءُ حاجتِهِ بهِ ، فالفاضلُ عنْ قدْرِ حاجتِهِ والحجرُ بمثابةٍ واحدةٍ .

* * *

فهـٰذهِ أسبابُ حبِّ المالِ ، وإنَّما علاجُ كلِّ علَّةٍ بمضادَّةِ سببِها ، فيعالجُ حبَّ الشهواتِ بالقناعةِ باليسيرِ ، وبالصبرِ ، ويعالجُ طولَ الأملِ بكثرةِ ذكرِ الموتِ ، والنظرِ في موتِ الأقرانِ ، وطولِ تعبِهِمْ في جمعِ المالِ ، وضياعِهِ بعدَهُمْ ، ويعالجُ التفاتَ القلبِ إلى الولدِ بأنَّ الذي خلقَهُ خلقَ معَهُ رزقَهُ ، وكمْ مِنْ ولدٍ لمْ يرثْ مِنْ أبيهِ شيئاً وحالُهُ أحسنُ ممَّنْ ورثَ ، وبأنْ يعلمَ أنَّهُ بجمعِ المالِ لولدِهِ يريدُ أن يتركَ ولدَهُ بخيرٍ وينقلبَ هوَ إلىٰ شرٍّ ، وأنَّ ولدَهُ إن كانَ تقياً صالحاً . . فيكفيهِ اللهُ ، وإنْ كانَ فاسقاً . . فيستعينُ بمالِهِ على المعصيةِ ، وترجعُ مظلمتُهُ إليهِ .

ويعالجُ أيضاً قلبَهُ بكثرةِ التأمُّلِ في الأخبارِ الواردةِ في ذمِّ البخلِ ومدحِ السخاءِ ، وما توعَّدَ اللهُ بهِ على البخلِ مِنَ العقابِ العظيمِ .

ومِنَ الأدويةِ النافعةِ : كثرةُ التأمُّلِ في أحوالِ البخلاءِ ، ونفرةِ الطبعِ عنهُمْ ، واستقباحِهِ لهمْ ، فإنَّهُ ما مِنْ بخيلٍ إلا ويستقبحُ البخلَ مِنْ غيرِهِ ، ويستثقلُ كلَّ بخيلٍ مِنْ أصحابِهِ ، فيعلمُ أنَّهُ مستثقلٌ ومستقذرٌ في قلوبِ الناسِ مثلُ سائرِ البخلاءِ في قلبِهِ .

ويعالجُ أيضاً قلبَهُ بأنْ يتفكَّرَ في مقاصدِ المالِ ؛ وأنَّهُ لماذا خُلقَ ، فلا يحفظُ مِنَ المالِ إلا قدْرَ حاجتِهِ ، والباقي يدخرُهُ لنفسِهِ ؛ بأنْ يحصلَ لهُ ثوابُ بذلِهِ .

فهٰذهِ الأدويةُ مِنْ جهةِ المعرفةِ والعلمِ ، فإذا عرفَ بنورِ البصيرةِ أنَّ البذلَ خيرٌ لهُ مِنَ الإمساكِ في الدنيا والآخرةِ . . هاجَتْ رغبتُهُ في البذلِ إنْ كانَ عاقلاً ، فإذا تحرَّكَتِ الداعيةُ . . فينبغي أن يجيبَ الخاطرَ الأولَ ولا يتوقفَ ؛ فإنَّ الشيطانَ يعدُهُ الفقرَ ويخوِّفُهُ ويصدُّهُ عنهُ .

وكانَ أبو الحسنِ البُوشَنْجيُّ ذاتَ يومٍ في الخلاءِ ، فدعا تلميذاً لهُ ، وقالَ : انزعْ عنِّي القميصَ وادفعْهُ إلىٰ فلانٍ ، فقالَ : هلاَّ صبرتَ حتَّىٰ تخرجَ ؟ قالَ : لمْ آمنْ علىٰ نفسِي أن تتغيَّرَ ، وكانَ قدْ خطرَ لي بذلُهُ[1] .

ولا تزولُ صفةُ البخلِ إلا بالبذلِ تكلُّفاً ؛ كما لا يزولُ العشقُ إلا بمفارقةِ

(1) رواه القشيري في « رسالته » (ص٤٢٠) .

المعشوقِ بالسفرِ عنْ مستقرِّهِ حتىٰ إذا سافرَ وفارقَ تكلفاً ، وصبرَ عنهُ مدَّةً . . تسلَّىٰ عنْهُ قلبُهُ ، فكذلكَ الذي يريدُ علاجَ البخلِ ينبغي أنْ يفارقَ المالَ تكلُّفاً بأنْ يبذلَهُ .

بلْ لوْ رماهُ في الماءِ . . كانَ أولىٰ بهِ مِنْ إمساكِهِ إيَّاهُ معَ الحبِّ لهُ(١) .

ومِنْ لطائفِ الحيلِ فيهِ : أنْ يخدعَ نفسَهُ بحسنِ الاسمِ والاشتهارِ بالسخاءِ ، فيبذلَ علىٰ قصدِ الرياءِ ، حتَّىٰ تسمحَ نفسُهُ بالبذلِ طمعاً في حشمةِ الجودِ ، فيكونَ قدْ أزالَ عنْ نفسِهِ خبثَ البخلِ واكتسبَ لها خبثَ الرياءِ ولكنْ ينعطفُ بعدَ ذلكَ على الرياءِ ويزيلُهُ بعلاجِهِ ، ويكونُ طلبُ الاسمِ كالتسليةِ للنفسِ عندَ فطامِها عنِ المالِ ؛ كما يُسلَّى الصبيُّ عندَ الفطامِ عنِ الثديِ باللعبِ بالعصافيرِ وغيرِها لا ليخلَّىٰ واللعبَ ، ولكنْ ليُنقلَ عنِ الثديِ إليهِ ، ثمَّ يُنقلَ عنهُ إلىٰ غيرِهِ ، فكذلكَ هٰذهِ الصفاتُ الخبيثةُ ينبغي أنْ يُسلَّط بعضُها علىٰ بعضٍ ؛ كما تُسلَّطُ الشهوةُ على الغضبِ وتُكسرُ سورتُهُ بها ، ويُسلَّطُ الغضبُ على الشهوةِ وتُكسرُ رعونتُها بهِ ، إلا أنَّ هٰذا مفيدٌ في حقِّ مَنْ كانَ البخلُ أغلبَ عليهِ مِنْ حبِّ الجاهِ والرياءِ ؛ فيبدلُ الأقوىٰ بالأضعفِ ، فإن

(١) وقد تعجب ابن القيم من هٰذا الكلام ، وقال : إن الفقهاء كلَّهم يقولون : إن رمي المال في البحر لا يجوز .
والجواب : أن أهل الطريق مجتهدون في أحوالها ، وأن من قواعد أهل الشريعة ارتكاب أخف الضررين إذا تعارض معنا مفسدتان ، وقد تعارض هنا أمران : أحدهما مفسدة الدين ، فقدموه على المفسد للدنيا ، فافهم والله أعلم . « إتحاف » (١/ ٣٨) .

كانَ الجاهُ محبوباً عندَهُ كالمالِ . . فلا فائدةَ فيهِ ؛ فإنَّهُ يقطعُ علةً ويزيدُ في أخرىٰ مثلِها ، إلا أنَّ علامةَ ذلكَ ألا يثقلَ عليهِ البذلُ لأجلِ الرياءِ ، فبذلكَ يتبيَّنُ أنَّ الرياءَ أغلبُ عليهِ ، فإنْ كانَ البذلُ يشقُّ عليهِ معَ الرياءِ . . فينبغي أنْ يبذلَ ، فإنَّ ذلكَ يدلُّ علىٰ أنَّ مرضَ البخلِ أغلبُ علىٰ قلبِهِ .

ومثالُ دفعِ هـٰذهِ الصفاتِ بعضِها ببعضٍ : ما يُقالُ : إنَّ الميتَ تستحيلُ جميعُ أجزائِهِ دوداً ، ثمَّ يأكلُ بعضُ الديدانِ البعضَ حتَّىٰ يقلَّ عددُها ويكبرونَ ، ثمَّ يأكلُ بعضُها بعضاً حتَّىٰ ترجعَ إلى اثنتينِ قويَّتينِ عظيمتينِ ، ثمَّ لا تزالانِ تتقاتلانِ إلىٰ أنْ تغلبَ إحداهُما الأخرىٰ فتأكلَها وتسمنَ بها ، ثمَّ لا تزالُ وحدَها تبقىٰ جائعةً إلىٰ أنْ تموتَ ؛ فكذلكَ هـٰذهِ الصفاتُ الخبيثةُ يمكنُ أنْ يُسلَّطَ بعضُها علىٰ بعضٍ حتَّىٰ يقمعَها فيجعلَ الأضعفَ قوتاً للأقوىٰ ، إلىٰ ألا يبقىٰ إلا واحدةٌ ، ثمَّ تقعُ العنايةُ بمحوِها وإذابتِها بالمجاهدةِ ، وذلكَ بمنعِ القوتِ عنها .

ومنعُ القوتِ عنِ الصفاتِ ألا يُعملَ بمقتضاها ؛ فإنَّها تقتضي ـ لا محالةَ ـ أعمالاً ، فإذا خُولفَتْ . . خمدَتِ الصفاتُ وماتَتْ مثلَ البخلِ ؛ فإنَّهُ يقتضي إمساكَ المالِ ، فإذا مُنِعَ مقتضاهُ ، وبُذلَ المالُ معَ الجهدِ مرةً بعدَ أخرىٰ . . ماتَتْ صفةُ البخلِ ، وصارَ البذلُ طبعاً ، وسقطَ التعبُ فيهِ .

فإذاً ؛ علاجُ البخلِ بعلمٍ وعملٍ ؛ فالعلمُ يرجعُ إلىٰ معرفةِ آفةِ البخلِ وفائدةِ الجودِ ، والعملُ يرجعُ إلى البذلِ علىٰ سبيلِ التكلُّفِ ، ولكنْ قدْ

يقوى البخلُ ، بحيثُ يعمي ويصمُّ ، فيمنعُ تحقُّقَ المعرفةِ بآفاتِهِ ، وإذا لمْ تتحققِ المعرفةُ . . لمْ تتحرَّكِ الرغبةُ ، فلمْ يتيسَّرِ العملُ ، فتبقى العلةُ مزمنةً ؛ كالمرضِ الذي يمنعُ معرفةَ الدواءِ وإمكانَ استعمالِهِ ؛ فإنَّهُ لا حيلةَ فيهِ إلا الصبرُ إلى الموتِ .

وكانَ مِنْ عادةِ بعضِ شيوخِ الصوفيةِ في معالجةِ علَّةِ البخلِ في المريدينَ أنْ يمنعَهُمْ مِنَ الاختصاصِ بزواياهُمْ ، فكانَ إذا توسَّمَ في مريدٍ فرحَهُ بزاويتِهِ وما فيها . . نقلَهُ إلىٰ زاويةِ غيرِهِ ، ونقلَ زاويةَ غيرِهِ إليهِ ، وأخرجَهُ مِنْ جميعِ ما ملكَهُ ، وإذا رآهُ يلتفتُ إلىٰ ثوبٍ جديدٍ يلبسُهُ ، أوْ سجادةٍ يفرحُ بها . . يأمرُهُ بتسليمِها إلىٰ غيرِهِ ، ويلبسُهُ ثوباً خَلَقاً لا يميلُ إليهِ قلبُهُ ، فبهٰذا يتجافى القلبُ عنْ متاعِ الدنيا ، فمَنْ لمْ يسلُكْ هٰذا السبيلَ . . أنسَ بالدنيا وأحبَّها ، فإنْ كانَ لهُ ألفُ متاعٍ . . كانَ لهُ ألفُ محبوبٍ ، ولذلكَ إذا سُرِقَ كلُّ واحدٍ منهُ . . ألمَّتْ بهِ مصيبةٌ بقدْرِ حبِّهِ لهُ ، فإذا ماتَ . . نزلَتْ بهِ ألفُ مصيبةٍ دُفعةً واحدةً ؛ لأنَّهُ كانَ يحبُّ الكلَّ ، وقدْ سُلِبَ منهُ ، بلْ هوَ في حياتِهِ علىٰ خطرِ المصيبةِ بالفقرِ والهلاكِ .

حُمِلَ إلىٰ بعضِ الملوكِ قدحٌ مِنْ فيروزجٍ مرصَّعٍ بالجواهرِ لمْ يُرَ لهُ نظيرٌ ، ففرحَ الملكُ بهِ فرحاً شديداً ، فقالَ لبعضِ الحكماءِ عندَهُ : كيفَ ترىٰ هٰذا ؟ قالَ : أراهُ مصيبةً أوْ فقراً ، قالَ : كيفَ ؟ قالَ : إنْ كُسِرَ . . كانَ مصيبةً لا جبرَ لها ، وإنْ سُرِقَ . . صرتَ فقيراً إليهِ ولمْ تجدْ مثلَهُ ، وقدْ كنتَ قبلَ أنْ يُحمَلَ إليكَ في أمنٍ مِنَ المصيبةِ والفقرِ ، ثمَّ اتفقَ أنِ انكسرَ يوماً ،

فعظمَتْ مصيبةُ الملكِ عليهِ ، فقالَ : صدقَ الحكيمُ ، ليتهُ لمْ يُحمَلْ إلينا .

وهٰذا شأنُ جميعِ أسبابِ الدنيا ، فإنَّ الدنيا عدوَّةٌ لأعداءِ اللهِ ؛ إذْ تسوقُهُمْ إلى النارِ ، وعدوَّةٌ لأولياءِ اللهِ ؛ إذْ تغمُّهُمْ بالصبرِ عنها ، وعدوَّةُ اللهِ ؛ إذْ تقطعُ طريقَهُ علىٰ عبادِهِ ، وعدوَّةُ نفسِها ؛ فإنَّها تأكلُ نفسَها ؛ فإنَّ المالَ لا يُحفظُ إلا بالخزائنِ والحراسِ ، والخزائنُ والحراسُ لا يمكنُ تحصيلُها إلا بالمالِ ، وهوَ بذلُ الدراهمِ والدنانيرِ ، فالمالُ يأكلُ نفسَهُ ويضادُّ ذاتَهُ حتَّىٰ يفنىٰ ، ومَنْ عرفَ آفةَ المالِ .. لمْ يأنسْ بهِ ، ولمْ يفرحْ بهِ ، ولمْ يأخذْ منهُ إلا قدْرَ حاجتِهِ ، ومَنْ قنعَ بقدْرِ الحاجةِ .. لمْ يبخلْ ؛ لأنَّ ما أمسكَهُ لحاجتِهِ فليسَ ببخلٍ ، وما لا يحتاجُ إليهِ فلا يُتعِبُ نفسَهُ بحفظِهِ ، فيبذلُهُ ، بلْ هوَ كالماءِ علىٰ شاطئِ الدجلةِ ؛ إذْ لا يبخلُ بهِ أحدٌ ؛ لقناعةِ الناسِ منهُ بمقدارِ الحاجةِ .

* * *

بيان مجموع الوظائف التي على العبد في ماله

اعلمْ : أنَّ المالَ كما وصفناهُ ؛ خيرٌ مِنْ وجهٍ ، وشرٌّ مِنْ وجهٍ ، ومثالُهُ مثالُ حيَّةٍ يأخذُها الراقي ويستخرجُ مِنْها الترياقَ ، ويأخذُها الغافلُ فيقتلُهُ سمُّها مِن حيثُ لا يدري .

ولا يخلو أحدٌ عنْ سُمِّ المالِ إلا بالمحافظةِ علىٰ خمسِ وظائفَ :

الأولىٰ : أنْ يعرفَ مقصودَ المالِ ، وأنَّهُ لماذا خُلقَ ، وأنَّهُ لِمَ يحتاجُ إليهِ ؛ حتَّىٰ لا يكتسبَ ولا يحفظَ منهُ إلا قدْرَ الحاجةِ ، ولا يعطيَهُ مِنْ همَّتِهِ فوقَ ما يستحقُّهُ .

* * *

الثانيةُ : أنْ يراعيَ جهةَ دخلِ المالِ ، فيجتنبَ الحرامَ المحضَ ، وما الغالبُ عليهِ الحرامُ ؛ كمالِ السلاطينِ ، ويجتنبَ الجهاتِ المكروهةَ القادحةَ في المروءةِ ؛ كالهدايا التي فيها شوائبُ الرشوةِ ، وكالسؤالِ الذي فيهِ الذلُّ وهتكُ المروءةِ ، وما يجري مجراهُ .

* * *

الثالثةُ : في المقدارِ الذي يكتسبُهُ ، فلا يستكثرُ منهُ ولا يستقلُّ ، بلِ القدْرُ الواجبُ ، ومعيارُهُ الحاجةُ ، والحاجةُ ملبسٌ ومسكنٌ ومطعمٌ ، ولكلٍّ

واحدٍ ثلاثُ درجاتٍ ، أدنىٰ وأوسطُ وأعلىٰ ، وما دامَ مائلاً إلىٰ جانبِ القلَّةِ ومتقرِّباً مِنْ حدِّ الضرورةِ . . كانَ مخفّاً ، ويجيءُ مِنْ جملةِ المخفِّينَ ، وإنْ جاوزَ ذلكَ . . وقعَ في هاويةٍ لا آخرَ لعمقِها ، وقدْ ذكرنا تفصيلَ هٰذهِ الدرجاتِ في كتابِ الزهدِ .

* * *

الرابعةُ : أنْ يراعيَ جهةَ المخرجِ ، ويقتصدَ في الإنفاقِ ؛ غيرَ مبذِّرٍ ولا مقتِّرٍ ؛ كما ذكرناهُ ، فيضعُ ما اكتسبَهُ مِنْ حِلِّهِ في حقِّهِ ، ولا يضعُهُ في غيرِ حقِّهِ ، فإنَّ الإثمَ في الأخذِ مِنْ غيرِ حقِّهِ والوضعِ في غيرِ حقِّهِ سواءٌ .

* * *

الخامسةُ : أنْ يصلحَ نيَّتَهُ في الأخذِ والتركِ ، والإنفاقِ والإمساكِ ، فيأخذَ ما يأخذُ ليستعينَ بهِ على العبادةِ ، ويتركَ ما يتركُ زهداً فيهِ واستحقاراً لهُ ، فإذا فعلَ ذلكَ . . لمْ يضرَّهُ وجودُ المالِ .

ولذلكَ قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (لوْ أنَّ رجلاً أخذَ جميعَ ما في الأرضِ وأرادَ بهِ وجهَ اللهِ تعالىٰ . . فهوَ زاهدٌ ، ولوْ أنَّهُ تركَ الجميعَ ولمْ يردْ بهِ وجهَ اللهِ تعالىٰ . . فليسَ بزاهدٍ) .

* * *

فلتكنْ جميعُ حركاتِكَ وسكناتِكَ للهِ تعالىٰ مقصورةً علىٰ عبادةٍ ، أوْ ما يعينُ على العبادةِ ؛ فإنَّ أبعدَ الحركاتِ عنِ العبادةِ الأكلُ وقضاءُ الحاجةِ ،

وهما معينانِ على العبادةِ ، فإذا كانَ ذلكَ قصدَكَ بهما . . صارَ ذلكَ عبادةً في حقِّكَ ، وكذلكَ ينبغي أنْ تكونَ نيَّتُكَ في كلِّ ما تحفظُ ؛ مِنْ قميصٍ وإزارٍ وفراشٍ وآنيةٍ ؛ لأنَّ كلَّ ذلكَ ممَّا قدْ يُحتاجُ إليهِ في الدِّينِ ، وما فضلَ مِنَ الحاجةِ . . ينبغي أنْ يُقصدَ بهِ أنْ ينتفعَ بهِ عبدٌ مِنْ عبادِ اللهِ ، فلا يمنعُهُ منهُ عندَ حاجتِهِ ، فمَنْ فعلَ ذلكَ . . فهوَ الذي أخذَ مِنْ حيَّةِ المالِ جوهرَها وترياقَها واتقىٰ سمَّها ، فلا تضرُّهُ كثرةُ المالِ ، ولكنْ لا يتأتىٰ ذلكَ إلا لمَنْ رسخَ في الدينِ قدمُهُ ، وعظمَ فيه علمُهُ ، والعاميُّ إذا تشبَّهَ بالعالمِ في الاستكثارِ مِنَ المالِ ، وزعمَ أنَّهُ يشبهُ أغنياءَ الصحابةِ . . شابهَ الصبيَّ الذي يرى المعزِّمَ الحاذقَ يأخذُ الحيةَ ويتصرَّفُ فيها فيُخرجُ ترياقَها ، فيقتدي بهِ ، ويظنُّ أنَّهُ أخذَها مستحسناً صورتَها وشكلَها ، ومستليناً جلدَها ، فيأخذُها اقتداءً بهِ ، فتقتلُهُ في الحالِ ، إلا أنَّ قتيلَ الحيةِ يدري أنَّهُ قتيلٌ ، وقتيلُ المالِ قدْ لا يعرفُ ، وقدْ شُبِّهتِ الدُّنيا بالحيَّةِ ، فقيلَ[1] : [من الخفيف]

هِيَ دُنْيا كَحَيَّةٍ تَنفُثُ ٱلسُّمَّ ... وَإِنْ كانَتِ ٱلْمَجَسَّةُ لانَتْ

وكما يستحيلُ أنْ يتشبَّهَ الأعمىٰ بالبصيرِ في تخطِّي قُلَلِ الجبالِ ، وأطرافِ البحارِ ، والطرقِ المشوكةِ ؛ فمحالٌ أنْ يتشبَّهَ العاميُّ بالعالمِ الكاملِ في تناولِ المالِ .

* * *

(١) البيت لأبي العتاهية في « ديوانه » (ص ٧٥) .

بيان ذمّ الغنىٰ ومدح الفقر

اعلمْ : أنَّ الناسَ قدِ اختلفوا في تفضيلِ الغنيِّ الشاكرِ على الفقيرِ الصابرِ ، وقدْ أوردنا ذلكَ في كتابِ الفقرِ والزهدِ ، وكشفنا عنْ تحقيقِ الحقِّ فيهِ .

ولكنَّا في هـٰذا الكتابِ ندلُّ علىٰ أنَّ الفقرَ أفضلُ وأعلىٰ مِنَ الغنىٰ على الجملةِ ، مِنْ غيرِ التفاتٍ إلىٰ تفصيلِ الأحوالِ .

ونقتصرُ فيهِ علىٰ حكايةِ فصلٍ ذكرَهُ الحارثُ المحاسبيُّ رضيَ اللهُ عنهُ في بعضِ كتبهِ في « الردِّ علىٰ بعضِ العلماءِ مِنَ الأغنياءِ ، حيثُ احتجَّ بأغنياءِ الصحابةِ ، وبكثرةِ مالِ عبدِ الرحمـٰنِ بنِ عوفٍ رضيَ اللهُ عنهُ » ، وشبَّهَ نفسَهُ بهِمْ ، والمحاسبيُّ رحمَهُ اللهُ حَبْرُ الأمةِ في علمِ المعاملةِ[1] ، ولهُ السبقُ علىٰ جميعِ الباحثينَ عنْ عيوبِ النفسِ ، وآفاتِ الأعمالِ ، وأغوارِ العباداتِ ، وكلامُهُ جديرٌ بأنْ يُحكىٰ علىٰ وجههِ .

* * *

وقدْ قالَ بعدَ كلامٍ لهُ في الردِّ علىٰ علماءِ السوءِ :

بلغَنا أنَّ عيسىٰ عليهِ السلامُ قالَ : (يا علماءَ السوءِ ؛ تصومونَ ، وتصلُّونَ ، وتصدَّقونَ ، ولا تفعلونَ ما تُؤمرونَ ، وتدرِّسونَ ما لا تعملونَ ،

(١) في (ج) : (خير) بدل (حبر) .

فيا سوءَ ما تحكمونَ ، تتوبونَ بالقولِ والأمانيِّ ، وتعملونَ بالهوىٰ ، وما يغني عنكمْ أنْ تنقُّوا جلودَكُمْ وقلوبُكُمْ دنسةٌ .

بحقٍّ أقولُ لكُمْ : لا تكونوا كالمنخلِ ، يخرجُ منهُ الدقيقُ الطيّبُ ، وتبقىٰ فيهِ النخالةُ ، كذلكَ أنتمْ تخرجونَ الحكمَ مِنْ أفواهِكُمْ ، ويبقى الغلُّ في صدورِكُمْ .

يا عبيدَ الدنيا ؛ كيفَ يدركُ الآخرةَ مَنْ لا تنقضي مِنَ الدنيا شهوتُهُ ، ولا تنقطعُ منها رغبتُهُ ؟!

بحقٍّ أقولُ لكُمْ : إنَّ قلوبَكُمْ تبكي مِنْ أعمالِكُمْ ، جعلتُمُ الدنيا تحتَ ألسنتِكُمْ ، والأعمالَ تحتَ أقدامِكُمْ .

بحقٍّ أقولُ لكُمْ : أفسدتُمْ آخرتَكُمْ ، فصلاحُ الدنيا أحبُّ إليكُمْ مِنْ صلاحِ الآخرةِ ، فأيُّ الناسِ أخسرُ منكُمْ لوْ تعلمونَ ؟!

ويلَكُمْ ! حتىٰ متىٰ تصفونَ الطريقَ للمدْلِجينَ وتقيمونَ في محلِّ المتحيرينَ[1] ؛ كأنَّكُمْ تدعونَ أهلَ الدنيا ليتركوها لكُمْ ؟ مهلاً مهلاً .

ويلَكُمْ ! ماذا يغني عنِ البيتِ المظلمِ أنْ يُوضعَ السراجُ فوقَ ظهرِهِ وجوفُهُ وحِشٌ مظلمٌ ؟ كذلكَ لا يغني عنكُمْ أنْ يكونَ نورُ العلمِ بأفواهِكُمْ وأجوافُكُمْ منهُ وحشةٌ معطَّلةٌ .

يا عبيدَ الدنيا ؛ لا كعبيدٍ أتقياءَ ، ولا كأحرارٍ كرامٍ ، توشكُ الدنيا أنْ

(١) في « الوصايا » (٧٥) : (المتحبِّرين) بدل (المتحيِّرين) .

تقلعَكُمْ عنْ أُصولِكُمْ فتلقيَكُمْ علىٰ وجوهِكُمْ ، ثمَّ تكبَّكُمْ علىٰ مناخرِكُمْ ، ثمَّ تأخذَ خطاياكُمْ بنواصيكُمْ ، ثمَّ يدفعَكُمُ العلمُ مِنْ خلفِكُمْ حتَّىٰ يسلمَكُمْ إلى الملكِ الديانِ عُراةً فُرادىٰ ، فيوقفَكُمْ علىٰ سَوْءاتِكُمْ ثمَّ يجزيَكُمْ بسوءِ أعمالِكُمْ)(١) .

* * *

ثمَّ قالَ الحارثُ رحمَهُ اللهُ :

إخواني ؛ فهؤلاءِ علماءُ السوءِ ، شياطينُ الإنسِ ، وفتنةٌ على الناسِ ، رغبوا في عَرَضِ الدنيا ورفعتِها ، وآثروها على الآخرةِ ، وأذلُّوا الدينَ للدنيا ، فهُمْ في العاجلِ عارٌ وشَينٌ ، وفي الآخرةِ همُ الخاسرونَ أوْ يعفوَ الكريمُ بفضلِهِ .

وبعدُ : فإنِّي رأيتُ الهالكَ المؤثرَ للدنيا سرورُهُ ممزوجٌ بالتنغيصِ ، فيتفجَّرُ عنهُ أنواعُ الهمومِ وفنونُ المعاصي ، وإلى التلفِ والبوارِ مصيرُهُ ، فيعودُ فرحُ الهالكِ ترحاً ، فلمْ تبقَ لهُ دنياهُ ، ولمْ يسلَمْ لهُ دينُهُ ، خسرَ الدنيا والآخرةَ ، ذلكَ هوَ الخسرانُ المبينُ .

فيا لها مِنْ مصيبةٍ ما أفظعَها ! ورزيَّةٍ ما أجلَّها ! ألا فراقبوا اللهَ إخواني ، ولا يغرَّنكُمُ الشيطانُ وأولياؤُهُ من الأنسِ بالحججِ الداحضةِ عندَ اللهِ ؛ فإنَّهُمْ

---

(١) مجمل أقوال سيدنا عيسىٰ علىٰ نبينا وعليه الصلاة والسلام رواها ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦٨/٥٩) ، (٤٧/٤٦٠) .

يتكالبونَ على الدنيا ، ثمَّ يطلبونَ لأنفسِهِمُ المعاذيرَ والحججَ ، ويزعمونَ أنَّ أصحابَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَتْ لهُمْ أموالٌ ، فيتزيَّنُ المغرورونَ بذكرِ الصحابةِ ؛ ليعذرَهُمُ الناسُ على جمعِ المالِ ، ولقدْ دهاهُمُ الشيطانُ وما يشعرونَ .

ويحَكَ أيُّها المفتونُ ! إنَّ احتجاجَكَ بمالِ عبدِ الرحمـٰنِ بنِ عوفٍ مكيدةٌ مِنَ الشيطانِ ينطقُ بها علىٰ لسانِكَ لتهلكَ ؛ لأنَّكَ متىٰ زعمتَ أنَّ أخيارَ الصحابةِ أرادوا المالَ للتكاثرِ والشرفِ والزينةِ . . فقدِ اغتبتَ السادةَ ، ونسبتَهُمْ إلىٰ أمرٍ عظيمٍ !

ومتىٰ زعمتَ أنَّ جمعَ المالِ الحلالِ أعلىٰ وأفضلُ مِنْ تركِهِ . . فقَدْ أزريتَ بمحمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ والمرسلينَ ، ونسبتَهُمْ إلىٰ قلَّةِ الرغبةِ والزهدِ في هـٰذا الخيرِ الذي رغبتَ فيهِ أنتَ وأصحابُكَ مِنْ جمعِ المالِ ، ونسبتَهُمْ إلى الجهلِ ؛ إذْ لمْ يجمعوا المالَ كما جمعتَ !

ومتىٰ زعمتَ أنَّ جمعَ المالِ الحلالِ أعلىٰ مِنْ تركِهِ . . فقدْ زعمتَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمْ ينصحِ الأمَّةَ ؛ إذْ نهاهُمْ عنْ جمعِ المالِ ، وقدْ علمَ أنَّ جمعَ المالِ خيرٌ للأمةِ ؛ فقدْ غشَّهُمْ بزعمِكَ حينَ نهاهُمْ عنْ جمعِ المالِ ، كذبتَ وربِّ السماءِ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، لقدْ كانَ للأمَّةِ ناصحاً ، وعليهِمْ مشفقاً ، وبهِمْ رؤوفاً .

ومتىٰ زعمتَ أنَّ جمعَ المالِ أفضلُ . . فقدْ زعمتَ أنَّ اللهَ تعالىٰ لمْ ينظرْ

لعبادِهِ حينَ نهاهُمْ عنْ جمعِ المالِ وقدْ علمَ أنَّ جمعَ المالِ خيرٌ لهُمْ ، أوْ زعمتَ أنَّ اللهَ تعالىٰ لمْ يعلمْ أنَّ الفضلَ في الجمعِ ؛ فلذلكَ نهاهُمْ عنهُ ، وأنتَ عليمٌ بما في المالِ مِنَ الخيرِ والفضلِ ، فلذلكَ رغبتَ في الاستكثارِ ؛ كأنَّكَ أعلمُ بموضعِ الخيرِ والفضلِ مِنْ ربِّكَ ، تعالى اللهُ عنْ جهلِكَ .

أيُّها المفتونُ ؛ تدبَّرْ ما دهاكَ بهِ الشيطانُ حينَ زيَّنَ لكَ الاحتجاجَ بمالِ الصحابةِ ، ويحَكَ ! ما ينفعُكَ الاحتجاجُ بمالِ عبدِ الرحمـٰنِ بنِ عوفٍ وقدْ ودَّ عبدُ الرحمـٰنِ بنُ عوفٍ في القيامةِ أنَّهُ لمْ يُؤتَ مِنَ الدنيا إلا قوتاً ؟! ولقدْ بلغَني أنَّهُ لما تُوفيَ عبدُ الرحمـٰنِ بنُ عوفٍ رضيَ اللهُ عنهُ. . قالَ أناسٌ مِنْ أصحابِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : إنَّا نخافُ علىٰ عبدِ الرحمـٰنِ فيما تركَ ، فقالَ كعبٌ : سبحانَ اللهِ ! وما تخافونَ علىٰ عبدِ الرحمـٰنِ ؟ كسبَ طيباً ، وأنفقَ طيباً ، وتركَ طيباً ، فبلغَ ذلكَ أبا ذرٍّ ، فخرجَ مُغضَباً يريدُ كعباً ، فمرَّ بعظمِ لحيِ بعيرٍ ، فأخذَهُ بيدِهِ ، ثمَّ انطلقَ يطلبُ كعباً ، فقيلَ لكعبٍ : إنَّ أبا ذرٍّ يطلبُكَ ، فخرجَ هارباً ، حتَّىٰ دخلَ علىٰ عثمانَ رضيَ اللهُ عنهُ يستغيثُ بهِ ، وأخبرَهُ الخبرَ ، وأقبلَ أبو ذرٍّ يقتصُّ الأثرَ في طلبِ كعبٍ ، حتَّى انتهىٰ إلىٰ دارِ عثمانَ ، فلمَّا دخلَ. . قامَ كعبٌ فجلسَ خلفَ عثمانَ هارباً مِنْ أبي ذرٍّ ، فقالَ لَهُ أبو ذرٍّ : هيهِ يا بنَ اليهوديةِ ؛ تزعمُ أنْ لا بأسَ بما تركَ عبدُ الرحمـٰنِ بنُ عوفٍ ؟! لقدْ خرجَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يوماً نحوَ أُحُدٍ وأنا معَهُ ، فقالَ : « يا أبا ذرٍّ » ؛ قلتُ : لبيكَ يا رسولَ اللهِ ، فقالَ : « الأكثرونَ همُ الأقلُّونَ يومَ القيامةِ ، إلا مَنْ قالَ هـٰكذا وهـٰكذا عَنْ

يمينِهِ وشمالِهِ وقدَّامِهِ وخلفِهِ ، وقليلٌ ما هُمْ » ، ثمَّ قالَ : « يا أبا ذرٍّ » ؛ قلتُ : نعمْ يا رسولَ اللهِ ؛ بأبي أنتَ وأمي ، قالَ : « ما يسرُّني أنَّ لي مثلَ أُحدٍ ذهباً أنفقُهُ في سبيلِ اللهِ ، أموتُ يومَ أموتُ وأتركُ منهُ قيراطينِ » ، قلتُ : أوْ قنطارينِ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « بلْ قيراطانِ » ، ثمَّ قالَ : « يا أبا ذرٍّ ؛ أنتَ تريدُ الأكثرَ وأنا أريدُ الأقلَّ ؟! » ، فرسولُ اللهِ يريدُ هـٰذا وأنتَ تقولُ يا بنَ اليهوديةِ : لا بأسَ بما تركَ عبدُ الرحمـٰنِ بنُ عوفٍ ؟! كذبتَ وكذَبَ مَنْ قالَ ، فلمْ يردَّ عليهِ حرفاً حتَّىٰ خرجَ(١) .

وبلغَنا أنَّ عبدَ الرحمـٰنِ بنَ عوفٍ قدمَتْ عليهِ عيرٌ مِنَ اليمنِ ، فضجَّتِ المدينةُ ضجةً واحدةً ، فقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : ما هـٰذا ؟ فقيلَ : عيرٌ قدمَتْ لعبدِ الرحمـٰنِ ، قالَتْ : صدقَ اللهُ ورسولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فبلغَ ذلكَ عبدَ الرحمـٰنِ ، فسألَها ، فقالَتْ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « إنِّي رأيتُ الجنَّةَ ، فرأيتُ فقراءَ المهاجرينَ والمسلمينَ

---

(١) الحديث المرفوع الذي ورد ضمن بلاغ الحارث رحمه الله تعالىٰ رواه البخاري (٦٤٤٤) ، ومسلم (٩٤) ، كتاب الزكاة ، باب الترغيب في الصدقة ، ولقاء أبي ذر بعثمان رضي الله عنهما وحديثهما عن عبد الرحمـٰن بن عوف رضي الله عنه رواه أحمد في « المسند » (١/ ٦٣) وفيه : أن أبا ذر جاء يستأذن علىٰ عثمان بن عفان رضي الله عنه ، فأذن له وبيده عصاه ، فقال عثمان رضي الله عنه : يا كعب ؛ إن عبد الرحمـٰن توفي وترك مالاً ، فما ترىٰ فيه ؟ فقال : إن كان يصل فهي حق الله . . فلا بأس عليه ، فرفع أبو ذر عصاه فضرب كعباً وقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما أحب لو أن لي هـٰذا الجبل ذهباً أنفقه ويتقبل مني أذر خلفي منه ست أواق » ، أنشدك الله يا عثمان ؛ أسمعته ؟ ثلاث مرات ، قال : نعم .

يدخلونَ سعياً ولمْ أرَ أحداً مِنَ الأغنياءِ يدخُلُها معَهُمْ إلا عبدَ الرحمـٰنِ بنَ عوفٍ ، رأيتُهُ يدخلُها معَهُمْ حبواً » ، فقالَ عبدُ الرحمـٰنِ : « إنَّ العيرَ وما عليها في سبيلِ اللهِ ، وإنَّ أرقَّاءَها أحرارٌ ، لعلِّي أدخلُها معَهُمْ سعياً »(١) .

وبلغَنا أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ لعبدِ الرحمـٰنِ بنِ عوفٍ : « أمَا إنَّكَ أوَّلُ مَنْ يدخلُ الجنَّةَ مِن أغنياءِ أمَّتي وما كدتَ أنْ تدخلَها إلا حبواً »(٢) .

ويحَكَ أيُّها المفتونُ ! فما احتجاجُكَ بالمالِ وهـٰذا عبدُ الرحمـٰنِ بن عوفٍ في فضلِهِ وتقواهُ ، وصنائعِهِ المعروفةِ ، وبذلِهِ الأموالَ في سبيلِ اللهِ ، معَ صُحبتِهِ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وبشراهُ بالجنةِ(٣) . . يُوقَفُ في عرْصَةِ القيامةِ وأهوالِها بسببِ مالٍ كسبهُ مِنْ حلالٍ للتعفُّفِ ، ولصنائعِ المعروفِ ، وأنفقَ منهُ قصداً ، وأعطىٰ في سبيلِ اللهِ سحّاً ، مُنِعَ مِنَ السعيِ إلى الجنةِ معَ فقراءِ المهاجرينَ ، وصارَ يحبو في آثارِهِمْ حبواً ! فما ظنُّكُمْ بأَمثالِنا الغرقىٰ في فتنِ الدنيا ؟!

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٦/ ١١٥) دون ذكر فقراء المهاجرين والمسلمين .

(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » (٣/ ٣١١) ، والبيهقي في « الشعب » (٣٠٦٤) ولفظه : « يا بن عوف ؛ إنك من الأغنياء ، ولن تدخل الجنة إلا زحفاً . . . » ، وروىٰ أبو نعيم في « فضائل الخلفاء الراشدين » (١١٩) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « أول من يدخل علينا من أغنياء الجنة عبد الرحمـٰن بن عوف » .

(٣) بشراه صلى الله عليه وسلم لعبد الرحمـٰن بن عوف رضي الله عنه بالجنة مع بقية العشرة رواه أبو داوود (٤٦٤٩) ، والترمذي (٣٧٤٨) ، فضلاً عن الأحاديث التي أوردها المصنف رحمه الله تعالىٰ .

وبعدُ : فالعجبُ كلُّ العجبِ لكلِّ مفتونٍ تمرَّغَ في تخاليطِ الشبهاتِ والسحتِ ، وتكالبَ علىٰ أوساخِ الناسِ ، وهوَ يتقلَّبُ في الشهواتِ والزينةِ والمباهاةِ ، ويتقلبُ في فتنِ الدنيا ، ثم يحتجُّ بعبدِ الرحمـٰنِ بنِ عوفٍ ، وتزعمُ أنَّكَ إنْ جمعتَ المالَ . . فقدْ جمعَهُ الصحابةُ ؟! كأنَّكَ أشبهتَ السلفَ وفعلَهُمْ ، ويحَكَ ! إنَّ هـٰذا مِنْ قياسِ إبليسَ ، ومِن فُتياهُ لأوليائِهِ .

وسأصفُ لكَ أحوالَكَ وأحوالَ السلفِ ؛ لتعرفَ فضائحَكَ وفضلَ الصحابةِ .

ولعمري ؛ لقدْ كانَ لبعضِ الصحابةِ أموالٌ أرادوها للتعفُّفِ والبذلِ في سبيلِ اللهِ ، فكسبوا حلالاً ، وأكلوا طيباً ، وأنفقوا قصداً ، وقدَّموا فضلاً ، ولمْ يمنعوا منها حقّاً ، ولمْ يبخلوا بها ، لكنَّهُمْ جادوا للهِ بأكثرِها ، وجادَ بعضُهُمْ بجميعِها ، وفي الشدَّةِ آثروا اللهَ علىٰ أنفسِهِمْ كثيراً ، فيا للهِ ! أكذلكَ أنتَ ؟! واللهِ ؛ إنَّكَ لبعيدُ الشبهِ بالقومِ .

وبعدُ : فإنَّ أخيارَ الصحابةِ كانوا للمسكنةِ محبِّينَ ، ومِنْ خوفِ الفقرِ آمنينَ ، وباللهِ في أرزاقِهِمْ واثقينَ ، وبمقاديرِ اللهِ مسرورينَ ، وفي البلاءِ راضينَ ، وفي الرخاءِ شاكرينَ ، وفي الضرَّاءِ صابرينَ ، وفي السرَّاءِ حامدينَ ، وكانوا للهِ متواضعينَ ، وعنْ حبِّ العلوِّ والتكاثرِ ورعينَ ، لمْ ينالوا مِنَ الدنيا إلا المباحَ لَهُمْ ، ورضوا بالبُلْغةِ منها ، ورفضوا الدنيا ، وصبروا علىٰ مكارِهِها ، وتجرَّعوا مرارتَها ، وزهدوا في نعيمِها وزهرتِها ، فيا للهِ ! أكذلكَ أنتَ ؟!

ولقدْ بلغَنا أَنَّهُمْ كانوا إذا أقبلَتِ الدنيا عليهِمْ . . حزنوا ، وقالوا : ذنبٌ عُجِّلَتْ عقوبتُهُ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، وإذا رأَوُا الفقرَ مقبلاً . . قالوا : مرحباً بشعارِ الصالحينَ(١) .

وبلغَنا أَنَّ بعضَهُمْ كانَ إذا أصبحَ وعندَ عيالِهِ شيءٌ . . أصبحَ كئيباً حزيناً ، وإذا لمْ يكنْ عندَهُمْ شيءٌ . . أصبحَ فرحاً مسروراً ، فقيلَ لهُ : إنَّ الناسَ إذا لمْ يكنْ عندَهُمْ شيءٌ . . حزنوا ، وإذا كانَ عندَهُمْ شيءٌ . . فرحوا ، وأنتَ لستَ كذلكَ ، فقالَ : إنِّي إذا أصبحتُ وليسَ عندَ عيالي شيءٌ . . فرحتُ ؛ إذْ كانَ لي بمحمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أسوةٌ ، وإذا كانَ عندَ عيالي شيءٌ . . اغتممتُ ؛ إذْ لمْ يكنْ لي بآلِ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أسوةٌ .

وبلغَنا أَنَّهُمْ كانوا إذا سُلِكَ بهِم سبيلُ الرخاءِ . . حزنوا وأشفقوا ، وقالوا : ما لنا وللدنيا وما يُراد بها ؟ فكأَنَّهُمْ علىٰ جناحِ خوفٍ ، وإذا سُلِكَ بهِمْ سبيلُ البلاءِ . . فرحوا واستبشروا ، وقالوا : الآنَ تعاهدَنا ربُّنا .

فهٰذهِ أحوالُ السلفِ ونعتُهُمْ ، وفيهِمْ مِنَ الفضلِ أكثرُ ممَّا وصفنا ، فيا للهِ ! أكذلكَ أنتَ ؟! إنَّكَ لبعيدُ الشبهِ بالقومِ .

وسأصفُ لكَ أحوالَكَ ـ أيُّها المفتونُ ـ ضدّاً لأحوالِهِمْ ، وذلكَ أنَّكَ تطغىٰ عندَ الغنىٰ ، وتبطَرُ في الرخاءِ ، وتمرحُ عندَ السرَّاءِ ، وتغفُلُ عنْ شكرِ

---

(١) كما روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٥) عن كعب قال : (إن الرب تعالىٰ قال لموسىٰ عليه السلام : يا موسىٰ ؛ إذا رأيت الغنىٰ مقبلاً . . فقل : ذنب عجلت عقوبته ، وإذا رأيت الفقر مقبلاً . . فقل : مرحباً بشعار الصالحين) ، وقد تقدم .

ذي النعماءِ، وتقنطُ عندَ الضرَّاءِ ، وتسخطُ عندَ البلاءِ ، ولا ترضىٰ بالقضاءِ، نعمْ ، وتبغضُ الفقرَ ، وتأنفُ مِنَ المسكنةِ ، وذلكَ فخرُ المرسلينَ ، وأنتَ تأنفُ مِنْ فخرِهِمْ ، وتدخرُ المالَ وتجمعُهُ ؛ خوفاً مِنَ الفقرِ ، وذلكَ مِنْ سوءِ الظنِّ باللهِ عزَّ وجلَّ وقلَّةِ اليقينِ بضمانِهِ ، وكفىٰ بهِ إثماً .

وعساكَ تجمعُ المالَ لنعيمِ الدنيا وزهرتِها ، وشهواتِها ولذاتِها ، ولقد بلغَنا أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « شرارُ أمَّتي الذينَ غُذوا بالنعيمِ ونبتَتْ عليهِ أجسامُهُمْ »(١) .

وبلغَنا أنَّ بعضَ أهلِ العلمِ قالَ : ليجيئَنَّ يومَ القيامةِ قومٌ يطلبونَ حسناتٍ لهُمْ ، فيُقالُ لهُمْ : ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ ، وأنتَ في غفلةٍ قدْ حُرمتَ نعيمَ الآخرةِ بسببِ نعيمِ الدنيا ، فيا لَها حسرةً ومصيبةً !

نعمْ ، وعساكَ تجمعُ المالَ للتكاثرِ والعلوِّ والفخرِ والزينةِ في الدنيا ، وقدْ بلغَنا أنَّ مَنْ طلبَ الدنيا للتكاثرِ أوْ للتفاخرِ . . لقيَ اللهَ وهوَ عليهِ غضبانُ(٢) ، وأنتَ غيرُ مكترثٍ بما حلَّ بكَ مِنْ غضبِ اللهِ حينَ أردتَ التكاثرَ والعلوَّ .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٥٠) ، وابن عدي في « الكامل » (٥/ ٣١٨) من حديث السيدة فاطمة رضي الله عنها ، ورواه الطبراني في « الكبير » (٨/ ١٠٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٩٠) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٢٦٢٥) ، وابن أبي الدنيا في « العيال » (٣٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/ ١٠٩) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٨٩٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً .

نعمْ ، وعساكَ المكثُ في الدنيا أحبُّ إليكَ مِنَ النُّقلةِ إلىٰ جوارِ اللهِ تعالىٰ ؟! وأنتَ تكرهُ لقاءَ اللهِ ، واللهُ للقائِكَ أكرَهُ ، وأنتَ في غفلةٍ .

وعساكَ تأسفُ علىٰ ما فاتَكَ مِنْ عرضِ الدنيا ، وقدْ بلغَنا أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « مَن أَسِفَ علىٰ دُنيا فاتَتْهُ . . اقترَبَ مِنَ النارِ مسيرةَ شهرٍ ، وقيلَ : سنةٍ »[1] ، وأنتَ تأسفُ علىٰ ما فاتَكَ غيرَ مكترثٍ بقربِكَ مِنْ عذابِ اللهِ .

نعمْ ، ولعلَّكَ تخرجُ مِنْ دينِكَ أحياناً لتوفيرِ دنياكَ ، وتفرحُ بإقبالِ الدنيا عليكَ ، وترتاحُ لذلكَ سروراً بها ، وقدْ بلغَنا أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « مَنْ أحبَّ الدنيا وسُرَّ بها . . ذهبَ خوفُ الآخرةِ مِنْ قلبِهِ »[2] .

وبلغَنا أنَّ بعضَ أهلِ العلمِ قالَ : إنَّكَ مُحاسبٌ على التحزُّنِ علىٰ ما فاتَكَ مِنَ الدنيا ، ومُحاسبٌ بفرحِكَ في الدنيا إذا قدَرتَ عليها ، وأنت فرحٌ بدنياكَ وقدْ سُلبتَ الخوفَ مِنَ اللهِ تعالىٰ .

---

(١) قال الحافظ العراقي : (رويناه في كتاب « القربة » لأبي حفص العتكي من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، وقال : « مسيرة ألف سنة » ، وإسناده ضعيف ، ورويناه في الجزء الثاني عشر من « فوائد الخلعي » من هـٰذا الوجه) . « إتحاف » (٨/٢١٩) ، وذكره المتقي الهندي في « كنز العمال » (٦١٤٧) وعزاه للرازي في مشيخته عن ابن عمر رضي الله عنهما .

(٢) قد رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (١٦٩) عن الحسن ، وأبو نعيم في « الحلية » (٧/٧٩) عن سفيان الثوري ، وقال الحافظ العراقي : (لم أجده إلا بلاغاً للحارث بن أسد كما ذكره المصنف عنه) . « إتحاف » (٨/٢١٩) .

وعساكَ تُعنىٰ بأمورِ دُنياكَ أضعافَ ما تُعنىٰ بأمورِ آخرتِكَ .

وعساكَ ترىٰ أنَّ مصيبتكَ في معاصيكَ أهونُ مِنْ مصيبتِكَ في انتقاصِ دُنياكَ ، نعمْ ، وخوفَكَ مِنْ ذهابِ مالِكَ أكثرُ مِنْ خوفِكَ مِنَ الذنوبِ .

وعساكَ تبذلُ للناسِ ما جمعتَ مِنَ الأوساخِ كلِّها للعلوِّ والرفعةِ في الدنيا ، وعساكَ تُرضي المخلوقينَ بمساخطِ اللهِ تعالىٰ كيما تُكرَّمَ وتُعظَّمَ ؛ ويحَكَ ! فكأنَّ احتقارَ اللهِ تعالىٰ لكَ في القيامةِ أهونُ عليكَ مِنِ احتقارِ الناسِ إيَّاكَ .

وعساكَ تخفي مِنَ المخلوقينَ مساوئَكَ ولا تكترثُ باطلاعِ اللهِ عليكَ فيها ، فكأنَّ الفضيحةَ عندَ اللهِ تعالىٰ أهونُ عليكَ مِنَ الفضيحةِ عندَ الناسِ ، فكأنَّ العبيدَ أعلىٰ عندَكَ قدراً مِنَ اللهِ ، تعالى اللهُ عنْ جهلِكَ !

فكيفَ تنطقُ عندَ ذوي الألبابِ وهٰذهِ المثالبُ فيكَ ؟! أفٍّ لكَ ، متلوِّثٌ بالأقذارِ وتحتجُّ بمالِ الأبرارِ ؟!

هيهاتَ هيهاتَ ! ما أبعدَكَ مِنَ السلفِ الأخيارِ ! واللهِ ؛ لقدْ بلغَني أنَّهُمْ كانوا فيما أُحلَّ لهُمْ أزهدَ منكُمْ فيما حُرِّمَ عليكُمْ ، إنَّ الذي لا بأسَ بهِ عندَكُمْ كانَ مِنَ الموبقاتِ عندَهُمْ[1] ، وكانوا للزَّلَّةِ الصغيرةِ أشدَّ استعظاماً منكُمْ لكبائرِ المعاصي ، فليتَ أطيبَ مالِكَ وأحلَّهُ مثلُ شبهاتِ أموالِهِمْ ، وليتَكَ أشفقتَ

(١) ففي « القوت » (١/ ٢٥٥) عن الحسن : (رأيت سبعين بدرياً كانوا ـ والله ـ فيما أحل الله تعالىٰ لهم أزهد منكم فيما حرم الله تعالىٰ عليكم) .

مِن سيئاتِكَ كما أشفقوا مِنْ حسناتِهِمْ ألا تُقبلَ منهُمْ ، وليتَ صومَكَ علىٰ مثلِ إفطارِهِمْ ، وليتَ اجتهادَكَ في العبادةِ مثلُ فتورِهِمْ ونومِهِمْ ، وليتَ جميعَ حسناتِكَ مثلُ واحدةٍ مِنْ حسناتِهِمْ ، وقدْ بلغَني عنْ بعضِ الصحابةِ أنَّهُ قالَ : (غنيمةُ الصدِّيقينَ ما فاتَهُمْ مِنَ الدنيا ، ونهمتُهُمْ ما زُوِيَ عنهُمْ مِنْها ، فمَنْ لمْ يكنْ كذلكَ . . فليسَ معَهُمْ في الدنيا ، ولا معَهُمْ في الآخرةِ) .

فسبحانَ اللهِ ! كمْ بينَ الفريقينِ مِنَ التفاوتِ ، فريقُ خيارِ الصحابةِ في العلوِّ عندَ اللهِ ، وفريقُ أمثالِكُمْ في السفالةِ[1] أوْ يعفوَ اللهُ الكريمُ بفضلِهِ .

وبعدُ : فإنَّكَ إنْ زعمتَ أنَّكَ متأسٍّ بالصحابةِ بجمعِ المالِ للتعفُّفِ والبذلِ في سبيلِ اللهِ . . فتدبرْ أمرَك ، ويحَكَ ! هلْ تجدُ مِنَ الحلالِ في دهرِكَ كما وجدوا في دهرِهِمْ ؟ أوَتحسبُ أنَّكَ محتاطٌ في طلبِ الحلالِ كما احتاطوا ؟!

لقدْ بلغَني أنَّ بعضَ الصحابةِ قالَ : (كنَّا ندعُ سبعينَ باباً مِنَ الحلالِ مخافةَ أنْ نقعَ في بابٍ مِنَ الحرامِ)[2] ، أفتطمعُ مِنْ نفسِكَ في مثلِ هٰذا الاحتياطِ ؟! لا وربِّ الكعبةِ ؛ ما أحسبُكَ كذلكَ .

ويحَكَ ! كنْ علىٰ يقينٍ أنَّ جمعَ المالِ لأعمالِ البرِّ مكرٌ مِنَ الشيطانِ ليوقعَكَ بسببِ البرِّ في كتسابِ الشبهاتِ الممزوجةِ بالسحتِ والحرامِ ، وقدْ

---

(١) وعبارة الإمام المحاسبي : (فريق مع خيار الصحابة . . . ، وفريق مع أمثالهم في الأسفلين) .

(٢) رواه القشيري في « رسالته » (ص ٢١٠) عن سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

بلغَنا أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « مَنِ اجترأَ على الشبهاتِ . . أوشكَ أنْ يقعَ في الحرامِ »[1] .

أيُّها المغرورُ ؛ أما علمتَ أنَّ خوفَكَ مِنِ اقتحامِ الشبهاتِ أعلىٰ وأفضلُ وأعظمُ لقدْرِكَ عندَ اللهِ مِنِ اكتسابِ الشبهاتِ وبذلِها في سبيلِ اللهِ تعالىٰ وسبيلِ البرِّ ؟ بلغَنا ذلكَ عنْ بعضِ أهلِ العلمِ ، قالَ : (لأَنْ تدعَ درهماً واحداً مخافةَ ألا يكونَ حلالاً خيرٌ لكَ مِنْ أنْ تتصدَّقَ بألفِ دينارٍ مِنْ شبهةٍ لا تدري أيحلُّ لكَ أمْ لا) .

فإنْ زعمتَ أنَّكَ أتقىٰ وأورعُ مِنْ أنْ تتلبَّسَ بالشبهاتِ ، وإنَّما تجمعُ المالَ بزعمِكَ مِنَ الحلالِ للبذلِ في سبيلِ اللهِ تعالىٰ ، ويحَكَ ! إنْ كنتَ كما زعمتَ بالغاً في الورعِ . . فلا تتعرضْ للحسابِ ؛ فإنَّ خيارَ الصحابةِ خافوا المسألةَ ، وقدْ بلغَنا أنَّ بعضَ الصحابةِ قالَ : (ما سرَّني أنْ أكتسبَ كلَّ يومٍ ألفَ دينارٍ مِنْ حلالٍ وأنفقَها في طاعةِ اللهِ ولمْ يشغلْني الكسبُ عنْ صلاةِ الجماعةِ ، قالوا : ولِمَ ذلكَ رَحِمَكَ اللهُ ؟ قالَ : لأنِّي غنيٌّ عنْ مقامِ يومَ القيامةِ ، فيقولُ : عبدي ؛ مِنْ أينَ اكتسبتَ ؟ وفي أيِّ شيءٍ أنفقتَ ؟)[2] .

---

(١) رواه البخاري (٢٠٥١) ولفظه عنده : (ومن اجترأ علىٰ ما يشك فيه من الإثم . . أوشك أن يواقع ما استبان) ، ومسلم (١٥٩٩) بنحوه ، وقد تقدم .

(٢) روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢٠٩) عن عمرو بن مرة قال : قال أبو الدرداء : بعث النبي صلى الله عليه وسلم وأنا تاجر ، فأردت أن تجتمع لي العبادة والتجارة ، فلم يجتمعا ، فرفضت التجارة وأقبلت على العبادة ، والذي نفس أبي الدرداء بيده ؛ ما أحب أن لي اليوم حانوتاً علىٰ باب المسجد لا يخطئني فيه صلاة ، أربح فيه كل يوم =

فهؤلاءِ المتقونَ كانوا في جدَّةِ الإسلامِ[1] ، والحلالُ موجودٌ لديهِمْ . . تركوا المالَ وجلاً مِنَ الحسابِ ؛ مخافةَ ألا يقومَ خيرُ المالِ بشرِّهِ ، وأنتَ مِنْ نفايةِ الأمةِ ، والحلالُ في دهرِكَ مفقودٌ . . تتكالبُ على الأوساخِ ، ثمَّ تزعمُ أنَّكَ تجمعُ المالَ مِنَ الحلالِ ، ويحَكَ ! وأينَ الحلالُ فتجمعَهُ ؟!

وبعدُ : فلوْ كانَ الحلالُ موجوداً لديكَ . . أما تخافُ أنْ يتغيرَ عندَ الغنىٰ قلبُكَ ؟ وقدْ بلغَنا أنَّ بعضَ الصحابةِ كانَ يرثُ المالَ الحلالَ فيتركُهُ ؛ مخافةَ أنْ يفسِدَ قلبَهُ ، أفتطمعُ أنْ يكونَ قلبُكَ أتقىٰ مِنْ قلوبِ الصحابةِ ، فلا يزولَ عن شيءٍ مِنَ الحقِّ في أمرِكَ وأحوالِكَ ؟! لئنْ ظَننتَ ذلكَ . . لقدْ أحسنتَ الظنَّ بنفسِكَ الأمارةِ بالسوءِ .

ويحَكَ ! إنِّي لكَ ناصحٌ ، أرىٰ لكَ أنْ تقنعَ بالبُلْغةِ ، ولا تجمعَ المالَ لأعمالِ البرِّ ، ولا تتعرَّضَ للحسابِ ، فإنَّهُ بلغَنا عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « مَنْ نُوقشَ الحسابَ . . عُذِّبَ »[2] ، وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يُؤتىٰ برجلٍ يومَ القيامةِ وقدْ جمعَ مالاً مِنْ حرامٍ ، فأنفقَهُ في حرامٍ ، فيُقالُ : اذهبوا بهِ إلى النارِ ، ويُؤتىٰ برجلٍ قدْ جمعَ مالاً مِنْ حلالٍ وأنفقَهُ في حرامٍ ، فيُقالُ : اذهبوا بهِ إلى النارِ ، ويُؤتَىٰ برجلٍ قدْ جمعَ مالاً

= أربعين ديناراً وأتصدق بها كلها في سبيل الله ، قيل له : يا أبا الدرداء ؛ وما تكره من ذلك ؟ قال : شدة الحساب .

(١) أي : في أوّله ونشاطه . « إتحاف » (٨/ ٢٢١) .

(٢) رواه البخاري (٦٥٣٦) ، ومسلم (٢٨٧٦) .

مِنْ حرامٍ وأنفقَهُ في حلالٍ ، فيُقالُ : اذهبوا بهِ إلى النارِ ؛ ويُؤتىٰ برجلٍ قدْ جمعَ مالاً مِنْ حلالٍ وأنفقَهُ في حلالٍ ؛ فيُقالُ لهُ : قفْ ؛ لعلَّكَ أضررتَ في طلبِ هٰذا بشيءٍ ممَّا فرضتُ عليكَ ؛ مِنْ صلاةٍ لمْ تصلِّها لوقتِها ، أوْ فرَّطتَ في شيءٍ مِنْ ركوعِها وسجودِها ووضوئِها ، فيقولُ : لا يا ربِّ ؛ كسبتُ مِنْ حلالٍ وأنفقتُ في حلالٍ ، ولمْ أضيِّعْ شيئاً ممَّا فرضتَ عليَّ ، فيُقالُ : لعلَّكَ اختلتَ في هٰذا المالِ في شيءٍ مِنْ مركبٍ أوْ ثوبٍ باهيتَ بهِ ، فيقولُ : لا يا ربِّ ؛ لمْ أختلْ ، ولمْ أباهِ في شيءٍ ، فيُقالُ : لعلَّكَ منعتَ حقَّ أحدٍ أمرتُكَ أنْ تعطيَهُ مِنْ ذوي القربىٰ واليتامىٰ والمساكينِ وابنِ السبيلِ ، فيقولُ : لا يا ربِّ ؛ كسبتُ مِنْ حلالٍ ، وأنفقتُ في حلالٍ ، ولمْ أضيِّعْ شيئاً ممَّا فرضتَ عليَّ ، ولمْ أختلْ ، ولمْ أباهِ ، ولمْ أمنعْ حقَّ أحدٍ أمرتَني أنْ أعطيَهُ ، قالَ : فيجيءُ أولئكَ فيخاصمونَهُ ، فيقولونَ : يا ربِّ ؛ أعطيتَهُ وأغنيتَهُ ، وجعلتَهُ بينَ أظهرِنا ، وأمرتَهُ أنْ يعطيَنا ، فإنْ كانَ أعطاهُمْ ، وما ضيَّعَ معَ ذلكَ شيئاً مِنَ الفرائضِ ، ولمْ يختلْ في شيءٍ . . فيُقالُ : قفِ الآنَ ، هاتِ شكرَ كلِّ نعمةٍ أنعمتُها عليكَ مِنْ أكلةٍ أوْ شربةٍ أوْ لذَّةٍ ، فلا يزالُ يُسألُ »(١) .

ويحَكَ ! فمَنِ الذي يتعرَّضُ لهٰذهِ المساءلةِ التي كانَتْ لهٰذا الرجلِ الذي تقلَّبَ في الحلالِ ، وقامَ بالحقوقِ كلِّها ، وأدَّى الفرائضَ بحدودِها ؛ حُوسِبَ هٰذهِ المحاسبةَ ؟! فكيفَ تراهُ يكونُ حالُ أمثالِنا ؛ الغرقىٰ في فتنِ

---

(١) كذا أورده المحاسبي في « الوصايا » (ص ٨٦) ، قال الحافظ العراقي : (الحديث بطوله لم أقف له علىٰ أصل) . « إتحاف » (٨/ ٢٢١) .

الدنيا وتخاليطِها وشبهاتِها وشهواتِها وزينتِها ؟!

ويحَكَ ! لأجلِ هٰذه المساءلةِ يخافُ المتقونَ أنْ يتلبَّسوا بالدنيا ، فرضوا بالكفافِ منها ، وعملوا بأنواعِ البرِّ مِنْ كسبِ المالِ ، فلكَ ـ ويحَكَ ـ بهؤلاءِ الأخيارِ أسوةٌ ، فإنْ أبيتَ ذلكَ ، وزعمتَ أنَّكَ بالغٌ في الورعِ والتقوىٰ ، ولمْ تجمعِ المالَ إلا مِنْ حلالٍ ـ بزعمِكَ ـ للتعفُّفِ والبذلِ في سبيلِ اللهِ ، ولمْ تنفقْ شيئاً مِنَ الحلالِ إلا بحقٍّ ، ولمْ يتغيَّرْ بسببِ المالِ قلبُكَ عمَّا يحبُّ اللهُ ، ولمْ تسخِطِ اللهَ في شيءٍ مِنْ سرائرِكَ وعلانيتِكَ ، ويحَكَ ! فإنْ كنتَ كذلكَ ـ ولستَ كذلكَ ـ فقَدْ ينبغي لكَ أنْ ترضىٰ بالبُلغةِ ، وتعتزلَ ذوي الأموالِ إذا وُقفوا للسؤالِ ، وتسبقَ معَ الرعيلِ الأوَّلِ في زمرةِ المصطفىٰ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لا حبسَ عليكَ للمساءلةِ والحسابِ ، فإمَّا سلامةٌ وإمَّا عطبٌ ، فإنَّهُ بلغَنا أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « يدخلُ صعاليكُ المهاجرينَ قبلَ أغنيائِهِمُ الجنَّةَ بخمسِ مئةِ عامٍ »[1] ، وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يدخلُ فقراءُ المؤمنينَ الجنَّةَ قبلَ أغنيائِهِمْ ، فيتمتعونَ ويأكلونَ والآخرونَ جثاةٌ علىٰ ركبِهِمْ ، فيقولُ اللهُ : قبلكُمْ طُلْبتي ، أنتُمْ حكَّامُ النَّاسِ وملوكُهُمْ ، فأروني ماذا صنعتُمْ فيما أعطيتُكُمْ ؟ »[2] .

---

(١) رواه أبو داوود (٣٦٦٦) ولفظه : « أبشروا يا معشر صعاليك المهاجرين بالنور التام يوم القيامة ، تدخلون الجنة قبل أغنياء الناس بنصف يوم ، وذاك خمس مئة سنة » .

(٢) الحديث بهٰذا اللفظ وتمامه أورده المحاسبي في « الوصايا » (ص ٨٨) ، وقال الحافظ العراقي : (لم أر له أصلاً) . « إتحاف » (٨/ ٢٢٢) ، وصدره وهو قوله صلى الله =

وبلغَنا أنَّ بعضَ أهلِ العلمِ قالَ : ما يسرُّني أنَّ لي حمرَ النَّعمِ ولا أكونُ في الرعيلِ الأوَّلِ معَ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وحزبِهِ[1] .

يا قومِ ؛ فاستبقوا السباقَ معَ المخفِّينَ في زمرةِ المرسلينَ ، وكونوا وجلينَ مِنَ التخلُّفِ والانقطاعِ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كما وجِلَ المتقونَ .

وقدْ بلغَنا أنَّ بعضَ الصحابةِ عطشَ فاستسقىٰ ، فأُتيَ بشربةٍ مِنْ ماءٍ وعسلٍ ، فلمَّا ذاقَهُ . . خنقَتْهُ العَبرةُ ، ثمَّ بكىٰ وأبكىٰ ، ثمَّ مسحَ الدموعَ عنْ وجهِهِ ، وذهبَ ليتكلَّمَ ، فعادَ في البكاءِ ، فلمَّا أكثرَ البكاءَ . . قيلَ لهُ : أكلُّ هـٰذا مِنْ أجلِ هـٰذهِ الشربةِ ؟ قالَ : نعمْ ، بينا أنا يوماً عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وما معَهُ في البيتِ أحدٌ غيري ، فجعلَ يدفعُ عنْ نفسِهِ ويقولُ : « إليكِ عنِّي » ، فقلتُ لهُ : فداكَ أبي وأمِّي ؛ ما أرىٰ بينَ يديكَ أحداً ، فمَنْ تخاطبُ ؟ فقالَ : « هـٰذهِ الدنيا تطاولَتْ إليَّ بعنُقِها ورأسِها ، فقالَتْ لي : يا محمَّدُ ؛ خذْني ، فقلتُ : إليكِ عنِّي ، فقالَتْ : إنْ تنجُ منِّي يا محمدُ . . فإنَّهُ لا ينجو منِّي مَنْ بعدَكَ » ، فأخافُ أنْ تكونَ هـٰذهِ قدْ لحقَتْني

= عليه وسلم : « يدخل فقراء المؤمنين الجنة قبل أغنيائهم » رواه الترمذي (٢٣٥٤) وزاد : « بنصف يوم ، وهو خمس مئة عام » ، وروىٰ أحمد في « الزهد » (١٦٤٨) عن الحسن قوله : (يحشر الأمراء والأغنياء ، فيقول لهم : إنكم كنتم حكام المسلمين ، وأهل الغنىٰ قبلكم طلبتي) ، وفي (ج) : (مثلكم) بدل (قبلكم) .

(١) قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٨/ ٢٢٢) : (رواه صاحب « القوت » عن سعيد بن عامر ، عن جذيم رضي الله عنه نحوه) .

تقطعُني عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[1] .

يا قوم ؛ فهؤلاءِ الأخيارُ بكَوا وجلاً أنْ تقطعَهُمْ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ شربةٌ مِنْ حلالٍ .

ويحَكَ ! أنتَ في أنواعِ النعمِ والشهواتِ مِنْ مكاسبِ السُّحتِ والشبهاتِ لا تخشى الانقطاعَ ، أفٍّ لكَ ما أعظمَ جهلَكَ !

ويحَكَ ! فإنْ تخلفتَ في القيامةِ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ محمدٍ المصطفىٰ . . لتنظرَنَّ إلىٰ أهوالٍ جزعَتْ مِنْها الملائكةُ والأنبياءُ ، ولئنْ قصَّرتَ عنِ السباقِ . . فليطولَنَّ عليكَ اللَّحاقُ ، ولئنْ أردتَ الكثيرَ . . لتصيرَنَّ إلىٰ حسابٍ عسيرٍ ، ولئنْ لمْ تقنعْ بالقليلِ . . لتصيرَنَّ إلىٰ وقوفٍ طويلٍ ، وصراخٍ وعويلٍ ، ولئنْ رضيتَ بأحوالِ المتخلفينَ . . لتنقطعَنَّ عنْ أصحابِ اليمينِ ، وعنْ رسولِ ربِّ العالمينَ ، ولتبطئَنَّ عنْ نعيمِ المتنعِّمينَ ، ولئنْ خالفتَ أحوالَ المتقينَ . . لتكونَنَّ مِنَ المحتبسينَ في أهوالِ يومِ الدينِ ، فتدبَّرْ ـ ويحَكَ ـ ما سمعتَ .

وبعدُ : فإنْ زعمتَ أنَّكَ في مثلِ خيارِ السلفِ ؛ قَنِعٌ بالقليلِ ، زاهدٌ في الحلالِ ، بذولٌ لمالِكَ ، مؤثرٌ علىٰ نفسِكَ ، لا تخشى الفقرَ ، ولا تدَّخرُ شيئاً لغدِكَ ، مبغضٌ للتكاثرِ والغنىٰ ، راضٍ بالفقرِ والبلا ، فرحٌ بالقلَّةِ

---

(1) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١١) ، والبزار في « مسنده » (٤٤) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/٣٠٩) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٣٩) ، وصاحب الخبر هو سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله تعالىٰ عنه .

والمسكنةِ ، مسرورٌ بالذُّلِّ والضَّعةِ ، كارهٌ للعلوِّ والرفعةِ ، قويٌّ في أمرِكَ ، لا يتغيَّرُ عنِ الرشدِ قلبُكَ ، قدْ حاسبتَ نفسَكَ في اللهِ ، وأحكمتَ أمورَكَ كلَّها علىٰ ما وافقَ رضوانَ اللهِ ، ولنْ تُوقفَ في المسألةِ ولا يُحاسبُ مثلُكَ مِنَ المتقينَ ، وإنَّما تجمعُ المالَ الحلالَ للبذلِ في سبيلِ اللهِ . . ويحَكَ أيُّها المغرورُ ! فتدبَّرِ الأمرَ ، وأحسنِ النظرَ ، أما علمتَ أنَّ تركَ الاشتغالِ بالمالِ ، وفراغَ القلبِ للذكرِ والتذكُّرِ والتذكارِ والفكرِ والاعتبارِ . . أسلمُ للدِّينِ ، وأيسرُ للحسابِ ، وأخفُّ للمساءلةِ ، وآمنُ منْ روعاتِ القيامةِ ، وأجزلُ للثوابِ ، وأعلىٰ لقدْرِكَ عندَ اللهِ تعالىٰ أضعافاً ؟!

بلغَنا عن بعضِ الصحابةِ أنَّهُ قالَ : (لوْ أنَّ رجلاً في حجرِهِ دنانيرُ يعطيها والآخرُ يذكرُ اللهَ تعالىٰ . . لكانَ الذاكرُ أفضلَ)[١] .

وسُئلَ بعضُ أهلِ العلمِ عنِ الرجلِ يجمعُ المالَ لأعمالِ البرِّ ، قالَ : تركُهُ أبرُّ بهِ[٢] .

وبلغَنا أنَّ بعضَ خيارِ التابعينَ سُئلَ عنْ رجلينِ ، أحدُهُما طلبَ الدنيا حلالاً فأصابَها ، فوصلَ بها رحمَهُ ، وقدَّمَ لنفسِهِ ، وأمَّا الآخرُ . . فإنَّهُ جانبَها ، فلمْ يطلبْها ولمْ يبذُلْها ، فأيُّهما أفضلُ ؟ فقالَ : بعيدٌ واللهِ

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٣) عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه .

(٢) قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٨/ ٢٢٤) : (رواه صاحب « القوت » عن الحسن) .

ما بينَهُما ، الذي جانبَها أفضلُ ؛ كما بينَ مشارقِ الأرضِ ومغاربِها[1] .

ويحَكَ ! فهٰذا الفضلُ لكَ بتركِ الدنيا علىٰ مَنْ طلبَها ، ولكَ في العاجلِ إنْ تركتَ الاشتغالَ بالمالِ أنَّ ذلكَ أروحُ لبدنِكَ ، وأقلُّ لتعبِكَ ، وأنعمُ لعيشِكَ ، وأرضىٰ لبالِكَ ، وأقلُّ لهمومِكَ ، فما عذرُكَ في جمعِ المالِ وأنتَ بتركِ المالِ أفضلُ ممَّنْ طلبَ المالَ لأعمالِ البرِّ ؟!

نعمْ ، وشغلُكَ بذكرِ اللهِ أفضلُ مِنْ بذلِ المالِ في سبيلِ اللهِ ، فاجتمعَ لكَ راحةُ العاجلِ معَ السلامةِ والفضلِ في الآجلِ .

وبعدُ : فلوْ كانَ في جمعِ المالِ فضلٌ عظيمٌ . . لوجبَ عليكَ في مكارمِ الأخلاقِ أنْ تتأسَّىٰ بنبيِّكَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ إذْ هداكَ اللهُ بهِ ، وترضىٰ ما اختارَهُ لنفسِهِ مِنْ مجانبةِ الدنيا .

ويحَكَ ! تدبَّرْ ما سمعتَ ، وكنْ علىٰ يقينٍ أنَّ السعادةَ والفوزَ في مجانبةِ الدنيا ، فسرْ معَ لواءِ المصطفىٰ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ سابقاً إلىٰ جنَّةِ المأوىٰ ؛ فإنَّهُ بلغَنا أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « ساداتُ المؤمنينَ في الجنَّةِ مَنْ إذا تغدَّىٰ . . لمْ يجدْ عشاءً ، وإذا استقرضَ . . لمْ يجدْ قرضاً ، وليسَ لهُ فضلُ كسوةٍ إلا ما يواريهِ ، ولمْ يقدرْ علىٰ أنْ يكتسبَ ما يغنيهِ ، يمسي معَ ذلكَ ويصبحُ راضياً عنْ ربِّهِ ، ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ

---

(1) قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٨/ ٢٢٤) : (رواه صاحب « القوت » عن الحسن) .

عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾[1] .

ألا يا أخي ؛ متىٰ جمعتَ هٰذا المالَ مِنْ بعدِ هٰذا البيانِ . . فإنَّكَ مبطلٌ فيما ادعيتَ أنَّكَ للبرِّ والفضلِ تجمعُهُ ، لا ، ولكنَّكَ خوفاً مِنَ الفقرِ تجمعُهُ ، وللتنعُّمِ والزينةِ والتكاثرِ والفخرِ والعلوِّ والرياءِ والسمعةِ والتعظُّمِ والتكرُّمِ تجمعُهُ ، ثمَّ تزعمُ أنَّكَ لأعمالِ البرِّ تجمعُ المالَ !

ويحَكَ ! راقبِ اللهَ واستحيِ مِنْ دعواكَ أيُّها المغرورُ .

ويحَكَ ! إنْ كنتَ مفتوناً بحبِّ المالِ والدنيا . . فكنْ مقرّاً أنَّ الخيرَ والفضلَ في الرِّضا بالبُلغةِ ومجانبةِ الفضولِ .

نعمْ ، وكنْ عندَ جمعِ المالِ مزرياً علىٰ نفسِكَ ، معترفاً بإساءتِكَ ، وجلاً مِنَ الحسابِ ، فذلكَ أنجىٰ لكَ ، وأقربُ إلى الفضلِ مِنْ طلبِ الحججِ لجمعِ المالِ .

إخواني ؛ اعلموا أنَّ دهرَ الصحابةِ كانَ الحلالُ فيهِ موجوداً ، وكانوا معَ ذلكَ مِنْ أورعِ الناسِ وأزهدِهِمْ في المباحِ ، ونحنُ في دهرٍ الحلالُ فيه مفقودٌ ، فكيفَ لنا مِنَ الحلالِ بمبلغِ القوتِ وسترِ العورةِ ؟! فأمَّا جمعُ المالِ في دهرِنا . . فأعاذَنا اللهُ وإيَّاكُمْ منْ ذلكَ .

وبعدُ : فأينَ لنا بمثلِ تقوى الصحابةِ وورعِهِمْ ، ومثلِ زهدِهِمْ واحتياطِهِمْ ؟! وأينَ لنا مثلُ ضمائرِهِمْ وحسنِ نياتِهِمْ ؟! دُهينا ـ وربِّ السماءِ

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٩٩) ضمن حديث طويل عن أبي هريرة رضي الله عنه .

ـ بأدواءِ النفوسِ وأهوائِها ، وعنْ قريبٍ يكونُ الورودُ ، فيا لسعادةِ المخفِّينَ يومَ النشورِ ، وحزنٌ طويلٌ لأهلِ التكاثرِ والتخاليطِ ، وقدْ نصحتُ لكُمْ إنْ قبلتُمْ ، والقابلونَ لهٰذا قليلٌ ، وفَّقَنا اللهُ وإياكُمْ لكلِّ خيرٍ برحمتِهِ .

هٰذا آخرُ كلامِهِ ، وفيهِ كفايةٌ في إظهارِ فضلِ الفقرِ على الغنىٰ ، ولا مزيدَ عليهِ ، ويشهدُ لذلكَ جميعُ الأخبارِ التي أوردناها في كتابِ ذمِّ الدنيا ، وفي كتابِ الفقرِ والزهدِ .

ويشهدُ لهُ أيضاً ما رُويَ عنْ أبي أمامةَ الباهليِّ : أنَّ ثعلبةَ بنَ حاطبٍ قالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ ادعُ اللهَ أنْ يرزقَني مالاً ، قالَ : « يا ثعلبةُ ؛ قليلٌ تؤدِّي شكرَهُ خيرٌ مِنْ كثيرٍ لا تطيقُهُ » ، فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ ادعُ اللهَ أنْ يرزقَني مالاً ، قالَ : « يا ثعلبةُ ؛ أما لكَ فيَّ أسوةٌ ؟ أما ترضىٰ أنْ تكونَ مثلَ نبيِّ اللهِ ؟ أما والذي نفسِي بيدِهِ ؛ لوْ شئتُ أنْ تسيرَ معيَ الجبالُ ذهباً وفضةً . . لسارَتْ » ، قالَ : والذي بعثَكَ بالحقِّ ؛ لئنْ دعوتَ اللهَ أنْ يرزقَني مالاً . . لأعطينَّ كلَّ ذي حقٍّ حقَّهُ ، ولأفعلَنَّ ولأفعلَنَّ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اللَّهمَّ ؛ ارزقْ ثعلبةَ مالاً » .

فاتخذَ غنماً ، فنمَتْ كما ينمو الدودُ ، فضاقَتْ عليهِ المدينةُ ، فتنحَّىٰ عنها ، ونزلَ وادياً مِنْ أوديتِها ، حتَّىٰ جعلَ يصلِّي الظهرَ والعصرَ في الجماعةِ ، ويدعُ ما سواهُما ، ثمَّ نمَتْ وكثرَتْ ، فتنحَّىٰ وتركَ الصلاةَ في الجماعةِ إلا الجمعةَ وهيَ تنمو كما ينمو الدودُ ، حتَّىٰ تركَ الجمعةَ ، وطفقَ

م

يلقى الركبانَ يومَ الجمعةِ يسألُهُمْ عنِ الأخبارِ في المدينةِ .

وسألَ عنهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : « ما فعلَ ثعلبةُ بنُ حاطبٍ ؟ » ، فقيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ اتخذَ غنماً ، فضاقَتْ عليهِ المدينةُ ، وأُخبرَ بأمرِهِ كلِّهِ ، فقالَ : « يا ويحَ ثعلبةَ ، يا ويحَ ثعلبةَ ، يا ويحَ ثعلبةَ » .

قالَ : وأنزلَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ ، وأنزلَ اللهُ تعالىٰ فرائضَ الصدقةِ ، فبعثَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ رجلاً مِنْ جهينةَ ورجلاً مِنْ بني سليمٍ على الصدقةِ ، وكتبَ لهُما كتاباً بأخذِ الصدقةِ[1] ، وأمرَهُما أنْ يخرجا فيأخذا الصدقةَ مِنَ المسلمينَ ، وقالَ : « مرَّا بثعلبةَ بنِ حاطبٍ وبفلانٍ ـ رجلٍ مِنْ بني سليمٍ ـ وخُذا صدقاتِهِما » .

فخرجا حتَّىٰ أتيا ثعلبةَ ، فسألاهُ الصدقةَ ، وأقرأاهُ كتابَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ : ما هـٰذهِ إلا جزيةٌ ، ما هـٰذهِ إلا أختُ الجزيةِ ، انطلقا حتَّىٰ تفرغا ثمَّ تعودا إليَّ ، فانطلقا نحوَ السليميِّ ، فسمعَ بهِما ، فقامَ إلىٰ خيارِ أسنانِ إبلِهِ ، فعزلَها للصدقةِ ، ثمَّ استقبلَهُما بها ، فلمَّا رأياهُ . . قالا : لا يجبُ عليكَ هـٰذا ، وما نريدُ أنْ نأخذَ هـٰذا منكَ ، قالَ : بلىٰ ، خُذاها ، نفسي بها طيِّبةٌ ، وإنَّما هيَ لتأخذاها .

فلمَّا فرغا مِنْ صدقاتِهِما . . رجعا حتَّىٰ مرَّا بثعلبةَ ، فسألاهُ الصدقةَ ،

---

(١) بيَّن فيه أسنان الإبل والغنم . « إتحاف » (٨/ ٢٢٥) .

فقالَ : أرياني كتابَكُما ، فنظرَ فيهِ فقالَ : هـٰذهِ أختُ الجزيةِ ، انطلقا حتَّىٰ أرىٰ رأيي ، فانطلقا حتَّىٰ أتيا النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فلمَّا رآهُما . . قالَ : « يا ويحَ ثعلبةَ » قبلَ أنْ يكلِّماهُ ، ودعا للسليميِّ ، فأخبراهُ بالذي صنعَ ثعلبةُ ، وبالذي صنعَ السليميُّ ، فأنزلَ اللهُ تعالىٰ في ثعلبةَ : ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ۝ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾ ، وعندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ رجلٌ مِنْ أقاربِ ثعلبةَ ، فسمعَ ما أنزلَ اللهُ فيهِ ، فخرجَ حتَّىٰ أتىٰ ثعلبةَ ، فقالَ : لا أمَّ لكَ يا ثعلبةُ ، قدْ أنزلَ اللهُ فيكَ كذا وكذا .

فخرجَ ثعلبةُ حتَّىٰ أتى النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فسألَهُ أنْ يقبلَ منهُ صدقتَهُ ، فقالَ : « إنَّ اللهَ منعَني أنْ أقبلَ منْكَ صدقتَكَ » ، فجعلَ يحثو الترابَ علىٰ رأسِهِ ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « هـٰذا عملُكَ ، أمرتُكَ فلمْ تطعْني » ، فلمَّا أبىٰ أنْ يقبلَ منهُ شيئاً . . رجعَ إلىٰ منزلِهِ .

فلمَّا قُبِضَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . جاءَ بها إلىٰ أبي بكرٍ الصديقِ رضيَ اللهُ عنهُ ، فأبىٰ أنْ يقبلَها منهُ ، وجاءَ بها إلىٰ عمرَ بنِ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ ، فأبىٰ أنْ يقبلَها منهُ ، وتُوُفِّيَ ثعلبةُ بعدَ خلافةِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ[1] .

---

(١) رواه الطبري في « تفسيره » (٦/ ١٠/ ٢٣٦) ، والطبراني في « الكبير » (٨/ ٢١٨) ، وأبو نعيم في « معرفة الصحابة » (١/ ٤٩٥) ، والبيهقي في « الشعب » (٤٠٤٨) ، =

فهـٰذا طغيانُ المالِ وشؤمُهُ ، وقدْ عرفتَهُ مِنْ هـٰذا الحديثِ .

ولأجلِ بركةِ الفقرِ وشؤمِ الغنىٰ آثرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ الفقرَ لنفسِهِ ولأهلِ بيتِهِ ، حتَّىٰ رُوِيَ عنْ عمرانَ بنِ حصينٍ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ قالَ : كانَتْ لي مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ منزلةٌ وجاهٌ ، فقالَ : « يا عمرانُ ؛ إنَّ لكَ عندَنا منزلةً وجاهاً ، فهلْ لكَ في عيادةِ فاطمةَ بنتِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؟ » فقلتُ : نعمْ بأبي أنتَ وأمي يا رسولَ اللهِ ، فقامَ وقمتُ معَهُ ، حتَّىٰ وقفَ ببابِ منزلِ فاطمةَ رضيَ اللهُ عنها ، فقرعَ البابَ وقالَ : « السلامُ عليكُمْ ، أأدخلُ ؟ » فقالَتِ : ادخلْ يا رسولَ اللهِ ، قالَ : « أنا ومَنْ معي ؟ » قالَتْ : ومَنْ معَكَ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « عمرانُ بنُ حُصينٍ » ، قالَتْ : والذي بعثَكَ بالحقِّ نبياً ؛ ما عليَّ إلا عباءةٌ ، قالَ : « اصنعي بها هـٰكذا وهـٰكذا » وأشارَ بيدِهِ ، فقالَتْ : هـٰذا جسدِي قدْ واريتُهُ ، فكيفَ برأسِي ؟ فألقىٰ إليها ملاءةً كانَتْ عليهِ خَلَقَةً ، فقالَ : « شدِّي بها علىٰ رأسِكِ » .

ثمَّ أذنَتْ لهُ فدخلَ ، فقالَ : « السلامُ عليكِ يا بنتاهُ ، كيفَ أصبحتِ ؟ » فقالَتْ : أصبحتُ واللهِ وَجِعَةً ، وزادَني وجعاً علىٰ ما بي أنِّي لستُ أقدرُ علىٰ طعامٍ آكلُهُ ، فقدْ أجهدَني الجوعُ ، فبكىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ

= وقوله : (وتوفي ثعلبة بعد خلافة عمر) أي : في خلافة عثمان رضي الله عنه كما هو مصرح به عندهم .

وقالَ : « لا تجزعي يا بنتاهُ ، فواللهِ ؛ ما ذقتُ طعاماً منذُ ثلاثٍ ، وإنِّي لأكرمُ على اللهِ منكِ ، ولوْ سألتُ ربِّي.. لأطعمَني ، ولكنْ آثرتُ الآخرةَ على الدنيا » ، ثمَّ ضربَ بيدِهِ علىٰ مَنْكِبِها وقالَ لها : « أبشري ، فواللهِ ؛ إنَّكِ لسيِّدةُ نساءِ أهلِ الجنَّةِ » ، فقالَتْ : فأينَ آسيةُ امرأةُ فرعونَ ومريمُ بنتُ عمرانَ ؟ فقالَ : « آسيةُ سيِّدةُ نساءِ عالمِها ، ومريمُ سيِّدةُ نساءِ عالمِها ، وخديجةُ سيِّدةُ نساءِ عالمِها ، وأنتِ سيِّدةُ نساءِ عالمِكِ ، إنَّكنَّ في بيوتٍ مِنْ قصبٍ لا أذىٰ فيها ولا صخبَ » ، ثمَّ قالَ لها : « اقنعي بابنِ عمِّكِ ، فواللهِ ؛ لقدْ زوَّجتُكِ سيِّداً في الدنيا سيِّداً في الآخرةِ »[1] .

فانظرِ الآنَ إلىٰ حالِ فاطمةَ وهيَ بَضْعةٌ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كيفَ آثرَتِ الفقرَ ، وتركَتِ المالَ .

ومَنْ راقبَ أحوالَ الأنبياءِ والأولياءِ وأقوالَهُمْ ، وما ورَدَ مِنْ أخبارِهِمْ وآثارِهِمْ.. لمْ يشكَّ في أنَّ فقدَ المالِ أفضلُ مِنْ وجودِهِ وإنْ صُرِفَ إلى الخيراتِ ؛ إذْ أقلُّ ما فيهِ معَ أداءِ الحقوقِ ، والتوقِّي مِنَ الشبهاتِ ، والصرفِ إلى الخيراتِ.. اشتغالُ الهمِّ بإصلاحِهِ ، وانصرافُهُ عنْ ذكرِ اللهِ ؛ إذْ لا ذكرَ إلا معَ الفراغِ ، ولا فراغَ معَ شغلِ المالِ .

وقدْ رُوِيَ عنْ جَريرٍ ، عنْ ليثٍ قالَ : صحبَ رجلٌ عيسىٰ بنَ مريمَ عليهِ

---

(١) رواه الآجري في « الشريعة » (١٦٠٧) ، ورواه مختصراً من حديث معقل بن يسار رضي الله عنه أحمدُ في « المسند » (٥/٢٦) ، والطبراني في « الكبير » (٢٠/٢٢٩) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٢/١٢٦) .

السلامُ ، فقالَ : أكونُ معَكَ وأصحبُكَ ، فانطلقا ، فانتهيا إلىٰ شطِّ نهرٍ ، فجلسا يتغدَّيانِ ومعَهُمَا ثلاثةُ أرغفةٍ ، فأكلا رغيفينِ ، وبقيَ رغيفٌ ، فقامَ عيسىٰ عليهِ السلامُ إلى النهرِ فشربَ ، ثمَّ رجعَ فلمْ يجدِ الرغيفَ ، فقالَ للرَّجلِ : مَنْ أخذَ الرغيفَ ؟ قالَ : لا أدري .

قالَ : فانطلَقَ ومعَهُ صاحبُهُ ، فرأىٰ ظبيةً ومعَها خِشْفانِ لها ، قالَ : فدعا أحدَهُما فأتاهُ ، فذبحَهُ واشتوىٰ منهُ ، فأكل هوَ وذلكَ الرجلُ ، ثمَّ قالَ للخِشْفِ : قمْ بإذنِ اللهِ ، فقامَ فذهبَ ، فقالَ : للرجلِ : أسألُكَ بالذي أراكَ هـٰذهِ الآيةَ ؛ مَنْ أخذَ الرغيفَ ؟ قالَ : لا أدري ، ثمْ انتهيا إلىٰ وادي ماءٍ ، فأخذَ عيسىٰ بيدِ الرجلِ فمشيَا على الماءِ ، فلمَّا جَاوزا. . قالَ : أسألكَ بالذي أراكَ هـٰذهِ الآيةَ ، مَنْ أخذَ الرغيفَ ؟ فقالَ : لا أدري .

قالَ : فانتهيا إلىٰ مفازةٍ ، فجلسا ، فأخذَ عيسىٰ عليهِ السلامُ فجمعَ تراباً أوْ كثيباً ، ثمَّ قالَ : كنْ ذهباً بإذنِ اللهِ تعالىٰ ، فصارَ ذهباً ، فقسمَهُ ثلاثةَ أثلاثٍ ، فقالَ : ثلثٌ لي ، وثلثٌ لكَ ، وثلثٌ لمَنْ أخذَ الرغيفَ ، قالَ : أنا الذي أخذتُ الرغيفَ ، قالَ : فكلُّهُ لكَ ، وفارقَهُ عيسىٰ عليهِ السلامُ .

فانتهىٰ إليهِ رجلانِ في المفازةِ ومعَهُ المالُ ، فأرادا أنْ يأخذاهُ منهُ ويقتلاهُ ، فقالَ : هوَ بينَنا أثلاثاً ، فابعثوا أحدَكُمْ إلى القريةِ حتَّىٰ يشتريَ لنا طعاماً نأكلُهُ ، فبعثوا أحدَهُمْ ، فقالَ الذي بُعِثَ : لأيِّ شيءٍ أقاسمُ هؤلاءِ هـٰذا المالَ ، لكنِّي أضعُ في الطعامِ سمّاً فأقتلُهُما وآخذُ المالَ وحدي ،

قالَ : ففعلَ ، وقالَ ذانِكَ الرجلانِ : لأيِّ شيءٍ نجعلُ لهـٰذا ثلثَ المالِ ، ولكنْ إذا رجَعَ . . قتلناهُ واقتسمنا المالَ بينَنا .

قالَ : فلما رجعَ إليهما . . قتلاهُ وأكلا الطعامَ فماتا ، فبقيَ ذلكَ المالُ في المفازةِ وأولئكَ الثلاثةُ قتلىٰ عندَهُ ، فمرَّ بهِمْ عيسىٰ عليهِ السلامُ علىٰ تلكَ الحالةِ ، فقالَ لأصحابِهِ : هـٰذهِ الدُّنيا فاحذروها[1] .

وحُكيَ أنَّ ذا القرنينِ أتىٰ علىٰ أمةٍ مِنَ الأممِ ليسَ في أيديهِمْ شيءٌ ممَّا يستمتعُ بهِ الناسُ مِنْ دنياهُمْ قدِ احتفروا قبوراً ، فإذا أصبحوا . . تعهَّدوا تلكَ القبورَ وكنسوها ، وصلَّوا عندَها ، ورعَوُا البقلَ كما ترعى البهائمُ ، وقدْ قُيِّضَ لهُمْ في ذلكَ معايشُ مِنْ نباتِ الأرضِ ، فأرسلَ ذو القرنينِ إلىٰ ملكِهِمْ ، فقالَ لهُ : أجبْ ذا القرنينِ ، فقالَ : ما لي إليهِ حاجةٌ ، فإنْ كانَ لهُ حاجةٌ . . فليأتني ، فقالَ ذو القرنينِ : صدقَ ، فأقبلَ إليهِ ذو القرنينِ وقالَ : أرسلتُ إليكَ لتأتيَني فأبيتَ ، فهـٰأنا قدْ جئتُ ، فقالَ : لوْ كانَ لي إليكَ حاجةٌ . . لأتيتُكَ ، فقالَ لهُ ذو القرنينِ : ما لي أراكُمْ على الحالِ التي لمْ أرَ أحداً مِنَ الأممِ عليها ، قالَ : وما ذاكَ ؟ قالَ : ليسَ لكُمْ دنيا ولا شيءٌ ، أفلا اتخذتُمُ الذهبَ والفضةَ فاستمتعتُمْ بهِما ؟ قالوا : إنَّما كرهناهُما لأنَّ أحداً لمْ يُعطَ منهما شيئاً إلا تاقَتْ نفسُهُ ودعَتْهُ إلىٰ ما هوَ أفضلُ منهُ ، فقالَ : ما بالُكُمْ قدِ احتفرتُمْ قبوراً ، فإذا أصبحتُمْ تعهَّدتُموها ، فكنستموها وصلَّيتُمْ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (١٧٧) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٧/ ٣٩٤) .

عندَها ؟ قالوا : أردنا إذا نظرنا إليها وأملنا الدنيا . . منعَتْنا قبورُنا مِنَ الأملِ ، قالَ : وأراكُمْ لا طعامَ لكُمْ إلا البقلُ مِنَ الأرضِ ، أفلا اتخذتُمُ البهائمَ مِنَ الأنعامِ فاحتلبتُموها وركبتُموها فاستمتعتُمْ بها ؟ فقالوا : كرهنا أنْ نجعلَ بطونَنَا قبوراً لها ، ورأينا في نباتِ الأرضِ بلاغاً ، وإنَّما يكفي ابنَ آدمَ أدنى العيشِ مِنَ الطعامِ ، وإنَّ ما جاوزَ الحنكَ مِنَ الطعامِ . . لمْ نجدْ لهُ طعماً كائناً ما كانَ مِنَ الطعامِ ، ثمَّ بسطَ ملكُ تلكَ الأرضِ يدَهُ خلفَ ذي القرنينِ فتناولَ جُمجُمةً فقالَ : يا ذا القرنينِ ؛ أتدري مَنْ هـٰذا ؟ قالَ : لا ، ومَنْ هوَ ؟ قالَ : ملكٌ مِنْ ملوكِ الأرضِ ، أعطاهُ اللهُ سلطاناً علىٰ أهلِ الأرضِ ، فغشمَ وظلمَ وعتا ، فلمَّا رأى اللهُ تعالىٰ ذلكَ منهُ . . حسمَهُ بالموتِ ، فصارَ كالحجرِ الملقىٰ ، وقدْ أحصى اللهُ عليهِ عملَهُ حتَّىٰ يجزيَهُ بهِ في آخرتِهِ ، ثمَّ تناولَ جُمجُمةً أخرىٰ باليةً فقالَ : يا ذا القرنينِ ، هلْ تدري مَنْ هـٰذا ؟ قالَ : لا ، ومَنْ هوَ ؟ قالَ : هـٰذا ملكٌ ملَّكَهُ اللهُ بعدَهُ ، قدْ كانَ يرىٰ ما يصنعُ الذي قبلَهُ بالناسِ مِنَ الغَشْمِ والظلمِ والتجبُّرِ ، فتواضعَ وخشعَ للهِ عزَّ وجلَّ ، وأمرَ بالعدلِ في أهلِ مملكتِهِ ، فصارَ كما ترىٰ ، قدْ أحصى اللهُ عليهِ عملَهُ حتَّىٰ يجزيَهُ بهِ في آخرتِهِ ، ثمَّ أهوىٰ إلىٰ جمجمةِ ذي القرنينِ فقال : وهـٰذهِ الجمجمةُ كأنْ قدْ صارَتْ كهاتينِ ، فانظرْ يا ذا القرنينِ ما أنتَ صانعٌ ، فقالَ لهُ ذو القرنينِ : هلْ لكَ في صحبتي فأتخذَكَ أخاً ووزيراً وشريكاً فيما آتاني اللهُ مِنْ هـٰذا المالِ ؟ قالَ : ما أصلحُ أنا وأنتَ في مكانٍ ، ولا أنْ نكونَ جميعاً ، قالَ ذو القرنينِ : ولِمَ ؟ قالَ : مِنْ أجلِ أنَّ الناسَ كلَّهُمْ لكَ عدوٌّ

ولي صديقٌ ، قالَ : ولِمَ ؟ قالَ : يعادونَكَ لما في يديكَ مِنَ الملكِ والمالِ والدنيا ، ولا أجدُ أحداً يعاديني لرفضي لذلكَ ، ولما عندي مِنَ الحاجةِ وقلَّةِ الشيءِ ، قالَ : فانصرفَ عنهُ ذو القرنينِ متعجباً منهُ ومتَّعظاً به[1] .

* * *

فهٰذهِ الحكاياتُ تدلُّكَ علىٰ آفاتِ الغنىٰ معَ ما قدَّمناهُ مِنْ قبلُ ، واللهُ الموفقُ للصوابِ .

* * *

تمّ كتاب ذمّ المال والبخل

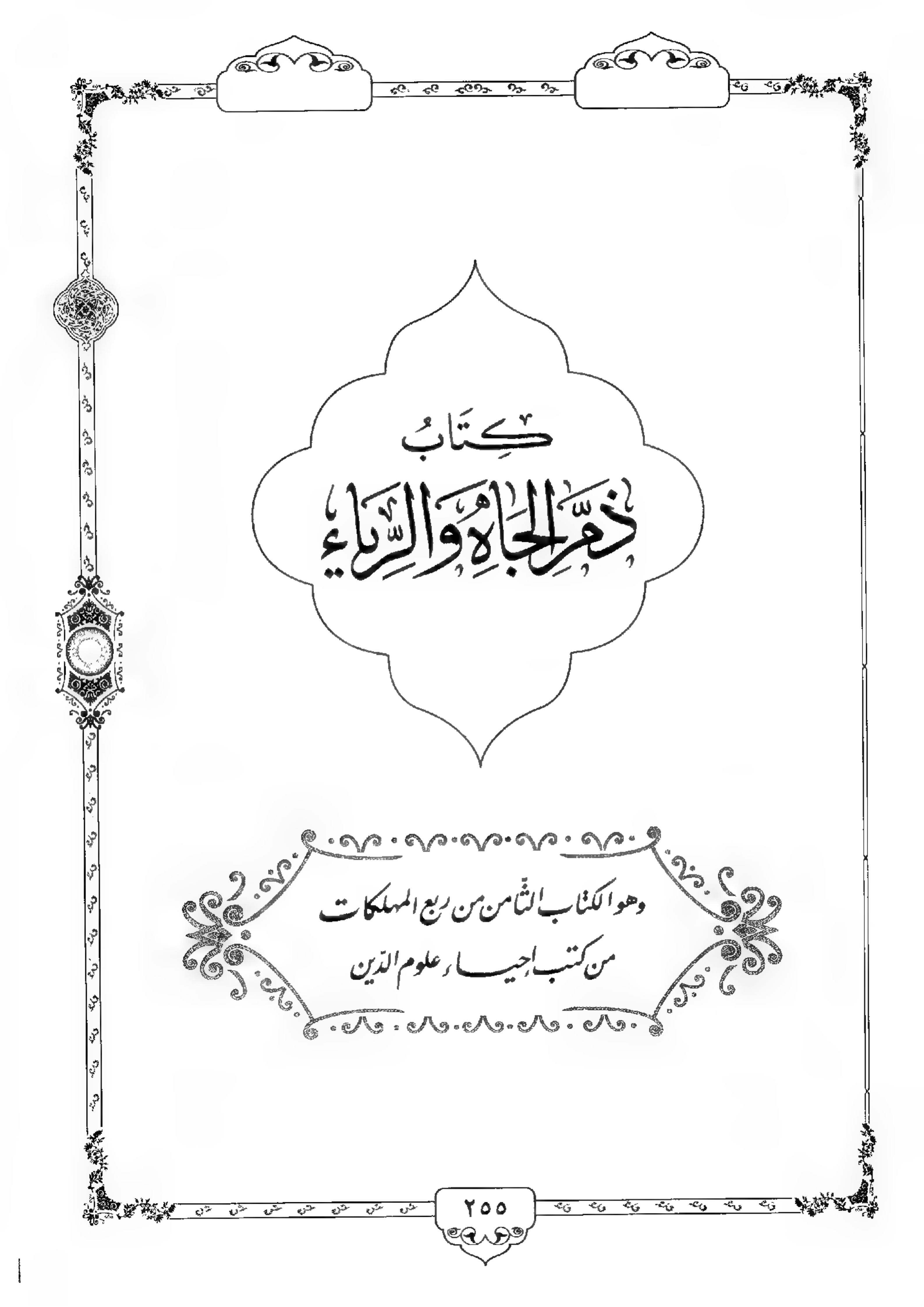
وهو الكتاب السّابع من ربع المهلكات من كتب إحياء علوم الدين

بحمد الله وعونه ، وصلّى الله على سيّدنا محمّدٍ وعلى آله وسلّم

يتلوه كتاب ذمّ الجاه والرّياء

---

(١) رواه أبو الشيخ في « العظمة » (٩٥٨) ، وابن الجوزي من طريق ابن أبي الدنيا في « المنتظم » (١/ ١٨٥) .



كتاب
ذم الجاه والرياء

وهو الكتاب الثامن من ربع المهلكات
من كتب إحياء علوم الدين

كتاب ذمّ الجاه والرّياء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ علاَّمِ الغيوبِ ، المطَّلِعِ علىٰ سرائرِ القلوبِ ، المتجاوزِ عنْ كبائرِ الذنوبِ ، العالمِ بما تُجِنُّهُ الضمائرُ مِنْ خفايا العيوبِ ، البصيرِ بسرائرِ النياتِ وخفايا الطوياتِ ، الذي لا يقبلُ مِنَ الأعمالِ إلا ما كمُلَ ووفىٰ ، وخلُصَ مِنْ شوائبِ الرِّياءِ والشركِ وصفا ، فإنَّهُ المنفردُ بالملكوتِ والملكِ ، وهوَ أغنى الأغنياءِ عنِ الشركِ ، والصلاةُ علىٰ محمدٍ وآلِهِ وأصحابِهِ المبرَّئينَ مِنَ الخيانةِ والإفكِ ، وسلَّمَ كثيراً .

أما بعد :

فقدْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ أخوفَ ما أخافُ علىٰ أمَّتي الرياءُ والشهوةُ الخفيةُ »[1] .

والرياءُ مِنَ الشهوةِ الخفيةِ التي هيَ أخفىٰ مِنْ دبيبِ النملةِ السوداءِ على الصخرةِ الصمَّاءِ في الليلةِ الظلماءِ ، ولذلكَ عجزَ عنِ الوقوفِ علىٰ غوائلِها

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١١١٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٧/ ١٢٢) ، والبيهقي في « الزهد الكبير » (٣١٦) ، وروى ابن ماجه (٤٢٠٥) من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه مرفوعاً : « إن أخوف ما أتخوف علىٰ أمتي الإشراك بالله ؛ أما إني لست أقول : يعبدون شمساً ولا قمراً ولا وثناً ، ولكن أعمالاً لغير الله وشهوة خفية » .

سماسرةُ العلماءِ ، فضلاً عنْ عامَّة العبَّادِ والأتقياءِ ، وهوَ مِنْ أواخرِ غوائلِ النفسِ ، وبواطنِ مكايدِها ، وإنَّما يُبتلىٰ بهِ العلماءُ والعبَّادُ المشمِّرونَ عنْ ساقِ الجدِّ لسلوكِ سبيل الآخرةِ ؛ فإنَّهُمْ مهما قهروا أنفسَهُمْ وجاهدوها وفطموها عنِ الشهواتِ ، وصانوها عنِ الشبهاتِ ، وحملوها بالقهرِ علىٰ أصنافِ العباداتِ . . عجزَتْ نفوسُهُمْ عنِ الطمعِ في المعاصي الظاهرةِ الواقعةِ على الجوارحِ ، فطلبَتِ الاستراحةَ إلى التظاهرِ بالخيرِ ، وإظهارِ العملِ والعلمِ ، فوجدَتْ مخلصاً مِنْ مشقَّةِ المجاهدةِ إلىٰ لذَّةِ القبولِ عندَ الخلقِ ، ونظرِهِمْ إليها بعينِ الوقارِ والتعظيمِ ، فنازعَتْ إلىٰ إظهارِ الطاعةِ[1] ، وتوصَّلَتْ إلى اطِّلاعِ الخلقِ ، ولمْ تقنَعْ باطِّلاعِ الخالقِ ، وفرحَتْ بحمدِ الناسِ ، ولمْ تقنعْ بحمدِ اللهِ وحدَهُ ، وعلمَتْ أنَّهُمْ إذا عرفوا تركَها للشهواتِ ، وتوقِّيَها للشبهاتِ ، وتحمُّلَها لمشاقِّ العباداتِ . . أطلقوا ألسنتَهُمْ بالمدحِ والثناءِ ، وبالغوا في التقريظِ والإطراءِ ، ونظروا إليها بعينِ التوقيرِ والاحترامِ ، وتبرَّكوا بمشاهدتِها ولقائِها ، ورغبوا في بركةِ دعائِها ، وحرصوا على اتباعِ رأيِها ، وفاتحوها بالخدمةِ والسلامِ ، وأكرموها في المحافلِ غايةَ الإكرامِ ، وسامحوها في البيعِ والمعاملاتِ ، وقدَّموها في المجالسِ ، وآثروها بالمطاعمِ والملابسِ ، وتصاغروا لها متواضعينَ ، وانقادوا لها في أغراضِها موقِّرينَ ، فأصابَتِ النفسُ في ذلكَ لذَّةً هيَ أعظمُ

---

(١) نازعت : اشتاقت ، وفي (أ) : (سارعت) بدل (نازعت) .

اللذَّاتِ ، وشهوةً هيَ أغلبُ الشهواتِ ، فاستحقرَتْ فيها تركَ المعاصي والهفواتِ ، واستلانَتْ خشونةَ المواظبةِ على العباداتِ ؛ لإدراكِها في الباطنِ لذَّةَ اللذاتِ ، وشهوةَ الشهواتِ .

فهو يظنُّ أنَّ حياتَهُ باللهِ وبعبادتِهِ المرضيَّةِ ، وإنَّما حياتُهُ بهـٰذِهِ الشهوةِ الخفيةِ ، التي تعمىٰ عنْ دركِها العقولُ النافذةُ القويةُ ، ويرىٰ أنَّهُ مخلصٌ في طاعةِ اللهِ ، ومجتنبٌ لمحارمِ اللهِ ، والنفسُ قدْ أبطنَتْ هـٰذِهِ الشهوةَ ؛ تزيُّناً للعبادِ ، وتصنُّعاً للخلقِ ، وفرحاً بما نالَتْ مِنَ المنزلةِ والوقارِ ، وأحبطَتْ بذلكَ ثوابَ الطاعاتِ وأجورَ الأعمالِ ، وقدْ أثبتَتْ اسمَهُ في جريدةِ المنافقينَ ، وهوَ يظنُّ أنهُ عندَ اللهِ مِنَ المقربينَ .

وهـٰذِهِ مكيدةٌ للنفسِ لا يسلمُ مِنْها إلا الصديقونَ ، ومهواةٌ لا يرقىٰ عنها إلا المقربونَ ، ولذلكَ قيلَ : (آخرُ ما يخرجُ مِن رؤوسِ الصدِّيقينَ حبُّ الرئاسةِ)(١) .

وإذا كانَ الرياءُ هوَ الداءَ الدفينَ ، الذي هوَ أعظمُ شبكةٍ للشياطينِ . . وجبَ شرحُ القولِ في سببِهِ ، وحقيقتِهِ ، ودرجاتِهِ ، وأقسامِهِ ، وطرقِ معالجتِهِ ، والحذرِ مِنْهُ ، ويتضحُ الغرضُ مِنْهُ في ترتيبِ الكتابِ علىٰ شطرينِ .

❋ ❋ ❋

---

(١) كما نقله القشيري وصاحب « القوت » . « إتحاف » (٨/ ٢٣٢) .

الشَّطرُ الأوّلُ
في حبّ الجاه والشّهرة

وفيهِ بيانُ ذمِّ الشهرةِ ، وبيانُ فضيلةِ الخمولِ ، وبيانُ ذمِّ الجاهِ ، وبيانُ معنى الجاهِ وحقيقتِهِ ، وبيانُ السببِ في كونِهِ محبوباً حبّاً أشدَّ مِنْ حُبِّ المالِ ، وبيانُ أنَّ الجاهَ كمالٌ وهميٌّ وليسَ بكمالٍ حقيقيٍّ ، وبيانُ ما يُحمدُ مِنْ حُبِّ الجاهِ وما يُذمُّ ، وبيانُ السببِ في حبِّ المدحِ والثناءِ وكراهةِ الذمِّ ، وبيانُ العلاجِ في حُبِّ الجاهِ ، وبيانُ علاجِ حبِّ المدحِ ، وبيانُ علاجِ كراهةِ الذمِّ ، وبيانُ اختلافِ أحوالِ الناسِ في المدحِ والذمِّ .

فهيَ اثنا عشرَ فصلاً ، منها تنشأُ معاني الرياءِ ، فلا بدَّ مِنْ تقديمِها ، واللهُ الموفِّقُ للصوابِ بلطفِهِ ومنِّهِ وكرمِهِ .

* * *

بيان ذمّ الشّهرة وانتشار الصّيت

اعلمْ : أنَّ أصلَ الجاهِ هوَ انتشارُ الصِّيتِ والاشتهارُ ، وهوَ مذمومٌ ، بلْ المحمودُ الخمولُ ، إلا مَنْ شهرَهُ اللهُ تعالىٰ لنشرِ دينِهِ مِنْ غيرِ تكلُّفِ طلبِ الشهرةِ مِنْهُ .

قالَ أنسٌ رضيَ اللهُ عنهُ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « حسبُ

امرىءٍ مِنَ الشَّرِّ أنْ يشيرَ الناسُ إليهِ بالأصابعِ في دينِهِ ودنياهُ إلا مَنْ عصمَهُ اللهُ »[١] .

وقالَ جابرُ بنُ عبدِ اللهِ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « بحسبِ المرءِ مِنَ الشرِّ ـ إلا مَنْ عصمَهُ اللهُ مِنَ السوءِ ـ أنْ يشيرَ الناسُ إليهِ بالأصابعِ في دينِهِ ودنياهُ ، إنَّ اللهَ لا ينظرُ إلىٰ صورِكُمْ ، ولكنْ ينظرُ إلىٰ قلوبِكُمْ وإلىٰ أعمالِكُمْ »[٢] .

ولقدْ ذكرَ الحسنُ رحمهُ اللهُ للحديثِ تأويلاً لا بأسَ بهِ؛ إذْ روىٰ هـٰذا الحديثَ، فقيلَ لهُ : يا أبا سعيدٍ؛ إنَّ الناسَ إذا رأَوكَ . . أشاروا إليكَ بالأصابعِ ، قالَ : إنَّهُ لمْ يعنِ هـٰذا ، إنَّما عنىٰ بهِ المبتدعَ في دينِهِ ، والفاسقَ في دنياهُ[٣] .

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (تبذَّلْ ، لا تشتهرْ ، ولا ترفعْ شخصَكَ لتُذكرَ وتُعلَمَ ، واكتُمْ واصمُتْ . . تسلمْ ، تسرُّ الأبرارَ وتغيظُ الفجارَ)[٤] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٣٠) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٥٨٠) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٣١) ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « إن الله لا ينظر إلىٰ صوركم . . . » رواه مسلم (٢٥٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) روى ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٣٢) عن الحسن مرسلاً : « حسب المرء من الشر أن يشار إليه بالأصابع في دينه ودنياه » ، وروىٰ قوله هنا عقبه (٣٣) ، قال الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص ١٢٠) بعد رواية حديث الحسن : (إنما يشار إليه في دين لأنه أحدث بدعة ومنكراً ، وفي دنيا أحدث منكراً من الكبائر) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٣٤) .

وقالَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ : (ما صدقَ اللهَ مَنْ أحبَّ الشهرةَ)[1] .

وقالَ أيوبُ السختيانيُّ : (واللهِ ؛ ما صدقَ اللهَ عبدٌ إلا سرَّهُ ألا يُشعرَ بمكانِهِ)[2] .

وعنْ خالدِ بنِ معدانَ أنَّهُ كانَ إذا كثُرَتْ حلقتُهُ . . قامَ مخافةَ الشهرةِ[3] .

وعنْ أبي العاليةِ أنَّهُ كانَ إذا جلسَ إليهِ أكثرُ مِنْ ثلاثةٍ . . قامَ[4] .

ورأىٰ طلحةُ قوماً يمشونَ معَهُ أكثرَ مِنْ عشرةٍ ، فقالَ : ذبابُ طمعٍ ، وفَراشُ نارٍ[5] .

وقالَ سُليمُ بنُ حنظلةَ : بينا نحنُ حولَ أُبيِّ بنِ كعبٍ نمشي خلفَهُ ؛ إذْ رآهُ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ ، فعلاهُ بالدِّرَّةِ ، فقالَ : انظرْ يا أميرَ المؤمنينَ ما تصنعُ ، فقالَ : إنَّ هـٰذهِ ذلةٌ للتابعِ ، وفتنةٌ للمتبوعِ[6] .

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٣١) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٥٧٦) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٣٥) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٤٦) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٤٧) .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٥٠) .
(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٥١) ، وقد أورد نصر بن مزاحم في « وقعة صفين » (٥٣٢) ، وروى الطبري في « تاريخه » (٥/ ٦٢) أن حرب بن شرحبيل ـ وكان ذا شأن في قومه ـ أقبل يمشي مع سيدنا علي رضي الله عنه وهو راكب ، فقال له علي : ارجع ، فإن مشي مثلك مع مثلي فتنة للوالي ومذلة للمؤمن .

وعنِ الحسنِ قالَ : خرجَ ابنُ مسعودٍ يوماً مِنْ منزلِهِ ، فاتَّبَعَهُ أناسٌ ، فالتفَتَ إليهِمْ فقالَ : علامَ تتبعوني ؟ فواللهِ ؛ لوْ تعلمونَ ما أُغلقَ عليهِ بابي . . ما اتَّبَعَني منكُمْ رجلانِ(١) .

وقالَ الحسنُ : (إنَّ خفقَ النعالِ حولَ الرجالِ قلَّما تثبتُ معَهُ قلوبُ الحمقىٰ)(٢) .

وخرجَ الحسنُ ذاتَ يومٍ فاتبعَهُ قومٌ ، فقالَ : هلْ لكُمْ مِنْ حاجةٍ ؟ وإلا . . فما عسىٰ أنْ يبقيَ هـٰذا مِنْ قلبِ المؤمنِ ؟(٣) .

ورُويَ أنَّ رجلاً صحبَ ابنَ محيريزٍ في سفرٍ ، فلمَّا فارقَهُ . . قالَ : أوصني ، قالَ : إنِ استطعتَ أنْ تَعْرِفَ ولا تُعْرفَ ، وتمشيَ ولا يُمشىٰ إليكَ ، وتسألَ ولا تُسألَ . . فافعلْ(٤) .

وخرجَ أيوبُ في سفرٍ ، فتبعَهُ ناسٌ كثيرٌ ، فقالَ : لولا أنِّي أعلمُ أنَّ اللهَ يعلمُ مِنْ قلبي أنِّي لهـٰذا كارهٌ . . لخشيتُ المقتَ مِنَ اللهِ تعالىٰ(٥) .

وقالَ معمرٌ : عاتبتُ أيوبَ علىٰ طولِ قميصِهِ ، فقالَ : إنَّ الشهرةَ فيما مضىٰ كانَتْ في طولِهِ ، وهيَ اليومَ في تشميرِهِ(٦) .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٥٢) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٥٣) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٥٤) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٥٥) ، وفيه وفي (ب) : (ألا تعرف) .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٥٩) ، وأيوب هو السختياني .
(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٦١) .

وقالَ بعضُهُمْ : كنَّا معَ أبي قلابةَ ؛ إذْ دخلَ عليهِ رجلٌ عليهِ أكسيةٌ ، فقالَ : إيَّاكمْ وهٰذا الحمارَ النهَّاقَ . . يشيرُ بهِ إلىٰ طلبِ الشهرةِ[1] .

وقالَ الثوريُّ : (كانوا يكرهونَ الشهرتينِ ؛ الثيابَ الجيِّدةَ ، والثيابَ الرديئةَ ؛ إذِ الأبصارُ تمتدُّ إليهِما جميعاً)[2] .

وقالَ رجلٌ لبشرِ بنِ الحارثِ : أوصني ، فقالَ : أَخمِلْ ذكرَكَ ، وطيِّبْ مطعمَكَ[3] .

وكانَ حوشبٌ يبكي ويقولُ : بلغَ اسمي مسجدَ الجامعِ[4] .

وقالَ بشرٌ : (ما أعرفُ رجلاً أحبَّ أنْ يُعرفَ إلا ذهبَ دينُهُ وافتَضَحَ)[5] .

وقالَ أيضاً : (لا يجدُ حلاوةَ الآخرةِ رجلٌ يحبُّ أنْ يعرفَهُ الناسُ)[6] .

* * *

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٦٥) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٦٤) ، وجاء النهي عن الشهرتين مرفوعاً كما رواه البيهقي في « الشعب » (٥٨٢١) وقد سئل صلى الله عليه وسلم : ما الشهرتان ؟ فقال : « رقة الثياب وغلظها ، ولينها وخشونتها ، وطولها وقصرها ، ولكن سداد فيما ذلك واقتصاد » .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٦٩) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٧٠) .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٧٢) .

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٧٢) .

بيان فضيلة الخمول

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « رُبَّ أشعثَ أغبرَ ذي طمرينِ ، لا يُؤبَهُ لهُ ، لوْ أقسمَ على اللهِ . . لأبرَّهُ ، مِنهُمُ البراءُ بنُ مالكٍ »[١] .

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « رُبَّ ذي طمرينِ ، لا يُؤبَهُ لهُ ، لوْ أقسمَ على اللهِ . . لأبرَّهُ ، لوْ قالَ : اللَّهمَّ ؛ أسألُكَ الجنَّةَ . . لأعطاهُ الجنَّةَ ، ولمْ يعطِهِ مِنَ الدنيا شيئاً »[٢] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ألاَ أدلُّكُمْ علىٰ أهلِ الْجنَّةِ ؟ كلُّ ضعيفٍ متضعِّفٍ ، لوْ أقسمَ على اللهِ . . لأبرَّهُ ، وأهلُ النَّارِ كلُّ مستكبرٍ جوَّاظٍ »[٣] .

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ أهلَ الجنَّةِ كلُّ أشعثَ أغبرَ ذي طمرينِ لا يُؤبَهُ لهُ ، الذينَ إذا استأذنوا على الأمراءِ . . لمْ يُؤذَنْ لهُمْ ، وإذا خطبوا النساءَ . . لمْ يُنكحوا ، وإذا قالوا . . لمْ يُنصَتْ لقولِهِمْ ،

---

(١) رواه الترمذي (٣٨٥٤) ، وأصله عند مسلم (٢٦٢٢) .

(٢) رواه تمام في « فوائده » (١٦٦٣) ، وقال الحافظ العراقي : (رواه ابن أبي الدنيا ، ومن طريقه أبو منصور الديلمي في « مسند الفردوس » بسند ضعيف) . « إتحاف » (٨/ ٢٣٥) .

(٣) رواه البخاري (٤٩١٨) ، ومسلم (٢٨٥٣) .

حوائجُ أحدِهِمْ تتجلجلُ في صدرِهِ ، لوْ قُسِّمَ نورُهُ يومَ القيامةِ على الناسِ . . لوسعَهُمْ »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ مِنْ أمَّتي مَنْ لوْ أتىٰ أحدَكُمْ فسألَهُ ديناراً . . لمْ يعطهِ إيَّاهُ ، ولو سألَهُ درهماً . . لمْ يعطِهِ إيَّاهُ ، ولوْ سألَهُ فَلساً . . لمْ يعطِهِ إيَّاهُ ، ولوْ سألَ اللهَ تعالىٰ الجنَّةَ . . أعطاهُ إيَّاها ، ولوْ سألَهُ الدنيا . . لمْ يعطِهِ إيَّاها ، وما منعَها إيَّاهُ لهوانِهِ عليهِ ، ذو طمرينِ لا يُؤبَهُ لهُ ، لوْ أقسمَ على اللهِ . . لأبرَّهُ »[2] .

ورُوِيَ أنَّ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ دخلَ المسجدَ ، فإذا هوَ بمعاذِ بنِ جبلٍ يبكي عندَ قبرِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ : ما يبكيكَ ؟ فقالَ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « إنَّ اليسيرَ مِنَ الرياءِ شركٌ ، وإنَّ اللهَ تعالىٰ يحبُّ الأتقياءَ الأخفياءَ ، الذينَ إنْ غابوا . . لمْ يُفقدوا ، وإنْ حضروا . . لمْ يُعرفوا ، قلوبُهُمْ مصابيحُ الهدىٰ ، ينجونَ مِنْ كلِّ غبراءَ مظلمةٍ »[3] .

وقالَ محمدُ بنُ سويدٍ : قُحِطَ أهلُ المدينةِ ، وكانَ بها رجلٌ صالحٌ لا يُؤبَهُ لهُ ، لازمٌ لمسجدِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فبينَما هُمْ في دعائِهِمْ ؛ إذْ جاءَهُمْ رجلٌ عليهِ طِمرانِ خَلَقانِ ، فصلَّىٰ ركعتينِ ، وأوجزَ

---

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (١٠٠٠٤ ، ١٠٠٠٥) ، وصدره : « إن ملوك أهل الجنة . . . » .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١) عن سالم بن أبي الجعد مرسلاً .

(٣) رواه ابن ماجه (٣٩٨٩) ، وابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٨) واللفظ له .

فيهما ، ثمَّ بسطَ يديهِ ، فقالَ : يا ربِّ ؛ أقسمتُ عليكَ إلا أمطرتَ علينا الساعةَ ، فلمْ يردَّ يديهِ ، ولمْ يقطَعْ دعاءَهُ حتَّىٰ تغشَّتِ السماءُ بالغيمِ وأُمطروا ، حتَّىٰ صاحَ أهلُ المدينةِ مِنْ مخافةِ الغرقِ ، فقالَ : يا ربِّ ؛ إنْ كنتَ تعلمُ أنَّهُمْ قدْ اكتفَوا . . فارفعْ عنهُمْ ، فسكنَ ، وتبعَ الرجلُ صاحبَ المطرِ حتَّىٰ عرفَ منزلَهُ ، ثمَّ بكَّرَ إليهِ ، فخرجَ إليهِ ، فقالَ : إنِّي أتيتُكَ في حاجةٍ ، قالَ : وما هيَ ؟ قالَ : تخصُّني بدعوةٍ ، قالَ : سبحانَ اللهِ ؛ أنتَ أنتَ وتسألُني أنْ أخصَّكَ بدعوةٍ ! قالَ : ما الذي بلَّغَكَ ما رأيتُ ؟ قالَ : أطعتُ اللهَ فيما أمرَني ونهاني ، فسألتُهُ فأعطاني[1] .

وقالَ ابنُ مسعودٍ : (كونوا ينابيعَ العلمِ ، مصابيحَ الهدىٰ ، أحلاسَ البيوتِ ، سُرُجَ الليلِ ، جُدُدَ القلوبِ ، خُلْقانَ الثيابِ ، تُعرفونَ في أهلِ السماءِ وتُخفَونَ في أهلِ الأرضِ)[2] .

وقالَ أبو أمامةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يقولُ اللهُ تعالىٰ : إنَّ أغبطَ أوليائي عندي مؤمنٌ خفيفُ الحاذِ ، ذو حظٍّ مِنْ صلاةٍ ، أحسنَ عبادةَ ربِّهِ وأطاعَهُ في السِّرِّ ، وكانَ غامضاً في الناسِ لا يُشارُ إليهِ بالأصابعِ ، فمَنْ صبرَ علىٰ ذلكَ » قالَ : ثمَّ نقرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بيدِهِ وقالَ : « . . عُجِّلَتْ منيَّتُهُ ، وقلَّ تراثُهُ ، وقلَّتْ بواكيهِ »[3] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٦) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١١) .
(٣) رواه الترمذي (٢٣٤٧) ، وابن ماجه (٤١١٧) .

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما : أحبُّ عبادِ اللهِ إلى اللهِ الغرباءُ ، قيلَ : ومَنِ الغرباءُ ؟ قالَ : الفارُّونَ بدينِهِمْ ، يجتمعونَ يومَ القيامةِ إلىٰ عيسىٰ بنِ مريمَ عليهِ السلامُ[1] .

وقالَ الفضيلُ بنُ عياضٍ : بلغَني أنَّ اللهَ تعالىٰ يقولُ في بعضِ ما يمُنُّ بهِ علىٰ عبدِهِ : (ألمْ أُنعمْ عليكَ ؟ ألمْ أسترْكَ ؟ ألمْ أخمِلْ ذكرَكَ ؟)[2] .

وكانَ الخليلُ بنُ أحمدَ يقولُ : (اللهمَّ ؛ اجعلْني عندَكَ مِنْ أرفعِ خلقِكَ ، واجعلْني عندَ نفسي مِنْ أوضعِ خلقِكَ، واجعلْني عندَ الناسِ مِنْ أوسطِ خلقِكَ)[3] .

وقالَ الثوريُّ : (وجدتُ قلبي يصلحُ بمكةَ والمدينةِ مع قومٍ غرباءَ ، أصحابِ بُتوتٍ وعَباءٍ)[4] .

وقالَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ : ما قرَّتْ عيني في الدنيا قطُّ إلا مرَّةً ، بتُّ ليلةً في بعضِ مساجدِ قرى الشامِ ، وكانَ بي البطنُ ، فجرَّني المؤذنُ برجلِي حتَّىٰ أخرجَني مِنَ المسجدِ[5] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١٦) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١٧) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢١) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٢) ، وبتوت : جمع بتٌّ ، الطيلسان من خزٍّ ونحوه ، وهو كساء غليظ مهلهل مربع أخضر ، وقيل : هو من وبر وصوف ، وعباء ـ بفتح العين ـ : جمع عباءة .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٨) ، وهو ضمن خبر طويل ساقه اليافعي في « الإرشاد والتطريز » (ص ٣٠٣) .

وقالَ الفضيلُ : (إنْ قدرتَ ألا تُعرفَ . . فافعلْ ، وما عليكَ ألا تُعرفَ ؟ وما عليكَ ألا يُثنىٰ عليكَ ؟ وما عليكَ أنْ تكونَ مذموماً عندَ الناسِ إذا كنتَ محموداً عندَ اللهِ تعالىٰ ؟)[1] .

فهٰذهِ الأخبارُ والآثارُ تعرِّفُكَ مذمَّةَ الشهرةِ وفضيلةَ الخمولِ ، وإنَّما المطلوبُ بالشهرةِ وانتشارِ الصِّيتِ هوَ الجاهُ والمنزلةُ في القلوبِ ، وحبُّ الجاهِ هوَ منشأُ كلِّ فسادٍ .

* * *

فإنْ قلتَ : فأيُّ شهرةٍ تزيدُ علىٰ شهرةِ الأنبياءِ والخلفاءِ الراشدينَ وأئمةِ العلماءِ ؟! فكيفَ فاتَهُمْ فضيلةُ الخمولِ ؟

فاعلمْ : أَنَّ المذمومَ طلبُ الشهرةِ ، فأمَّا وجودُها مِنْ جهةِ اللهِ تعالىٰ مِنْ غيرِ تكلُّفٍ مِنَ العبدِ . . فليسَ بمذمومٍ .

نعمْ ، فيهِ فتنةٌ على الضعفاءِ دونَ الأقوياءِ ، وذلكَ كالغريقِ الضعيفِ إذا كانَ معَهُ جماعةٌ مِنَ الغرقىٰ ، فالأولىٰ بهِ ألا يعرفَهُ أحدٌ منهُمْ ؛ فإنَّهُمْ يتعلَّقونَ بهِ فيضعفُ عنهُمْ ، فيهلكُ معَهُمْ ، وأمَّا القويُّ . . فالأولىٰ أنْ يعرفَهُ الغرقىٰ ليتعلَّقوا بهِ ، فينجيَهُمْ ويُثابَ علىٰ ذلكَ .

* * *

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١٧) .

بيان ذم حب الجاه

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ ، جمعَ بينَ إرادةِ الفسادِ والعلوِّ ، وبيَّنَ أنَّ الدارَ الآخرةَ للخالي عنِ الإرادتينِ جميعاً .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ .

وهٰذا أيضاً متناولٌ بعمومِهِ لحبِّ الجاهِ ؛ فإنَّهُ أعظمُ لذةٍ مِنْ لذاتِ الحياةِ الدنيا ، وأكثرُ زينةٍ مِنْ زينتِها .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « حبُّ المالِ والجاهِ ينبتانِ النفاقَ في القلبِ كما يُنبتُ الماءُ البقلَ » .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما ذئبانِ ضاريانِ أُرسلا في زريبةِ غنمٍ بأكثرَ فساداً مِنْ حبِّ الشرفِ والمالِ في دينِ الرجلِ المسلمِ »(١) .

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٧٦) من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه بلفظ : « ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه » ، وبنحو لفظ المصنف مروي عند الطبراني في « الأوسط » (٦٢٧٥) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لعليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ : « إنَّما هلاكُ الناسِ باتِّباعِ الهوىٰ وحبِّ الثناءِ »[1] .

نسألُ اللهَ العفوَ والعافيةَ بمنِّهِ وكرمِهِ .

* * *

(١) تقدم معناه ، وهو حديث : « ثلاث مهلكات : شحٌّ مطاع ، وهوىً متبع ، وإعجاب المرء برأيه » .

بيان معنى الجاه وحقيقته

اعلمْ : أنَّ الجاهَ والمالَ هما ركنا الدنيا .

ومعنى المالِ : ملكُ الأعيانِ المنتفعِ بها .

ومعنى الجاه : ملكُ القلوبِ المطلوبِ تعظيمُها وطاعتُها .

وكما أنَّ الغَنيَّ هوَ الذي يملكُ الدراهمَ والدنانيرَ ؛ أيْ : يقدرُ عليهما ؛ ليتوصَّلَ بهما إلى الأغراضِ والمقاصدِ وقضاءِ الشهواتِ وسائرِ حظوظِ النفسِ . . فكذلكَ ذو الجاهِ ، هوَ الذي يملكُ قلوبَ الناسِ ؛ أيْ : يقدرُ على أنْ يتصرَّفَ فيها ؛ ليستعملَ بواسطتِها أربابَها في أغراضِهِ ومآربِهِ ، وكما أنَّه يكتسبُ الأموالَ بأنواعٍ مِنَ الحرفِ والصناعاتِ . . فكذلكَ يكتسبُ قلوبَ الخلقِ بأنواعٍ مِنَ المعاملاتِ ، ولا تصيرُ القلوبُ مسخَّرةً إلا بالمعارفِ والاعتقاداتِ ، فكلُّ مَنِ اعتقدَ القلبُ فيهِ وصفاً مِنْ أوصافِ الكمالِ . . انقادَ لهُ ، وتسخَّرَ لهُ بحسبِ قوَّةِ اعتقادِهِ ، وبحسبِ درجةِ ذلكَ الكمالِ عندَهُ ، وليسَ يُشترطُ أنْ يكونَ الوصفُ كمالاً في نفسِهِ ، بلْ يكفي أنْ يكونَ كمالاً عندَهُ وفي اعتقادِهِ .

وقدْ يعتقدُ ما ليسَ كمالاً كمالاً ، ويذعنُ قلبُهُ للموصوفِ بهِ انقياداً ضرورياً بحسبِ اعتقادِهِ ؛ فإنَّ انقيادَ القلبِ حالٌ للقلبِ ، وأحوالُ القلوبِ تابعةٌ لاعتقاداتِ القلوبِ وعلومِها وتخيلاتِها ، وكما أنَّ محبَّ المالِ يطلبُ

ملكَ الأرقاءِ والعبيدِ . . فطالبُ الجاهِ يطلبُ أنْ يسترقَّ الأحرارَ ويستعبدَهُمْ ، ويملكَ رقابَهُمْ بملكِ قلوبِهِمْ ، بلِ الرِّقُّ الذي يطلبُهُ صاحبُ الجاهِ أعظمُ ؛ لأنَّ المالكَ يملكُ العبدَ قهراً والعبدُ متأبٍّ بطبعِهِ ، ولوْ خُلِّيَ ورأيَهُ . . انسلَّ عنِ الطاعةِ ، وصاحبُ الجاهِ يطلبُ الطاعةَ طوعاً ، ويبغي أنْ يكونَ لهُ الأحرارُ عبيداً بالطبعِ والطوعِ معَ الفرحِ بالعبوديةِ والطاعةِ لهُ ، فما يطلبُهُ فوقَ ما يطلبُهُ مالكُ الرِّقِّ بكثيرٍ .

فإذاً ؛ معنى الجاهِ : قيامُ المنزلةِ في قلوبِ الناسِ ؛ أيِ : اعتقادُ القلوبِ لنعتٍ مِنْ نعوتِ الكمالِ فيهِ ، فبقدْرِ ما يعتقدونَ مِنْ كمالِهِ تذعنُ لهُ قلوبُهُمْ ، وبقدْرِ إذعانِ القلوبِ تكون قدرتُهُ على القلوبِ ، وبقدْرِ قدرتِهِ على القلوبِ يكونُ فرحُهُ وحبُّهُ للجاهِ .

فهـٰذا هوَ معنى الجاهِ وحقيقتُهُ ، ولهُ ثمراتٌ ؛ كالمدحِ والإطراءِ ، فإنَّ المعتقدَ للكمالِ لا يسكتُ عنْ ذكرِ ما يعتقدُهُ ، فيثني عليهِ ، وكالخدمةِ والإعانةِ ؛ فإنَّهُ لا يبخلُ ببذْلِ نفسهِ في طاعتِهِ بقدْرِ اعتقادِهِ ، فيكونُ سخرةً لهُ مثلَ العبدِ في أغراضِهِ ، وكالإيثارِ ، وتركِ المنازعةِ ، والتعظيمِ والتوقيرِ ؛ بالمفاتحةِ بالسلامِ ، وتسليمِ الصدرِ في المحافلِ ، والتقديمِ في جميعِ المقاصدِ .

فهـٰذهِ آثارٌ تصدرُ عنْ قيامِ الجاهِ في القلبِ ، ومعنىٰ قيامِ الجاهِ في القلبِ : اشتمالُ القلوبِ على اعتقادِ صفاتِ الكمالِ في الشخصِ ؛ إمَّا

بعلمٍ ، أوْ عبادةٍ ، أوْ حسنِ خلقٍ ، أو نسبٍ ، أو ولايةٍ ، أو جمالٍ في صورةٍ ، أوْ قوةٍ في بدنٍ ، أوْ شيءٍ ممَّا يعتقدُهُ الناسُ كمالاً ، فإنَّ هـٰذهِ الأوصافَ كلَّها تعظِّمُ محلَّهُ في القلوبِ ، فتكونُ سبباً لقيامِ الجاهِ ، واللهُ تعالىٰ أعلمُ .

* * *

بيان سبب كون الجاه محبوباً بالطبع حتى لا يخلو عنه قلب إلا بشديد المجاهدة

اعلمْ : أنَّ السببَ الذي يقتضي كونَ الذهبِ والفضةِ وسائرِ أنواعِ الأموالِ محبوباً . . هوَ بعينِهِ يقتضي كونَ الجاهِ محبوباً .

بلْ يقتضي أنْ يكونَ أحبَّ مِنَ المالِ ، كما يقتضي أنْ يكونَ الذهبُ أحبَّ مِنَ الفضةِ مهما تساويا في المقدارِ ، وهوَ أنَّكَ تعلمُ أنَّ الدراهمَ والدنانيرَ لا غرضَ في أعيانِها ؛ إذْ لا تصلحُ لمطعمٍ ولا مشربٍ ولا منكحٍ ولا ملبسٍ ، وإنَّما هيَ والحصباءُ بمثابةٍ واحدةٍ ، ولكنَّها محبوبةٌ لأنَّها وسيلةٌ إلىٰ جميعِ المحابِّ ، وذريعةٌ إلىٰ قضاءِ الشهواتِ ، فكذلكَ الجاهُ ؛ لأنَّ معنى الجاهِ ملكُ القلوبِ ، وكما أنَّ ملكَ الذهبِ والفضةِ يفيدُ قدرةً يتوصَّلُ الإنسانُ بها إلىٰ سائرِ أغراضِهِ . . فكذلكَ ملكُ قلوبِ الأحرارِ والقدرةُ على استسخارِها يفيدُ قدرةً على التوصُّلِ إلىٰ جميعِ الأغراضِ .

فالاشتراكُ في السببِ اقتضى الاشتراكَ في المحبةِ ، وترجيحُ الجاهِ على المالِ اقتضىٰ أنْ يكونَ الجاهُ أحبَّ مِنَ المالِ .

❋ ❋ ❋

ولملكِ القلوبِ ترجيحٌ علىٰ ملكِ المالِ مِنْ ثلاثةِ أوجهٍ :

الأوَّلُ : أنَّ التَّوصُّلَ بالجاهِ إلى المالِ أيسرُ مِنَ التوصُّلِ بالمالِ إلى

الجاهِ ، فالعالمُ أوِ الزاهدُ الذي تقرَّرَ لهُ جاهٌ في القلوبِ لوْ قصدَ اكتسابَ المالِ . . تيسَّرَ لهُ ؛ فإنَّ أموالَ أربابِ القلوبِ مسخرةٌ للقلوبِ ، ومبذولةٌ لمَنِ اعتقدَ فيهِ الكمالَ ، وأمَّا الرجلُ الخسيسُ الذي لا يتَّصفُ بصفةِ كمالٍ إذا وجدَ كنزاً ، ولمْ يكنْ لهُ جاهٌ يحفظُ مالَهُ ، وأرادَ أنْ يتوصَّلَ بالمالِ إلى الجاهِ . . لمْ يتيسَّرْ لهُ .

فإذاً ؛ الجاهُ آلةٌ ووسيلةٌ إلى المالِ ، فمَنْ ملكَ الجاهَ . . فقدْ ملكَ المالَ أيضاً ، ومَنْ ملكَ المالَ . . لمْ يملكِ الجاهَ بكلِّ حالٍ ، فلذلكَ صارَ الجاهُ أحبَّ .

* * *

الثاني : هوَ أنَّ المالَ معرَّضٌ للبلوىٰ والتلفِ ؛ بأنْ يُسرقَ ويُغصبَ ، ويَطمعَ فيهِ الملوكُ والظلمةُ ، ويحتاجُ فيهِ إلى الحفظةِ والحرَّاسِ والخزائنِ ، وتتطرَّقُ إليهِ أخطارٌ كثيرةٌ ، وأمَّا القلوبُ إذا مُلكَتْ . . لمْ تتعرَّضْ لهٰذهِ الآفاتِ ، فهيَ على التحقيقِ خزائنُ عتيدةٌ لا يقدرُ عليها السرَّاقُ ، ولا تتناولُها أيدي النُّهابِ والغُصَّابِ ، وأثبتُ الأموالِ العقارُ ، ولا يُؤمنُ فيهِ الغصبُ والظلمُ ، ولا يستغني عنِ المراقبةِ والحفظِ ، وأمَّا خزائنُ القلوبِ . . فهيَ محفوظةٌ محروسةٌ بأنفسِها ، وذو الجاهِ في أمنٍ وأمانٍ منَ الغصبِ والسرقةِ فيها .

نعمْ ، إنَّما تُغصبُ القلوبُ بالتضريبِ(١) ، وتقبيحِ الحالِ ، وتغييرِ

---

(١) التضريب بين القوم : الإغراء .

الاعتقادِ فيما صدقَ بهِ مِنْ أوصافِ الكمالِ ، وذلكَ ممَّا يهونُ دفعُهُ ، ولا يتيسَّرُ علىٰ محاولِهِ فعلُهُ .

❋ ❋ ❋

الثالثُ : أنَّ ملكَ القلوبِ يسري ويُنمَّىٰ ويتزايدُ مِنْ غيرِ حاجةٍ إلىٰ تعبٍ ومقاساةٍ ؛ فإنَّ القلوبَ إذا أذعنَتْ لشخصٍ واعتقدَتْ كمالَهُ بعلمٍ أوْ عملٍ أو غيرِهِ . . أفصحَتِ الألسنةُ ـ لا محالةَ ـ بما فيها ، فيصفُ ما يعتقدُهُ لغيرِهِ ، ويقتنصُ ذلكَ القلبَ أيضاً لهُ ، ولهـٰذا المعنىٰ يحبُّ الطبعُ الصيتَ وانتشارَ الذكرِ ؛ لأنَّ ذلكَ إذا استطارَ في الأقطارِ . . اقتنصَ القلوبَ ، ودعاها إلى الإذعانِ والتعظيمِ ، فلا يزالُ يسري مِنْ واحدٍ إلىٰ واحدٍ ويتزايدُ ، وليسَ لهُ مردٌّ معينٌ .

وأمَّا المالُ : فمَنْ ملكَ منهُ شيئاً . . فهوَ مالكُهُ ، ولا يقدرُ على استنمائِهِ إلا بتعبٍ ومقاساةٍ ، والجاهُ أبداً في النماءِ بنفسِهِ ، ولا مردَّ لموقعِهِ ، والمالُ واقفٌ ؛ ولهـٰذا إذا عظُمَ الجاهُ وانتشرَ الصيتُ وانطلقَتِ الألسنةُ بالثناءِ . . استُحقرَتِ الأموالُ في مقابلةِ ذلكَ .

فهـٰذهِ مجامعُ ترجيحاتِ الجاهِ على المالِ ، وإذا فُصِّلَتْ . . كثُرَتْ وجوهُ الترجيحِ .

❋ ❋ ❋

فإنْ قلتَ : فالإشكالُ قائمٌ في المالِ والجاهِ جميعاً ، فلمَ ينبغي أنْ يحبَّ الإنسانُ المالَ والجاهَ ؟

نعمِ ، القدرُ الذي يتوصَّلُ بهِ إلىٰ جلبِ الملاذِّ ودفعِ المضارِّ معلومٌ ؛ كالمحتاجِ إلى الملبسِ والمسكنِ والمطعمِ ، أوْ كالمبتلىٰ بمرضٍ أوْ بعقوبةٍ إذا كان لا يتوصَّلُ إلىٰ دفعِ العقوبةِ عنْ نفسِهِ إلا بمالٍ أوْ جاهٍ . فحبُّهُ للمالِ وَالجاهِ معلومٌ ؛ إذْ كلُّ ما لا يُتوصَّلُ إلى المحبوبِ إلا بهِ فهوَ محبوبٌ ، وَفي الطباعِ أمرٌ عجيبٌ وراءَ هـٰذا ، وهوَ حبُّ جمعِ الأموالِ ، وكنزِ الكنوزِ ، وادخارِ الذخائرِ ، واستكثارِ الخزائنِ وراءَ جميعِ الحاجاتِ ، حتَّىٰ لوْ كانَ للعبدِ واديانِ مِنْ ذهبٍ . . لابتغىٰ إليهما ثالثاً ، وكذلكَ يحبُّ الإنسانُ اتساعَ الجاهِ ، وانتشارَ الصِّيتِ إلىٰ أقاصي البلادِ التي يعلمُ قطعاً أنَّهُ لا يطؤُها ولا يشاهدُ أصحابَها ؛ ليعظِّموهُ ، أوْ ليبرُّوهُ بمالٍ ، أوْ ليعينوهُ علىٰ غرضٍ مِنْ أغراضِهِ ، ومعَ اليأسِ مِنْ ذلكَ فإنَّهُ يلتذُّ بهِ غايةَ الالتذاذِ ، وحبُّ ذلكَ ثابتٌ في الطبعِ ، ويكادُ يُظنُّ أنَّ ذلكَ جهلٌ ؛ فإنَّهُ حبٌّ لما لا فائدةَ فيهِ لا في الدنيا ولا في الآخرةِ .

فنقولُ : نعمْ ، هـٰذا الحبُّ لا تنفكُّ عنهُ القلوبُ ، ولهُ سببانِ : أحدُهُما جليٌّ تدركُهُ الكافةُ ، والآخرُ خفيٌّ ، وهوَ أعظمُ السببينِ ، ولكنَّهُ أدقُّهُما وأخفاهُما وأبعدُهُما عنْ أفهامِ الأذكياءِ فضلاً عنِ الأغبياءِ ؛ وذلكَ لاستمدادِهِ مِنْ عِرْقٍ خفيٍّ في النفسِ ، وطبيعةٍ مستكنَّةٍ في الطبعِ ، لا يكادُ يقفُ عليها إلا الغوَّاصونَ .

فأمَّا السببُ الأوَّلُ : فهوَ دفعُ ألمِ الخوفِ ؛ لأنَّ الشفيقَ[1] بسوءِ الظنِّ مولعٌ ، والإنسانُ وإنْ كانَ مكفياً في الحالِ فإنَّهُ طويلُ الأملِ ، ويخطرُ ببالِهِ أنَّ المالَ الذي فيهِ كفايتُهُ ربَّما يتلفُ ، فيحتاجُ إلىٰ غيرِهِ ، فإذا خطرَ ذلكَ ببالِهِ . . هاجَ الخوفُ مِنْ قلبِهِ ، ولا يدفعُ ألمَ الخوفِ إلا الأمنُ الحاصلُ بوجودِ مالٍ آخرَ يفزعُ إليهِ إنْ أصابَتْ هـٰذا المالَ جائحةٌ ، فهوَ أبداً لشفقتِهِ علىٰ نفسِهِ وحبِّهِ للجاهِ يقدِّرُ طولَ الحياةِ ، ويقدِّرُ هجومَ الحاجاتِ ، ويقدِّرُ إمكانَ تطرُّقِ الآفاتِ إلى الأموالِ ، ويستشعرُ الخوفَ مِنْ ذلكَ ، فيطلبُ ما يدفعُ خوفَهُ ، وهوَ كثرةُ المالِ ، حتَّىٰ إنْ أُصيبَ بطائفةٍ مِنْ مالِهِ . . استغنىٰ بالآخرِ .

وهـٰذا خوفٌ لا موقفَ لهُ عندَ مقدارٍ مخصوصٍ مِنَ المالِ ، فلذلكَ لمْ يكنْ لمثلِهِ مُوقِفٌ إلىٰ أنْ يملكَ جميعَ ما في الدنيا ؛ ولذلكَ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « منهومانِ لا يشبعانِ ؛ منهومُ العلمِ ، ومنهومُ المالِ »[2] .

ومثلُ هـٰذهِ العلةِ تطردُ في حبِّهِ قيامَ المنزلةِ والجاهِ في قلوبِ الأباعدِ عنْ وطنِهِ وبلدِهِ ؛ فإنَّهُ لا يخلو عنْ تقديرِ سببٍ يزعجُهُ عنِ الوطنِ ، أوْ يُزعجُ أولئكَ عنْ أوطانِهِمْ إلىٰ وطنِهِ ويحتاجُ إلى الاستعانةِ بِهِمْ ، ومهما كانَ ذلكَ ممكناً ، ولمْ يكنِ احتياجُهُ إليهِمْ مستحيلاً إحالةً ظاهرةً . . كانَ للنفسِ فرحٌ

---

(١) أي : الخائف علىٰ نفسه . « إتحاف » (٨/ ٢٤١) .

(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » (١/ ٩٢) من حديث أنس مرفوعاً ، ولفظه : « منهومان لا يشبعان : منهوم في علم لا يشبع ، ومنهوم في دنيا لا يشبع » .

ولذةٌ بقيامِ الجاهِ في قلوبِهِمْ ؛ لما فيهِ مِنَ الأمنِ مِنْ هـٰذا الخوفِ .

وأما السببُ الثاني ـ وهوَ الأقوىٰ ـ : أنَّ الروحَ أمرٌ ربانيٌّ ، بهِ وصفَهُ اللهُ تعالىٰ ؛ إذ قالَ سبحانَهُ : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ ، ومعنىٰ كونِهِ ربانياً : أنَّهُ مِنْ أسرارِ علومِ المكاشفةِ ، ولا رخصةَ في إظهارِهِ ؛ إذْ لمْ يظهرْهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[1] ، ولكنَّكَ قبلَ معرفةِ ذلكَ تعلمُ أنَّ للقلبِ ميلاً إلىٰ صفاتٍ بهيميَّةٍ ؛ كالأكلِ والوقاعِ ، وإلىٰ صفاتٍ سبعيَّةٍ ؛ كالقتلِ والضربِ والإيذاءِ ، وإلىٰ صفاتٍ شيطانيَّةٍ ؛ كالمكرِ والخديعةِ والإغواءِ ، وإلىٰ صفاتٍ ربوبيَّةٍ ؛ كالكبرِ والعزِّ والتجبُّرِ وطلبِ الاستعلاءِ ؛ وذلكَ لأنَّهُ مركَّبٌ مِنْ أصولٍ مختلفةٍ يطولُ شرحُ تفصيلِها ، فهوَ لما فيهِ مِنَ الأمرِ الربانيِّ يحبُّ الرُّبوبيَّةَ بالطَّبعِ ، ومعنى الربوبيَّةِ : التوحُّدُ بالكمالِ ، والتفرُّدُ بالوجودِ علىٰ سبيلِ الاستقلالِ ، فصارَ الكمالُ مِنْ نعوتِ الإلـٰهيَّةِ ، فصارَ محبوباً بالطَّبعِ للإنسانِ ، والكمالُ بالتفرُّدِ بالوجودِ ؛ فإنَّ المشاركةَ في الوجودِ نقصٌ لا محالةَ ، فكمالُ الشمسِ في أنَّها موجودةٌ وحدَها ، فلوْ كانَ معها شمسٌ أخرىٰ . . لكانَ ذلكَ نقصاناً في حقِّها ؛ إذْ لمْ تكنْ منفردةً بكمالِ معنى الشمسيَّةِ .

والمنفردُ بالوجودِ هوَ اللهُ تعالىٰ ؛ إذْ ليسَ معَهُ موجودٌ سواهُ ، فإنَّ ما سواهُ أثرٌ مِنْ آثارِ قدرتِهِ ، لا قوامَ لهُ بذاتِهِ ، بلْ هوَ قائمٌ بهِ ، فلمْ يكنْ

---

(١) كما في « البخاري » (١٢٥) ، و« مسلم » (٢٧٩٤) .

موجوداً معَهُ ؛ لأنَّ المعيَّةَ توجبُ المساواةَ في الرتبةِ ، والمساواةُ في الرتبةِ نقصانٌ في الكمالِ ، بلِ الكاملُ مَنْ لا نظيرَ لهُ في رتبتِهِ ، فكما أنَّ إشراقَ نورِ الشمسِ في أقطارِ الآفاقِ ليسَ نقصاناً في الشمسِ ، بلْ هوَ مِنْ جملةِ كمالِها ، وإنَّما نقصانُ الشمسِ بوجودِ شمسٍ أخرىٰ تساويها في الرُّتبةِ معَ الاستغناءِ عنها . . فكذلكَ وجودُ كلِّ ما في العالمِ يرجعُ إلىٰ إشراقِ أنوارِ القدرةِ ، فيكونُ تابعاً ولا يكونُ معاً .

فإذاً ؛ معنى الرُّبوبيَّةِ : التفردُ بالوجودِ ، وهوَ الكمالُ ، وكلُّ إنسانٍ فإنَّهُ بطبعِهِ محبٌّ لأنْ يكونَ هوَ المنفردَ بالكمالِ ؛ ولذلكَ قالَ بعضُ مشايخِ الصوفيةِ : (ما مِنْ إنسانٍ إلا وفي باطنِهِ ما صرَّحَ بهِ فرعونُ مِنْ قولِهِ : ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ ، ولكنَّهُ ليسَ يجدُ لهُ مجالاً) ، وهوَ كما قالَ ؛ فإنَّ العبوديَّةَ قهرٌ على النفسِ ، والربوبيةُ محبوبةٌ بالطَّبعِ ، وذلكَ للنسبةِ الرَّبانيَّةِ التي أومأَ إليها قولُهُ تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ .

ولكنْ لما عجزَتِ النفسُ عنْ دركِ منتهى الكمالِ . . لمْ تسقطْ شهوتُها للكمالِ ، فهيَ محبَّةٌ للكمالِ ، ومشتهيةٌ لهُ ، وملتذَّةٌ بهِ لذاتِهِ ، لا لمعنىً آخرَ وراءَ الكمالِ ، فكلُّ موجودٍ فهوَ محبٌّ لذاتِهِ ، ولكمالِ ذاتِهِ ، ومبغضٌ الهلاكَ الذي هوَ عدمُ ذاتِهِ ، أو عدمُ صفاتِ الكمالِ مِنْ ذاتِهِ ، وإنَّما الكمالُ بعدَ أنْ يَسْلَمَ لهُ التفرُّدُ بالوجودِ في الاستيلاءِ علىٰ كلِّ الموجوداتِ ، فإنَّ أكملَ الكمالِ أنْ يكونَ وجودُ غيرِكَ منكَ ، فإنْ لم يكنْ منكَ . . فأنْ تكونَ مستولياً عليهِ ، فصارَ الاستيلاءُ على الكلِّ محبوباً بالطبعِ ؛ لأنَّهُ نوعُ كمالٍ ،

وكلُّ موجودٍ يعرفُ ذاتَهُ فإنَّهُ يحبُّ ذاتَهُ ، ويحبُّ كمالَ ذاتِهِ ويلتذُّ بهِ ، إلا أنَّ الاستيلاءَ على الشيءِ . . بالقدرةِ على التأثيرِ فيهِ ، وعلىٰ تغييرِهِ بحسبِ الإرادةِ ، وكونِهِ مسخراً لكَ تردِدُهُ كيفَ تشاءُ ، فأحبَّ الإنسانُ أنْ يكونَ لهُ الاستيلاءُ علىٰ كلِّ الأشياءِ الموجودةِ معَهُ ، إلا أنَّ الموجوداتِ منقسمةٌ :

إلىٰ ما لا يقبلُ التغييرَ في نفسِهِ ؛ كذاتِ اللهِ تعالىٰ وصفاتِهِ .

وإلىٰ ما يقبلُ التغييرَ ولكنْ لا تستولي عليهِ قدرةُ الخلقِ ؛ كالأفلاكِ ، والكواكبِ ، وملكوتِ السماواتِ ، ونفوسِ الملائكةِ والجنِّ والشياطينِ ، وكالجبالِ ، والبحارِ ، وما تحتَ الجبالِ والبحارِ .

وإلىٰ ما يقبلُ التغييرَ بقدرةِ العبدِ ؛ كالأرضِ وأجزائِها ، وما عليها مِنَ المعادنِ والنباتِ والحيوانِ ، ومِنْ جملتِها قلوبُ الناسِ ؛ فإنَّها قابلةٌ للتأثيرِ والتغييرِ مثلُ أجسادِهِمْ وأجسادِ الحيواناتِ .

فإذاً ؛ انقسمَتِ الموجوداتُ إلىٰ ما يقدرُ الإنسانُ على التصرفِ فيهِ ؛ كالأرضياتِ ، وإلىٰ ما لا يقدرُ على التصرفِ فيهِ ؛ كذاتِ اللهِ تعالىٰ ، والملائكةِ ، والسماواتِ ، فأحبَّ الإنسانُ أنْ يستوليَ على السماواتِ بالعلمِ والإحاطةِ والاطلاعِ علىٰ أسرارِها ، فإنَّ ذلكَ نوعُ استيلاءٍ ؛ إذِ المعلومُ المحاطُ بهِ كالداخلِ تحتَ العلمِ ، والعالِمُ كالمستولي عليهِ ؛ فلذلكَ أحبَّ أن يعرفَ اللهَ تعالىٰ ، والملائكةَ ، والأفلاكَ والكواكبَ ، وجميعَ عجائبِ السماواتِ ، وعجائبِ البحارِ والجبالِ وغيرِها ؛ لأنَّ ذلكَ نوعُ استيلاءٍ

عليها ، والاستيلاءُ نوعُ كمالٍ ، وهٰذا يضاهي اشتياقَ مَنْ عجزَ عنْ صنعةٍ عجيبةٍ إلىٰ معرفةِ طريقِ الصنعةِ فيها ؛ كمَنْ يعجزُ عنْ وضعِ الشطرنجِ ، فإنَّهُ قدْ يشتهي أنْ يعرفَ اللعبَ بهِ ، وأنَّهُ كيفَ وُضعَ ، وكمَنْ يرىٰ صنعةً عجيبةً في الهندسةِ ، أوِ الشعبذةِ ، أوْ جرِّ الثقيلِ أوْ غيرِهِ ، وهوَ مستشعرٌ في نفسِهِ نقصَ العجزِ والقصورَ عنهُ ، ولكنَّهُ يشتاقُ إلىٰ معرفةِ كيفيتِهِ ، فهوَ متألِّمٌ بنقصِ العجزِ ، متلذِّذٌ بكمالِ العلمِ إنْ علمَهُ .

وأمَّا القسمُ الثاني : وهوَ الأرضياتُ التي يقدرُ الإنسانُ عليها . . فإنَّهُ يحبُّ بالطَّبعِ أنْ يستوليَ عليها بالقدرةِ على التصرفِ فيها كيفَ يريدُ ، وهيَ قسمانِ : أجسادٌ ، وأرواحٌ .

أمَّا الأجسادُ : فهيَ الدراهمُ ، والدنانيرُ ، والأمتعةُ ، فيحبُّ أنْ يكونَ قادراً عليها ، يفعلُ فيها ما شاءَ مِنَ الرفعِ والوضعِ ، والتسليمِ والمنعِ ، فإنَّ ذلكَ قدرةٌ ، والقدرةُ كمالٌ ، والكمالُ من صفاتِ الربوبيةِ ، والربوبيةُ محبوبةٌ بالطَّبعِ ، فلذلكَ أحبَّ الأموالَ وإنْ كانَ لا يحتاجُ إليها في ملبسِهِ ومطعمِهِ وفي شهواتِ نفسِهِ ، وكذلكَ طلبُ استرقاقِ العبيدِ واستعبادِ أشخاصِ الأحرارِ ولوْ بالقهرِ والغلبةِ ، حتَّىٰ يتصرَّفَ في أجسادِهِمْ وأشخاصِهِمْ بالاستسخارِ وإنْ لمْ يملكْ قلوبَهُمْ ؛ فإنَّها ربَّما لمْ تعتقدْ كمالَهُ حتَّىٰ يصيرَ محبوباً لها وتقومَ منزلتُهُ فيها ، فإنَّ الحشمةَ القهريَّةَ أيضاً لذيذةٌ ؛ لما فيها مِنَ القدرةِ .

القسمُ الثاني : نفوسُ الآدميينَ وقلوبُهُمْ ، وهيَ أنفسُ ما علىٰ وجهِ

الأرضِ ، فهوَ يحبُّ أنْ يكونَ لهُ استيلاءٌ وقدرةٌ عليها ؛ لتكونَ مسخَّرةً لهُ ، متصرِّفةً تحتَ إشارتِهِ وإرادتِهِ ؛ لما في ذلكَ مِنْ كمالِ الاستيلاءِ والتشبُّهِ بالصفاتِ الربَّانيةِ ، والقلوبُ إنَّما تتسخَّرُ بالحبِّ ، ولا تحبُّ إلا باعتقادِ الكمالِ ، فإنَّ كلَّ كمالٍ محبوبٌ ؛ لأنَّ الكمالَ مِنَ الصفاتِ الإلـٰهيةِ ، والصفاتُ الإلـٰهيةُ كلُّها محبوبةٌ بالطَّبعِ ؛ للمعنى الربانيِّ مِنْ جملةِ معاني الإنسانِ ، وهوَ الذي لا يبليهِ الموتُ فيعدمَهُ ، ولا يتسلطُ عليهِ الترابُ فيأكلَهُ ، فإنَّهُ محلُّ الإيمانِ والمعرفةِ ، وهوَ الواصلُ إلىٰ لقاءِ اللهِ تعالىٰ والساعي إليهِ .

فإذاً ؛ معنى الجاهِ : تسخيرُ القلوبِ ، ومَنْ تسخَّرَتْ لهُ القلوبُ . . كانَتْ لهُ قدرةٌ واستيلاءٌ عليها ، والقدرةُ والاستيلاءُ كمالٌ ، وهوَ مِنْ أوصافِ الربوبيةِ .

فإذاً ؛ محبوبُ القلبِ بطبعِهِ الكمالُ بالعلمِ والقدرةِ ، والمالُ والجاهُ مِنْ أسبابِ القدرةِ ، ولا نهايةَ للمعلوماتِ ، ولا نهايةَ للمقدوراتِ ، وما دامَ يبقىٰ معلومٌ أوْ مقدورٌ فالشوقُ لا يسكنُ ، والنقصانُ لا يزولُ ؛ ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « منهومانِ لا يشبعانِ »(١) .

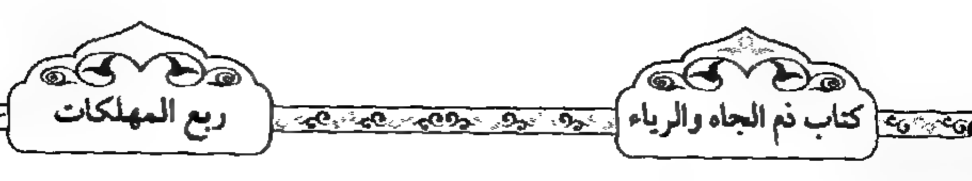
فإذاً ؛ مطلوبُ القلوبِ الكمالُ ، والكمالُ بالعلمِ والقدرةِ ، وتفاوتُ الدرجاتِ فيهِ غيرُ محصورٍ ، فسرورُ كلِّ إنسانٍ ولذَّتُهُ بقدْرِ ما يدركُهُ مِنَ الكمالِ .

---

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (١/ ٩٢) .

فهٰذا هوَ السببُ في كونِ العلمِ والمالِ والجاهِ محبوباً ، وهوَ أمرٌ ـ وراءَ كونِهِ محبوباً ـ لأجلِ التوصلِ إلىٰ قضاءِ الشهواتِ ، فإنَّ هٰذهِ العلَّةَ قدْ تبقىٰ معَ سقوطِ الشهواتِ ، بلْ يحبُّ الإنسانُ مِنَ العلومِ ما لا يصلحُ للتوصُّلِ بهِ إلى الأغراضِ ، بلْ ربَّما يفوِّتُ عليهِ جملةً مِنَ الأغراضِ والشهواتِ ، ولكنَّ الطبعَ يتقاضىٰ طلبَ العلمِ في جميعِ العجائبِ والمشكلاتِ ؛ لأنَّ في العلمِ استيلاءً على المعلومِ ، وهوَ نوعٌ مِنَ الكمالِ الذي هوَ مِنْ صفاتِ الربوبيةِ ؛ فكانَ محبوباً بالطبعِ ، إلا أنَّ في حبِّ كمالِ العلمِ والقدرةِ أغاليطَ لا بدَّ مِنْ بيانِها ، إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

* * *



بيان الكمال الحقيقيّ والكمال الوهميّ الّذي لا حقيقة له

قدْ عرفتَ أنَّهُ لا كمالَ بعدَ فواتِ التفرُّدِ بالوجودِ إلا فِي العلمِ والقدرةِ ، ولكنَّ الكمالَ الحقيقيَّ فيهِ ملتبسٌ بالكمالِ الوهميِّ .

❊ ❊ ❊

وبيانُهُ : أنَّ كمالَ العلمِ للهِ تعالىٰ ، وذلكَ مِنْ ثلاثةِ أوجهٍ :

أحدُها : مِنْ حيثُ كثرةُ المعلوماتِ وسعتُها ؛ فإنَّهُ محيطٌ بجميعِ المعلوماتِ ؛ فكذلكَ كلَّما كانَتْ علومُ العبدِ أكثرَ . . كانَ أقربَ إلى اللهِ تعالىٰ .

والثاني : مِنْ حيثُ تعلُّقُ العلمِ بالمعلومِ علىٰ ما هوَ بهِ ، وكونُ المعلومِ مكشوفاً بهِ كشفاً تاماً ، فإنَّ المعلوماتِ مكشوفةٌ للهِ تعالىٰ بأتمِّ أنواعِ الكشفِ علىٰ ما هيَ عليهِ ؛ فكذلكَ مهما كانَ علمُ العبدِ أوضحَ ، وأيقنَ وأصدقَ ، وأوفقَ للمعلومِ في تفاصيلِ صفاتِ المعلومِ . . كانَ أقربَ إلى اللهِ تعالىٰ .

والثالثُ : مِنْ حيثُ بقاءُ العلمِ أبدَ الآبادِ ، بحيثُ لا يتغيرُ ولا يزولُ ، فإنَّ علمَ اللهِ تعالىٰ باقٍ لا يُتصوَّرُ أنْ يتغيَّرَ .

فكذلكَ مهما كانَ علمُ العبدِ بمعلوماتٍ لا يقبلُ التغيُّرَ والانقلابَ . . كانَ أقربَ إلى اللهِ تعالىٰ .

❊ ❊ ❊

والمعلوماتُ قسمانِ : متغيراتٌ وأزلياتٌ :

أمَّا المتغيراتُ : فمثالُها : العلمُ بكونِ زيدٍ في الدارِ ، فإنَّهُ علمٌ لهُ معلومٌ ، ولكنْ يُتصوَّرُ أنْ يخرجَ زيدٌ مِنَ الدارِ ، ويبقى اعتقادُ كونِهِ في الدارِ كما كانَ ، فينقلبُ جهلاً ، فيكونُ نقصاناً لا كمالاً ، فكلُّ ما اعتقدتَهُ اعتقاداً موافقاً لهُ وتُصوِّرَ أنْ ينقلبَ المعتقدُ فيهِ عمَّا اعتقدتَهُ . . كنتَ بصددِ أنْ ينقلبَ كمالُكَ نقصاً ، ويعودَ علمُكَ جهلاً .

ويلتحقُ بهٰذا المثالِ جميعُ متغيراتِ العالمِ ؛ كعلمِكَ مثلاً بارتفاعِ جبلٍ ، ومساحةِ أرضٍ ، وبعددِ البلادِ ، وتباعدِ ما بينَها مِنَ الأميالِ والفراسخِ ، وسائرِ ما يُذكرُ في المسالِكِ والممالِكِ ، وكذلِكَ العلمُ باللغاتِ التي هيَ اصطلاحاتٌ تتغيَّرُ بتغيُّرِ الأعصارِ والأممِ والعاداتِ ، فهٰذِهِ علومٌ معلوماتُها مثلُ الزئبقِ ، تتغيَّرُ مِنْ حالٍ إلىٰ حالٍ ، فليسَ فيها كمالٌ إلا في الحالِ ، ولا يبقىٰ كمالاً في القلبِ .

والقسمُ الثاني : هيَ المعلوماتُ الأزليَّةُ : وهيَ جوازُ الجائزاتِ ، ووجوبُ الواجباتِ ، واستحالةُ المستحيلاتِ ، فإنَّ هٰذهِ معلوماتٌ أزليةٌ أبديةٌ ؛ إذْ لا يستحيلُ الواجبُ قطُّ جائزاً ، ولا الجائزُ محالاً ، ولا المحالُ واجباً ، وكلُّ هٰذهِ الأقسامِ داخلةٌ في معرفةِ اللهِ ، وما يجبُ لهُ ، وما يستحيلُ في صفاتِهِ ، ويجوزُ في أفعالِهِ ، فالعلمُ باللهِ تعالىٰ وبصفاتِهِ وأفعالِهِ ، وحكمتِهِ في ملكوتِ السماواتِ والأرضِ ، وترتيبِ الدنيا

والآخرةِ ، وما يتعلَّقُ بهِ . . هوَ الكمالُ الحقيقيُّ الذي يقرِّبُ مَنْ يتَّصفُ بهِ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، ويبقىٰ كمالاً للنفسِ بعدَ الموتِ ، فتكونُ هـٰذهِ المعرفةُ نوراً للعارفينَ بعدَ الموتِ يسعىٰ بينَ أيديهِمْ وبأيمانِهِمْ ، يقولونَ : ربَّنا أتممْ لنا نورَنا ؛ أَيْ : تكونُ هـٰذهِ المعرفةُ رأسَ مالٍ يوصلُ إلىٰ كشفِ ما لمْ ينكشفْ في الدنيا ، كما أنَّ مَنْ معَهُ سراجٌ خفيٌّ . . فإنَّهُ يجوزُ أنْ يصيرَ ذلكَ سبباً لزيادةِ النورِ بسراجٍ آخرَ يقتبسُ منهُ ، فيكملُ النورُ بذلكَ النورِ الخفيِّ علىٰ سبيلِ الاستتمامِ ، ومَنْ ليسَ معَهُ أصلُ السراجِ . . فلا مطمعَ لهُ في ذلكَ ، فمَنْ ليسَ معَهُ أصلُ معرفةِ اللهِ تعالىٰ . . لمْ يكنْ لهُ مطمعٌ في هـٰذا النورِ ، فيبقىٰ كمَنْ مثلُهُ في الظُّلماتِ ليسَ بخارجٍ مِنْها ، بلْ كظلماتٍ في بحرٍ لجِّيٍّ ، يغشاهُ موجٌ مِنْ فوقِهِ موجٌ مِنْ فوقِهِ سحابٌ ، ظلماتٌ بعضُها فوقَ بعضٍ .

* * *

فإذاً ؛ لا سعادةَ إلا في معرفةِ اللهِ تعالىٰ ، وأمَّا ما عدا ذلكَ مِنَ المعارفِ . . فمنها ما لا فائدةَ لها أصلاً ؛ كمعرفةِ الشِّعرِ وأنسابِ العربِ وغيرِ ذلكَ ، ومِنْها ما لها فائدةٌ في الإعانةِ علىٰ معرفةِ اللهِ تعالىٰ ؛ كمعرفةِ لغةِ العربِ ، والتفسيرِ ، والفقهِ ، والأخبارِ ، فإنَّ معرفةَ لغةِ العربِ تعينُ علىٰ معرفةِ تفسيرِ القرآنِ ، ومعرفةَ التفسيرِ تعينُ علىٰ معرفةِ ما في القرآنِ مِنْ كيفيةِ العباداتِ والأعمالِ التي تفيدُ تزكيةَ النفسِ ، ومعرفةَ طريقِ تزكيةِ النفسِ تفيدُ استعدادَ النفسِ لقبولِ الهدايةِ إلىٰ معرفةِ اللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ ؛ كما قالَ تعالىٰ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ ، وقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَالَّذِينَ جَٰهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ ،

فتكونُ جملةُ هٰذهِ المعارفِ كالوسائلِ إلىٰ تحقيقِ معرفةِ اللهِ تعالىٰ .

وإنَّما الكمالُ في معرفةِ اللهِ تعالىٰ ، ومعرفةِ صفاتِهِ وأفعالِهِ ، وينطوي فيهِ جميعُ المعارفِ المحيطةِ بالموجوداتِ ؛ إذِ الموجوداتُ كلُّها مِنْ أفعالِهِ ، فمَنْ عرفَها مِنْ حيثُ هيَ فعلُ اللهِ تعالىٰ ، ومِنْ حيثُ ارتباطُها بالقدرةِ والإرادةِ والحكمةِ . . فهيَ مِنْ تكملةِ معرفةِ اللهِ تعالىٰ .

هٰذا حكمُ كمالِ العلمِ ذكرناهُ وإنْ لمْ يكنْ لائقاً بأحكامِ الجاهِ والرياءِ ، ولكنْ أوردناهُ لاستيفاءِ أقسامِ الكمالِ .

* * *

وأمَّا القدرةُ :

فليسَ فيها كمالٌ حقيقيٌّ للعبدِ ، بلْ للعبدِ علمٌ حقيقيٌّ ، وليسَ لهُ قدرةٌ حقيقيةٌ ، وإنَّما القدرةُ الحقيقيةُ للهِ تعالىٰ[1] ، وما يحدثُ مِنَ الأشياءِ عقيبَ إرادةِ العبدِ وقدرتِهِ وحركتِهِ . . فهيَ حادثةٌ بإحداثِ اللهِ ؛ كما قررناهُ في كتابِ الصبرِ والشكرِ ، وكتابِ التوكلِ ، وفي مواضعَ شتَّىٰ مِنْ ربعِ المنجياتِ ،

---

(١) ولقائل أن يقول : والعلم كالقدرة أيضاً ؛ إذ العلم الحقيقي لله وحده ، وعلم العبد حادث بخلق الله سبحانه ، قال عز من قائل : ﴿ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَـٰهُ ﴾ ، وللعبد علم يناسب حاله كما أن له قدرة تناسب حاله وتصحح تكليفه ، فالمرادُ بقول المصنف : (للعبد علم حقيقي) المعرفةُ التي هي أسُّ كمالات العبد ، وعلة تكليفه الأصيلة ، فحقيقته بصلاحه لطلب غايات الكمال ، وتصوُّر ديمومته للعبد أبد الآباد ، بخلاف القدرة التي هي وسيلة من جهة ، ومن أخرىٰ غير متصوَّرة الاستصحاب .

فكمالُ العلمِ يبقىٰ معَهُ بعدَ الموتِ ، ويوصلُهُ إلى اللهِ تعالىٰ ، فأمَّا كمالُ القدرةِ . . فلا .

نعمْ ؛ لهُ كمالٌ مِنْ جهةِ القدرةِ بالإضافةِ إلى الحالِ ، وهيَ وسيلةٌ لهُ إلىٰ كمالِ العلمِ ؛ كسلامةِ أطرافِهِ ، وقوَّةِ يديهِ للبطشِ ، ورجليهِ للمشيِ ، وحواسِّهِ للإدراكِ ؛ فإنَّ هـٰذهِ القوىٰ آلاتٌ للوصولِ بها إلىٰ حقيقةِ كمالِ العلمِ ، وقدْ يحتاجُ في استيفاءِ هـٰذهِ القوىٰ إلى القدرةِ بالمالِ والجاهِ للتوصُّلِ بهِ إلى المطعمِ والمشربِ والملبسِ والمسكنِ ، وذلكَ إلىٰ قدْرٍ معلومٍ ، فإنْ لمْ يستعملْهُ للوصولِ بهِ إلىٰ معرفةِ جلالِ اللهِ تعالىٰ . . فلا خيرَ فيهِ ألبتةَ إلا مِنْ حيثُ اللَّذةُ الحاليةُ التي تنقضي على القربِ ، ومَنْ ظنَّ ذلكَ كمالاً . . فقدْ جهلَ .

فالخلقُ أكثرهُمْ هالكونَ في غمرةِ هـٰذا الجهلِ ، فإنَّهُمْ يظنُّونَ أنَّ القدرةَ على الأجسادِ بقهرِ الحشمةِ ، وعلىٰ أعيانِ الأموالِ بسعةِ الغنىٰ ، وعلىٰ تعظيمِ القلوبِ بسعةِ الجاهِ . . كمالٌ ، فلمَّا اعتقدوا ذلكَ . . أحبُّوهُ ، ولمَّا أحبُّوهُ . . طلبوهُ ، ولمَّا طلبوهُ . . شُغلوا بهِ ، وتهالكوا عليهِ ، فنسوا الكمالَ الحقيقيَّ الذي يوجبُ القربَ مِنَ اللهِ تعالىٰ ومِنْ ملائكتِهِ ، وهوَ العلمُ والحريَّةُ ، أمَّا العلمُ . . فما ذكرناهُ مِنْ معرفةِ اللهِ تعالىٰ ، وأمَّا الحريةُ . . فالخلاصُ مِنْ أسرِ الشهواتِ وغمومِ الدنيا ، والاستيلاءُ عليها بالقهرِ ؛ تشبهاً بالملائكةِ الذينَ لا تستفزُّهُمُ الشهوةُ ، ولا يستهويهِمُ الغضبُ ، فإنَّ دفعَ آثارِ الغضبِ والشهواتِ عنِ النفسِ مِنَ الكمالِ الذي هوَ مِنْ صفاتِ الملائكةِ .

ومِنْ صفاتِ الكمالِ للهِ تعالى استحالةُ التغيُّرِ والتأثُّرِ عليهِ ، فمَنْ كانَ عنِ

التغيُّرِ والتأثُّرِ بالعوارضِ أبعدَ . . كانَ إلى اللهِ تعالىٰ أقربَ ، وبالملائكةِ أشبهَ ، ومنزلتُهُ عندَ اللهِ أعظمَ ، وهٰذا كمالٌ ثالثٌ سوىٰ كمالِ العلمِ والقدرةِ ، وإنَّما لمْ نوردْهُ في أقسامِ الكمالِ ؛ لأنَّ حقيقتَهُ ترجعُ إلىٰ عدمٍ ونقصانٍ ، فإنَّ التغيُّرَ نقصانٌ ؛ إذْ هوَ عبارةٌ عنْ عدمِ صفةٍ كائنةٍ وهلاكِها ، والهلاكُ نقصٌ في الذاتِ وفي صفاتِ الكمالِ للذاتِ .

فإذاً ؛ الكمالاتُ ثلاثةٌ ـ إنْ عددنا عدمَ التغيُّرِ بالشهواتِ وعدمَ الانقيادِ لها كمالاً ـ : كمالُ العلمِ ، وكمالُ القدرةِ ، وكمالُ الحريةِ ؛ وأعني بهِ : عدمَ العبوديةِ للشهواتِ وإراداتِ الأسبابِ الدُّنيويةِ ، وكمالُ القدرةِ للعبدِ طريقٌ إلى اكتسابِ كمالِ العلمِ وكمالِ الحريةِ ، ولا طريقَ لهُ إلى اكتسابِ كمالِ القدرةِ الباقيةِ بعدَ موتِهِ ؛ إذْ قدرتُهُ علىٰ أعيانِ الأموالِ وعلى استسخارِ القلوبِ والأبدانِ تنقطعُ بالموتِ ، ومعرفتُهُ وحرِّيَّتُهُ لا ينعدمانِ بالموتِ ، بلْ يبقيانِ كمالاً فيهِ ، ووسيلةً إلى القربِ مِنَ اللهِ تعالىٰ .

فانظرْ كيفَ انقلبَ الجاهلونَ وانكبُّوا علىٰ وجوهِهِمُ انكبابَ العميانِ ، فأقبلوا علىٰ طلبِ كمالِ القدرةِ بالجاهِ والمالِ ، وهوَ الكمالُ الذي لا يسلمُ ، وإن سلمَ . . فلا بقاءَ لهُ ، وأعرضوا عنْ كمالِ الحريَّةِ والعلمِ الذي إذا حصلَ . . كانَ أبديّاً لا انقطاعَ لهُ ، وهؤلاءِ همُ الذينَ اشترَوُا الحياةَ الدنيا بالآخرةِ ، فلا جرَم لا يُخفَّفُ عنهُمُ العذابُ ولا هُمْ يُنظرونَ ، وهمُ الذينَ لم يفهموا قولَهُ تعالىٰ : ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ ، فالعلمُ والحريةُ هيَ الباقياتُ الصالحاتُ التي تبقىٰ

كمالاً في النفسِ ، والمالُ والجاهُ هوَ الذي ينقضي على القربِ ، وهوَ كما مثَّلَهُ اللهُ تعالىٰ حيثُ قالَ : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ . . . ﴾ الآيةَ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ إلىٰ قولِهِ : ﴿ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ﴾ ، وكلُّ ما تذروهُ رياحُ الموتِ فهوَ زهرةُ الحياةِ الدنيا ، وكلُّ ما لا يقطعُهُ الموتُ فهوَ الباقياتُ الصالحاتُ .

فقدْ عرفتَ بهٰذا أنَّ كمالَ القدرةِ بالمالِ والجاهِ كمالٌ ظنيٌّ لا أصلَ لهُ ، وأنَّ مَنْ قَصَرَ الوقتَ علىٰ طلبهِ وظنَّهُ مقصوداً فهوَ جاهلٌ .

وإليهِ أشارَ أبو الطيِّبِ بقولِهِ[1] :

وَمَنْ يُنْفِقِ ٱلسَّاعاتِ في جَمْعِ مالِهِ ... مَخافَةَ فَقْرٍ فَٱلَّذي فَعَلَ ٱلْفَقْرُ

إلا قدْرَ البُلْغةِ منهما إلى الكمالِ الحقيقيِّ ، اللهمَّ ؛ اجعلْنا ممَّنْ وفقتَهُ للخيرِ وهديتَهُ بلطفِكَ .

* * *

(١) البيت في « ديوانه بشرح العكبري » (٢/ ١٥٠) .

بيان ما يُحمد من حب الجاه وما يُذمّ

مهما عرفتَ أنَّ معنى الجاهِ ملكُ القلوبِ والقدرةُ عليها . . فحكمُهُ حكمُ ملكِ الأموالِ ، فإنَّهُ عرَضٌ مِنْ أعراضِ الحياةِ الدنيا ، وينقطعُ بالموتِ كالمالِ ، والدنيا مزرعةُ الآخرةِ ، فكلُّ ما خُلقَ في الدنيا فيمكنُ أنْ يُتزوَّدَ منْهُ للآخرةِ ، وكما أنَّهُ لا بدَّ مِنْ أدنىٰ مالٍ لضرورةِ المطعمِ والمشربِ والملبسِ . . فلا بدَّ مِنْ أدنىٰ جاهٍ لضرورةِ المعيشةِ معَ الخلقِ ، والإنسانُ كما لا يستغني عنْ طعامٍ يتناولُهُ فيجوزُ أن يحبَّ الطعامَ أوِ المالَ الذي يبتاعُ بهِ الطعامَ . . فكذلكَ لا يخلو عنِ الحاجةِ إلىٰ خادمٍ يخدمُهُ ، ورفيقٍ يعينُهُ ، وأستاذٍ يرشدُهُ ، وسلطانٍ يحرسُهُ ويدفعُ عنهُ ظلمَ الأشرارِ ، فحبُّهُ لأنْ يكونَ لهُ في قلبِ خادمِهِ مِنَ المحلِّ ما يدعوهُ إلى الخدمةِ ليسَ بمذمومٍ ، وحبُّهُ لأنْ يكونَ لهُ في قلبِ رفيقِهِ مِنَ المحلِّ ما يحسنُ بهِ مرافقتَهُ ومعاونتَهُ ليسَ بمذمومٍ ، وحبُّهُ لأنْ يكونَ لهُ في قلبِ أستاذِهِ مِنَ المحلِّ ما يحسنُ بهِ إرشادَهُ وتعليمَهُ والعنايةَ بهِ ليسَ بمذمومٍ ، وحبُّهُ لأنْ يكونَ لَهُ مِنَ المحلِّ في قلبِ سلطانِهِ ما يحثُّهُ ذلكَ علىٰ دفعِ الشرِّ عنْهُ ليسَ بمذمومٍ ؛ فإنَّ الجاهَ وسيلةٌ إلى الأغراضِ كالمالِ ، فلا فرقَ بينَهما .

إلا أنَّ التحقيقَ في هٰذا يفضي إلىٰ ألا يكونَ المالُ والجاهُ في أعيانِهما محبوبينِ ، بلْ ينزلُ ذلكَ منزلةَ حبِّ الإنسانِ أنْ يكونَ في دارِهِ بيتُ ماءٍ ؛ لأنَّهُ مضطرٌّ إليهِ لقضاءِ حاجتِهِ ، وكانَ يودُّ لوِ استغنىٰ عنْ قضاءِ الحاجةِ حتَّىٰ

يستغني عنْ بيتِ الماءِ ، وهٰذا على التحقيقِ ليسَ بحبٍّ لبيتِ الماءِ ، فكلُّ ما يُرادُ للتوصُّلِ بهِ إلىٰ محبوبٍ . . فالمحبوبُ هوَ المقصودُ المتوصَّلُ إليهِ .

وتُدركُ التفرقةُ بمثالٍ آخرَ ؛ وهوَ أنَّ الرجلَ قدْ يحبُّ زوجتَهُ مِنْ حيثُ إنَّهُ يدفعُ بها فضلةَ الشهوةِ كما يدفعُ ببيتِ الماءِ فضلةَ الطعامِ ، ولوْ كُفيَ مؤنةَ الشهوةِ . . لكانَ يهجرُ زوجتَهُ ، كما أنَّهُ لوْ كُفِيَ قضاءَ الحاجةِ . . لكانَ لا يدخلُ بيتَ الماءِ ولا يدورُ بهِ ، وقدْ يحبُّ زوجتَهُ لذاتِها حبَّ العشَّاقِ ، ولوْ كُفِي الشهوةَ . . لبقيَ مستصحباً لنكاحِها ، فهٰذا هوَ الحبُّ دونَ الأولِ ، وكذلكَ الجاهُ والمالُ قدْ يحبُّ كلَّ واحدٍ منهُما علىٰ هٰذينِ الوجهينِ ، فحبُّهُما لأجلِ التوصُّلِ بهِما إلىٰ مهمَّاتِ البدنِ غيرُ مذمومٍ ، وحبُّهُما لأعيانِهِما فيما يجاوزُ ضرورةَ البدنِ وحاجتَهُ مذمومٌ ، ولكنَّهُ لا يُوصفُ صاحبُهُ بالفسقِ والعصيانِ ما لمْ يحملْهُ الحبُّ علىٰ مباشرةِ معصيةٍ ، وما لمْ يتوصَّلْ إلى اكتسابِهِ بكذبٍ وخداعٍ وارتكابِ محظورٍ ، وما لمْ يتوصَّلْ إلى اكتسابِهِ بعبادةٍ ؛ فإنَّ التوصُّلَ إلى الجاهِ والمالِ بالعبادةِ جنايةٌ على الدينِ ، وهوَ حرامٌ ، وإليهِ يرجعُ معنى الرِّياءِ المحظورِ كما سيأتي .

* * *

فإنْ قلتَ : طلبُهُ المنزلةَ والجاهَ في قلبِ أستاذِهِ وخادمِهِ ورفيقِهِ وسلطانِهِ ومَنْ يرتبطُ بهِ أمرُهُ . . مباحٌ على الإطلاقِ كيفما كانَ ، أوْ يُباحُ إلىٰ حدٍّ مخصوصٍ وعلىٰ وجهٍ مخصوصٍ ؟

فأقولُ : يُطلبُ ذلكَ علىٰ ثلاثةِ أوجهٍ : وجهانِ منها مباحانِ ، ووجهٌ محظورٌ .

أمَّا الوجهُ المحظورُ : فهوَ أنْ يطلبَ قيامَ المنزلةِ في قلوبِهِمْ باعتقادِهِمْ فيهِ صفةً هوَ منفكٌّ عنها ؛ مثلَ العلمِ والورعِ والنسبِ ، فيظهرُ لهُمْ أنَّهُ علويٌّ أوْ عالمٌ أوْ ورِعٌ ولا يكونُ كذلكَ ، فهـٰذا حرامٌ ؛ لأنَّهُ كذبٌ وتلبيسٌ ؛ إمَّا بالقولِ وإمَّا بالمعاملةِ .

وأمَّا أحدُ المباحينِ : فهوَ أنْ يطلبَ المنزلةَ بصفةٍ هوَ متصفٌ بها ؛ كقولِ يوسفَ عليهِ السلامُ فيما أخبرَ عنهُ الربُّ تعالى : ﴿ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴾ فإنَّهُ طلبَ المنزلةَ في قلبِهِ بكونِهِ حفيظاً عليماً ، وكانَ محتاجاً إليهِ ، وكانَ صادقاً فيهِ .

والثاني : أنْ يطلبَ إخفاءَ عيبٍ مِنْ عيوبِهِ ومعصيةٍ مِنْ معاصيهِ حتَّىٰ لا يُعلَمَ ، فلا تزولَ منزلتُهُ بهِ ، فهـٰذا أيضاً مباحٌ ؛ لأنَّ حفظَ السترِ على القبائحِ جائزٌ ، ولا يجوزُ هتكُ السترِ وإظهارُ القبيحِ ، وهـٰذا ليسَ فيهِ تلبيسٌ ، بلْ هوَ سدٌّ لطريقِ العلمِ بما لا فائدةَ في العلمِ بهِ ؛ كالذي يُخفي عنِ السلطانِ أنَّهُ يشربُ الخمرَ ، ولا يلقي إليهِ أنَّهُ ورعٌ ؛ فإنَّ قولَهُ : إنِّي ورعٌ تلبيسٌ ، وعدمُ إقرارِهِ بالشربِ لا يوجبُ اعتقادَ الورعِ ، بلْ يمنعُ العلمَ بالشربِ .

ومِنْ جملةِ المحظوراتِ : تحسينُ الصلاةِ بينَ يديهِ ؛ ليحسُنَ فيهِ

اعتقادُهُ ، فإنَّ ذلكَ رياءٌ ، وهوَ ملبِّسٌ ؛ إذْ يخيِّلُ إليهِ أنَّهُ مِنَ المخلصينَ الخاشعينَ للهِ تعالىٰ ، وهوَ مراءٍ بما يفعلُهُ ، فكيفَ يكونُ مخلصاً ؟! فطلبُ الجاهِ بهٰذا الطريقِ حرامٌ ، وكذا بكلِّ معصيةٍ ، وذلكَ يجري مجرى اكتسابِ المالِ مِنْ غيرِ فرقٍ ، وكما لا يجوزُ أنْ يتملَّكَ مالَ غيرِهِ بتلبيسٍ في عوضٍ أوْ في غيرِهِ . . فلا يجوزُ لهُ أن يتملَّكَ قلبَهُ بتزويرٍ وخداعٍ ؛ فإنَّ ملكَ القلوبِ أعظمُ مِنْ ملكِ الأموالِ .

* * *

بيان السبب في حب المدح والثناء وارتياح النفس له ، وميل الطباع إليه ، وبغضها للذم ونفرتها منه

اعلمْ : أنَّ لحبِّ المدحِ والتذاذِ القلبِ بهِ أربعةَ أسبابٍ :

السببُ الأولُ ـ وهوَ الأقوىٰ ـ : شعورُ النفسِ بالكمالِ ، فإنَّا بيَّنا أنَّ الكمالَ محبوبٌ ، وكلُّ محبوبٍ فإدراكُهُ لذيذٌ ، فمهما شعرَتِ النفسُ بكمالِها . . ارتاحَتْ ، واهتزَّتْ وتلذَّذَتْ ، والمدحُ يشعرُ نفسَ الممدوحِ بكمالِها ، فإنَّ الوصفَ الذي بهِ مدحٌ لا يخلو : إمَّا أنْ يكونَ جليّاً ظاهراً ، أوْ يكونَ مشكوكاً فيهِ .

فإنْ كانَ جليّاً ظاهراً محسوساً . . كانَتِ اللَّذَّةُ فيهِ أقلَّ ، ولكنَّهُ لا يخلو عنْ لذَّةٍ ؛ كثنائِهِ عليهِ بأنَّهُ طويلُ القامةِ ، أبيضُ اللونِ ، فإنَّ هٰذا نوعُ كمالٍ ، ولكنَّ النفسَ تغفُلُ عنهُ ، فتخلو عنْ لذَّتِهِ ، فإذا أُشعرَ بهِ . . لمْ يخلُ حدوثُ الشعورِ عنْ حدوثِ لذَّةٍ .

وإنْ كانَ ذلكَ الوصفُ ممَّا يتطرَّقُ إليهِ الشَّكُّ . . فاللذَّةُ فيهِ أعظمُ ؛ كالثناءِ عليهِ بكمالِ العلمِ ، وكمالِ الورعِ ، وبالحسنِ المطلقِ ، فإنَّ الإنسانَ ربَّما يكونُ شاكّاً في كمالِ حسنِهِ ، وكمالِ علمِهِ ، وكمالِ ورعِهِ ، ويكونُ مشتاقاً إلىٰ زوالِ هٰذا الشكِّ ؛ بأنْ يصيرَ مستيقناً لكونِهِ عديمَ النظيرِ في هٰذهِ الأمورِ ؛ إذْ تطمئنُّ نفسُهُ إليهِ ، فإذا ذكرَهُ غيرُهُ . . أورثَ ذلكَ طمأنينةً وثقةً

باستشعارِ ذلكَ الكمالِ ، فتعظمُ لذَّتهُ ، وإنَّما تعظمُ اللذَّةُ بهٰذهِ العلَّةِ مهما صدرَ الثناءُ مِنْ بصيرٍ بهٰذهِ الصفاتِ ، خبيرٍ بها ، لا يجازفُ في القولِ إلا عنْ تحقيقٍ ، وذلكَ كفرحِ التلميذِ بثناءِ أستاذِهِ عليهِ بالكياسةِ والذكاءِ وغزارةِ الفضلِ ، فإنَّهُ في غايةِ اللذَّةِ ، وإنْ صدرَ ممَّنْ يجازفُ في الكلامِ أوْ لا يكونُ بصيراً بذلكَ الوصفِ . . ضعُفَتِ اللذَّةُ .

وبهٰذهِ العلَّةِ يبغضُ الذَّمَّ أيضاً ويكرهُهُ ؛ لأنَّهُ يشعرُهُ بنقصانِ نفسِهِ ، والنقصانُ ضدُّ الكمالِ المحبوبِ ، فهوَ ممقوتٌ ، والشعورُ بهِ مؤلمٌ ، ولذلكَ يعظمُ الألمُ إذا صدرَ الذَّمُّ مِنْ بصيرٍ موثوقٍ بهِ ، كما ذكرناهُ في المدحِ .

* * *

السببُ الثاني : أنَّ المدحَ يدلُّ علىٰ أنَّ قلبَ المادحِ مملوكٌ للممدوحِ ، وأنَّهُ مريدٌ لهُ ، ومعتقدٌ فيهِ ، ومسخَّرٌ تحتَ مشيئتِهِ ، وملكُ القلوبِ محبوبٌ ، والشعورُ بحصولِهِ لذيذٌ ، وبهٰذهِ العلَّةِ تعظمُ اللَّذةُ مهما صدرَ الثناءُ ممَّنْ تتَّسعُ قدرتُهُ ، وينتفعُ باقتناصِ قلبِهِ ؛ كالملوكِ والأكابرِ ، ويضعفُ مهما كانَ المُثني ممَّنْ لا يُؤبَهُ لهُ ، ولا يقدرُ علىٰ شيءٍ ، فإنَّ القدرةَ عليهِ بملكِ قلبِهِ قدرةٌ علىٰ أمرٍ حقيرٍ ، فلا يدلُّ المدحُ إلا علىٰ قدرةٍ قاصرةٍ ، وبهٰذهِ العلَّةِ أيضاً يُكرهُ الذَّمُّ ، ويتألَّمُ بهِ القلبُ ، وإذا كانَ مِنَ الأكابرِ . . كانَتْ نكايتُهُ أعظمَ ؛ لأنَّ الفائتَ بهِ أعظمُ .

* * *

السببُ الثالثُ : أنَّ ثناءَ المُثني ومدحَ المادحِ سببٌ لاصطيادِ قلبِ كلِّ مَنْ يسمعُهُ ، لا سيَّما إذا كانَ ممَّنْ يُلتفتُ إلىٰ قولِهِ ، ويُعتدُّ بثنائِهِ ، وهـٰذا يختصُّ بثناءٍ يقعُ على الملأ ، فلا جرمَ كلَّما كانَ الجمعُ أكثرَ والمُثني أجدرَ بأنْ يُلتفتَ إلىٰ قولِهِ . . كانَ المدحُ ألذَّ ، والذمُّ أشدَّ على النفسِ .

* * *

السببُ الرابعُ : أنَّ المدحَ يدلُّ علىٰ حشمةِ الممدوحِ ، واضطرارِ المادحِ إلىٰ إطلاقِ اللسانِ بالثناءِ عليهِ ؛ إمَّا عنْ طوعٍ ، وإمَّا عنْ قهرٍ ، فإنَّ الحشمةَ أيضاً لذيذةٌ ؛ لما فيها مِنَ القهرِ والقدرةِ ، وهـٰذهِ اللذَّةُ تحصلُ وإنْ كانَ المادحُ لا يعتقدُ في الباطنِ ما مدحَ بهِ ، ولكنْ كونُهُ مضطراً إلىٰ ذكرِهِ نوعُ قهرٍ واستيلاءٍ عليهِ ، فلا جرمَ تكونُ لذَّتُهُ بقدْرِ تمنُّعِ المادحِ وقوَّتِهِ ، فتكونُ لذَّةُ ثناءِ القويِّ الممتنعِ عنِ التواضعِ بالثناءِ أشدَّ .

فهـٰذهِ الأسبابُ الأربعةُ قدْ تجتمعُ في مدحِ مادحٍ واحدٍ فيعظمُ بها الالتذاذُ ، وقد تفترقُ فتنقصُ اللَّذَّةُ بها .

* * *

أمَّا العلةُ الأولىٰ وهيَ استشعارُ الكمالِ . . فتندفعُ بأنْ يعلمَ الممدوحُ أنَّهُ غيرُ صادقٍ في مدحِهِ؛ كما إذا مُدِحَ بأنَّهُ نسيبٌ، أو سخيٌّ، أو عالمٌ بعلمٍ ، أو متورِّعٌ عنِ المحظوراتِ ، وهوَ يعلمُ مِنْ نفسِهِ ضدَّ ذلكَ ، فتزولُ اللَّذَّةُ التي سببُها استشعارُ الكمالِ، وتبقىٰ لذَّةُ الاستيلاءِ علىٰ قلبِهِ وعلىٰ لسانِهِ وبقيةُ اللَّذَّاتِ .

فإنْ كانَ يعلمُ أنَّ المادحَ ليسَ يعتقدُ ما يقولُهُ ويعلمُ خلوَّهُ عنْ هٰذهِ الصفةِ . . بطلَتِ اللذَّةُ الثانيةُ ، وهوَ استيلاؤُهُ علىٰ قلبِهِ ، وتبقىٰ لذَّةُ الاستيلاءِ بالحشمةِ على اضطرارِ لسانِهِ إلى النطقِ بالثناءِ .

فإنْ لمْ يكنْ ذلكَ عنْ خوفٍ ، بلْ كانَ بطريقِ اللَّعِبِ . . بطلَتِ اللَّذاتُ كلُّها ، فلمْ يكنْ في المدحِ أصلاً لذةٌ ؛ لفواتِ الأسبابِ الثلاثةِ .

فهٰذا ما يكشفُ الغطاءَ عنْ علَّةِ التذاذِ النفسِ بالمدحِ ، وتألُّمِها بسببِ الذَّمِّ ، وإنَّما ذكرناهُ ليُعرفَ طريقُ العلاجِ لحبِّ الجاهِ ، وحبِّ المحمدةِ ، وخوفِ المذمَّةِ ، فإنَّ ما لا يُعرفُ سببُهُ لا يمكنُ معالجتُهُ ؛ إذِ العلاجُ عبارةٌ عنْ حلِّ أسبابِ المرضِ ، واللهُ الموفقُ بكرمِهِ ولطفِهِ ، وصلَّى اللهُ علىٰ كلِّ عبدٍ مصطفىً .

* * *

بيان علاج حب الجاه

اعلمْ : أنَّ مَنْ غلبَ علىٰ قلبِهِ حبُّ الجاهِ . . صارَ مقصورَ الهمِّ علىٰ مراعاةِ الخلقِ ، مشغوفاً بالتودُّدِ إليهِمْ والمراءاةِ لأجلِهِمْ ، ولا يزالُ في أقوالِهِ وأفعالِهِ وأعمالِهِ ملتفتاً إلىٰ ما يعظِّمُ منزلتَهُ عندَهُمْ ، وذلكَ بذرُ النفاقِ وأصلُ الفسادِ ، ويجرُّ ذلكَ ـ لا محالةَ ـ إلى التساهلِ في العباداتِ والمراءاةِ بها ، وإلى اقتحامِ المحظوراتِ للتوصُّلِ إلى اقتناصِ القلوبِ .

ولذلكَ شبَّهَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حبَّ الشرفِ والمالِ وإفسادَهُما للدِّينِ بذئبينِ ضاريينِ ، وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إنَّهُ ينبتُ النِّفاقَ في القلبِ كما ينبتُ الماءُ البقلَ »[1] إذِ النفاقُ هوَ مخالفةُ الظاهرِ للباطنِ بالقولِ أوِ الفعلِ ، وكلُّ مَنْ طلبَ المنزلةَ في قلوبِ الناسِ فيُضطرُّ إلى النفاقِ معَهُمْ ، وإلى التَّظاهرِ بخصالٍ حميدةٍ هوَ خالٍ عنها ، وذلكَ هوَ عينُ النفاقِ .

* * *

فحبُّ الجاهِ إذاً مِنَ المهلكاتِ ، فيجبُ علاجُهُ وإزالتُهُ عنِ القلبِ ، فإنَّهُ طبعٌ جُبِلَ القلبُ عليهِ كما جُبِلَ علىٰ حبِّ المالِ ، وعلاجُهُ مركَّبٌ مِنْ علمٍ وعملٍ :

---

(١) رواه الديلمي من حديث أبي هريرة بلفظ : (حبُّ الغنىٰ ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء العشب) « إتحاف » (٦/ ٢٥٢) .

أمَّا العلمُ : فهوَ أنْ يعلمَ السببَ الذي لأجلِهِ أحبَّ الجاهَ ، وهوَ كمالُ القدرةِ علىٰ أشخاصِ الناسِ وعلىٰ قلوبِهِمْ ، وقدْ بيَّنا أنَّ ذلكَ إنْ صفا وسلمَ . . فآخرُهُ الموتُ ، فليسَ مِنَ الباقياتِ الصالحاتِ ، بلْ لوْ سجدَ لكَ كلُّ مَنْ علىٰ بسيطِ الأرضِ مِنَ المشرقِ إلى المغربِ فإلىٰ خمسينَ سنةً . . لا يبقى الساجدُ ولا المسجودُ لهُ ، ويكونُ حالُكَ كحالِ مَنْ ماتَ قبلَكَ مِنْ ذوي الجاهِ معَ المتواضعينَ لهُ ، فهـٰذا لا ينبغي أنْ يُتركَ بهِ الدينُ الذي هوَ الحياةُ الأبديَّةُ التي لا انقطاعَ لها .

ومَنْ فهِمَ الكمالَ الحقيقيَّ والكمالَ الوهميَّ كما سبقَ . . صغُرَ الجاهُ في عينِهِ ، إلا أنَّ ذلكَ إنَّما يصغرُ في عينِ مَنْ ينظرُ إلى الآخرةِ كأنَّهُ يشاهدُها ، ويستحقرُ العاجلةَ ، ويكونُ الموتُ كالحاصلِ عندَهُ ، ويكونُ حالُهُ كحالِ الحسنِ البصريِّ إذْ كتبَ إلىٰ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ رحمةُ اللهِ عليهما : (أما بعدُ : فكأنَّكَ بآخرِ مَنْ كُتبَ عليهِ الموتُ قدْ ماتَ ، فانظرْ كيفَ مدَّ نظرَهُ نحوَ المستقبلِ وقدَّرَهُ كائناً) ، وكذلكَ حالُ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ حينَ كتبَ في جوابِهِ : (أما بعدُ : فكأنَّكَ بالدنيا لمْ تكنْ ، وكأنَّكَ بالآخرةِ لمْ تزلْ)[1] .

فهؤلاءِ كانَ التفاتُهُمْ إلى العاقبةِ ، فكانَ عملُهُمْ لها بالتقوىٰ ؛ إذْ علموا أنَّ العاقبةَ للمتقينَ ، فاستحقروا الجاهَ والمالَ في الدنيا ، وأبصارُ أكثرِ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٢٢٦) .

الخلقِ ضعيفةٌ مقصورةٌ على العاجلةِ لا يمتدُّ نورُها إلىٰ مشاهدةِ العواقبِ، ولذلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ ، وقالَ : ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴾ .

فمَنْ هـٰذا حدُّهُ فينبغي أنْ يعالجَ قلبَهُ في حبِّ الجاهِ بالعلمِ بالآفاتِ العاجلةِ ، وهوَ أنْ يتفكَّرَ في الأخطارِ التي يستهدفُ لها أربابُ الجاهِ في الدنيا ، فإنَّ كلَّ ذي جاهٍ محسودٌ ومقصودٌ بالإيذاءِ ، وخائفٌ على الدوامِ علىٰ جاهِهِ ، ومحترزٌ مِنْ أنْ تتغيَّرَ منزلتُهُ في القلوبِ ، والقلوبُ أشدُّ تغيراً مِنَ القِدْرِ في غليانِها ، وهيَ متردِّدةٌ بينَ الإقبالِ والإعراضِ ، فكلُّ ما يُبنىٰ علىٰ قلوبِ الخلقِ يضاهي ما يُبنىٰ علىٰ أمواجِ البحرِ ، فإنَّهُ لا ثباتَ لهُ ، والاشتغالُ بمراعاةِ القلوبِ ، وحفظِ الجاهِ ، ودفعِ كيدِ الحسادِ ، ومنعِ أذى الأعداءِ . . كلُّ ذلكَ غمومٌ عاجلةٌ ، ومكدِّرةٌ للذَّةِ الجاهِ ، فلا يفي في الدنيا مرجوُّها بمَخُوفِها ، فضلاً عمَّا يفوتُ في الآخرةِ ، فبهـٰذا ينبغي أنْ تُعالجَ البصيرةُ الضعيفةُ .

وأمَّا مَنْ نفذَتْ بصيرتُهُ ، وقويَ إيمانُهُ . . لمْ يلتفتْ إلى الدنيا ، فهـٰذا هوَ العلاجُ مِنْ حيثُ العلمُ .

* * *

وأمَّا مِنْ حيثُ العملُ : فإسقاطُ الجاهِ عنْ قلوبِ الخلقِ بمباشرةِ أفعالٍ يُلامُ عليها ؛ حتَّىٰ يسقطَ مِنْ أعينِ الخلقِ ، وتفارقَهُ لذَّةُ القبولِ ، ويأنسَ

بالخمولِ ، ويردَّ الخلقَ ، ويقنعَ بالقبولِ مِنَ الخالقِ .

وهـٰذا هوَ منهجُ المَلامَتِيَّةِ[1] ؛ إذِ اقتحموا الفواحشَ في صورتِها ؛ ليسقطوا أنفسَهم عنْ أعينِ الناسِ ، فيسلموا مِنْ آفةِ الجاهِ ، وهـٰذا غيرُ جائزٍ لمَنْ يُقتدىٰ بهِ ، فإنَّهُ يوهنُ الدينَ في قلوبِ المسلمينَ ، وأمَّا الذي لا يُقتدىٰ بهِ . . فلا يجوزُ لهُ أنْ يقدمَ علىٰ محظورٍ لأجلِ ذلكَ ، بلْ لهُ أنْ يفعلَ مِنَ المباحاتِ ما يسقطُ قدرَهُ عند الناسِ ؛ كما رُوِيَ أنَّ بعضَ الملوكِ قصدَ بعضَ الزُّهَّادِ ، فلمَّا علمَ بقربِهِ منهُ . . استدعىٰ طعاماً وبقلاً وأخذَ يأكلُ بشَرَهٍ ، ويعظمُ اللُّقمَ ، فلمَّا نظرَ إليهِ الملكُ . . سقطَ مِنْ عينِهِ وانصرفَ ، فقالَ الزاهدُ : الحمدُ للهِ الذي صرفَكَ عنِّي[2] .

ومنهُمْ مَنْ شربَ شراباً حلالاً في قدحٍ لونُهُ لونُ الخمرِ ، حتَّىٰ يُظنَّ بهِ أنَّهُ يشربُ الخمرَ فيسقطَ مِنَ الأعينِ ، وهـٰذا في جوازِهِ نظرٌ مِنْ حيثُ الفقهُ ، إلا أنَّ أربابَ الأحوالِ ربَّما يعالجونَ أنفسَهُمْ بما لا يفتي بهِ الفقيهُ مهما رأَوا صلاحَ قلوبِهِمْ فيهِ ، ثمَّ يتداركونَ ما فرطَ منهُمْ فيهِ مِنْ صورةِ التقصيرِ ؛ كما فعلَ بعضُهُمْ ، فإنَّهُ عُرِفَ بالزهدِ ، وأقبلَ الناسُ عليهِ ، فدخلَ حماماً ،

---

(١) نسبة إلى الملامة ؛ إذ لا ينفكون عن لوم أنفسهم ، والأصل أن يقال لهم : المَلاميّة ، وهو مستعمل ، وقد يقال لهم : الأمناء ، وهم ـ كما سيبين المصنف ـ قوم يعمرون بواطنهم ويخربون ظواهرهم ، من أعظم أئمتهم الشيخ عبد الله بن منازل والشيخ حمدون القصار رضي الله عنهما ، انظر طرفاً من بيان صفات الملامية للعلامة الحافظ عبد الملك الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٦٥) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٤٨) بنحوه .

ولبسَ ثيابَ غيرِهِ وخرجَ ، ووقفَ في الطريقِ حتَّىٰ عرفوهُ ، فأخذوهُ وضربوهُ ، واستردُّوا منهُ الثيابَ ، وقالوا : إنَّهُ طرَّارٌ وهجرُوهُ(١) .

وأقوى الطرقِ في قطعِ الجاهِ : الاعتزالُ عنِ الناسِ ، والهجرةُ إلىٰ موضعِ الخمولِ ، فإنَّ المعتزلَ في بيتِهِ في البلدةِ التي هوَ بها مشهورٌ ، لا يخلو عنْ حبِّ المنزلةِ التي تترسَّخُ لهُ في القلوبِ بسببِ عزلتِهِ ، وربَّما يظنُّ أنَّهُ ليسَ محبّاً لذلكَ الجاهِ ، وهوَ مغرورٌ ، وإنَّما سكنَتْ نفسُهُ لأنَّها قدْ ظفرَتْ بمقصودِها ، ولوْ تغيَّرَ الناسُ عمَّا اعتقدوهُ فيهِ ؛ فذمُّوهُ أوْ نسبوهُ إلىٰ أمرٍ غيرِ لائقٍ بهِ . . جزعَتْ نفسُهُ وتألَّمَتْ ، وربَّما توصَّلَتْ إلى الاعتذارِ عنْ ذلكَ ، وإماطةِ ذلكَ الغبارِ عنْ قلوبِهِمْ ، وربَّما يحتاجُ في إزالةِ ذلكَ عنْ قلوبِهِمْ إلىٰ كذبٍ وتلبيسٍ ، ولا يبالي بهِ ، وبهِ يتبيَّنُ أنَّهُ محبٌّ للجاهِ والمنزلةِ ، ومَنْ أحبَّ الجاهَ والمنزلةَ . . فهوَ كمَنْ أحبَّ المالَ ، بلْ هوَ شرٌّ منهُ ، فإنَّ فتنةَ الجاهِ أعظمُ ، ولا يمكنُهُ ألا يحبَّ المنزلةَ في قلوبِ الناسِ ما دامَ يطمعُ في الناسِ ، فإذا أحرزَ قوتَهُ مِنْ كسبِهِ أوْ مِنْ جهةٍ أخرىٰ ، وقطعَ طمعَهُ عنِ الناسِ رأساً . . أصبحَ الناسُ كلُّهُمْ عندَهُ كالأرذالِ(٢) ، فلا يبالي أكانَتْ لهُ منزلةٌ في قلوبِهِمْ أمْ لمْ تكنْ ؛ كما لا يبالي بذلكَ في قلوبِ الذينَ هُمْ منهُ في أقصى

---

(١) وهو إبراهيم الخواص رضي الله عنه ، ونُعت بعد هٰذه الحادثة بـ(لص الحمام) ، فقال لنفسه : هٰهنا طاب المقام ، وانظر القصة ومثيلاتها وأجوبة الفقهاء في بيان جوازها عند اليافعي في « نشر المحاسن الغالية » (ص ٣٠٣) .

(٢) في (ب) : (كالجمادات) .

الشرقِ ؛ لأنَّهُ لا يراهُمْ ولا يطمعُ فيهِمْ .

ولا يُقطعُ الطمعُ عنِ الناسِ إلا بالقناعةِ ، فمَنْ قنعَ . . استغنىٰ عنِ الناسِ ، وإذا استغنىٰ . . لمْ يشتغلْ قلبُهُ بالناسِ ، ولمْ يكنْ لقيامِ منزلتِهِ في القلوبِ عندَهُ وزنٌ ، ولا يتمُّ تركُ الجاهِ إلا بالقناعةِ وقطعِ الطمعِ ؛ ويستعينُ علىٰ جميعِ ذلكَ بالأخبارِ الواردةِ في ذمِّ الجاهِ ومدحِ الخمولِ والذلِّ ، مثلَ قولِهِمْ : (المؤمنُ لا يخلو مِنْ ذلَّةٍ ، أوْ قلَّةٍ ، أوْ علَّةٍ)[1] ، وينظرُ في أحوالِ السلفِ وإيثارِهِمْ للذلِّ على العزِّ ، ورغبتِهِم في ثوابِ الآخرةِ ، رضيَ اللهُ عنهُمْ أجمعينَ .

* * *

---

(١) وهو قول مشهور علىٰ ألسنة الناس . « إتحاف » (٨/ ٢٥٥) ، ومعناه في الحديث الآتي .

بيان وجه العلاج لحب المدح وكراهة الذم

اعلمْ : أنَّ أكثرَ الناسِ إنَّما هلكوا بخوفِ مذمَّةِ الناسِ وحبِّ مدحِهِمْ ، فصارَتْ حركاتُهُمْ كلُّها موقوفةً علىٰ ما يوافقُ رضا الناسِ ؛ رجاءً للمدحِ وخوفاً مِنَ الذمِّ ، وذلكَ مِنَ المهلكاتِ ، فيجبُ معالجتُهُ .

وطريقُهُ : ملاحظةُ الأسبابِ التي لأَجلِها يُحبُّ المدحُ ويُكرهُ الذمُّ .

* * *

أمَّا السببُ الأوَّلُ وهوَ استشعارُ الكمالِ بسببِ قولِ المادحِ : فطريقُكَ فيهِ أنْ ترجعَ إلىٰ عقلِكَ وتقولَ لنفسِكَ : هٰذهِ الصفةُ التي يمدحُكَ بها أنتَ متصفٌ بها أمْ لا ؟

فإنْ كنتَ متصفاً بها . . فهيَ إمَّا صفةٌ تستحقُّ بها المدحَ ؛ كالعلمِ والورعِ ، وإمَّا صفةٌ لا تستحقُّ بها المدحَ ؛ كالثروةِ والجاهِ والأغراضِ الدنيويَّةِ .

فإنْ كانَتْ مِنَ الأغراضِ الدنيويَّةِ . . فالفرحُ بها كالفرحِ بنباتِ الأرضِ الذي يصيرُ على القربِ هشيماً تذروهُ الرياحُ ، وهٰذا مِنْ قلَّةِ العقلِ ، بلِ العاقلُ يقولُ كما قالَ المتنبي(١) : [من الوافر]

أَشَـدُّ ٱلْغَـمِّ عِنْـدِي فِـي سُـرُورٍ تَيَقَّـنَ عَنْـهُ صـاحِبُـهُ ٱنْتِقـالا

---

(١) انظر « ديوانه بشرح العكبري » (٣/ ٢٢٤) .

فلا ينبغي أنْ يفرحَ الإنسانُ بعروضِ الدنيا ، وإنْ فرحَ . . فلا ينبغي أنْ يفرحَ بمدحِ المادحِ بها ، بلْ بوجودِها ، والمدحُ ليسَ هوَ سببَ وجودِها .

وإنْ كانَتِ الصفةُ ممَّا يستحقُّ الفرحَ بها ؛ كالعلمِ والورعِ . . فينبغي ألا يفرحَ بها ؛ لأنَّ الخاتمةَ غيرُ معلومةٍ ، وهٰذا إنَّما يقتضي الفرحَ لأنَّهُ يقرِّبُ عندَ اللهِ زُلفىٰ ، وخطرُ الخاتمةِ باقٍ ، ففي الخوفِ مِنْ سوءِ الخاتمةِ شغلٌ عنِ الفرحِ بكلِّ ما في الدنيا ، بلِ الدنيا دارُ أحزانٍ وغمومٍ ، لا دارُ فرحٍ وسرورٍ .

ثمَّ إنْ كنتَ تفرحُ بها علىٰ رجاءِ حسنِ الخاتمةِ . . فينبغي أنْ يكونَ فرحُكَ بفضْلِ اللهِ تعالىٰ عليكَ بالعلمِ والتقوىٰ ، لا بمدحِ المادحِ ، فإنَّ اللذَّةَ في استشعارِ الكمالِ ، والكمالُ موجودٌ مِنْ فضْلِ اللهِ لا مِنَ المدحِ ، والمدحُ تابعٌ لهُ ، فلِمَ ينبغي أنْ تفرحَ بالمدحِ والمدحُ لا يزيدُكَ فضلاً ؟

وإنْ كانَتِ الصفةُ التي مُدحتَ بها أنتَ خالٍ عنها . . ففرحُكَ بالمدحِ غايةُ الجنونِ ، ومثالُكَ مثالُ مَنْ يهزأُ بهِ إنسانٌ ويقولُ لهُ : سبحانَ اللهِ ! ما أكثرَ العطرَ الذي في أحشائِهِ ! وما أطيبَ الروائحَ التي تفوحُ منهُ إذا قضىٰ حاجتَهُ ! وهوَ يعلمُ ما تشتملُ عليهِ أمعاؤُهُ مِنَ الأقذارِ والأنتانِ ، ثمَّ يفرحُ بذلكَ ، فكذلكَ إذا أثنَوا عليكَ بالصلاحِ والورعِ ، ففرحتَ بهِ ، واللهُ مطَّلعٌ علىٰ خبائثِ باطنِكَ ، وغوائلِ سريرتِكَ ، وأقذارِ صفاتِكَ . . كانَ ذلكَ مِنْ غايةِ الجهلِ .

فإذاً ؛ المادحُ إنْ صدقَ . . فليكُنْ فرحُكَ بصفتِكَ التي هيَ مِنَ فضْلِ اللهِ

عليكَ ؛ وإنْ كذبَ . . فينبغي أنْ يغمَّكَ ذلكَ ولا تفرحَ بهِ .

* * *

وأمّا السببُ الثاني وهوَ دلالةُ المدحِ علىٰ تسخيرِ قلبِ المادحِ ، وكونِهِ سبباً لتسخيرِ قلبٍ آخرَ : فهٰذا يرجعُ إلىٰ حبِّ الجاهِ والمنزلةِ في القلوبِ ، وقدْ سبقَ وجهُ معالجتِهِ ، وذلكَ بقطعِ الطمعِ عنِ الناسِ ، وطلبِ المنزلةِ عندَ اللهِ ، وبأنْ تعلمَ أنَّ طلبَكَ المنزلةَ في قلوبِ الناسِ وفرحَكَ بها يسقطُ منزلتَكَ عندَ اللهِ تعالىٰ ، فكيفَ تفرحُ بهِ ؟!

* * *

وأمّا السببُ الثالثُ وهوَ الحشمةُ التي اضطرّتِ المادحَ إلى المدحِ : فهوَ أيضاً يرجعُ إلىٰ قدرةٍ عارضةٍ لا ثباتَ لها ولا تستحقُّ الفرحَ ، بلْ ينبغي أنْ يغمَّكَ مدحُ المادحِ وتكرهَهُ وتغضبَ بهِ ، كما نُقلَ ذلكَ عنِ السلفِ ؛ لأنَّ آفةَ المدحِ على الممدوحِ عظيمةٌ ، كما ذكرناها في كتابِ آفاتِ اللسانِ .

وقالَ بعضُ السلفِ : (مَنْ فرحَ بمدحٍ . . فقدْ مكَّنَ الشيطانَ مِنْ أنْ يدخلَ في بطنِهِ)(١) .

وقالَ بعضُهُمْ : (إذا قيلَ لكَ : نعمَ الرجلُ أنتَ ، فكانَ أحبَّ إليكَ مِنْ أنْ يُقالَ لكَ : بئسَ الرجلُ أنتَ . . فأنتَ واللهِ بئسَ الرجلُ)(٢) .

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٦٤) عن مالك بن دينار .
(٢) أورده صاحب « القوت » (١/ ١٧٣) عن سفيان الثوري بنحوه .

ورُوِيَ في بعضِ الأخبارِ ـ فإنْ صحَّ . . فهوَ قاصمٌ للظهورِ ـ : أنَّ رجلاً أثنىٰ علىٰ رجلٍ خيراً عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لوْ كانَ صاحبُكَ حاضراً فرضيَ الذي قلتَ فماتَ علىٰ ذلكَ . . دخلَ النارَ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مرةً للمادحِ : « ويحَكَ ! قطعتَ ظهرَهُ ، لوْ سمعَكَ . . ما أفلحَ إلىٰ يومِ القيامةِ »(٢) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسَّلامُ : « ألا لا تمادحوا ، وإذا رأيتُمُ المدَّاحينَ . . فاحثوا في وجوهِهِمُ الترابَ »(٣) .

فلهٰذا كانَ الصحابةُ رضوانُ اللهِ عليهم أجمعينَ علىٰ وَجَلٍ عظيمٍ مِنَ المدحِ وفتنتِهِ ، وما يدخلُ على القلبِ مِنَ السُّرورِ العظيمِ بهِ ، حتَّىٰ إنَّ بعضَ الخلفاءِ الراشدينَ سألَ رجلاً عنْ شيءٍ فقالَ : أنتَ يا أميرَ المؤمنينَ خيرٌ منِّي وأعلمُ ، فغضبَ وقالَ : إنِّي لمْ آمرْكَ أنْ تزكِّيَني !(٤) .

وقيلَ لبعضِ الصحابةِ : لا يزالُ الناسُ بخيرٍ ما أبقاكَ اللهُ ، فغضبَ وقالَ : إنِّي لأحسبُكَ عراقياً(٥) .

---

(١) قال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) . « إتحاف » (٨/ ٢٥٦) .
(٢) رواه البخاري (٢٦٦٢) ، ومسلم (٣٠٠٠) بنحوه .
(٣) رواه مسلم (٣٠٠٢/ ٦٩) دون قوله : (ألا لا تمادحوا) .
(٤) رواه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٥/ ١٨٢) قاله أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه لأربد وقد مدحه بهٰذا .
(٥) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٥٤) من زيادات نعيم بن حماد ، والصحابي =

وقالَ بعضُهُمْ لمَّا مُدِحَ : (اللَّهُمَّ ؛ إنَّ عبدَكَ تقرَّبَ إليَّ بمقتِكَ ، فأشهدُكَ علىٰ مقتِهِ)[1] .

وإنَّما كرهوا المدحَ خيفةَ أنْ يفرحوا بمدحِ الخلقِ وهمْ ممقوتونَ عندَ الخالقِ ، فكانَ اشتغالُ قلوبِهِمْ بحالِهِمْ عندَ اللهِ يُبغِّضُ إليهِمْ مدحَ الخلقِ ؛ لأنَّ الممدوحَ على الحقيقةِ هوَ المقرَّبُ إلى اللهِ ، والمذمومَ على الحقيقةِ هوَ المبعَدُ مِنَ اللهِ الملقَىٰ في النارِ معَ الأشرارِ ، فهـٰذا الممدوحُ إنْ كانَ عندَ اللهِ مِنْ أهلِ النَّارِ . . فما أعظمَ جهلَهُ إذا فرحَ بمدحِ غيرِهِ ! وإنْ كانَ مِنْ أهلِ الجنةِ . . فلا ينبغي أنْ يفرحَ إلا بفضْلِ اللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ وثنائِهِ عليهِ ؛ إذْ ليسَ أمرُهُ بيدِ الخلقِ ، ومهما علمَ أنَّ الآجالَ والأرزاقَ بيدِ اللهِ تعالىٰ . . قلَّ التفاتُهُ إلىٰ مدحِ الخلقِ وذمِّهِمْ ، وسقطَ مِنْ قلبِهِ حبُّ المدحِ ، واشتغلَ بما يهمُّهُ مِنْ أمرِ دينِهِ ، واللهُ الموفِّقُ للصوابِ برحمتِهِ .

❋ ❋ ❋

= هو عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦٠٢) .

بيان علاج كراهة الذم

قد سبقَ أنَّ العلةَ في كراهةِ الذمِّ هيَ ضدُّ العلةِ في حبِّ المدحِ ، فعلاجُهُ أيضاً يُفهمُ منهُ .

والقولُ الوجيزُ فيهِ : أنَّ مَنْ ذمَّكَ لا يخلو مِنْ ثلاثةِ أحوالٍ : إمَّا أنْ يكونَ قدْ صدقَ فيما قالَ وقصدَ بهِ النصحَ والشفقةَ ، وإمَّا أنْ يكونَ صادقاً ولكنْ قصدُهُ الإيذاءُ والتعنُّتُ ، وإمَّا أنْ يكونَ كاذباً .

* * *

فإنْ كانَ صادقاً وقصدُهُ النصحُ . . فلا ينبغي أنْ تذمَّهُ وتغضبَ عليهِ وتحقدَ بسببِهِ ، بلْ ينبغي أنْ تتقلَّدَ منَّتَهُ ؛ فإنَّ مَنْ أهدىٰ إليكَ عيوبَكَ . . فقدْ أرشدَكَ إلى المهلِكِ لكَ حتَّىٰ تتقيَهُ ، فينبغي أنْ تفرحَ بهِ ، وتشتغلَ بإزالةِ الصفةِ المذمومةِ عنْ نفسِكَ إنْ قدرتَ عليها ، فأمَّا اغتمامُكَ بسببِهِ وكراهتُكَ لهُ وذمُّكَ إيَّاهُ . . فإنَّهُ غايةُ الجهلِ .

* * *

وإنْ كانَ قصدُهُ التعنُّتَ . . فأنتَ قدِ انتفعتَ بقولِهِ ؛ إذْ أرشدَكَ إلىٰ عيبِكَ إنْ كنتَ جاهلاً بهِ ، أوْ ذكَّرَكَ عيبَكَ إنْ كنتَ غافلاً عنهُ ، أو قبَّحَهُ في عينِكَ لينبعثَ حرصُكَ علىٰ إزالتِهِ إنْ كنتَ قدِ استحسنتَهُ ، وكلُّ ذلكَ أسبابُ سعادتِكَ ، وقدِ استفدتَهُ منهُ ، فاشتغلْ بطلبِ السعادةِ ، فقدْ

أُتيحَ لكَ أسبابُها بسببِ ما سمعتَهُ مِنَ المذمَّةِ .

فمهما قصدتَ الدخولَ علىٰ ملكٍ وثوبُكَ ملوثٌ بالعَذِرَةِ وأنتَ لا تدري ، ولوْ دخلتَ عليهِ كذلكَ لخفتَ أنْ يحزَّ رقبتَكَ لتلويثِكَ مجلسَهُ بالعذرةِ ، فقالَ لكَ قائلٌ : أيُّها الملوَّثُ بالعذرةِ ؛ طهِّرْ نفسَكَ . . فينبغي أنْ تفرَحَ بهِ ؛ لأنَّ تنبُّهَكَ بقولِهِ غنيمةٌ ، وجميعُ مساوىءِ الأخلاقِ مهلكةٌ في الآخرةِ ، والإنسانُ إنَّما يعرفُها مِنْ قولِ أعدائِهِ ، فينبغي أنْ تغتنمَهُ .

وأمَّا قصدُ العدوِّ التعنُّتَ . . فجنايةٌ منهُ علىٰ دينِ نفسِهِ ، وهوَ نعمةٌ منهُ عليكَ ، فلِمَ تغضبُ عليهِ بفعلٍ انتفعتَ بهِ أنتَ وتضرَّرَ هوَ بهِ ؟!

* * *

الحالةُ الثالثةُ : أنْ يفتريَ عليكَ بما أنتَ بريءٌ منهُ عندَ اللهِ تعالىٰ : فينبغي ألا تكرهَ ذلكَ ، ولا تشتغلَ بذمِّهِ ، بلْ تتفكَّرَ في ثلاثةِ أمورٍ :

أحدُها : أنَّكَ إنْ خلوتَ مِنْ ذلكَ العيبِ . . فلا تخلو مِنْ أمثالِهِ وأشباهِهِ ، وما سترَ اللهُ مِنْ عيوبِكَ أكثرُ ، فاشكرِ اللهَ تعالىٰ إذْ لمْ يطلعْهُ علىٰ عيوبِكَ ، ودفعَهُ عنكَ بذكرِ ما أنتَ بريءٌ منهُ .

والثاني : أنَّ ذلكَ كفاراتٌ لبقيةِ مساوئِكَ وذنوبِكَ ، فكأنَّهُ رماكَ بعيبٍ أنتَ بريءٌ منهُ ، وطهَّرَكَ عنْ ذنوبٍ أنتَ ملوثٌ بها ، وكلُّ مَنِ اغتابَكَ فقدْ أهدىٰ إليكَ حسناتِهِ ، وكلُّ مَنْ مدحَكَ فقدْ قطعَ ظهرَكَ ، فما بالُكَ تفرحُ

بقطعِ الظهرِ ، وتحزنُ بهدايا الحسناتِ التي تقرِّبُكَ إلى اللهِ تعالىٰ ، وأنتَ تزعمُ أنَّكَ تحبُّ القربَ مِنَ اللهِ ؟

وأمَّا الثالثُ: فهوَ أنَّ المسكينَ قدْ جنىٰ علىٰ دينِهِ حتَّىٰ سقطَ مِنْ عينِ اللهِ تعالىٰ، وأهلَكَ نفسَهُ بافترائِهِ ، وتعرَّضَ لعقابِهِ الأليمِ ، فلا ينبغي أنْ تغضبَ عليهِ معَ غضبِ اللهِ عليهِ ، فتشمتَ الشيطانَ بهِ ، وتقولَ : اللهمَّ ؛ أهلكْهُ ، بلْ ينبغي أنْ تقولَ : اللهمَّ ؛ أصلحْهُ ، اللهمَّ ؛ تبْ عليهِ ، اللهمَّ ؛ ارحمْهُ ، كما قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: « اللهمَّ؛ اغفرْ لقومي ، اللهمَّ ؛ اهدِ قومي ، فإنَّهُمْ لا يعلمونَ »(١) لمّا أنْ كسروا ثنيّتَهُ ، وشجُّوا وجهَهُ ، وقتلُوا عمَّهُ حمزةَ يومَ أحدٍ .

ودعا إبراهيمُ بنُ أدهمَ لمَنْ شجَّ رأسَهُ بالمغفرةِ ، فقيلَ لهُ في ذلكَ ، فقالَ : أعلمُ أنِّي مأجورٌ بسببِهِ ، وما نالَني منهُ إلا خيرٌ ، فلا أرضىٰ أن يكونَ هو معاقباً بسببي(٢) .

* * *

وممَّا يهوِّنُ عليكَ كراهةَ المذمَّةِ : قطعُ الطمعِ ؛ فإنَّ مَنِ استغنيتَ عنهُ مهما ذمَّكَ . . لمْ يعظُمْ أثرُ ذلكَ في قلبِكَ ، وأصلُ الدينِ القناعةُ ، وبها

(١) رواه البخاري (٣٤٧٧) ، ومسلم (١٧٩٢) .
(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٣٣٥) ، والقشيري في « رسالته » (ص٤١٤).

ينقطعُ الطمعُ عنِ الجاهِ والمالِ ، وما دامَ الطمعُ قائماً كانَ حبُّ الجاهِ والمدحِ في قلبِ مَنْ طمعتَ فيهِ غالباً ، وكانَتْ همتُكَ إلىٰ تحصيلِ المنزلةِ في قلبِهِ مصروفةً ، ولا يُنالُ ذلكَ إلا بهدمِ الدينِ ، فلا ينبغي أنْ يطمعَ طالبُ المالِ والجاهِ ومحبُّ المدحِ ومبغضُ الذمِّ في سلامةِ دينِهِ ، فإنَّ ذلكَ بعيدٌ جداً .

❋ ❋ ❋

بيان اختلاف أحوال الناس في المدح والذم

اعلمْ : أنَّ للناسِ أربعةَ أحوالٍ بالإضافةِ إلى الذَّامِّ والمادحِ :

الحالةُ الأولىٰ : أنْ يفرحَ بالمدحِ ويشكرَ المادحَ ، ويغضبَ مِن الذَّمِّ ويحقدَ على الذَّامِّ ، ويكافئَهُ أوْ يحبَّ مكافأتَهُ ، وهـٰذا حالُ أكثرِ الخلقِ ، وهوَ غايةُ درجاتِ المعصيةِ في هـٰذا البابِ .

* * *

الحالةُ الثانيةُ : أنْ يمتعضَ في الباطنِ على الذَّامِّ ، ولكنْ يمسكُ لسانَهُ وجوارحَهُ عنْ مكافأتِهِ ، ويفرحَ باطنُهُ ويرتاحَ للمادحِ ، ولكنْ يحفظُ ظاهرَهُ عنْ إظهارِ السرورِ ، وهـٰذا مِنَ النقصانِ ، إلا أنَّهُ بالإضافةِ إلىٰ ما قبلَهُ كمالٌ .

* * *

الحالةُ الثالثةُ ـ وهيَ أوَّلُ درجاتِ الكمالِ ـ : أنْ يستويَ عندَهُ ذامُّهُ ومادحُهُ ، فلا تغمُّهُ المذمَّةُ ، ولا تسرُّهُ المِدْحَةُ ، وهـٰذا قدْ يظنُّهُ بعضُ العبَّادِ بنفسِهِ ، ويكونُ مغروراً إنْ لمْ يمتحنْ نفسَهُ بعلاماتِهِ ، **وعلاماتُهُ** : ألا يجدَ في نفسِهِ استثقالاً للذَّامِّ عندَ تطويلِهِ الجلوسَ عندَهُ أكثرَ ممَّا يجدُهُ في المادحِ ، وألا يجدَ في نفسِهِ زيادةَ هِزَّةٍ ونشاطٍ في قضاءِ حوائجِ المادحِ فوقَ ما يجدُهُ في قضاءِ حوائجِ الذَّامِّ ، وألا يكونَ انقطاعُ الذَّامِّ عنْ مجلسِهِ أهونَ عليهِ مِنَ

انقطاعِ المادحِ ، وألا يكونَ موتُ المادحِ المطري لهُ أشدَّ نكايةً في قلبِه مِنْ موتِ الذَّامِّ ، وألا يكونَ غمُّهُ بمصيبةِ المادحِ وما ينالُهُ مِنْ أعدائِهِ أكثرَ ممَّا يكونُ بمصيبةِ الذَّامِّ ، وألا تكونَ زلَّةُ المادحِ أخفَّ علىٰ قلبِهِ وفي عينِه مِنْ زلَّةِ الذَّامِّ ، فمهما خفَّ الذَّامُّ علىٰ قلبِهِ كما خفَّ المادحُ ، واستويا مِنْ كلِّ وجهٍ . . فقدْ نالَ هـٰذهِ الرتبةَ ، وما أبعدَ ذلكَ وما أشدَّهُ على القلوبِ !

وأكثرُ العبَّادِ فرحُهُمْ بمدحِ الناسِ لهُمْ مستبطنٌ في قلوبِهِمْ وهمْ لا يشعرونَ ؛ حيثُ لا يمتحنونَ أنفسَهُمْ بهـٰذهِ العلاماتِ ، وربَّما يشعرُ العابدُ بميلِ قلبِهِ إلى المادحِ دونَ الذَّامِّ ، والشيطانُ يحسِّنُ لهُ ذلكَ ويقولُ : الذَّامُّ قدْ عصى اللهَ بمذمَّتِكَ ، والمادحُ قدْ أطاعَ اللهَ بمدحِكَ ، فكيفَ تسوِّي بينَهُما ؟! وإنَّما استثقالُكَ للذَّامِّ مِنَ الدِّينِ المحضِ .

وهـٰذا محضُ التَّلبيسِ ؛ فإنَّ العابدَ لوْ تفكَّرَ . . علمَ أنَّ في الناسِ مَنِ ارتكبَ مِنْ كبائرِ المعاصي أكثرَ ممَّا ارتكبَهُ الذَّامُّ في مذمَّتِهِ ، ثمَّ إنَّهُ لا يستثقلُهُمْ ولا ينفرُ عنهُمْ ، ويعلمُ أنَّ المادحَ الذي مدحَهُ لا يخلو عنْ مذمَّةِ غيرِهِ ، ولا يجدُ في نفسِهِ نفرةً عنهُ لمذمَّةِ غيرِهِ ؛ كما يجدُ لمذمَّةِ نفسِهِ ، والمذمَّةُ مِنْ حيثُ إنَّها معصيةٌ لا تختلفُ بأنْ يكونَ هوَ المذمومَ أو غيرَهُ .

فإذاً ؛ العابدُ المغرورُ لنفسِهِ يغضبُ ، ولهواهُ يمتعضُ ، ثمَّ الشيطانُ يخيِّلُ إليهِ أنَّهُ مِنَ الدينِ حتَّىٰ يعتدَّ على اللهِ بهواهُ ، فيزيدُهُ ذلكَ بُعداً مِنَ اللهِ ،

ومَنْ لمْ يطَّلعْ علىٰ مكايدِ الشيطانِ وآفاتِ النفوسِ .. فأكثرُ عباداتِهِ تعبٌ ضائعٌ ، يفوِّتُ عليهِ الدنيا ، ويخسرُ في الآخرةِ ، وفيهمْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ .

* * *

الحالةُ الرابعةُ ـ وهيَ الصدقُ في العبادةِ ـ : أنْ يكرهَ المدحَ ويمقتَ المادحَ ؛ إذْ يعلمُ أنَّهُ فتنةٌ عليهِ قاصمةٌ للظهرِ ، مضرةٌ لهُ في الدِّينِ ، وأنْ يحبَّ الذَّامَّ ؛ إذْ يعلمُ أنَّهُ مهدٍ إليهِ عيوبَهُ ، ومرشدٌ لهُ إلىٰ مهمِّهِ ، ومهدٍ إليهِ حسناتِهِ ، وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « رأسُ التَّواضُعِ أنْ تكرهَ أنْ تُذكرَ بالبرِّ والتقوىٰ »[1] .

وقدْ رُويَ في بعضِ الأخبارِ ما هوَ قاصمٌ لظهورِ أمثالِنا إنْ صحَّ ؛ إذْ رُويَ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « ويلٌ للصائمِ ، وويلٌ للقائمِ ، وويلٌ لصاحبِ الصوفِ إلا »[2] ، فقيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ إلا مَنْ ؟ فقالَ : « إلا مَنْ

---

(1) رواه هناد في « الزهد » (٨٠٧) موقوفاً على ابن مسعود رضي الله عنه ، ولفظه : (إن من رأس التواضع أن تبدأ من لقيت بالسلام ، وأن ترضىٰ بالدون من شرف المجلس ، وتكره المدحة والسمعة والرياء بالبرّ) ، وأورده مرفوعاً من حديث علي رضي الله عنه المتقي الهندي في « كنز العمال » (٨٥٠٦) ونسب روايته للعسكري ، أما بلفظ المصنف .. فقال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) . « إتحاف » (٨/ ٢٥٩) .

(2) في (ج) : (إلا من) بدل (إلا) وحدها .

تنزَّهَتْ نفسُهُ عنِ الدنيا ، وأبغضَ المِدْحةَ ، واستحبَّ المذمَّةَ »[1] ، وهٰذا شديدٌ جداً .

وغايةُ أمثالِنا الطمعُ في الحالةِ الثانيةِ ، وهوَ أنْ يضمِرَ الفرحَ والكراهةَ للذَّامِّ والمادحِ ولا يظهرَ ذلكَ بالقولِ والعملِ ، وأمَّا الحالةُ الثالثةُ ، وهيَ التسويةُ بينَ المادحِ والذامِّ . . فلسنا نطمعُ فيها ، ثمَّ إنْ طالبنا أنفسَنا بعلاماتِ الحالةِ الثانيةِ . . فإنَّها لا تفي بها ؛ فإنَّها لا بدَّ وأنْ تتسارعَ إلىٰ إكرامِ المادحِ وقضاءِ حاجاتِهِ ، وتتثاقلَ عنْ إكرامِ الذَّامِّ والثناءِ عليهِ وقضاءِ حوائجِهِ ، ولا نقدرُ علىٰ أنْ نسوِّيَ بينَهُما في الفعلِ الظاهرِ ، كما لا نقدرُ عليهِ في سريرةِ القلبِ ، ومَنْ قدرَ على التسويةِ بينَ الذَّامِّ والمادحِ في ظاهرِ الفعلِ . . فهوَ جديرٌ بأنْ يُتخذَ قدوةً في هٰذا الزمانِ إنْ وُجدَ ، فإنَّهُ الكبريتُ الأحمرُ يُتحدَّثُ بهِ ولا يُرىٰ ، فكيفَ بما بعدَهُ مِنَ المرتبتينِ ؟!

وكلُّ واحدةٍ مِنْ هٰذهِ الرُّتبِ أيضاً فيها درجاتٌ ، أمَّا الدرجاتُ في المدحِ . . فهيَ أنَّ مِنَ الناسِ مَنْ يتمنَّى المِدْحةَ والثناءَ وانتشارَ الصِّيتِ ، فيتوصلُ إلىٰ نيلِ ذلكَ بكلِّ ممكنٍ ، حتىٰ يرائي بالعباداتِ ، ولا يبالي بمقارفةِ المحظوراتِ ؛ لاستمالةِ قلوبِ الناسِ ، واستنطاقِ ألسنتِهِمْ بالمدحِ ، وهٰذا مِنَ الهالكينَ .

---

(١) قال الحافظ العراقي : (لم أجده هٰكذا ، وذكر صاحب « الفردوس » من حديث أنس : « ويل لمن لبس الصوف فخالف فعله قوله » ، ولم يخرجه ولده في مسنده) . « إتحاف » (٨/ ٢٥٩) .

ومنهُمْ مَنْ يريدُ ذلكَ ويطلبُهُ بالمباحاتِ ، ولا يطلبُهُ بالعباداتِ ، ولا يباشرُ المحظوراتِ ، وهـٰذا علىٰ شفا جُرفٍ هارٍ ، فإنَّ حدودَ الكلام الذي يستميلُ بهِ القلوبَ وحدودَ الأعمالِ لا يمكنُهُ أنْ يضبطَها ، فيوشكُ أنْ يقعَ فيما لا يحلُّ لنيلِ الحمدِ ، فهوَ قريبٌ مِنَ الهالكينَ جداً .

ومنهُمْ مَنْ لا يريدُ المِدْحةَ ولا يسعىٰ لطلبِها ، ولكنْ إذا مُدِحَ . . سبقَ السرورُ إلىٰ قلبهِ ، فإنْ لمْ يقابلْ ذلكَ بالمجاهدةِ ، ولمْ يتكلَّفِ الكراهةَ . . فهوَ قريبٌ مِنْ أنْ يستجرَّهُ فرطُ السرورِ إلى الرتبةِ التي قبلَها ، وإنْ جاهدَ نفسَهُ في ذلكَ ، وكلَّفَ قلبَهُ الكراهةَ ، وبغَّضَ السرورَ إليهِ بالتفكُّرِ في آفاتِ المدحِ . . فهوَ في خطرِ المجاهدةِ ، فتارةً تكونُ اليدُ لهُ ، وتارةً تكونُ عليهِ .

ومنهُمْ مَنْ إذا سمعَ المدحَ . . لمْ يُسرَّ ولمْ يغتمَّ ، ولكنْ لمْ يؤثرْ فيهِ ، وهـٰذا علىٰ خيرٍ ، وإنْ كانَ قدْ بقيَ عليهِ بقيةٌ مِنَ الإخلاصِ[1] .

ومنهُمْ مَنْ يكرهُ المدحَ إذا سمعَهُ ، ولكنْ لا ينتهي بهِ إلىٰ أنْ يغضبَ على المادحِ وينكرَ عليهِ .

وأقصىٰ درجاتِهِ أنْ يكرَهَ ويغضبَ ، ويُظهِرَ الغضبَ وهوَ صادقٌ فيهِ ، لا أنْ يُظهِرَ الغضبَ وقلبُهُ محبٌّ للمدحِ ، فإنَّ ذلكَ عينُ النفاقِ ؛ لأنَّهُ يريدُ أنْ يظهِرَ مِنْ نفسِهِ الإخلاصَ والصدقَ ، وهوَ مفلسٌ منهُ .

وكذلكَ بالضِّدِّ مِنْ هـٰذا تتفاوتُ الأحوالُ في حقِّ الذَّامِّ ، وأولُ درجاتِهِ

---

(١) بسبب عدم اغتمامه . « إتحاف » (٨/ ٢٦٠) .

إظهارُ الغضبِ ، وآخرُها إظهارُ الفرحِ ، ولا يكونُ الفرحُ وإظهارُهُ إلا ممَّنْ في قلبِهِ حَنَقٌ وحقدٌ علىٰ نفسِهِ ؛ لتمرُّدِها عليهِ ولكثرةِ عيوبِها ومواعيدِها الكاذبةِ وتلبيساتِها الخبيثةِ ، فيبغضُها بغضَ العدوِّ ، والإنسانُ يفرحُ بمَنْ يذمُّ عدوَّهُ ، وهـٰذا شخصٌ عدوُّهُ نفسُهُ ، فيفرحُ إذا سمعَ ذمَّها ، ويشكرُ الذَّامَّ علىٰ ذلكَ ، ويعتقدُ فطنتَهُ وذكاءَهُ ؛ لما وقفَ عليهِ مِنْ عيوبِ نفسِهِ ، فيكونُ ذلكَ كالتَّشفِّي لهُ مِنْ نفسِهِ ، ويكونُ غنيمةً عندَهُ ؛ إذْ صارَ بالمذمَّةِ أوضعَ في أعينِ الناسِ ، حتَّىٰ لا يُبتلىٰ بفتنةِ الجاهِ ، وإذا سيقَتْ إليهِ حسناتٌ لمْ ينصبْ فيها ، فعساهُ يكونُ جبراً لعيوبِهِ التي هوَ عاجزٌ عنْ إماطتِها ، ولوْ جاهدَ المريدُ نفسَهُ طولَ عمرِهِ في هـٰذه الخصلةِ الواحدةِ ، وهيَ أنْ يستويَ عندَهُ ذامُّهُ ومادحُهُ . . لكانَ لهُ شغلٌ شاغلٌ فيهِ لا يتفرَّغُ معَهُ لغيرِهِ ، وبينَهُ وبينَ السعادةِ عقباتٌ كثيرةٌ ، هـٰذهِ إحداها ، ولا يقطعُ شيئاً منها إلا بالمجاهدةِ الشديدةِ في العمرِ الطويلِ .

* * *

الشَّطرُ الثَّاني مِنَ الكِتَاب
في طلب الجاه والمنزلة بالعبادات
وهو الرياء

وفيهِ بيانُ ذمِّ الرياءِ ، وبيانُ حقيقةِ الرياءِ وما يُراءىٰ بهِ ، وبيانُ درجاتِ الرياءِ ، وبيانُ الرياءِ الخفيِّ ، وبيانُ ما يحبطُ العملَ مِنَ الرياءِ وما لا يحبطُ ، وبيانُ دواءِ الرياءِ وعلاجِهِ ، وبيانُ الرخصةِ في إظهارِ الطاعاتِ ، وبيانُ الرخصةِ في كتمانِ الذنوبِ ، وبيانُ تركِ الطاعاتِ خوفاً مِنَ الرياءِ والآفاتِ ، وبيانُ ما يصحُّ مِنْ نشاطِ العبدِ للعبادةِ بسببِ رؤيةِ الخلقِ وما لا يصحُّ ، وبيانُ ما يجبُ على المريدِ أنْ يُلزِمَهُ قلبَهُ قبلَ الطاعةِ وبعدَها ، وهيَ أحدَ عشرَ فصلاً .

بيان ذم الرياء

اعلمْ : أنَّ الرياءَ حرامٌ ، والمرائيَ عندَ اللهِ ممقوتٌ ، وقدْ شهدَتْ لذلكَ الآياتُ والأخبارُ والآثارُ .

أمَّا الآياتُ :

فقولُهُ تعالىٰ : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴾ .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ ، قالَ مجاهدٌ : (همْ أهلُ الرياءِ)(١) .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾ ، فمدحَ المخلصينَ بنفيِ كلِّ إرادةٍ سوىٰ وجهِ اللهِ تعالىٰ ، والرياءُ هوَ ضدُّهُ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴾ ، نزلَتْ فيمَنْ يطلبُ الأجرَ والحمدَ بعباداتِهِ وأعمالِهِ(٢) .

❊ ❊ ❊

وأمَّا الأخبارُ :

فقدْ قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حينَ سألَهُ رجلٌ فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ فيمَ النجاةُ ؟ فقالَ : « ألا يعملَ العبدُ بطاعةِ اللهِ يريدُ بها الناسَ »(٣) .

وروىٰ أبو هريرةَ في حديثِ الثلاثةِ ، المقتولِ في سبيلِ اللهِ ، والمتصدِّقِ

---

(١) كذا في « الرعاية » (ص١٦١) ، ورواه ابن المبارك في « الزهد » (٦١) من زيادات نعيم بن حماد ، ورواه الطبري في « تفسيره » (١٢/ ٢٢/ ١٤٧) عن شهر بن حوشب .

(٢) كما روىٰ ذلك الحاكم في « المستدرك » (٢/ ١١١) .

(٣) كذا في « الرعاية » (ص١٦١) ، وعند السيوطي في « الدر المنثور » (١/ ٧٤) : (أخرج أحمد بن منيع في « مسنده » بسند ضعيف عن رجل من الصحابة : أن قائلاً من المسلمين قال : يا رسول الله ؛ ما النجاة غداً ؟ قال : « لا تخادع الله » ، قال : وكيف نخادع الله ؟ قال : « أن تعمل بما أمرك به تريد به غيره ، فاتقوا الله فإنه الشرك بالله . . . ») ، وسيأتي بتمامه .

بمالِهِ ، والقارىءِ لكتابِ اللهِ ؛ كما أوردناهُ في كتابِ الإخلاصِ ، وأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يقولُ لكلِّ واحدٍ مِنهُمْ : « كذبتَ ، بلْ أردتَ أنْ يُقالَ : فلانٌ جوادٌ ، كذبتَ ، بلْ أردتَ أنْ يُقالَ : فلانٌ شجاعٌ ، كذبتَ ، بلْ أردتَ أنْ يُقالَ : فلانٌ قارىءٌ » ، فأخبرَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُمْ لمْ يُثابوا ، وأنَّ رياءَهُمْ هوَ الذي أحبطَ أعمالَهُمْ(١) .

وقالَ ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما : قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ راءىٰ . . راءى اللهُ بهِ ، ومَنْ سمَّعَ . . سمَّعَ اللهُ بهِ »(٢) .

وفي حديثٍ آخرَ طويلٍ : « أنَّ اللهَ تعالىٰ يقولُ لملائكتِهِ : إنَّ هـٰذا لمْ يردْني بعملِهِ ، فاجعلوهُ في سجِّينٍ »(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ أخوفَ ما أخافُ عليكُمُ الشركُ الأصغرُ » ، قالوا : وما الشركُ الأصغرُ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « الرياءُ ، يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ يومَ القيامةِ إذا جازى العبادَ بأعمالِهِمْ : اذهبوا إلى الذينَ

---

(١) رواه مسلم (١٩٠٥) ، وسيأتي بتمامه .

(٢) رواه البخاري (٦٤٩٩) ، ومسلم (٢٩٨٧) من حديث جندب بن عبد الله رضي الله عنه ، ورواه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما كما أورده المصنف ابن المبارك في « الزهد » (١٤١) بلفظ : « من سمع الناس . . سمع الله به سامع خلقه ، وحقره وصغره » ، قال : فذرفت عينا ابن عمر رضي الله عنهما ، وبلفظ المصنف عن عبد الله بن عمرو بن العاص هو عند المحاسبي في « الرعاية » (ص١٦١) .

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٤٥٢) ، وأبو الشيخ في « العظمة » (٥٢٠) من حديث ضمرة بن حبيب مرسلاً .

كنتُمْ تراؤُونَ في الدنيا فانظروا هلْ تجدونَ عندَهُمُ الجزاءَ ؟ »[١] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « استعيذوا باللهِ عزَّ وجلَّ مِنْ جُبِّ الحَزَنِ » ، قيلَ : وما هوَ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « وادٍ في جهنَّمَ أُعدَّ للقُرَّاءِ المرائينَ »[٢] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ : مَنْ عَمِلَ لي عملاً أشركَ فيهِ غيري . . فهوَ لهُ كلُّهُ ، وأنا منهُ بريءٌ ، وأنا أغنى الأغنياءِ عنِ الشركِ »[٣] .

وقالَ عيسى المسيحُ عليهِ السلامُ : (إذا كانَ يومُ صومِ أحدِكُمْ . . فليدهنْ رأسَهُ ولحيتَهُ ويمسحْ شفتيهِ ؛ لئلا يرى الناسُ أنَّهُ صائمٌ ، وإذا أعطى بيمينِهِ . . فليُخفِ عنْ شمالِهِ ، وإذا صلَّى . . فليرخِ سترَ بابِهِ ؛ فإنَّ اللهَ يقسمُ الثناءَ كما يقسمُ الرزقَ)[٤] .

وقالَ نبيُّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يقبلُ اللهُ عزَّ وجلَّ عملاً فيهِ مثقالُ ذرَّةٍ مِنْ رياءٍ »[٥] .

---

(١) رواه أحمد في « مسنده » (٥/٤٢٨) ، والطبراني في « الكبير » (٤/٢٥٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٤١٢) .

(٢) رواه الترمذي (٢٣٨٣) ، وابن ماجه (٢٥٦) .

(٣) رواه مسلم (٢٩٨٥) ، وابن ماجه (٤٢٠٢) بتقديم وتأخير .

(٤) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٥٠) .

(٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/٢٤٠) من كلام يوسف بن أسباط ، أما مرفوعاً . . فقد قال الحافظ العراقي : (لم أجده هكذا) . « إتحاف » (٨/٢٦٣) .

وقالَ عمرُ لمعاذِ بنِ جبلٍ حين رآهُ يبكي : ما يُبكيكَ ؟ قالَ حديثٌ سمعتُهُ مِنْ صاحبِ هـٰذا القبرِ ـ يعني : النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ـ يقولُ : « إنَّ أدنى الرياءِ شركٌ »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أخوفُ ما أخافُ عليكُمُ الرياءُ والشهوَةُ الخفيَّةُ »[2] ، وهيَ : أيضاً ترجعُ إلىٰ خفايا الرياءِ ودقائقِهِ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ في ظلِّ العرشِ يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّهُ رجلاً تصدَّقَ بيمينِهِ فكادَ أنْ يخفيَها عنْ شمالِهِ »[3] .

ولذلكَ وردَ أنَّ فضلَ عملِ السِّرِّ علىٰ عملِ الجهرِ سبعونَ ضعفاً[4] .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ المرائيَ يُنادىٰ يومَ القيامةِ : يا فاجرُ ، يا غادرُ ، يا مرائي ؛ ضلَّ عملُكَ ، وحبِطَ أجرُكَ ، اذهبْ فخُذْ أجركَ ممَّنْ كنتَ تعملُ لهُ »[5] .

---

(١) كذا رواه الطبراني في « الكبير » (٢٠/٣٦) ، وبنحوه رواه ابن ماجه (٣٩٨٩) .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١١١٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٧/ ١٢٢) ، والبيهقي في « الزهد الكبير » (٣١٦) ، وروى ابن ماجه (٤٢٠٥) من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه مرفوعاً : « إن أخوف ما أتخوف علىٰ أمتي الإشراك بالله ؛ أما إني لست أقول : يعبدون شمساً ولا قمراً ولا وثناً ، ولكن أعمالاً لغير الله وشهوة خفية » .

(٣) هو جزء من حديث رواه البخاري (٦٦٠) ، ومسلم (١٠٣١) بنحوه .

(٤) رواه البيهقي في « الشعب » (٥٥١) ، وبنحوه كذلك عن أبي الدرداء (٦٣٩٤) .

(٥) رواه أبو الليث السمرقندي في « تنبيه الغافلين » (ص٣٣) ، وليس فيه لفظ : (يا مرائي) .

وقالَ شدادُ بنُ أوسٍ : رأيتُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يبكي ، فقلتُ : ما يُبكيكَ يا رسولَ اللهِ ؟ فقالَ : « إنِّي تخوَّفتُ علىٰ أمَّتي الشركَ ، أما إنَّهُمْ لا يعبدونَ صنماً ولا شمساً ولا قمراً ولا حجراً ، ولكنَّهُمْ يراؤونَ بأعمالِهِمْ »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لمَّا خلقَ اللهُ الأرضَ . . مادَتْ بأهلِها ، فخلَقَ الجبالَ فصيَّرها أوتاداً للأرضِ ، فقالَتِ الملائكةُ : ما خلقَ ربُّنا خلقاً هوَ أشدُّ مِنَ الجبالِ ، فخلقَ اللهُ الحديدَ فقطعَ الجبالَ ، ثمَّ خلقَ النارَ فأذابتِ الحديدَ ، ثمَّ أمرَ اللهُ تعالى الماءَ فأطفأَ النارَ ، وأمرَ الريحَ فكدَّرتِ الماءَ ، فاختلفَتِ الملائكةُ ، فقالَتْ : نسألُ اللهَ تعالىٰ ، فقالَتْ : يا ربُّ ؛ ما أشدُّ ما خلقتَ مِنْ خلقِكَ ؟ فقالَ اللهُ تعالىٰ : لمْ أخلقْ خلقاً هوَ أشدُّ مِنِ ابنِ آدمَ حينَ يتصدَّقُ بصدقةٍ بيمينِهِ فيخفيها عنْ شمالِهِ ، فهوَ أشدُّ خلقِ خلقتُهُ »[2] .

وروىٰ عبدُ اللهِ بنُ المباركِ بإسنادِهِ عنْ رجلٍ أنَّهُ قالَ لمعاذِ بنِ جبلٍ : حدِّثْني حديثاً سمعتَهُ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : قالَ : فبكىٰ معاذٌ حتَّىٰ ظننتُ أنَّهُ لا يسكتُ ، ثمَّ سكتَ ، ثمَّ قالَ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ لي : « يا معاذُ » ؛ قلتُ : لبَّيكَ بأبي أنتَ وأمِّي يا رسولَ اللهِ، قالَ: « إنِّي محدِّثُكَ حديثاً إنْ أنتَ حفظتَهُ . . نفعَكَ ، وإنْ أنتَ

---

(١) كذا في « الرعاية » (١٦٤) ، وقد تقدم قريباً .

(٢) رواه الترمذي (٣٣٦٩) بألفاظ مقاربة .

ضيَّعتَهُ ولمْ تحفظْهُ. . انقطعَتْ حجَّتُكَ عندَ اللهِ يومَ القيامةِ ، يا معاذُ ؛ إنَّ اللهَ تعالىٰ خلَقَ سبعةَ أملاكٍ قبلَ أنْ يخلقَ السماواتِ والأرضَ ، ثمَّ خلقَ السماواتِ ، فجعلَ لكلِّ سماءٍ مِنَ السَّبعةِ ملكاً بوَّاباً عليها قدْ جلَّلَها عظماً ، فتصعدُ الحفظةُ بعملِ العبدِ مِنْ حينَ أصبحَ إلىٰ أنْ يمسيَ ، لهُ نورٌ كنورِ الشمسِ ، حتَّىٰ إذا صعدَتْ بهِ إلى السماءِ الدنيا . . زكَّتْهُ فكثَّرتْهُ ، فيقولُ الملَكُ للحفظَةِ : اضربوا بهٰذا العملِ وجهَ صاحبِهِ ، أنا صاحبُ الغيبةِ ، أمرَني ربِّي ألا أدعَ عملَ مَنِ اغتابَ الناسَ يجاوزُني إلىٰ غيري .

قالَ : ثمَّ تأتي الحفظةُ بعملٍ صالحٍ مِنْ أعمالِ العبدِ فتمرُّ فتزكِّيهِ وتكثِّرُهُ ، حتَّىٰ تبلغَ بهِ إلى السماءِ الثانيةِ ، فيقولُ لهُمُ الملَكُ الموكَّلُ بالسماءِ الثانيةِ : قفوا واضربوا بهٰذا العملِ وجهَ صاحبِهِ ؛ إنَّهُ أرادَ بعملِهِ هٰذا عرضَ الدنيا ، أمرَني ربِّي ألا أدعَ عملَهُ يجاوزُني إلىٰ غيري ؛ إنَّه كانَ يفتخرُ على الناسِ في مجالسِهِمْ .

قالَ : وتصعدُ الحفظةُ بعملِ العبدِ يبتهجُ نوراً ؛ مِنْ صدقةٍ وصيامٍ وصلاةٍ قدْ أعجبَ الحفظةَ ، فيجاوزونَ بهِ إلى السماءِ الثالثةِ ، فيقولُ لهُمُ الملَكُ الموكَّلُ بها : قفوا واضربوا بهٰذا العملِ وجهَ صاحبِهِ ، أنا ملَكُ الكِبْرِ ، أمرَني ربِّي ألا أدعَ عملَهُ يجاوزُني إلىٰ غيري ؛ إنَّهُ كانَ يتكبَّرُ على الناسِ في مجالسِهِمْ .

قالَ : وتصعدُ الحفظةُ بعملِ العبدِ يزهرُ كما يزهرُ الكوكبُ الدرِّيُّ ، لهُ

دويٌّ مِنْ تسبيحٍ وصلاةٍ وحجٍّ وعمرةٍ حتَّىٰ يجاوزوا بهِ إلى السماءِ الرابعةِ ، فيقولُ لهُمُ الملَكُ الموكَّلُ بها : قفوا واضربوا بهٰذا العملِ وجهَ صاحبِهِ ، اضربوا بهِ ظهرَهُ وبطنَهُ ، أنا صاحبُ العُجْبِ ، أمرَني ربِّي ألا أدعَ عملَهُ يجاوزُني إلىٰ غيري ؛ إنَّهُ كانَ إذا عملَ عملاً . . أدخلَ العُجْبَ في عملِهِ .

قالَ : وتصعدُ الحفظةُ بعملِ العبدِ حتَّىٰ يجاوزوا بهِ إلى السماءِ الخامسةِ ؛ كأنَّهُ العروسُ المزفوفةُ إلىٰ أهلِها ، فيقولُ لهُمُ الملَكُ الموكَّلُ بها : قفوا واضربوا بهٰذا العملِ وجهَ صاحبِهِ ، واحملوهُ علىٰ عاتقِهِ ، أنا ملَكُ الحسدِ ؛ إنَّهُ كانَ يحسدُ الناسَ مَنْ يتعلَّمُ ويعملُ بمثلِ عملِهِ ، وكلَّ مَنْ كانَ يأخذُ فضلاً مِنَ العبادةِ يحسدُهُمْ ويقعُ فيهِمْ ، أمرَني ربِّي ألا أدعَ عملَهُ يجاوزُني إلىٰ غيري .

قالَ : وتصعدُ الحفظةُ بعملِ العبدِ ؛ مِنْ صلاةٍ وزكاةٍ وحجٍّ وعمرةٍ وصيامٍ ، فيجاوزونَ بها إلى السماءِ السادسةِ ، فيقولُ لهمُ الملَكُ الموكَّلُ بها : قفوا واضربوا بهٰذا العملِ وجهَ صاحبِهِ ؛ إنَّهُ كانَ لا يرحمُ إنساناً قطُّ مِنْ عبادِ اللهِ أصابَهُ بلاءٌ أوْ ضُرٌّ أضرَّ بهِ ، بلْ كانَ يشمتُ بهِ ، أنا ملَكُ الرحمةِ ، أمرَني ربِّي ألا أدعَ عملَهُ يجاوزُني إلىٰ غيري .

قالَ : وتصعدُ الحفظةُ بعملِ العبدِ إلى السماءِ السابعةِ ؛ مِنْ صومٍ وصلاةٍ ونفقةٍ وزكاةٍ واجتهادٍ وورعٍ ، لهُ دويٌّ كدويِّ الرعدِ ، وضوءٌ كضوءِ الشمسِ ، معَهُ ثلاثةُ آلافِ ملَكٍ ، فيجاوزونَ بهِ إلى السماءِ السابعةِ ، فيقولُ لهُمُ الملَكُ الموكَّلُ بها : قفوا واضربوا بهٰذا العملِ وجهَ صاحبِهِ ، واضربوا

بِهِ جوارِحَهُ ، اقفلوا علىٰ قلبِهِ ؛ إنِّي أحجُبُ عنْ ربِّي كلَّ عملٍ لمْ يُرَدْ بِهِ وجهُ ربِّي ؛ إنَّهُ أرادَ بعملِهِ غيرَ اللهِ تعالىٰ ، إنَّهُ أرادَ رفعةً عندَ الفقهاءِ ، وذكراً عندَ العلماءِ ، وصيتاً[1] في المدائنِ ، أمرَني ربِّي ألا أدعَ عملَهُ يجاوزُني إلىٰ غيري ، وكلُّ عملٍ لمْ يكنْ للهِ تعالىٰ خالصاً فهوَ رياءٌ ، ولا يقبلُ اللهُ تعالىٰ عملَ المرائي .

قالَ : وتصعدُ الحفظةُ بعملِ العبدِ ؛ مِنْ صلاةٍ وزكاةٍ وصيامٍ وحجٍّ ، وعمرةٍ وخُلُقٍ حسنٍ وصمتٍ وذكرٍ للهِ تعالىٰ ، وتشيِّعُهُ ملائكةُ السماواتِ حتَّىٰ يقطعوا بِهِ الحجُبَ كلَّها إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ، فيقفونَ بينَ يديهِ ويشهدونَ لهُ بالعملِ الصَّالحِ المخلصِ للهِ تعالىٰ ، قالَ : فيقولُ اللهُ لهُمْ : أنتُمُ الحفظةُ علىٰ عملِ عبدي وأنا الرقيبُ علىٰ نفسِهِ ؛ إنَّهُ لمْ يردْني بهٰذا العملِ ، وأرادَ بِهِ غيري ، فعليهِ لعنتي ، فتقولُ الملائكةُ كلُّها : عليهِ لعنتُكَ ولعنتُنا ، وتقولُ السماواتُ كلُّها : عليهِ لعنةُ اللهِ ولعنتُنا ، وتَلعنُهُ السماواتُ السبعُ ومَنْ فيهنَّ » ، قالَ معاذٌ : قلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ أنتَ رسولُ اللهِ وأنا معاذٌ ، قالَ : « اقتدِ بي وإنْ كانَ في عمرِكَ نقصٌ[2] ، يا معاذُ ؛ حافظْ علىٰ لسانِكَ مِنَ الوقيعةِ في إخوانِكَ مِنْ حملةِ القرآنِ ، واحملْ ذنوبَكَ عليكَ ، ولا تحملْها عليهِمْ ، ولا تزكِّ نفسَكَ بذمِّهِمْ ، ولا ترفعْ نفسَكَ عليهِمْ ، ولا تُدخِلْ عملَ الدنيا في عملِ الآخرةِ ، ولا تتكبَّرْ في مجلسِكَ لكي يحذرَ

---

(1) في (ب) : (وصوتاً) .

(2) في غير (ك) : (تقصير) بدل (نقص) ، وفي نسخة الحافظ الزبيدي (٨/ ٢٦٦) : (عملك) بدل (عمرك) .

الناسُ مِنْ سوءِ خُلُقِكَ ، ولا تناجِ رجلاً وعندكَ آخرُ ، ولا تتعظَّمْ على الناسِ فينقطعَ عنكَ خيرُ الدنيا ، ولا تمزِّقِ الناسَ فتمزِّقَكَ كلابُ النارِ يومَ القيامةِ في النارِ ، قالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ﴾ ، أتدري ما هيَ يا معاذُ ؟ » قلتُ : ما هيَ بأبي أنتَ وأمِّي يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « كلابٌ في النارِ تنشُطُ اللحمَ والعظمَ » ، قلتُ : بأبي أنتَ وأمي يا رسولَ اللهِ ، فمَنْ يطيقُ هـٰذهِ الخصالَ ؟ ومَنْ ينجو مِنْها ؟ قالَ : « يا معاذُ ؛ إنَّهُ ليسيرٌ علىٰ مَنْ يسَّرَهُ اللهُ عليهِ » ، قالَ : فما رأيتُ أكثرَ تلاوةً للقرآنِ مِنْ معاذٍ ؛ للحذرِ ممَّا في هـٰذا الحديثِ[1] .

❊ ❊ ❊

وأمَّا الآثارُ :

فيُروىٰ أنَّ عمرَ بنَ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ رأىٰ رجلاً يطأطئُ رقبتَهُ ، فقالَ : (يا صاحبَ الرقبةِ ؛ ارفعْ رقبتَكَ ، ليسَ الخشوعُ في الرِّقابِ ، وإنَّما الخشوعُ في القلوبِ)[2] .

ورأىٰ أبو أمامةَ الباهليُّ رجلاً في المسجدِ يبكي في سجودِهِ ، فقالَ : (أنتَ أنتَ ؛ لوْ كانَ هـٰذا في بيتِكَ)[3] .

---

(١) قال الحافظ العراقي : (هو كما قال المصنف ، رواه ابن المبارك بطوله في الزهد له ، وفي إسناده ـ كما ذكر ـ رجل ، ورواه ابن الجوزي في « الموضوعات » [٢/ ٣٣٩]) . « إتحاف » (٨/ ٢٦٦) وزاد : (وبخط الكمال الدميري : قال الشيخ تقي الدين القشيري : الرجل المذكور هو خالد بن معدان) .

(٢) أورده الإسماعيلي في « مناقبه » . « إتحاف » (٨/ ٢٦٧) .

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٥٦) .

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (للمُرائي أربعُ علاماتٍ : يكسلُ إذا كانَ وحدَهُ ، وينشطُ إذا كانَ في الناسِ ، ويزيدُ في العملِ إذا أُثنيَ عليهِ ، وينقصُ إذا ذُمَّ)(١) .

وقالَ رجلٌ لعبادةَ بنِ الصامتِ : أقاتلُ بسيفي في سبيلِ اللهِ أريدُ بهِ وجهَ اللهِ تعالىٰ ومحمدةَ الناسِ ؟ قالَ : لا شيءَ لكَ ، فسألهُ ثلاثَ مراتٍ ، كلَّ ذلكَ يقولُ : لا شيءَ لكَ ، ثمَّ قالَ في الثالثةِ : « إنَّ اللهَ تعالىٰ يقولُ : أنا أغنى الأغنياءِ عنِ الشركِ . . . » الحديثَ(٢) .

وسألَ رجلٌ سعيدَ بنَ المسيَّبِ فقالَ : أحدُنا يصطنعُ المعروفَ يحبُّ أنْ يُحمدَ ويُؤجرَ ، فقالَ لهُ : أتحبُّ أنْ تُمقتَ ؟ قالَ : لا ، قالَ : فإذا عملتَ للهِ عملاً . . فأخلصْهُ(٣) .

وقالَ الضحاكُ : (لا يقولَنَّ أحدُكُمْ : هـٰذا لوجهِ اللهِ ولوجهِكَ ، ولا يقلْ : هـٰذا للهِ وللرحمِ ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ لا شريكَ لهُ)(٤) .

---

(١) كذا أورده الليث السمرقندي في « تنبيه الغافلين » (ص٣٠) ، ورواه بنحوه عن أبي سليمان الداراني الثعلبيُّ في « تفسيره » (٧/٢) وفيه لفظ (ثلاث علامات) ولم يذكر الأخيرة .

(٢) كذا في « الرعاية » (ص١٦٦) ، وروى الحديث مرفوعاً مسلم (٢٩٨٥) ، وابن ماجه (٤٢٠٢) بنحوه .

(٣) كذا في « الرعاية » (ص ١٦٥) ، والسائل هو ابن أبي مغيث .

(٤) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٩٣٧) ، ورواه عنه الدارقطني في « سننه » (١/ ٥١) مرفوعاً .

وضربَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ رجلاً بالدِّرَّةِ ، ثمَّ قالَ لهُ : اقتصَّها منِّي ، فقالَ : لا ، بلْ أدَعُها للهِ ولكَ ، فقالَ لهُ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : ما صنعتَ شيئاً ، إمَّا أنْ تدَعَها لي فأعرفَ ذلكَ لكَ ، أوْ تدَعَها للهِ وحدَهُ ، فقالَ : ودعتُها للهِ وحدَهُ ، فقالَ : فنعمْ إذاً[١] .

وقالَ الحسنُ : (لقدْ صحبتُ أقواماً إنْ كانَ أحدُهُمْ لتعرضُ لهُ الحكمةُ ، لوْ نطقَ بها . . لنفعَتْهُ ونفعَتْ أصحابَهُ ، وما يمنعُهُ منها إلا مخافةُ الشهرةِ ، وإنْ كانَ أحدُهُمْ ليمرُّ فيرى الأذىٰ على الطريقِ ، فما يمنعُهُ أنْ ينحيَهِ إلا مخافةُ الشهرةِ)[٢] .

ويُقالُ : (إنَّ المرائيَ يُنادىٰ يومَ القيامةِ بأربعةِ أسماءٍ : يا مرائي ، يا غادرُ ، يا فاجرُ ، يا خاسرُ ؛ اذهبْ فخذْ أجركَ ممَّنْ عملتَ لهُ ، فلا أجرَ لكَ عندَنا)[٣] .

وقالَ الفضيلُ بنُ عياضٍ : (كانوا يراؤونَ بما يعملونَ ، وصاروا اليومَ يراؤونَ بما لا يعملونَ)[٤] .

---

(١) كذا في « الرعاية » (ص ١٦٦) ، وقد رواه ضمن خبر طويل ابنُ عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٤/ ٢٩١) .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٣٨) .

(٣) كذا في « الرعاية » (ص١٦٣) ، ورواه الليث السمرقندي في « تنبيه الغافلين » (ص٣٣) .

(٤) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » . « إتحاف » (٨/ ٢٦٨) .

وقالَ عكرمةُ : (إنَّ اللهَ يعطي العبدَ علىٰ نيَّتِهِ ما لا يعطيهِ علىٰ عملِهِ ؛ لأنَّ النيةَ لا رياءَ فيها)[1] .

وقالَ الحسنُ رضيَ اللهُ عنهُ : (المُرائي يريدُ أنْ يغلبَ قدرَ اللهِ تعالىٰ ، هوَ رجلُ سوءٍ يريدُ أنْ يقولَ الناسُ : هوَ رجلٌ صالحٌ ، وكيفَ يقولونَ وقدْ حلَّ مِنْ ربِّهِ محلَّ الأردياءِ ، فلا بدَّ لقلوبِ المؤمنينَ أنْ تعرفَهُ ؟!)[2] .

وقالَ قتادةُ : (إذا راءى العبدُ . . يقولُ اللهُ تعالىٰ : انظروا إلىٰ عبدي يستهزىءُ بي)[3] .

وقالَ مالكُ بنُ دينارٍ : (القراءُ ثلاثةٌ : قراءُ الرحمـٰنِ ، وقراءُ الدنيا ، وقراءُ الملوكِ ، وإنَّ محمدَ بنَ واسعٍ مِنْ قراءِ الرحمـٰنِ)[4] .

وقالَ الفضيلُ : (مَنْ أرادَ أنْ ينظرَ إلىٰ مُراءٍ . . فلينظرْ إليَّ) .

وقالَ محمدُ بنُ المباركِ الصوريُّ : (أظهرِ السمتَ بالليلِ ؛ فإنَّهُ أشرفُ مِنْ سمتِكَ بالنهارِ ؛ لأنَّ السمتَ بالنهارِ للمخلوقينَ ، وسمتُ الليلِ لربِّ العالمينَ) .

---

(١) هو عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٦٨٤٣) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .
(٢) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » . « إتحاف » (٨/٢٦٨) .
(٣) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٢٩٣) .
(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/٣٤٥) .

وقالَ أبو سليمانَ : (التوقِّي عنِ العملِ أشدُّ مِنَ العملِ)[1] .

وقالَ ابنُ المباركِ : إنْ كانَ الرجلُ ليطوفُ بالبيتِ وهوَ بخراسانَ ، قيلَ : وكيفَ ذاكَ ؟ قالَ : يحبُّ أنْ يُذكرَ أنَّهُ مجاورٌ بمكةَ .

وقالَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ : (ما صدقَ اللهَ مَنْ أرادَ أنْ يشتهرَ)[2] .

* * *

---

(١) روي مرفوعاً بنحوه ، فقد روى البيهقي في « الشعب » (٦٣٩٤) من حديث أبي الدرداء : « إن الاتقاء على العمل أشد من العمل . . . » .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٣١) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٥٧٦) .

بيان حقيقة الرياء وما يُراءى به

اعلمْ : أنَّ الرياءَ مشتقٌّ مِنَ الرؤيةِ ، والسمعةَ مشتقَّةٌ مِنَ السماعِ ، وإنَّما الرياءُ أصلُهُ طلبُ المنزلةِ في قلوبِ الناسِ بإيرائِهِمْ خصالَ الخيرِ ، إلا أنَّ الجاهَ والمنزلةَ تُطلبُ في القلبِ بأعمالِ سوى العباداتِ ، وتُطلبُ بالعباداتِ .

واسمُ الرياءِ مخصوصٌ بحكمِ العادةِ بطلبِ المنزلةِ في القلوبِ بالعباداتِ وإظهارِها .

فحدُّ الرياءِ : هوَ إرادةُ العبادِ بطاعةِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فالمُرائِي هوَ العابدُ ، والمُراءَىٰ لهُ هُمُ الناسُ المطلوبُ رؤيتُهُمْ بطلبِ المنزلةِ في قلوبِهِمْ ، والمُراءىٰ بهِ هيَ الخصالُ التي قصدَ المُرائي إظهارَها ، والرياءُ هوَ قصدُهُ إظهارَ ذلكَ .

والمُراءىٰ بهِ كثيرٌ ، تجمعُهُ خمسةُ أقسامٍ ، هيَ مجامعُ ما يتزيَّنُ العبدُ بهِ للناسِ ، وهوَ البدنُ ، والزيُّ ، والقولُ ، والعملُ ، والأتباعُ والأشياءُ الخارجةُ ، وكذلكَ أهلُ الدنيا يراؤونَ بهـٰذهِ الأسبابِ الخمسةِ ، إلا أنَّ طلبَ الجاهِ وقصدَ الرياءِ بأعمالٍ ليسَتْ مِنْ جملةِ الطاعاتِ أهونُ مِنَ الرياءِ بالطاعاتِ .

❀ ❀ ❀

الأولُ : الرياءُ في الدينِ مِنْ جهةِ البدنِ :

وذلكَ بإظهارِ النحولِ والاصفرارِ ؛ ليوهمَ بذلكَ شدَّةَ الاجتهادِ ، وعظمَ الحزنِ علىٰ أمرِ الدينِ ، وغلبةَ خوفِ الآخرةِ ، وليدلَّ بالنحولِ علىٰ قلَّةِ الأكلِ ، وبالاصفرارِ علىٰ سهرِ الليلِ ، وكثرةِ الاجتهادِ ، وعظمِ الحزنِ في الدينِ .

وكذلكَ يرائي بتشعيثِ الشعرِ ؛ ليدلَّ بهِ على استغراقِ الهمِّ بالدينِ ، وعدمِ التفرُّغِ لتسريحِ الشعرِ .

وهـٰذِه أسبابٌ مهما ظهرَتْ . . استدلَّ الناسُ بها علىٰ هـٰذهِ الأمورِ ، فارتاحَتِ النَّفسُ لمعرفتِهِمْ ؛ فلذلكَ تدعو النفسُ إلىٰ إظهارِها ؛ لنيلِ تلكَ الراحةِ .

ويقربُ مِنْ هـٰذا خفضُ الصوتِ ، وغورُ العينينِ ، وذبولُ الشفتينِ ؛ ليُستدلَّ بذلكَ علىٰ أنَّهُ مواظبٌ على الصومِ ، وأنَّ وقارَ الشرعِ هوَ الذي خفضَ مِنْ صوتِهِ ، أوْ ضعْفَ الجوعِ هوَ الذي أضعفَ قوَّتَهُ .

وعنْ هـٰذا قالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (إذا صامَ أحدُكُمْ . . فليدهنْ رأسَهُ ، ويرجِّلْ شعرَهُ ، ويكحلْ عينيهِ)[1] .

وكذلكَ رُويَ عنْ أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ[2] ، وذلكَ كلُّه لما يُخافُ

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٥٠) بنحوه .

(٢) كما أشار إلىٰ ذلك في « الرعاية » (ص١٧٩) .

عليهِ مِنْ نزغِ الشيطانِ بالرياءِ ، ولذلكَ قالَ ابنُ مسعودٍ : (أصبحوا صياماً مدَّهنينَ)(١) .

فهٰذهِ مراءاةُ أهلِ الدينِ بالبدنِ ، فأمَّا أهلُ الدنيا . . فيراؤونَ بإظهارِ السمنِ ، وصفاءِ اللونِ ، واعتدالِ القامةِ ، وحسنِ الوجهِ ، ونظافةِ البدنِ ، وقوةِ الأعضاءِ وتناسبِها(٢) .

❁ ❁ ❁

الثاني : الرياءُ بالزِّيِّ والهيئةِ :

أمَّا الهيئةُ . . فتشعيثُ شعرِ الرأسِ ، وحلقُ الشاربِ ، وإطراقُ الرأسِ في المشيِ ، والهدوءُ في الحركةِ ، وإبقاءُ أثرِ السجودِ على الوجهِ ، وغلظُ الثيابِ ، ولبسُ الصوفِ ، وتشميرُها إلىٰ قريبٍ مِنْ نصفِ السَّاقِ ، وتقصيرُ الأكمامِ ، وتركُ تنظيفِ الثوبِ ، وتركُهُ مخرقاً ، كلُّ ذلكَ يُرائي بهِ ؛ ليظهرَ مِنْ نفسِهِ أنَّهُ متَّبعٌ للسنَّةِ فيهِ ، ومقتدٍ فيهِ بعبادِ اللهِ الصالحينَ .

ومنهُ : لبسُ المرقَّعِ ، والصلاةُ على السجادةِ ، ولبسُ الثيابِ الزرْقِ تشبُّهاً بالصوفيَّةِ معَ الإفلاسِ مِنْ حقائقِ التصوُّفِ في الباطنِ .

ومنهُ : التقنُّعُ بالإزارِ فوقَ العمامةِ ، وإسبالُ الرداءِ على العينينِ ؛ ليُرىٰ

---

(١) كذا في « الرعاية » (ص ١٧٩) ، وبنحوه رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ١٣٦) .

(٢) الرعاية (ص١٨٠) .

بِهِ أَنَّهُ انتهىٰ تقشُّفُهُ إلى الحذرِ مِنْ غبارِ الطريقِ ، ولتنصرفَ إليهِ الأعينُ بسببِ تميُّزِهِ بتلكَ العلامةِ .

ومنهُ الدُّرَّاعةُ والطَّيلسانُ يلبسُهُ مَنْ هوَ خالٍ عنِ العلمِ ؛ ليوهِمَ أَنَّهُ مِنْ أهلِ العلمِ .

والمراؤونَ بالزِّيِّ علىٰ طبقاتٍ ؛ فمِنهُمْ مَنْ يطلبُ المنزلةَ عندَ أهلِ الصلاحِ بإظهارِ الزهدِ ، فيلبسُ الثيابَ المخرَّقةَ الوسخةَ القصيرةَ الغليظةَ ؛ ليرائيَ بغلظِها ووسخِها وقصرِها وتخرُّقِها أَنَّهُ غيرُ مكترثٍ بالدنيا ، ولوْ كُلِّفَ أنْ يلبسَ ثوباً وسطاً نظيفاً ممَّا كانَ السلفُ يلبسُهُ . . لكانَ ذلكَ عندَهُ بمنزلةِ الذبحِ ؛ وذلكَ لخوفِهِ أنْ يقولَ الناسُ : قدْ بدا لهُ مِنَ الزهدِ ، ورجعَ عنْ تلكَ الطريقةِ ، ورغبَ في الدنيا .

وطبقةٌ أخرىٰ يطلبونَ القبولَ عندَ أهلِ الصلاحِ ، وعندَ أهلِ الدنيا مِنَ الملوكِ والوزراءِ والتجارِ ، ولوْ لبسوا الثيابَ الفاخرةَ . . ردَّهُمُ القرَّاءُ ، ولوْ لبسوا الثيابَ المخرَّقةَ الخلَقةَ . . ازدرتْهُمْ أعينُ الملوكِ والأغنياءِ ، فهُمْ يريدونَ الجمعَ بينَ قبولِ أهلِ الدينِ والدنيا ، فلذلكَ يطلبونَ الأصوافَ الرقيقةَ ، والأكسيةَ الرفيعةَ ، والمرقعاتِ المصبوغةَ ، والفوطَ الرفيعةَ فيلبسونَها ، ولعلَّ قيمةَ ثوبِ أحدِهِمْ قيمةُ ثوبِ الأغنياءِ ، ولونُهُ وهيئتُهُ لونُ ثيابِ الصلحاءِ ، فيلتمسونَ القبولَ عندَ الفريقينِ ، وهؤلاءِ لوْ كُلِّفوا لبسَ ثوبٍ خشنٍ أوْ وسخٍ . . لكانَ عندَهُمْ كالذبحِ ؛ خوفاً مِنَ السقوطِ مِنْ أعينِ

الملوكِ والأغنياءِ ، ولوْ كُلِّفوا لبسَ الدَّيْبقيِّ والكتَّانِ الرقيقِ الأبيضِ[1] ، والقصبِ المعلَّمِ ، وإنْ كانَتْ قيمتُهُ دونَ قيمةِ ثيابِهِمْ . . لعَظُمَ ذلكَ عليهِمْ ؛ خوفاً مِنْ أنْ يقولَ أهلُ الصلاحِ : قدْ رغبوا في زيِّ أهلِ الدنيا ، وكلُّ طبقةٍ منهُمْ رأىٰ منزلتَهُ في زيٍّ مخصوصٍ ، فيثقلُ عليهِ الانتقالُ إلىٰ ما دونَهُ ، أوْ إلىٰ ما فوقَهُ وإنْ كانَ مباحاً ؛ خوفاً مِنَ المذمَّةِ .

وأمَّا أهلُ الدنيا . . فمراءاتُهُمْ بالثيابِ النفيسةِ ، والمراكبِ الرفيعةِ ، وأنواعِ التوسعِ والتجمُّلِ في الملبسِ والمسكنِ وأثاثِ البيتِ وفرهِ الخيولِ ، وبالثيابِ المصبغةِ والطيالسةِ النفيسةِ ، وذلكَ ظاهرٌ بينَ الناسِ ، فإنَّهُمْ يلبسونَ في بيوتِهِمُ الثيابَ الخشنةَ ، ويشتدُّ عليهِمْ لوْ برزوا للناسِ علىٰ تلكَ الهيئةِ ما لمْ يبالغوا في الزينةِ .

* * *

الثالثُ : الرياءُ بالقولِ :

ورياءُ أهلِ الدينِ بالوعظِ ، والتذكيرِ ، والنطقِ بالحكمةِ ، وحفظِ الأخبارِ والآثارِ لأجلِ الاستعمالِ في المحاورةِ ؛ إظهاراً لغزارةِ العلمِ ، ودلالةً علىٰ شدَّةِ العنايةِ بأحوالِ السلفِ الصالحينَ ، وتحريكِ الشفتينِ بالذكرِ في محضرِ الناسِ ، والأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عنِ المنكرِ بمشهدِ الخلقِ ، وإظهارِ

---

(١) **الديبقي** : منسوب إلىٰ ديبق ، وهي من قرىٰ دمياط ، قد خربت منذ زمان ، كان يعمل فيها هـٰذه الثياب المنسوجة بالحرير . « إتحاف » (٨/ ٢٧٠) .

الغضبِ للمنكراتِ ، وإظهارِ الأسفِ علىٰ مقارفةِ الناسِ للمعاصي ، وتضعيفِ الصوتِ في الكلامِ ، وترقيقِ الصوتِ بقراءةِ القرآنِ ؛ ليدلَّ بذلكَ على الحزنِ والخوفِ ، وادعاءِ حفظِ الحديثِ ، ولقاءِ الشيوخِ ، والردِّ علىٰ مَنْ يروي الحديثَ ببيانِ خللٍ في لفظِهِ ؛ ليُعرفَ أنَّهُ بصيرٌ بالأحاديثِ ، والمبادرةِ إلىٰ أنَّ الحديثَ صحيحٌ أوْ غيرُ صحيحٍ ؛ لإظهارِ الفضلِ فيهِ ، والمجادلةِ علىٰ قصدِ إفحامِ الخصمِ ؛ ليظهرَ للناسِ قوَّتَهُ في علمِ الدينِ .

والرِّياءُ بالقولِ كثيرٌ وأبوابُهُ لا تنحصرُ .

وأمَّا أهلُ الدنيا . . فمراءاتُهُمْ بالقولِ بحفظِ الأشعارِ والأمثالِ ، والتفاصحِ في العباراتِ ، وحفظِ النحوِ الغريبِ ؛ للإغرابِ علىٰ أهلِ الفضلِ ، وإظهارِ التودُّدِ إلى الناسِ لاستمالةِ القلوبِ .

❁ ❁ ❁

الرابعُ : الرياءُ بالعملِ :

كمراءاةِ المصلِّي بطولِ القيامِ ومدِّ الظهرِ ، وتطويلِ السجودِ والركوعِ ، وإطراقِ الرأسِ ، وتركِ الالتفاتِ ، وإظهارِ الهدوءِ والسكونِ ، وتسويةِ القدمينِ واليدينِ ، وكذلكَ بالصومِ ، والغزوِ ، والحجِّ ، وبالصدقةِ ، وبإطعامِ الطعامِ ، وبالإخباتِ في المشيِ عندَ اللقاءِ ؛ كإرخاءِ الجفونِ ، وتنكيسِ الرأسِ ، والوقارِ في الكلامِ ، حتَّىٰ إنَّ المرائيَ قدْ يسرعُ في المشيِ

إلىٰ حاجتِهِ ، فإذا اطلعَ عليهِ واحدٌ مِنْ أهلِ الدينِ . . رجعَ إلى الوقارِ وإطراقِ الرأسِ ؛ خوفاً مِنْ أن ينسبَهُ إلى العجلةِ وقلَّةِ الوقارِ ، فإنْ غابَ الرجلُ . . عادَ إلىٰ عجلتِهِ ، فإذا رآهُ . . عادَ إلىٰ خشوعِهِ ، ولمْ يحضرْهُ ذكرُ اللهِ حتَّىٰ يكونَ يجددُ الخشوعَ لهُ ، بلْ هوَ لاطلاعِ إنسانٍ عليهِ يخشَىٰ ألا يعتقدَ فيهِ أنَّهُ مِنَ العُبَّادِ والصلحاءِ .

ومنهُمْ مَنْ إذا سمعَ هٰذا . . استحيا مِنْ أنْ تخالفَ مِشْيتُهُ في الخلوةِ مِشْيتَهُ بمرأىً مِنَ الناسِ ، فيكلِّفُ نفسَهُ المِشْيةَ الحسنةَ في الخلوةِ ، حتَّىٰ إذا رآهُ الناسُ . . لمْ يفتقرْ إلى التغييرِ ، ويظنُّ أنَّهُ يتخلَّصُ بهِ عنِ الرياءِ ، وقدْ تضاعفَ بهِ رياؤُهُ ، فإنَّهُ صارَ في خلوتِهِ أيضاً مرائياً ، فإنَّهُ إنَّما يحسِّنُ مشيتَهُ في الخلوةِ ؛ ليكونَ كذلكَ في الملأِ ، لا لخوفٍ مِنَ اللهِ وحياءٍ مِنهُ .

وأمَّا أهلُ الدنيا . . فمراءاتُهُمْ بالتبخترِ والاختيالِ ، وتحريكِ اليدينِ وتقريبِ الخُطا ، والأخذِ بأطرافِ الذيلِ ، وإدارةِ العطفينِ ؛ ليدلُّوا بذلكَ على الجاهِ والحشمةِ .

❊ ❊ ❊

الخامسُ : المراءاةُ بالأصحابِ والزائرينَ والمخالطينَ :

كالذي يتكلَّفُ أنْ يستزيرَ عالماً مِنَ العلماءِ ؛ ليُقالَ : إنَّ فلاناً قدْ زارَ فلاناً ، أوْ عابداً مِنَ العبَّادِ ؛ ليُقالَ : إنَّ أهلَ الدينِ يتبرَّكونَ بزيارتِهِ ، ويتردَّدونَ إليهِ ، أوْ ملكاً مِنَ الملوكِ ، أوْ عاملاً مِنْ عمَّالِ السلطانِ ؛ ليُقالَ :

إنَّهُمْ يتبرَّكونَ بهِ ؛ لعظمِ رتبتِهِ في الدينِ ، وكالذي يكثرُ ذكرَ الشيوخِ ؛ ليُرىٰ أنَّهُ لقيَ شيوخاً كثيرةً واستفادَ منهُمْ ، فيباهي بشيوخِهِ ، ومباهاتُهُ ومراءاتُهُ تترشَّحُ منهُ عندَ مخاصمتِهِ ، فيقولُ لغيرِهِ : ومَنْ لقيتَ مِنَ الشيوخِ ؟ وأنا قدْ لقيتُ فلاناً وفلاناً ، ودرتُ البلادَ ، وخدمتُ الشيوخَ ، وما يجري مجراهُ .

فهٰذِهِ مجامعُ ما يرائي بهِ المراؤونَ ، وكلُّهُمْ يطلبونَ بهِ الجاهَ والمنزلةَ في قلوبِ العبادِ .

* * *

ومنهُمْ مَنْ يقنعُ بحسنِ الاعتقاداتِ فيهِ ، فكمْ مِنْ راهبٍ انزوىٰ إلىٰ ديرِهِ سنينَ كثيرةً ، وكمْ مِنْ عابدٍ اعتزلَ إلىٰ قُلَّةِ جبلٍ مدةً مديدةً ، وإنَّما حياتُهُ مِنْ حيثُ علمُهُ بقيامِ جاهِهِ في قلوبِ الخلقِ ، ولوْ عرفَ أنَّهُمْ نسبوهُ إلىٰ جريمةٍ في ديرِهِ أوْ صومعتِهِ . لتشوَّشَ قلبُهُ ، ولمْ يقنعْ بعلمِ اللهِ تعالىٰ ببراءةِ ساحتِهِ ، بلْ يشتدُّ لذلكَ غمُّهُ ، ويسعىٰ بكلِّ حيلةٍ في إزالةِ ذلكَ مِنْ قلوبِهِمْ ، معَ أنَّهُ قطعَ طمَعَهُ عنْ أموالِهِمْ ، ولكنَّهُ يحبُّ مجرَّدَ الجاهِ ، فإنَّهُ لذيذٌ كما ذكرناهُ في أسبابِهِ ، فإنَّهُ نوعُ قدرةٍ وكمالٍ في الحالِ ، وإن كانَ سريعَ الزوالِ ، لا يغترُّ بهِ إلا الجهَّالُ ، ولكنَّ أكثرَ الناسِ جهَّالٌ .

ومِنَ المرائينَ مَنْ لا يقنعُ بقيامِ منزلتِهِ ، بلْ يلتمسُ معَ ذلكَ إطلاقَ اللسانِ بالثناءِ والحمدِ .

ومنهُمْ مَنْ يريدُ انتشارَ الصِّيتِ في البلادِ ؛ لتكثرَ الرحلةُ إليهِ .

ومنهُمْ مَنْ يريدُ الاشتهارَ عندَ الملوكِ ؛ لتُقبلَ شفاعتُهُ ، وتنجزَ الحوائجُ علىٰ يديهِ فيقومَ لهُ بهِ جاهٌ عندَ العامَّةِ .

ومنهُمْ مَنْ يقصدُ التوصُّلَ بذلكَ إلىٰ جمعِ حطامٍ ، وكسبِ مالٍ ولوْ مِنَ الأوقافِ وأموالِ اليتامىٰ وغيرِ ذلكَ مِنَ الحرامِ ، وهؤلاءِ شرُّ طبقاتِ المرائينَ الذينَ يراؤونَ بالأسبابِ التي ذكرناها .

فهٰذهِ حقيقةُ الرِّياءِ وما بهِ يقعُ الرياءُ .

❋ ❋ ❋

فإنْ قلتَ : فالرياءُ حرامٌ ، أوْ مكروهٌ ، أوْ مباحٌ ، أوْ فيهِ تفصيلٌ ؟

فأقولُ : فيهِ تفصيلٌ ؛ فإنَّ الرياءَ هوَ طلبُ الجاهِ ، وهوَ إمَّا أنْ يكونَ بالعباداتِ أوْ بغيرِ العباداتِ ، فإنْ كانَ بغيرِ العباداتِ . . فهوَ كطلبِ المالِ ؛ فلا يحرمُ مِنْ حيثُ إنَّهُ طلبُ منزلةٍ في قلوبِ العبادِ ، ولكنْ كما يمكنُ كسبُ المالِ بتلبيساتٍ وأسبابٍ محظورةٍ . . فكذلكَ الجاهُ ، وكما أنَّ كسبَ قليلٍ مِنَ المالِ وهوَ ما يحتاجُ إليهِ الإنسانُ محمودٌ . . فكسبُ قليلٍ مِنَ الجاهِ وهوَ ما يسلمُ بهِ عنِ الآفاتِ أيضاً محمودٌ ، وهوَ الذي طلبَهُ يوسفُ عليهِ السلامُ حيثُ قالَ : ﴿ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ ، وكما أنَّ المالَ فيهِ سمٌّ ناقعٌ ودرياقٌ نافعٌ[1] . . فكذلكَ الجاهُ ، وكما أنَّ كثيرَ المالِ يُلهي ويُطغي ، ويُنسي

---

(١) الدرياق والترياق بمعنىً .

ذكرَ اللهِ تعالىٰ والدارَ الآخرةِ . . فكذلكَ كثرةُ الجاهِ ، بلْ إنَّ فتنةَ الجاهِ أعظمُ مِنْ فتنةِ المالِ ، وكما أنَّا لا نقولُ : تملُّكُ المالِ الكثيرِ حرامٌ ، فلا نقولُ أيضاً : تملُّكُ القلوبِ الكثيرةِ حرامٌ ، إلا إذا حملَتْهُ كثرةُ المالِ وكثرةُ الجاهِ علىٰ مباشرةِ ما لا يجوزُ .

نعم ، انصرافُ الهمِّ إلىٰ سعةِ الجاهِ مبدأُ الشرورِ ؛ كانصرافِ الهمِّ إلىٰ كثرةِ المالِ ، ولا يقدرُ محبُّ الجاهِ والمالِ علىٰ تركِ معاصي القلبِ واللسانِ وغيرِها .

وأمَّا سعةُ الجاهِ مِنْ غيرِ حرصٍ منكَ علىٰ طلبهِ ، ومِنْ غيرِ اغتمامٍ بزوالِهِ إن زالَ . . فلا ضررَ فيهِ ؛ فلا جاهَ أوسعُ مِنْ جاهِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وجاهِ الخلفاءِ الراشدينَ ، ومَنْ بعدَهُمْ مِنْ علماءِ الدينِ ، ولكنَّ انصرافَ الهمِّ إلىٰ طلبِ الجاهِ نقصانٌ في الدينِ ، ولا يُوصفُ بالتحريمِ .

فعلىٰ هٰذا نقولُ : تحسينُ الثوبِ الذي يلبسُهُ الإنسانُ عندَ الخروجِ إلى الناسِ مراءاةٌ ، وهوَ ليسَ بحرامٍ ؛ لأنَّهُ ليسَ رياءً بالعبادةِ ، بلْ بالدنيا ، وقسْ علىٰ هٰذا كلَّ تجمُّلٍ للناسِ وتزيُّنٍ لهُمْ .

والدليلُ عليهِ : ما رُوِيَ عنْ عائشةَ رضيَ اللهُ عنْها أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أرادَ أن يخرجَ يوماً على الصحابةِ ، فكانَ ينظرُ في حُبِّ الماءِ ، ويسوِّي عِمامتَهُ وشعرَهُ ، فقالَتْ : أوَتفعلُ ذلكَ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ :

« نعمْ ، إنَّ اللهَ تعالىٰ يحبُّ مِنَ العبدِ أنْ يتزيَّنَ لإخوانِهِ إذا خرجَ إليهِمْ »(١) .

نعمْ ، هٰذا كانَ مِنْ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عبادةً ؛ لأنَّهُ كانَ مأموراً بدعوةِ الخلقِ ، وترغيبِهِمْ في الاتباعِ ، واستمالةِ قلوبِهِمْ ، ولوْ سقطَ مِنْ أعينِهِمْ . . لمْ يرغبوا في اتباعِهِ ، فكانَ يجبُ عليهِ أنْ يُظهرَ لهُمْ محاسنَ أحوالِهِ ؛ لكيلا تزدريَهُ أعينُهُمْ ، فإنَّ أعينَ عوامِّ الخلقِ تمتدُّ إلى الظواهرِ دونَ السرائرِ ، فكانَ ذلكَ قصدَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

ولكنْ لوْ قصدَ قاصدٌ أنْ يحسِّنَ نفسَهُ في أعينِهِمْ ؛ حذراً مِنْ ذمِّهِمْ ولومِهِمْ ، واسترواحاً إلىٰ توقيرِهِمْ واحترامِهِمْ . . كانَ قدْ قصدَ أمراً مباحاً ؛ إذْ للإنسانِ أن يحذرَ من ألمِ المذمَّةِ ، ويطلبَ راحةَ الأُنسِ بالإخوانِ ، ومهما استثقلوهُ واستقذروهُ . . لمْ يأنسْ بهِمْ .

فإذاً ؛ المراءاةُ بما ليسَ مِنَ العباداتِ قدْ تكونُ مباحةً ، وقدْ تكونُ طاعةً ، وقدْ تكونُ مذمومةً ، وذلكَ بحسبِ الغرضِ المطلوبِ بها ، ولذلكَ نقولُ : الرجلُ إذا أنفقَ مالَهُ علىٰ جماعةٍ مِنَ الأغنياءِ ، لا في معرضِ العبادةِ والصدقةِ ، ولكنْ ليعتقدَ الناسُ أنَّهُ سخيٌّ . . فهٰذهِ مراءاةٌ وليسَتْ بحرامٍ ، وكذلكَ أمثالُهُ .

❊ ❊ ❊

---

(١) قال العراقي : (أخرجه ابن عدي في « الكامل ») . « إتحاف » (٣٩٦/٢) ، والحُبُّ : الخابية ، لفظة فارسية معربة .

أمَّا العباداتُ ؛ كالصدقةِ ، والصلاةِ ، والصيامِ ، والغزوِ ، والحجِّ . . فللمرائي فيهِ حالتانِ :

إحداهُما[1] : ألا يكونَ لهُ قصدٌ إلا الرياءُ المحضُ دونَ الأجرِ ، وهٰذا يبطلُ عبادتَهُ ؛ لأنَّ الأعمالَ بالنياتِ ، وهٰذا ليسَ يقصدُ العبادةَ ، ثمَّ لا يقتصرُ علىٰ إحباطِ عبادتِهِ حتَّىٰ نقولَ : صارَ كما كانَ قبلَ العبادةِ ، بلْ يعصي بذلكَ ويأثمُ ، كما دلَّتْ عليهِ الأخبارُ والآياتُ ، **والمعنيُّ فيهِ أمرانِ** :

أحدُهُما : يتعلَّقُ بالعبادِ ، وهوَ التلبيسُ والمكرُ ؛ لأنَّهُ خَيَّلَ إليهِمْ أنَّهُ مخلصٌ مطيعٌ للهِ ، وأنَّهُ مِنْ أهلِ الدينِ ، وليسَ كذلكَ ، والتلبيسُ أيضاً في أمرِ الدنيا حرامٌ ، حتَّىٰ لوْ قضىٰ دينَ جماعةٍ وخيَّلَ للناسِ أنَّهُ متبرِّعٌ عليهِمْ ؛ ليعتقدوا سخاوتَهُ . . أثمَ بهِ ؛ لما فيهِ مِنَ التلبيسِ وتملُّكِ القلوبِ بالخداعِ والمكرِ .

والثاني : يتعلقُ باللهِ عزَّ وجلَّ ، وهوَ أنَّهُ مهما قصدَ بعبادةِ اللهِ تعالىٰ خلقَ اللهِ . . فهوَ مستهزِئٌ باللهِ ، ولذلكَ قالَ قتادةُ : (إذا راءى العبدُ . . قالَ اللهُ تعالىٰ لملائكتِهِ : انظروا إلىٰ عبدي كيفَ يستهزِئُ بي)[2] ، ومثالُهُ : أنْ يمْثُلَ بينَ يدي ملكٍ مِنَ الملوكِ طولَ النهارِ ؛ كما جرَتْ عادةُ الخدمةِ ، وإنَّما وقوفُهُ لملاحظةِ جاريةٍ مِنْ جواري الملكِ ، أوْ غلامٍ مِنْ

---

(١) والحالة الثانية ستأتي آخر هٰذا البيان عند قوله : (فأما إذا قصد الأجر والحمد جميعاً . . .) .

(٢) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٢٩٣) .

غلمانِهِ ، فإنَّ هٰذا استهزاءٌ بالملكِ ؛ إذْ لمْ يقصدِ التقرُّبَ إلى الملكِ بخدمتِهِ ، بلْ قصدَ بهِ عبداً مِنْ عبيدِهِ ، فأيُّ استحقارٍ يزيدُ علىٰ أن يقصدَ العبدُ بطاعةِ اللهِ تعالىٰ مراءاةَ عبدٍ ضعيفٍ لا يملكُ لهُ ضرّاً ولا نفعاً ؟! وهلْ ذلكَ إلا لأنَّهُ ظنَّ أنَّ ذلكَ العبدَ أقدرُ علىٰ تحصيلِ أغراضِهِ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، وأنَّهُ أولىٰ بالتقرُّبِ إليهِ مِنَ اللهِ تعالىٰ ؛ إذْ آثرَهُ علىٰ ملكِ الملوكِ ، فجعلَهُ مقصودَ عبادتِهِ ؟! وأيُّ استهزاءٍ يزيدُ علىٰ رفعِ العبدِ فوقَ المولى ؟!

فهٰذا مِنْ كبائرِ المهلكاتِ ، ولهٰذا سماهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : الشركَ الأصغرَ[1] .

نعمْ ، بعضُ درجاتِ الرياءِ أشدُّ من بعضٍ كما سيأتي بيانُهُ في درجاتِ الرياءِ إن شاءَ اللهُ تعالىٰ ، ولا يخلو شيءٌ منهُ عنْ إثمٍ غليظٍ أوْ خفيفٍ ، بحسبِ ما بهِ المراءاةُ ، ولوْ لمْ يكنْ في الرياءِ إلا أنَّهُ يسجدُ ويركعُ لغيرِ اللهِ . . لكانَ فيهِ كفايةٌ ؛ فإنَّهُ وإنْ لمْ يقصدِ التقرُّبَ إلى اللهِ . . فقدْ قصدَ غيرَ اللهِ ، ولعمري ؛ لوْ عظَّمَ غيرَ اللهِ بالسجودِ . . لكفرَ كفراً جليّاً ، إلا أنَّ الرياءَ هوَ الكفرُ الخفيُّ ؛ لأنَّ المرائيَ عظَّمَ في قلبِهِ الناسَ ، فاقتضَتْ تلكَ العظمةُ أنْ يسجدَ ويركعَ لهُمْ ، فكانَ الناسُ همُ المعظمونَ بالسجودِ مِنْ وجهٍ ، ومهما زالَ قصدُ تعظيمِ اللهِ بالسجودِ وبقيَ تعظيمُ الخلقِ . . كانَ ذلكَ قريباً مِنَ

(١) رواه أحمد في « المسند » (٥/٤٢٨) ، والطبراني في « الكبير » (٤/٢٥٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٤١٢) .

الشركِ ، إلا أنَّهُ إنْ قصدَ تعظيمَ نفسِهِ في قلبِ مَنْ عظمَ عندَهُ بإظهارِهِ مِنْ نفسِهِ صورةَ التعظيمِ للهِ . . فمِنْ هـٰذا كانَ شركاً خفياً لا شركاً جلياً ، وذلكَ غايةُ الجهلِ ، ولا يقدِمُ عليهِ إلا مَنْ خدعَهُ الشيطانُ ، وأوهمَ عندَهُ أنَّ العبادَ يملكونَ مِنْ نفعِهِ وضرِّهِ ورزقِهِ وأجلِهِ ومصالحِ حالِهِ ومآلِهِ أكثرَ ممَّا يملكُهُ اللهُ تعالىٰ ، فلذلكَ عدلَ بوجهِهِ عنِ اللهِ تعالىٰ إليهِمْ ، وأقبلَ بقلبِهِ عليهِمْ ؛ ليستميلَ بذلكَ قلوبَهُمْ ، ولوْ وكَلَهُ اللهُ تعالىٰ إليهِمْ في الدنيا والآخرةِ . . لكانَ ذلكَ أقلَّ مكافأةٍ لهُ علىٰ صنيعِهِ ؛ فإنَّ العبادَ كلَّهُمْ عاجزونَ عنْ أنفسِهِمْ ، لا يملكونَ لأنفسِهِمْ ضرّاً ولا نفعاً ، فكيفَ يملكونَ لغيرِهِمْ ؟! هـٰذا في الدنيا ، فكيفَ في يومٍ لا يجزي والدٌ عنْ ولدِهِ ، ولا مولودٌ هوَ جازٍ عنْ والدِهِ شيئاً ، بلْ تقولُ الأنبياءُ فيهِ : نفسِي نفسِي ؟! فكيفَ يستبدلُ الجاهلُ عنْ ثوابِ الآخرةِ ونيلِ القربِ عندَ اللهِ تعالىٰ ما يرتقبُهُ بطمعِهِ الكاذبِ في الدنيا مِنَ الناسِ ؟! فلا ينبغي أنْ نشكَّ في أنَّ المرائيَ بطاعةِ اللهِ في سخطِ اللهِ مِنْ حيثُ النقلُ والقياسُ جميعاً ، هـٰذا إذا لمْ يقصدِ الأجرَ .

فأمَّا إذا قصدَ الأجرَ والحمدَ جميعاً في صدقتِهِ أوْ صلاتِهِ . . فهـٰذا الشركُ الذي يناقضُ الإخلاصَ ، وقدْ ذكرنا حكمَهُ في كتابِ الإخلاصِ ، ويدلُّ ما نقلناهُ في الآثارِ مِنْ قولِ سعيدِ بنِ المسيبِ وعبادةَ بنِ الصامتِ أنَّهُ لا أجرَ لهُ فيهِ أصلاً .

❋ ❋ ❋

بيان درجات الرياء

اعلمْ : أنَّ بعضَ أبوابِ الرياءِ أشدُّ وأغلظُ مِنْ بعضٍ ، واختلافُهُ باختلافِ أركانِهِ وتفاوتِ الدرجاتِ فيهِ .

وأركانُهُ ثلاثةٌ : المراءىٰ بهِ ، والمراءىٰ لأجلِهِ ، ونفسُ قصدِ الرياءِ .

❋ ❋ ❋

الركنُ الأوَّلُ : نفسُ قصدِ الرياءِ :

وذلكَ لا يخلو إمَّا أنْ يكونَ مجرَّداً دونَ إرادةِ عبادةِ اللهِ تعالىٰ والثوابِ ، وإمَّا أنْ يكونَ معَ إرادةِ الثوابِ ، فإنْ كانَ كذلكَ . . فلا يخلو إمَّا أنْ تكونَ إرادةُ الثوابِ أقوىٰ وأغلبَ ، أوْ أضعفَ ، أوْ مساويةً لإرادةِ العبادةِ ، فتكونُ الدرجاتُ أربعاً :

الدرجةُ الأولىٰ : ـ وهيَ أغلظُها ـ : ألا يكونَ مرادُهُ الثوابَ أصلاً ؛ كالذي يصلِّي بينَ أظْهُرِ الناسِ ، ولوِ انفردَ . . لكانَ لا يصلِّي ، بلْ ربَّما يصلِّي مِنْ غيرِ طهارةٍ معَ الناسِ ، فهـٰذا جرَّدَ قصدَهُ إلى الرياءِ ؛ فهوَ الممقوتُ عندَ اللهِ تعالىٰ ، وكذلكَ مَنْ يخرجُ الصدقةَ خوفاً مِنْ مذمَّةِ الناسِ وهوَ لا يقصدُ الثوابَ ، ولو خلا بنفسِهِ . . لما أدَّاها ، فهـٰذهِ الدرجةُ العُليا مِنَ الرياءِ .

الدرجةُ الثانيةُ : أن يكونَ لهُ قصدُ الثوابِ أيضاً ، ولكنْ قصداً ضعيفاً ؛ بحيثُ لوْ كانَ في الخلوةِ . . لكانَ لا يفعلُهُ ، ولا يحملُهُ ذلكَ القصدُ على

العملِ ، ولوْ لمْ يكنْ قصدَ الثوابَ . . لكانَ قصدُ الرِّياءِ يحملُهُ على العملِ ، فهـٰذا قريبٌ ممَّا قبلَهُ ، وما فيهِ مِنْ شائبةِ قصدِ ثوابٍ لا يستقلُّ بحملِهِ على العملِ . . لا ينفي عنهُ المقتَ والإثمَ .

الدرجةُ الثالثةُ : أنْ يكونَ قصدُ الثوابِ وقصدُ الرياءِ متساويينِ ، بحيثُ لوْ كانَ كلُّ واحدٍ منهُما خالياً عنِ الآخرِ . . لمْ يبعثْهُ على العملِ ، فلمَّا اجتمعا . . انبعثَتِ الرَّغبةُ ، أوْ كانَ كلُّ واحدٍ منهُما لوِ انفردَ . . لاستقلَّ بحملِهِ على العملِ ، فهـٰذا قدْ أفسدَ مثلَ ما أصلحَ ، فنرجو أنْ يسلمَ رأساً برأسٍ ، لا لهُ ولا عليهِ ، أوْ يكونَ لهُ مِنَ الثوابِ مثلُ ما عليهِ مِنَ العقابِ ، وظواهرُ الأخبارِ تدلُّ علىٰ أنَّهُ لا يسلمُ ، وقدْ تكلَّمنا عليهِ في كتابِ الإخلاصِ .

الدرجةُ الرابعةُ : أنْ يكونَ اطلاعُ الناسِ مرجِّحاً ومقوياً لنشاطِهِ ، ولوْ لمْ يكنْ . . لكانَ لا يتركُ العبادةَ ، ولوْ كانَ قصدَ الرياءَ وحدَهُ . . لما أقدمَ عليهِ ، فالذي نظنُّهُ ـ والعلمُ عندَ اللهِ ـ أنَّهُ لا يحبطُ أصلَ الثوابِ ، ولكنَّهُ ينقصُ منهُ ، أوْ يُعاقبُ علىٰ مقدارِ قصدِ الرياءِ ، ويُثابُ علىٰ مقدارِ قصدِ الثوابِ .

وأمَّا قولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : يقولُ اللهُ تعالىٰ : « أنا أغنى الأغنياءِ عنِ الشركِ »[1] . . فهوَ محمولٌ علىٰ ما إذا تساوى القصدانِ ، أوْ كانَ قصدُ الرياءِ أرجحَ .

❁ ❁ ❁

(١) رواه مسلم (٢٩٨٥) ، وابن ماجه (٤٢٠٢) بنحوه .

الركنُ الثاني : المراءىٰ بهِ :

وهوَ الطاعاتُ ، وذلكَ ينقسمُ إلى الرياءِ بأصولِ العباداتِ ، وإلى الرياءِ بأوصافِها :

القسمُ الأولُ ـ وهوَ الأغلظُ ـ : الرياءُ بالأصولِ ، وهوَ علىٰ ثلاثِ درجاتٍ :

الأولىٰ : الرياءُ بأصلِ الإيمانِ : وهٰذا أغلظُ أبوابِ الرياءِ ، وصاحبُهُ مخلَّدٌ في النارِ ، وهوَ الذي يظهرُ كلمتي الشهادةِ وباطنُهُ مشحونٌ بالتكذيبِ ، ولكنَّهُ يرائي بظاهرِ الإسلامِ ، وهوَ الذي ذكرَهُ اللهُ تعالىٰ في كتابِهِ في مواضعَ شتَّىٰ ؛ كقولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾ أيْ : في دلالتِهِمْ بقولِهِمْ علىٰ ضمائرِهِمْ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ۝ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا . . . ﴾ الآيةَ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ .

والآياتُ فيهِمْ كثيرةٌ ، وكانَ النفاقُ يكثرُ في ابتداءِ الإسلامِ ممَّنْ يدخلُ في ظاهرِ الإسلامِ ابتداءً لغرضٍ[1] ، وذلكَ ممَّا يقلُّ في زمانِنا ، ولكنْ يكثرُ نفاقُ

---

(1) كحماية النفس والمال والعرض وكالطمع في الدنيا وغير ذلك . « إتحاف » (٨/ ٢٧٦) .

مَنْ ينسلُّ عنِ الدينِ باطناً ، فيجحدُ الجنةَ والنارَ والدارَ الآخرةَ ؛ ميلاً إلىٰ قولِ الملحدةِ(١) ، أوْ يعتقدُ طيَّ بساطِ الشرعِ والأحكامِ ، ميلاً إلىٰ أهلِ الإباحةِ(٢) ، أوْ يعتقدُ كفراً أوْ بدعةً وهوَ يظهرُ خلافَهُ ، فهؤلاءِ مِنَ المنافقينَ المرائينَ المخلَّدينَ في النارِ ، وليسَ وراءَ هـٰذا الرياءِ رياءٌ ، وحالُ هؤلاءِ أشدُّ من حالِ الكفارِ المجاهرينَ ؛ لأنَّهُمْ جمعوا بينَ كفرِ الباطنِ ونفاقِ الظاهرِ .

الدرجةُ الثانيةُ : الرياءُ بأصولِ العباداتِ معَ التصديقِ بأصلِ الدينِ : وهـٰذا أيضاً عظيمٌ عندَ اللهِ تعالىٰ ، ولكنَّهُ دونَ الأولِ بكثيرٍ ، **ومثالُهُ** : أنْ يكونَ مالُ الرجلِ في يدِ غيرِهِ ، فيأمرُهُ بإخراجِ الزكاةِ ؛ خوفاً مِنْ ذمِّهِ ، واللهُ يعلمُ مِنهُ أنَّهُ لوْ كانَ في يدِهِ . . لما أخرجَها ، أوْ يدخلُ وقتُ الصلاةِ وهوَ في جمعٍ ، فيصلي معَهُمْ ، وعادتُهُ تركُ الصلاةِ في الخلوةِ ، وكذلكَ يصومُ رمضانَ وهوَ يشتهي خلوةً مِنَ الخلقِ ليفطرَ ، وكذلكَ يحضرُ الجمعةَ ولولا خوفُ المذمَّةِ . . لكانَ لا يحضرُها ، أو يصلُ رحمَهُ ويبرُّ والديهِ لا عنْ رغبةٍ ، ولكنْ خوفاً مِنَ الناسِ ، أوْ يغزو أوْ يحجُّ كذلكَ .

فهـٰذا مراءٍ معَهُ أصلُ الإيمانِ باللهِ تعالىٰ ، يعتقدُ أنَّهُ لا معبودَ سواهُ ، ولو

---

(١) وهم في زمن المصنف عرفوا بالباطنية ، يدعون أن للقرآن ظاهراً وباطناً ، وأنه مخالف الظاهر ، وأنهم يعلمون الباطن ، فأحالوا بذلك الشريعة ؛ لأنهم تأوَّلوا بما يخالف العربية التي نزل بها القرآن . « إتحاف » (٨/ ٢٧٦) .

(٢) القائلين بسقوط التكليف عن العبد إذا بلغ مقام اليقين . « إتحاف » (٨/ ٢٧٦) .

كُلِّفَ أنْ يعبدَ غيرَ اللهِ أوْ يسجدَ لغيرِ اللهِ . . لمْ يفعلْ ، ولكنَّهُ يتركُ العباداتِ للكسلِ ، وينشطُ عندَ اطلاعِ الناسِ ، فتكونُ منزلتُهُ عندَ الخلقِ أحبَّ إليهِ مِنْ منزلتِهِ عندَ الخالقِ ، وخوفُهُ مِنْ مذمَّةِ الناسِ أعظمَ مِنْ خوفِهِ مِنْ عقابِ اللهِ ، ورغبتُهُ في محمدتِهِمْ أشدَّ مِنْ رغبتِهِ في ثوابِ اللهِ تعالىٰ ، وهـٰذا غايةُ الجهلِ ، وما أجدرَ صاحبَهُ بالمقتِ وإنْ كانَ غيرَ منسلٍّ عنْ أصلِ الإيمانِ مِنْ حيثُ الاعتقادُ !

الدرجةُ الثالثةُ : ألا يرائيَ بالإيمانِ ولا بالفرائضِ ، ولكنَّهُ يرائي بالنوافلِ والسننِ التي لوْ تركَها لا يعصي ، ولكنَّهُ يكسلُ عنها في الخلوةِ ؛ لفتورِ رغبتِهِ في ثوابِها ، ولإيثارِ لذَّةِ الكسلِ علىٰ ما يرجِّي مِنَ الثوابِ ، ثمَّ يبعثُهُ الرياءُ علىٰ فعلِها ، وذلكَ كحضورِ الجماعةِ في الصلاةِ ، وعيادةِ المرضىٰ ، واتباعِ الجنائزِ ، وغسلِ الموتىٰ ، وكالتهجدِ بالليلِ ، وصيامِ يومِ عرفةَ وعاشوراءَ ، ويومِ الاثنينِ والخميسِ ، فقدْ يفعلُ المرائي جملةَ ذلكَ ؛ خوفاً مِنَ المذمَّةِ أوْ طلباً للمحمدةِ ، ويعلمُ اللهُ تعالىٰ منهُ أنَّهُ لوْ خلا بنفسِهِ . . لما زادَ علىٰ أداءِ الفرائضِ .

فهـٰذا أيضاً عظيمٌ ، ولكنَّهُ دونَ ما قبلَهُ ، فإنَّ الذي قبلَهُ آثرَ حمدَ الخلقِ علىٰ حمدِ الخالقِ ، وهـٰذا أيضاً قدْ فعلَ ذلكَ ، واتَّقىٰ ذمَّ الخلقِ دونَ ذمِّ الخالقِ ، فكانَ ذمُّ الخلقِ أعظمَ عندَهُ مِنْ عقابِ اللهِ ، وأمَّا هـٰذا . . فلمْ يفعلْ ذلكَ ؛ لأنَّهُ لمْ يخفْ عقاباً علىٰ تركِ النافلةِ لوْ تركَها ، وكأنَّهُ على الشطرِ من الأوَّلِ ، وعقابُهُ نصفُ عقابِهِ .

فهـٰذا هوَ الرياءُ بأصولِ العباداتِ .

القسمُ الثاني : الرياءُ بأوصافِ العباداتِ لا بأصولِها ، وهوَ أيضاً علىٰ ثلاثِ درجاتٍ :

الدرجةُ الأولىٰ : أنْ يرائيَ بفعلٍ ما في تركِهِ نقصانُ العبادةِ ؛ كالذي عزمُهُ أنْ يخفِّفَ الركوعَ والسجودَ ، ولا يطوِّلَ القراءةَ ، فإذا رآهُ الناسُ . . أحسنَ الركوعَ والسجودَ ، وتركَ الالتفاتَ ، وتمَّمَ القعودَ بينَ السجدتينِ ، وقدْ قالَ ابنُ مسعودٍ : (مَنْ فعلَ ذلكَ . . فهوَ استهانةٌ يستهينُ بها ربَّهُ عزَّ وجلَّ)[1] أيْ : أنَّهُ ليسَ يبالي باطلاعِ اللهِ عليهِ في الخلوةِ ، فإذا اطلعَ آدميٌّ عليهِ . . أحسنَ الصلاةَ ، ومَنْ جلسَ بينَ يدي إنسانٍ متربِّعاً أوْ متَّكئاً ، فدخلَ غلامُهُ ، فاستوىٰ وأحسنَ الجِلسةَ . . كانَ ذلكَ منهُ تقديماً للغلامِ على السيدِ ، واستهانةً بالسيدِ لا محالةَ ، وهـٰذا حالُ المرائي بتحسينِ الصلاةِ في الملأِ دونَ الخلوةِ .

وكذلكَ الذي يعتادُ إخراجَ الزكاةِ مِنَ الدنانيرِ الرديئةِ ، أوْ مِنَ الحبِّ الرديءِ ، فإذا اطَّلعَ عليهِ غيرُهُ . . أخرجَها مِنَ الجيِّدِ ؛ خوفاً مِنْ مذمَّتِهِ .

وكذلكَ الصائمُ يصونُ صومَهُ عنِ الغيبةِ والرفثِ ؛ لأجلِ الخلقِ ، لا إكمالاً لعبادةِ الصومِ ؛ خوفاً مِنَ المذمَّةِ ، فهـٰذا أيضاً مِنَ الرياءِ

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٨٤٩٠) ولفظه : (من صلىٰ صلاة والناس يرونه . . فليصلِّ إذا خلا مثلها ، وإلا . . فإنما هي استهانة يستهين بها ربه) .

المحظورِ ؛ لأنَّ فيهِ تقديماً للمخلوقِ على الخالقِ ، ولكنَّهُ دونَ الرياءِ بأصولِ التطوعاتِ .

فإنْ قالَ المرائي : إنَّما فعلْتُ ذلكَ صيانةً لألسنتِهِمْ عنِ الغيبةِ ؛ فإنَّهُمْ إذا رأَوا تخفيفَ الركوعِ والسجودِ وكثرةَ الالتفاتِ . . أطلقوا اللسانَ بالذمِّ والغيبةِ ، وإنَّما قصدتُ صيانتَهُمْ عنْ هـٰذهِ المعصيةِ . . **فيُقالُ لهُ** : هـٰذهِ مكيدةٌ مِنَ الشيطانِ وتلبيسٌ ، وليسَ الأمرُ كذلكَ ؛ فإنَّ ضررَكَ مِنْ نقصانِ صلاتِكَ ـ وهيَ خدمةٌ مِنكَ لمولاكَ ـ أعظمُ مِنْ ضررِكَ مِنْ غيبةِ غيرِكَ ، فلوْ كانَ باعثُكَ الدينَ . . لكانَتْ شفقتُكَ علىٰ نفسِكَ أكثرَ ، وما أنتَ في هـٰذا إلا كمَنْ يهدِي وصيفةً إلىٰ ملكٍ لينالَ مِنهُ فضلاً وولايةً يتقلَّدُها ، فيهديها إليهِ وهيَ عوراءُ قبيحةٌ مقطوعةُ الأطرافِ ، ولا يبالي بهِ إذا كانَ الملكُ وحدَهُ ، وإذا كانَ عندَهُ بعضُ غلمانِهِ . . امتنعَ ؛ خوفاً مِنْ مذمَّةِ غلمانِهِ ، وذلكَ محالٌ ، بلْ مَنْ يراعي جانبَ غلامِ الملكِ . . ينبغي أنْ تكونَ مراقبتُهُ للملكِ أكثرَ .

نعمْ ، للمرائي فيهِ حالتانِ :

إحداهُما : أنْ يطلبَ بذلكَ المنزلةَ والمحمدةَ عندَ الناسِ ، وذلكَ حرامٌ قطعاً .

والثانيةُ : أنْ يقولَ : ليسَ يحضرُني الإخلاصُ في تحسينِ الركوعِ والسجودِ ، ولوْ خففتُ . . كانَتْ صلاتي عندَ اللهِ ناقصةً ، وآذاني الناسُ بذمِّهِمْ وغيبتِهِمْ ، فأستفيدُ بتحسينِ الهيئةِ دفعَ مذمَّتِهِمْ ، ولا أرجو عليهِ

ثواباً ، فهوَ خيرٌ مِنْ أنْ أتركَ تحسينَ الصلاةِ ، فيفوتَ الثوابُ وتحصلَ المذمَّةُ ، فهٰذا فيهِ أدنىٰ نظرٍ ، **والصحيحُ** : أنَّ الواجبَ عليهِ أنْ يحسنَ ويخلصَ ، فإنْ لمْ تحضرْهُ النيةُ . . فينبغي أنْ يستمرَّ علىٰ عادتِهِ في الخلوةِ ، فليسَ لهُ أنْ يدفعَ الذمَّ بالمراءاةِ بطاعةِ اللهِ ؛ فإنَّ ذلكَ استهزاءٌ كما سبقَ .

الدرجةُ الثانيةُ : أنْ يرائيَ بفعلِ ما لا نقصانَ في تركِهِ ، ولكنْ فعلُهُ في حكمِ التكملةِ والتتمةِ لعبادتِهِ ؛ كالتطويلِ في الركوعِ والسجودِ ، ومدِّ القيامِ ، وتحسينِ الهيئةِ في رفعِ اليدينِ ، والمبادرةِ إلى التكبيرةِ الأولىٰ ، وتحسينِ الاعتدالِ ، والزيادةِ في القراءةِ على السورةِ المعتادةِ ، وكذلكَ كثرةُ الخلوةِ في صومِ رمضانَ ، وطولِ الصمتِ ، وكاختيارِ الأجودِ على الجيدِ في الزكاةِ ، وإعتاقِ الرقبةِ الغاليةِ في الكفارةِ ، وكلُّ ذلكَ ممَّا لوْ خلا بنفسِهِ . . لكانَ لا يقدِمُ عليهِ .

الدرجةُ الثالثةُ : أنْ يرائيَ بزياداتٍ خارجةٍ عنْ نفسِ النوافلِ أيضاً ؛ كحضورِ الجماعةِ قبلَ القومِ ، وقصدِهِ للصفِّ الأوَّلِ ، وتوجُّهِهِ إلىٰ يمينِ الإمامِ ، وما يجري مجراهُ ، وكلُّ ذلكَ ممَّا يعلمُ اللهُ مِنهُ أنَّهُ لوْ خلا بنفسِهِ . . لكانَ لا يبالي أينَ وقفَ ، ومتىٰ أحرمَ بالصلاةِ .

فهٰذهِ درجاتُ الرياءِ بالإضافةِ إلىٰ ما يُراءىٰ بهِ ، وبعضُهُ أشدُّ مِنْ بعضٍ ، والكلُّ مذمومٌ .

❋ ❋ ❋

الركنُ الثالثُ : المراءىٰ لأجلِهِ :

فإنَّ للمرائي مقصوداً لا محالةَ ، وإنَّما يرائي لإدراكِ مالٍ أوْ جاهٍ أوْ غرضٍ مِنَ الأغراضِ لا محالةَ ، ولهُ أيضاً ثلاثُ درجاتٍ :

الدرجةُ الأولىٰ ـ وهيَ أشدُّها وأعظمُها ـ : أنْ يكونَ مقصدُهُ التمكُّنَ مِنْ معصيةِ اللهِ ؛ كالذي يرائي بعباداتِهِ ، ويظهرُ التقوىٰ والورعَ بكثرةِ النوافلِ والامتناعِ عنْ أكلِ الشبهاتِ ، وغرضُهُ أنْ يُعرفَ بالأمانةِ ، فيُولَّى القضاءَ ، أوِ الأوقافَ ، أوِ الوصايا ، أوْ مالَ الأيتامِ ؛ فيأخذَها ، أوْ يُسلَّمَ إليهِ تفرقةُ الزكواتِ أوِ الصدقاتِ ؛ ليستأثرَ بما يقدرُ عليهِ منها ، أوْ يُودعَ الودائعَ فيأخذَها ويجحدَها ، أوْ تُسلَّمَ إليهِ الأموالُ التي تُنفقُ في طريقِ الحجِّ ، فيختزلَ بعضَها أوْ كلَّها ، أوْ يتوصَّلَ بها إلى استتباعِ الحجيجِ ، ويتوصَّلَ بقوَّتِهِمْ إلىٰ مقاصدِهِ الفاسدةِ في المعاصي .

وقدْ يظهرُ بعضُهُمْ زيَّ التصوفِ ، وهيئةَ الخشوعِ ، وكلامَ الحكمةِ علىٰ سبيلِ الوعظِ والتذكيرِ ، وإنَّما قصدُهُ التحبُّبُ إلى امرأةٍ أوْ غلامٍ لأجلِ الفجورِ ، وقدْ يحضرونَ مجالسَ العلمِ والتذكيرِ ، وحِلَقَ القرآنِ ، يظهرونَ الرغبةَ في سماعِ العلمِ والقرآنِ ، وغرضُهُمْ ملاحظةُ النسوانِ والصبيانِ ، أوْ يخرجُ إلى الحجِّ ومقصودُهُ الظفرُ بمَنْ في الرفقةِ مِنِ امرأةٍ أوْ غلامٍ ، وهؤلاءِ أبغضُ المرائينَ إلى اللهِ تعالىٰ ؛ لأنَّهُمْ جعلوا طاعةَ ربِّهِمْ سلَّماً إلىٰ معصيتِهِ ، واتخذوها آلةً ومتجراً وبضاعةً لهُمْ في فسقِهِمْ .

ويقربُ مِنْ هؤلاءِ وإنْ كانَ دونَهُمْ مَنْ هوَ مقترفٌ جريمةً اتُّهِمَ بها ، وهوَ مصرٌّ عليها ويريدُ أن ينفيَ التهمةَ عنْ نفسِهِ ، فيظهرُ التقوىٰ ؛ لينفيَ التهمةَ ؛ كالذي جحدَ وديعةً واتَّهمَهُ الناسُ بها ، فيتصدَّقُ بالمالِ ؛ ليُقالَ : إنَّهُ يتصدقُ بمالِ نفسِهِ ، فكيفَ يستحلُّ مالَ غيرِهِ ؟! وكذلكَ مَنْ يُنسبُ إلىٰ فجورٍ بامرأةٍ أوْ غلامٍ ، فيدفعُ التهمةَ عنْ نفسِهِ بالخشوعِ وإظهارِ التقوىٰ .

الدرجةُ الثانيةُ : أنْ يكونَ غرضُهُ نيلَ حظٍّ مباحٍ مِنْ حظوظِ الدنيا ؛ مِنْ مالٍ ، أوْ نكاحِ امرأةٍ جميلةٍ أوْ شريفةٍ ؛ كالذي يظهرُ الحزنَ والبكاءَ ، ويشتغلُ بالوعظِ والتذكيرِ ؛ لتُبذلَ لهُ الأموالُ ، وترغبَ في نكاحِهِ النساءُ ، فيقصدُ إمَّا امرأةً بعينِها لينكحَها ، أوِ امرأةً شريفةً على الجملةِ ، وكالذي يرغبُ في أنْ يتزوَّجَ بنتَ عالمٍ عابدٍ ، فيظهرُ لهُ العلمَ والعبادةَ ؛ ليرغبَ في تزويجِهِ ابنتَهُ ، فهـٰذا رياءٌ محظورٌ ؛ لأنَّهُ طلبَ بطاعةِ اللهِ متاعَ الحياةِ الدنيا ، ولكنَّهُ دونَ الأوَّلِ ، فإنَّ المطلوبَ بهـٰذا مباحٌ في نفسِهِ .

الدرجةُ الثالثةُ : ألا يقصدَ نيلَ حظٍّ وإدراكَ مالٍ أوْ نكاحٍ ، ولكنْ يظهرُ عبادتَهُ ؛ خيفةً مِنْ أنْ يُنظرَ إليهِ بعينِ النقصِ ، فلا يُعدَّ مِنَ الخاصَّةِ والزهَّادِ ، ويُعتقدَ أنَّهُ مِنْ جملةِ العامَّةِ ؛ كالذي يمشي مستعجلاً فيطلعُ عليهِ الناسُ ، فيحسنُ المشيَ ويتركُ العجلةَ ؛ كي لا يُقالَ : إنَّهُ مِنْ أهلِ اللَّهوِ والسَّهوِ ، لا مِنْ أهلِ الوقارِ ، وكذلكَ يسبقُ إلى الضحكِ ، أوْ يبدرُ منهُ المزاحُ ، فيخافُ أنْ يُنظرَ إليهِ بعينِ الاحتقارِ ، فيتبعُ ذلكَ بالاستغفارِ ، وتنفُّسِ الصعداءِ ، وإظهارِ

الحزنِ ، ويقولُ : ما أعظمَ غفلةَ الآدميِّ عنْ نفسِهِ ! واللهُ يعلمُ منهُ أنَّهُ لوْ كانَ في خلوةٍ . . لما كانَ يثقلُ عليهِ ذلكَ ، وإنَّما يخافُ أنْ يُنظرَ إليهِ بعينِ الاحتقارِ لا بعينِ التوقيرِ .

وكالذي يرىٰ جماعةً يصلونَ التراويحَ ، أو يتهجَّدونَ ، أوْ يصومونَ الاثنينَ والخميسَ ، أو يتصدَّقونَ ، فيوافقُهُمْ خيفةَ أنْ يُنسبَ إلى الكسلِ ويُلحقَ بالعوامِّ ، ولوْ خلا بنفسِهِ . . لكانَ لا يفعلُ شيئاً مِنْ ذلكَ ، وكالذي يعطشُ يومَ عرفةَ أوْ عاشوراءَ ، أوْ في الأشهرِ الحرمِ . . فلا يشربُ ؛ خوفاً مِنْ أنْ يعلمَ الناسُ أنَّهُ غيرُ صائمٍ ، فإذا ظنُّوا بهِ الصومَ . . امتنعَ عنِ الأكلِ لأجلِهِمْ ، أوْ يُدْعىٰ إلىٰ طعامٍ فيمتنعُ ؛ ليُظنَّ أنَّهُ صائمٌ ، وقدْ لا يصرِّحُ بأنَّهُ صائمٌ ، ولكنْ يقولُ : لي عذرٌ ، وهوَ جمعٌ بينَ خبيثينِ ؛ فإنَّه يُري أنَّهُ صائمٌ ، ثمَّ يُري أنَّهُ مخلصٌ ليسَ بمراءٍ ، وأنَّهُ يحترزُ مِنْ أنْ يذكرَ عبادتَهُ للناسِ فيكونَ مرائياً ، فيريدُ أنْ يُقالَ : إنَّهُ ساترٌ لعبادتِهِ ، ثمَّ إنِ اضطرَّ إلىٰ شربٍ . . لمْ يصبرْ عنْ أنْ يذكرَ لنفسِهِ فيهِ عذراً ، تصريحاً أوْ تعريضاً ؛ بأنْ يتعلَّلَ بمرضٍ يقتضي فرطَ العطشِ ، ويمنعُ مِنَ الصومِ ، أوْ يقولَ : أفطرتُ تطييباً لقلبِ فلانٍ ، ثمَّ قدْ لا يذكرُ ذلكَ متصلاً بشربِهِ ؛ كي لا يُظنَّ بهِ أنَّهُ يعتذرُ رياءً ، ولكنَّهُ يصبرُ ، ثمَّ يذكرُ عذرَهُ في معْرِضِ حكايةٍ عرضاً ، مثلَ أنْ يقولَ : إنَّ فلاناً محبٌّ للإخوانِ ، شديدُ الرغبةِ في أنْ يأكلَ الإنسانُ مِنْ طعامِهِ ، وقدْ ألحَّ عليَّ اليومَ ولمْ أجدْ بدّاً مِنْ تطييبِ قلبِهِ ، ومثلَ أنْ يقولَ : إنَّ أمِّي ضعيفةُ القلبِ ، مشفقةٌ عليَّ ، تظنُّ أنِّي لوْ صمتُ يوماً . . مرضتُ ، فلا تدعُني أصومُ .

فهٰذا وما يجري مجراهُ علاماتُ الرياءِ ، فلا يسبقُ إلى اللسانِ إلا لرسوخِ عرقِ الرياءِ في الباطنِ ، وأمَّا المخلصُ.. فإنَّهُ لا يبالي كيفَ نظرَ الخلقُ إليهِ ، فإنْ لمْ يكنْ لهُ رغبةٌ في الصومِ وقدْ علمَ اللهُ تعالىٰ ذلكَ منهُ.. فلا يريدُ أنْ يعتقدَ غيرُهُ ما يخالفُ علمَ اللهِ ، فيكونَ ملبِّساً ، وإنْ كانَ لهُ رغبةٌ في الصومِ للهِ.. قنعَ بعلمِ اللهِ تعالىٰ ، ولمْ يشرِكْ فيهِ غيرَهُ .

وقدْ يخطرُ لهُ أنَّ في إظهارِهِ اقتداءَ غيرِهِ بهِ ، وتحريكَ رغبةِ الناسِ فيهِ ، وفيهِ مكيدةٌ وغرورٌ ، وسيأتي شرحُ ذلكَ وشروطُهُ .

فهٰذهِ درجاتُ الرياءِ ، ومراتبُ أصنافِ المرائينَ ، وجميعُهُمْ تحتَ مقتِ اللهِ تعالىٰ وغضبِهِ ، وهوَ مِنْ أشدِّ المهلكاتِ ، وإنَّ مِنْ شدَّتِهِ أنَّ فيهِ شوائبَ هيَ أخفىٰ مِن دبيبِ النملةِ ؛ كما وردَ بهِ الخبرُ ، تزلُّ فيهِ فحولُ العلماءِ ، فضلاً عنِ العبَّادِ الجهلاءِ بآفاتِ النفوسِ وغوائلِ القلوبِ ، واللهُ أعلمُ .

❋ ❋ ❋

بيان الرياء الخفي الذي هو أخفى من دبيب النمل

اعلمْ : أنَّ الرياءَ جليٌّ وخفيٌّ .

فالجليُّ : هوَ الذي يبعثُ على العملِ ويحمِلُ عليهِ أولاً دونَ قصدِ الثوابِ ، وهوَ أجلاهُ .

❋ ❋ ❋

وأخفىٰ مِنهُ قليلاً : هوَ ما لا يحمِلُ على العملِ بمجردِهِ ، إلا أنَّهُ يخفِّفُ العملَ الذي أُريدَ بِهِ وجهُ اللهِ ؛ كالذي يعتادُ التهجدَ كلَّ ليلةٍ ويثقلُ عليهِ ، فإذا دخل عليهِ الضيفانُ . . نشطَ لهُ ، وخفَّ عليهِ ، وعلمَ أنَّهُ لولا رجاءُ الثوابِ . . لكانَ لا يصلِّي لمجرَّدِ رياءِ الضيفانِ .

❋ ❋ ❋

وأخفىٰ مِنْ ذلكَ : ما لا يؤثِّرُ في العملِ ، ولا بالتسهيلِ والتخفيفِ أيضاً ، ولكنَّهُ معَ ذلكَ مستبطنٌ في القلبِ ، ومهما لمْ يؤثِّرْ في الدعاءِ إلى العملِ . . لمْ يمكنْ أنْ يُعرفَ إلا بالعلاماتِ ، **وأجلىٰ علاماتِهِ** : أنْ يُسرَّ باطلاعِ الناسِ علىٰ طاعتِهِ ، فربَّ عبدٍ يخلصُ في عملِهِ ولا يعتقدُ الرياءَ ، بلْ يكرهُهُ ويردُّهُ ، ويتمِّمُ العملَ كذلكَ ، ولكنْ إذا اطَّلعَ عليهِ الناسُ . . سرَّهُ ذلكَ وارتاحَ لهُ ، وروَّحَ ذلكَ عنْ قلبِهِ شدةَ العبادةِ ، وهٰذا السرورُ يدلُّ علىٰ رياءٍ خفيٍّ ، مِنهُ يترشَّحُ السرورُ ، ولولا التفاتُ القلبِ إلى الناسِ . . لما ظهرَ سرورُهُ عندَ اطلاعِ

الناسِ ، فلقَدْ كانَ الرياءُ مستكناً في القلبِ استكنانَ النارِ في الحجرِ ، فأظهرَ منهُ اطلاعُ الخلقِ أثرَ الفرحِ والسرورِ ، ثمَّ إذا استشعرَ لذَّةَ السرورِ بالاطلاعِ ، ولمْ يقابلْ ذلكَ بكراهيةٍ . . صارَ ذلكَ قوتاً وغذاءً للعِرقِ الخفيِّ مِنَ الرياءِ ، حتَّىٰ يتحرَّكَ علىٰ نفسِهِ حركةً خفيَّةً ، فيتقاضىٰ تقاضياً خفياً أنْ يتكلَّفَ سبباً يُطَّلعُ عليهِ بالتعريضِ وإلقاءِ الكلامِ عرضاً ، وإنْ كانَ لا يدعو إلى التصريحِ ، وقدْ يخفىٰ فلا يدعو إلى الإظهارِ بالنطقِ تعريضاً وتصريحاً ولكنْ بالشمائلِ ؛ كإظهارِ النحولِ ، والاصفرارِ ، وخفضِ الصوتِ ، ويبسِ الشفتينِ ، وجفافِ الريقِ ، وآثارِ الدموعِ ، وغلبةِ النعاسِ الدالِّ علىٰ طولِ التهجُّدِ .

* * *

وأخفىٰ من ذلكَ : أنْ يختفيَ بحيثُ لا يريدُ الاطلاعَ ، ولا يُسرُّ بظهورِ طاعتِهِ ، ولكنَّهُ معَ ذلكَ إذا رأى الناسَ . . أحبَّ أنْ يبدؤوهُ بالسلامِ ، وأنْ يقابلوهُ بالبشاشةِ والتوقيرِ ، وأنْ يثنوا عليهِ ، وأنْ ينشطوا في قضاءِ حوائجِهِ ، وأنْ يسامحوهُ في البيعِ والشراءِ ، وأنْ يوسِّعوا لهُ في المكانِ ، فإنْ قصَّرَ في ذلكَ مقصِّرٌ . . ثقُلَ علىٰ قلبِهِ ، ووجدَ لذلكَ استبعاداً في نفسِهِ ؛ كأنَّ نفسَهُ تتقاضى الاحترامَ على الطاعةِ التي أخفاها معَ أنَّهُ لمْ يُطَّلَعْ عليهِ ، ولوْ لمْ يكنْ قدْ سبقَتْ منهُ تلكَ الطاعةُ . . لما كانَ يستبعدُ تقصيرَ الناسِ في حقِّهِ ، ومهما لمْ يكنْ وجودُ العبادةِ كعدمِها في كلِّ ما يتعلَّقُ بالخلقِ . . لمْ يكنْ قدْ قنعَ بعلمِ اللهِ تعالىٰ ، ولمْ يكنْ خالياً عنْ شوبٍ خفيٍّ مِنَ الرياءِ أخفىٰ مِنْ دبيبِ النملِ ، وكلُّ ذلكَ يوشكُ أنْ يحبطَ الأجرَ ، ولا يسلمُ مِنهُ إلا الصديقونَ .

وقدْ رُوِيَ عنْ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ قالَ : (إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يقولُ للقرّاءِ يومَ القيامةِ : ألمْ يكنْ يُرخَّصُ عليكمُ السِّعرُ ؟! ألمْ تكونوا تُبتدؤونَ بالسلامِ ؟! ألمْ تكنْ تُقضىٰ لكمُ الحوائجُ ؟!) .

وفي الحديث : « لا أجرَ لكمْ ، قدِ استوفيتُمْ أجورَكُمْ » .

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ المباركِ : رُوِيَ عنْ وهبِ بنِ منبِّهٍ أنَّهُ قالَ : (إنَّ رجلاً مِنَ السُّيَّاحِ قالَ لأصحابِهِ : إنَّا قدْ فارقْنا الأموالَ والأولادَ مخافةَ الطغيانِ ، فنخافُ أنْ نكونَ قدْ دخلَ علينا في أمرِنا هـٰذا مِنَ الطغيانِ أكثرُ ممَّا دخلَ علىٰ أهلِ الأموالِ في أموالِهِمْ ، إنَّ أحدَنا إذا لُقِيَ . . أحبَّ أنْ يُعظَّمَ لمكانِ دينِهِ ، وإنْ سألَ حاجةً . . أحبَّ أنْ تُقضىٰ لهُ لمكانِ دينِهِ ، وإنِ اشترىٰ شيئاً . . أحبَّ أنْ يُرخَّصَ عليهِ لمكانِ دينِهِ .

فبلغَ ذلكَ ملِكَهُمْ ، فركبَ في موكبٍ مِنَ الناسِ ؛ فإذا السهلُ والجبلُ قدِ امتلأَ بالناسِ ، فقالَ السائحُ : ما هـٰذا ؟ قيلَ : هـٰذا الملكُ قدْ أظلَّكَ ، فقالَ للغلامِ : ائتني بطعامٍ ، فأتاهُ ببقلٍ وزيتٍ وقلوبِ الشجرِ ، فجعلَ يحشو شدقيهِ ويأكلُ أكلاً عنيفاً ، فقالَ الملكُ : أينَ صاحبُكُمْ ؟ قالوا : هـٰذا ، قالَ : كيفَ أنتَ ؟ قالَ : كالناسِ ـ وفي حديثٍ آخرَ : بخيرٍ ـ فقالَ الملكُ : ما عندَ هـٰذا مِنْ خيرٍ ، فانصرفَ عنهُ ، فقالَ السائحُ : الحمدُ للهِ الذي صرفَكَ عنِّي وأنتَ لي ذامٌّ)[1] .

---

(١) تقدم بنحوه مختصراً ، وقد رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٤٦٤) .

فلمْ يزلِ المخلصونَ خائفينَ مِنَ الرياءِ الخفيِّ ، يجتهدونَ لذلكَ في مخادعةِ الناسِ عنْ أعمالِهِمُ الصالحةِ ، يحرصونَ علىٰ إخفائِها أعظمَ ممَّا يحرصُ الناسُ علىٰ إخفاءِ فواحشِهِمْ ، كلُّ ذلكَ رجاءَ أنْ تخلُصَ أعمالُهُمُ الصالحةُ ، فيجازيَهُمُ اللهُ تعالىٰ في القيامةِ بإخلاصِهِمْ علىٰ ملأٍ مِنَ الخلقِ ؛ إذْ علموا أنَّ اللهَ لا يقبلُ يومَ القيامةِ إلا الخالصَ ، وعلموا شدَّةَ حاجتِهِمْ وفاقتِهِمْ في القيامةِ ، وأنَّهُ يومٌ لا ينفعُ فيهِ مالٌ ولا بنونَ ، ولا يجزي والدٌ عنْ ولدِهِ ، ويشتغلُ الصدِّيقونَ بأنفسِهِمْ ، فيقولُ كلُّ واحدٍ : نفسي نفسي ، فضلاً عنْ غيرِهِمْ ، فكانوا كزوارِ بيتِ اللهِ تعالىٰ إذا توجهوا إلىٰ مكةَ ؛ فإنَّهُمْ يستصحبونَ معَ أنفسِهِمُ الذهبَ المغربيَّ الخالصَ ؛ لعلمِهِمْ بأنَّ أربابَ البوادي لا يروجُ عندَهُمْ الزيفُ والبهرجُ ، والحاجةُ تشتدُّ في الباديةِ ، ولا وطنَ يُفزعُ إليهِ ، ولا حميمَ يُتمسَّكُ بهِ ؛ فلا يُنجي إلا الخالصُ مِنَ النَّقدِ ، فهكذا يشاهدُ أربابُ القلوبِ يومَ القيامةِ ، والزادُ الذي يتزودونَهُ لهُ مِنَ التقوىٰ .

❋ ❋ ❋

فإذاً ؛ شوائبُ الرياءِ الخفيِّ كثيرةٌ لا تنحصرُ ، ومهما أدركَ مِنْ نفسِهِ تفرقةً بينَ أنْ يطلعَ علىٰ عبادتِهِ إنسانٌ أوْ بهيمةٌ . . ففيهِ شعبةٌ مِنَ الرياءِ ؛ فإنَّهُ لما قطعَ طمعَهُ عنِ البهائمِ . . لمْ يبالِ حضرَتِ البهائمُ أوِ الصبيانُ الرضعُ أمْ غابوا ، اطلعوا علىٰ حركتِهِ أمْ لمْ يطلعوا ، فلوْ كانَ مخلصاً قانعاً بعلمِ اللهِ . .

لاستحقرَ عقلاءَ العبادِ كما استحقرَ صبيانَهُمْ ومجانينَهُمْ ، وعلمَ أنَّ العقلاءَ لا يقدرونَ لهُ علىٰ رزقٍ ، ولا أجلٍ ، ولا زيادةِ ثوابٍ ونقصانِ عقابٍ ، كما لا يقدرُ عليهِ البهائمُ والصبيانُ والمجانينُ ، فإذا لمْ يجدْ ذلكَ . . ففيهِ شَوبٌ خفيٌّ ، ولكنْ ليسَ كلُّ شوبٍ محبطاً للأجرِ مفسداً للعملِ ، بلْ فيهِ تفصيلٌ .

* * *

فإنْ قلتَ : فما نرىٰ أحداً ينفكُّ عنِ السرورِ إذا عُرِفَتْ طاعاتُهُ ، فالسرورُ مذمومٌ كلُّهُ ؟ أوْ بعضُهُ محمودٌ وبعضُهُ مذمومٌ ؟

فنقولُ أولاً : كلُّ سرورٍ فليسَ بمذمومٍ ، بلِ السرورُ منقسمٌ إلىٰ محمودٍ ، وإلىٰ مذمومٍ ، **فأمَّا المحمودُ . . فأربعةُ أقسامٍ** :

الأولُ : أنْ يكونَ قصدُهُ إخفاءَ الطاعةِ والإخلاصَ للهِ ، ولكنْ لمَّا اطلعَ عليهِ الخلقُ . . علمَ أنَّ اللهَ أطلعَهُمْ ، وأظهرَ الجميلَ مِنْ أحوالِهِ ، فيستدلُّ بذلكَ علىٰ حُسنِ صنعِ اللهِ بهِ ، ونظرِهِ إليهِ ، وإلطافِهِ بهِ ؛ فإنَّهُ يسترُ الطاعةَ والمعصيةَ ، ثمَّ اللهُ يسترُ عليهِ المعصيةَ ويظهرُ الطاعةَ ؛ فلا لطفَ أعظمُ مِنْ سترِ القبيحِ عليهِ وإظهارِ الجميلِ ، فيكونُ فرحُهُ بجميلِ نظرِ اللهِ لهُ ، لا بحمدِ الناسِ وقيامِ المنزلةِ في قلوبِهِمْ ، وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ ﴾ ، فكأنَّهُ ظهرَ لهُ أنَّهُ عندَ اللهِ مقبولٌ ففرحَ بهِ .

الثاني : أنْ يستدلَّ بإظهارِ اللهِ الجميلَ وسترِهِ القبيحَ عليهِ في الدنيا أنَّهُ كذلكَ يفعلُ في الآخرةِ ؛ إذْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ :

« ما سترَ اللهُ علىٰ عبدٍ ذنباً في الدنيا إلا سترَهُ عليهِ في الآخرةِ »[1] .

فيكونُ الأولُ فرحاً بالقبولِ في الحالِ مِنْ غيرِ ملاحظةِ المستقبلِ ، وهٰذا التفاتٌ إلى المستقبلِ .

الثالثُ : أنْ يظنَّ رغبةَ المطلعينَ على الاقتداءِ بهِ في الطاعةِ ، فيتضاعفُ بذلكَ أجرُهُ ، فيكونُ لهُ أجرُ العلانيةِ بما أظهرَ آخراً ، وأجرُ السرِّ بما قصدَهُ أوّلاً ، ومَنِ اقتُدِيَ بهِ في طاعةٍ . . فلهُ مثلُ أجرِ أعمالِ المقتدينَ بهِ مِنْ غيرِ أنْ ينقصَ مِنْ أجورِهِمْ شيءٌ ، وتوقُّعُ ذلكَ جديرٌ بأنْ يكونَ سببَ السرورِ ، فإنَّ ظهورَ مخايلِ الربحِ لذيذٌ ، وموجبٌ للسرورِ لا محالةَ .

الرابعُ : أنْ يحمدَهُ المطلعونَ علىٰ طاعتِهِ ، فيفرحُ بطاعتِهِمْ للهِ تعالىٰ في مدحِهِمْ ، وبحبِّهِمْ للمطيعِ ، وبميلِ قلوبِهِمْ إلى الطاعةِ ؛ إذْ مِنْ أهلِ الإيمانِ مَنْ يرىٰ أهلَ الطاعةِ فيمقتُهُ ويحسدُهُ ، أوْ يذمُّهُ ويهزأُ بهِ ، أوْ ينسبُهُ إلى الرياءِ ولا يحمدُهُ عليهِ ، فهٰذا فرحٌ بحسنِ إيمانِ عبادِ اللهِ ، **وعلامةُ الإخلاصِ في هٰذا النوعِ** : أنْ يكونَ فرحُهُ بحمدِهِمْ غيرَهُ مثلَ فرحِهِ بحمدِهِمْ إيَّاهُ .

وأمَّا المذمومُ . . فهوَ الخامسُ : وهوَ أنْ يكونَ فرحُهُ لقيامِ منزلتِهِ في قلوبِ الناسِ ؛ حتَّىٰ يمدحوهُ ويعظِّموهُ ، ويقوموا بقضاءِ حوائجِهِ ، ويقابلوهُ بالإكرامِ في مصادرِهِ ومواردِهِ ، فهٰذا مكروهٌ ، واللهُ تعالىٰ أعلمُ .

* * *

---

(١) رواه مسلم (٢٥٩٠) .

بيان ما يحبط العمل من الرياء الخفي والجلي وما لا يحبطه

فنقولُ فيهِ : إذا عقدَ العبدُ العبادةَ على الإخلاصِ ، ثمَّ وردَ عليهِ واردُ الرياءِ . . فلا يخلو :

إمَّا أنْ يردَ عليهِ بعدَ فراغِهِ مِنَ العملِ ، أوْ قبلَ الفراغِ .

فإنْ وردَ بعدَ الفراغِ سرورٌ مجرَّدٌ بالظهورِ مِنْ غيرِ إظهارٍ . . فهـٰذا لا يحبطُ العملَ ؛ إذِ العملُ قدْ تمَّ علىٰ نعتِ الإخلاصِ ، سالماً مِنَ الرياءِ ، فما يطرأُ عليهِ بعدَهُ . . فنرجو ألا ينعطفَ عليهِ أثرُهُ ، لا سيما إذا لمْ يتكلَّفْ هوَ إظهارَهُ والتحدُّثَ بهِ ، ولمْ يتمنَّ ذكرَهُ وإظهارَهُ ، ولكنِ اتفقَ ظهورُهُ بإظهارِ اللهِ ، ولمْ يكنْ منهُ إلا ما دخلَ مِنَ السرورِ والارتياحِ علىٰ قلبِهِ .

نعمْ ، لوْ تمَّ العملُ على الإخلاصِ مِنْ غيرِ عقدِ رياءٍ ، ولكنْ ظهرَتْ لهُ بعدَهُ رغبةٌ في الإظهارِ ، فتحدَّثَ بهِ وأظهرَهُ ، فهـٰذا مَخُوفٌ ، وفي الآثارِ والأخبارِ ما يدلُّ علىٰ أنَّهُ محبطٌ ؛ فقدْ رُويَ عنِ ابنِ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ سمعَ رجلاً يقولُ : قرأتُ البارحةَ (سورةَ البقرةِ) ، قالَ : ذلكَ حظُّكَ منها[1] .

ورُويَ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ لرجلٍ قالَ لهُ : صمتُ الدهرَ يا رسولَ اللهِ ، فقالَ لهُ : « ما صمتَ ولا أفطرتَ » ، فقالَ بعضُهُمْ :

---

(١) الرعاية (ص ٢١٠) .

إنَّما قالَ ذلَك لأنَّهُ أظهرَهُ[1] ، وقيلَ : هوَ إشارةٌ إلىٰ كراهةِ صومِ الدهرِ[2] .

وكيفَما كانَ .. فيحتملُ أنْ يكونَ ذلكَ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ومِنِ ابنِ مسعودٍ استدلالاً علىٰ أنَّ قلبَهُ عندَ العبادةِ لمْ يخلُ عنْ عقدِ الرياءِ وقصدِهِ لهُ ، لمَّا أنْ ظهرَ مِنهُ التحدُّثُ بهِ ؛ إذْ يبعدُ أنْ يكونَ ما يطرأُ على العملِ مبطلاً لثوابِ العملِ ، **بلِ الأقيسُ أنْ يُقالَ** : إنَّهُ مثابٌ علىٰ عملِهِ الذي مضىٰ ، ومعاقبٌ علىٰ مراءاتِهِ بطاعةِ اللهِ تعالىٰ بعدَ الفراغِ منهُ ، بخلافِ ما لو تغيَّرَ عقدُهُ إلى الرياءِ قبلَ الفراغِ مِنَ الصلاةِ ؛ فإنَّ ذلكَ قدْ يبطلُ الصلاةَ ، ويحبطُ العملَ .

وأمَّا إذا وردَ واردُ الرياءِ قبلَ الفراغِ مِنَ الصلاةِ مثلاً وكانَ قدْ عقدَ على الإخلاصِ ، ولكنْ وردَ في أثنائِها واردُ الرياءِ .. فلا يخلو : إمَّا أنْ يكونَ مجردَ سرورٍ لا يؤثِّرُ في العملِ ، وإمَّا أنْ يكونَ رياءً باعثاً على العملِ .

فإنْ كانَ باعثاً على العملِ وختمَ العبادةَ بهِ .. حبطَ أجرُهُ ، **ومثالُهُ** : أنْ يكونَ في تطوُّعٍ ، فتجدَّدَتْ لهُ نظَّارةٌ[3] أوْ حضرَ ملكٌ مِنَ الملوكِ وهوَ يشتهي

---

(١) القائل هو ابن حيويه أحد الرواة ، ولفظه : (لأنه تحدَّث به) .

(٢) كذا في « الرعاية » (ص ٢١٠) ، ورواه ابن المبارك في « الزهد » (١٥٣) ، وعند مسلم (١١٦٢) أن عمر رضي الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عمن يصوم الدهر ، فقال : « لا صام ولا أفطر » .

(٣) النظارة : القوم ينظرون إليه .

أنْ ينظرَ إليهِ ، أوْ يذكرَ شيئاً نسيَهُ مِنْ مالِهِ وهوَ يريدُ أنْ يطلبَهُ ، ولولا الناسُ . . لقطعَ الصلاةَ ، فاستتمَّها خوفاً مِنْ مذمَّةِ الناسِ ، فقدْ حبطَ أجرُهُ ، وعليهِ الإعادةُ إنْ كانَ في فريضةٍ ، وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « العملُ كالوعاءِ ، إذا طابَ آخرُهُ . . طابَ أوَّلُهُ »[1] أي : النظرُ إلىٰ خاتمتِهِ .

ورُوِيَ أنَّ مَنْ راءىٰ بعملِهِ ساعةً . . حبطَ عملُهُ الذي كانَ قبلَهُ[2] ، وهوَ منزَّلٌ على الصلاةِ في هـٰذهِ الصورةِ ، لا على الصدقةِ ولا على القراءةِ ؛ فإنَّ كلَّ جزءٍ منها منفردٌ ، فما يطرأُ يفسدُ الباقيَ دونَ الماضي ، والصومُ والحجُّ مِنْ قبيلِ الصلاةِ .

وأمَّا إذا كانَ واردُ الرياءِ بحيثُ لا يمنعُهُ مِنْ قصدِ الاستتمامِ لأجلِ الثوابِ ؛ كما لوْ حضرَ جماعةٌ في أثناءِ صلاتِهِ ، ففرحَ بحضورِهِمْ واعتقدَ الرياءَ ، وقصدَ تحسينَ الصلاةِ لأجلِ نظرِهِمْ ، وكانَ لولا حضورُهُمْ . . لكانَ يتمُّها أيضاً ، فهـٰذا رياءٌ قدْ أثَّرَ في العملِ ، وانتهضَ باعثاً على الحركاتِ ، فإنْ غلبَ حتَّى انمحقَ معهُ الإحساسُ بقصدِ العبادةِ والثوابِ ، وصارَ قصدُ العبادةِ مغموراً . . فهـٰذا أيضاً ينبغي أنْ يفسدَ العبادةَ مهما مضىٰ ركنٌ مِنْ أركانِها علىٰ هـٰذا الوجهِ ؛ لأنَّا نكتفي بالنيةِ السابقةِ عندَ الإحرامِ بشرطِ ألا يطرأَ ما يغلبُها ويغمرُها ، ويحتملُ أنْ يُقالَ : لا يفسدُ العبادةَ نظراً إلىٰ حالةِ

---

(١) رواه ابن ماجه (٤١٩٩) .

(٢) إذ روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٥/ ١٥٠) عن ابن أبي زكريا يحدث : « من راءىٰ بعمله . . حبط ما كان قبله » .

العقدِ ، وإلىٰ بقاءِ أصلِ قصدِ الثوابِ وإنْ ضعفَ بهجومِ قصدٍ هوَ أغلبُ منهُ .

ولقدْ ذهبَ الحارثُ المحاسبيُّ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ إلى الإحباطِ في أمرٍ هوَ أهونُ منْ هـٰذا ، وقالَ : إذا لمْ يُردْ إلا مجردَ السرورِ باطلاعِ الناسِ ؛ يعني : سروراً هوَ كحبِّ المنزلةِ والجاهِ ، قالَ : قدِ اختلفَ الناسُ في هـٰذا ، فصارَتْ فرقةٌ إلىٰ أنَّهُ يحبطُ ؛ لأنَّهُ قدْ نقضَ العزمَ الأوَّلَ ، وركنَ إلىٰ حمدِ المخلوقينَ ، ولمْ يختمْ عملَهُ بالإخلاصِ ، وإنَّما يتمُّ العملُ بخاتمتِهِ[1] .

ثمَّ قالَ : ولا أقطعُ عليهِ بالحبطِ وإنْ لمْ يتزيَّدْ في العملِ ، ولا آمنُ عليهِ ، وقدْ كنتُ أقفُ فيهِ لاختلافِ الناسِ ، والأغلبُ علىٰ قلبي أنَّهُ يحبطُ إذا ختمَ عملَهُ بالرياءِ[2] .

ثمَّ قالَ : فإنْ قيلَ : قدْ قالَ الحسنُ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ : إنَّهما سَوْرتانِ ، فإذا كانَتِ الأولىٰ للهِ . . لمْ تضرَّهُ الثانيةُ[3] ، وقدْ رُويَ أنَّ رجلاً قالَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : يا رسولَ اللهِ ؛ أُسِرُّ العملَ لا أحبُّ أنْ يُطلعَ عليهِ ، فيُطلعُ عليهِ ، فيسرُّني ، قالَ : « لكَ أجرانِ ؛ أجرُ السرِّ وأجرُ العلانيةِ »[4] ، ثمَّ تكلمَ على الأثرِ والخبرِ فقالَ : أمَّا الحسنُ . . فأرادَ بقولِهِ : لا تضرُّهُ ؛ أيْ : لا يدعُ العملَ ، ولا تضرُّهُ الخطرةُ وهوَ يريدُ اللهَ عزَّ

---

(١) الرعاية (ص ٢٣٣) .

(٢) الرعاية (ص ٢٣٤) .

(٣) الرعاية (ص ٢٣٣) ، ورواه البيهقي في « الشعب » (٦٤٧٤) .

(٤) رواه الترمذي (٢٣٨٤) ، وابن ماجه (٤٢٢٦) .

وجلَّ ، ولمْ يقلْ : إذا اعتقدَ الرياءَ بعدَ عقدِ الإخلاصِ . . لمْ يضرَّهُ[1] ، وأمَّا الحديثُ . . فتكلَّمَ عليهِ بكلامٍ طويلٍ يرجعُ حاصلُهُ إلىٰ ثلاثةِ أوجهٍ :

أحدُها : أنَّهُ يحتملُ أنَّهُ أرادَ ظهورَ عملِهِ بعدَ الفراغِ ، وليسَ في الحديثِ أنَّهُ قبلَ الفراغِ .

والثاني : أنَّهُ أرادَ أنْ يُسرَّ بِهِ لاقتداءِ الناسِ بهِ ، أوْ لسرورٍ آخرَ محمودٍ ممَّا ذكرناهُ مِنْ قبلُ ، لا سروراً بسببِ حبِّ المحمدةِ والمنزلةِ ، بدليلِ أنَّهُ جعلَ لهُ بهِ أجرينِ ، ولا ذاهبَ مِنَ الأمةِ إلىٰ أنَّ للسرورِ بالمحمدةِ أجراً ، وغايتُهُ أنْ يُعفىٰ عنهُ ، فكيفَ يكونُ للمخلصِ أجرٌ وللمرائي أجرانِ ؟!

والثالثُ : أنَّهُ قالَ : أكثرُ مَنْ يروي الحديثَ يرويهِ غيرَ متصلٍ إلىٰ أبي هريرةَ ، بلْ أكثرُهُمْ يوقفُهُ علىٰ أبي صالحٍ ، ومنهُمْ مَنْ يرفعُهُ ؛ فالحكمُ بالعموماتِ الواردةِ في الرياءِ أولىٰ[2] .

هـٰذا ما ذكرَهُ ولمْ يقطعْ بهِ ، بلْ أظهرَ ميلاً إلى الإحباطِ .

والأقيسُ عندَنا : أنَّ هـٰذا القدْرَ إذا لمْ يظهرْ أثرُهُ في العملِ ، بلْ بقيَ العملُ صادراً عنْ باعثِ الدينِ ، وإنَّما انضافَ إليهِ السرورُ بالاطلاعِ . . فلا يفسدُ العملَ ؛ لأنَّهُ لمْ ينعدمْ بهِ أصلُ نيَّتِهِ ، وبقيَتْ تلكَ النيةُ باعثةً على العملِ ، وحاملةً على الإتمامِ .

---

(١) الرعاية (ص ٢٣٤) .
(٢) الرعاية (ص ٢٣٥) وما بعدها .

وأمَّا الأخبارُ التي وردَتْ في الرياءِ . . فهيَ محمولةٌ علىٰ ما إذا لمْ يردْ بهِ إلا الخلقَ .

وأمَّا ما وردَ في الشركةِ . . فهوَ محمولٌ علىٰ ما إذا كانَ قصدُ الرياءِ مساوياً لقصدِ الثوابِ ، أوْ أغلبَ منهُ ، أمَّا إذا كانَ ضعيفاً بالإضافةِ إليهِ . . فلا يحبطُ بالكليةِ ثوابَ الصدقةِ وسائرِ الأعمالِ ، ولا ينبغي أنْ يفسدَ الصلاةَ .

ولا يبعدُ أيضاً أنْ يُقالَ : إنَّ الذي أُوجِبَ عليهِ صلاةٌ خالصةٌ لوجهِ اللهِ تعالىٰ ، والخالصُ ما لا يشوبُهُ شيءٌ ، فلا يكونُ مؤدياً للواجبِ معَ هٰذا الشوبِ ، والعلمُ عندَ اللهِ فيهِ ، وقدْ ذكرنا في كتابِ الإخلاصِ كلاماً أوفىٰ ممَّا أوردناهُ الآنَ ، فليُرجعْ إليهِ .

فهٰذا حكمُ الرياءِ الطارئِ بعدَ عقدِ العبادةِ ، إمَّا قبلَ الفراغِ ، أوْ بعدَ الفراغِ .

القسمُ الثالثُ : الذي يقارنُ حالَ العقدِ ؛ بأنْ يبتدئَ الصلاةَ علىٰ قصدِ الرياءِ ، فإنْ تمَّ عليهِ حتَّىٰ سلَّمَ . . فلا خلافَ في أنَّهُ يقضي ، ولا يعتدُّ بصلاتِهِ ، وإنْ ندمَ عليهِ في أثناءِ ذلكَ واستغفرَ ورجعَ قبلَ التمامِ . . ففيما يلزمهُ ثلاثةُ أوجهٍ :

قالَتْ فرقةٌ : لمْ تنعقدْ صلاتُهُ معَ قصدِ الرياءِ ، فليستأنفْ .

وقالَتْ فرقةٌ : تلزمُهُ إعادةُ الأفعالِ ؛ كالركوعِ والسجودِ ، وتفسدُ

أفعالُهُ دونَ تحريمةِ الصلاةِ ؛ لأنَّ التحريمَ عقدٌ ، والرياءُ خاطرٌ في قلبِهِ لا يُخرِجُ التحريمَ عنْ كونِهِ عقداً .

وقالَتْ فرقةٌ : لا يلزمُهُ إعادةُ شيءٍ ، بلْ يستغفرُ اللهَ بقلبِهِ ، ويتمُّ العبادةَ على الإخلاصِ ، والنظرُ إلىٰ خاتمةِ العبادةِ ؛ كما لو ابتدأ بالإخلاصِ وختمَ بالرياءِ . . لكانَ يفسُدُ عملُهُ ، وشبَّهوا ذلكَ بثوبٍ أبيضَ لُطِّخَ بنجاسةٍ عارضةٍ ، فإذا أُزيلَ العارضُ . . عادَ إلى الأصلِ ، فقالوا : إنَّ الصلاةَ والركوعَ والسجودَ لا تكونُ إلا للهِ ، ولوْ سجدَ لغيرِ اللهِ . . لكانَ كافراً ، ولكنِ اقترنَ بهِ عارضُ الرياءِ ، ثمَّ زالَ بالندمِ والتوبةِ ، وصارَ إلىٰ حالةٍ لا يبالي بحمدِ الناسِ وذمِّهِمْ ، فتصحُّ صلاتُهُ .

ومذهبُ الفريقينِ الآخرينِ خارجٌ عنْ قياسِ الفقهِ جدّاً ، خصوصاً مَنْ قالَ : يلزمُهُ إعادةُ الركوعِ والسجودِ دونَ الافتتاحِ ؛ لأنَّ الركوعَ والسجودَ إنْ لمْ يصحَّ . . صارَتْ أفعالاً زائدةً في الصلاةِ فتفسدُ الصلاةُ ، وكذلكَ قولُ مَنْ يقولُ : لوْ خُتمَ بالإخلاصِ . . صحَّ ؛ نظراً إلى الآخرِ ، فهوَ أيضاً ضعيفٌ ؛ لأنَّ الرياءَ يقدحُ في النيةِ ، وأولى الأوقاتِ بمراعاةِ أحكامِ النيةِ حالةُ الافتتاحِ ، **فالذي يستقيمُ علىٰ قياسِ الفقهِ هوَ أنْ يُقالَ** : إنْ كانَ باعثُهُ مجردَ الرياءِ في ابتداءِ العقدِ دونَ طلبِ الثوابِ وامتثالِ الأمرِ . . لمْ ينعقدِ افتتاحُهُ ، ولمْ يصحَّ ما بعدَهُ ، وذلكَ فيمَنْ إذا خلا بنفسِهِ . . لمْ يصلِّ ، ولمَّا رأى الناسَ . . تحرَّمَ بالصلاةِ ، وكانَ بحيثُ لوْ كانَ ثوبُهُ نجساً أيضاً . . كان يصلِّي لأجلِ الناسِ ، فهـٰذهِ صلاةٌ لا نيةَ فيها ؛ إذِ النيةُ عبارةٌ عنْ

إجابةِ باعثِ الدينِ ، وهـٰهنا لا باعثَ ولا إجابةَ .

فأمَّا إذا كانَ بحيثُ لولا الناسُ أيضاً . . لكانَ يصلِّي إلا أنَّهُ ظهرَتْ لهُ الرغبةُ في المحمدةِ أيضاً ، فاجتمعَ الباعثانِ ، فهـٰذا إمَّا أنْ يكونَ في صدقةٍ وقراءةٍ وما ليسَ فيهِ تحليلٌ وتحريمٌ ، أوْ في عقدِ صلاةٍ وحجٍّ ، فإنْ كانَ في صدقةٍ . . فقدْ عصىٰ بإجابةِ باعثِ الرياءِ ، وأطاعَ بإجابةِ باعثِ الثوابِ ، ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ ، فلهُ ثوابٌ بقدْرِ قصدِهِ الصحيحِ ، وعقابٌ بقدْرِ قصدِهِ الفاسدِ ، ولا يحبطُ أحدُهما الآخرَ .

وإنْ كانَ في صلاةٍ تقبلُ الفسادَ بتطرُّقِ خللٍ إلى النيةِ . . فلا يخلو : إمَّا أنْ تكونَ نفلاً أوْ فرضاً ؛ فإنْ كانَتْ نفلاً . . فحكمُها أيضاً حكمُ الصدقةِ ، فقدْ عصىٰ مِنْ وجهٍ وأطاعَ مِنْ وجهٍ ؛ إذِ اجتمعَ في قلبهِ الباعثانِ ، ولا يمكنُ أنْ يُقالَ : صلاتُهُ فاسدةٌ والاقتداءُ بهِ باطلٌ ، حتَّىٰ إنَّ من يصلِّي التراويحَ ، وتبيَّنَ مِنْ قرائنِ حالِهِ أنَّ قصدَهُ الرياءُ بإظهارِ حسنِ القراءةِ ؛ ولولا اجتماعُ الناسِ خلفَهُ وخلا في البيتِ وحدَهُ لما صلَّىٰ . . لا يصحُّ الاقتداءُ بهِ ؛ فإنَّ المصيرَ إلىٰ هـٰذا بعيدٌ جدّاً ، بلْ يُظنُّ بالمسلمِ أنَّهُ يقصدُ الثوابَ أيضاً بتطوعِهِ ، فتصحُّ باعتبارِ ذلكَ القصدِ صلاتُهُ ، ويصحُّ الاقتداءُ بهِ وإنِ اقترنَ بهِ قصدٌ آخرُ هوَ بهِ عاصٍ .

فأمَّا إذا كانَ في فرضٍ واجتمعَ الباعثانِ وكانَ كلُّ واحدٍ لا يستقلُّ ، وإنَّما

يحصلُ الانبعاثُ بمجموعِهما . . فهٰذا لا يسقطُ الواجبَ عنهُ ؛ لأنَّ الإيجابَ لمْ ينتهضْ باعثاً في حقِّهِ بمجردِهِ واستقلالِهِ .

وإنْ كانَ كلُّ باعثٍ مستقلاً ، حتَّىٰ لوْ لمْ يكنْ باعثُ الرياءِ . . لأدَّى الفرضَ ، ولوْ لمْ يكنْ باعثُ الفرضِ . . لأنشأَ صلاةً تطوعاً لأجلِ الرياءِ ، فهٰذا في محلِّ النظرِ ، وهوَ محتملٌ جدّاً ، فيحتملُ أنْ يُقالَ : إنَّ الواجبَ صلاةٌ خالصةٌ لوجهِ اللهِ ولمْ يؤدِّ الواجبَ الخالصَ ، ويحتملُ أنْ يُقالَ : الواجبُ امتثالُ الأمرِ بباعثٍ مستقلٍّ بنفسِهِ ، وقدْ وُجدَ ، فاقترانُ غيرِهِ بهِ لا يمنعُ سقوطَ الفرضِ عنهُ ، كما لوْ صلَّىٰ في دارٍ مغصوبةٍ ؛ فإنَّهُ وإنْ كانَ عاصياً بإيقاعِ الصلاةِ في الدارِ المغصوبةِ فإنَّهُ مطيعٌ بأصلِ الصلاةِ ، ومسقطٌ للفرضِ عنْ نفسِهِ ، وتعارضَ الاحتمالُ في تعارضِ البواعثِ في أصلِ الصلاةِ .

أمَّا إذا كانَ الرياءُ في المبادرةِ مثلاً دونَ أصلِ الصلاةِ ؛ مثلُ مَنْ بادرَ إلى الصلاةِ في أوَّلِ الوقتِ لحضورِ جماعةٍ ولوْ خلا . . لأخَّرَ إلىٰ وسطِ الوقتِ ، ولولا الفرضُ . . لكانَ لا يبتدئُ صلاةً لأجلِ الرياءِ ، فهٰذا ممَّا يقطعُ بصحَّةِ صلاتِهِ وسقوطِ الفرضِ بهِ ؛ لأنَّ باعثَ أصلِ الصلاةِ مِنْ حيثُ إنَّها صلاةٌ لمْ يعارضْهُ غيرُهُ ، بلْ مِنْ حيثُ تعيينُ الوقتِ ، فهٰذا أبعدُ عنِ القدحِ في النيةِ .

هٰذا في رياءٍ يكونُ باعثاً على العملِ وحاملاً عليهِ ، وأما مجردُ السرورِ باطلاعِ الناسِ عليهِ إذا لمْ يبلغْ أثرُهُ إلىٰ حيثُ يؤثرُ في العملِ . . فبعيدٌ أنْ يفسدَ الصلاةَ .

فهـٰذا ما نراهُ لائقاً بقانونِ الفقهِ ، والمسألةُ غامضةٌ مِنْ حيثُ إنَّ الفقهاءَ لمْ يتعرَّضوا لها في فنِّ الفقهِ ، والذينَ خاضوا فيها وتصرَّفوا لمْ يلاحظوا قوانينَ الفقهِ ومقتضىٰ فتاوى الفقهاءِ في صحةِ الصلاةِ وفسادِها ، بلْ حملَهُمُ الحرصُ علىٰ تصفيةِ القلوبِ وطلبِ الإخلاصِ علىٰ إفسادِ العباداتِ بأدنى الخواطرِ ، وما ذكرناهُ هوَ الأقصدُ فيما نراهُ ، والعلمُ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ فيهِ ، وهوَ عالمُ الغيبِ والشهادةِ ، وهوَ الرحمـٰنُ الرحيمُ .

* * *

بيان دواء الرياء وطريق معالجة القلب فيه

قدْ عرفتَ ممَّا سبقَ أنَّ الرياءَ محبطٌ للأعمالِ ، وسببٌ للمقتِ عندَ اللهِ تعالىٰ ، وأنَّهُ مِنْ كبائرِ المهلكاتِ .

وما هٰذا وصفُهُ فجديرٌ بالتشميرِ عنْ ساقِ الجدِّ في إزالتِهِ ولوْ بالمجاهدةِ وتحمُّلِ المشاقِّ ، فلا شفاءَ إلا في شربِ الأدويةِ المرَّةِ البشعةِ ، وهٰذِهِ مجاهدةٌ يُضطرُّ إليها العبادُ كلُّهُمْ ؛ إذِ الصبيُّ يُخلقُ ضعيفَ العقلِ والتمييزِ ، ممتدَّ العينِ إلى الخلقِ ، كثيرَ الطمعِ فيهِمْ ، فيرى الناسَ يتصنَّعُ بعضُهُمْ لبعضٍ ، فيغلبُ عليهِ حبُّ التصنُّعِ بالضرورةِ ، ويترسَّخُ ذلكَ في نفسِهِ ، وإنَّما يشعرُ بكونِ ذلكَ مهلكاً بعدَ كمالِ عقلِهِ ، وقدِ انغرسَ الرياءُ في قلبِهِ وترسَّخَ فيهِ ، فلا يقدرُ علىٰ قمعِهِ إلا بمجاهدةٍ شديدةٍ ، ومكابدةٍ لقوَّةِ الشهواتِ ، فلا ينفكُّ أحدٌ عنِ الحاجةِ إلىٰ هٰذِهِ المجاهدةِ ، ولكنَّها تشقُّ أوَّلاً وتخفُّ آخراً ، وفي علاجِهِ مقامانِ :

أحدُهُما : قطع عروقِهِ وأصولِهِ التي منها انشعابُهُ .

والثاني : دفعُ ما يخطرُ منهُ في الحالِ .

* * *

المقامُ الأولُ : في قطعِ عروقِهِ واستئصالِ أصولِهِ :

وأصلُهُ حبُّ المنزلةِ والجاهِ ، وإذا فُصِّلَ . . رجعَ إلىٰ ثلاثةِ أصولٍ ، وهيَ

حبُّ لذةِ المحمدةِ ، والفرارُ مِنْ ألمِ المذمَّةِ ، والطمعُ فيما في أيدي الناسِ .

ويشهدُ للرياءِ بهٰذهِ الأسبابِ وأنَّها الباعثةُ للمرائي ما روىٰ أبو موسىٰ : أنَّ أعرابياً سألَ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ الرجلُ يقاتلُ حميةً ؛ ومعناهُ : أنَّهُ يأنفُ أنْ يُقهرَ أوْ يُذمَّ بأنَّهُ مقهورٌ مغلوبٌ ، والرجلُ يقاتلُ ليُرىٰ مكانُهُ ؛ وهٰذا هوَ طلبُ لذَّةِ الجاهِ والقدْرِ في القلوبِ ، والرجلُ يقاتلُ للذِّكرِ ؛ وهٰذا هوَ الحمدُ باللسانِ ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ قاتلَ لتكونَ كلمةُ اللهِ هيَ العليا . . فهوَ في سبيلِ اللهِ »[1] .

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (إذا التقى الصفانِ . . نزلَتِ الملائكةُ ، فكتبوا الناسَ علىٰ مراتبِهِمْ ، فلانٌ يقاتل للذِّكرِ ، وفلانٌ يقاتلُ للملكِ)[2] ، والقتالُ للملكِ إشارةٌ إلى الطمعِ في الدنيا .

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (يقولونَ : فلانٌ شهيدٌ ، ولعلَّهُ أنْ يكونَ قدْ ملأَ دُفتي راحلتِهِ ورِقاً !)[3] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ غزا لا يبغي إلا عِقالاً . . فلهُ ما نوىٰ »[4] ، فهٰذا إشارةٌ إلى الطمعِ .

---

(١) رواه البخاري (١٢٣) ، ومسلم (١٩٠٤) بألفاظ مقاربة .
(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٤٢) ، وقد ذُكر عند ابن مسعود رضي الله عنه قوم قتلوا في سبيل الله عز وجل ، فذكره .
(٣) رواه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٦/ ٣٣٢) .
(٤) رواه النسائي (٦/ ٢٤) .

وقدْ لا يشتهي الحمدَ ولا يطمعُ فيهِ ، ولكنْ يحذرُ مِنْ ألمِ الذمِّ ؛ كالبخيلِ بينَ الأسخياءِ وهمْ يتصدَّقونَ بالمالِ الكثيرِ ، فإنَّهُ يتصدَّقُ بالقليلِ كي لا يُبَخَّلَ ، وهوَ ليسَ يطمعُ في الحمدِ وقدْ سبقَهُ غيرُهُ ، وكالجبانِ بينَ الشُّجعانِ ، لا يفرُّ مِنَ الزحفِ خوفاً مِنَ الذمِّ ، وهوَ لا يطمعُ في الحمدِ وقدْ هجمَ غيرُهُ علىٰ صفِّ القتالِ ، ولكنْ إذا أيسَ مِنَ الحمدِ . . كرهَ الذمَّ ، وكالرجلِ بينَ قومٍ يصلُّونَ جميعَ الليلِ ، فيصلِّي ركعاتٍ معدودةً كيْ لا يُذمَّ بالكسلِ ، وهوَ لا يطمعُ في الحمدِ .

وقدْ يقدرُ الإنسانُ على الصبرِ عنْ لذَّةِ الحمدِ ، ولا يقدرُ على الصبرِ علىٰ ألمِ الذمِّ ، ولذلكَ قدْ يتركُ السؤالَ عنْ علمٍ هوَ محتاجٌ إليهِ ؛ خيفةً مِنْ أنْ يُذمَّ بالجهلِ ، ويفتي بغيرِ علمٍ ، ويدَّعي العلمَ بالحديثِ وهوَ بهِ جاهلٌ ، كلُّ ذلكَ حذراً مِنَ الذمِّ .

فهٰذهِ الأمورُ الثلاثةُ هيَ التي تحرِّكُ المرائيَ إلى الرياءِ .

وعلاجُهُ : ما ذكرناهُ في الشطرِ الأولِ مِنَ الكتابِ على الجملةِ ، ولكنَّا نذكرُ الآنَ ما يخصُّ الرياءَ ، وليسَ بخفيٍّ أنَّ الإنسانَ إنَّما يقصدُ الشيءَ ويرغبُ فيهِ لظنِّهِ أنَّهُ خيرٌ لهُ ونافعٌ ولذيذٌ ، إمَّا في الحالِ وإمَّا في المآلِ ، فإنْ علمَ أنَّهُ لذيذٌ في الحالِ ولكنَّهُ ضارٌّ في المآلِ . . سَهُلَ عليهِ قطعُ الرَّغبةِ عنهُ ، كمَنْ يعلمُ أنَّ العسلَ لذيذٌ ، ولكنْ إذا بانَ لهُ أنَّ فيهِ سمّاً . . أعرضَ عنهُ ؛ فكذلكَ طريقُ قطعِ هٰذهِ الرغبةِ أنْ يعلمَ ما فيها مِنَ المضرَّةِ .

ومهما عرفَ العبدُ مضرَّةَ الرياءِ ، وما يفوتهُ مِنْ صلاحِ قلبهِ ، وما يُحرمُ عنهُ في الحالِ مِنَ التوفيقِ ، وفي الآخرةِ مِنَ المنزلةِ عندَ اللهِ ، وما يتعرَّضُ لهُ مِنَ العقابِ العظيمِ ، والمقتِ الشديدِ ، والخزيِ الظاهرِ ؛ حيثُ يُنادىٰ علىٰ رؤوسِ الخلائقِ : يا فاجرُ ، يا غادرُ ، يا مرائي ؛ أما استحييتَ إذِ اشتريتَ بطاعةِ اللهِ عرَضَ الدنيا ، وراقبتَ قلوبَ العبادِ ، واستهزأتَ بطاعةِ اللهِ ، وتحببتَ إلى العبادِ بالتبغُّضِ إلى اللهِ ، وتزيَّنتَ لهُمْ بالشَّينِ عندَ اللهِ ، وتقرَّبتَ إليهِمْ بالبعدِ مِنَ اللهِ ، وتحمَّدتَ إليهِمْ بالتذمُّمِ عندَ اللهِ ، وطلبتَ رضاهُمْ بالتعرُّضِ لسخَطِ اللهِ ؟! أما كانَ أحدٌ أهونَ عليكَ مِنَ اللهِ ؟!

فمهما تفكَّرَ العبدُ في هٰذا الخزيِ ، وقابلَ ما يحصلُ لهُ مِنَ العبادِ والتزيُّنِ لهُمْ في الدنيا بما يفوتهُ في الآخرةِ ، وبما يحبطُ عليهِ مِنْ ثوابِ الأعمالِ ، معَ أنَّ العملَ الواحدَ ربَّما كانَ يترجَّحُ بهِ ميزانُ حسناتِهِ لوْ خلصَ ، فإذا فسدَ بالرياءِ . . حُوِّلَ إلىٰ كِفَّةِ السيئاتِ فترجَّحَتْ بهِ ، ويهوي إلى النارِ ، فلوْ لمْ يكنْ في الرياءِ إلا إحباطُ عبادةٍ واحدةٍ . . لكانَ ذلك كافياً في معرفةِ ضررِهِ ، وإنْ كانَ معَ ذلكَ سائرُ حسناتِهِ راجحةً ، فقدْ كانَ ينالُ بهٰذهِ الحسنةِ علوَّ الرتبةِ عندَ اللهِ تعالىٰ في زمرةِ النبيِّينَ والصديقينَ ، وقدْ حُطَّ عنهُمْ بسببِ الرياءِ ، ورُدَّ إلىٰ صفِّ النعالِ مِنْ مراتبِ الأولياءِ ، هٰذا معَ ما يتعرَّضُ لهُ في الدنيا مِنْ تشتُّتِ الهمِّ بسببِ ملاحظةِ قلوبِ الخلقِ ، فإنَّ رضا الناسِ غايةٌ لا تُدركُ ، فكلُّ ما يرضىٰ بهِ فريقٌ يسخطُ بهِ فريقٌ ، ورضا بعضِهِمْ في سخطِ بعضِهِمْ ، ومَنْ طلبَ رضاهُمْ في سخطِ اللهِ . . سخطَ اللهُ عليهِ ، وأسخطَهُمْ

أيضاً عليهِ ، ثمَّ أيُّ غرضٍ لهُ في مدحِهِمْ وإيثارِ ذمِّ اللهِ لأجلِ حمدِهِمْ ، ولا يزيدُهُ مدحُهُمْ رزقاً ولا أجلاً ، ولا ينفعُهُ يومَ فقرِهِ وفاقتِهِ وهوَ يومُ القيامةِ ؟!

وأمَّا الطمعُ فيما في أيديهِمْ . . فبأنْ يعلمَ أنَّ اللهَ تعالىٰ هوَ المسخِّرُ للقلوبِ بالمنعِ والإعطاءِ ، وأنَّ الخلقَ مضطرونَ فيهِ ، ولا رازقَ إلا اللهُ ، ومَنْ طمعَ في الخلقِ . . لمْ يخلُ مِنَ الذلِّ والخيبةِ ، وإنْ وصلَ إلى المرادِ . . لمْ يخلُ عنِ المنَّةِ والمهانةِ ، فكيفَ يتركُ ما عندَ اللهِ لرجاءٍ كاذبٍ ووهمٍ فاسدٍ قدْ يصيبُ وقدْ يخطىءُ ، وإذا أصابَ . . فلا تفي لذَّتُهُ بألمِ منَّتِهِ ومذلَّتِهِ ؟!

وأمَّا ذمُّهُمْ . . فلِمَ يحذرُ منهُ ولا يزيدُهُ ذمُّهُمْ شيئاً ممَّا لمْ يكتبْهُ اللهُ عليهِ ، ولا يعجِّلُ أجلَهُ ولا يؤخِّرُ رزقَهُ ، ولا يجعلُهُ مِنْ أهلِ النارِ إنْ كانَ مِنْ أهلِ الجنَّةِ ، ولا يبغِّضُهُ إلى اللهِ إنْ كانَ محموداً عندَ اللهِ ، ولا يزيدُهُ مقتاً إنْ كانَ ممقوتاً عندَ اللهِ ؟! فالعبادُ كلُّهُمْ عجزةٌ لا يملكونَ لأنفسِهِمْ ضرّاً ولا نفعاً ، ولا يملكونَ موتاً ولا حياةً ولا نشوراً .

فإذا قرَّرَ في قلبِهِ آفةَ هـٰذهِ الأسبابِ وضررَها . . فترَتْ رغبتُهُ ، وأقبلَ على اللهِ قلبُهُ ، فإنَّ العاقلَ لا يرغبُ فيما يكثرُ ضررُهُ ويقلُّ نفعُهُ .

ويكفيهِ أنَّ الناسَ لوْ علموا ما في باطنِهِ مِنْ قصدِ الرياءِ وإظهارِ الإخلاصِ . . لمقتوهُ ، وسيكشفُ اللهُ عنْ سرِّهِ حتَّىٰ يبغِّضَهُ إلى الناسِ ، ويعرِّفَهُمْ أنَّهُ مراءٍ وممقوتٌ عندَ اللهِ تعالىٰ ، ولوْ أخلصَ للهِ . . لكشفَ اللهُ لهُمْ

إخلاصَهُ ، وحبّبَهُ إليهِمْ ، وسخَّرهُمْ لهُ ، وأطلقَ ألسنتَهُمْ بحمدِهِ والثناءِ عليهِ ، معَ أنَّهُ لا كمالَ في مدحِهِمْ ، ولا نقصانَ في ذمِّهِمْ ، كما قالَ شاعرٌ مِنْ بني تميمٍ : إنَّ مدحي زينٌ ، وإنَّ ذمِّي شينٌ ، فقالَ لهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كذبتَ ، ذاكَ اللهُ الذي لا إلـهَ إلاَّ هوَ »[1] ، إذْ لا زينَ إلا في مدحِهِ ، ولا شينَ إلا في ذمِّهِ ، فأيُّ خيرٍ لكَ في مدحِ الناسِ وأنتَ عندَ اللهِ مذمومٌ ومِنْ أهلِ النارِ ؟! وأيُّ شرٍّ لكَ في ذمِّ الناسِ وأنتَ عندَ اللهِ محمودٌ في زمرةِ المقرَّبينَ ؟!

فمَنْ أحضرَ في قلبِهِ الآخرةَ ونعيمَها المؤبَّدَ ، والمنازلَ الرفيعةَ عندَ اللهِ . . استحقرَ ما يتعلَّقُ بالخلقِ أيامَ الحياةِ ، معَ ما فيهِ مِنَ الكدوراتِ والمنغِّصاتِ ، واجتمعَ همُّهُ ، وانصرفَ إلى اللهِ قلبُهُ ، وتخلَّصَ مِنْ مذمَّةِ الرياءِ ومقاساةِ قلوبِ الخلقِ ، وانعطفَ مِنْ إخلاصِهِ أنوارٌ على قلبِهِ ينشرحُ بها صدرُهُ ، وينفتحُ بها لهُ مِنْ لطائفِ المكاشفاتِ ما يزيدُ بِهِ أنسُهُ باللهِ واستيحاشُهُ مِنَ الخلقِ ، واستحقارُهُ للدنيا ، واستعظامُهُ للآخرةِ ، وسقطَ محلُّ الخلقِ مِنْ قلبِهِ ، وانحلَّتْ عنهُ داعيةُ الرياءِ ، وتذلَّلَ لهُ منهجُ الإخلاصِ .

فهـٰذا وما قدَّمناهُ في الشطرِ الأولِ هيَ الأدويةُ العلميَّةُ القالعةُ مغارسَ الرياءِ .

---

(١) والقائل هو الأقرع بن حابس ، كما رواه أحمد في « المسند » (٦/ ٣٩٣) دون زيادة : (كذبت) ، وهي عند الروياني في « مسنده » (٣٠٧) .

وأمَّا الدواءُ العمليُّ . . فهوَ أنْ يعوِّدَ نفسَهُ إخفاءَ العباداتِ ، وإغلاقَ الأبوابِ دونَها ، كما تُغلقُ الأبوابُ دونَ الفواحشِ ، حتَّىٰ يقنعَ قلبُهُ بعلمِ اللهِ واطلاعِهِ علىٰ عبادتِهِ ، ولا تنازعَهُ النفسُ إلىٰ طلبِ علمِ غيرِ اللهِ بهِ .

وقدْ رُوِيَ أنَّ بعضَ أصحابِ أبي حفصٍ الحدادِ ذمَّ الدنيا وأهلَها ، فقالَ لهُ أبو حفصٍ : (أظهرتَ ما كانَ سبيلُكَ أنْ تخفيَهُ ، لا تجالسْنا بعدَ هٰذا) ، فلمْ يرخِّصْ في إظهارِ هٰذا القدْرِ ؛ لأنَّ في ضمنِ ذمِّ الدنيا دعوى الزهدِ فيها ، فلا دواءَ للرياءِ مثلُ الإخفاءِ ، وذلكَ يشقُّ في بدايةِ المجاهدةِ ، وإذا صبرَ عليهِ مدَّةً بالتكلُّفِ . . سقطَ عنهُ ثقلُهُ ، وهانَ عليهِ ذلكَ بتواصلِ ألطافِ اللهِ وما يمدُّ بهِ عبادَهُ مِنْ حسنِ التوفيقِ والتأييدِ ، ولكنَّ اللهَ لا يغيِّرُ ما بقومٍ حتَّىٰ يغيِّروا ما بأنفسِهِمْ ، فمِنَ العبدِ المجاهدةُ ومِنَ اللهِ الهدايةُ ، ومِنَ العبدِ قرعُ البابِ ومِنَ اللهِ فتحُ البابِ ، واللهُ لا يضيعُ أجرَ المحسنينَ ، وإنْ تكُ حسنةً . . يضاعفْها ، ويؤتِ مِنْ لدنْهُ أجراً عظيماً .

❊ ❊ ❊

المقامُ الثاني : في دفعِ العارضِ منهُ في أثناءِ العبادةِ :

وذلكَ لا بدَّ مِنْ تعلُّمِهِ أيضاً ، فإنَّ مَنْ جاهدَ نفسَهُ ، وقلعَ مغارسَ الرياءِ مِنْ قلبِهِ بالقناعةِ ، وقطعِ الطمعِ ، وإسقاطِ نفسِهِ مِنْ أعينِ المخلوقينَ ، واستحقارِ مدحِ المخلوقينَ وذمِّهِمْ . . فالشيطانُ لا يتركُهُ في أثناءِ العبادةِ ، بلْ يعارضُهُ بخطراتِ الرياءِ ولا تنقطعُ عنهُ نزغاتُهُ ، وهوى النفسِ وميلُها

لا ينمحي بالكليَّةِ ، فلا بدَّ وأنْ يتشمَّرَ لدفعِ ما يعرضُ مِنْ خاطرِ الرياءِ .

وخواطرُ الرياءِ ثلاثةٌ ، قدْ تخطرُ دفعةً واحدةً كالخاطرِ الواحدِ ، وقدْ تترادفُ على التدريجِ .

فالأولُ : العلمُ باطلاعِ الخلقِ ورجاءُ اطلاعِهِمْ ، ثمَّ يتلوهُ هيجانُ الرغبةِ مِنَ النفسِ في حمدِهِمْ وحصولِ المنزلةِ عندَهمْ ، ثمَّ يتلوهُ قبولُ النفسِ لهُ والركونُ إليهِ ، وعقدُ الضميرِ علىٰ تحقيقِهِ ، **فالأوَّلُ** : معرفةٌ ، **والثاني** : حالةٌ تُسمَّى الشهوةَ والرغبةَ ، **والثالثُ** : فعلٌ يُسمَّى العزمَ وتصميمَ العقدِ .

وإنَّما كمالُ القوةِ في دفعِ الخاطرِ الأوَّلِ وردِّه قبلَ أنْ يتلوَهُ الثاني ، فإذا خطرَ لهُ معرفةُ اطلاعِ الخلقِ أوْ رجاءُ اطلاعِهِمْ . . دفعَ ذلكَ بأنْ قالَ : ما لكَ وللخلقِ ، علموا أوْ لمْ يعلموا واللهُ عالمٌ بحالِكَ ؟! فأيُّ فائدةٍ في علمِ غيرِهِ ؟!

فإنْ هاجَتِ الرغبةُ إلىٰ لذَّةِ الحمدِ . . تذكَّرَ ما رسخَ في قلبهِ مِنْ قبلُ مِنْ آفةِ الرياءِ ، وتعرضِهِ للمقتِ عندَ اللهِ في القيامةِ ، وخيبتِهِ في أحوجِ أوقاتِهِ إلىٰ أعمالِهِ ، فكما أنَّ معرفةَ اطلاعِ الناسِ تثيرُ شهوةً ورغبةً في الرياءِ . . فمعرفةُ آفةِ الرياءِ تثيرُ كراهةً لهُ تقابلُ تلكَ الشهوةَ ؛ إذْ يتفكرُ في تعرُّضِهِ لمقتِ اللهِ وعقابِهِ الأليمِ ، والشهوةُ تدعوهُ إلى القبولِ ، والكراهةُ تدعوهُ إلى الإباءِ ، والنفسُ تطاوعُ ـ لا محالةَ ـ أقواهُما وأغلبَهُما .

فإذاً ؛ لا بدَّ في ردِّ الرياءِ مِنْ ثلاثةِ أمورٍ : المعرفةِ ، والكراهةِ، والإباءِ .

وقدْ يشرعُ العبدُ في العبادةِ علىٰ عزمِ الإخلاصِ ، ثمَّ يرِدُ خاطرُ الرياءِ فيقبلُهُ ، ولا تحضرُهُ المعرفةُ ولا الكراهةُ التي كانَ الضميرُ منطوياً عليها ، وإنَّما سببُ ذلكَ امتلاءُ القلبِ بخوفِ الذمِّ وحبِّ الحمدِ ، واستيلاءُ الحرصِ عليهِ ؛ بحيثُ لا يبقىٰ في القلبِ متّسعٌ لغيرِهِ ، فتعزبُ عنِ القلبِ المعرفةُ السابقةُ بآفاتِ الرياءِ وشؤمِ عاقبتِهِ ؛ إذْ لمْ يبقَ موضعٌ في القلبِ خالٍ عنْ شهوةِ الحمدِ أوْ خوفِ الذمِّ ، وهوَ كالذي يحدِّثُ نفسَهُ بالحلمِ وذمِّ الغضبِ ، ويعزمُ على التحلُّمِ عندَ جريانِ سببِ الغضبِ ، ثمَّ يجري مِنَ الأسبابِ ما يشتدُّ بهِ غضبُهُ ، فينسىٰ سابقَ عزمِهِ ، ويمتلىءُ قلبُهُ غيظاً يمنعُ مِنْ تذكُّرِ آفةِ الغضبِ ، ويشتغلُ عنهُ ، فكذلكَ حلاوةُ الشهوةِ تملأُ القلبَ وتدفعُ نورَ المعرفةِ مثلَ مرارةِ الغضبِ ، وإليهِ أشارَ جابرٌ بقولِهِ : بايعْنا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ تحتَ الشجرةِ علىٰ ألا نفرَّ ، ولمْ نبايعْهُ على الموتِ ، فأُنسيناها يومَ حنينٍ ، حتَّىٰ نُوديَ : يا أصحابَ الشجرةِ ؛ فرجعوا[1] ، وذلكَ لأنَّ القلوبَ امتلأَتْ بالخوفِ فنسيَتِ العهدَ السابقَ ، حتىٰ ذُكِّروا ، وأكثرُ الشهواتِ التي تهجمُ فجأةً هـٰكذا تكونُ ؛ إذْ تنسي معرفةَ مضرتِهِ

---

(١) كذا في « الرعاية » (ص ١٨٦) ، وهو مجموع حديثين رواهما مسلم (١٨٥٦ ، ١٧٧٥) ، فالأول من حديث جابر رضي الله عنه قال : (كنا يوم الحديبية ألفاً وأربع مئة ، فبايعناه وعمر آخذ بيده تحت الشجرة وهي سَمُرة ، وقال : بايعناه علىٰ ألا نفر ، ولم نبايعه على الموت) ، والثاني من حديث العباس رضي الله عنه ، وفيه ذكر إدبار المسلمين يوم حنين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتىٰ أمر العباس أن ينادي أصحاب السمرة ، فلما ناداهم . . عادوا كحنين البقر إلىٰ أولادها .

الداخلةِ في عقدِ الإيمانِ ، ومهما نسيَ المعرفةَ . . لمْ تظهرِ الكراهةُ ، فإنَّ الكراهةَ ثمرةُ المعرفةِ .

وقدْ يتذكَّرُ الإنسانُ فيعلمُ أنَّ الخاطرَ الذي خطرَ لهُ هوَ خاطرُ الرياءِ الذي يعرِّضُهُ لسخطِ اللهِ ، ولكنْ يستمرُّ عليهِ لشدَّةِ شهوتِهِ ، فيغلبُ هواهُ عقلَهُ ، ولا يقدرُ علىٰ تركِ لذَّةِ الحالِ ، فيسوِّفُ بالتوبةِ ، أوْ يتشاغلُ عنِ التفكُّرِ في ذلكَ لشدَّةِ الشهوةِ ، فكمْ مِنْ عالمٍ يحضرُهُ كلامٌ لا يدعوهُ إلى النطقِ بهِ إلا رياءُ الخلقِ ، وهوَ يعلمُ ذلكَ ، ولكنَّهُ يستمرُّ عليهِ ، فتكونُ الحجةُ عليهِ أوكدَ ؛ إذْ قبلَ داعيَ الرياءِ معَ علمِهِ بغائلتِهِ وكونِهِ مذموماً عندَ اللهِ ، ولا تنفعُهُ معرفتُهُ إذا خلَتِ المعرفةُ عنِ الكراهةِ .

وقدْ تحضرُ المعرفةُ والكراهةُ ، ولكنْ معَ ذلكَ يقبلُ داعيَ الرياءِ ويعملُ بهِ ؛ لكونِ الكراهةِ ضعيفةً بالإضافةِ إلىٰ قوةِ الشهوةِ ، وهٰذا أيضاً لا ينتفعُ بكراهتِهِ ؛ إذِ الغرضُ مِنَ الكراهةِ أنْ تصرفَ عنِ الفعلِ .

فإذاً ؛ لا فائدةَ إلا في اجتماعِ الثلاثِ ، وهيَ : المعرفةُ ، والكراهةُ ، والإباءُ ، فالإباءُ ثمرةُ الكراهةِ ، والكراهةُ ثمرةُ المعرفةِ ، وقوةُ المعرفةِ بحسبِ قوةِ الإيمانِ ونورِ العلمِ ، وضعفُ المعرفةِ بحسبِ الغفلةِ ، وحبِّ الدنيا ونسيانِ الآخرةِ ، وقلةِ التفكرِ فيما عندَ اللهِ ، وقلةِ التأملِ في آفاتِ الحياةِ الدنيا وعظمِ نعيمِ الآخرةِ ، وبعضُ ذلكَ ينتجُ بعضاً ويثمرُهُ ، وأصلُ ذلكَ كلِّهِ حبُّ الدنيا وغلبةُ الشهواتِ ، فهوَ رأسُ كلِّ خطيئةٍ ، ومنبعُ كلِّ ذنبٍ ؛ لأنَّ حلاوةَ حبِّ الجاهِ والمنزلةِ ونعيمِ الدنيا هيَ التي تغمرُ القلبَ

وتسلبُهُ ، وتحولُ بينَهُ وبينَ التفكُّرِ في العاقبةِ ، والاستضاءةِ بنورِ الكتابِ والسنةِ وأنوارِ العلومِ .

* * *

فإنْ قلتَ : فمَنْ صادفَ مِنْ نفسِهِ كراهةَ الرياءِ ، وحملَتْهُ الكراهةُ على الإباءِ ، ولكنَّهُ معَ ذلكَ غيرُ خالٍ عنْ ميلِ الطبعِ إليهِ وحبِّهِ لهُ ومنازعتِهِ إيَّاهُ ، إلا أنَّهُ كارهٌ لحبِّهِ ولميلِهِ وغيرُ محبٍ إليهِ . . فهلْ يكونُ في زمرةِ المرائينَ ؟

فاعلمْ : أنَّ اللهَ تعالىٰ لمْ يكلِّفِ العبدَ إلا ما يطيقُ ، وليسَ في طاقةِ العبدِ منعُ الشيطانِ عنْ نزغاتِهِ ، ولا قمعُ الطبعِ حتَّىٰ لا يميلَ إلى الشهواتِ ولا ينزِعَ إليها ، وإنَّما غايتُهُ أنْ يقابلَ شهوتَهُ بكراهةٍ استثارَها مِنْ معرفةِ العواقبِ وعلمِ الدينِ ، وأصولِ الإيمانِ باللهِ واليومِ الآخرِ ، فإذا فعلَ ذلكَ . . فهوَ الغايةُ في أداءِ ما كُلِّفَهُ .

ويدلُّ علىٰ ذلكَ مِنَ الأخبارِ ما رُوِيَ أنَّ أصحابَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ شكَوا إليهِ وقالوا : تعرضُ لقلوبِنا أشياءُ لأَنْ نخرَّ مِنَ السماءِ فتخطفَنا الطيرُ أوْ تهويَ بنا الريحُ في مكانٍ سحيقٍ . . أحبُّ إلينا مِن أنْ نتكلَّمَ بها ، فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « أَوَقدْ وجدتُموهُ ؟ » قالوا : نعمْ ، قال : « ذلكَ صريحُ الإيمانِ »[1] ، ولمْ يجدوا إلا الوسواسَ والكراهةَ لهُ .

---

(١) رواه مسلم (١٣٢) ، وابن حبان في « صحيحه » (١٤٩) ، وهو الحديث المنعوت بحديث الوسوسة .

ولا يمكنُ أنْ يُقالَ : أرادَ بـ(صريحُ الإيمانِ) : الوسوسةَ ؛ فلمْ يبقَ إلا حملُهُ على الكراهةِ المساوقةِ للوسوسةِ ، والرياءُ وإنْ كانَ عظيماً . . فهوَ دونَ الوسوسةِ في حقِّ اللهِ تعالىٰ ، فإذا اندفعَ ضررُ الأعظمِ بالكراهةِ . . فبأنْ يندفعَ بها ضررُ الأصغرِ أولىٰ .

وكذلك يُروىٰ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في حديثِ ابنِ عباسٍ أنَّهُ قالَ : « الحمدُ للهِ الذي ردَّ كيدَ الشيطانِ إلى الوسوسةِ »[(١)] .

وقالَ أبو حازمٍ : (ما كانَ مِنْ نفسِكَ فكرهَتْهُ نفسُكَ لنفسِكَ . . فلا يضرُّكُ ما هوَ مِنْ عدوِّكَ ، وما كانَ مِنْ نفسِكَ فرضيَتْهُ نفسُكَ لنفسِكَ . . فعاتبْها عليهِ)[(٢)] .

* * *

فإذاً ؛ وسوسةُ الشيطانِ ومنازعةُ النفسِ لا تضرُّكَ مهما رددتَ مرادَهُما بالإباءِ والكراهةِ ، والخواطرُ التي هيَ العلومُ والتذكراتُ والتخيلاتُ للأسبابِ المهيجةِ للرياءِ هيَ مِنَ الشيطانِ ، والرغبةُ والميلُ بعدَ تلكَ الخواطرِ مِنَ النفسِ ، والكراهةُ مِنَ الإيمانِ ومِنْ آثارِ العقلِ .

---

(١) رواه أبو داوود (٥١١٢) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (١٠٤٣٤) ، وكان جواباً عن شكواهم تلك .

(٢) كذا في « الرعاية » (ص ١٨٨) ، وقال : (وقال زيد بن أسلم مثل ذلك) ، وهو عن زيد بن أسلم رواه ابن المبارك في « الزهد » (٨٣١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/٢٢١) .

إلا أنَّ للشيطانِ هٰهنا مكيدةً ؛ وذلكَ أنَّهُ إذا عجزَ عنْ حملِهِ علىٰ قبولِ الرياءِ . . خيَّلَ إليهِ أنَّ صلاحَ قلبِهِ في الاشتغالِ بمجادلةِ الشيطانِ ، ومطاولتِهِ في الردِّ والجدالِ ، حتَّىٰ يسلبَهُ ثوابَ الإخلاصِ وحضورَ القلبِ ؛ لأنَّ الاشتغالَ بمجادلةِ الشيطانِ ومدافعتِهِ انصرافٌ عنْ سرِّ المناجاةِ معَ اللهِ تعالىٰ ، فيوجبُ ذلكَ نقصاناً في منزلتِهِ عندَ اللهِ تعالىٰ .

❁ ❁ ❁

والمتخلصونَ عنِ الرياءِ في دفعِ خواطرِ الرياءِ علىٰ أربعِ مراتبَ :

الرتبةُ الأولىٰ : أنْ يردَّ على الشيطانِ مكيدتَهُ فيكذبَهُ ، ولا يقتصرُ عليهِ ، بلْ يشتغلُ بمجادلتِهِ ، ويطيلُ الجدالَ معَهُ ؛ لظنِّهِ أنَّ ذلكَ أسلمُ لقلبِهِ ، وهوَ على التحقيقِ نقصانٌ ؛ لأنَّهُ اشتغلَ عنْ مناجاةِ اللهِ تعالىٰ وعنِ الخيرِ الذي هوَ بصددِهِ ، وانصرفَ إلىٰ قتالِ قطَّاعِ الطريقِ ، والتعريجُ علىٰ قتالِ قطَّاعِ الطريقِ نقصانٌ في السلوكِ .

الرتبةُ الثانيةُ : أنْ يعرفَ أنَّ الجدالَ والقتالَ نقصانٌ في السلوكِ ، فيقتصرُ علىٰ تكذيبِهِ ودفعِهِ ، ولا يشتغلُ بمجادلتِهِ .

الرتبةُ الثالثةُ : ألاَّ يشتغلَ بتكذيبِهِ أيضاً ؛ لأنَّ ذلكَ وقفةٌ وإنْ قلَّتْ ، بلْ يكونُ قدْ قرَّرَ في عقدِ ضميرِهِ كراهةَ الرياءِ وكذبَ الشيطانِ ، فيستمرُّ علىٰ ما كانَ عليهِ مستصحباً للكراهةِ غيرَ مشتغلٍ بالتكذيبِ ولا بالمخاصمةِ .

الرتبةُ الرابعةُ : أنْ يكونَ قدْ علمَ أنَّ الشيطانَ سيحسدُهُ عندَ جريانِ أسبابِ

الرياءِ ، فيكونَ قدْ عزمَ علىٰ أنَّهُ مهما نزغَ الشيطانُ . . زادَ فيما هوَ فيهِ مِنَ الإخلاصِ والاشتغالِ باللهِ تعالىٰ ، وإخفاءِ الصدقةِ والعبادةِ ؛ غيظاً للشيطانِ ، وذلكَ هوَ الذي يغيظُ الشيطانَ ويقمعُهُ ، ويوجبُ يأسَهُ وقنوطَهُ حتَّىٰ لا يرجعَ .

يُروىٰ عنِ الفضيلِ بنِ غَزْوانَ أنَّهُ قيلَ لهُ : إنَّ فلاناً ذكرَكَ ، فقالَ : واللهِ ؛ لأغيظنَّ مَنْ أمرَهُ ، قيلَ : ومَنْ أمرَهُ ؟ قالَ : الشيطانُ ، ثمَّ قالَ : اللهمَّ ؛ اغفرْ لهُ ؛ أي : لأغيظَنَّهُ بأنْ أطيعَ اللهَ فيهِ(١) .

ومهما عرفَ الشيطانُ مِنْ عبدٍ هـٰذهِ العادةَ . . كفَّ عنهُ ؛ خيفةً مِنْ أنْ يزيدَ في حسناتِهِ .

وقالَ إبراهيمُ التيميُّ : (إنَّ الشيطانَ ليدعو العبدَ إلى البابِ مِنَ الإثمِ ، فلا يطيعُهُ ويحدثُ عندَ ذلكَ خيراً ، فإذا رآهُ كذلكَ . . تركَهُ)(٢) .

وقالَ أيضاً : (إذا رآكَ الشيطانُ متردداً . . طمعَ فيكَ ، وإذا رآكَ مداوماً . . ملَّكَ وقلاكَ)(٣) .

وضربَ الحارثُ المحاسبيُّ رحمَهُ اللهُ لهـٰذهِ الأربعةِ مثالاً أحسنَ فيهِ فقالَ : مثالُهُمْ كأربعةٍ قصدوا مجلساً مِنَ العلمِ والحديثِ ؛ لينالوا بهِ فائدةً

---

(١) كذا في « الرعاية » (ص ١٩٥) ، وبنحوه رواه ابن المبارك في « الزهد » (٦٧٠) .
(٢) الرعاية (ص ١٩٥) ، وزاد : (ثم يدعوه إلى الباب من الإثم ، فلا يطيعه ، ويحدث عند ذلك خيراً ، فإذا رآه كذلك . . تركه) .
(٣) الرعاية (ص ١٩٥) .

وفضلاً ، وهدايةً ورشداً ، فحسدَهُمْ علىٰ ذلك ضالٌّ مبتدعٌ ، وخافَ أنْ يعرفوا الحقَّ ، فتقدَّمَ إلىٰ واحدٍ منهُمْ ليمنعَهُ ويصرفَهُ عنهُ ، ودعاهُ إلىٰ مجلسِ ضلالٍ فأبىٰ ، فلمَّا عرفَ إباءَهُ . . شغلَهُ بالمجادلةِ ، فاشتغلَ معَهُ ليردَّ ضلالَهُ وهوَ يظنُّ أنَّ ذلكَ مصلحةٌ ، وهوَ غرضُ الضالِّ ليفوتَ عليهِ بقدْرِ تأخرِهِ .

فلمَّا مرَّ الثاني عليهِ . . نهاهُ واستوقفَهُ فوقفَ ، فدفعَ في نحرِ الضالِّ ولمْ يشتغلْ بالقتالِ واستعجلَ ، ففرحَ منهُ الضالُّ بقدْرِ توقُّفِهِ للدَّفعِ فيهِ .

ومرَّ بهِ الثالثُ ، فلمْ يلتفتْ إليهِ ، ولمْ يشتغلْ بدفعِهِ ولا بقتالِهِ ، بلِ استمرَّ علىٰ ما كانَ ، فخابَ منهُ رجاؤُهُ بالكليَّةِ .

فمرَّ الرابعُ فلمْ يتوقَّفْ لهُ ، وأرادَ أنْ يغيظَهُ فزادَ في عجلتِهِ وتركَ التأنِّيَ في المشيِ .

فيوشكُ إنْ عادوا ومرُّوا عليهِ مرةً أخرىٰ أنْ يعاودَ الجميعَ إلا هـٰذا الأخيرَ ، فإنَّهُ لا يعاودُهُ ؛ خيفةً مِنْ أنْ يزدادَ فائدةً باستعجالِهِ[1] .

* * *

فإنْ قلتَ : الشيطانُ إذا كانَ لا تُؤمنُ نزغاتُهُ . . فهلْ يجبُ الترصدُ لهُ قبلَ حضورِهِ للحذرِ منهُ ؛ انتظاراً لورودِهِ ، أمْ يجبُ التوكلُ على اللهِ ليكونَ هوَ الدافعَ لهُ ، أوْ يجبُ الاشتغالُ بالعبادةِ والغفلةُ عنهُ ؟[2] .

---

(١) الرعاية (ص ١٩٥) .
(٢) الرعاية (ص ١٩٦) .

قلنا : اختلفَ الناسُ فيهِ علىٰ ثلاثةِ أوجهٍ :

فذهبَتْ فرقةٌ مِنْ أهلِ البصرةِ إلىٰ أنَّ الأقوياءَ قدِ استغنَوا عنِ الحذرِ مِنَ الشيطانِ ؛ لأنَّهُمُ انقطعوا إلى اللهِ تعالىٰ ، واشتغلوا بحبِّهِ ، فاعتزلَهُمُ الشيطانُ وأيسَ منهُمْ وخنسَ عنهُمْ ؛ كما أيسَ مِنْ ضعفاءِ العبادِ في الدعوةِ إلى الخمرِ والزنا ، فصارَتْ ملاذُّ الدنيا عندَهُمْ ـ وإنْ كانَتْ مباحةً ـ كالخمرِ والخنزيرِ ، وإذْ خلَوا مِنْ حبِّها بالكليَّةِ . . لمْ يبقَ للشيطانِ إليهِمْ سبيلٌ ، فلا حاجةَ بهِمْ إلى الحذرِ .

وذهبَتْ فرقةٌ مِنْ أهلِ الشامِ إلىٰ أنَّ الترصدَ للحذرِ منهُ إنَّما يحتاجُ إليهِ مَنْ قلَّ يقينُهُ ، ونقصَ توكُّلُهُ ، فمَنْ أيقنَ بأنْ لا شريكَ للهِ في تدبيرِهِ . . فلا يحذرُ غيرَهُ ، ويعلمُ أنَّ الشيطانَ ذليلٌ مخلوقٌ ليسَ إليهِ أمرٌ ، ولا يكونُ إلا ما أرادَهُ اللهُ تعالىٰ ، فهو الضارُّ والنافعُ ، والعارفُ يستحيي مِنَ اللهِ تعالىٰ أنْ يحذرَ غيرَهُ ، فاليقينُ بالوحدانيَّةِ يغنيهِ عنِ الحذرِ .

وقالَتْ فرقةٌ مِنْ أهلِ العلمِ : لا بدَّ مِنَ الحذرِ مِنَ الشيطانِ .

وما ذكرَهُ البصريونَ مِنْ أنَّ الأقوياءَ قدِ استغنَوا عنِ الحذرِ ، وخلَتْ قلوبُهُمْ عنْ حبِّ الدنيا بالكلِّيَّةِ وهيَ وسيلةُ الشيطانِ . . يكادُ يكونُ غروراً ؛ إذِ الأنبياءُ عليهِمُ السلامُ لمْ يتخلَّصوا مِنْ وساوسِ الشيطانِ ونزغاتِهِ ، فكيفَ يتخلَّصُ غيرُهُمْ؟!

وليسَ كلُّ وسواسِ الشيطانِ مِنَ الشهواتِ وحبِّ الدنيا ، بلْ في

صفاتِ اللهِ تعالىٰ وأسمائِهِ ، وفي تحسينِ البدعِ والضلالِ وغيرِ ذلكَ ، ولا ينجو أحدٌ مِنَ الخطرِ فيهِ ، ولذلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّهُ ليُغانُ علىٰ قلبي »[1] ، معَ أنَّ شيطانَهُ قدْ أسلمَ ولا يأمرُهُ إلا بخيرٍ ، فمَنْ ظنَّ أنَّ اشتغالَهُ بحبِّ اللهِ أكثرُ مِنِ اشتغالِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وسائرِ الأنبياءِ عليهِمُ السلامُ . . فهوَ مغرورٌ ، ولمْ يؤمِّنْهُمْ ذلكَ مِنْ كيدِ الشيطانِ ؛ ولذلكَ لمْ يسلمْ منهُ آدمُ وحواءُ في الجنَّةِ التي هيَ دارُ الأمنِ والسرورِ بعدَ أنْ قالَ اللهُ تعالىٰ لهُما : ﴿ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ۝ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ معَ أنَّهُ لمْ يُنهَ إلا عنْ شجرةٍ واحدةٍ ، وأُطلقَ لهُ وراءَ ذلكَ ما أرادَ ، فإذا لمْ يأمنْ نبيٌّ مِنَ الأنبياءِ وهوَ في الجنةِ دارِ الأمنِ والسعادةِ مِنْ كيدِ الشيطانِ . . فكيفَ يجوزُ لغيرِهِ أنْ يأمنَ في دارِ الدنيا وهيَ منبعُ الفتنِ والمحنِ ومعدِنُ الملاذِّ والشهواتِ المنهيِّ عنها ؟!

وقالَ موسىٰ عليهِ السلامُ فيما أخبرَ عنهُ اللهُ تعالىٰ : ﴿ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ .

ولذلكَ حذَّرَ اللهُ منهُ جميعَ الخلقِ فقالَ تعالىٰ : ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ

---

(١) رواه مسلم (٢٧٠٢) .

ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ ، وقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡ﴾ ، والقرآنُ مِنْ أولِهِ إلىٰ آخرِهِ تحذيرٌ مِنَ الشيطانِ ؛ فكيفَ يُدَّعى الأمنُ منهُ ؟!

وأخذُ الحذرِ مِنْ حيثُ أمرَ اللهُ تعالىٰ بهِ لا ينافي الاشتغالَ بحبِّ اللهِ ؛ فإنَّ مِنَ الحبِّ لهُ امتثالَ أمرِهِ ، وقدْ أمرَ بالحذرِ مِنَ العدوِّ ، كما أمرَ بالحذرِ مِنَ الكفارِ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿وَلۡيَأۡخُذُواْ حِذۡرَهُمۡ وَأَسۡلِحَتَهُمۡ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ﴾ فإذا لزمَكَ بأمرِ اللهِ الحذرُ مِنَ العدوِّ الكافرِ وأنتَ تراهُ .. فبأنْ يلزمَكَ الحذرُ مِنْ عدوٍّ يراكَ ولا تراهُ أولىٰ ؛ ولذلكَ قالَ ابنُ محيريزٍ : (صيدٌ تراهُ ولا يراكَ يوشكُ أنْ تظفرَ بهِ ، وصيدٌ يراكَ ولا تراهُ يوشكُ أنْ يظفرَ بكَ)[1] ، فأشارَ إلى الشيطانِ ، فكيفَ وليسَ في الغفلةِ عنْ عداوةِ الكافرِ إلا قتلٌ هوَ شهادةٌ ، وفي إهمالِ الحذرِ مِنَ الشيطانِ التعرضُ للنارِ والعقابُ الأليمُ ؟!

فليسَ مِنَ الاشتغالِ باللهِ الإعراضُ عمَّا حذَّرَ اللهُ ، وبهِ يبطلُ مذهبُ الفرقةِ الثانيةِ في ظنِّهِمْ أنَّ ذلكَ قادحٌ في التوكلِ ؛ فإنَّ أخذَ الترسِ والسلاحِ ، وجمعَ الجنودِ ، وحفرَ الخندقِ .. لمْ يقدحْ في توكُّلِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فكيفَ يقدحُ في التوكُّلِ الخوفُ ممَّا خوَّفَ اللهُ بهِ ، والحذرُ ممَّا أمرَ اللهُ بالحذرِ منهُ ؟!

---

(١) الرعاية (ص ٢٠٠) بنحوه .

وقدْ ذكرنا في كتابِ التوكُّلِ ما يبيِّنُ غلطَ مَنْ ظنَّ أنَّ معنى التوكُّلِ النزوعُ عنِ الأسبابِ بالكليَّةِ .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ لا يناقضُ امتثالَ التوكُّلِ مهما اعتقدَ القلبُ أنَّ الضارَّ والنافعَ والمحييَ والمميتَ هوَ اللهُ تعالىٰ ، فكذلكَ يحذرُ الشيطانَ ويعتقدُ أنَّ المضلَّ والهاديَ هوَ اللهُ ؛ ويرى الأسبابَ وسائطَ مسخرةً كما ذكرناهُ في كتابِ التوكُّلِ ، وهـٰذا ما اختارَهُ الحارثُ المحاسبيُّ رحمَهُ اللهُ(١) ، وهوَ الصحيحُ الذي يشهدُ لهُ نورُ العلمِ ، وما قبلَهُ يشبهُ أنْ يكونَ مِنْ كلامِ العبَّادِ الذينَ لمْ يغزُرْ علمُهُمْ ، ويظنُّونَ أنَّ ما يهجمُ عليهِمْ مِنَ الأحوالِ في بعضِ الأوقاتِ مِنَ الاستغراقِ باللهِ يستمرُّ على الدوامِ ، وهوَ بعيدٌ .

ثمَّ اختلفَتْ هـٰذهِ الفرقةُ علىٰ ثلاثةِ أوجهٍ في كيفيةِ الحذرِ :

فقالَ قومٌ : إذا حذَّرَنا اللهُ تعالى العدوَّ . . فلا ينبغي أنْ يكونَ شيءٌ أغلبَ علىٰ قلوبِنا مِنْ ذكرِهِ والحذرِ منهُ والترصدِ لهُ ؛ فإنَّا إنْ غفلنا عنهُ لحظةً . . فيوشكُ أنْ يهلكَنا .

وقالَ قومٌ : إنَّ ذلكَ يؤدي إلىٰ خلوِّ القلبِ عنْ ذكرِ اللهِ تعالىٰ ، واشتغالِ الهمِّ كلِّهِ بالشيطانِ ، وذلكَ مرادُ الشيطانِ منَّا ، بلْ نشتغلُ بالعبادةِ وبذكرِ اللهِ تعالىٰ ، ولا ننسى الشيطانَ وعداوتَهُ ، والحاجةَ إلى الحذرِ منهُ ؛ فنجمعُ بينَ

---

(١) كما في « الرعاية » (ص ١٩٦ـ ٢٠٢) .

الأمرين فإنَّا إنْ نسيناهُ.. ربَّما عرضَ مِنْ حيثُ لا نحتسبُ ، وإنْ تجردنا لذكرِهِ.. كنَّا قدْ أهملنا ذكرَ اللهِ ، فالجمعُ أولىٰ .

وقالَ العلماءُ المحققونَ : غلطَ الفريقانِ ، أمَّا الأولُ.. فقدْ تجرَّدَ لذكرِ الشيطانِ ونسيَ ذكرَ اللهِ ، فلا يخفىٰ غلطُهُ ، وإنَّما أُمرنا بالحذرِ مِنَ الشيطانِ ؛ كي لا يصدَّنا عنِ الذكرِ ، فكيفَ نجعلُ ذكرَهُ أغلبَ الأشياءِ علىٰ قلوبنا وهوَ منتهىٰ غرضِ العدوِّ ؟! ثمَّ يؤدي ذلكَ إلىٰ خلوِّ القلبِ عنْ نورِ ذكرِ اللهِ تعالىٰ ، فإذا قصدَ الشيطانُ مثلَ هٰذا القلبِ وليسَ فيهِ نورُ ذكرِ اللهِ تعالىٰ وقوةُ الاشتغالِ بهِ.. فيوشكُ أنْ يظفرَ بهِ ، ولا يقوىٰ علىٰ دفعِهِ ، فلمْ نُؤمرْ بانتظارِ الشيطانِ ولا بإدمانِ ذكرِهِ .

وأمَّا الفرقةُ الثانيةُ : فقدْ شاركَتِ الأولىٰ ؛ إذْ جمعَتْ في القلبِ بينَ ذكرِ اللهِ والشيطانِ ، وبقدْرِ ما يشتغلُ القلبُ بذكرِ الشيطانِ ينقصُ مِنْ ذكرِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وقدْ أمرَ اللهُ الخلقَ بذكرِهِ ونسيانِ ما عداهُ ؛ إبليسَ وغيرَهُ .

فالحقُّ : أنْ يلزمَ العبدُ قلبَهُ الحذرَ مِنَ الشيطانِ ، ويقرِّرَ علىٰ نفسِهِ عداوتَهُ ، فإذا اعتقدَ ذلكَ وصدقَ بهِ ، وسكنَ الحذرُ فيهِ.. فليشتغلْ بذكرِ اللهِ ، ويكبَّ عليهِ بكلِّ الهمةِ ، ولا يخطِرْ ببالِهِ أمرَ الشيطانِ ؛ فإنَّهُ إذا اشتغلَ بذلكَ بعدَ معرفةِ عداوتِهِ ثمَّ خطرَ الشيطانُ لهُ.. تنبهَ لهُ ، وعندَ التنبُّهِ يشتغلُ بدفعِهِ ، والاشتغالُ بذكرِ اللهِ لا يمنعُ مِنَ التيقُّظِ عندَ نزغةِ الشيطانِ ، بلِ الرجلُ ينامُ وهوَ خائفٌ مِنْ أنْ يفوتَهُ مهمٌّ عندَ طلوعِ الصبحِ ، فيلزِمُ نفسَهُ

الحذرَ ، وينامُ علىٰ أنْ يتنبَّهَ في ذلكَ الوقتِ ، فيتنبهُ في الليلِ مراتٍ قبلَ أوانِهِ ؛ لما استكنَّ في قلبِهِ مِنَ الحذرِ ، معَ أنَّهُ بالنومِ غافلٌ عنهُ ، فاشتغالُهُ بذكرِ اللهِ تعالىٰ كيفَ يمنعُ تنبُّهَهُ ؟! ومثلُ هـٰذا القلبِ هوَ الذي يقوىٰ علىٰ دفعِ العدوِّ إذا كانَ اشتغالُهُ بمجرَّدِ ذكرِ اللهِ تعالىٰ قدْ أماتَ منهُ الهوىٰ ، وأحيا فيهِ نورَ العقلِ والعلمِ ، وأماطَ عنهُ ظلمةَ الشهواتِ .

فأهلُ البصيرةِ أشعروا قلوبَهُمْ عداوةَ الشيطانِ وترصُّدَهُ ، وألزموها الحذرَ ، ثمَّ لمْ يشتغلوا بذكرِهِ ، بلْ بذكرِ اللهِ ، ودفعوا بالذكرِ شرَّ العدوِّ واستضاؤوا بنورِ الذكرِ حتَّىٰ أبصروا خواطرَ العدوِّ ، فمثالُ القلبِ مثالُ بئرٍ أُريدَ تطهيرُها مِنَ الماءِ القذرِ ؛ ليتفجَّرَ منها الماءُ الصافي ، فالمشتغلُ بذكرِ الشيطانِ قدْ تركَ فيها الماءَ القذرَ ، والذي جمعَ بينَ ذكرِ الشيطانِ وذكرِ اللهِ قدْ نزحَ الماءَ القذرَ مِنْ جانبٍ ، ولكنَّهُ تركَهُ جارياً إليها مِنْ جانبٍ آخرَ ، فيطولُ تعبُهُ ، ولا تجفُّ البئرُ منَ الماءِ القذرِ ، والبصيرُ هوَ الذي جعلَ لمجرى الماءِ القذرِ سدّاً ، وملأَهُ بالماءِ الصافي ، فإذا جاءَ الماءُ القذرُ . . دفعَهُ بالسكرِ والسَّدِّ مِنْ غيرِ كلفةٍ ومؤنةٍ وزيادةِ تعبٍ .

* * *

بيان الرخصة في قصد إظهار الطاعات

اعلمْ : أنَّ في الإسرارِ للأعمالِ فائدةَ الإخلاصِ والنجاةِ مِنَ الرياءِ ، وفي الإظهارِ فائدةَ الاقتداءِ وترغيبِ الناسِ في الخيرِ ، ولكنْ فيهِ آفةُ الرياءِ ، قالَ الحسنُ : (قدْ علمَ المسلمونَ أنَّ السرَّ أحرزُ العملينِ)[1] .

ولكنْ في الإظهارِ أيضاً فائدةٌ ، ولذلكَ أثنى اللهُ تعالىٰ على السرِّ والعلانيةِ ، فقالَ : ﴿ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَـٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ .

والإظهارُ قسمانِ :

أحدُهُما : في نفسِ العملِ ، والآخرُ : بالتحدُّثِ بما عملَ .

❀ ❀ ❀

القسمُ الأوَّلُ : إظهارُ نفسِ العملِ :

كالصدقةِ في الملأِ لترغيبِ الناسِ في ذلكَ ؛ كما رُويَ عنِ الأنصاريِّ الذي جاءَ بالصُّرَّةِ ، فتتابعَ الناسُ بالعطيةِ لمَّا رأَوهُ ، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ سنَّ سنَّةً حسنةً فعُمِلَ بها.. كانَ لهُ أجرُها وأجرُ مَنِ اتَّبعَهُ »[2] .

---

(١) الرعاية (ص ٢٦٤) ، وبنحوه رواه أحمد في « الزهد » (ص ٢١٢) .

(٢) رواه مسلم (١٠١٧) .

وتجري سائرُ الأعمالِ هٰذا المجرىٰ مِنَ الصلاةِ والصيامِ والحجِّ والغزوِ وغيرِها ، ولكنَّ الاقتداءَ على الطباعِ في الصدقةِ أغلبُ .

نعم ، الغازي إذا همَّ بالخروجِ ، فاستعدَّ وشدَّ الرَّحلَ قبلَ القومِ تحريضاً لهُمْ على الحركةِ . . فذلكَ أفضلُ لهُ ؛ لأنَّ الغزوَ في أصلِهِ مِنْ أعمالِ العلانيةِ لا يمكنُ إسرارُهُ ، فالمبادرةُ إليهِ ليسَ مِنَ الإعلانِ ، بلْ هوَ تحريضٌ مجردٌ ، وكذلكَ الرجلُ قدْ يرفعُ صوتَهُ في صلاةِ الليلِ ؛ لينبِّهَ جيرانَهُ وأهلَهُ فيُقتدىٰ بهِ .

فكلُّ عملٍ لا يمكنُ إسرارُهُ ؛ كالحجِّ والجهادِ والجمعةِ . . فالأفضلُ المبادرةُ إليهِ وإظهارُ الرغبةِ فيهِ للتحريضِ ، بشرطِ ألا يكونَ فيهِ شوائبُ الرياءِ .

وأمَّا ما يمكنُ إسرارُهُ ؛ كالصدقةِ والصلاةِ ؛ فإنْ كانَ إظهارُ الصدقةِ يؤذي المتصدَّقَ عليهِ ويرغِّبُ الناسَ في الصدقةِ . . فالسرُّ أفضلُ ؛ لأنَّ الإيذاءَ حرامٌ ، فإنْ لمْ يكنْ فيهِ إيذاءٌ . . فقدِ اختلفَ الناسُ في الأفضلِ ، فقالَ قومٌ : السرُّ أفضلُ مِنَ العلانيةِ وإنْ كانَ في العلانيةِ قدوةٌ ، وقالَ قومٌ : السرُّ أفضلُ مِنْ علانيةٍ لا قدوةَ فيها ، أمَّا العلانيةُ للقدوةِ . . فأفضلُ مِنَ السرِّ ، ويدلُّ علىٰ ذلكَ أنَّ اللهَ تعالىٰ أمرَ أنبياءَهُ بإظهارِ العملِ للاقتداءِ ، وخصَّهُمْ بمنصبِ النبوَّةِ ، ولا يجوزُ أنْ يُظنَّ بهِمْ أنَّهُمْ حُرموا أفضلَ العملينِ ، ويدلُّ عليهِ قولُهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « لهُ أجرُها وأجرُ مَنْ عملَ بها » .

وقدْ رُوِيَ في بعضِ الحديثِ : أنَّ عملَ السرِّ يُضاعفُ علىٰ عملِ العلانيةِ سبعينَ ضعفاً ، ويُضاعفُ عملُ العلانيةِ إذا استنَّ بعاملِهِ علىٰ عملِ السرِّ سبعينَ ضعفاً[1] .

وهٰذا لا وجهَ للخلافِ فيهِ ؛ فإنَّهُ مهما انفكَّ القلبُ عنْ شوائبِ الرياءِ ، وتمَّ الإخلاصُ علىٰ وجهٍ واحدٍ في الحالتينِ.. فما يُقتدىٰ بهِ أفضلُ لا محالةَ ، وإنَّما يُخافُ مِنَ الظهورِ الرياءُ ، ومهما حصلَتْ شائبةُ الرياءِ.. لمْ ينفعْهُ اقتداءُ غيرِهِ ، وهلكَ بهِ ، فلا خلافَ في أنَّ السرَّ أفضلُ منهُ .

ولكنْ علىٰ مَنْ يظهرُ العملَ وظيفتانِ :

إحداهُما : أنْ يظهرَهُ حيثُ يعلمُ أنَّهُ يُقتدىٰ بهِ ، أوْ يظنُّ ذلكَ ظناً ، وربَّ رجلٍ يقتدي بهِ أهلُهُ دونَ جيرانِهِ ، وربَّما يقتدي بهِ جيرانُهُ دونَ أهلِ السوقِ ، وربَّما يقتدي بهِ أهلُ محلَّتِهِ ، وإنَّما العالمُ المعروفُ هوَ الذي يقتدي بهِ الناسُ كافَّةً ، فغيرُ العالمِ إذا أظهرَ بعضَ الطاعاتِ.. ربَّما نُسبَ إلى الرياءِ والنفاقِ ، وذمُّوهُ ولمْ يقتدوا بهِ ، فليسَ لهُ الإظهارُ مِنْ غيرِ فائدةٍ ، فإنَّما يصحُّ الإظهارُ بنيةِ القدوةِ ممَّنْ هوَ في محلِّ القدوةِ علىٰ مَنْ هوَ في محلِّ الاقتداءِ بهِ .

---

(١) الشطر الأول منه رواه البيهقي في « الشعب » (٦٣٩٤) عن أبي الدرداء رضي الله عنه ، وروىٰ أيضاً في « الشعب » (٦٦١٢) عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً : « عمل السر أفضل من عمل العلانية ، والعلانية أفضل لمن أراد الاقتداء به » .

والثانيةُ : أنْ يراقبَ قلبَهُ ، فإنَّهُ ربَّما يكونُ فيهِ حبُّ الرياءِ الخفيِّ ، فيدعوهُ إلى الإظهارِ بعذرِ الاقتداءِ ، وإنَّما شهوتُهُ التجمُّلُ بالعملِ ، وبكونِهِ مقتدىً بهِ ، وهـٰذا حالُ كلِّ مَنْ يظهرُ أعمالَهُ إلا الأقوياءَ المخلصينَ ، وقليلٌ ما هُمْ ، فلا ينبغي أنْ يخدعَ الضعيفُ نفسَهُ بذلكَ فيهلكَ وهوَ لا يشعرُ ، فإنَّ الضعيفَ مثالُهُ مثالُ الغريقِ الذي يحسنُ سباحةً ضعيفةً ، فنظرَ إلىٰ جماعةٍ مِنَ الغرقىٰ فرحمَهُمْ ، فأقبلَ عليهِمْ حتىٰ تشبَّثوا بهِ ، فهلكوا وهلكَ ، والغرقُ بالماءِ في الدنيا ألمُهُ ساعةٌ ، وليتَ كانَ الهلاكُ بالرياءِ مثلَهُ ، لا بلْ عذابُهُ دائمٌ مدةً مديدةً ، وهـٰذهِ مزلَّةُ أقدامِ العبَّادِ والعلماءِ ، فإنَّهُمْ يتشبَّهونَ بالأقوياءِ في الإظهارِ ، ولا تقوىٰ قلوبُهُمْ على الإخلاصِ ، فتحبطُ أجورُهُمْ بالرياءِ .

والتفطُّنُ لذلكَ غامضٌ ، ومحكُّ ذلكَ : أنْ يعرضَ علىٰ نفسِهِ أنَّهُ لوْ قيلَ لهُ : أخفِ العملَ حتَّىٰ يقتديَ الناسُ بعابدٍ آخرَ مِنْ أقرانِكَ ، ويكونَ لكَ في السرِّ مثلُ أجرِ الإعلانِ ؛ فإنْ مالَ قلبُهُ إلىٰ أنْ يكونَ هوَ المقتدىٰ بهِ ، وهوَ المظهرَ للعملِ . . فباعثُهُ الرياءُ دونَ طلبِ الأجرِ واقتداءِ الناسِ بهِ ورغبتِهِمْ في الخيرِ ، فإنَّهُمْ قدْ رغبوا في الخيرِ بالنظرِ إلىٰ غيرِهِ ، وأجرُهُ قدْ توفَّرَ عليهِ معَ إسرارِهِ ، فما بالُ قلبِهِ يميلُ إلى الإظهارِ لولا ملاحظتُهُ لأعينِ الخلقِ ومراءاتِهِمْ ؟!

فليحذرِ العبدُ خِدعَ النفسِ ؛ فإنَّ النفسَ خدوعٌ ، والشيطانُ مترصِّدٌ ، وحبُّ الجاهِ على القلبِ غالبٌ ، وقلَّما تسلمُ الأعمالُ الظاهرةُ عنِ الآفاتِ ، فلا ينبغي أنْ يعدلَ بالسلامةِ شيئاً ، والسلامةُ في الإخفاءِ ، وفي الإظهارِ مِنَ

الأخطارِ ما لا يقوىٰ عليهِ أمثالُنا ، فالحذرُ مِنَ الإظهارِ أولىٰ بنا وبجميعِ الضعفاءِ .

❋ ❋ ❋

القسمُ الثاني : أنْ يتحدَّثَ بما فعلَهُ بعدَ الفراغِ :

وحكمُهُ حكمُ إظهارِ العملِ نفسِهِ ، والخطرُ في هـٰذا أشدُّ ؛ لأنَّ مؤنةَ النطقِ خفيفةٌ على اللسانِ ، وقدْ تجري في الحكايةِ زيادةٌ ومبالغةٌ ، وللنفسِ لذَّةٌ في إظهارِ الدعاوىٰ عظيمةٌ ، إلا أنَّهُ لوْ تطرَّقَ إليهِ الرياءُ . . لمْ يؤثِّرْ في إفسادِ العبادةِ الماضيةِ بعدَ الفراغِ منها ، فهوَ مِنْ هـٰذا الوجهِ أهونُ .

والحكمُ فيهِ : أنَّ مَنْ قوِيَ قلبُهُ ، وتمَّ إخلاصُهُ ، وصغرَ الناسُ في عينِهِ ، واستوىٰ عندَهُ مدحُهُمْ وذمُّهُمْ ، وذكرَ ذلكَ عندَ مَنْ يرجو الاقتداءَ بهِ والرغبةَ في الخيرِ بسببِهِ . . فهوَ جائزٌ ، بلْ هوَ مندوبٌ إليهِ إنْ صفَتِ النيةُ ، وسلمَتْ عنْ جميعِ الآفاتِ ؛ لأنَّهُ ترغيبٌ في الخيرِ ، والترغيبُ في الخيرِ خيرٌ .

وقدْ نُقلَ مثلُ ذلكَ عنْ جماعةٍ مِنَ السلفِ الأقوياءِ ، قالَ سعدُ بنُ معاذٍ : (ما صلَّيتُ صلاةً منذُ أسلمتُ فحدثتُ نفسي بغيرِها ، ولا تبعتُ جنازةً فحدَّثتُ نفسي بغيرِ ما هيَ قائلةٌ وما هوَ مقولٌ لها ، وما سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ قولاً قطُّ إلا علمتُ أنَّهُ حقٌّ)[1] .

---

(١) الرعاية (ص ٢٦١) ، ورواه البيهقي في « الشعب » (٢٤٩٨) بنحوه .

وقالَ عمرُ بنُ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ : (ما أبالي أصبحتُ علىٰ عسرٍ أوْ علىٰ يسرٍ ؛ لأنِّي لا أدري أيُّهما خيرٌ لي)[١] .

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (ما أصبحتُ علىٰ حالٍ فتمنَّيتُ أنْ أكونَ علىٰ غيرِها)[٢] .

وقالَ عثمانُ رضيَ اللهُ عنهُ : (ما تغنَّيتُ ، ولا تمنَّيتُ ، ولا مسستُ ذكرِي بيميني منذُ بايعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ)[٣] .

وقالَ شدادُ بنُ أوسٍ : (ما تكلَّمتُ بكلمةٍ منذُ أسلمتُ حتَّىٰ أزمَّها وأخطمَها غيرَ هٰذهِ) ، وكانَ قدْ قالَ لغلامِهِ : (ائتنا بالسُّفرةِ لنعبثَ بها حتَّىٰ ندركَ الغداءَ)[٤] .

وقالَ أبو سفيانَ لأهلِهِ حينَ حضرَهُ الموتُ : (لا تبكوا عليَّ ؛ فإنِّي ما أحدثتُ ذنباً منذُ أسلمتُ)[٥] .

وقالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رحمهُ اللهُ تعالىٰ : (ما قضى اللهُ لي بقضاءٍ قطُّ فسرَّني أنْ يكونَ قضىٰ لي بغيرِهِ ، وما أصبحَ لي هوىً إلا في مواقعِ قدرِ اللهِ)[٦] .

---

(١) الرعاية (ص ٢٦١) ، وقال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٨/ ٣٠٤) : (أخرجه الإسماعيلي في « مناقبه ») .
(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٢٥) من زيادات نعيم بن حماد .
(٣) رواه ابن ماجه (٣١١) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤١٤) .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (١٣٤) .
(٦) الرعاية (ص ٢٦٢)، وبنحوه رواه ابن أبي الدنيا في « الرضا عن الله بقضائه » (٤٦) .

فهٰذا كلُّهُ إظهارٌ لأحوالٍ شريفةٍ ، وفيها غايةُ المراءاةِ إذا صدرَتْ ممَّنْ يرائي بها ، وفيها غايةُ الترغيبِ إذا صدرَتْ ممَّنْ يُقتدىٰ بهِ ، فذلكَ علىٰ قصدِ الاقتداءِ جائزٌ للأقوياءِ بالشروطِ التي ذكرناها ، فلا ينبغي أنْ يُسدَّ بابُ إظهارِ الأعمالِ والطباعُ مجبولةٌ على حبِّ التشبُّهِ والاقتداءِ ، بلْ إظهارُ المرائي للعبادةِ إذا لمْ يعلمِ الناسُ أنَّهُ رياءٌ فيهِ خيرٌ كثيرٌ للناسِ ، ولكنَّهُ شرٌّ للمرائي ، فكمْ مِنْ مخلصٍ كانَ سببُ إخلاصِهِ الاقتداءَ بمَنْ هوَ مراءٍ عندَ اللهِ تعالىٰ .

وقدْ رُوِيَ أنَّهُ كانَ يجتازُ الإنسانُ في سككِ البصرةِ عندَ الصبحِ ، فيسمعُ أصواتَ المصلينَ بالقرآنِ مِنَ البيوتِ ، فصنَّفَ بعضُهُمْ كتاباً في دقائقِ الرياءِ ، فتركوا ذلكَ ، وتركَ الناسُ الرغبةَ فيهِ ، فكانوا يقولونَ : ليتَ ذلكَ الكتابَ لمْ يُصنَّفْ(١) .

فإظهارُ المرائي فيهِ خيرٌ كثيرٌ لغيرِهِ إذا لمْ يُعرفْ رياؤُهُ ، فإنَّ اللهَ يؤيِّدُ هٰذا الدينَ بالرجلِ الفاجرِ وبأقوامٍ لا خلاقَ لهُمْ كما وردَ في الأخبارِ(٢) ، وبعضُ المرائينَ ممَّن يُقتدىٰ بهِ منهُمْ ، واللهُ تعالىٰ أعلمُ .

* * *

---

(١) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٨/٣٠٥) .

(٢) تقدم حديث : « إن الله يؤيد هٰذا الدين . . . » الذي رواه البخاري (٤٢٠٣) ، ومسلم (١١١) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وتقدم حديث : « إن الله ليؤيد الدين بأقوام . . . » الذي رواه النسائي في « الكبرىٰ » (٨٨٣٤) .

بيان الرخصة في كتمان الذنوب وكراهة اطلاع الناس عليها وكراهة ذمهم له

اعلمْ : أنَّ الأصلَ في الإخلاصِ استواءُ السريرةِ والعلانيةِ ، كما قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ لرجلٍ : عليكَ بعملِ العلانيةِ ، قالَ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ وما عملُ العلانيةِ ؟ قالَ : ما إذا اطُّلعَ عليكَ . . لمْ تستحيِ مِنهُ[1] .

وقالَ أبو مسلمٍ الخولانيُّ : (ما عملتُ عملاً أبالي أنْ يطَّلعَ الناسُ عليهِ إلا إتياني أهلي ، والبولَ ، والغائطَ)[2] .

إلا أنَّ هـٰذهِ درجةٌ عظيمةٌ لا ينالُها كلُّ أحدٍ ، ولا يخلو الإنسانُ عنْ ذنوبٍ بقلبِهِ أوْ بجوارحِهِ وهوَ يخفيها ويكرهُ اطلاعَ الناسِ عليها ، لا سيَّما ما تختلجُ بهِ الخواطرُ في الشهواتِ والأمانيِّ ، واللهُ مطَّلعٌ علىٰ جميعِ ذلكَ ؛ فإرادةُ العبدِ لإخفائِها عن العبيدِ ربَّما يُظنُّ أنَّهُ رياءٌ محظورٌ ، وليسَ كذلكَ ؛ بلِ المحظورُ أنْ يسترَ ذلكَ ليرى الناسُ أنَّهُ وَرِعٌ وأنَّهُ خائفٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ معَ أنَّهُ ليسَ كذلكَ .

فهـٰذا هوَ سترُ المرائي .

---

(١) الرعاية (ص ٢٧٩) ، وقال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٨/٣٠٦) : (أخرجه الإسماعيلي في « مناقبه ») .

(٢) بنحوه رواه ابن المبارك في « الزهد » (٦٢) من زيادات نعيم بن حماد ، وبلفظه هو في « الرعاية » (ص ٢٧٩) .

وأمّا الصادقُ الذي لا يرائي . . فلهُ سترُ المعاصي ، ويصحُّ قصدُهُ فيهِ ، ويصحُّ اغتمامُهُ باطلاعِ الناسِ عليهِ مِنْ ثمانيةِ أوجهٍ :

الأوَّلُ : هوَ أنْ يفرحَ بسترِ اللهِ عليهِ ، وإذا افتضحَ . . اغتمَّ بهتكِ اللهِ سترَهُ ، وخافَ أنْ يهتكَ سترَهُ في القيامةِ ؛ إذْ وردَ في الخبرِ : أنَّ مَنْ سترَ اللهُ عليهِ في الدنيا ذنباً . . سترَ عليهِ في الآخرةِ[1] ، وهـٰذا غمٌّ ينشأُ مِنْ قوَّةِ الإيمانِ .

❁ ❁ ❁

الثاني : أنَّهُ قدْ علمَ أنَّ اللهَ تعالىٰ يكرهُ ظهورَ المعاصي ، ويحبُّ سترَها ؛ كما قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنِ ارتكبَ مِنْ هـٰذهِ القاذوراتِ شيئاً . . فليستترْ بسترِ اللهِ »[2] ، فهوَ وإنْ عصى اللهَ بالذنبِ فلمْ يخلُ قلبُهُ عنْ محبةِ ما أحبَّهُ اللهُ ، وهـٰذا ينشأُ مِنْ قوَّةِ الإيمانِ بكراهةِ اللهِ ظهورَ المعاصي ، وأثرُ الصدقِ فيهِ أنْ يكرهَ ظهورَ الذنبِ مِنْ غيرِهِ أيضاً ، ويغتمَّ بسببِهِ .

❁ ❁ ❁

الثالثُ : أنْ يكرهَ ذمَّ الناسِ لهُ بهِ مِنْ حيثُ إنَّ ذلكَ يغمُّهُ ويشغلُ قلبَهُ وعقلَهُ عنْ طاعةِ اللهِ تعالىٰ ، فإنَّ الطبعَ يتأذَّىٰ بالذمِّ ، وينازعُ العقلَ ، ويشغلُ عنِ الطاعةِ ، وبهـٰذهِ العلةِ أيضاً ينبغي أنْ يكرهَ الحمدَ الذي يشغلُهُ عنِ ذكرِ اللهِ

---

(١) رواه مسلم (٢٥٩٠) .
(٢) رواه مالك في « الموطأ » (٢/ ٨٢٥) عن زيد بن أسلم مرسلاً ، ورواه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣٨٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً .

تعالىٰ ، ويستغرقُ قلبَهُ ويصرفُهُ عنِ الذكرِ ، وهٰذا أيضاً مِنْ قوَّةِ الإيمانِ ؛ إذْ صدقُ الرغبةِ في فراغِ القلبِ لأجلِ الطاعةِ مِنَ الإيمانِ .

❋ ❋ ❋

الرابعُ : أنْ يكونَ سترُهُ ورغبتُهُ فيهِ لكراهتِهِ لذمِّ الناسِ مِنْ حيثُ يتأذىٰ طبعُهُ ، فإنَّ الذمَّ مؤلمٌ للقلبِ ، كما أنَّ الضربَ مؤلمٌ للبدنِ ، وخوفُ تألُّمِ القلبِ بالذمِّ ليسَ بحرامٍ ، ولا الإنسانُ بهِ عاصٍ ، وإنَّما يعصي إذا جزِعَتْ نفسُهُ مِنْ ذمِّ الناسِ ودعَتْهُ إلىٰ ما لا يجوزُ حذراً مِنْ ذمِّهِمْ ، وليسَ يجبُ على الإنسانِ ألا يغتمَّ بذمِّ الخلقِ ولا يتألَّمَ بهِ .

نعمْ ، كمالُ الصدقِ في أنْ تزولَ رؤيتُهُ للخلقِ ، فيستويَ عندَهُ ذامُّهُ ومادحُهُ ؛ لعلمِهِ أنَّ الضارَّ والنافعَ هو اللهُ عزَّ وجلَّ ، وأنَّ العبادَ كلَّهُمْ عاجزونَ ، وذلكَ قليلٌ جداً ، وأكثرُ الطباعِ تتألَّمُ بالذمِّ ؛ لما فيهِ مِنَ الشعورِ بالنقصانِ ، ورُبَّ تألُّمٍ بالذمِّ محمودٌ إذا كانَ الذامُّ مِنْ أهلِ البصيرةِ في الدينِ ، فإنَّهُمْ شهداءُ اللهِ ، وذمُّهُمْ يدلُّ علىٰ ذمِّ اللهِ تعالىٰ ، وعلىٰ نقصانٍ في الدينِ ، فكيفَ لا يغتمُّ بهِ ؟!

نعمِ ، الغمُّ المذمومُ هوَ أنْ يغتمَّ لفواتِ الحمدِ بالورعِ ؛ كأنَّهُ يحبُّ أنْ يُحمدَ بالورعِ ، ولا يجوزُ أنْ يحبَّ أنْ يُحمدَ بطاعةِ اللهِ تعالىٰ ، فيكونُ قدْ طلبَ بطاعةِ اللهِ ثواباً مِنْ غيرِهِ ، فإنْ وجدَ ذلكَ في نفسِهِ . . وجبَ عليهِ أنْ يقابلَهُ بالكراهةِ والردِّ ، وأمَّا كراهتُهُ الذمَّ بالمعصيةِ مِنْ حيثُ الطبعُ . .

فليسَ بمذمومٍ ، فلهُ السترُ حذراً مِنْ ذلكَ .

ويُتصوَّرُ أنْ يكونَ العبدُ بحيثُ لا يحبُّ الحمدَ ، ولكنْ يكرهُ الذمَّ ، وإنَّما مرادُهُ أنْ يتركَهُ الناسُ حمداً وذمّاً ، فكمْ مِنْ صابرٍ عنْ لذَّةِ الحمدِ لا يصبرُ علىٰ ألمِ الذمِّ ؛ إذِ الحمدُ يُطلبُ للذَّةِ ، وعدمُ اللذَّةِ لا يؤلمُ ، وأمَّا الذمُّ . . فإنَّهُ مؤلمٌ ، فحبُّ الحمدِ على الطاعةِ طلبُ ثوابٍ على الطاعةِ في الحالِ ، وأما كراهةُ الذمِّ على المعصيةِ . . فلا محذورَ فيهِ إلا أمرٌ واحدٌ ؛ وهوَ أنْ يشغلَهُ غمُّهُ باطلاعِ الناسِ علىٰ ذنبِهِ عنِ اطلاعِ اللهِ ، فإنَّ ذلكَ غايةُ النقصانِ في الدينِ ، بلْ ينبغي أنْ يكونَ غمُّهُ باطلاعِ اللهِ وذمِّهِ لهُ أكثرَ[1] .

* * *

الخامسُ : أن يكرهَ الذمَّ مِنْ حيثُ إنَّ الذامَّ قدْ عصى اللهَ تعالىٰ بهِ ، وهاذا مِنَ الإيمانِ ، وعلامتُهُ : أنْ يكرهَ ذمَّهُ لغيرِهِ أيضاً ، فهاذا التوجُّعُ لا يُفرِّقُ بينَهُ وبينَ غيرِهِ ، بخلافِ التوجُّعِ مِنْ جهةِ الطبعِ .

* * *

السادسُ : أنْ يسترَ ذلكَ كي لا يُقصدَ بشرٍّ إذا عُرِفَ ذنبُهُ ، وهاذا وراءَ ألمِ الذمِّ ، فإنَّ الذمَّ مؤلمٌ مِنْ حيثُ يشعرُ القلبُ بنقصانِهِ وخستِهِ ، وإنْ كانَ

---

(١) لأن شغله باطلاع الخلق لا يزيده إلا غماً ، بخلاف شغله باطلاع الله ، فإنه يزيده رهبة ويجره إلى التوبة . « إتحاف » (٨/ ٣٠٧) .

ممَّنْ يُؤمنُ شرُّهُ ، وقدْ يخافُ شرَّ مَنْ يطلعُ علىٰ ذنبِهِ بسببٍ مِنَ الأسبابِ ، فلهُ أنْ يسترَ ذلكَ حذراً مِنهُ .

❀ ❀ ❀

السابعُ : مجردُ الحياءِ ؛ فإنَّهُ نوعُ ألمٍ وراءَ ألمِ الذمِّ والقصدِ بالشرِّ ، وهو خُلُقٌ كريمٌ يحدثُ في أوَّلِ الصِّبا مهما أشرقَ عليهِ نورُ العقلِ ، فيستحيي مِنَ القبائحِ إذا شُوهدَتْ منهُ ، وهوَ وصفٌ محمودٌ ؛ إذ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الحياءُ خيرٌ كلُّهُ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الحياءُ شعبةٌ مِنَ الإيمانِ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الحياءُ لا يأتي إلا بخيرٍ »(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ يحبُّ الحييَّ الحليمَ »(٤) .

فالذي يفسقُ ولا يبالي أنْ يظهرَ فسقُهُ للناسِ . . جمعَ إلى الفسقِ التهتُّكَ والوقاحةَ وفقدَ الحياءِ ، فهوَ أشدُّ حالاً ممَّنْ يستترُ ويستحيي .

إلا أنَّ الحياءَ ممتزجٌ بالرياءِ ، ومشتبهٌ بهِ اشتباهاً عظيماً قلَّ مَنْ يتفطَّنُ لهُ ،

---

(١) رواه مسلم (٣٧/ ٦١) .

(٢) رواه البخاري (٩) ، ومسلم (٣٥) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (٥٤) مرسلاً من حديث عمرو بن دينار ، وعند مسلم (٢٩٦٥) مرفوعاً : « إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي » .

(٤) رواه الطبراني في « الكبير » (١٠/ ١٩٦) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن رجلاً سأل فاطمة رضي الله عنها فحدثته به .

ويدَّعي كلُّ مراءٍ أَنَّهُ مستحيٍ ، وأن سببَ تحسينِهِ العباداتِ هوَ الحياءُ مِنَ الناسِ ، وذلكَ كذبٌ ، بلِ الحياءُ خُلُقٌ ينبعثُ مِنَ الطبعِ الكريمِ ، وتهيجُ عقيبَهُ داعيةُ الرياءِ وداعيةُ الإخلاصِ ، ويُتصوَّرُ أنْ يُخلَصَ معَهُ ، ويُتصوَّرُ أنْ يُراءىٰ معَهُ .

وبيانُهُ : أنَّ الرجلَ يطلبُ مِنْ صديقٍ لهُ قرضاً ونفسُهُ لا تسخو بإقراضِهِ ، إلا أنَّهُ يستحيي مِنْ ردِّهِ ، وعلمَ أنَّهُ لوْ راسلَهُ علىٰ لسانِ غيرِهِ.. لكانَ لا يستحيي ، ولا يقرضُ رياءً ولا لطلبِ الثوابِ ، فلهُ عندَ ذلكَ أحوالٌ ، أحدُها : أنْ يشافهَ بالردِّ الصريحِ ولا يبالي ، فيُنسبَ إلىٰ قلَّةِ الحياءِ ، وهـٰذا فعلُ مَنْ لا حياءَ لهُ ، فإنَّ المستحييَ إمَّا أنْ يتعلَّلَ أوْ يقرضَ ، فإنْ أعطىٰ.. فيُتصوَّرُ لهُ ثلاثةُ أحوالٍ :

أحدُها : أنْ يُمزجَ الرياءُ بالحياءِ ، بأنْ يهيجَ الحياءُ ، فيقبحَ عندَهُ الردُّ ، فيهيجَ خاطرُ الرياءِ ، ويقولَ : ينبغي أنْ تُعطيَ حتَّىٰ يُثنيَ عليكَ ويحمدَكَ ، وينشرَ اسمَكَ بالسخاءِ ، أوْ ينبغي أنْ تعطيَ حتَّىٰ لا يذمَّكَ ولا ينسبَكَ إلى البخلِ ، فإذا أعطىٰ.. فقدْ أعطىٰ بالرياءِ ، وكانَ المحرِّكُ للرياءِ هوَ هيجانَ الحياءِ .

الثاني : أن يتعذَّرَ عليهِ الردُّ بالحياءِ ويبقىٰ في نفسِهِ البخلُ ، فيتعذَّرُ الإعطاءُ ، فيهيجُ باعثُ الإخلاصِ ويقولُ لهُ : إنَّ الصدقةَ بواحدةٍ والقرضَ بثمانيةَ عشرَ ، ففيهِ أجرٌ عظيمٌ ، وإدخالُ سرورٍ علىٰ قلبِ صديقٍ ، وذلكَ

محمودٌ عندَ اللهِ تعالىٰ ، فتسخو النفسُ بالإعطاءِ لذلكَ ، فهٰذا مخلصٌ هيَّجَ الحياءُ إخلاصَهُ .

الثالثُ : ألا يكونَ لهُ رغبةٌ في الثوابِ ، ولا خوفٌ مِنْ مذمَّتِهِ ، ولا حبٌّ لمحمدتِهِ ؛ لأنَّهُ لوْ طلبَهُ مراسلةً . . لكانَ لا يعطيهِ ، فأعطاهُ بمحضِ الحياءِ ، وهو ما يجدُهُ في قلبِهِ مِنْ ألمِ الحياءِ ، ولولا الحياءُ . . لردَّهُ ، ولوْ جاءَهُ مَنْ لا يستحي منهُ مِنَ الأجانبِ أوِ الأراذلِ . . لكانَ يردُّهُ وإنْ كثُرَ الحمدُ والثوابُ فيهِ ، فهٰذا مجردُ الحياءِ ، ولا يكونُ هٰذا إلا في القبائحِ ؛ كالبخلِ ومقارفةِ الذنوبِ ، والمرائي يستحي مِنَ المباحاتِ أيضاً ، حتَّىٰ إنَّهُ يُرىٰ مستعجلاً في المشيِ فيعودُ إلى الهدوءِ ، أوْ ضاحكاً فيرجعُ إلى الانقباضِ ، ويزعمُ أنَّ ذلكَ حياءٌ ، وهوَ عينُ الرياءِ .

وقدْ قيلَ : إنَّ بعضَ الحياءِ ضعفٌ ، وهوَ صحيحٌ ، والمرادُ بهِ الحياءُ ممَّا ليسَ بقبيحٍ ؛ كالحياءِ مِنْ وعظِ الناسِ ، وإمامةِ الناسِ في الصلاةِ ، وهوَ في النساءِ والصبيانِ محمودٌ ، وفي العقلاءِ غيرُ محمودٍ ، وقدْ تشاهدُ معصيةً مِنْ شيخٍ فتستحيي مِنْ شيبتِهِ أنْ تنكرَ عليهِ ؛ لأنَّ مِنْ إجلالِ اللهِ إجلالَ ذي الشيبةِ المسلمِ ، وهٰذا الحياءُ حسنٌ ، وأحسنُ مِنهُ أَنْ تستحييَ مِنَ اللهِ فلاَ تضيِّعَ الأمرَ بالمعروفِ ، فالقويُّ يؤثرُ الحياءَ مِنَ اللهِ على الحياءِ مِنَ الناسِ ، والضعيفُ قدْ لا يقدرُ عليهِ[1] .

---

(١) الرعاية (ص ٢٨٣) .

فهٰذهِ هيَ الأسبابُ التي يجوزُ لأجلِها سترُ القبائحِ والذنوبِ .

* * *

الثامنُ : أنْ يخافَ مِنْ ظهورِ ذنبِهِ أنْ يستجرئَ عليهِ غيرُهُ ويقتديَ بهِ ، وهٰذهِ العلةُ الواحدةُ فقطْ هيَ الجاريةُ في إظهارِ الطاعةِ ، وهوَ القدوةُ ، ويختصُّ ذلكَ بالأئمةِ أو بمَنْ يُقتدىٰ بهِ ، وبهٰذهِ العلَّةِ ينبغي أنْ يخفيَ العاصي أيضاً معصيتَهُ عنْ أهلِهِ وولدِهِ ؛ لأنَّهُمْ يتعلَّمونَ منهُ .

ففي سترِ الذنبِ هٰذهِ الأعذارُ الثمانيةُ ، وليسَ في إظهارِ الطاعةِ عذرٌ إلا هٰذا العذرُ الواحدُ ، ومهما قصدَ بسترِ المعصيةِ أنْ يخيِّلَ إلى الناسِ أنَّهُ ورعٌ . . كانَ مرائياً ؛ كما إذا قصدَ ذلكَ بإظهارِ الطاعةِ .

* * *

فإنْ قلتَ : فهلْ يجوزُ للعبدِ أنْ يحبَّ حمدَ الناسِ لهُ بالصلاحِ وحبَّهُمْ إيَّاهُ بسببِهِ ، وقدْ قالَ رجلٌ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : دلَّني علىٰ عملٍ يحبُّني اللهُ عليهِ ويحبُّني الناسُ ، قالَ : « ازهدْ في الدنيا يُحبَّكَ اللهُ ، وانبذْ إليهِمْ هٰذا الحطامَ يحبُّوكَ »؟[1] .

فنقولُ : حبُّكَ لحبِّ الناسِ لكَ قدْ يكونُ مباحاً ، وقدْ يكونُ محموداً ، وقدْ يكونُ مذموماً ، فالمحمودُ : أنْ تحبَّ ذلكَ لتعرفَ بهِ حبَّ اللهِ لكَ ،

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « مداراة الناس » (٣٣) .

فإنَّهُ تعالىٰ إذا أحبَّ عبداً . . حبَّبَهُ في قلوبِ عبادِهِ ، والمذمومُ : أنْ تحبَّ حبَّهُمْ وحمدَهُمْ علىٰ حجِّكَ وغزوِكَ وصلاتِكَ وعلىٰ طاعةٍ بعينِها ، فإنَّ ذلكَ طلبُ عوضٍ علىٰ طاعةِ اللهِ عاجلاً سوىٰ ثوابِ اللهِ ، والمباحُ : أنْ تحبَّ أنْ يحبُّوكَ لصفاتٍ محمودةٍ سوى الطاعاتِ المحمودةِ المعينةِ ، فحبُّكَ ذلكَ كحبِّكَ المالَ ؛ لأنَّ ملكَ القلوبِ وسيلةٌ إلى الأغراضِ كملكِ الأموالِ ، فلا فرقَ بينَهُما .

* * *

بيان ترك الطاعات خوفاً من الرياء ، ودخول الآفات

اعلمْ : أنَّ مِنَ الناسِ مَنْ يتركُ العملَ خوفاً مِنْ أنْ يكونَ مرائياً بهِ ، وذلكَ غلطٌ وموافقةٌ للشيطانِ ، بلِ الحقُّ فيما يُتركُ مِنَ الأعمالِ وما لا يُتركُ لخوفِ الآفاتِ ما نذكرُهُ .

وهوَ أنَّ الطاعاتِ تنقسمُ :

إلىٰ ما لا لذَّةَ في عينِهِ : كالصلاةِ والصومِ والحجِّ والغزوِ ، فإنَّها مقاساةٌ ومجاهداتٌ إنَّما تصيرُ لذيذةً مِنْ حيثُ إنَّها توصلُ إلىٰ حمدِ الناسِ ، وحمدُ الناسِ لذيذٌ ، وذلكَ عندَ اطلاعِ الناسِ عليها .

وإلىٰ ما هوَ لذيذٌ : وهوَ أكثرُ ما لا يقتصرُ على البدنِ ، بلْ يتعلَّقُ بالخلقِ ؛ كالخلافةِ ، والقضاءِ ، والولاياتِ ، والحسبةِ ، وإمامةِ الصلاةِ ، والتذكيرِ ، والتدريسِ ، وإنفاقِ المالِ على الخلقِ ، وغيرِ ذلكَ ممَّا تعظمُ الآفةُ فيهِ ؛ لتعلُّقِهِ بالخلقِ ، ولما فيهِ مِنَ اللذَّةِ .

❁ ❁ ❁

القسمُ الأولُ : الطاعاتُ اللازمةُ للبدنِ التي لا تتعلَّقُ بالغيرِ ولا لذَّةَ في عينِها :

كالصومِ ، والصلاةِ ، والحجِّ ، فخطراتُ الرياءِ فيها ثلاثٌ :

إحداها : ما يدخلُ قبلَ العملِ ، فيبعثُ على الابتداءِ لرؤيةِ الناسِ ، وليسَ معَهُ باعثُ الدينِ ، فهـٰذا ممّا ينبغي أنْ يُتركَ ؛ لأنَّهُ معصيةٌ لا طاعةَ

فيهِ ، فإنَّهُ تدرُّعٌ بصورةِ الطاعةِ إلىٰ طلبِ المنزلةِ ، فإنْ قدرَ الإنسانُ علىٰ أنْ يدفعَ عنْ نفسهِ باعثَ الرياءِ ، ويقولَ لها : ألا تستحيينَ مِنْ مولاكِ ؟! لا تسخينَ بالعملِ لأجلِهِ وتسخينَ بالعملِ لأجلِ عبادِهِ ؟! حتَّىٰ يندفعَ باعثُ الرياءِ وتسخوَ النفسُ بالعملِ للهِ ؛ عقوبةً للنفسِ علىٰ خاطرِ الرياءِ ، وكفارةً لهُ ، فليشتغلْ بالعملِ .

الثانيةُ : أنْ ينبعثَ لأجلِ اللهِ ولكنْ يعترضُ الرياءُ معَ عقدِ العبادةِ وأوَّلِها ، فلا ينبغي أنْ يتركَ العملَ ؛ لأنَّهُ وجدَ باعثاً دينياً ، فليشرعْ في العملِ ، وليجاهدْ نفسَهُ في دفعِ الرياءِ وتحصيلِ الإخلاصِ بالمعالجةِ التي ذكرناها ؛ مِنْ إلزامِ النفسِ كراهةَ الرياءِ والإباءِ عنِ القبولِ .

الثالثةُ : أنْ يعقدَ على الإخلاصِ ، ثمَّ يطرأَ الرياءُ ودواعيهِ ، فينبغي أنْ يجاهدَ في الدفعِ ولا يتركَ العملَ ، لكنْ يرجعُ إلىٰ عقدِ الإخلاصِ ، ويردُّ نفسَهُ إليهِ قهراً حتَّىٰ يتمَّ العملَ ؛ لأنَّ الشيطانَ يدعوكَ أوَّلاً إلىٰ تركِ العملِ ، فإذا لمْ تجبْ واشتغلتَ . . فيدعوكَ إلى الرياءِ ، فإذا لمْ تجبْ ودفعتَهُ . . يقولُ لكَ : هـٰذا العملُ ليسَ بخالصٍ ، وأنتَ مُراءٍ ، وتعبُكَ ضائعٌ ، فأيُّ فائدةٍ لكَ في عملٍ لا إخلاصَ فيهِ ؛ حتَّىٰ يحملَكَ بذلكَ علىٰ تركِ العملِ ، فإذا تركتَهُ . . فقد حصلَ غرضُهُ .

ومثالُ مَنْ يتركُ العملَ لخوفِهِ أنْ يكونَ مرائياً ؛ كمَنْ سلَّمَ إليهِ مولاهُ حنطةً فيها زُوانٌ[1] وقالَ : خلِّصْها مِنَ الزوانِ ونقِّها منهُ تنقيةً بالغةً ، فيتركُ أصلَ

---

(١) وهو حبٌّ يخالط البُر فيكسبه الرداءة . « إتحاف » (٨/ ٣١١) .

العملِ ويقولُ : أخافُ إنِ اشتغلتُ بهِ . . لمْ تخلصْ خلاصاً صافياً نقيّاً ، فيتركُ العملَ مِنْ أصلِهِ ، وهوَ تركٌ للإخلاصِ معَ أصلِ العملِ ، فلا معنىٰ لهُ .

ومِنْ هٰذا القبيلِ أنْ يتركَ العملَ خوفاً مِنَ الناسِ أنْ يقولوا : (إنَّهُ مراءٍ) فيعصونَ اللهَ بهِ ، فهٰذا مِنْ مكايدِ الشيطانِ ؛ لأنَّهُ أوّلاً أساءَ الظنَّ بالمسلمينَ ، وما كانَ مِنْ حقِّهِ أنْ يظنَّ بهِمْ ذلكَ ، ثمَّ إنْ كانَ . . فلا يضرُّهُ قولُهُمْ ، ويفوتُهُ ثوابُ العبادةِ ، وتركُ العملِ خوفاً مِنْ قولِهِمْ : (إنَّهُ مراءٍ) هوَ عينُ الرياءِ ، فلولا حبُّهُ لمحمدتِهِمْ وخوفُهُ مِنْ ذمِّهِمْ . . فما لهُ ولقولِهِمْ[1] ، قالوا : (إنَّهُ مراءٍ) أوْ قالوا : (إنَّهُ مخلصٌ) ؟ فأيُّ فرقٍ بينَ أنْ يتركَ العملَ خوفاً مِنْ أنْ يُقالَ : (إنَّهُ مُراءٍ) ، وبينَ أنْ يحسنَ العملَ خوفاً مِنْ أنْ يُقالَ : (إنَّهُ غافلٌ مقصِّرٌ) ؟! بلْ تركُ العملِ أشدُّ مِنْ ذلكَ .

فهٰذهِ كلُّها مكايدُ الشيطانِ على العبادِ الجهّالِ .

ثمَّ كيفَ يطمعُ في أنْ يتخلَّصَ مِنَ الشيطانِ بأنْ يتركَ العملَ ، والشيطانُ لا يخليهِ ، بلْ يقولُ لهُ : (الآنَ يقولُ الناسُ : إنَّكَ تركتَ العملَ ليُقالَ : إنَّكَ مخلصٌ لا تشتهي الشهرةَ) ، فيضطرُّكَ بذلكَ إلىٰ أنْ تهربَ ، فإنْ هربتَ ودخلتَ سرباً تحتَ الأرضِ . . ألقىٰ في قلبِكَ حلاوةَ معرفةِ الناسِ

---

(١) في هامش (ب) : (نسخة : لما سأل عنهم ، فما له ولقولهم) .

بتزهُّدِكَ وهربِكَ منهُمْ ، وتعظيمِهِمْ لكَ بقلوبِهِمْ علىٰ ذلكَ ، فكيفَ تتخلَّصُ ؟ بلْ لا نجاةَ منهُ إلا بأنْ تلزِمَ قلبَكَ معرفةَ آفةِ الرياءِ ، وهوَ أنَّهُ ضررٌ في الآخرةِ ولا نفعَ فيهِ في الدنيا ؛ لتلزِمَ الكراهةَ والإباءَ قلبَكَ ، وتستمرَّ معَ ذلكَ على العملِ ولا تبالي وإنْ نزغَ العدوُّ ونازعَ الطبعُ ؛ فإنَّ ذلكَ لا ينقطعُ ، وتركُ العملِ لأجلِ ذلكَ يجرُّ إلى البطالةِ وتركِ الخيراتِ .

فما دمتَ تجدُ باعثاً دينياً على العملِ فلا تتركِ العملَ ، وجاهدْ خاطرَ الرياءِ ، وألزمْ قلبَكَ الحياءَ مِنَ اللهِ تعالىٰ إذا دعتْكَ نفسُكَ إلىٰ أنْ تستبدلَ بحمدِهِ حمدَ المخلوقينَ وهوَ مطلعٌ علىٰ قلبِكَ ، ولوِ اطلعَ الخلقُ علىٰ قلبِكَ وأنتَ تريدُ حمدَهُمْ . . لمقتوكَ ، بلْ إنْ قدرتَ علىٰ أنْ تزيدَ في العملِ حياءً مِنْ ربِّكَ وعقوبةً لنفسِكَ . . فافعلْ ، فإنْ قالَ لكَ الشيطانُ : أنتَ مراءٍ . . فاعلمْ كذبَهُ وخدعَهُ بما تصادفُ في قلبِكَ مِنْ كراهةِ الرياءِ وإبائِهِ ، وخوفِكَ منهُ وحيائِكَ مِنَ اللهِ تعالىٰ .

وإنْ لمْ تجدْ في قلبِكَ لهُ كراهيةً ومنهُ خوفاً ولمْ يبقَ باعثٌ دينيٌّ ، بلْ تجرَّدَ باعثُ الرياءِ . . فاتركِ العملَ عندَ ذلكَ ، وهوَ بعيدٌ ممَّنْ شرعَ في العملِ للهِ ، فإنَّهُ لا بدَّ أنْ يبقىٰ معَهُ أصلُ قصدِ الثوابِ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فقدْ نُقِلَ عنْ أقوامٍ تركُ العملِ مخافةَ الشهرةِ ، رُوِيَ أنَّ إبراهيمَ النخعيَّ دخلَ عليهِ إنسانٌ وهوَ يقرأُ ، فأطبقَ المصحفَ وتركَ القراءةَ

وقالَ : (لا يرىٰ هـٰذا أنَّا نقرأُ كلَّ ساعةٍ)(١) .

وقالَ إبراهيمُ التيميُّ : (إذا أعجبَكَ الكلامُ . . فاسكتْ ، وإذا أعجبَكَ السكوتُ . . فتكلَّمْ)(٢) .

وقالَ الحسنُ : (إنْ كانَ أحدُهُمْ ليمرُّ بالأذىٰ على الطريقِ ما يمنعُهُ مِنْ رفعِهِ إلا كراهةُ الشهرةِ ، وكانَ أحدُهُمْ يأتيهِ البكاءُ فيصرفُهُ إلى الضحكِ مخافةَ الشُّهرةِ)(٣) .

وقدْ وردَ في ذلكَ آثارٌ كثيرةٌ .

قلنا : هـٰذا يعارِضُهُ ما وردَ في إظهارِ الطاعاتِ ممَّا لا يُحصىٰ ، وإظهارُ الحسنِ البصريِّ هـٰذا الكلامَ في معرضِ الوعظِ أقربُ إلىٰ خوفِ الشهرةِ مِنَ البكاءِ ، وإماطةُ الأذىٰ عنِ الطريقِ نفلٌ ، ثمَّ لمْ يتركْهُ(٤) .

وبالجملةِ : تركُ النوافلِ جائزٌ ، والكلامُ في الأفضلِ ، والأفضلُ إنَّما يقدرُ عليهِ الأقوياءُ دونَ الضعفاءِ ، فالأفضلُ أنْ يتمَّ العملَ ويجتهدَ في الإخلاصِ ، ولا يتركَهُ ، وأربابُ الأعمالِ قدْ يعالجونَ أنفسَهُمْ بخلافِ الأفضلِ ؛ لشدَّةِ الخوفِ ، والاقتداءُ ينبغي أنْ يكونَ بالأقوياءِ .

---

(١) الرعاية (ص٢٦٦) .

(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (٤٦٩٨) عن بشر بن الحارث الحافي .

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٣٨) .

(٤) أي : لم يثبت عنه الترك ، وفي نسخة الحافظ الزبيدي (٨/٣١٢) : (يقل) بدل (نفل) .

وأمَّا إطباقُ إبراهيمَ النخعيِّ المصحفَ . . فيمكنُ أنْ يكونَ لعلمِهِ بأنَّهُ سيحتاجُ إلىٰ تركِ القراءةِ عندَ دخولِهِ واستئنافِها بعدَ خروجِهِ ؛ للاشتغالِ بمكالمتِهِ ، فرأىٰ ألا يراهُ في القراءةِ أبعدَ عنِ الرياءِ ، وهوَ عازمٌ على التركِ للاشتغالِ بهِ حتَّىٰ يعودَ إليهِ بعدَ ذلكَ .

وأمَّا تركُ رفعِ الأذىٰ عنِ الطريقِ . . فذلكَ ممَّنْ يخافُ علىٰ نفسِهِ آفةَ الشهرةِ ، وإقبالَ الناسِ عليهِ ، وشغلَهَمْ إيَّاهُ عنْ عباداتٍ هيَ أكبرُ مِنْ رفعِ خشبةٍ مِنَ الطريقَ ، فيكونُ تركُهُ للمحافظةِ علىٰ عباداتٍ هيَ أعظمُ منهُ ، لا لمجرَّدِ خوفِ الرياءِ .

وأمَّا قولُ التيميِّ : (إذا أعجبكَ الكلامُ . . فاسكتْ) فيجوزُ أنْ يكونَ قدْ أرادَ بهِ مباحاتِ الكلامِ ؛ كالفصاحةِ في الحكاياتِ وغيرِها ، فإنَّ ذلكَ يورثُ العجبَ ، وكذلكَ العجبُ بالسكوتِ المباحِ محذورٌ ، فهوَ عدولٌ مِنْ مباحٍ إلىٰ مباحٍ ؛ حذراً مِنَ العجبِ ، فأمَّا الكلامُ الحقُّ المندوبُ إليهِ . . فلمْ ينصَّ عليهِ علىٰ أنَّ الآفةَ ممَّا تعظمُ في الكلامِ ؛ فهوَ واقعٌ في القسمِ الثاني ، وإنَّما كلامُنا في العباداتِ الخاصَّةِ ببدنِ العبدِ ممَّا لا يتعلَّقُ بالناسِ ، ولا تعظمُ فيهِ الآفاتُ ، ثمَّ كلامُ الحسنِ في تركِهِمُ البكاءَ وإماطةَ الأذىٰ ؛ لخوفِ الشهرةِ ربَّما كانَ حكايةَ أحوالِ الضعفاءِ الذينَ لا يعرفونَ الأفضلَ ، ولا يدركونَ هـٰذهِ الدقائقَ ، وإنَّما ذكرَهُ تخويفاً للناسِ مِنْ آفةِ الشهرةِ ، وزجراً عنْ طلبِها .

❁ ❁ ❁

القسمُ الثاني : ما يتعلَّقُ بالخلقِ ، وتعظمُ فيهِ الآفاتُ والأخطارُ :

وأعظمُها الخلافةُ ، ثمَّ القضاءُ ، ثمَّ التذكيرُ والتدريسُ والفتوىٰ ، ثمَّ إنفاقُ المالِ .

أمَّا الخلافةُ والإمارةُ . . فهيَ مِنْ أفضلِ العباداتِ إذا كانَتْ معَ العدلِ والإخلاصِ ، وقدْ قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لَيومٌ مِنْ إمامٍ عادلٍ خيرٌ مِنْ عبادةِ الرجلِ وحدَهُ ستينَ عاماً »(١) ، فأعظمْ بعبادةٍ يوازي يومٌ منها عبادةَ ستينَ سنةً !

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أوَّلُ مَنْ يدخلُ الجنَّةَ ثلاثةٌ » ، الإمامُ المقسطُ أحدُهُم(٢) .

وقالَ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ثلاثةٌ لا تُردُّ دعوتُهُمْ » الإمامُ العادلُ أحدُهُم(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أقربُ الناسِ منِّي مجلساً يومَ القيامةِ إمامٌ عادلٌ » ، رواهُ أبو سعيدٍ الخدريُّ(٤) .

فالإمارةُ والخلافةُ مِنْ أعظمِ العباداتِ ، ولمْ يزلِ المتقونَ يحترزونَ منها

---

(١) تقدم قريباً .
(٢) رواه مسلم (٢٨٦٥) ، وليس فيه ذكر الأولية ، بل هي عند الإمام المحاسبي في « الرعاية » (ص٢٧٤) .
(٣) رواه الترمذي (٢٥٢٦) ، وابن ماجه (١٧٥٢) .
(٤) رواه الترمذي (١٣٢٩) .

ويتركونَها ويهربونَ مِنْ تقلُّدِها ؛ وذلكَ لما فيهِ مِنْ عظمِ الخطرِ ؛ إذْ تتحرَّكُ بها الصفاتُ الباطنةُ ، ويغلبُ على النفسِ حبُّ الجاهِ ولذَّةُ الاستيلاءِ ونفاذُ الأمرِ ، وهوَ أعظمُ ملاذِّ الدنيا ، فإذا صارَتِ الولايةُ محبوبةً . . كانَ الوالي ساعياً في حظِّ نفسِهِ ، ويوشكُ أنْ يتَّبعَ هواهُ ، فيمتنعَ مِن كلِّ ما يقدحُ في جاهِهِ وولايتِهِ وإنْ كانَ حقّاً ، ويقدمُ على ما يزيدُ في مكانتِهِ وإنْ كانَ باطلاً ، وعندَ ذلكَ يهلكُ ، ويكونُ يومٌ مِنْ سلطانٍ جائرٍ شرّاً مِنْ فسقِ ستِّينَ سنةً ؛ بمفهومِ الحديثِ الذي ذكرناهُ !

ولهٰذا الخطرِ العظيمِ كانَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ يقولُ : (مَنْ يأخذُها بما فيها ؟!)[1] .

وكيفَ لا وقدْ قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما مِنْ والي عشرةٍ إلا جاءَ يومَ القيامةِ مغلولةً يداهُ إلى عنقِهِ ، أطلقَهُ عدلُهُ أوْ أوبقَهُ جورُهُ » ، رواهُ معقلُ بنُ يسارٍ[2] .

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٨٠) ضمن خبر طويل .

(٢) رواه ابنُ أبي شيبة في « المصنف » (٣٣٢٢٢) عن معقل بن يسار رضي الله عنه بلفظ : « ليس من وال يلي أمة قلَّت أو كثرت لا يعدل فيها . . إلا أكبَّهُ الله على وجهه في النار » ، وأصله عند البخاري (٧١٥٠) ، ومسلم (١٤٢) ، ولفظه : « ما من عبد استرعاه الله رعية ، فلم يحطها بنصيحة . . إلا لم يجد رائحة الجنة » . والحديث بلفظ المصنف رواه أحمد في « مسنده » (٢/ ٤٣١) ، وأبو يعلى في « مسنده » (٦٥٧٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/ ١١٨) من حديث ثوبان رضي الله عنه ، ورواه أحمد في « مسنده » (٥/ ٢٨٤) من حديث سعد بن عبادة رضي الله عنه .

وولَّاهُ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ ولايةً(١) ، فقالَ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ أشرْ عليَّ ، قالَ : اجلسْ واكتمْ عليَّ(٢) .

وروى الحسنُ أنَّ رجلاً ولَّاهُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : خِرْ لي ، قالَ : « اجلسْ »(٣) .

وكذلكَ حديثُ عبدِ الرحمنِ بنِ سمرةَ ؛ إذْ قالَ لهُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يا عبدَ الرحمنِ ؛ لا تسألِ الإمارةَ ، فإنَّكَ إنْ أُوتيتَها مِنْ غيرِ مسألةٍ . . أُعنتَ عليها ، وإنْ أُوتيتَها عنْ مسألةٍ . . وُكلتَ إليها »(٤) .

وقالَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ لرافعِ بنِ عمرَ : (لا تأمَّرْ على اثنينِ) ، ثمَّ وليَ هوَ الخلافةَ ، فقامَ بها ، فقالَ لهُ رافعٌ : ألمْ تقلْ لي : (لا تأمَّرْ على اثنينِ) وأنتَ قدْ وليتَ أمرَ أمَّةِ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؟! فقالَ : بلىٰ ، وأنا أقولُ لكَ ذلكَ ؛ فمَنْ لمْ يعدلْ فيها . . فعليهِ بهلةُ اللهِ ؛ يعني : لعنةَ اللهِ(٥) .

ولعلَّ القليلَ البصيرةِ يرىٰ ما وردَ في فضلِ الإمارةِ معَ ما وردَ مِنَ النهيِ

---

(١) أي : معقل بن يسار رضي الله عنه ، وفي « الرعاية » (ص٢٧٢) : (وولىٰ عمر رجلاً) .
(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٣٢١٦) ولم يصرح باسم المؤمَّر .
(٣) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٣٢١٧) .
(٤) رواه البخاري (٦٦٢٢) ، ومسلم (١٦٥٢) .
(٥) رواه الطبراني في « الكبير » (٥/ ٢١) .

عنها متناقضاً ، وليسَ كذلكَ ، **بلِ الحقُّ فيهِ** : أنَّ الخواصَّ الأقوياءَ في الدينِ لا ينبغي أنْ يمتنعوا مِنْ تقلُّدِ الولاياتِ ، وأنَّ الضعفاءَ لا ينبغي أنْ يدوروا بها فيهلكوا ، وأعني بالقويِّ : الذي لا تميلُهُ الدنيا ، ولا يستفزُّهُ الطمعُ ، ولا تأخذُهُ في اللهِ لومةُ لائمٍ ، وهمُ الذينَ سقطَ الخلقُ مِنْ أعينِهِمْ ، وزهدوا في الدنيا وتبرَّموا بها وبمخالطةِ الخلقِ ، وقهروا أنفسَهُمْ وملكوها ، وقمعوا الشيطانَ فأيسَ منهُمْ ، فهؤلاءِ لا يحركُهُمْ إلا الحقُّ ، ولا يسكنُهُمْ إلا الحقُّ ، ولوْ زهقَتْ فيهِ أرواحُهُمْ ، فهُمْ أهلُ نيلِ الفضلِ في الإمارةِ والخلافةِ ، ومَنْ علمَ أنَّهُ ليسَ بهـٰذهِ الصفةِ . . فيحرمُ عليهِ الخوضُ في الولاياتِ .

ومَنْ جرَّبَ نفسَهُ فرآها صابرةً على الحقِّ ، كافَّةً عنِ الشهواتِ في غيرِ الولايةِ ، ولكنْ خافَ عليها أنْ تتغيَّرَ إذا ذاقَتْ لذَّةَ الولايةِ ، وأنْ تستحليَ الجاهَ وتستلذَّ نفاذَ الأمرِ فتكرهَ العزلَ ، فيداهنَ خيفةً مِنَ العزلِ . . فهـٰذا قدِ اختلفَ العلماءُ في أنَّهُ هلْ يلزمُهُ الهربُ مِنْ تقلُّدِ الولايةِ ؟

فقالَ قائلونَ : لا يجبُ ؛ لأنَّ هـٰذا خوفُ أمرٍ في المستقبلِ ، وهوَ في الحالِ لمْ يعهدْ نفسَهُ إلا قويّاً في ملازمةِ الحقِّ وتركِ لذاتِ النفسِ .

والصحيحُ : أنَّ عليهِ الاحترازَ ؛ لأنَّ النفسَ خدَّاعةٌ ، مدَّعيةٌ للحقِّ ، واعدةٌ بالخيرِ ، فلوْ وعدَتْ بالخيرِ جزماً . . لكانَ يُخافُ عليها أنْ تتغيَّرَ عندَ الولايةِ ، فكيفَ إذا أظهرَتِ التردُّدَ ؟ والامتناعُ عنْ قبولِ الولايةِ أهونُ مِنَ العزلِ بعدَ الشروعِ ، فالعزلُ مؤلمٌ ، وهوَ كما قيلَ : طلاقُ الرجالِ ، فإذا

شرعَ.. لا تسمحُ نفسُهُ بالعزلِ ، وتميلُ نفسُهُ إلى المداهنةِ وإهمالِ الحقِّ ، وتهوي به في قعرِ جهنَّمَ ، ولا يستطيعُ النزوعَ منها إلى الموتِ ، إلا أنْ يُعزلَ قهراً ، وكانَ فيهِ عذابٌ عاجلٌ علىٰ كلِّ مَنْ يحبُّ الولايةَ ، ومهما مالَتِ النفسُ إلىٰ طلبِ الولايةِ ، وحملَتْ على السؤالِ والطلبِ.. فهوَ أمارةُ الشرِّ ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّا لا نولِّي أمرَنا مَنْ سألَنا »(١) .

فإذا فهمتَ اختلافَ حكمِ القويِّ والضعيفِ.. عرفتَ أنَّ نهيَ أبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ لرافعٍ عنِ الولايةِ ثمَّ تقلُّدَهُ لها ليسَ بمتناقضٍ .

وأمَّا القضاءُ.. فهوَ وإنْ كانَ دونَ الخلافةِ والإمارةِ فهوَ في معناهُما ، فإنَّ كلَّ ذي ولايةٍ أميرٌ ؛ أيْ : لهُ أمرٌ نافذٌ ، والإمارةُ محبوبةٌ بالطبعِ ، والثوابُ في القضاءِ عظيمٌ معَ اتباعِ الحقِّ ، والعقابُ فيهِ أيضاً عظيمٌ معَ العدولِ عنِ الحقِّ ، وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « القضاةُ ثلاثةٌ ، واحدٌ في الجنةِ ، واثنانِ في النارِ »(٢) .

وقالَ : « مَنِ استُقضيَ.. فقدْ ذُبحَ بغيرِ سكينٍ »(٣) .

---

(١) رواه البخاري (٧١٤٩) ، ومسلم (١٧٣٣) .

(٢) رواه أبو داوود (٣٥٧٣) ، والترمذي (١٣٢٢/م) ، والنسائي في « الكبرىٰ » (٥٨٩١) ، وابن ماجه (٢٣١٥) .

(٣) كذا في « الرعاية » (ص٢٧٣) ، وبلفظه رواه محمد بن خلف في « أخبار القضاة » (١٣/١) ، وبنحوه رواه أبو داوود (٣٥٧١) ، والترمذي (١٣٢٥) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (٥٨٩٢) ، وابن ماجه (٢٣٠٨) .

فحكمُهُ حكمُ الإمارةِ ، ينبغي أنْ يتركَهُ الضعفاءُ وكلُّ مَنْ للدنيا ولذاتِها وزنٌ في عينِهِ ، وليتقلدْهُ الأقوياءُ الذينَ لا تأخذُهُمْ في اللهِ لومةُ لائمٍ .

ومهما كانَ السلاطينُ ظلمةً ولمْ يقدرِ القاضي على القضاءِ إلا بمداهنتِهِمْ وإهمالِ بعضِ الحقوقِ لأجلِهِمْ ولأجلِ المتعلِّقينَ بهِمْ ؛ إذْ يعلمُ أنَّهُ لوْ حكمَ عليهِمْ بالحقِّ لعزلوهُ ، أوْ لمْ يطيعوهُ . . فليسَ لهُ أنْ يتقلَّدَ القضاءَ ، وإنْ تقلَّدَهُ . . فعليهِ أنْ يطالبَهُمْ بالحقوقِ ، ولا يكونُ خوفُ العزلِ عذراً مرخِّصاً لهُ في الإهمالِ أصلاً ، بلْ إذا عُزِلَ . . سقطَتِ العُهدةُ عنهُ ، فينبغي أنْ يفرحَ بالعزلِ إنْ كانَ يقضي للهِ ، فإنْ لمْ تسمحْ نفسُهُ بذلكَ . . فهوَ إذاً يقضي لاتباعِ الهوىٰ والشيطانِ ، فكيفَ يرتقبُ عليهِ ثواباً وهوَ معَ الظلمةِ في الدركِ الأسفلِ مِنَ النارِ ؟!

وأمَّا الوعظُ ، والفتوىٰ ، والتدريسُ ، وروايةُ الحديثِ ، وجمعُ الأسانيدِ العاليةِ ، وكلُّ ما يتسعُ بسببِهِ الجاهُ ، ويعظمُ بهِ القدرُ . . فآفتُهُ أيضاً عظيمةٌ مثلُ آفةِ الولاياتِ .

وقدْ كانَ الخائفونَ مِنَ السلفِ يتدافعونَ الفتوىٰ ما وجدوا إليهِ سبيلاً .

وكانوا يقولونَ : (« حدثَنا » بابٌ مِنْ أبوابِ الدنيا ، ومَنْ قالَ : « حدثَنا » . . فقدْ قالَ : أوسعوا لي)[1] .

ودفنَ بشرٌ كذا وكذا قمطرةً مِنَ الحديثِ ، وقالَ : (يمنعُني مِنَ الحديثِ

(١) قوت القلوب (١/ ١٣٥) ، والقائل هو بشر بن الحارث .

أنِّي أشتهي أنْ أحدِّثَ ، ولوِ اشتهيتُ ألا أحدثَ . . لحدثتُ)[1] .

والواعظُ يجدُ في وعظِهِ وتأثُّرِ قلوبِ الناسِ بهِ وتلاحقِ بكائِهِمْ وزَعَقاتِهِمْ وإقبالِهِمْ عليهِ لذةً لا توازيها لذةٌ ، فإذا غلبَ ذلكَ علىٰ قلبهِ . . مالَ قلبُهُ إلىٰ كلِّ كلامٍ مزخرفٍ يروجُ عندَ العوامِّ وإنْ كانَ باطلاً ، ويفرُّ عنْ كلِّ كلامٍ يستثقلُهُ العوامُّ وإنْ كانَ حقاً ، ويصيرُ مصروفَ الهمةِ بالكليَّةِ إلىٰ ما يحرِّكُ قلوبَ العوامِّ ، ويعظمُ منزلتَهُ في قلوبِهِمْ ، فلا يسمعُ حديثاً وحكمةً إلا ويكونُ فرحُهُ بها مِنْ حيثُ إنَّهُ يصلحُ لأنْ يذكرَهُ علىٰ رأسِ المنبرِ ، وكانَ ينبغي أنْ يكونَ فرحُهُ بها مِنْ حيثُ إنَّهُ عرفَ طريقَ السعادةِ ، وطريقَ سلوكِ سبيلِ الدينِ ؛ ليعملَ بهِ أوَّلاً ، ثمَّ يقولَ : إذا أنعمَ اللهُ عليَّ بهٰذهِ النعمةِ ، ونفعَني بهٰذهِ الحكمةِ . . فأقصُّها ؛ ليشاركَني في نفعِها إخواني المسلمونَ .

فهٰذا أيضاً ممَّا يعظمُ فيهِ الخوفُ والفتنةُ ، فحكمُهُ حكمُ الولاياتِ ؛ فمَنْ لا باعثَ له إلا طلبُ الجاهِ والمنزلةِ والأكلُ بالدينِ والتفاخرُ والتكاثرُ بهِ . . فينبغي أنْ يتركَهُ ويخالفَ الهوىٰ فيهِ إلىٰ أنْ ترتاضَ نفسُهُ ، وتقوىٰ في الدين مُنَّتُهُ ، ويأمنَ علىٰ نفسِهِ الفتنةَ ، فعندَ ذلكَ يعودُ إليهِ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : مهما حُكمَ بذلكَ علىٰ أهلِ العلمِ . . تعطلَتِ العلومُ واندرسَتْ ، وعمَّ الجهلُ كافةَ الخلقِ .

---

(١) قوت القلوب (١/١٥٦) .

فنقولُ : قدْ نهىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنْ طلبِ الإمارةِ وتوعَّدَ عليها ، حتَّىٰ قالَ : « إنَّكمْ تحرصونَ على الإمارةِ ، وإنَّها حسرةٌ يومَ القيامةِ وندامةٌ ، إلا مَنْ أخذَها بحقِّها »[1] ، وقالَ : « نعمَتِ المرضعةُ وبئسَتِ الفاطمةُ »[2] ، ومعلومٌ أنَّ السلطنةَ والإمارةَ لوْ تعطلَتْ . . لبطلَ الدينُ والدنيا جميعاً ، وثارَ القتالُ بينَ الخلقِ ، وزالَ الأمنُ وخربَتِ البلادُ ، وبطلَتِ المعايشُ ، فلِمَ نُهِيَ عنها معَ ذلكَ ؟ وضربَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ أبيَّ بنَ كعبٍ حينَ رأىٰ قوماً يتبعونَهُ وهوَ في ذلكَ يقولُ : (أبيٌّ سيدُ المسلمينَ)[3] ، وكانَ يقرأُ عليهِ القرآنَ ، فمنعَ مِنْ أنْ يتبعوهُ ، وقالَ : (ذلكَ فتنةٌ على المتبوعِ ومذلَّةٌ على التابعِ)[4] ، وعمرُ كانَ بنفسِهِ يخطبُ ويعظُ ولا يمتنعُ منهُ .

واستأذنَ رجلٌ عمرَ أنْ يعظَ الناسَ إذا فرغَ مِنْ صلاةِ الصبحِ فمنعَهُ ، فقالَ : أتمنعُني مِنْ نصحِ الناسِ ؟ فقالَ : أخشىٰ أنْ تنتفخَ حتَّىٰ تبلغَ الثريا[5] ؛ إذْ رأىٰ فيهِ مخايلَ الرغبةِ في جاهِ الوعظِ وقبولِ الخلقِ .

---

(١) رواه البخاري (٧١٤٨) ، وليس فيه : « إلا من أخذها بحقها » ، وهي عند مسلم (١٨٢٥) من حديث أبي ذر رضي الله عنه .

(٢) هو قطعة من الحديث المتقدم عند البخاري (٧١٤٨) ، وفصلهما المصنف تبعاً لصاحب « الرعاية » (ص٢٧١) .

(٣) رواه البخاري في « الأدب المفرد » (٤٧٦) .

(٤) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٤٨) برواية نعيم بن حماد ، والبيهقي في « الزهد الكبير » (٣٠٣) .

(٥) رواه الضياء في « المختارة » (١٠٦) ، وأحمد في « المسند » (١٨/١) بنحوه .

والقضاءُ والخلافةُ ممَّا يحتاجُ الناسُ إليهِ في دينِهِمْ ؛ كالوعظِ والتدريسِ والفتوىٰ ، وفي كلِّ واحدٍ منهُما فتنةٌ ولذةٌ ، فلا فرقَ بينَهُما .

فأمَّا قولُ القائلِ : نهيُكَ عنْ ذلكَ يؤدي إلى اندراسِ العلمِ . . فهوَ غلطٌ ؛ إذْ نهيُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنِ القضاءِ لمْ يؤدِّ إلىٰ تعطيلِ القضاءِ[1] ، بلِ الرئاسةُ وحبُّها يضطرُّ الخلقَ إلىٰ طلبِها ، وكذلكَ حبُّ الرئاسةِ لا يتركُ العلومَ تندرسُ ، بلْ لوْ حُبسَ الناسُ وقُيِّدوا بالسلاسلِ والأغلالِ عنْ طلبِ العلومِ التي فيها القبولُ والرئاسةُ . . لأفلتوا مِنَ الحبسِ وقطعوا السلاسلَ وطلبوها ، وقدْ وعدَ اللهُ أنْ يؤيِّدَ هٰذا الدينَ بأقوامٍ لا خَلاقَ لهُمْ ، فلا تشغلْ قلبَكَ بأمرِ الناسِ ، فإنَّ اللهَ لا يضيِّعُهُمْ ، وانظرْ لنفسِكَ .

ثمَّ إني أقولُ معَ هٰذا : إذا كانَ في البلدِ جماعةٌ يقومونَ بالوعظِ مثلاً . . فليسَ في النهيِ عنهُ إلا امتناعُ بعضِهِمْ ، وإلا . . فيُعلمُ أنَّ كلَّهَمْ لا يمتنعونَ ، ولا يتركونَ لذَّةَ الرئاسةِ ، فإنْ لمْ يكنْ في البلدِ إلا واحدٌ ، وكانَ وعظُهُ نافعاً للناسِ مِنْ حيثُ حسنُ كلامِهِ ، وحسنُ سمتِهِ في الظاهرِ ، وتخييلُهُ إلى العوامِّ أنَّهُ إنَّما يريدُ اللهَ بوعظِهِ ، وأنَّهُ تاركٌ للدنيا ومعرضٌ عنها . . فلا نمنعُهُ منهُ ، ونقولُ لهُ : اشتغلْ وجاهدْ نفسَكَ ، فإنْ قالَ : لستُ أقدرُ علىٰ نفسي ، فنقولُ لهُ : اشتغلْ وجاهدْ ؛ لأنَّا نعلمُ أنَّهُ لوْ تركَ ذلكَ . . لهلكَ الناسُ

(١) إذ روىٰ مسلم (١٨٢٦) من حديث أبي ذر رضي الله عنه مرفوعاً : « لا تأمرن على اثنين ، ولا تولينَّ مال يتيم » .

كلُّهُمْ ؛ إذْ لا قائمَ بهِ غيرُهُ ، ولوْ واظبَ وغرضُهُ الجاهُ . . فهوَ الهالكُ وحدَهُ ، وسلامةُ دينِ الجميعِ أحبُّ عندَنا مِنْ سلامةِ دينِهِ وحدَهُ ، فنجعلُهُ فداءً للقومِ ، ونقولُ : لعلَّ هـٰذا هوَ الذي قالَ فيهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ يؤيِّدُ هـٰذا الدينَ بأقوامٍ لا خلاقَ لهُمْ »[١] .

ثمَّ الواعظُ هوَ الذي يرغِّبُ في الآخرةِ ، ويزهِّدُ في الدنيا بكلامِهِ وبظاهرِ سيرتِهِ ، فأمَّا ما أحدثَهُ الوعَّاظُ في هـٰذهِ الأعصارِ ؛ مِنَ الكلماتِ المزخرفةِ ، والألفاظِ المسجعةِ المقرونةِ بالأشعارِ ، ممَّا ليسَ فيهِ تعظيمٌ لأمرِ الدينِ وتخويفٌ للمسلمينَ ، بلْ فيهِ الترجيةُ والتجرئةُ على المعاصي بطيَّاراتِ النُّكتِ[٢] . . فيجبُ إخلاءُ البلادِ منهُمْ ؛ فإنَّهُمْ نوَّابُ الدجالِ وخلفاءُ الشيطانِ ، وإنَّما كلامُنا في واعظٍ حسنِ الوعظِ ، جميلِ الظاهرِ ، يبطنُ في نفسِهِ حبَّ القبولِ ولا يقصدُ غيرَهُ .

وفيما أوردناهُ في كتابِ العلمِ مِنَ الوعيدِ الواردِ في حقِّ علماءِ السوءِ ما يبيِّنُ لزومَ الحذرِ مِنْ فتنِ العلمِ وغوائلِهِ ، ولقدْ قالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (يا علماءَ السوءِ ؛ تصومونَ وتصلونَ وتتصدقونَ ، ولا تفعلونَ ما تأمرونَ ، وتدرِّسونَ ما لا تعملونَ ، فيا سوءَ ما تحكمونَ ، تتوبونَ بالقولِ والأمانيِّ ،

---

(١) رواه النسائي في « الكبرىٰ » (٨٨٣٤) .

(٢) طيارات النكت : النكت النوادر الغريبة المهيجة للأوصاف المستكنة في الضمائر ، مما يكون باعثاً علىٰ آفاته غرض شيطاني . « إتحاف » (٨/ ٣١٨) .

وتعملونَ بالهوىٰ ، وما يغني عنكمْ أنْ تنقُّوا جلودكُمْ وقلوبُكُمْ دنسةٌ ؟!

بحقٍّ أقولُ لكُمْ : لا تكونوا كالمُنْخُلِ ؛ يخرجُ منهُ الدقيقُ الطيبُ ويبقىٰ فيهِ النُّخالةُ ، كذلكَ أنتُمْ تخرجونَ الحكمَ مِنْ أفواهِكُمْ ويبقى الغلُّ في صدورِكُمْ .

يا عبيدَ الدنيا ، كيفَ يدركُ الآخرةَ مَنْ لا تنقضي مِنَ الدنيا شهوتُهُ ، ولا تنقطعُ منها رغبتُهُ ؟!

بحقٍّ أقولُ لكمْ : إنَّ قلوبَكُمْ تبكي مِنْ أعمالِكُمْ ، جعلتُمُ الدنيا تحتَ ألسنتِكُمْ ، والعملَ تحتَ أقدامِكُمْ .

بحقٍّ أقولُ لكمْ : أفسدتُمْ آخرتَكُمْ بصلاحِ دنياكُمْ ، فصلاحُ الدنيا أحبُّ إليكُمْ مِنْ صلاحِ الآخرةِ ، فأيُّ ناسٍ أخسُّ منكُمْ ؟! لوْ تعلمونَ ، ويلَكُمْ ، حتَّىٰ متىٰ تصفونَ الطريقَ للمدلجينَ وتقيمونَ في محلَّةِ المتحيِّرينَ ؛ كأنَّكُمْ تدعونَ أهلَ الدنيا ليتركوها لكُمْ ، مهلاً مهلاً ويلَكُمْ ، ماذا يُغني عنِ البيتِ المظلمِ أنْ يُوضعَ السراجُ فوقَ ظهرِهِ وجوفُهُ وحِشٌ مظلمٌ ؟! كذلكَ لا يغني عنكُمْ أنْ يكونَ نورُ العلمِ بأفواهِكُمْ وأجوافُكُمْ مِنهُ وَحِشةٌ معطلةٌ .

يا عبيدَ الدنيا ؛ لا كعبيدٍ أتقياءَ ، ولا كأحرارٍ كرامٍ ، توشكُ الدنيا أنْ تقلعَكُمْ عنْ أصولِكُمْ فتلقيَكُمْ علىٰ وجوهِكُمْ ، ثمَّ تكبَّكُمْ علىٰ مناخرِكُمْ ، ثمَّ تأخذُ خطاياكُمْ بنواصيكُمْ ؛ ثمَّ يدفعُكُمُ العلمُ مِنْ خلفِكُمْ ، ثم يسلمُكُمْ إلى

الملكِ الديانِ حفاةً عراةً فرادىٰ ، فيوقفُكُمْ علىٰ سوءاتِكُمْ ، ثمَّ يجزيكُمْ بسوءِ أعمالِكُمْ)[١] .

وقدْ روى الحارثُ المحاسبيُّ هـٰذا الحديثَ في بعضِ كتبهِ ، ثمَّ قالَ : (هؤلاءِ علماءُ السوءِ ، شياطينُ الإنسِ ، وفتنةٌ على الناسِ ، رغبوا في عرضِ الدنيا ورفعتِها ، وآثروها على الآخرةِ ، وأذلُّوا الدينَ للدنيا ، فهُمْ في العاجلِ عارٌ وشَينٌ ، وفي الآخرةِ همُ الخاسرونَ) .

❋ ❋ ❋

فإنْ قلتَ : فهـٰذهِ الآفاتُ ظاهرةٌ ، ولكنْ وردَ في العلمِ والوعظِ رغائبُ كثيرةٌ ، حتَّىٰ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لأنْ يهديَ اللهُ بكَ رجلاً خيرٌ لكَ مِنَ الدنيا وما فيها »[٢] ، وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أيُّما داعٍ دعا إلىٰ هدىً واتُّبعَ عليهِ . . كانَ لهُ أجرُهُ وأجرُ مَنْ اتَّبعَهُ »[٣] ، إلىٰ غيرِ ذلكَ مِنْ فضائلِ العلمِ ، فينبغي أنْ يُقالَ للعالمِ : اشتغلْ بالعلمِ واتركْ مراءاةَ الخلقِ ، كما يُقالُ لمَنْ خالجَهُ الرياءُ في الصلاةِ : لا تتركِ العملَ ، ولكنْ أتممِ العملَ وجاهدْ نفسَكَ .

---

(١) مجمل أقوال سيدنا عيسىٰ علىٰ نبينا وعليه الصلاة والسلام رواها ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦٨/٥٩) ، (٤٧/٤٦٠) .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٣٧٥) بلفظه ، وأصله في « البخاري » (٣٧٠١) ، و« مسلم » (٢٤٠٦) .

(٣) رواه ابن ماجه (٢٠٥) .

فاعلمْ : أنَّ فضلَ العلمِ كثيرٌ ، وخطرَهُ عظيمٌ ؛ كفضلِ الخلافةِ والإمارةِ ، ولا نقولُ لأحدٍ مِنْ عبادِ اللهِ : اتركِ العلمَ ؛ إذْ ليسَ في نفسِ العلمِ آفةٌ ، وإنَّما الآفةُ في إظهارِهِ بالتصدِّي للوعظِ والتدريسِ وروايةِ الأحاديثِ ، ولا نقولُ لهُ أيضاً : اتركْهُ ما دامَ يجدُ في نفسِهِ باعثاً دينياً ممزوجاً بباعثِ الرياءِ .

فأمَّا إذا لمْ يحرِّكْهُ إلا الرياءُ . . فتركُ الإظهارِ أنفعُ لهُ وأسلمُ ، وكذلكَ نوافلُ الصلواتِ إذا تجرَّدَ فيها باعثُ الرياءِ . . وجبَ تركُها ، أمَّا إذا خطرَتْ لهُ وساوسُ الرياءِ في أثناءِ الصلاةِ وهوَ لها كارهٌ . . فلا يتركُ الصلاةَ ؛ لأنَّ آفةَ الرياءِ في العباداتِ ضعيفةٌ ، وإنَّما تعظمُ في الولاياتِ ، وفي التصدي للمناصبِ الكبيرةِ في العلمِ .

❊ ❊ ❊

وبالجملةِ : فالمراتبُ ثلاثٌ :

الأولىٰ : الولاياتُ ، والآفاتُ فيها عظيمةٌ ، وقدْ تركَها جماعةٌ مِنَ السلفِ خوفاً مِنَ الآفةِ .

الثانيةُ : الصومُ ، والصلاةُ ، والحجُّ ، والغزوُ ، وقدْ تعرَّضَ لها أقوياءُ السلفِ وضعفاؤُهُمْ ، ولمْ يُؤثرْ عنهُمُ التركُ لخوفِ الآفةِ ، وذلكَ لضعفِ الآفاتِ الداخلةِ فيها ، والقدرةِ علىٰ نفيِها معَ إتمامِ العملِ للهِ بأدنىٰ قوةٍ .

الثالثةُ : وهيَ متوسطةٌ بينَ الرتبتينِ ، وهيَ التصدي لمنصبِ الوعظِ

والفتوىٰ والروايةِ والتدريسِ ، والآفاتُ فيها أقلُّ ممَّا في الولاياتِ وأكثرُ ممَّا في الصلواتِ ؛ فالصلاةُ ينبغي ألا يتركَها الضعيفُ والقويُّ ، ولكنْ يدفعُ خاطرَ الرياءِ ، والولاياتُ ينبغي أنْ يتركَها الضعفاءُ رأساً دونَ الأقوياءِ ، ومناصبُ العلمِ بينَهُما ، ومَنْ جرَّبَ آفاتِ منصبِ العلمِ . . علمَ أنَّهُ بالولاياتِ أشبهُ ، وأنَّ الحذرَ منهُ في حقِّ الضعيفِ أسلمُ ، واللهُ أعلمُ .

وهٰهنا رتبةٌ رابعةٌ : وهيَ جمعُ المالِ وأخذُهُ للتفرقةِ على المستحقينَ ، فإنَّ في الإنفاقِ وإظهارِ السخاءِ استجلاباً للثناءِ ، وفي إدخالِ السرورِ علىٰ قلوبِ الناسِ لذةً للنفسِ ، والآفاتُ فيها أيضاً كثيرةٌ ، ولذلكَ سُئلَ الحسنُ عنْ رجلٍ طلبَ القوتَ ثمَّ أمسكَ ، وآخرَ طلبَ فوقَ قوتِهِ ثمَّ تصدَّقَ بهِ ، فقالَ : (القاعدُ أفضلُ)[1] ؛ لما يعرفونَ مِنْ قلَّةِ السلامةِ في الدنيا ، وأنَّ مِنَ الزُّهدِ تركَها قربةً إلى اللهِ تعالىٰ .

وقالَ أبو الدرداءِ : (ما يسرُّني أنِّي أقمتُ علىٰ درجِ مسجدِ دمشقَ أصيبُ كلَّ يومٍ خمسينَ ديناراً أتصدقُ بها ، أما إنِّي لا أحرِّمُ البيعَ والشراءَ ، ولكنِّي أريدُ أنْ أكونَ مِنَ الذينَ لا تلهيهِمْ تجارةٌ ولا بيعٌ عنْ ذكرِ اللهِ)[2] .

وقدِ اختلفَ العلماءُ[3] ؛ فقالَ قومٌ : إذا طلبَ الدنيا مِنَ الحلالِ وسلمَ منها وتصدَّقَ بها . . فهوَ أفضلُ مِنْ أنْ يشتغلَ بالعباداتِ والنوافلِ ، وقالَ

---

(١) كذا في « الرعاية » (ص٢٧٣) .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٨٤٧) .

(٣) أورد الخلاف الإمام المحاسبي في « الرعاية » (ص٢٧٥) .

قومٌ : الجلوسُ في دوامِ ذكرِ اللهِ أفضلُ ، والأخذُ والعطاءُ يشغلُ عَنْ ذكرِ اللهِ ، وقدْ قالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (يا طالبَ الدنيا لتبرَّ بها ؛ تركُكَ لها أبرُّ)[1] ، وقالَ : أقلُّ ما فيهِ أنَّهُ يشغلُهُ إصلاحُهُ عنْ ذكرِ اللهِ ، وذكرُ اللهِ أفضلُ وأكبرُ ، وهٰذا فيمَنْ سلمَ مِنَ الآفاتِ .

فأمَّا مَنْ يتعرَّضُ لآفةِ الرياءِ.. فتركُهُ لها أبرُّ ، والاشتغالُ بالذكرِ لا خلافَ في أنَّهُ أفضلُ .

وبالجملةِ : ما يتعلَّقُ بالخلقِ وللنفسِ فيهِ لذَّةٌ.. فهوَ مثارُ الآفاتِ ، والأحبُّ أنْ يعملَ ويدفعَ الآفةَ ، فإنْ عجزَ.. فلينظرْ وليجتهدْ ، وليستفتِ قلبَهُ ، وليزنْ ما فيهِ مِنَ الخيرِ بما فيهِ مِنَ الشرِّ ، وليفعلْ ما يدلُّ عليهِ نورُ العلمِ دونَ ما يميلُ إليهِ الطبعُ .

وبالجملةِ : ما يجدُهُ أخفَّ علىٰ قلبِهِ فهوَ في الأكثرِ أضرُّ عليهِ ؛ لأنَّ النفسَ لا تشيرُ إلا بالشرِّ ، وقلَّما تستلذُّ الخيرَ وتميلُ إليهِ ، وإنْ كانَ لا يبعدُ ذلكَ أيضاً في بعضِ الأحوالِ ، وهٰذهِ أمورٌ لا يمكنُ الحكمُ علىٰ تفاصيلِها بنفيٍ وإثباتٍ ، فهوَ موكولٌ إلى اجتهادِ القلبِ لينظرَ فيهِ لدينِهِ ، ويدعَ ما يريبُهُ إلىٰ ما لا يريبُهُ .

ثمَّ قدْ يقعُ ممّا ذكرناهُ غرورٌ للجاهلِ ، فيمسكُ المالَ ولا ينفقُهُ خيفةً مِنَ

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » . « إتحاف » (٨/ ٩٠) ، والمعنىٰ : يا من يطلب الدنيا ليكون باراً ببذلها ، فهو لا يطلبها لذاتها ؛ إن تركك لها أبرُّ من برِّك بها .

الآفةِ ، وهوَ عينُ البخلِ ، ولا خلافَ في أنَّ تفرقةَ المالِ في المباحاتِ فضلاً عنِ الصدقاتِ أفضلُ مِنْ إمساكِهِ ، وإنَّما الخلافُ فيمَنْ يحتاجُ إلى الكسبِ أنَّ الأفضلَ الكسبُ[1] والإنفاقُ أوِ التجردُ للذِّكرِ ، وذلكَ لما في الكسبِ مِنَ الآفاتِ ، فأمَّا المالُ الحاصلُ مِنَ الحلالِ . . فتفرقتُهُ أفضلُ مِنْ إمساكِهِ بكلِّ حالٍ .

❀ ❀ ❀

فإنْ قلتَ : فبأيِّ علامةٍ تعرفُ العالمَ والواعظَ أنَّهُ صادقٌ مخلصٌ في وعظِهِ غيرُ مريدٍ رياءَ الناسِ ؟

فاعلمْ : أنَّ لذلكَ علاماتٍ :

إحداها : أنَّهُ لوْ ظهرَ مَنْ هو أحسنُ منهُ وعظاً أوْ أغزرُ منهُ علماً والناسُ لهُ أشدُّ قبولاً . . فرحَ بهِ ولمْ يحسدْهُ ، نعمْ ، لا بأسَ بالغبطةِ ، وهوَ أنْ يتمنَّىٰ لنفسِهِ مثلَ علمِهِ .

والأخرىٰ : أنَّ الأكابرَ إذا حضروا مجلسَهُ . . لمْ يتغيرْ كلامُهُ .

بلْ بقيَ كما كانَ عليهِ ، فينظرُ إلى الخلقِ بعينٍ واحدةٍ .

والأخرىٰ : ألا يحبَّ اتباعَ الناسِ لهُ في الطريقِ والمشيَ خلفَهُ في الأسواقِ .

ولذلكَ علاماتٌ كثيرةٌ يطولُ إحصاؤُها .

---

(١) في غير (د) : (الأفضل ترك الكسب) .

وقدْ رُويَ عنْ سعيدِ بنِ أبي مروانَ أنَّهُ قالَ : كنتُ جالساً إلىٰ جنبِ الحسنِ ، إذْ دخلَ علينا الحجاجُ مِنْ بعضِ أبوابِ المسجدِ ومعَهُ الحرسُ وهوَ علىٰ برذونٍ أصفرَ ، فدخلَ المسجدَ علىٰ برذونِهِ ، فجعلَ يلتفتُ في المسجدِ ، فلمْ يرَ حلقةً أحفلَ مِنْ حلقةِ الحسنِ ، فتوجَّهَ نحوَها حتَّىٰ بلغَ قريباً منها ، ثمَّ ثنىٰ وركَهُ ، فنزلَ ومشىٰ نحوَ الحسنِ ، فلمَّا رآهُ الحسنُ متوجهاً إليهِ . . تجافىٰ لهُ عنْ ناحيةِ مجلسِهِ ، قالَ سعيدٌ : وتجافيتُ لهُ أيضاً عنْ ناحيةِ مجلسي ، حتَّىٰ صارَ بيني وبينَ الحسنِ فرجةٌ ومجلسٌ للحجاجِ ، فجاءَ الحجاجُ حتَّىٰ جلسَ بيني وبينَهُ ، والحسنُ يتكلَّمُ بكلامٍ لهُ يتكلَّمُ بهِ في كلِّ يومٍ ، فما قطعَ الحسنُ كلامَهُ .

قالَ سعيدٌ : فقلتُ في نفسي : لأبلونَّ الحسنَ اليومَ ، ولأنظرَنَّ هلْ يحملُ الحسنَ جلوسُ الحجاجِ إليهِ أنْ يزيدَ في كلامِهِ يتقرَّبُ إليهِ ، أوْ تحملُهُ هيبةُ الحجاجِ أنْ ينقصَ مِنْ كلامِهِ ؟ فتكلَّمَ الحسنُ كلاماً واحداً نحواً ممَّا كانَ يتكلَّمُ بهِ في كلِّ يومٍ ، حتَّى انتهىٰ إلىٰ آخرِ كلامِهِ ، فلمَّا فرغَ الحسنُ مِنْ كلامِهِ وهوَ غيرُ مكترثٍ بهِ . . رفعَ الحجاجُ يدَهُ فضربَ بها علىٰ مَنْكِبِ الحسنِ ، ثمَّ قالَ : صدقَ الشيخُ وبرَّ ، فعليكمْ بهـٰذهِ المجالسِ وأشباهِها فاتخذوها خُلقاً وعادةً ؛ فإنَّهُ بلغَني عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : أنَّ مجالسَ الذكرِ رياضُ الجنةِ[1] ، ولولا ما حُمِّلناهُ مِنْ أمرِ الناسِ . . ما غلبتُمونا علىٰ هـٰذهِ المجالسِ ؛ لمعرفتِنا بفضلِها ، قالَ : ثمَّ افترَّ الحجاجُ

---

(١) رواه الترمذي (٣٥١٠) .

فتكلَّمَ حتَّىٰ عجبَ الحسنُ ومَنْ حضرَ مِنْ بلاغتِهِ ، فلمَّا فرغَ . . طفقَ فقامَ .

فجاءَ رجلٌ مِنْ أهلِ الشامِ إلىٰ مجلسِ الحسنِ حينَ قامَ الحجاجُ ، فقالَ : عبادَ اللهِ المسلمينَ ؛ ألا تعجبوا أنّي رجلٌ شيخٌ كبيرٌ ، وأنّي أُغزَّىٰ ، فأُكلَّفُ فرساً وبغلاً ، وأُكلَّفُ فسطاطاً ، وأنّي لي ثلاثُ مئةِ درهمٍ مِنَ العطاءِ ، وأنَّ لي سبعَ بناتٍ مِنَ العيالِ ! فشكا مِنْ حالِهِ حتَّىٰ رقَّ لهُ الحسنُ وأصحابُهُ ، والحسنُ مكبٌّ ، فلمَّا فرغَ الرجلُ مِنْ كلامِهِ . . رفعَ الحسنُ رأسَهُ فقالَ : ما لهُمْ قاتلَهُمُ اللهُ ! اتخذوا عبادَ اللهِ خولاً ، ومالَ اللهِ دولاً ، وقتلوا الناسَ على الدينارِ والدرهمِ ، فإذا غزا عدوٌّ اللهِ . . غزا في الفساطيطِ الهيَّابةِ ، وعلى البغالِ السبَّاقةِ ، وإذا أغزىٰ أخاهُ . . أغزاهُ طاوياً راجلاً ، فما فترَ الحسنُ حتَّىٰ ذكرَهُمْ بأقبحِ العيبِ وأشدِّهِ .

فقامَ رجلٌ مِنْ أهلِ الشامِ كانَ جالساً إلى الحسنِ ، فسعىٰ بهِ إلى الحجاجِ ، وحكىٰ لهُ كلامَهُ ، فلمْ يلبثِ الحسنُ أنْ أتتْهُ رسلُ الحجاجِ ، فقالوا : أجبِ الأميرَ ، فقامَ الحسنُ ، وأشفقنا عليهِ مِنْ شدةِ كلامِهِ الذي تكلَّمَ بهِ ، فلمْ يلبثِ الحسنُ أنْ رجعَ إلىٰ مجلسِهِ وهوَ يتبسَّمُ ، وقلَّما رأيتُهُ فاغراً فاهُ يضحكُ ، إنَّما كانَ يتبسَّمُ ، فأقبلَ حتَّىٰ قعدَ في مجلسِهِ ، فعظَّمَ الأمانةَ ، وقالَ : إنَّما تجالسونَ بالأمانةِ ؛ كأنَّكُمْ تظنُّونَ أنَّ الخيانةَ ليسَتْ إلا في الدينارِ والدرهمِ ، إنَّ الخيانةَ أشدَّ الخيانةِ أنْ يجالسَنا الرجلُ ، فنطمئنَّ إلىٰ ناحيتِهِ ، ثمَّ ينطلقُ فيسعىٰ بنا إلىٰ شرارةٍ مِنْ نارٍ ، إنِّي أتيتُ هٰذا الرجلَ ، فقالَ : أقصرْ عليكَ مِنْ لسانِكَ وقولِكَ : إذا غزا عدوُّ اللهِ . . غزا

كذا ، وإذا أغزىٰ أخاهُ . . أغزاهُ كذا ، لا أبا لكَ ؛ تحرِّضُ علينا الناسَ ؟! أما إنَّا علىٰ ذلكَ لا نتهمُ لنصيحتِكَ ، فأقصرْ عليكَ مِنْ لسانِكَ ، قالَ : فدفعَهُ اللهُ عنِّي .

وركبَ الحسنُ حماراً يريدُ المنزلَ ، فبينَما هوَ يسيرُ إذِ التفتَ فرأىٰ قوماً يتبعونَهُ ، فوقفَ فقالَ : هلْ لكمْ مِنْ حاجةٍ أوْ تسألونَ عنْ شيءٍ ؟ وإلا . . فارجعوا ، فما يبقي هـٰذا مِنْ قلبِ العبدِ ؟!

فبهـٰذهِ العلاماتِ وأمثالِها تتبيَّنُ سريرةُ الباطنِ ، ومهما رأيتَ العلماءَ يتغايرونَ ويتحاسدونَ ، ولا يتوانسونَ ولا يتعاونونَ . . فاعلمْ أنَّهُمْ قدِ اشترَوُا الحياةَ الدنيا بالآخرةِ ، فهُمُ الخاسرونَ ، اللهمَّ ؛ ارحمْنا بلطفِكَ يا أرحمَ الراحمينَ .

* * *

بيان ما يصح من نشاط العبد للعبادة بسبب رؤية الخلق وما لا يصح

اعلمْ : أنَّ الرجلَ قدْ يبيتُ معَ القومِ في موضعٍ ، فيقومونَ للتهجُّدِ أوْ يقومُ بعضُهُمْ فيصلُّونَ الليلَ كلَّهُ أوْ بعضَهُ ، وهوَ ممَّنْ يقومُ في بيتِهِ ساعةً قريبةً ، فإذا رآهُمْ . . انبعثَ نشاطُهُ للموافقةِ ، حتَّىٰ يزيدُ علىٰ ما كانَ يعتادُهُ أوْ يصلِّي معَ أنَّهُ كانَ لا يعتادُ الصلاةَ بالليلِ أصلاً .

وكذلكَ قدْ يقعُ في موضعٍ يصومُ فيهِ أهلُ الموضعِ ، فينبعثُ لهُ نشاطٌ في الصومِ ، ولولاهُمْ . . لما انبعثَ هـٰذا النشاطُ .

فهـٰذا ربَّما يُظنُّ أنَّهُ رياءٌ ، وأنَّ الواجبَ تركُ الموافقةِ .

وليسَ كذلكَ على الإطلاقِ ، بلْ لهُ تفصيلٌ ؛ لأنَّ كلَّ مؤمنٍ راغبٌ في عبادةِ اللهِ تعالىٰ ، وفي قيامِ الليلِ وصيامِ النهارِ ، ولكنْ قدْ تعوقُهُ العوائقُ ، ويمنعُهُ الاشتغالُ ، ويغلبُهُ التمكنُ مِنَ الشهواتِ ، أوْ تستهويهِ الغفلةُ ، فربَّما تكونُ مشاهدةُ الغيرِ سببَ زوالِ الغفلةِ ، أوْ تندفعُ العوائقُ والأشغالُ في بعضِ المواضعِ ، فينبعثُ النشاطُ ، فقدْ يكونُ الرجلُ في منزلِهِ ، فتقطعُهُ الأسبابُ عنِ التهجُّدِ ؛ مثلَ تمكنِهِ مِنَ النومِ علىٰ فراشٍ وثيرٍ ، أو تمكنِهِ مِن التمتُّعِ بزوجتِهِ ، أوِ المحادثةِ معَ أهلِهِ وأقاربِهِ ، أوِ الاشتغالِ بأولادِهِ ، أوْ مطالعةِ حسابٍ لهُ معَ معامليهِ ، فإذا وقعَ في منزلٍ غريبٍ . . اندفعَتْ عنهُ هـٰذهِ الشواغلُ التي تفترُ رغبتَهُ عنِ الخيرِ ، وحصلَتْ لهُ أسبابٌ باعثةٌ على الخيرِ ؛

كمشاهدتِهِ إيَّاهُمْ وقدْ أقبلوا على اللهِ وأعرضوا عنِ الدنيا ؛ فإنَّهُ ينظرُ إليهِمْ فينافسُهُمْ ، ويشقُّ عليهِ أنْ يسبقوهُ بطاعةِ اللهِ تعالىٰ ، فتتحرَّكُ داعيتُهُ للدِّينِ لا للرياءِ .

أوْ ربَّما يفارقُهُ النومُ لاستنكارِهِ الموضعَ ، أوْ بسببٍ آخرَ ، فيغتنمُ زوالَ النومِ ، وفي منزلِهِ ربَّما يغلبُهُ النومُ ، وربَّما ينضافُ إليهِ أنَّهُ في منزلِهِ على الدوامِ ، والنفسُ لا تسمحُ بالتهجُّدِ دائماً ، وتسمحُ بالتهجُّدِ وقتاً قليلاً ، فيكونُ ذلكَ سببَ هـٰذا النشاطِ معَ اندفاعِ سائرِ العوائقِ .

وقدْ يعسرُ عليهِ الصومُ في منزلِهِ ومعَهُ أطايبُ الأطعمةِ ، ويشقُّ عليهِ الصبرُ عنها ، فإذا أعوزَتْهُ تلكَ الأطعمةُ . . لمْ يشقَّ عليهِ ، فتنبعثُ داعيةُ الدينِ للصومِ ، فإنَّ الشهواتِ الحاضرةَ عوائقُ ودوافعُ تغلبُ باعثَ الدينِ ، فإذا سلمَ منها . . قويَ الباعثُ .

فهـٰذا وأمثالُهُ مِنَ الأسبابِ يُتصوَّرُ وقوعُهُ ، ويكونُ السببُ فيهِ مشاهدةَ الناسِ وكونَهُ معَهُمْ ، والشيطانُ معَ ذلكَ ربَّما يصدُّ عنِ العملِ ويقولُ : لا تعملْ ؛ فإنَّكَ تكونُ مرائياً ؛ إذْ كنتَ لا تعملُ في بيتِكَ ، ولا تزدْ علىٰ صلاتِكَ المعتادةِ .

وقدْ تكونُ رغبتُهُ في الزيادةِ لأجلِ رؤيتِهِمْ ، وخوفاً مِنْ ذمِّهِمْ ونسبتِهِمْ إيَّاهُ إلى الكسلِ ، لا سيَّما إذا كانوا يظنُّونَ بهِ أنَّهُ يقومُ الليلَ ، فإنَّ نفسَهُ لا تسمحُ بأَنْ يسقطَ مِنْ أعينِهِمْ ، فيريدُ أنْ يحفظَ منزلتَهُ ، وعندَ ذلكَ قدْ يقولُ

الشيطانُ : صلِّ ؛ فإنَّكَ مخلصٌ ، ولستَ تصلِّي لأجلِهِمْ ، بلْ للهِ ، وإنَّما كنتَ لا تصلي كلَّ ليلةٍ لكثرةِ العوائقِ ، وإنَّما داعيتُكَ لزوالِ العوائقِ لا لاطلاعِهِمْ .

وهـٰذا أمرٌ مشتبهٌ إلا علىٰ ذوي البصائرِ ؛ فإذا عرفَ أنَّ المحركَ هوَ الرياءُ . . فلا ينبغي أنْ يزيدَ علىٰ ما كانَ يعتادُهُ ولا ركعةً واحدةً ؛ لأنَّهُ يعصي اللهَ تعالىٰ بطلبِ محمدةِ الناسِ بطاعةِ اللهِ ، وإنْ كانَ انبعاثُهُ لدفعِ العوائقِ وتحرُّكِ الغبطةِ والمنافسةِ بسببِ عبادتِهِمْ . . فليوافقْ .

وعلامةُ ذلكَ : أنْ يعرضَ علىٰ نفسِهِ أنَّهُ لوْ رأىٰ هؤلاءِ يصلونَ مِنْ حيثُ لا يرونَهُ ، بلْ مِنْ وراءِ حجابٍ وهوَ في ذلكَ الموضعِ بعينِهِ . . هلْ كانَتْ تسخو نفسُهُ بالصلاةِ وهمْ لا يرونَهُ ؟ فإنْ سختْ نفسُهُ بهِ . . فليصلِّ ؛ فإنَّ باعثَهُ الحقُّ ، وإنْ كانَ ذلكَ يثقلُ علىٰ نفسِهِ لوْ غابَ عنْ أعينِهِمْ . . فليتركْ ؛ فإنَّ باعثَهُ الرياءُ .

وكذلكَ قدْ يحضرُ الإنسانُ يومَ الجمعةِ في الجامعِ مِنْ نشاطِ الصلاةِ ما لا يحضرُهُ كلَّ يومٍ ، ويمكنُ أنْ يكونَ ذلكَ لحبِّ حمدِهِمْ ، ويمكنُ أنْ يكونَ تحرُّكُ نشاطِهِ بسببِ نشاطِهِمْ وزوالُ غفلتِهِ بسببِ إقبالِهِمْ على اللهِ تعالىٰ ، وقدْ يتحرَّكُ بذلكَ باعثُ الدينِ ويقارنُهُ نزوعٌ في النفسِ إلىٰ حبِّ الحمدِ ، فمهما علمَ أنَّ الغالبَ علىٰ قلبِهِ إرادةُ الدينِ . . فلا ينبغي أنْ يتركَ العملَ بما يجدُهُ مِنْ حبِّ الحمدِ ، بلْ ينبغي أنْ يردَّ ذلكَ علىٰ نفسِهِ بالكراهةِ ، ويشتغلَ بالعبادةِ .

وكذلكَ قدْ يبكي جماعةٌ ، فينظرُ إليهِمْ ، فيحضرُهُ البكاءُ خوفاً مِنَ اللهِ تعالىٰ لا مِنَ الرياءِ ، ولوْ سمعَ ذلكَ الكلامَ وحدَهُ.. لما كانَ يبكي ، ولكنَّ بكاءَ الناسِ يؤثِّرُ في ترقيقِ القلبِ ، وقدْ لا يحضرُهُ البكاءُ ، فيتباكىٰ تارةً رياءً وتارةً معَ الصدقِ ؛ إذْ يخشىٰ علىٰ نفسِهِ قساوةَ القلبِ حينَ يبكونَ ولا تدمعُ عينُهُ ، فيتباكىٰ تكلفاً ، وذلكَ محمودٌ .

وعلامةُ الصدقِ فيهِ : أنْ يعرضَ علىٰ نفسِهِ أنَّهُ لوْ سمعَ بكاءَهُمْ مِنْ حيثُ لا يرونَهُ.. هلْ كانَ يخافُ علىٰ نفسِهِ القساوةَ فيتباكىٰ أمْ لا ؟ فإنْ لمْ يجدْ ذلكَ عندَ تقديرِ الاختفاءِ عنْ أعينِهِمْ.. فإنَّما خوفُهُ مِنْ أنْ يُقالَ : إنَّهُ قاسي القلبِ ، فينبغي أنْ يتركَ التباكيَ ، قالَ لقمانُ لابنِهِ : (لا تُرِي الناسَ أنَّكَ تخشى اللهَ ليكرموكَ وقلبُكَ فاجرٌ)[1] .

وكذلكَ الصيحةُ والتنفسُ والأنينُ عندَ القرآنِ أوِ الذكرِ أوْ بعضِ مجاري الأحوالِ ؛ تارةً تكونُ مِنَ الصدقِ والحزنِ والخوفِ والندمِ والتأسفِ ، وتارةً تكونُ لمشاهدةِ حزنِ غيرِهِ وقساوةِ قلبِهِ ، فيتكلَّفُ التنفُّسَ والأنينَ ويتحازَنُ ، وذلكَ محمودٌ ، وقدْ تقترنُ بِهِ الرَّغبةُ فيهِ لدلالتِهِ علىٰ أنَّهُ كثيرُ الحزنِ ؛ ليُعرفَ بذلكَ ، فإنْ تجرَّدَتْ هـٰذهِ الداعيةُ.. فهيَ الرياءُ ، وإنِ اقترنَتْ بداعيةِ الحزنِ ؛ فإنْ أباها ولمْ يقبلْها وكرهَها.. سلمَ بكاؤُهُ وتباكيهِ ، وإنْ قبلَ ذلكَ وركنَ إليهِ بقلبِهِ.. حبطَ أجرُهُ ، وضاعَ سعيُهُ ، وتعرَّضَ لسخطِ اللهِ تعالىٰ بهِ .

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٩٢) .

وقدْ يكونُ أصلُ الأنينِ عنِ الحزنِ ، ولكنْ يمدُّهُ ويزيدُ في رفعِ الصوتِ ، فتلكَ الزيادةُ رياءٌ ، وهوَ محظورٌ ؛ لأنَّها في حكمِ الابتداءِ لمجردِ الرياءِ ، فقدْ يهيجُ مِنَ الخوفِ ما لا يملكُ العبدُ معهُ نفسَهُ ، ولكنْ يسبقُ خاطرُ الرياءِ فيقبلُهُ ، فيدعو إلىٰ زيادةِ تحزينِ الصوتِ ، أوْ رفعٍ لهُ ، أوْ حفظِ الدمعةِ على الوجهِ حتَّىٰ تُبصرَ بعدَ أنِ استرسلَتْ لخشيةِ اللهِ تعالىٰ ، ولكنْ يحفظُ أثرَها على الوجهِ لأجلِ الرياءِ .

وكذلكَ قدْ يسمعُ الذكرَ فتضعفُ قواهُ مِنَ الخوفِ فيسقطُ ، ثمَّ يستحي أنْ يُقالَ : إنَّهُ سقطَ مِنْ غيرِ زوالِ عقلٍ وحالةٍ شديدةٍ ، فيزعقُ ويتواجدُ تكلُّفاً ؛ ليُرىٰ أنَّهُ سقطَ لكونِهِ مغشياً عليهِ ، وقدْ كانَ ابتداءُ السقطةِ عنْ صدقٍ ، وقدْ يزولُ عقلُهُ فيسقطُ ، ولكنْ يفيقُ سريعاً ، فتجزعُ نفسُهُ أنْ يُقالَ : حالتُهُ غيرُ ثابتةٍ ، وإنَّما هيَ كبرقٍ خاطفٍ ، فيستديمُ الزعقةَ والرقصَ ؛ ليُريَ دوامَ حالِهِ ، وكذلكَ قدْ يفيقُ بعدَ الضعفِ ، ولكنْ يزولُ ضعفُهُ سريعاً ، فيجزعُ أنْ يُقالَ : لمْ تكنْ غشيتُهُ صحيحةً ، ولوْ كانَ . . لدامَ ضعفُهُ ، فيستديمُ إظهارَ الضعفِ والأنينِ ، فيتكىءُ علىٰ غيرِهِ ؛ ليُرىٰ أنَّهُ يضعفُ عنِ القيامِ ، ويتمايلُ في المشيِ ، ويقرِّبُ الخُطا ؛ ليظهرَ أنَّهُ ضعيفٌ عنْ سرعةِ المشيِ .

فهـٰذهِ كلُّها مكايدُ الشيطانِ ونزغاتُ النفسِ ، فإذا خطرَتْ . . فعلاجُها : أنْ يتذكَّرَ أنَّ الناسَ لوْ عرفوا نفاقَهُ في الباطنِ ، واطلعوا علىٰ ضميرِهِ . . لمقتوهُ ، وأنَّ اللهَ مطلعٌ علىٰ ضميرِهِ وهوَ لهُ أشدُّ مقتاً ، كما رُويَ عنْ ذي

النونِ أنَّهُ قامَ وزعقَ ، فقامَ معَهُ شيخٌ آخرُ رأىٰ فيهِ أثرَ التكلُّفِ فقالَ : يا شيخُ ؛ ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ ، فجلسَ الشيخُ[1] .

وكلُّ ذلكَ مِنْ أعمالِ المنافقينَ ، وقدْ جاءَ في الخبرِ : (تعوَّذوا باللهِ مِنْ خشوعِ النفاقِ)[2] ، وإنَّما خشوعُ النفاقِ أنْ تخشعَ الجوارحُ والقلبُ غيرُ خاشعٍ[3] .

ومِنْ ذلكَ الاستغفارُ والاستعاذةُ باللهِ عزَّ وجلَّ مِنْ عذابِهِ وغضبِهِ ، فإنَّ ذلكَ قدْ يكونُ لخاطرِ خوفٍ وتذكرِ ذنبٍ وتندمٍ عليهِ ، وقدْ يكونُ للمراءاةِ .

فهٰذهِ خواطرُ تردُ على القلبِ متضادّةً مترادفةً متقاربةً ، وهيَ معَ تقاربِها متشابهةٌ ، فراقبْ قلبَكَ في كلِّ ما يخطرُ لكَ ، وانظرْ ما هوَ ؟ ومِنْ أينَ هوَ ؟ فإنْ كانَ للهِ . . فأمضِهِ ، واحذرْ معَ ذلكَ أنْ يكونَ قدْ خفيَ عليكَ شيءٌ مِنَ الرياءِ الذي هوَ كدبيبِ النملِ ، وكنْ علىٰ وجلٍ مِنْ عبادتِكَ أهيَ مقبولةٌ أمْ لا ؛ لخوفِكَ على الإخلاصِ فيها ، واحذرْ أنْ يتجددَ لكَ خاطرُ الركونِ إلىٰ حمدِهِمْ بعدَ الشروعِ بالإخلاصِ ، فإنَّ ذلكَ ممَّا يكثرُ جداً ، فإذا خطرَ لكَ . . فتفكَّرْ في اطلاعِ اللهِ تعالىٰ عليكَ ومقتِهِ لكَ ، وتذكَّرْ ما قالَهُ أحدُ النفرِ

---

(١) الرسالة القشيرية (ص ٥٥٢) .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٤٣) موقوفاً علىٰ أبي هريرة وأبي الدرداء رضي الله عنهما ، ورواه البيهقي في « الشعب » (٦٥٦٨) من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه مرفوعاً ، وفيه زيادة : قالوا : يا رسول الله ؛ وما خشوع النفاق ؟ قال : « خشوع البدن ونفاق القلب » .

(٣) الرعاية (ص ٣٠٢) .

الثلاثةِ الذينَ حاجُّوا أيوبَ عليهِ السلامُ ؛ إذْ قالَ : (يا أيوبُ ؛ أما علمتَ أنَّ العبدَ تضلُّ عنهُ علانيتُهُ التي كانَ يخادعُ بها عنْ نفسِهِ ، ويُجزىٰ بسريرتِهِ ؟!)[1] ، وقولَ بعضِهِمْ : (أعوذُ بكَ أنْ يرى الناسُ أنِّي أخشاكَ وأنتَ لي ماقتٌ)[2] ، وكانَ مِنْ دعاءِ عليِّ بنِ الحسينِ رضيَ اللهُ عنهُما : (اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ أنْ تحسُنَ في لامعةِ العيونِ علانيتي ، وتقبُحَ لكَ فيما أخلو سريرتي ، محافظاً علىٰ رياءِ الناسِ مِنْ نفسي ، ومضيعاً لما أنتَ مطلعٌ عليهِ منِّي ، أُبدي للناسِ أحسنَ أمري ، وأفضي إليكَ بأسوأِ عملي ؛ تقرباً إلى الناسِ بحسناتي ، وفراراً منهُم إليكَ بسيئاتي ، فيحلُّ بي مقتُكَ ، ويجبُ عليَّ غضبُكَ ، أعذْني مِنْ ذلكَ يا ربَّ العالمينَ)[3] .

وقدْ قالَ أحدُ الثلاثةِ نفرٍ لأيوبَ عليهِ السلامُ : (يا أيوبُ ؛ ألمْ تعلمْ أنَّ الذينَ حفظوا علانيتَهُمْ وأضاعوا سرائرَهُمْ عندَ طلبِ الحاجاتِ إلى الرحمٰنِ تسودُّ وجوهُهُمْ ؟)[4] .

فهٰذهِ جملُ آفاتِ الرياءِ ، فليراقبِ العبدُ قلبَهُ ليقفَ عليها ، ففي الخبرِ : « إنَّ الرياءَ سبعونَ باباً »[5] ، وقدْ عرفتَ أنَّ بعضَهُ أغمضُ مِنْ بعضٍ ، حتَّىٰ

---

(١) الرعاية (ص ٣٠٣) ، وذكر روايته عن وهب بن منبه .
(٢) الرعاية (ص ٣٠٣) .
(٣) الرعاية (ص ٣٠٣) .
(٤) الرعاية (ص ٣٠٣) .
(٥) نص الحافظ العراقي علىٰ تصحيف كلمة (الربا) إلى (الرياء) في الحديث ، انظر « الإتحاف » (٨/ ٣٢٧) ، ويحتمل عكس هٰذا في الحديث الذي رواه ابن عدي في =

إنَّ بعضَهُ مثلُ دبيبِ النملِ ، وبعضَهُ أخفىٰ مِنْ دبيبِ النملِ ، وكيفَ يُدركُ ما هوَ أخفىٰ مِنْ دبيبِ النملِ إلا بشدَّةِ التفقُّدِ والمراقبةِ ؟! وليتَهُ أُدركَ بعدَ بذلِ المجهودِ ، فكيفَ يُطمعُ في إدراكِهِ مِنْ غيرِ تفقُّدٍ للقلبِ ، وامتحانٍ للنفسِ ، وتفتيشٍ عنْ خدَعِها ؟! ، نسألُ اللهَ تعالىٰ العافيةَ بمنِّهِ وكرمِهِ وإحسانِهِ .

* * *

= « الكامل » (٦/ ٣٩١) مرفوعاً : « الربا اثنان وسبعون باباً ، أيسر باب فيها أخفىٰ من دبيب الذر على الصفا » ؛ للحديث المتقدم : « للشرك فيكم أخفىٰ من دبيب النمل » الذي رواه الضياء في « المختارة » (٦٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٧/ ١١٢) ، ولحديث ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٢٤٤٤) : « الربا بضع وسبعون باباً ، والشرك مثل ذلك » ، والله أعلم .

بيان ما ينبغي للمريد أن يلزم نفسه قبل العمل وبعده وفيه

اعلمْ : أنَّ أولىٰ ما يلزِمُ المريدُ قلبَهُ في سائرِ أوقاتِهِ القناعةُ بعلمِ اللهِ في جميعِ طاعاتِهِ ، ولا يقنعُ بعلمِ اللهِ إلا مَنْ لا يخافُ إلا اللهَ ، ولا يرجو إلا اللهَ ، فأمَّا مَنْ خافَ غيرَهُ وارتجاهُ.. اشتهى اطلاعَهُ علىٰ محاسنِ أحوالِهِ .

فإنْ كانَ في هٰذهِ الرتبةِ.. فليلزمْ قلبَهُ كراهةَ ذلكَ مِنْ جهةِ العقلِ والإيمانِ ؛ لما فيهِ مِنْ خطرِ التعرضِ للمقتِ ، وليراقبْ نفسَهُ عندَ الطاعاتِ العظيمةِ الشاقَّةِ التي لا يقدرُ عليها غيرُهُ ، فإنَّ النفسَ عندَ ذلكَ تكادُ تغلي حرصاً على الإفشاءِ ، وتقولُ : مثلُ هٰذا العملِ العظيمِ ، أوِ الخوفِ العظيمِ ، أوِ البكاءِ العظيمِ ، لوْ عرفَهُ الخلقُ منكَ.. لسجدوا لكَ ، فما في الخلقِ مَنْ يقدرُ علىٰ مثلِهِ ، فكيفَ ترضىٰ بإخفائِهِ فيجهلَ الناسُ محلَّكَ ، وينكرونَ قدرَكَ ، ويُحرمونَ الاقتداءَ بكَ ؟

ففي مثلِ هٰذا الأمرِ ينبغي أنْ يثبتَ قدمَهُ ويتذكَّرَ في مقابلةِ عظمِ عملِهِ عظمَ ملكِ الآخرةِ ونعيمِ الجنةِ ، ودوامَها أبدَ الآبادِ ، وعظمَ غضبِ اللهِ ومقتِهِ علىٰ مَنْ طلبَ بطاعتِهِ ثواباً مِنْ عبادِهِ ، ويعلمَ أنَّ إظهارَهُ لغيرِهِ تحبُّبٌ إليهِ وسقوطٌ عندَ اللهِ ، وإحباطٌ للعملِ العظيمِ ، فيقولُ : وكيفَ أبيعُ مثلَ هٰذا العملِ بحمدِ الخلقِ وهمْ عاجزونَ لا يقدرونَ لي علىٰ رزقٍ ولا أجلٍ ؟! فيلزِمُ ذلكَ قلبَهُ .

ولا ينبغي أنْ ييئسَ عنهُ فيقولَ : إنَّما يقدرُ على الإخلاصِ الأقوياءُ ، فأمَّا المخلِّطونَ . . فليسَ ذلكَ مِنْ شأنِهِمْ ، فيتركَ المجاهدَةَ في الإخلاصِ ؛ لأنَّ المخلِّطَ إلىٰ ذلك أحوجُ مِنَ المتقي ؛ لأنَّ المتقيَ إنْ فسدَتْ نوافلُهُ . . بقيَتْ فرائضُهُ كاملةً تامَّةً ، والمخلِّطُ لا تخلو فرائضُهُ عنِ النقصانِ والحاجةِ إلى الجبرانِ بالنوافلِ ، فإنْ لمْ تسلمْ . . صارَ مأخوذاً بالفرائضِ وهلكَ بهِ ، فالمخلِّطُ إلى الإخلاصِ أحوجُ .

وقدْ روىٰ تميمٌ الداريُّ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « يُحاسبُ العبدُ يومَ القيامةِ ، فإنْ نقصَ فرضُهُ . . قيلَ : انظروا هلْ لهُ مِنْ تطوُّعٍ ، فإنْ كانَ لهُ تطوُّعٌ . . أُكملَ بهِ فرضُهُ ، وإنْ لمْ يكنْ لهُ تطوُّعٌ . . أُخذَ بطرفيهِ فأُلقيَ في النارِ »(١) .

فيأتي المخلِّطُ يومَ القيامةِ وفرضُهُ ناقصٌ ، وعليهِ ذنوبٌ كثيرةٌ ، فاجتهادُهُ في جبرِ الفرائضِ وتكفيرِ السيئاتِ ، ولا يمكنُ ذلكَ إلا بخلوصِ النوافلِ ، وأمَّا المتقي . . فجهدُهُ في زيادةِ الدرجاتِ ، فإنْ حبطَ تطوُّعُهُ . . بقيَ مِنْ حسناتِهِ ما يترجَّحُ على السيئاتِ ؛ فيدخلُ الجنةَ .

فإذاً ؛ ينبغي أنْ يلزِمَ قلبَهُ خوفَ اطلاعِ غيرِ اللهِ عليهِ لتصحَّ نوافلُهُ ، ثمَّ يلزِمَ قلبَهُ ذلكَ بعدَ الفراغِ ؛ حتَّىٰ لا يتحدثَ بهِ ولا يظهرَهُ ، فإذا فعلَ جميعَ ذلكَ . . فينبغي أنْ يكونَ وجِلاً مِنْ عملِهِ ، خائفاً أنَّهُ ربَّما دخلَهُ مِنَ الرياءِ

---

(١) رواه أبو داوود (٨٦٦) ، وابن ماجه (١٤٢٦) .

الخفيِّ ما لمْ يقفْ عليهِ ، فيكونَ شاكّاً في قبولِهِ وردِّهِ ، مجوِّزاً أنْ يكونَ اللهُ قدْ أحصىٰ عليهِ مِنْ نيَّتِهِ الخفيَّةِ ما مقتَهُ بها ، وردَّ عملَهُ بسببِها .

ويكونُ هٰذا الشكُّ والخوفُ في دوامِ عملِهِ وبعدَهُ ، لا في ابتداءِ العقدِ ، بلْ ينبغي أنْ يكونَ متيقِّناً في الابتداءِ أنَّهُ مخلصٌ ، ما يريدُ بعملِهِ إلا اللهَ ؛ حتَّىٰ يصحَّ عملُهُ ، فإذا شرعَ ومضَتْ لحظةٌ يمكنُ فيها الغفلةُ والنسيانُ . . كانَ الخوفُ مِنَ الغفلةِ عنْ شائبةٍ خفيةٍ أحبطَتْ عملَهُ مِنْ رياءٍ أوْ عُجبٍ أولىٰ بهِ ، ولكنْ يكونُ رجاؤُهُ أغلبَ مِنْ خوفِهِ ؛ لأنَّهُ استيقنَ أنَّهُ دخلَ بالإخلاصِ وشكَّ في أنَّهُ هلْ أفسدَهُ برياءٍ ، فيكونُ رجاءُ القبولِ أغلبَ ، وبذلكَ تعظمُ لذَّتُهُ في المناجاةِ والطاعاتِ ، فالإخلاصُ يقينٌ والرياءُ شكٌّ ، وخوفُهُ لأجلِ ذلكَ الشكِّ جديرٌ بأنْ يكفِّرَ خاطرَ الرياءِ إنْ كانَ قدْ سبقَ وهوَ غافلٌ عنهُ .

والذي يتقرَّبُ إلى اللهِ تعالىٰ بالسعيِ في حوائجِ الناسِ وإفادةِ العلمِ ينبغي أنْ يلزِمَ نفسَهُ رجاءَ الثوابِ علىٰ دخولِ السرورِ علىٰ قلبِ مَنْ قضىٰ حاجتَهُ فقطْ ، ورجاءَ الثوابِ علىٰ عملِ المتعلِّمِ بعلمِهِ فقطْ ، دونَ شكرٍ ومكافأةٍ وحمدٍ وثناءٍ مِنَ المتعلِّمِ والمنعَمِ عليهِ ، فإنَّ ذلكَ يحبطُ الأجرَ ، فمهما توقَّعَ مِنَ المتعلِّمِ مساعدةً في شغلٍ وخدمةٍ ، أوْ مرافقةً في المشيِ في الطريقِ ليستكثرَ باستتباعِهِ ، أوْ تردداً منهُ في حاجةٍ . . فقدْ أخذَ أجرَهُ ؛ فلا ثوابَ لهُ غيرُهُ .

نعمْ ، إنْ لمْ يتوقَّعْ هوَ ولمْ يقصِدْ إلا الثوابَ علىٰ عملِهِ بعلمِهِ ليكونَ لهُ

مثلُ أجرِه ، ولكنْ خدمَهُ التلميذُ بنفسِهِ فقبلَ خدمتَهُ . . فنرجو ألا يُحبطَ ذلكَ أجرَهُ إذا كانَ لا ينتظرُهُ ولا يريدُهُ منهُ ، ولا يستبعدُهُ منهُ لوْ قطعَهُ ، ومعَ هـٰذا فقدْ كانَ العلماءُ يحذرونَ ذلكَ ، حتَّىٰ إنَّ بعضَهُمْ وقعَ في بئرٍ ، فجاءَ قومٌ وأدلَوا حبلاً ليرفعوهُ ، فحلفَ عليهِمْ ألا يقفَ معَهُمْ مَنْ قرأَ عليهِ آيةً مِنَ القرآنِ ، أوْ سمعَ منهُ حديثاً ؛ خيفةً مِنْ أنْ يحبطَ أجرُهُ .

وقالَ شقيقٌ البلخيُّ : أهديتُ لسفيانَ الثوريِّ ثوباً ، فردَّهُ عليَّ ، فقلتُ لهُ : يا أبا عبدِ اللهِ ؛ لستُ أنا ممَّنْ يسمعُ الحديثَ حتَّىٰ تردَّهُ عليَّ ، قالَ : علمتُ ذاكَ ، ولكنْ أخوكَ يسمعُ منِّي الحديثَ ، فأخافُ أنْ يلينَ قلبي لأخيكَ أكثرَ ممَّا يلينُ لغيرِهِ[1] .

وجاءَ رجلٌ إلىٰ سفيانَ ببدرةٍ أو بدرتينِ وكانَ أبوهُ صديقاً لسفيانَ ، وكانَ سفيانُ يأتيهِ كثيراً ، فقالَ لهُ : يا أبا عبدِ اللهِ ؛ في نفسِكَ مِنْ أبي شيءٌ ؟ فقالَ : يرحمُ اللهُ أباكَ ، كانَ وكانَ ، فأثنىٰ عليهِ ، فقالَ : يا أبا عبدِ اللهِ ؛ قدْ عرفتَ كيفَ صارَ إليَّ هـٰذا المالُ ، فأحبُّ أنْ تأخذَ هـٰذهِ تستعينُ بها علىٰ عيالِكَ ، قالَ : فقبلَ سفيانُ ذلكَ ، قالَ : فلمَّا خرجَ . . قالَ لولدِهِ : يا مباركُ[2] ؛ الحقْهُ فردَّهُ عليَّ ، فرجعَ ، فقالَ : أحبُّ أنْ تأخذَ مالَكَ ، فلمْ يزلْ بهِ حتَّىٰ ردَّهُ عليهِ ، وكأنَّهُ كانَتْ أخوَّتُهُ معَ أبيهِ في اللهِ تعالىٰ ، فكرهَ أنْ

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٧/٣) .

(٢) مبارك هـٰذا هو مبارك بن سعيد الثوري أخو سفيان ، وليس هو ولده كما أورده المصنف ، بل هو راوي الخبر كما في « الحلية » (٧/٣) .

يأخذَ ذلكَ ، قالَ ولدُهُ : فلمَّا خرجَ . . لمْ أملكْ نفسي أنْ جئتُ إليهِ فقلتُ : ويلَكَ ؛ أيُّ شيءٍ قلبُكَ هـٰذا ؟ حجارةٌ ؟ عُدَّ أنَّهُ ليسَ لكَ عيالٌ ، أما ترحمُني ؟ أما ترحمُ إخوتَكَ ؟ أما ترحمُ عيالَنا ؟ فأكثرتُ عليهِ ، فقالَ : اللهَ يا مباركُ ، تأكلُها أنتَ هنيئاً مريئاً وأُسألُ عنها أنا ؟ ![1] .

فإذاً ؛ يجبُ على العالمِ أنْ يلزِمَ قلبَهُ طلبَ الثوابِ مِنَ اللهِ تعالىٰ في اهتداءِ الناسِ بهِ فقطْ ، ويجبُ على المتعلِّمِ أنْ يلزِمَ قلبَهُ طلبَ حمدِ اللهِ وثوابِهِ ، ونيلَ المنزلةِ عندَهُ لا عندَ المعلِّمِ وعندَ الخلقِ ، وربَّما يظنُّ أنَّ لهُ أنْ يرائيَ بطاعتِهِ لينالَ عندَ المعلِّمِ رتبةً فيتعلَّمَ منهُ ، وهوَ خطأٌ ؛ لأنَّ إرادتَهُ غيرَ اللهِ بطاعتِهِ خسرانٌ في الحالِ ، والعلمُ ربَّما يفيدُ وربَّما لا يفيدُ ، فكيفَ يخسرُ في الحالِ عملاً نقداً علىٰ توهُّمِ علمٍ ؟! وذلكَ غيرُ جائزٍ ، بلْ ينبغي أنْ يتعلمَ للهِ ؛ ويعبدَ للهِ ، ويخدمَ المعلِّمَ للهِ ؛ لا ليكونَ لهُ في قلبِهِ منزلةٌ وإنْ كانَ يريدُ أنْ يكونَ تعلُّمُهُ طاعةً ؛ فإنَّ العبادَ أُمروا ألا يعبدوا إلا اللهَ ، ولا يريدوا بطاعتِهِمْ غيرَهُ .

وكذلكَ مَنْ يخدمُ أبويهِ لا ينبغي أنْ يخدمَهُما لطلبِ المنزلةِ عندَهُما ، إلا مِنْ حيثُ إنَّ رضا اللهِ في رضا الوالدينِ ، ولا يجوزُ لهُ أنْ يُرائيَ بطاعتِهِ لينالَ بها منزلةً عندَ الوالدينِ ، فإنَّ ذلكَ معصيةٌ في الحالِ ، وسيكشفُ اللهُ عنْ ريائِهِ ، وتسقطُ منزلتُهُ مِنْ قلبِ الوالدينِ أيضاً .

---

(١) الخبر ـ كما أشير ـ رواه أبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٣) .

وأما الزاهدُ المعتزلُ عنِ الناسِ . . فينبغي لهُ أنْ يلزمَ قلبَهُ ذكرَ اللهِ والقناعةَ بعلمِهِ ، ولا يخطِرَ بقلبِهِ معرفةَ الناسِ زهدَهُ واستعظامَهُمْ محلَّهُ ؛ فإنَّ ذلكَ يغرسُ الرياءَ في صدرِهِ حتَّىٰ تتيسَّرَ عليهِ العباداتُ في خلوتِهِ ؛ وإنَّما سكونُهُ لمعرفةِ الناسِ باعتزالِهِ واستعظامِهِمْ لمحلِّهِ وهوَ لا يدري أنَّهُ المخفِّفُ للعملِ عليهِ .

قالَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ رحمَهُ اللهُ : تعلَّمتُ المعرفةَ مِنْ راهبٍ يُقالُ لهُ : سمعانُ ، دخلتُ عليهِ في صومعتِهِ ، فقلتُ : يا سمعانُ ؛ منذُ كَمْ أنتَ في صومعتِكَ ؟ قالَ : منذُ سبعينَ سنةً ، قلتُ : فما طعامُكَ ؟ قالَ : يا حنيفيُّ ؛ وما دعاكَ إلىٰ هٰذا ؟ قلتُ : أحببتُ أنْ أعلمَ ، قالَ : في كلِّ ليلةٍ حمَّصةٌ ، قلتُ : فما الذي يهيجُ مِنْ قلبِكَ حتَّىٰ تكفيكَ هٰذهِ الحمَّصةُ ؟ قالَ : ترى الديرَ الذي بحذائِكَ ؟ قلتُ : نعمْ ، قالَ : إنَّهمْ يأتوني في كلِّ سنةٍ يوماً واحداً فيزيِّنونَ صومعتي ، ويطوفونَ حولَها ويعظمونِي ، فكلَّما تثاقلَتْ نفسي عنِ العبادةِ . . ذكَّرتُها عِزَّ تلكَ الساعةِ ، فأنَا أحتملُ جهدَ سنةٍ لعزِّ ساعةٍ ، فاحتملْ يا حنيفيُّ جهدَ ساعةٍ لعزِّ الأبدِ ، فوقرَ في قلبي المعرفةُ ، فقالَ : حسبُكَ أوْ أزيدُكَ ؟ قلتُ : بلىٰ ، قالَ : انزلْ عنِ الصومعةِ ، فنزلتُ ، فأدلىٰ لي ركوةً فيها عشرونَ حمَّصةً ، فقالَ لي : ادخلِ الديرَ فقدْ رأَوا ما أدليتُ إليكَ ، فلمَّا دخلتُ الديرَ . . اجتمعَتْ عليَّ النصارىٰ ، فقالوا : يا حنيفيُّ ؛ ما الذي أدلىٰ إليكَ الشيخُ ؟ قلتُ : مِنْ قوتِهِ ، قالوا : وما تصنعُ بهِ ؟ نحنُ أحقُّ بهِ ، ثمَّ قالوا : ساومْ ، قلتُ :

عشرونَ ديناراً ، فأعطَوني عشرينَ ديناراً ، فرجعتُ إلى الشيخِ ، فقالَ : يا حنيفيُّ ؛ ما الذي صنعتَ ؟ قلتُ : بعتُهُ منهُمْ ، قالَ : بكمْ ؟ قلتُ : بعشرينَ ديناراً ، قالَ : أخطأتَ ، لوْ ساومتَهُمْ بعشرينَ ألفَ دينارٍ . . لأعطَوكَ ، هٰذا عزُّ مَنْ لا تعبدُهُ ، فانظرْ كيفَ يكونُ عزُّ مَنْ تعبدُهُ ، يا حنيفيُّ أقبلْ علىٰ ربِّكَ ، ودعِ الذهابَ والجيئةَ[1] .

والمقصودُ : أنَّ استشعارَ النفسِ عزَّ العظمةِ في القلوبِ يكونُ باعثاً في الخلوةِ وقدْ لا يشعرُ العبدُ بهِ ، فينبغي أنْ يلزِمَ نفسَهُ الحذرَ مِنهُ ، **وعلامةُ سلامتِهِ** : أنْ يكونَ الخلقُ عندَهُ والبهائمُ بمثابةٍ واحدةٍ ، فلوْ تغيَّروا عنِ اعتقادِهِمْ لهُ . . لمْ يجزعْ ، ولمْ يضقْ بهِ ذرعاً إلا كراهةً ضعيفةً إنْ وجدَها في قلبِهِ فيردُّها في الحالِ بعقلِهِ وإيمانِهِ ، وأنَّهُ لوْ كانَ في عبادةٍ فاطلعَ الناسُ كلُّهُمْ عليهِ . . لمْ يزدْهُ ذلكَ خشوعاً ، ولمْ يدخلْهُ سرورٌ بسببِ اطلاعِهِمْ عليهِ ، فإنْ دخلَ سرورٌ يسيرٌ . . فهوَ دليلُ ضعفِهِ ، ولكنْ إذا قدرَ علىٰ ردِّهِ بكراهةِ العقلِ والإيمانِ ، وبادرَ إلىٰ ذلكَ ، ولمْ يقبلِ السرورَ بالركونِ إليهِ . . فيُرجىٰ لهُ ألا يخيبَ سعيُهُ إلا أنْ يزيدَ عندَ مشاهدتِهِمْ في الخشوعِ والانقباضِ ؛ كي لا ينبسطوا إليهِ ، فذلكَ لا بأسَ بهِ ، ولكنْ فيهِ غرورٌ ؛ إذِ النفسُ قدْ تكونُ شهوتُها الخفيةُ إظهارَ الخشوعِ ، وتتعلَّلُ بطلبِ الانقباضِ ، فليطالبْها في دعواها قصدَ الانقباضِ بموثقٍ مِنَ اللهِ غليظٍ ، وهوَ أنَّهُ لوْ علمَ أنَّ

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٢٩) ، واسم الراهب عنده أبو سمعان .

انقباضَهُمْ عنهُ إنَّما يحصلُ بأنْ يعدوَ سريعاً أوْ يأكلَ أوْ يضحكَ كثيراً . . فتسمحُ نفسُهُ بذلكَ ؟ فإذا لمْ تسمحْ بهِ وسمحَتْ بالعبادةِ . . فيشبهُ أنْ يكونَ مرادُها المنزلةَ عندَهُمْ .

ولا ينجو مِن ذلكَ إلا مَنْ تقرَّرَ في قلبِهِ أنَّهُ ليسَ في الوجودِ أحدٌ سوى اللهِ ، فيعملُ عملَ مَنْ لوْ كانَ علىٰ وجهِ الأرضِ وحدَهُ . . لكانَ يعملُهُ ، فلا يلتفتُ قلبُهُ إلى الخلقِ إلا خطراتٍ ضعيفةً لا يشقُّ عليهِ إزالتُها ، فإذا كانَ كذلكَ . . لمْ يتغيَّرْ بمشاهدةِ الخلقِ ، **ومِنْ علامةِ الصدقِ فيهِ** : أنَّهُ لوْ كانَ لهُ صاحبانِ ؛ أحدُهما غنيٌّ والآخرُ فقيرٌ . . فلا يجدُ عندَ إقبالِ الغنيِّ زيادةَ هِزَّةٍ في نفسِهِ لإكرامِهِ إلا إذا كانَ في الغنيِّ زيادةُ علمٍ أوْ زيادةُ ورعٍ ، فيكونُ مكرِماً لهُ بذلكَ الوصفِ لا بالغنىٰ ، فمَنْ كانَ استرواحُهُ إلىٰ مشاهدةِ الأغنياءِ أكثرَ . . فهوَ مراءٍ أوْ طمَّاعٌ ، وإلا . . فالنظرُ إلى الفقراءِ يزيدُ في الرغبةِ إلى الآخرةِ ، ويحبِّبُ إلى القلبِ المسكنةَ ، والنظرُ إلى الأغنياءِ بخلافِهِ ، فكيفَ يستروحُ إلى الغنيِّ أكثرَ ممَّا يستروحُ إلى الفقيرِ ؟!

وقدْ حُكيَ أنَّهُ لمْ يُرَ الأغنياءُ في مجلسٍ أذلَّ منهُمْ في مجلسِ سفيانَ الثوريِّ ، كانَ يجلسُهُمْ وراءَ الصفِّ ويقدِّمُ الفقراءَ ، حتَّىٰ كانوا يتمنَّونَ أنَّهُمْ فقراءُ في مجلسِهِ[1] .

نعمْ ، لكَ زيادةُ إكرامٍ للغنيِّ إذا كانَ أقربَ إليكَ أوْ كانَ بينكَ وبينَهُ حقٌّ

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٣٦٥) .

وصداقةٌ سابقةٌ ، ولكنْ يكونُ بحيثُ لوْ وُجدَتْ تلكَ العلاقةُ في فقيرٍ . . لكنتَ لا تقدِّمُ الغنيَّ عليهِ في إكرامٍ وتوقيرٍ ألبتةَ ؛ فإنَّ الفقيرَ أكرمُ على اللهِ مِنَ الغنيِّ ، فإيثارُكَ لهُ لا يكونُ إلا طمعاً في غناهُ ورياءً لهُ .

ثمَّ إذا سوَّيتَ بينَهُما في المجالسةِ . . فيُخشىٰ عليكَ أنْ تظهِرَ الحكمةَ والخشوعَ للغنيِّ أكثرَ ممَّا تظهرُهُ للفقيرِ ، وإنَّما ذلكَ لرياءٍ خفيٍّ أوْ طمعٍ خفيٍّ ؛ كما قالَ ابنُ السمَّاكِ لجاريةٍ لهُ : ما لي إذا أتيتُ بغدادَ فُتِحَتْ ليَ الحكمةُ ؟ قالَتْ : الطمعُ يشحذُ لسانَكَ[1] ، وقدْ صدقَتْ ؛ فإنَّ اللسانَ ينطلقُ عندَ الغنيِّ بما لا ينطلقُ بهِ عندَ الفقيرِ ، وكذلكَ يحضرُ مِنَ الخشوعِ عندَهُ ما لا يحضرُ عندَ الفقيرِ .

ومكائدُ النفسِ وخفاياها في هٰذا الفنِّ لا تنحصرُ ، ولا ينجيكَ منها إلا أنْ تخرِجَ ما سوى اللهِ مِنْ قلبِكَ ، وتتجرَّدَ بالشفقةِ علىٰ نفسِكَ بقيةَ عمرِكَ ، ولا ترضىٰ لها بالنارِ بسببِ شهواتٍ منغصةٍ في أيامٍ متقاربةٍ منقضيةٍ ، وتكونَ في الدنيا كملِكٍ مِنْ ملوكِ الدنيا قدْ أمكنَتْهُ الشهواتُ وساعدَتْهُ اللذاتُ ، ولكنْ في بدنِهِ سقمٌ ، وهوَ يخافُ الهلاكَ علىٰ نفسِهِ في كلِّ ساعةٍ لوِ اتسعَ في الشهواتِ ، وعلمَ أنَّهُ لوِ احتمىٰ وجاهدَ نفسَهُ . . عاشَ ودامَ ملكُهُ ، فلمَّا عرفَ ذلكَ . . جالسَ الأطباءَ ، وحارفَ الصيادلةَ[2] ، وعوَّدَ نفسَهُ شربَ

---

(١) الرعاية (ص ٣٠٦) .

(٢) حارف : مال ونادم .

الأدويةِ المرَّةِ ، فصبرَ علىٰ بشاعتِها ، وهجرَ جميعَ اللذاتِ ، وصبرَ علىٰ مفارقتِها ، فبدنُهُ كلَّ يومٍ يزدادُ نحولاً لقلَّةِ أكلِهِ ، ولكنَّ سقمَهُ كلَّ يومٍ يزدادُ نقصاناً ؛ لشدَّةِ احتمائِهِ ، فمهما نازعَتْهُ نفسُهُ إلىٰ شهوةٍ. . تفكَّرَ في توالي الآلامِ والأوجاعِ عليهِ ، وأداءِ ذلكَ إلى الموتِ المفرِّقِ بينَهُ وبينَ مملكتِهِ ، الموجبِ لشماتةِ أعدائِهِ بهِ ، ومهما اشتدَّ عليهِ شربُ دواءٍ. . تفكَّرَ فيما يستفيدُهُ منهُ مِنَ الشفاءِ الذي هوَ سببُ التمتُّعِ بملكِهِ ونعيمِهِ ، في عيشٍ هنيءٍ ، وبدنٍ صحيحٍ ، وقلبٍ رخيٍّ ، وأمرٍ نافذٍ ، فتخفُّ عليهِ مهاجرةُ اللذاتِ ، ومصابرةُ المكروهاتِ .

فكذلكَ المؤمنُ المريدُ لملكِ الآخرةِ احتمىٰ عنْ كلِّ مهلكٍ لهُ في آخرتِهِ ، وهيَ لذاتُ الدنيا وزهرتُها ، فاجتزأَ منها بالقليلِ ، واختارَ النحولَ والذبولَ والوحشةَ والحزنَ والخوفَ ، وتركَ المؤانسةِ بالخلقِ ؛ خوفاً مِنْ أنْ يحلَّ عليهِ غضبُ اللهِ فيهلكَ ، ورجاءَ أنْ ينجوَ مِنْ عذابِهِ ، فخفَّ ذلكَ كلُّهُ عليهِ عندَ شدَّةِ يقينِهِ وإيمانِهِ بعاقبةِ أمرِهِ ، وبما أُعدَّ لهُ مِنَ النعيمِ المقيمِ في رضوانِ اللهِ أبدَ الآبادِ ، ثمَّ علمَ أنَّ اللهَ كريمٌ رحيمٌ ، لمْ يزلْ لعبادِهِ المريدينَ لمرضاتِهِ عوناً ، وبهِمْ رؤوفاً ، وعليهِمْ عطوفاً ، ولوْ شاءَ. . لأغناهُمْ عنِ التعبِ والنصبِ ، ولكنْ أرادَ أنْ يبلوَهُمْ ، ويعرفَ صدقَ إرادتِهِمْ ؛ حكمةً منهُ وعدلاً .

ثمَّ إذا تحمَّلَ التعبَ في بدايتِهِ. . أقبلَ اللهُ عليهِ بالمعونةِ والتيسيرِ ، وحطَّ عنهُ الأعباءَ ، وسهَّلَ عليهِ الصبرَ ، وحبَّبَ إليهِ الطاعةَ ، ورزقَهُ فيها مِنْ لذَّةِ

المناجاةِ ما يلهيهِ عنْ سائرِ اللذاتِ ، ويقوِّيهِ علىٰ إماتةِ الشهواتِ ، ووليَ سياستَهُ وتقويتَهُ ، وأمدَّهُ بمعونتِهِ ، فإنَّ الكريمَ لا يضيِّعُ سعيَ الراجي ، ولا يخيِّبُ أملَ المحبِّ ، وهوَ الذي يقولُ : « مَنْ تقرَّبَ إليَّ شبراً . . تقرَّبتُ إليهِ ذراعاً »(١) ، ويقولُ تعالىٰ : « لقدْ طالَ شوقُ الأبرارِ إلىٰ لقائي ، وإنِّي إلىٰ لقائِهِمْ أشدُّ شوقاً »(٢) .

فليظهرِ العبدُ في البدايةِ جدَّهُ وصدقَهُ وإخلاصَهُ ، فلا يعوزُهُ مِنَ اللهِ تعالىٰ على القربِ ما هوَ اللائقُ بجودِهِ وكرمِهِ ، ورأفتِهِ ورحمتِهِ .

* * *

تم كتاب ذم الجاه والرياء

وهو الكتاب الثامن من ربع المهلكات من كتب إحياء علوم الدين

والحمد لله رب العالمين

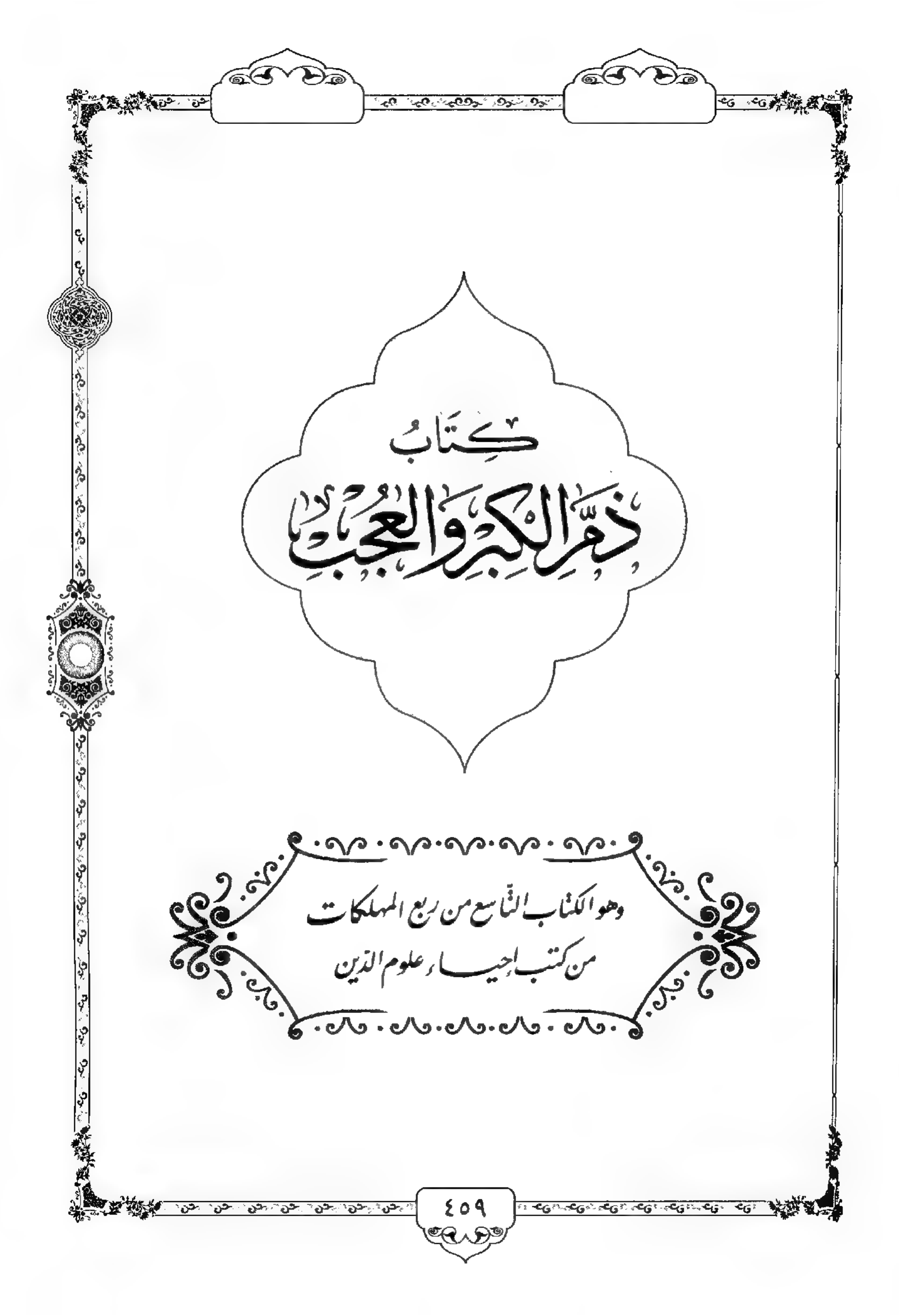
والصلاة والسلام على رسوله محمد وآله الطيبين الطاهرين وصحبه أجمعين

يتلوه كتاب ذم الكبر والعجب

---

(١) رواه البخاري (٧٤٠٥) ، ومسلم (٢٦٧٥) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/١٩٣) من كلام سهل بن عبد الله يحكيه حديثاً قدسياً ، والمقدسي في « الترغيب في الدعاء » (ص٥٣) من كلام أحمد بن مخلد الخراساني مثله ، وقد ذكره الديلمي في « مسند الفردوس » (٨٠٦٧) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه .



كتاب
ذم الكبر والعجب

وهو الكتاب التاسع من ربع المهلكات
من كتب إحياء علوم الدين

كتاب ذمّ الكبر والعجب

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ الخالقِ البارىءِ المصوِّرِ ، العزيزِ الجبَّارِ المتكبِّرِ ، العليِّ الذي لا يضعُهُ عنْ مجدِهِ واضعٌ ، الجبَّارِ الذي كلُّ جبَّارٍ لهُ ذليلٌ خاضعٌ ، وكلُّ متكبِّرٍ في جنابِ عزِّهِ مستكينٌ متواضعٌ ؛ فهوَ القهَّارُ الذي لا يدفعُهُ عنْ مرادِهِ دافعٌ ، الغنيُّ الذي ليسَ لهُ في ملكِهِ شريكٌ ولا منازعٌ ، القادرُ الذي بهرَ أبصارَ الخلائقِ جلالُهُ وبهاؤُهُ ، وقهرَ العرشَ المجيدَ استواؤُهُ واستعلاؤُهُ واستيلاؤُهُ ، وحصرَ ألسنَ الأنبياءِ وصفُهُ وثناؤُهُ[١] ، وارتفعَ عنْ حدِّ قدرتِهِمْ إحصاؤُهُ واستقصاؤُهُ ، فاعترفَ بالعجزِ عنْ وصفِ كُنْهِ جلالِهِ ملائكتُهُ وأنبياؤُهُ ، وكسرَ ظهورَ الأكاسرةِ عزُّهُ وعلاؤُهُ ، وقصرَ أيديَ القياصرةِ عظمتُهُ وكبرياؤُهُ ، فالعظمةُ إزارُهُ ، والكبرياءُ رداؤُهُ ، ومَنْ نازعَهُ فيهِما . . قصمَهُ بداءِ الموتِ فأعجزَهُ دواؤُهُ ، جلَّ جلالُهُ وتقدَّسَتْ أسماؤُهُ .

والصلاةُ علىٰ محمدٍ الذي أُنزلَ معَهُ النورُ المنتشرُ ضياؤُهُ ، حتَّىٰ أشرقَتْ بنورِهِ أكنافُ العالمِ وأرجاؤُهُ ، وعلىٰ آلِهِ وأصحابِهِ الذينَ هُمْ أحبَّاءُ اللهِ وأولياؤُهُ ، وخيرتُهُ وأصفياؤُهُ ، وسلَّمَ تسليماً كثيراً .

---

(١) حصر هنا : من الحَصَر ، والمراد عجز العبارة عن الإحاطة بكنه الثناء عليه سبحانه .

أما بعد :

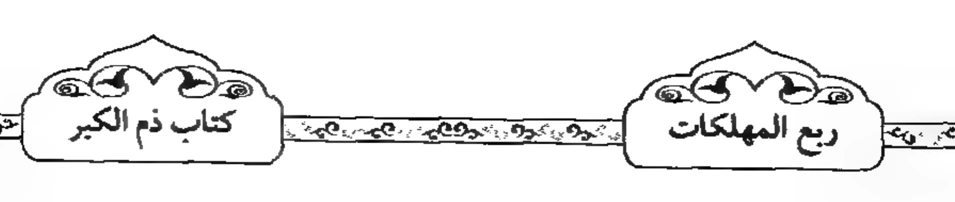
فقدْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قالَ اللهُ تعالىٰ : الكبرياءُ ردائي ، والعظمةُ إزاري ؛ فمَنْ نازعَني فيهِما . . قصمتُهُ »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ثلاثٌ مهلكاتٌ : شحٌّ مطاعٌ ، وهوىً متَّبعٌ ، وإعجابُ المرءِ بنفسِهِ »[2] . فالكبرُ والعجبُ داءانِ مهلكانِ ، والمتكبِّرُ والمعجبُ سقيمانِ مريضانِ ، وهما عندَ اللهِ ممقوتانِ بغيضانِ .

وإذا كانَ القصدُ في هٰذا الربعِ مِنْ كتابِ « إحياءِ علومِ الدينِ » شرحَ المهلكاتِ . . وجبَ إيضاحُ الكبْرِ والعجْبِ ؛ فإنَّهُما مِنْ قبائحِ المردياتِ ، ونحنُ نستقصي بيانَهُما مِنَ الكتابِ في شطرينِ : شطرٌ في الكبرِ ، وشطرٌ في العجبِ .

* * *

(١) رواه مسلم (٢٦٢٠) ، وأبو داوود (٤٠٩٠) واللفظ له .
(٢) رواه الطبراني في « الأوسط » (٥٤٤٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/٣٤٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٣١) .



الشَّطرُ الأوّلُ مِنَ الكِتَاب

في الكِبر

وفيهِ بيانُ ذمِّ الكبرِ ، وبيانُ ذمِّ الاختيالِ ، وبيانُ فضيلةِ التواضعِ ، وبيانُ حقيقةِ الكبْرِ وآفتِهِ ، وبيانُ مَنْ يُتكبَّرُ عليهِ ، ودرجاتُ الكبْرِ ، وبيانُ ما بهِ التكبرُ ، وبيانُ البواعثِ على التكبُّرِ ، وبيانُ أخلاقِ المتواضعينَ وما فيهِ يظهرُ الكبرُ ، وبيانُ علاجِ الكبرِ ، وبيانُ امتحانِ النفسِ في خُلُقِ الكبرِ ، وبيانُ المحمودِ مِنْ خُلُقِ التواضعِ والمذمومِ مِنهُ .

بيان ذمّ الكبر

قدْ ذمَّ اللهُ تعالى الكبرَ في مواضعَ مِنْ كتابهِ ، وذمَّ كلَّ جبّارٍ متكبِّرٍ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ . **وذمُّ الكبْرِ في القرآنِ كثيرٌ .**

* * *

وأمَّا الأخبارُ :

فقدْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يدخلُ الجنةَ مَنْ كانَ في قلبِهِ مثقالُ حبَّةٍ مِنْ خردلٍ مِنْ كبْرٍ ، ولا يدخلُ النارَ رجلٌ في قلبِهِ مثقالُ حبَّةٍ مِنْ خردلٍ مِنْ إيمانٍ »(١) .

وقالَ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يقولُ اللهُ تعالىٰ : الكبرياءُ ردائي ، والعظمةُ إزاري ؛ فمَنْ نازعَني واحداً منهُما . . ألقيتُهُ في جهنَّمَ ولا أبالي »(٢) .

وعنْ أبي سلمةَ بنِ عبدِ الرحمـٰنِ قالَ : التقىٰ عبدُ اللهِ بنُ عمرَ وعبدُ اللهِ بنُ عمرٍو على المروةِ فتواقفا ، فمضى ابنُ عمرٍو وأقامَ ابنُ عمرَ يبكي ، فقالوا : ما يبكيكَ يا أبا عبدِ الرحمـٰنِ ؟ قالَ : هـٰذا ـ يعني :

---

(١) رواه مسلم (٩١/١٤٨) ، والترمذي (١٩٩٨) .

(٢) رواه مسلم (٢٦٢٠) ، وأبو داوود (٤٠٩٠) ، وابن ماجه (٤١٧٤) .

عبدَ اللهِ بنَ عمرٍو ـ زعَمَ أنَّهُ سمعَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « مَنْ كانَ في قلبِهِ مثقالُ حبَّةٍ مِنْ خردلٍ مِنْ كبرٍ . . أكبَّهُ اللهُ في النارِ علىٰ وجهِهِ »[(١)] .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يزالُ الرجلُ يذهبُ بنفسِهِ حتَّىٰ يُكتبَ في الجبَّارينَ ، فيصيبَهُ ما أصابَهُمْ مِنَ العذابِ »[(٢)] .

وقالَ سليمانُ بنُ داوودَ عليهِما السلامُ يوماً للطيرِ والإنسِ والجنِّ والبهائمِ : اخرجوا ، فخرجوا في مئتي ألفٍ مِنَ الإنسِ ، ومئتي ألفٍ مِنَ الجنِّ ، فرُفِعَ حتَّىٰ سمعَ زَجَلَ الملائكةِ بالتسبيحِ في السماواتِ ، ثمَّ خُفِضَ حتَّىٰ مسَّتْ قدماهُ البحرَ ، فسمعَ صوتاً : لوْ كانَ في قلبِ صاحبِكُمْ مثقالُ ذرَّةٍ مِنْ كبرٍ . . لخسفتُ بهِ أبعدَ ممَّا رفعتُهُ[(٣)] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يخرجُ مِنَ النارِ عُنُقٌ لهُ عينانِ تبصرانِ ، وأذنانِ تسمعانِ ، ولسانٌ ينطقُ ، يقولُ : وُكِّلتُ بثلاثةٍ ؛ بكلِّ جبارٍ عنيدٍ ، وبكلِّ مَنْ دعا معَ اللهِ إلـٰهاً آخرَ ، وبالمصوِّرينَ »[(٤)] .

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٢/ ٢١٥) .
(٢) رواه الترمذي (٢٠٠٠) ، وابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١٩٨) بتمامه .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١٩٩) .
(٤) رواه الترمذي (٢٥٧٤) ، والعنق هنا : طائفة وجانب من النار ، فهو وصف لنار جهنم كما ذكره الإمام ابن العربي في « عارضة الأحوذي » (١٠/ ٤٤) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يدخلُ الجنَّةَ بخيلٌ ولا جبارٌ ولا سيِّءُ الملكَةِ »[١] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تحاجَّتِ الجنَّةُ والنارُ ؛ فقالَتِ النارُ : أُوثِرتُ بالمتكبِّرينَ والمتجبِّرينَ ، وقالَتِ الجنَّةُ : ما لي لا يدخلُني إلا ضعفاءُ الناسِ وسقَّاطُهُمْ وعجزتُهُمْ ؟ فقالَ اللهُ تعالىٰ للجنَّةِ : إنَّما أنتِ رحمتي ، أرحمُ بكِ مَنْ أشاءُ مِنْ عبادي ، وقالَ للنَّارِ : إنَّما أنتِ عذابي ، أعذِّبُ بكِ مَنْ أشاءُ مِنْ عبادي ، ولكلٍّ واحدةٍ منكُما ملؤُها »[٢] .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « بئسَ العبدُ عبدٌ تجبَّرَ واعتدىٰ ونسيَ الجبَّارَ الأعلىٰ ، بئسَ العبدُ عبدٌ تجبَّرَ واختالَ ونسيَ الكبيرَ المتعالِ ، بئسَ العبدُ عبدٌ غفلَ وسها ولها ونسيَ المقابرَ والبلىٰ ، بئسَ العبدُ عبدٌ عتا وبغىٰ ونسيَ المُبتدأَ والمُنتهىٰ »[٣] .

وعنْ ثابتٍ أنَّهُ قالَ : بلغَنا أنَّهُ قيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ ما أعظمَ كبْرَ فلانٍ ! فقالَ : « أليسَ بعدَهُ الموتُ ؟! »[٤] .

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ عمرٍو : إنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « إنَّ

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (١/٤) ، والخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (٣٦١- ٣٦٢) ، وفيه : (خائن) بدل (جبار) .
(٢) رواه البخاري (٤٨٥٠) ، ومسلم (٢٨٤٦) .
(٣) رواه الترمذي (٢٤٤٨) بتقديم وتأخير وزيادة .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٠٥) كما أورده المصنف مرسلاً .

نوحاً عليهِ السلامُ لمَّا حضرَتْهُ الوفاةُ . . دعا ابنيهِ وقالَ : إنِّي آمرُكُما باثنتينِ وأنهاكُما عنِ اثنتينِ ؛ أنهاكُما عنِ الشركِ والكبرِ ، وآمرُكُما بلا إلـٰهَ إلاَّ اللهُ ؛ فإنَّ السماواتِ والأرضَ وما فيهِنَّ لوْ وُضعَتْ في كِفَّةِ الميزانِ ووُضعَتْ لا إلـٰهَ إلاَّ اللهُ في الكِفَّةِ الأخرىٰ . . كانَتْ أرجحَ منهُما ، ولوْ أنَّ السماواتِ والأرضَ وما فيهِنَّ كانتا حلقةً فوُضعَتْ لا إلـٰهَ إلاَّ اللهُ عليها . . لقصمَتْها ، وآمرُكُما بسبحانَ اللهِ وبحمدِهِ ؛ فإنَّها صلاةُ كلِّ شيءٍ ، وبها يُرزقُ كلُّ شيءٍ »[1] .

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (طوبىٰ لمَنْ علَّمَهُ اللهُ كتابَهُ ثمَّ لمْ يمُتْ جبَّاراً)[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أهلُ النارِ كلُّ جَعْظَرِيٍّ جوَّاظٍ مستكبرٍ جمَّاعٍ منَّاعٍ ، وأهلُ الجنةِ الضعفاءُ المغلَّبونَ »[3] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ أحبَّكُمْ إلينا وأقربَكُمْ منَّا في الآخرةِ . . أحاسنُكُمْ أخلاقاً ، وإنَّ أبغضَكُمْ إلينا وأبعدَكُمْ منَّا . . الثرثارونَ المتشدِّقونَ المتفيهقونَ » ، قالوا : يا رسولَ اللهِ ؛ قدْ علمنا الثرثارونَ والمتشدِّقونَ ، فما المتفيهقونَ ؟ قال : « المتكبِّرونَ »[4] .

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٢/ ١٦٩) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (٥٤٨) ، وابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٠٦) واللفظ له .
(٢) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٢٠٧) .
(٣) رواه أحمد في « المسند » (٢/ ٢١٤) ، وابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٢٠) ، **والمغلبون** : الذين يُغلبون كثيراً .
(٤) رواه الترمذي (٢٠١٨) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يُحشرُ المتكبِّرونَ يومَ القيامةِ ذرّاً في مثلِ صورِ الرِّجالِ ، يعلوهُمْ كلُّ شيءٍ مِنَ الصَّغارِ ، ثمَّ يُساقونَ إلىٰ سجنٍ في جهنَّمَ يُقالُ لهُ : بُولَسُ ، تعلوهُمْ نارُ الأنيارِ ، يُسقونَ مِنْ طينِ الخبالِ عصارةِ أهلِ النارِ »[1] .

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يُحشرُ الجبَّارونَ والمتكبِّرونَ يومَ القيامةِ في صُوَرِ الذَّرِّ يطؤُهُمُ الناسُ لهوانِهِمْ على اللهِ تعالىٰ »[2] .

وعنْ محمدِ بنِ واسعٍ قالَ : دخلتُ علىٰ بلالِ بنِ أبي بُردةَ ، فقلتُ لهُ : يا بلالُ ؛ إنَّ أباكَ حدَّثني عنْ أبيهِ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « إنَّ في جهنَّمَ وادياً يُقالُ لهُ : هَبْهَبُ ، حقٌّ على اللهِ أنْ يسكنَهُ كلَّ جبَّارٍ » فإيَّاكَ يا بلالُ أنْ تكونَ ممَّنْ يسكنُهُ[3] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ في النارِ قصراً يُجعلُ فيهِ المتكبرونَ ويُطبقُ عليهِمْ »[4] .

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٩٢) ، وابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٢٣) ، **والأنيار** : جمع نار ؛ أي : نار النيران .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٢٤) .

(٣) رواه الدارمي في « سننه » (٢٨٥٨) ، وابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٢٥) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (٧٢٤٩) .

(٤) كذا رواه الخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (٥٧٧) من قول محمد بن المنكدر ، ورواه البيهقي في « الشعب » (٧٨٣٧) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً بلفظ : « إن =

وقـالَ صلَّـى اللهُ عليـهِ وسلَّـمَ : « اللهُـمَّ ؛ إنِّـي أعـوذُ بـكَ مِـنْ نفخـةِ الكبرياءِ »[1] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مَنْ فارقَ روحُهُ جسدَهُ وهوَ بريءٌ مِن ثلاثةٍ . . دخلَ الجنةَ ؛ الكبرُ والغلولُ والدَّينُ »[2] .

❁ ❁ ❁

الآثارُ :

قالَ أبو بكرٍ الصديقُ رضيَ اللهُ عنهُ : (لا تحقرنَّ أحداً مِنَ المسلمينَ ؛ فإنَّ صغيرَ المسلمينَ عندَ اللهِ كبيرٌ)[3] .

وقالَ وهبٌ : (لمَّا خلقَ اللهُ تعالىٰ جنةَ عدنٍ . . نظرَ إليها فقالَ : أنتِ حرامٌ علىٰ كلِّ متكبِّرٍ) .

= المتكبرين يوم القيامة يجعلون في توابيت من نار فيقفل عليهم » ، ورواه بنحوه (٧٨٣٨) موقوفاً علىٰ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(١) رواه أبو داوود (٧٦٤) ، ولفظه : « أعوذ بالله من الشيطان من نفخه ونفثه وهمزه » ، قال ـ عمرو بن مرة ، أحد الرواة ـ : ونفثه الشعر ، ونفخه الكبر ، وهمزه المُوْتَة ، والموتة : الصرع أو الجنون ، وعند الحاكم في « المستدرك » (١/ ٢٠٧) : « ونفخه الكبرياء » .

(٢) رواه الترمذي (١٥٧٢) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (٨٧١١) ، وابن ماجه (٢٤١٢) .

(٣) كذا أورده الديلمي في « مسند الفردوس » (٧٨١٣) من حديثه رضي الله عنه .

وكانَ الأحنفُ بنُ قيسٍ يجلسُ معَ مصعبِ بنِ الزبيرِ علىٰ سريرِهِ ، فجاءَ يوماً ومصعبٌ مادٌّ رجليهِ ، فلمْ يقبضْهُما وقعدَ الأحنفُ فزحمَهُ بعضَ الزحمةِ ، فرأىٰ أثرَ ذلكَ في وجهِهِ ، فقالَ : عجباً لابنِ آدمَ يتكبَّرُ وقدْ خرجَ مِنْ مجرى البولِ مرَّتينِ[1] .

وقالَ الحسنُ : (العجبُ مِنِ ابنِ آدمَ ! يغسلُ الخُرْءَ بيدِهِ كلَّ يومٍ مرةً أوْ مرّتينِ ثمَّ يتكبَّرُ يعارضُ جبَّارَ السماواتِ)[2] .

وقدْ قيلَ في ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ : هوَ سبيلُ الغائطِ والبولِ[3] .

وقالَ محمدُ بنُ الحسينِ بنِ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُمْ : (ما دخلَ قلبَ امرئٍ شيءٌ مِنَ الكبْرِ قطُّ إلا نقصَ مِنْ عقلِهِ بقدْرِ ما دخلَ مِنْ ذلكَ ، قلَّ أو كثُرَ)[4] .

وسُئِلَ سلمانُ عنِ السيئةِ التي لا تنفعُ معها حسنةٌ ، فقالَ : الكبرُ[5] .

وقالَ النعمانُ بنُ بشيرٍ على المنبرِ : (إنَّ للشيطانِ مصاليَ وفخوخاً ،

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٠١) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٠٩) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢١٢) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٢٦) .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٢٩) .

وإنَّ مِنْ مصالي الشيطانِ وفخوخِهِ البطرَ بأنعمِ اللهِ ، والفخرَ بإعطاءِ اللهِ ، والكبرَ علىٰ عبادِ اللهِ ، واتباعَ الهوىٰ في غيرِ ذاتِ اللهِ)[1] ، نسأَلُ اللهَ تعالىٰ العفوَ والعافيةَ في الدنيا والآخرةِ بمنِّهِ وكرمِهِ .

* * *

(١) رواه البخاري في « الأدب المفرد » (٥٥٣) .

بيان ذم الاختيال وإظهار آثار الكبر في المشي وجرّ الثياب

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا ينظرُ اللهُ إلىٰ رجلٍ يجرُّ إزارَهُ بطراً »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « بينَما رجلٌ يتبخترُ في بُرْديهِ قدْ أعجبَتْهُ نفسُهُ . . إذْ خسفَ اللهُ بهِ الأرضَ ، فهوَ يتجلجلُ فيها إلىٰ يومِ القيامةِ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ جرَّ ثوبَهُ خيلاءَ . . لا ينظرُ اللهُ إليهِ يومَ القيامةِ »[3] .

وقالَ زيدُ بنُ أسلمَ : دخلتُ على ابنِ عمرَ ، فمرَّ بهِ عبدُ اللهِ بنُ واقدٍ وعليهِ ثوبٌ جديدٌ ، فسمعتُهُ يقولُ : أيْ بُنيَّ ؛ ارفعْ إزارَكَ ، فإنِّي سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « لا ينظرُ اللهُ إلىٰ مَنْ جرَّ إزارَهُ خيلاءَ »[4] .

ورُوِيَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بصقَ يوماً في كفِّهِ ، ووضعَ إصبعَهُ عليهِ وقالَ : « يقولُ اللهُ تعالىٰ : ابنَ آدمَ ؛ أتعجزُني وقدْ خلقتُكَ مِنْ

---

(١) رواه البخاري (٥٧٨٨) ، ومسلم (٢٠٨٧) ، وابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٣٢) واللفظ له .

(٢) رواه البخاري (٥٧٨٩) ، ومسلم (٢٠٨٨) .

(٣) رواه البخاري (٣٦٦٥) ، ومسلم (٢٠٨٥) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٣٩) .

مثلِ هٰذهِ ؟! حتَّىٰ إذا سوَّيتُكَ وعدَلتُكَ.. مشيتَ بينَ بُردَينِ وللأرضِ منكَ وئيدٌ ! جمعتَ ومنعتَ ، حتَّىٰ إذا بلغَتِ التَّراقيَ.. قلتَ : أتصدَّقُ ! وأنَّىٰ أَوانُ الصدقةِ ؟! »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا مشتْ أمَّتي المُطَيطاءَ ، وخدمَتْهُمْ فارسُ والرومُ.. سلَّطَ اللهُ بعضَهُمْ علىٰ بعضٍ »[2] ، قالَ ابنُ الأعرابيِّ : (هيَ مِشيَةٌ فيها اختيالٌ) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ تعظَّمَ في نفسِهِ واختالَ في مِشيتِهِ.. لقيَ اللهَ تعالىٰ وهو عليهِ غضبانُ »[3] .

* * *

الآثارُ :

عنْ أبي بكرٍ الهذليِّ قالَ : بينَما نحنُ معَ الحسنِ إذْ مرَّ علينا ابنُ الأهتمِ يريدُ المقصورةَ ، وعليهِ جِبابُ خَزٍّ قدْ نضَّدَ بعضَها فوقَ بعضٍ علىٰ ساقِهِ ، وانفرجَ عنها قباؤُهُ ، وهوَ يمشي يتبخترُ ؛ إذْ نظرَ إليهِ الحسنُ نظرةً فقالَ : أفٍّ

---

(١) رواه ابن ماجه (٢٧٠٧) ، وابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٤٥) واللفظ له ، والوئيد : شدة الوطء على الأرض ، يسمع كالدوي من بعد .

(٢) رواه الترمذي (٢٣٦١) ، وابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٤٩) مع قول ابن الأعرابي الآتي .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (٢/١١٨) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (٥٤٩) .

أفٌّ ؛ شامخٌ بأنفِهِ ، ثاني عطفِهِ ، مصعِّرٌ خدَّهُ ، ينظرُ في عطفيهِ ! أيْ حُميِّقُ ؛ أينَ تنظرُ في عطفيكَ ؟ في نعمٍ غيرِ مشكورةٍ ولا مذكورةٍ ، غيرِ المأخوذِ بأمرِ اللهِ فيها ، ولا المؤدَّىٰ حقُّ اللهِ منها ؟ واللهِ ؛ أنْ يمشيَ أحدُهُمْ طبيعتَهُ أنْ يتخلَّجَ تخلُّجَ المجنونِ ، في كلِّ عضوٍ مِنْ أعضائِهِ للهِ نعمةٌ وللشيطانِ بهِ لعنةٌ ، فسمعَ ابنُ الأهتمِ ، فرجعَ يعتذرُ إليهِ ، فقالَ : لا تعتذرْ إليَّ ، وتبْ إلىٰ ربِّكَ ، أما سمعتَ قولَ اللهِ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾ ؟ ![1] .

ومرَّ بالحسنِ شابٌّ عليهِ بزَّةٌ لهُ حسنةٌ ، فدعاهُ فقالَ : (ابنُ آدمَ معجبٌ بشبابِهِ ، معجبٌ بجمالِهِ ؛ كأنَّ القبرَ قدْ وارىٰ بدنَكَ ، وكأنَّكَ قدْ لاقيتَ عملَكَ ، ويحَكَ ! داوِ قلبَكَ ؛ فإنَّ حاجةَ اللهِ إلى العبادِ صلاحُ قلوبِهِمْ)[2] .

ورُوِيَ أنَّ عمرَ بنَ عبدِ العزيزِ حجَّ قبلَ أنْ يُستخلَفَ ، فنظرَ إليهِ طاووسٌ وهوَ يختالُ في مشيتِهِ فغمزَ جنبَهُ بإصبعِهِ وقالَ : ليسَتْ هـٰذهِ مشيةَ مَنْ في بطنِهِ خُرْءٌ ، فقالَ عمرُ كالمعتذرِ : يا عمُّ ؛ لقدْ ضُرِبَ كلُّ عضوٍ منِّي علىٰ هـٰذهِ المِشيةِ حتَّىٰ تعلَّمتُها[3] .

ورأىٰ محمدُ بنُ واسعٍ ولدَهُ يختالُ ، فدعاهُ وقالَ : (أتدري مَنْ أنتَ ؟

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٣٧) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٤٠) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٤١) .

أمَّا أمُّكَ . . فاشتريتُها بمئتي درهمٍ ، وأمَّا أبوكَ . . فلا أكثرَ اللهُ في المسلمينَ مثلَهُ)[1] .

ورأى ابنُ عمرَ رجلاً يجرُّ إزارَهُ فقالَ : (إنَّ للشيطانِ إخواناً) ، كرَّرَها مرتينِ أوْ ثلاثاً[2] .

ويُروىٰ أنَّ مطرِّفَ بنَ عبدِ اللهِ بنِ الشخِّيرِ رأى المهلَّبَ وهوَ يتبخترُ في جُبَّةِ خزٍّ ، فقالَ : يا عبدَ اللهِ ؛ هـٰذهِ مشيةٌ يبغضُها اللهُ ورسولُهُ ، فقالَ لهُ المهلبُ : أمَا تعرفُني ؟ فقالَ : بلىٰ أعرفُكَ ، أوَّلُكَ نطفةٌ مذِرةٌ ، وآخرُكَ جيفةٌ قذرةٌ ، وأنتَ بينَ ذلكَ تحملُ العَذِرَةَ ، فمضى المهلبُ وتركَ مشيتَهُ تلكَ[3] .

وقالَ مجاهدٌ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴾ أيْ : يتبخترُ[4] .

وإذْ ذكرنا ذمَّ الكبرِ والاختيالِ . . فلنذكرْ فضيلةَ التواضعِ .

* * *

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٤٤) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٤٦) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/٣٨٤) ، وصاحب الوعظ هو مالك بن دينار فيه لا مطرف .

(٤) رواه الخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (٥٧٩) .

بيان فضيلة التواضع

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما زادَ اللهُ عبداً بعفوٍ إلا عزّاً ، وما تواضعَ أحدٌ للهِ إلا رفعَهُ اللهُ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما مِنْ أحدٍ إلا ومعَهُ ملكانِ وعليهِ حَكَمَةٌ يمسكانِهِ بها(٢) ، فإنْ هوَ رفعَ نفسَهُ . . جبذاها ، ثمَّ قالا : اللهُمَّ ؛ ضعْهُ ، وإنْ وضعَ نفسَهُ . . قالا : اللهُمَّ ؛ ارفعْهُ »(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « طوبىٰ لمَنْ تواضَعَ في غيرِ مسكنةٍ ، وأنفقَ مالاً جمعَهُ في غيرِ معصيةٍ ، ورحمَ أهلَ الذلِّ والمسكنةِ ، وخالطَ أهلَ الفقهِ والحكمةِ »(٤) .

وعنْ أبي سلمةَ المدينيِّ ، عنْ أبيهِ ، عنْ جدِّهِ قالَ : صلَّىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عندَنا بقُباءَ وكانَ صائماً ، فأتيناهُ عندَ إفطارِهِ بقدَحٍ مِنْ لبنٍ ، وجعلنا فيهِ شيئاً مِنْ عسلٍ ، فلما رفعَهُ وذاقَهُ . . وجدَ حلاوةَ العسلِ :

---

(١) رواه مسلم (٢٥٨٨) .

(٢) الحَكَمَة : نحو لجام الدابة ، سميت بذلك لأنها تذللها لراكبها حتىٰ يمنعها من الجماح ونحوه ، ومنه اشتقاق الحكمة بالكسر ؛ لأنها تمنع صاحبها من أخلاق الأراذل . « إتحاف » (٨/ ٣٥٠) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٧٥) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٧٦) .

فقالَ : « ما هٰذا ؟ » قلنا : يا رسولَ اللهِ ؛ جعلنا فيهِ شيئاً مِنْ عسلٍ ، فوضعَهُ وقالَ : « أما إنِّي لا أحرِّمُهُ ، ومَنْ تواضعَ للهِ . . رفعَهُ اللهُ ، ومَنْ تكبَّرَ . . وضعَهُ اللهُ ، ومَنِ اقتصدَ . . أغناهُ اللهُ ، ومَنْ بذَّرَ . . أفقرَهُ اللهُ ، ومَنْ أكثرَ ذكرَ اللهِ . . أحبَّهُ اللهُ »(١) .

ورُوِيَ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ في نفرٍ مِنْ أصحابِهِ في بيتِهِ يأكلونَ ، فقامَ سائلٌ على البابِ وبهِ زمانةٌ يُتكرَّهُ منها ، فأذنَ لهُ ، فلمَّا دخلَ . . أجلسَهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علىٰ فخذِهِ ، ثمَّ قالَ لهُ : « اطعمْ » ، فكأنَّ رجلاً مِنْ قريشٍ اشمأزَّ منهُ وتكرَّهَهُ ، فما ماتَ ذلكَ الرجلُ حتَّىٰ كانَتْ بهِ زمانةٌ مثلُها(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « خيَّرَني ربِّي بينَ أمرينِ : أنْ أكونَ عبداً رسولاً ، أوْ ملِكاً نبياً ، فلمْ أدرِ أيَّهما أختارُ ، وكانَ صفيِّي مِنَ الملائكةِ جبريلَ ، فرفعتُ رأسي إليهِ فقالَ : تواضعْ لربِّكَ ، فقلتُ : عبداً رسولاً »(٣) .

وأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ موسىٰ عليهِ السلامُ : (إنَّما أقبلُ صلاةَ مَنْ تواضعَ لعظمتي ، ولمْ يتعظَّمْ علىٰ خلقي ، وألزمَ قلبَهُ خوفي ، وقطعَ نهارَهُ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٧٧) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٨٢) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٨٥) ، وفي (ب) : (بين أمرين : بين أن أكون عبداً رسولاً . . .) .

وقالَ المغيرةُ : كنَّا نهابُ إبراهيمَ النخعيَّ هيبةَ الأميرِ ، وكانَ يقولُ : إنَّ زماناً صرتُ فيهِ فقيهَ الكوفةِ لزمانُ سوءٍ[1] .

وكانَ عطاءٌ السَّلَميُّ إذا سمعَ صوتَ الرعدِ .. قامَ وقعدَ ، وأخذَ ببطنِهِ كأنَّهُ امرأةٌ ماخضٌ ، وقالَ : هٰذا مِنْ أجلي يصيبُكُمْ ، لوْ ماتَ عطاءٌ .. لاستراحَ الناسُ[2] .

وكانَ بشرٌ الحافي يقولُ : (سلِّموا علىٰ أبناءِ الدنيا بتركِ السلامِ عليهِمْ)[3] .

ودعا رجلٌ لعبدِ اللهِ بنِ المباركِ فقالَ : أعطاكَ اللهُ ما ترجوهُ ! فقالَ : إنَّ الرجاءَ يكونُ بعدَ المعرفةِ ، فأينَ المعرفةُ ؟!

وتفاخرَتْ قريشٌ عندَ سلمانَ الفارسيِّ رضيَ اللهُ عنهُ يوماً ، فقالَ سلمانُ : لكنِّي خُلقتُ مِنْ نطفةٍ قذرةٍ ، ثمَّ أعودُ جيفةً منتنةً ، ثم آتي الميزانَ ؛ فإنْ ثقُلَ .. فأنا كريمٌ ، وإنْ خفَّ .. فأنا لئيمٌ[4] .

وقالَ أبو بكرٍ الصديقُ رضيَ اللهُ عنهُ : (وجدنا الكرمَ في التقوىٰ ، والغنىٰ في اليقينِ ، والشرفَ في التواضعِ)[5] ، نسألُ اللهَ الكريمَ حسنَ التوفيقِ .

❋ ❋ ❋

---

(١) قول النخعي رواه أبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٢٢٣) .
(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٢٢١ ، ٢٢٥) مفرقاً .
(٣) الرسالة القشيرية (ص ٢٦٩) .
(٤) الخبر عند ابن الجوزي في « صفة الصفوة » (١/ ٢٣٧) .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١١٥) عن يحيى بن أبي كثير مرسلاً .

بيان حقيقة الكبر وآفته

اعلمْ : أنَّ الكبرَ ينقسمُ إلىٰ ظاهرٍ وباطنٍ ، فالباطنُ هوَ خُلُقٌ في النفسِ ، والظاهرُ هوَ أعمالٌ تصدرُ عنِ الجوارحِ .

واسمُ الكبرِ بالخلُقِ الباطنِ أحقُّ ، وأمَّا الأعمالُ . . فإنَّها ثمراتٌ لذلكَ الخُلُقِ ، وخُلُقُ الكبرِ موجبٌ للأعمالِ ، ولذلكَ إذا ظهرَ على الجوارحِ . . يُقالُ : تكبَّرَ ، وإذا لمْ يظهرْ . . يُقالُ : في نفسِهِ كبرٌ ، فالأصلُ هوَ الخلُقُ الذي في النفسِ ، **وهوَ الاسترواحُ والركونُ إلىٰ رؤيةِ النفسِ فوقَ المتكبَّرِ عليهِ** ، فإنَّ الكبرَ يستدعي متكبَّراً عليهِ ، ومتكبَّراً بهِ ، وبهِ ينفصلُ الكبرُ عنِ العجبِ كما سيأتي ، فإنَّ العجبَ لا يستدعي غيرَ المعجبِ ، بلْ لوْ لمْ يُخلقِ الإنسانُ إلا وحدَهُ . . تُصوِّرَ أنْ يكونَ معجباً ، ولا يُتصوَّرُ أنْ يكونَ متكبِّراً ، إلا أنْ يكونَ معَ غيرِهِ ، وهوَ يرىٰ نفسَهُ فوقَ ذلكَ الغيرِ في صفاتِ الكمالِ ، فعندَ ذلكَ يكونُ متكبِّراً .

ولا يكفي أنْ يستعظمَ نفسَهُ ليكونَ متكبِّراً ، فإنَّهُ قدْ يستعظمُ نفسَهُ ولكنْ يرىٰ غيرَهُ أعظمَ مِنْ نفسِهِ أوْ مثلَ نفسِهِ فلا يتكبَّرُ عليهِ .

ولا يكفي أنْ يستحقرَ غيرَهُ فإنَّهُ معَ ذلكَ لوْ رأىٰ نفسَهُ أحقرَ . . لمْ يتكبرْ ، ولوْ رأىٰ غيرَهُ مثلَ نفسِهِ . . لمْ يتكبرْ ، بلْ ينبغي أنْ يرىٰ لنفسِهِ مرتبةً ولغيرِهِ مرتبةً ، ثمَّ يرىٰ مرتبةَ نفسِهِ فوقَ مرتبةِ غيرِهِ .

فعندَ هـٰذهِ الاعتقاداتِ الثلاثةِ يحصلُ فيهِ خُلُقُ الكبرِ ، لا أنَّ هـٰذهِ الرؤيةَ هيَ الكبرُ ، بلْ هـٰذهِ الرؤيةُ وهـٰذهِ العقيدةُ تنفخُ فيهِ ، فيحصلُ في قلبهِ اعتدادٌ ، وهزَّةٌ ، وفرحٌ ، وركونٌ إلىٰ ما اعتقدَهُ ، وعزٌّ في نفسِهِ بسببِ ذلكَ ، فتلكَ العِزَّةُ والهِزَّةُ والركونُ إلى العقيدةِ هوَ خُلُقُ الكبْرِ ، ولذلكَ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أعوذُ بكَ مِنْ نفخةِ الكبرياءِ »[1] ، ولذلكَ قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (أخشىٰ أنْ تنتفخَ حتَّىٰ تبلغَ الثريا) للذي استأذنَهُ أنْ يعظَ بعدَ صلاةِ الصبحِ[2] .

فكأنَّ الإنسانَ مهما رأىٰ نفسَهُ بهـٰذهِ العينِ ، وهو الاستعظامُ . . كبرَ وانتفخَ وتعزَّزَ ، فالكبْرُ عبارةٌ عنِ الحالةِ الحاصلةِ في النفسِ مِنْ هـٰذهِ الاعتقاداتِ ، وتُسمَّىٰ أيضاً عزَّةً وتعظماً ؛ ولذلكَ قالَ ابنُ عباسٍ في قولهِ تعالىٰ : ﴿ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ﴾ .

قالَ عظمةٌ لمْ يبلغوها ، ففسَّرَ الكبرَ بتلكَ العظمةِ[3] .

ثمَّ هـٰذهِ العزَّةُ تقتضي أعمالاً في الظاهرِ والباطنِ هيَ ثمرتُها ، ويُسمَّىٰ

---

(١) رواه أبو داوود (٧٦٤) ولفظه : « أعوذ بالله من الشيطان من نفخه ونفثه وهمزه » ، قال ـ عمرو بن مرة ، أحد الرواة ـ : ونفثه الشعر ، ونفخه الكبر ، وهمزه المُوْتَة ، والموتة : الصرع أو الجنون ، وعند الحاكم في « المستدرك » (١/ ٢٠٧) : « ونفخه الكبرياء » .

(٢) رواه الضياء في « المختارة » (١٠٦) ، وأحمد في « المسند » (١/ ١٨) بنحوه .

(٣) وقد رواه الطبري في « تفسيره » (١٢/ ٢٤/ ٩٤) عن مجاهد .

ذلكَ تكبُّراً ، فإنَّهُ مهما عظُمَ عندَهُ قدرُهُ بالإضافةِ إلىٰ غيرِه . . حقرَ مَنْ دُونَهُ وازدراهُ ، وأقصاهُ عنْ نفسِهِ وأبعدَهُ ، وترفَّعَ عنْ مجالستِهِ ومؤاكلتِهِ ، ورأىٰ أنَّ حقَّهُ أنْ يقومَ ماثلاً بينَ يديهِ إنِ اشتدَّ كبْرُهُ ، فإنْ كانَ أشدَّ مِنْ ذلكَ . . استنكفَ عنِ استخدامِهِ ولمْ يجعلْهُ أهلاً للقيامِ بينَ يديهِ ، ولا لخدمةِ عتبتِهِ ، وإنْ كانَ دونَ ذلكَ . . فيأنفُ عنْ مساواتِهِ ، وتقدَّمَ عليهِ في مضايقِ الطرقِ ، وارتفعَ عليهِ في المحافلِ ، وانتظرَ أنْ يبدأَهُ بالسلامِ ، واستبعدَ تقصيرَهُ في قضاءِ حوائجِهِ ، وتعجَّبَ منهُ ، وإنْ حاجَّ أَوْ ناظرَ . . أنفَ أنْ يردَّ عليهِ ، وإنْ وُعِظَ . . استنكفَ مِنَ القبولِ ، وإنْ وَعَظَ . . عنَّفَ في النصحِ ، وإنْ رُدَّ عليهِ شيءٌ مِنْ قولِهِ . . غضبَ ، وإنْ علَّمَ . . لمْ يرفُقْ بالمتعلمينَ ، واستذلَّهُمْ وانتهرَهُمْ ، وامتنَّ عليهِمْ واستخدمَهُمْ ، وينظرُ إلى العامَّةِ كأنهُ ينظرُ إلى الحميرِ ؛ استجهالاً لهُمْ واستحقاراً .

والأعمالُ الصادرةُ عنْ خُلُقِ الكبرِ كثيرةٌ ، وهيَ أكثرُ مِنْ أنْ تُحصىٰ ؛ فلا حاجةَ إلىٰ تعدادِها ، فإنَّها مشهورةٌ فهـٰذا هوَ الكبرُ ، وآفتُهُ عظيمةٌ ، وغائلتُهُ هائلةٌ ، وفيهِ يهلكُ الخواصُّ مِنَ الخلقِ ، وقلَّما ينفكُّ عنهُ العبَّادُ والزهَّادُ والعلماءُ ، فضلاً عنْ عوامِّ الناسِ .

وكيفَ لا تعظمُ آفتُهُ وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يدخلُ الجنةَ مَنْ في قلبِهِ مثقالُ ذرةٍ مِنْ كبرٍ »[1] ؟! وإنَّما صارَ حجاباً دونَ الجنةِ ؛ لأنَّهُ يحولُ

---

(١) رواه مسلم (٩١) ، والترمذي (١٩٩٨) .

بينَ العبدِ وبينَ أخلاقِ المؤمنينَ كلِّها ، وتلكَ الأخلاقُ هيَ أبوابُ الجنةِ ، والكبرُ وعزَّةُ النفسِ يغلقُ تلكَ الأبوابَ كلَّها ؛ لأنَّهُ لا يقدرُ علىٰ أنْ يحبَّ للمؤمنينَ ما يحبُّ لنفسِهِ وفيهِ شيءٌ مِنَ العزِّ ، ولا يقدرُ على التواضعِ ـ وهوَ رأسُ أخلاقِ المتقينَ ـ وفيهِ العزُّ ، ولا يقدرُ علىٰ تركِ الحقدِ وفيهِ العزُّ ، ولا يقدرُ أنْ يدومَ على الصدقِ وفيهِ العزُّ ، ولا يقدرُ علىٰ تركِ الغضبِ وفيهِ العزُّ ، ولا يقدرُ علىٰ كظمِ الغيظِ وفيهِ العزُّ ، ولا يقدرُ علىٰ تركِ الحسدِ وفيهِ العزُّ ، ولا يقدرُ على النصحِ اللطيفِ وفيهِ العزُّ ، ولا يقدرُ علىٰ قبولِ النصحِ وفيهِ العزُّ ، ولا يسلمُ مِنَ الإزراءِ بالناسِ ومِنَ اغتيابِهِمْ وفيهِ العزُّ ، ولا معنىٰ للتطويلِ ؛ فما مِنْ خلقٍ ذميمٍ إلا وصاحبُ العزِّ والكبْرِ مضطرٌّ إليهِ ؛ ليحفظَ بهِ عزَّهُ ، وما مِنْ خُلُقٍ محمودٍ إلا وهوَ عاجزٌ عنهُ ؛ خوفاً مِنْ أنْ يفوتَهُ عزُّهُ .

فعلىٰ هـٰذا ؛ لمْ يدخلِ الجنةَ مَنْ في قلبِهِ مثقالُ حبةٍ منهُ ، والأخلاقُ الذميمةُ متلازمةٌ ، والبعضُ منها داعٍ إلى البعضِ لا محالَ .

وشرُّ أنواعِ الكبرِ ما يمنعُ منِ استفادةِ العلمِ وقبولِ الحقِ والانقيادِ لهُ ، وفيهِ وردَتِ الآياتُ التي فيها ذمُّ الكبرِ والمتكبِّرينَ ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ .

ثمَّ قالَ : ﴿ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ .

ثمَّ أخبرَ أنَّ أشدَّ أهلِ النارِ عذاباً أشدُّهُمْ عتياً على اللهِ تعالىٰ فقالَ : ﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ ، قيلَ في التفسيرِ : (سأرفعُ فهمَ القرآنِ مِنْ قلوبِهِمْ)[1] ، وفي بعضِ التفاسيرِ : (سأحجبُ قلوبَهُمْ عنِ الملكوتِ) .

وقالَ ابنُ جريجٍ : (سأصرفُهُمْ عنْ أنْ يتفكَّروا فيها ويعتبروا بها)[2] .

ولذلكَ قالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (إنَّ الزرعَ ينبتُ في السهلِ ولا ينبتُ على الصفا ، كذلكَ الحكمةُ تعملُ في قلبِ المتواضعِ ولا تعملُ في قلبِ المتكبرِ ، ألا ترونَ أنَّ مَنْ شمخَ برأسِهِ إلى السقفِ . . شجَّهُ ، ومَنْ تطأطأَ . . أظلَّهُ وأكنَّهُ ؟)[3] .

---

(١) رواه الطبري في « تفسيره » (٦/٩/٧٦) عن ابن عيينة .
(٢) رواه الطبري في « تفسيره » (٦/٩/٧٧) .
(٣) أورده المحاسبي في « الرعاية » (ص ٣٧٦) .

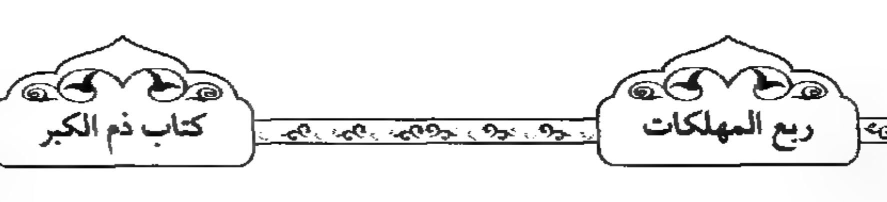
فهـٰذا مثلٌ ضربَهُ للمتكبِّرينَ ، وأنَّهُمْ كيفَ يُحرمونَ الحكمةَ .

ولذلكَ ذكرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ جحودَ الحقِّ في حدِّ الكبْرِ والكشفِ عنْ حقيقتِهِ وقالَ : « مَنْ سَفِهَ الحقَّ وغمَصَ الناسَ »[1] .

* * *

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٤/١٣٣) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (٥٤٨) ، وابن حبان في « صحيحه » (٥٤٦٧) ، وهو عند مسلم (٩١) بلفظ : « الكبر بطر الحق وغمط الناس » .



بيان المتكبَّر عليه ودرجاته وأقسامه وثمرات الكبر فيه

اعلمْ : أنَّ المتكبَّرَ عليهِ هوَ اللهُ تعالىٰ ، أوْ رسلُهُ ، أوْ سائرُ الخلقِ ، وقدْ خُلِقَ الإنسانُ ظلُوماً جهولاً ؛ فتارةً يتكبَّرُ على الخلقِ ، وتارةً يتكبَّرُ على الخالقِ .

فإذاً ؛ التكبرُ باعتبارِ المتكبَّرِ عليهِ ثلاثةُ أقسامٍ :

الأوَّلُ : التكبُّرُ على اللهِ :

وذلكَ هوَ أفحشُ أنواعِ الكبرِ ، ولا مثارَ لهُ إلا الجهلُ المحضُ والطغيانُ ؛ مثلَ ما كانَ مِنْ نمروذَ ، فإنَّهُ كانَ يحدِّثُ نفسَهُ بأنْ يقاتلَ ربَّ السماءِ ، وكما يُحكىٰ عنْ جماعةٍ مِنَ الجهلةِ ، بلْ ما يُحكىٰ عنْ كلِّ مَنِ ادَّعى الربوبيَّةَ ؛ مثلَ فرعونَ وغيرِهِ ، فإنَّهُ لتكبُّرِهِ قالَ : ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ ، إذِ استنكفَ أنْ يكونَ عبداً للهِ .

ولذلكَ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ لَن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴾ .

❊ ❊ ❊

القسمُ الثاني : التكبُّرُ على الرسلِ :

مِنْ حيثُ تعزُّزُ النفسِ وترفُّعُها عنِ الانقيادِ لبشرٍ مثلِ سائرِ الناسِ ، وذلكَ تارةً يصرفُ عنِ الفكرِ والاستبصارِ ، فيبقىٰ في ظلمةِ الجهلِ بكبرِهِ ، فيمتنعُ عنِ الانقيادِ وهوَ ظانٌّ أنَّهُ محقٌّ فيهِ ، وتارةً يمتنعُ معَ المعرفةِ ، ولكنْ لا تطاوعُهُ نفسُهُ للانقيادِ للحقِّ والتواضعِ للرسلِ ؛ كما حكى اللهُ تعالىٰ عنْ قولِهِمْ : ﴿ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا ﴾ ، وقولِهِمْ : ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ ، وقولِهِمْ : ﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴾ ، وقالوا : ﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾ ، ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ .

وقالَ فرعونُ فيما أخبرَ اللهُ تعالىٰ عنهُ : ﴿ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾ ، وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ فتكبرَ هوَ على اللهِ وعلىٰ رسولِهِ جميعاً ، قالَ وهبٌ : قالَ لهُ موسىٰ عليهِ السلامُ : آمنْ ولكَ ملكُكَ ، قالَ : حتَّىٰ أشاورَ هامانَ ، فشاورَ هامانَ ، فقالَ هامانُ : بينَما أنتَ ربٌّ تُعبَدُ إذْ صرْتَ عبداً تعبُدُ ! فاستنكفَ عنْ عبوديَّةِ اللهِ وعنِ اتباعِ موسىٰ عليهِ السلامُ[1] .

---

(١) كذا في « الرعاية » (ص ٣٧٩) ، ورواه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (١٩١٢٠) عن السدي ، ورواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦٧/٦١) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

وقالَتْ قريشٌ فيما أخبرَ اللهُ عزَّ وجلَّ عنهُمْ : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ ، قالَ قتادةُ : عظيمُ القريتينِ هوَ الوليدُ بنُ المغيرةِ وأبو مسعودٍ الثقفيُّ ، طلبوا مَنْ هو أعظمُ رئاسةً مِنَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ إذْ قالُوا : غلامٌ يتيمٌ كيفَ بعثَهُ اللهُ إلينا ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾(١) .

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ﴾ أي : استحقاراً لهُمْ واستبعاداً لتقدُّمِهِمْ .

وقالَتْ قريشٌ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : كيفَ نجلسُ إليكَ وعندَكَ هؤلاءِ ؟! أشاروا إلىٰ فقراءِ المسلمينَ ، وازدرَوهُمْ بأعينِهِمْ لفقرِهِمْ ، وتكبَّروا عنْ مجالستِهِمْ ، فأنزلَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾(٢) ، وقولَهُ : ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ .

ثمَّ أخبرَ اللهُ تعالىٰ عنْ تعجُّبِهِمْ حينَ دخلوا جهنَّمَ ؛ إذْ لمْ يرَوُا الذينَ استرذلوهُمْ ، فقالوا : ﴿ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴾ قيلَ : يعنونَ : عماراً وبلالاً وصهيباً والمقدادَ رضيَ اللهُ عنهُمْ(٣) .

---

(١) انظر مجمل الروايات عند الطبري في « تفسيره » (١٣/ ٢٥/ ٧٩) وما بعدها ، وسياق المصنف عند صاحب « الرعاية » (ص ٣٨٠) .

(٢) رواه مسلم (٢٤١٣) عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وفيه : (وكان المشركون قالوا له : تدني هؤلاء ؟!) ، وابن ماجه (٤١٢٨) ، وفيه : (قالت قريش) .

(٣) كذا في « الرعاية » (ص ٣٨١) ، ورواه الطبري في « تفسيره » (١٢/ ٢٣/ ٢٢٠) .

ثم كانَ منهُمْ مَنْ منعَهُ الكبرُ عنِ الفكرِ والمعرفةِ فجهلَ كونَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ محقّاً ، ومنهُمْ مَنْ عرفَ ومنعَهُ الكبرُ عنِ الاعترافِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ مخبراً عنهُمْ : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ ﴾ ، وقالَ : ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ ، وهٰذا الكبرُ قريبٌ مِنَ التكبُّرِ على اللهِ تعالىٰ ، وإنْ كانَ دونَهُ ، ولكنَّهُ تكبُّرٌ عنْ قبولِ أمرِ اللهِ والتواضعِ لرسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

* * *

القسمُ الثالثُ : التكبُّرُ على العبادِ :

وذلكَ بأنْ يستعظمَ نفسَهُ ويستحقرَ غيرَهُ ؛ فتأبىٰ نفسُهُ عنِ الانقيادِ لهُمْ ، وتدعوَهُ إلى الترفُّعِ عليهِمْ ؛ فيزدريَهُمْ ويستصغرَهُمْ ، ويأنفَ مِنْ مساواتِهِمْ ، وهٰذا وإنْ كانَ دونَ الأولِ والثاني . . فهوَ أيضاً عظيمٌ مِنْ وجهينِ :

ـ **أحدُهُما** : أنَّ الكبرَ والعزَّ والعظمةَ والعلاءَ لا يليقُ إلا بالملكِ القادرِ ، فأمَّا العبدُ المملوكُ الضعيفُ العاجزُ الذي لا يقدرُ علىٰ شيءٍ . . فمِنْ أينَ يليقُ بهِ الكبرُ ؟! فمهما تكبَّرَ العبدُ . . فقدْ نازعَ اللهَ تعالىٰ في صفةٍ لا تليقُ إلا بجلالِهِ .

ومثالُهُ : أنْ يأخذَ الغلامُ قَلَنْسُوةَ الملكِ ، فيضعَها علىٰ رأسِهِ ، ويجلسَ علىٰ سريرِهِ ، فما أعظمَ استحقاقَهُ للمقتِ ! وما أعظمَ تهدُّفَهُ للخزيِ والنكالِ ! وما أشدَّ استجراءَهُ علىٰ مولاهُ ! وما أقبحَ ما تعاطاهُ ! وإلىٰ هٰذا

المعنى الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : « العظمةُ إزاري ، والكبرياءُ ردائي ؛ فمَنْ نازعَني فيهِما. . قصمتُهُ »[1] أيْ : إنَّهُ خاصُّ صفتي ، ولا يليقُ إلا بي ، والمنازعُ فيهِ منازعٌ في صفةٍ مِنْ صفاتي ، وإذا كانَ الكبرُ علىٰ عبادِهِ لا يليقُ إلا بهِ . . فمَنْ تكبَّرَ علىٰ عبادِهِ . . فقدْ جنىٰ عليهِ ؛ إذِ الذي يسترذلُ خواصَّ غلمانِ الملكِ ، ويستخدمُهُمْ ويترفَّعُ عليهِمْ ، ويستأثرُ بما حقُّ الملكِ أنْ يستأثرَ بهِ منهُمْ . . فهوَ منازعٌ لهُ في بعضِ أمرِهِ ، وإنْ لمْ تبلغْ درجتُهُ درجةَ مَنْ أرادَ الجلوسَ علىٰ سريرِهِ والاستبدادَ بملكِهِ ، فالخلقُ كلُّهُمْ عبادُ اللهِ ، ولهُ العظمةُ والكبرياءُ عليهِمْ ؛ فمَنْ تكبَّرَ علىٰ عبدٍ مِنْ عبادِ اللهِ . . فقَدْ نازعَ اللهَ في حقِّهِ .

نعم ؛ الفرقُ بينَ هـٰذهِ المنازعةِ وبينَ منازعةِ نمروذَ وفرعونَ ما هوَ الفرقُ بينَ منازعةِ الملكِ في استصغارِ بعضِ عبيدِهِ واستخدامِهِمْ ، وبينَ منازعتِهِ في أصلِ الملكِ .

ـ الوجهُ الثاني الذي تعظمُ بهِ رذيلةُ الكبرِ : أنَّهُ يدعو إلىٰ مخالفةِ اللهِ تعالىٰ في أوامرِهِ ؛ لأنَّ المتكبِّرَ إذا سمعَ الحقَّ مِنْ عبدٍ مِنْ عبادِ اللهِ . . استنكفَ عنْ قبولِهِ ، وتشمَّرَ لجحدِهِ ، ولذلكَ ترى المناظرينَ في مسائلِ الدينِ يزعمونَ أنَّهُمْ يتباحثونَ عنْ أسرارِ الدينِ ، ثمَّ إنَّهُمْ يتجاحدونَ تجاحدَ المتكبِّرينَ ، ومهما اتَّضحَ الحقُّ علىٰ لسانِ واحدٍ منهُمْ . . أنفَ الآخرُ مِنْ قبولِهِ ، وتشمَّرَ

---

(١) رواه مسلم (٢٦٢٠) ، وأبو داوود (٤٠٩٠) واللفظ له .

لجحدِهِ ، واحتالَ لدفعِهِ بما يقدرُ عليهِ مِنَ التلبيسِ ، وذلكَ مِنْ أخلاقِ الكافرينَ والمنافقينَ ، إذْ وصفَهُمُ اللهُ تعالىٰ فقالَ : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسۡمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴾ ، فكلُّ مَنْ يناظرُ للغلبةِ والإفحامِ ، لا ليغتنمَ الحقَّ إذا ظفرَ بهِ . . فقدْ شاركَهُمْ في هٰذا الخُلُقِ .

وكذلكَ يحملُ ذلكَ على الأنفةِ مِنْ قبولِ الوعظِ ؛ كما قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِ ﴾ ، ورُوِيَ عنْ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ قرأَها فقالَ : إنا للهِ وإنا إليهِ راجعونَ ، قامَ رجلٌ يأمرُ بالمعروفِ فقُتلَ ، فقامَ آخرُ فقالَ : أتقتلونَ الذينَ يأمرونَ بالقسطِ مِنَ الناسِ ؟! فقتلَ المتكبِّرُ الذي خالفَهُ والذي أمرَهُ كِبراً[(١)] .

وقالَ ابنُ مسعودٍ : (كفىٰ بالرجلِ إثماً إذا قيلَ لهُ : اتقِ اللهَ . . قالَ : عليكَ نفسَكَ)[(٢)] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لرجلٍ : « كلْ بيمينِكَ » ، قالَ : لا أستطيعُ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا استطعتَ ! » ، فما منعَهُ إلا الكبرُ ، قالَ : فما رفعَها بعدَ ذلكَ ؛ أيِ : اعتلَّتْ يدُهُ[(٣)] .

---

(١) بنحوه رواه الطبري في « تفسيره » (٢/٢/٤٢٨) .

(٢) كذا في « الرعاية » (ص ٣٨٢) ، وروى النسائي في « السنن الكبرىٰ » (١٠٦١٩) من حديثه رضي الله عنه مرفوعاً : « . . . وإن أبغض الكلام إلى الله أن يقول الرجل للرجل : اتق الله ، فيقول : عليك نفسك » .

(٣) رواه مسلم (٢٠٢١) ، وقول : (فما منعه إلا الكبر) زيادة من الراوي لبيان موجب دعائه عليه الصلاة والسلام .

فإذاً ؛ تكبرُهُ على الخلقِ عظيمٌ ؛ لأنَّهُ سيدعوهُ إلى التكبُّرِ علىٰ أمرِ اللهِ تعالىٰ ، وإنَّما ضُرِبَ إبليسُ مثلاً لهـٰذا ، وما حُكيَ مِنْ أحوالِهِ . . إلا ليُعتبَرَ بهِ ؛ فإنَّهُ قالَ : ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾ وهـٰذا الكبرُ بالنسبِ ؛ لأنَّهُ قالَ : ﴿ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ ، فحملَهُ ذلكَ علىٰ أنْ يمتنعَ مِنَ السجودِ الذي أمرَهُ اللهُ تعالىٰ بهِ ، فكانَ مبدؤُهُ التكبُّرَ علىٰ آدمَ والحسدَ لهُ ، فجرَّهُ ذلكَ إلى التكبُّرِ علىٰ أمرِ اللهِ تعالىٰ ، فكانَ ذلكَ سببَ هلاكِهِ أبدَ الآبادِ .

فهـٰذهِ آفةٌ مِنْ آفاتِ الكبرِ على العبادِ عظيمةٌ ، ولذلكَ شرحَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ الكبرَ بهاتينِ الآفتينِ ؛ إذْ سألَهُ ثابتُ بنُ قيسِ بنِ شماسٍ فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ إنِّي امرؤٌ قدْ حُبِّبَ إليَّ مِنَ الجمالِ ما ترىٰ ؛ أفمِنَ الكبرِ هوَ ؟ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا ، ولكنَّ الكبرَ مَنْ بَطَرَ الحقَّ ، وغمصَ الناسَ »(١) ، وفي حديثٍ آخرَ : « مَنْ سَفِهَ الحقَّ »(٢) ، وقولُهُ : (غمَصَ الناسَ) أيْ : ازدراهُمْ واستحقرَهُمْ ، وهمْ عبادُ اللهِ أمثالُهُ ، أوْ خيرٌ منهُ ، وهـٰذهِ الآفةُ الأولىٰ ، و(سَفَهُ الحقِّ) : هوَ ردُّهُ ، وهيَ الآفةُ الثانيةُ .

---

(١) رواه مسلم (٩١) ، والترمذي (١٩٩٩) ولفظ المرفوع له ، وليس فيه ذكر ثابت رضي الله عنه ، وإنما تبع فيه المصنف صاحب « الرعاية » (ص ٢٨٣) .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٤/١٣٣) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (٥٤٨) ، وابن حبان في « صحيحه » (٥٤٦٧) ، وهو عند مسلم (٩١) بلفظ : « الكبر بطر الحق وغمط الناس » .

فكلُّ مَنْ رأىٰ أنَّهُ خيرٌ مِنْ أخيهِ ، واحتقرَ أخاهُ وازدراهُ ، ونظرَ إليهِ بعينِ الاستصغارِ ، أوْ ردَّ الحقَّ وهوَ يعرفُهُ . . فقدْ تكبَّرَ فيما بينَهُ وبينَ الخلقِ ، ومَنْ أنِفَ أنْ يخضعَ للهِ تعالىٰ ويتواضعَ لهُ بطاعتِهِ واتباعِ رُسلِهِ . . فقدْ تكبَّرَ فيما بينَهُ وبينَ اللهِ تعالىٰ ورسلِهِ .

* * *

بيان ما به التكبر

اعلمْ : أنَّهُ لا يتكبَّرُ إلا مَنِ استعظمَ نفسَهُ ، ولا يستعظمُها إلا وهوَ يعتقدُ لها صفةً مِنْ صفاتِ الكمالِ .

ومجامعُ ذلكَ يرجعُ إلىٰ كمالٍ دينيٍّ أوْ دنيويٍّ ، **فالدينيُّ** : هوَ العلمُ ، والعملُ ، **والدنيويُّ** : هوَ النسبُ ، والجمالُ ، والقوةُ ، والمالُ ، وكثرةُ الأنصارِ ، فهـٰذهِ سبعةُ أسبابٍ .

* * *

الأولُ : العلمُ :

وما أسرعَ الكبرَ إلى العلماءِ ؛ ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « آفةُ العلمِ الخيلاءُ »(١) ، فلا يلبثُ العالمُ أنْ يتعزَّزَ بعزِّ العلمِ ، ويستشعرَ في نفسِهِ جمالَ العلمِ وكمالَهُ ، فيستعظمَ نفسَهُ ويستحقرَ الناسَ ، وينظرَ إليهِمْ نظرَهُ إلى البهائِمِ ، ويستجهلَهُمْ ، ويتوقَّعَ أنْ يبدؤوهُ بالسلامِ ؛ فإنْ بدأَ أحداً منهُمْ بالسلامِ ، أوْ ردَّ عليهِ ببشْرٍ ، أوْ قامَ لهُ ، أو أجابَ لهُ دعوةً . . رأىٰ ذلكَ صنيعةً عندَهُ ويداً عليهِ يلزمُهُ شكرُها ، واعتقدَ أنَّهُ أكرمَهُمْ ، وفعلَ بهِمْ ما لا يستحقُّونَ مِنْ مثلِهِ ، وأنَّهُ ينبغي أنْ يرقُّوا لهُ ويخدموهُ ؛ شكراً لهُ علىٰ صنيعِهِ .

---

(١) المعروف ـ كما قال الحافظ العراقي ـ هو حديث : « آفة العلم النسيان وآفة الجمال الخيلاء » ، وهو قطعة من حديث رواه البيهقي في « الشعب » (٤٣٢٦) ، وانظر « الإتحاف » (٦/ ٣٦٤) .

بلِ الغالبُ أنَّهُمْ يبرُّونَهُ فلا يبرُّهُمْ ، ويزورونَهُ فلا يزورُهُمْ ، ويعودونَهُ فلا يعودُهُمْ ، ويستخدمُ مَنْ خالطَهُ منهُمْ ويستسخرُهُ في حوائجِهِ ، فإنْ قصَّرَ فيهِ . . استنكرَهُ ؛ كأنَّهُمْ عبيدُهُ أوْ أجراؤُهُ ، وكأنَّ تعليمَهُ العلمَ صنيعةٌ منهُ لديهِمْ ، ومعروفٌ إليهِمْ ، واستحقاقُ حقٍّ عليهِمْ ، هـٰذا فيما يتعلقُ بالدنيا .

أمَّا في أمرِ الآخرةِ . . فتكبُّرُهُ عليهِمْ بأنْ يرىٰ نفسَهُ عندَ اللهِ تعالىٰ أعلىٰ وأفضلَ منهُمْ ، فيخافُ عليهِمْ أكثرَ ممَّا يخافُ علىٰ نفسِهِ ، ويرجو لنفسِهِ أكثرَ ممَّا يرجو لهُمْ .

وهـٰذا بأنْ يُسمَّىٰ جاهلاً أولىٰ مِنْ أنْ يُسمَّىٰ عالماً ، بلِ العلمُ الحقيقيُّ هوَ الذي يعرفُ الإنسانُ بهِ نفسَهُ وربَّهُ ، وخطرَ الخاتمةِ ، وحجةَ اللهِ على العلماءِ ، وعظمَ خطرِ العلمِ فيهِ ؛ كما سيأتي في طريقِ معالجةِ الكبرِ بالعلمِ .

وهـٰذهِ العلومُ تزيدُ العبدَ خوفاً وتواضعاً وتخشُّعاً ، وتقتضي أنْ يرىٰ أنَّ كلَّ الناسِ خيرٌ منهُ ؛ لعظمِ حجةِ اللهِ عليهِ بالعلمِ ، وتقصيرِهِ في القيامِ بشكرِ نعمةِ العلمِ .

ولهـٰذا قالَ أبو الدرداءِ : (مَنِ ازدادَ علماً . . ازدادَ وجعاً)[1] ، وهوَ كما قالَ .

* * *

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/٣٦٣) عن سفيان الثوري .

فإنْ قلتَ : فما بالُ بعضِ الناسِ يزدادُ بالعلمِ كِبْراً وأمناً ؟

فاعلمْ : أنَّ لذلكَ سببينِ :

أحدُهما : أنْ يكونَ اشتغالُهُ بما يُسمَّىٰ علماً وليسَ بعلمٍ حقيقيٍّ ، وإنَّما العلمُ الحقيقيُّ ما يعرفُ العبدُ بهِ نفسَهُ وربَّهُ ، وخطرَ أمرِهِ في لقاءِ اللهِ والحجابِ منهُ ، وهـٰذا يورثُ الخشيةَ والتواضعَ دونَ الكبرِ والأمنِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ ، فأمَّا ما وراءَ ذلكَ ؛ كعلمِ الطبِّ ، والحسابِ ، واللغةِ ، والشعرِ ، والنحوِ ، وفصلِ الخصوماتِ ، وطرقِ المجادلاتِ ؛ فإذا تجرَّدَ الإنسانُ لها حتَّى امتلأَ منها . . امتلأَ بها كبراً ونفاقاً ، وهـٰذهِ بأنْ تُسمَّىٰ صناعاتٍ أولىٰ مِنْ أنْ تُسمَّىٰ علوماً ، بلِ العلمُ هوَ معرفةُ العبوديَّةِ والربوبيَّةِ وطريقِ العبادةِ ، وهـٰذا يورثُ التواضعَ غالباً .

السببُ الثاني : أنْ يخوضَ العبدُ في العلمِ وهوَ خبيثُ الدُّخْلَةِ ، رديءُ النفسِ ، سيِّئُ الأخلاقِ ، فإنَّهُ لمْ يشتغلْ أولاً بتهذيبِ نفسِهِ وتزكيةِ قلبِهِ بأنواعِ المجاهداتِ ، ولمْ يرضْ نفسَهُ في عبادةِ ربِّهِ ؛ فبقيَ خبيثَ الجوهرِ ، فإذا خاضَ في العلمِ أيَّ علمٍ كانَ . . صادفَ العلمُ مِنْ قلبِهِ منزلاً خبيثاً ، فلمْ يطبْ ثمرُهُ ، ولمْ يظهرْ في الخيرِ أثرُهُ .

* * *

وقدْ ضربَ وهبٌ لهـٰذا مثلاً فقالَ : (العلمُ كالغيثِ ينزلُ مِنَ السماءِ حلواً صافياً ، فتشربُهُ الأشجارُ بعروقِها ، فتحولُهُ علىٰ قدْرِ طعومِها ، فيزدادُ المرُّ

مرارةً ، والحلوُ حلاوةً ، وكذلكَ العلمُ يحفظُهُ الرجالُ ، فتحولُهُ علىٰ قدْرِ هممِها وأهوائِها ، فيزيدُ المتكبِّرَ كبراً ، والمتواضعَ تواضعاً)(١) ، وهـٰذا لأنَّ مَنْ كانَتْ همَّتُهُ الكبرَ وهوَ جاهلٌ ، فإذا حفظَ العلمَ . . وجدَ ما يتكبَّرُ بهِ ، فازدادَ كبراً ، وإذا كانَ الرجلُ خائفاً معَ جهلِهِ ، فإذا ازدادَ علماً . . علمَ أنَّ الحجةَ قدْ تأكدَتْ عليهِ ، فيزدادُ خوفاً وإشفاقاً وذلاً وتواضعاً .

فالعلمُ مِنْ أعظمِ ما يُتكبَّرُ بهِ ؛ ولأجلِ ذلكَ قالَ اللهُ تعالىٰ لنبيِّهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ .

ووصفَ أولياءَهُ فقالَ تعالىٰ : ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ .

ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيما رواهُ العباسُ رضيَ اللهُ عنهُ : « يكونُ قومٌ يقرؤونَ القرآنَ لا يجاوزُ حناجرَهُمْ ، يقولونَ : قدْ قرأنا القرآنَ ، فمَنْ أقرأُ منَّا ؟! ومَنْ أعلمُ منَّا ؟! » ، ثمَّ التفَتَ إلىٰ أصحابِهِ فقالَ : « أولئكَ منكُمْ أيُّها الأمةُ ، أولئكَ همْ وقودُ النارِ »(٢) .

ولذلكَ قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (لا تكونوا جبابرةَ العلماءِ ، فلا يفي علمُكُمْ بجهلِكُمْ)(٣) .

---

(١) أورده المحاسبي في « الرعاية » (ص ٣٨٥) .
(٢) كذا في « الرعاية » (ص ٣٩٠) ، ورواه ابن المبارك في « الزهد » (٤٥٠) .
(٣) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (١١٩٧) ، وكذا في « قوت القلوب » (١/ ١٤٠) ، وانظر « الإتحاف » (١/ ٤٢٠) .

ولذلكَ استأذنَ تميمٌ الداريُّ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ في القصصِ ، فأبىٰ أنْ يأذنَ لهُ ، وقالَ لهُ : (إِنَّهُ الذبحُ)[١] .

واستأذنَهُ رجلٌ كانَ إمامَ قومٍ أنَّهُ إذا سلَّمَ مِنْ صلاتِهِ . . ذكَّرَهُمْ ، فقالَ : (إنِّي أخافُ أنْ تنتفخَ حتَّىٰ تبلغَ الثريا)[٢] .

وصلَّىٰ حذيفةُ بقومٍ ، فلمَّا سلَّمَ مِنْ صلاتِهِ . . قالَ : (لتلتمسُنَّ إماماً غيري أوْ لتصلُّنَّ وُحْداناً ؛ إنِّي رأيتُ في نفسي أنهُ ليسَ في القومِ أفضلُ منِّي)[٣] .

فإذا كانَ مثلُ حذيفةَ لا يسلمُ . . فكيفَ يسلمُ الضعفاءُ مِنْ متأخري هـٰذهِ الأمةِ ؟!

فما أعزَّ علىٰ بسيطِ الأرضِ عالماً يستحقُّ أنْ يُقالَ : إنَّهُ عالمٌ ، ثمَّ لا يحركُهُ عزُّ العلمِ وخيلاؤُهُ !

فإنْ وُجِدَ ذلكَ . . فهو صِدِّيقُ زمانِهِ ؛ فلا ينبغي أنْ يُفارقَ ، بلْ يكونُ النظرُ إليهِ عبادةً ، فضلاً عنِ الاستفادةِ مِنْ أنفاسِهِ وأحوالِهِ ، ولوْ عرفنا ذلكَ ولوْ في أقصى الصينِ . . لسعينا إليهِ ؛ رجاءَ أنْ تشملَنا بركتُهُ ، وتسريَ إلينا سيرتُهُ وسجيَّتُهُ .

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٤٤٩) ، والطبراني في « الكبير » (٢/ ٤٩) .
(٢) رواه الضياء في « المختارة » (١٠٦) ، وأحمد في « المسند » (١/ ١٨) بنحوه ، وهو في « الرعاية » (ص ٣٩٢) .
(٣) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٤١٣٧) ، وبتمامه في « الرعاية » (ص ٣٩٢) .

وهيهاتَ ! فأنَّىٰ يسمحُ آخرُ الزمانِ بمثلِهِمْ ؟!

فهُمْ أربابُ الإقبالِ وأصحابُ الدولِ ، قدِ انقرضوا في القرنِ الأولِ ومَنْ يليهِمْ ، بلْ يعزُّ في زمانِنا عالمٌ يختلجُ في نفسِهِ الأسفُ والحزنُ علىٰ فواتِ هـٰذهِ الخصلةِ ، فذلكَ أيضاً إمَّا معدومٌ وإمَّا عزيزٌ ، ولولا بشارةُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بقولِهِ : « سيأتي على الناسِ زمانٌ مَنْ تمسَّكَ فيهِ بعُشرِ ما أنتُمْ عليهِ . . نجا »[1] . . لكانَ جديراً بنا أنْ نقتحمَ ـ والعياذُ باللهِ تعالىٰ ـ ورطةَ اليأسِ والقنوطِ ، معَ ما نحنُ عليهِ مِنْ سوءِ أعمالِنا ، ومَنْ لنا أيضاً بالتمسُّكِ بعشرِ ما كانوا عليهِ ؟! وليتَنا تمسَّكنَا بعُشرِ عَشيرِهِ ، فنسألُ اللهَ تعالىٰ أنْ يعاملَنا بما هوَ أهلُهُ ، وأنْ يسترَ علينا قبائحَ أعمالِنا كما يقتضيهِ كرمُهُ وفضلُهُ .

* * *

الثاني : العملُ والعبادةُ :

وليس يخلو عنْ رذيلةِ العزِّ والكبرِ ، واستمالةِ قلوبِ الناسِ الزهَّادُ والعبَّادُ ، ويترشَّحُ الكبرُ منهُمْ في الدينِ والدنيا .

أمَّا في الدنيا . . فهوَ أنَّهُمْ يرونَ غيرَهُمْ بزيارتِهِمْ أولىٰ منهمْ بزيارةِ غيرِهِمْ ، ويتوقَّعونَ قيامَ الناسِ بقضاءِ حوائجِهِمْ ، وتوقيرِهِمْ ، والتوسيعِ لهُمْ في المجالسِ ، وذكرِهِمْ بالورعِ والتقوىٰ ، وتقديمِهِمْ علىٰ سائرِ الناسِ في

---

(١) رواه الترمذي (٢٢٦٧) .

الحظوظِ ، إلىٰ جميعِ ما ذكرناهُ في حقِّ العلماءِ ، وكأنَّهُمْ يرونَ عبادتَهُمْ منَّةً على الخلقِ .

وأمَّا في الدينِ . . فهوَ أنْ يرى الناسَ هالكينَ ، ويرىٰ نفسَهُ ناجياً ، وهوَ الهالكُ تحقيقاً مهما رأىٰ ذلكَ ؛ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا سمعتُمُ الرجلَ يقولُ : هلكَ الناسُ . . فهوَ أهلكُهُمْ »[1] ، فإنما قالَ ذلكَ لأنَّ هـٰذا القولَ منهُ يدلُّ علىٰ أنَّهُ مزدرٍ بخلقِ اللهِ ، مغترٌّ باللهِ ، آمنٌ مِنْ مكرِهِ ، غيرُ خائفٍ مِنْ سطوتِهِ .

وكيفَ لا يخافُ ويكفيهِ شرّاً احتقارُهُ لغيرِهِ ؟! قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كفىٰ بالمرءِ شرّاً أنْ يحقرَ أخاهُ المسلمَ »[2] ، وكمْ مِنَ الفرقِ بينَهُ وبينَ مَنْ يحبُّهُ للهِ ، ويعظمُهُ لعبادتِهِ ، ويستعظمُهُ ويرجو لهُ ما لا يرجو لنفسِهِ ؟ فالخلقُ يدركونَ النجاةَ بتعظيمِهِمْ إيَّاهُ للهِ تعالىٰ ؛ فهُمْ يتقرَّبونَ إلى اللهِ تعالىٰ بالدنوِّ منهُ ، وهوَ يتمقَّتُ إلى اللهِ بالتنزُّهِ والتباعدِ منهُمْ ؛ كأنَّهُ مُترفِّعٌ عنْ مجالستِهِمْ ، فما أجدرَهُمْ إذا أحبُّوهُ لصلاحِهِ أنْ ينقلَهُمُ اللهُ إلىٰ درجتِهِ في العملِ ! وما أجدرَهُ إذا ازدراهُمْ بعينِهِ أنْ ينقلَهُ اللهُ إلىٰ حدِّ الإهمالِ ! كما رُوِيَ أنَّ رجلاً مِنْ بني إسرائيلَ كانَ يُقالُ لهُ : خليعُ بني إسرائيلَ ؛ لكثرةِ فسادِهِ ، مرَّ برجلٍ آخرَ يُقالُ لهُ : عابدُ بني إسرائيلَ ، وكانَ

---

(1) رواه مسلم (٢٦٢٣) .

(2) رواه مسلم (٢٥٦٤) ، ولفظه : « بحسب امرىء من الشر . . . » ، ولفظ المصنف في « الرعاية » (ص٣٨٧) .

علىٰ رأسِ العابدِ غمامةٌ تظلُّهُ لمَّا مرَّ الخليعُ بهِ ، فقالَ الخليعُ في نفسِهِ : أنا خليعُ بني إسرائيلَ ، وهـٰذا عابدُ بني إسرائيلَ ؛ فلوْ جلستُ إليهِ لعلَّ اللهَ يرحمُني ، فجلسَ إليهِ ، فقالَ العابدُ : أنا عابدُ بني إسرائيلَ ، وهـٰذا خليعُ بني إسرائيلَ ، فكيفَ يجلسُ إليَّ ؟! فأنفَ مِنهُ ، وقالَ لهُ : قمْ عنِّي ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ نبيِّ ذلكَ الزمانِ : مُرْهما فليستأنفا العملَ ؛ فقدْ غفرتُ للخليعِ وأحبطتُ عملَ العابدِ ، وفي روايةٍ أخرىٰ : فتحوَّلتِ الغمامةُ إلىٰ رأسِ الخليعِ[1] .

وهـٰذا يعرِّفُكَ أنَّ اللهَ تعالىٰ إنَّما يريدُ مِنَ العبيدِ قلوبَهُمْ ، فالجاهلُ العاصي إذا تواضعَ وذلَّ هيبةً للهِ ، وخوفاً منهُ . . فقدْ أطاعَ اللهَ بقلبِه ، فهوَ أطوعُ للهِ مِنَ العالمِ المتكبِّرِ والعابدِ المعجبِ .

وكذلكَ رُويَ أنَّ رجلاً مِنْ بني إسرائيلَ أتىٰ عابداً مِنْ بني إسرائيلَ ، فوطىءَ علىٰ رقبتِهِ وهوَ ساجدٌ ، فقالَ : ارفعْ[2] ، فواللهِ لا يغفرُ اللهُ لكَ ، فأوحى اللهُ إليهِ : أيُّها المتألِّي عليَّ ؛ بلْ أنتَ لا يغفرُ اللهُ لكَ[3] .

وكذلكَ قالَ الحسنُ : (وحتَّىٰ إنَّ صاحبَ الصوفِ أشدُّ كبراً مِنْ صاحبِ

---

(١) الرعاية (ص٣٨٨) ، ومختصراً رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٢٢٦) .

(٢) أي : فقال العابد : ارفع رجلك عن رقبتي . « إتحاف » (٨/ ٣٧١) .

(٣) الرعاية (ص٣٨٨) ، ورواه الطبراني في « الكبير » (٩/ ١٥٨) ، وبنحوه رواه أبو داوود (٤٩٠١) .

المِطرَفِ الخزِّ)[1] أيْ : إنَّ صاحبَ الخزِّ يذلُّ لصاحبِ الصوفِ ويرى الفضلَ لهُ ، وصاحبَ الصوفِ يرى الفضلَ لنفسِهِ .

وهاذهِ الآفةُ أيضاً قلَّما ينفكُّ عنها كثيرٌ مِنَ العبادِ ، وهوَ أنَّهُ لوِ استخفَّ بهِ مستخفٌّ أوْ آذاهُ مؤذٍ . . استبعدَ أنْ يغفرَ اللهُ لهُ ، ولا يشكُّ في أنَّهُ صارَ ممقوتاً عندَ اللهِ ، ولوْ آذىٰ مسلماً آخرَ . . لمْ يستنكرْ ذلكَ الاستنكارَ ، وذلكَ لعظمِ قدْرِ نفسهِ عندَهُ ، وهوَ جهلٌ ، وجمعٌ بينَ الكبرِ والعُجبِ والاغترارِ باللهِ .

وقدْ ينتهي الحمقُ والغباوةُ ببعضِهِمْ إلىٰ أنْ يتحدَّىٰ ويقولَ : سترونَ ما يجري عليهِ ، فإذا أُصيبَ بنكبةٍ . . زعمَ أنَّ ذلكَ مِنْ كراماتِهِ ، وأنَّ اللهَ ما أرادَ بذلكَ إلا شفاءَ غليلِهِ والانتقامَ لهُ ، معَ أنَّهُ يرىٰ طبقاتٍ مِنَ الكفارِ يسبُّونَ اللهَ ورسولَهُ ، وعرفَ جماعةً آذَوا الأنبياءَ صلواتُ اللهِ عليهِمْ ، فمنهُمْ مَنْ ضربَهُمْ ، ومنهُمْ مَنْ قتلَهُمْ ، ثمَّ إنَّ اللهَ تعالىٰ أمهلَ أكثرَهُمْ ولمْ يعاقبْهُمْ في الدنيا ، بلْ ربَّما أسلمَ بعضُهُمْ فلمْ يصبْهُ مكروهٌ في الدنيا ولا في الآخرةِ .

ثمَّ الجاهلُ المغرورُ يظنُّ أنَّهُ أكرمُ على اللهِ تعالىٰ مِنْ أنبيائِهِ ، وأنَّهُ قدِ انتقمَ لهُ بما لمْ ينتقمْ لأنبيائِهِ بهِ ، ولعلَّهُ في مقتِ اللهِ بإعجابِهِ وكبرِهِ وهوَ غافلٌ عنْ هلاكِ نفسِهِ ، فهاذهِ عقيدةُ المغترِّينَ .

وأمَّا الأكياسُ مِنَ العبَّادِ . . فيقولونَ ما كانَ يقولُهُ عطاءٌ السَّلميُّ حينَ كانَ

---

(١) أورده المحاسبي في « الرعاية » (ص٣٩٢) .

تهبُّ ريحٌ أوْ تقعُ صاعقةٌ : (ما يصيبُ الناسَ ما يصيبُهُمْ إلا بسببي ، ولوْ ماتَ عطاءٌ . . لتخلَّصوا)[1] ، وما قالَهُ الآخرُ بعدَ انصرافِهِ مِنْ عرفاتٍ : (كنتُ أرجو الرحمةَ لجميعِهِمْ لولا كوني فيهِمْ)[2] .

فانظرْ إلى الفرقِ بينَ الرجلينِ ؛ هٰذا يتَّقي اللهَ ظاهراً وباطناً وهوَ وَجِلٌ علىٰ نفسِهِ ، مزدرٍ لعملِهِ وسعيِهِ ، وذاكَ ربَّما يضمرُ مِنَ الرياءِ والكبرِ والحسدِ والغلِّ ما هوَ ضُحْكةٌ للشيطانِ بهِ ، ثمَّ إنَّهُ يمنُّ على اللهِ بعملِهِ .

ومَنِ اعتقدَ جزماً أنَّهُ فوقَ أحدٍ مِنْ عبادِ اللهِ . . فقدْ أحبطَ بجهلِهِ جميعَ عملِهِ ؛ فإنَّ الجهلَ أفحشُ المعاصي ، وأعظمُ شيءٍ يبعدُ العبدَ عنِ اللهِ ، وحكمُهُ لنفسِهِ بأنَّهُ خيرٌ مِنْ غيرِهِ جهلٌ محضٌ ، وأمنٌ مِنْ مكرِ اللهِ ، ولا يأمنُ مكرَ اللهِ إلا القومُ الخاسرونَ ؛ ولذلكَ رُوِيَ أنَّ رجلاً ذُكِرَ بخيرٍ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فأقبلَ ذاتَ يومٍ ، فقالوا : يا رسولَ اللهِ ؛ هٰذا الذي ذكرناهُ لكَ ، فقالَ : « إنِّي أرىٰ في وجهِهِ سُفْعَةً مِنَ الشيطانِ » ، فسلَّمَ ووقفَ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وأصحابِهِ ، فقالَ لهُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أسألُكَ باللهِ ؛ حدثَتْكَ نفسُكَ أنْ ليسَ في القومِ أفضلُ منكَ ؟ » قالَ : اللهمَّ نعمْ[3] . فرأىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بنورِ

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٢٢١ ، ٢٢٥) مفرقاً .
(٢) روى البيهقي في « الشعب » (٧٩٠٣) نحوه .
(٣) رواه أبو يعلىٰ في « مسنده » (٩٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٥٢) ، وهو ذو الثدية الذي قتله سيدنا علي رضي الله عنه .

النبوَّةِ ما استكنَّ في قلبِهِ سفعةٌ في وجهِهِ ، وهٰذهِ آفةٌ لا ينفكُّ عنها أحدٌ مِنَ العبَّادِ إلا مَنْ عصمَهُ اللهُ .

لكنَّ العلماءَ والعبَّادَ في آفةِ الكبرِ علىٰ ثلاثِ درجاتٍ :

الأولىٰ : أنْ يكونَ الكبرُ مستقراً في قلبِهِ ، يرىٰ نفسَهُ خيراً مِنْ غيرِهِ ، إلا أنَّهُ يجتهدُ ويتواضعُ ، ويفعلُ فعلَ مَنْ يرىٰ غيرَهُ خيراً مِنْ نفسِهِ ، وهٰذا قدْ رسخَ في قلبِهِ شجرةُ الكبرِ ، ولكنَّهُ قطعَ أغصانَها بالكليَّةِ .

الثانيةُ : أنْ يظهرَ ذلكَ علىٰ أفعالِهِ ؛ بالترفُّعِ في المجالسِ ، والتقدُّمِ على الأقرانِ ، وإظهارِ الإنكارِ علىٰ مَنْ يقصِّرُ في حقِّهِ ، وأدنىٰ ذلكَ في العالِمِ أنْ يصعِّرَ خدَّهَ للناسِ ؛ كأنَّهُ معرضٌ عنهُمْ ، وفي العابدِ أنْ يُعبِّسَ وجهَهُ ، ويقطِّبَ جبينَهُ ؛ كأنَّهُ متنزِّهٌ عنِ الناسِ ، مستقذرٌ لهُمْ ، أوْ غضبانُ عليهِمْ ، وليسَ يعلمُ المسكينُ أنَّ الورعَ ليسَ في الجبهةِ حتىٰ تُقطَّبَ ، ولا في الوجهِ حتَّىٰ يُعبَّسَ ، ولا في الخدِّ حتَّىٰ يُصعَّرَ ، ولا في الرقبةِ حتَّىٰ تُطأطأَ ، ولا في الذيلِ حتَّىٰ يُضمَّ ، إنَّما الورعُ في القلوبِ ؛ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « التقوىٰ هٰهنا » وأشارَ إلىٰ صدرِهِ[1] ، فقدْ كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أكرمَ الخلقِ وأتقاهُمْ ، وكانَ أوسعَهُمْ خُلُقاً ، وأكثرَهُمْ بشراً وتبسُّماً وانبساطاً .

ولذلكَ قالَ الحارثُ بنُ جَزْءٍ الزبيديُّ صاحبُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ

---

(١) رواه مسلم (٢٥٦٤) ، وفيه : (ويشير إلىٰ صدره ثلاث مرات) .

وسلَّمَ : (يعجبُني مِنَ القُرَّاءِ كلُّ طلْقٍ مِضْحاكٍ ، فأمَّا الذي تلقاهُ ببشرٍ ويلقاكَ بعبوسٍ ، يمنُّ عليكَ بعملِهِ . . فلا أكثرَ اللهُ في المسلمينَ مثلَهُ !)[1] .

ولوْ كانَ اللهُ تعالىٰ يرضىٰ ذلكَ . . لما قالَ لنبيِّهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وهؤلاءِ الذينَ يظهرُ أثرُ الكبرِ علىٰ شمائلِهِمْ أحوالُهُمْ أخفُّ مِنْ أحوالِ مَنْ هوَ في الرتبةِ الثالثةِ ، وهوَ الذي يظهِرُ الكبرَ علىٰ لسانِهِ ، حتَّىٰ يدعوهُ إلى الدعوىٰ والمفاخرةِ ، والمباهاةِ وتزكيةِ النفسِ ، وحكايةِ الأحوالِ والمقاماتِ ، والتشمُّرِ لغلبةِ الغيرِ في العلمِ والعملِ .

أما العابدُ . . فإنَّهُ يقولُ في معرضِ التفاخرِ لغيرِهِ مِنَ العُبَّادِ : مَنْ هوَ ؟ وما عملُهُ ؟ ومِنْ أينَ زهدُه ؟ فيطوِّلُ اللسانَ فيهِمْ بالتنقُّصِ ، ثمَّ يثني علىٰ نفسِهِ ويقولُ : إني لمْ أفطرْ منذُ كذا وكذا ، ولا أنامُ بالليلِ ، وأختمُ القرآنَ في كلِّ يومٍ ، وفلانٌ ينامُ سحراً ، ولا يكثرُ القراءةَ ، وما يجري مجراهُ ، وقدْ يزكِّي نفسَهُ ضمناً فيقولُ : قصدَني فلانٌ بسوءٍ فهلكَ ولدُهُ ، أوْ أُخِذَ مالُهُ ، أوْ مرضَ ، أوْ ما يجري مجراهُ ، ويدَّعي الكرامةَ لنفسِهِ .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الإخوان » (١٤١) ، وهو عن سعيد بن عبد الرحمـٰن بن عبد الله الزبيدي ، وبيَّن الحافظ الزبيدي هـٰذا الخطأ في « إتحافه » (٨/ ٣٧٣) حيث قال : (هكذا في سائر نسخ الكتاب ، وهو خطأ ، والصواب عبد الله بن الحارث بن جزء ، وهو الذي له صحبة) ، ولكن الرواية لحفيده لا له .

وأمَّا مباهاتُهُ . . فهوَ أنَّهُ لوْ وقعَ معَ قومٍ يصلونَ بالليلِ . . قامَ وصلَّىٰ أكثرَ ممَّا كانَ يصلِّي ، وإنْ كانوا يصبرونَ على الجوعِ . . فيكلِّفُ نفسَهُ الصبرَ ليغلبَهُمْ ، ويظهرَ لهُمْ قوَّتَهُ وعجزَهُمْ ، وكذلكَ يشتدُّ في العبادةِ ؛ خوفاً مِنْ أنْ يُقالَ : غيرُهُ أعبدُ منهُ ، أوْ أقوىٰ منهُ في دينِ اللهِ .

وأمَّا العالمُ . . فإنَّهُ يتفاخرُ ويقولُ : أنا متفنِّنٌ في العلومِ ، ومطَّلعٌ على الحقائقِ ، ورأيتُ مِنَ الشيوخِ فلاناً وفلاناً ، ومَنْ أنتَ ؟ وما فضلُكَ ؟ ومَنْ لقيتَ ؟ وما الذي سمعتَ مِنَ الحديثِ ؟ كلُّ ذلكَ ليصغِّرَهُ ويعظِّمَ نفسَهُ .

وأمَّا مباهاتُهُ . . فهوَ أنَّهُ يجتهدُ في المناظرةِ أنْ يَغلبَ ولا يُغلبَ ، ويسهرُ طولَ الليلِ والنهارِ في تحصيلِ علومٍ يتجمَّلُ بها في المحافلِ ؛ كالمناظرةِ ، والجدلِ ، وتحسينِ العبارةِ ، وتسجيعِ الألفاظِ ، وحفظِ العلومِ الغريبةِ ؛ ليُغْربَ بِها على الأقرانِ ويتعظَّمَ عليهِمْ ، ويحفظُ الأحاديثَ ألفاظَها وأسانيدَها ؛ حتَّىٰ يردَّ علىٰ مَنْ أخطأَ فيها ، فيظهرَ فضلُهُ ونقصانُ أقرانِهِ ، ويفرحُ مهما أخطأَ واحدٌ منهُمْ ؛ ليردَّ عليهِ ، ويسوءُهُ إذا أصابَ وأحسنَ ؛ خيفةَ مِنْ أنْ يُرىٰ أنَّهُ أعظمُ منهُ .

فهـٰذهِ كلُّها أخلاقُ الكبرِ وآثارُهُ التي يثمرُها التعزُّزُ بالعلمِ والعملِ ، وأينَ مَنْ يخلو عنْ جميعِ ذلكَ أوْ عنْ بعضِهِ ؟

فليتَ شِعري منِ الذي عرفَ هـٰذهِ الأخلاقَ مِنْ نفسِهِ ، وسمعَ قولَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يدخلُ الجنةَ مَنْ في قلبِهِ مثقالُ حبةٍ مِنْ

خردلٍ مِنْ كبرٍ »[١] . . كيفَ يستعظمُ نفسَهُ ويتكبَّرُ علىٰ غيرِهِ وهوَ بقولِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنْ أهلِ النارِ ؟!

وإنَّما العظيمُ مَنْ خلا عنْ هـٰذا ، ومَنْ خلا عنهُ لمْ يكنْ فيهِ تعظُّمٌ وتكبُّرٌ ، والعالمُ هوَ الذي فهمَ أنَّ اللهَ تعالىٰ قالَ لهُ : إنَّ لكَ عندَنا قدْراً ما لمْ ترَ لنفسِكَ قدْراً ، فإنْ رأيتَ لها قدراً . . فلا قدْرَ لكَ عندَنا ، ومَنْ لمْ يعلمْ هـٰذا مِنَ الدينِ . . فاسمُ العالمِ عليهِ كذبٌ ، ومَنْ علمَهُ . . لزمَهُ ألاَّ يتكبرَ ولا يرىٰ لنفسِهِ قدراً ، فهـٰذا هوَ الكِبْرُ بالعلمِ والعملِ .

* * *

الثالثُ : التكبُّرُ بالحسَبِ والنسبِ :

فالذي لهُ نسبٌ شريفٌ يستحقرُ مَنْ ليسَ لهُ ذلكَ النسبُ وإنْ كانَ أرفعَ مِنهُ عملاً وعلماً ، وقدْ يتكبَّرُ بعضُهُمْ فيرىٰ أنَّ الناسَ لهُ موالٍ وعبيدٌ ، ويأنفُ مِنْ مخالطتِهِمْ ومجالستِهِمْ .

وثمرتُهُ على اللسانِ التفاخرُ بهِ ؛ فيقولُ لغيرِهِ : يا نَبَطيُّ ، ويا هنديُّ ، ويا أرمنيُّ ؛ مَنْ أنتَ ؟ ومَنْ أبوكَ فأنا فلانُ بنُ فلانٍ ؟ وأنَّىٰ لمثلِكَ أنْ يكلِّمَني أوْ ينظرَ إليَّ ؟ ومعَ مثلي تتكلَّمُ ؟ وما يجري مجراهُ .

وذلكَ عِرْقٌ دفينٌ في النفسِ لاينفكُّ عنهُ نسيبٌ وإنْ كانَ صالحاً وعاقلاً ، إلا أنَّهُ قدْ لا يترشَّحُ منهُ ذلكَ عندَ اعتدالِ الأحوالِ ، فإنْ غلبَهُ غضبٌ . . أطفأَ

---

(١) رواه مسلم (٩١) ، والترمذي (١٩٩٨) .

ذلكَ نورَ بصيرتِهِ ، وترشَّحَ منهُ ؛ كما رُوِيَ عنْ أبي ذرٍّ أنَّهُ قالَ : قاولتُ رجلاً عندَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقلتُ لهُ : يا بنَ السوداءِ ، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يا أبا ذرٍّ ؛ طفُّ الصاعِ طفُّ الصاعِ ، ليسَ لابنِ البيضاءِ على ابنِ السوداءِ فضلٌ » ، فقالَ أبو ذرٍّ : فاضطجعتُ وقلتُ للرجلِ : قُمْ فطأْ علىٰ خدِّي[1] .

فانظرْ كيفَ نبَّهَهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ رأىٰ لنفسِهِ فضلاً بكونِهِ ابنَ بيضاءَ ، وأنَّ ذلكَ خطأٌ وجهلٌ ، وانظرْ كيفَ تابَ وقلعَ مِنْ نفسِهِ شجرةَ الكبرِ بأخمصِ قدمِ مَنْ تكبَّرَ عليهِ ؛ إذْ عرفَ أنَّ العزَّ لا يقمعُهُ إلا الذُّلُّ .

ومِنْ ذلكَ ما رُوِيَ أنَّ رجلينِ تفاخرا عندَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ أحدُهُما للآخرِ : أنا فلانُ بنُ فلانٍ ، فمَنْ أنتَ لا أمَّ لكَ ؟ فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « افتخرَ رجلانِ عندَ موسىٰ عليهِ السلامُ ، فقالَ أحدُهُما : أنا فلانُ بنُ فلانٍ حتَّىٰ عدَّ تسعةً ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ موسىٰ عليهِ السلامُ: قلْ للذي افتخرَ: بلِ التسعةُ مِنْ أهلِ النارِ وأنتَ عاشرُهُمْ»[2] .

---

(1) كذا في « الرعاية » (ص٣٩٣) ، ورواه بنحوه الطحاوي في « شرح مشكل الآثار » (٣٤٥٧) وفيه نعته بابن الأمة ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « طفُّ الصاعِ » ـ كذا بالإضافة ـ كناية عن قرب البعض من البعض ؛ إذ طفُّ المكيال مقاربة امتلائه ، وانظر « مرقاة المفاتيح » (٩/ ١٣١) في بيان تمام معناه .

(2) كذا في « الرعاية » (ص٣٩٤) ، وقد رواه الطبراني في « الكبير » (٢٠/ ١٤٠) ، والبيهقي في « الشعب » (٤٧٧١) ، ورواه موقوفاً علىٰ معاذ بن جبل رضي الله عنه أحمد في « المسند » (٥/ ٢٤١) .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ليدَعَنَّ قومٌ الفخرَ بآبائِهِمْ وقدْ صاروا فحماً في جهنَّمَ أوْ ليكونُنَّ أهونَ على اللهِ مِنَ الجِعْلانِ التي تدوفُ بآنافِها القذَرَ »(١) .

* * *

الرابعُ : التفاخرُ بالجمالِ :

وذلكَ أكثرُ ما يجري بينَ النساءِ ، ويدعو ذلكَ إلى التنقُّصِ والثلبِ ، والغيبةِ ، وذكرِ عيوبِ الناسِ .

ومِنْ ذلكَ : ما رُوِيَ عنْ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها أنَّها قالَتْ : دخلَتِ امرأةٌ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقلتُ بيدي هٰكذا ؛ أيْ : إنَّها قصيرةٌ ، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قدِ اغتبتِها »(٢) .

وهٰذا منشؤُهُ خفيُّ الكبرِ ؛ لأنَّها لوْ كانَتْ أيضاً قصيرةً.. لما ذكرَتْها بالقصرِ ؛ فكأنَّها أُعجبَتْ بقامتِها ، واستقصرَتِ المرأةَ في جنبِ نفسِها ، فقالَتْ ما قالَتْ .

* * *

---

(١) كذا في « الرعاية » (ص٣٩٤) ، وبنحوه رواه أبو داوود (٥١١٦) ، والترمذي (٣٩٥٥) ، وتدوف : تخلط ، حتىٰ تجعله كراتٍ تدخرها .

(٢) رواه أبو داوود (٤٨٧٥) ، والترمذي (٢٥٠٢) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٠٨) واللفظ له .

الخامسُ : الكبرُ بالمالِ :

وذلكَ يجري بينَ الملوكِ في خزائنِهم ، وبينَ التجّارِ في بضائعِهِمْ ، وبينَ الدَّهَّاقينَ في أراضيهِمْ ، وبينَ المتجمِّلينَ في لباسِهِمْ ، وخيولِهِمْ ومراكبِهِمْ ، فيستحقرُ الغنيُّ الفقيرَ ، ويتكبَّرُ عليهِ ويقولُ لهُ : أنتَ مُكْدٍ ومسكينٌ ، وأنا لوْ أردتُ . . لاشتريتُ مثلَكَ ، واستخدمتُ مَنْ هوَ فوقَكَ ، ومَنْ أنتَ ؟ وما معَكَ ؟ وأساسُ بيتي يساوي أكثرَ مِنْ جميعِ مالِكَ ، وأنا أنفقُ في اليومِ ما لا تأكلُهُ في السنةِ ، وكلُّ ذلكَ لاستعظامِهِ للغنىٰ واستحقارِهِ للفقرِ ، وكلُّ ذلكَ جهلٌ منهُ بآفةِ الغنىٰ وفضيلةِ الفقرِ .

وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ﴾ ، حتَّىٰ أجابَهُ فقالَ : ﴿ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا ۝ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا ۝ أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا ﴾ وكانَ ذلكَ تكبراً منهُ بالمالِ والولدِ ، ثمَّ بيَّنَ اللهُ تعالىٰ عاقبةَ أمرِهِ بقولِهِ : ﴿ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴾ .

ومِنْ ذلكَ : تكبُّرُ قارونَ ؛ إذْ قالَ تعالىٰ إخباراً عن تكبُّرِهِ : ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦ ﴾ حتَّىٰ قالَ قومٌ : ﴿ يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴾ .

* * *

السادسُ : الكبرُ بالقوةِ وشدةِ البطشِ ، والتكبُّرُ بهِ علىٰ أهلِ الضعفِ .

* * *

السابعُ : التكبُّرُ بالأتباعِ والأنصارِ ، والتلامذةِ والغلمانِ ، وبالعشيرةِ والأقاربِ والبنينَ :

ويجري ذلكَ بينَ الملوكِ في المكاثرةِ بالجنودِ ، وبينَ العلماءِ في المكاثرةِ بالمستفيدينَ .

وبالجملةِ : فكلُّ ما هوَ نعمةٌ ، وأمكنَ أنْ يُعتقدَ كمالاً وإنْ لمْ يكنْ في نفسِهِ كمالاً . . أمكنَ أنْ يُتكبَّرَ بهِ ، حتَّىٰ إنَّ المخنَّثَ ليتكبَّرُ علىٰ أقرانِهِ بزيادةِ معرفتِهِ وقدرتِهِ في صنعةِ المخنَّثينَ ؛ لأنَّهُ يرىٰ ذلكَ كمالاً ، فيفتخرُ بهِ وإنْ لمْ يكنْ فعلُهُ إلا نكالاً ، وكذلكَ الفاسقُ قدْ يفتخرُ بكثرةِ الشربِ وكثرةِ الفجورِ بالنسوانِ والغلمانِ ويتكبَّرُ بهِ ؛ لظنِّهِ أنْ ذلكَ كمالٌ وإنْ كانَ مخطئاً فيهِ .

فهٰذهِ مجامعُ ما يتكبَّرُ بهِ العبادُ بعضُهُمْ علىٰ بعضٍ ، فيتكبَّرُ مَنْ يُدلي بشيءٍ منهُ علىٰ مَنْ لا يُدلي بهِ ، أوْ علىٰ مَنْ يُدلي بما هوَ دونَهُ في اعتقادِهِ ، وربَّما كانَ مثلَهُ أوْ فوقَهُ عندَ اللهِ تعالىٰ ؛ كالعالمِ الذي يتكبَّرُ بعلمِهِ علىٰ مَنْ هوَ أعلمُ منهُ ؛ لظنِّهِ أنَّهُ هوَ الأعلمُ ، ولحسنِ اعتقادِهِ في نفسِهِ ، نسألُ اللهُ العونَ بلطفِهِ ورحمتهِ ، إنَّهُ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ .

* * *

بيان البواعث على الكبر وأسبابه المهيجة له

اعلمْ : أنَّ الكبْرَ خُلُقٌ باطنٌ ، وأمَّا ما يظهرُ مِنَ الأخلاقِ والأفعالِ . . فهيَ ثمرتُهُ ونتيجتُهُ ، وينبغي أنْ تُسمَّىٰ تكبُّراً ، ويُخصُّ اسمُ الكبرِ بالمعنى الباطنِ الذي هوَ استعظامُ النفسِ ورؤيةُ قدرِها فوقَ قدْرِ الغيرِ .

وهاذا الباطنُ لهُ موجبٌ واحدٌ ، وهوَ العُجْبُ الذي يتعلَّقُ بالمتكبِّرِ كما سيأتي معناهُ ، فإنَّهُ إذا أُعجِبَ بنفسِهِ ، وبعلمِهِ وعملِهِ ، أوْ بشيءٍ من أسبابِهِ . . استعظمَ نفسَهُ وتكبَّرَ .

وأمَّا التكبُّرُ الظاهرُ . . فأسبابُهُ ثلاثةٌ : سببٌ في المتكبِّرِ ، وسببٌ في المتكبَّرِ عليهِ ، وسببٌ فيما يتعلَّقُ بغيرِهِما .

أمَّا السببُ الذي في المتكبِّرِ . . فهوَ العجْبُ ، والذي يتعلَّقُ بالمتكبَّرِ عليهِ هوَ الحقدُ والحسدُ ، والذي يتعلَّقُ بغيرِهِما هوَ الرياءُ ؛ **فتصيرُ الأسبابُ بهاذا الاعتبارِ أربعةً : العجبُ ، والحقدُ ، والحسدُ ، والرياءُ** .

أمَّا العُجْبُ . . فقد ذكرنا أنَّهُ يورثُ الكبْرَ الباطنَ ، والكبرُ الباطنُ يثمرُ التكبُّرَ الظاهرَ في الأعمالِ والأقوالِ والأحوالِ .

وأمَّا الحقدُ . . فإنَّهُ قدْ يحملُ على التكبُّرِ مِنْ غيرِ عجبٍ ؛ كالذي يتكبَّرُ علىٰ مَنْ يرىٰ أنَّهُ مثلُهُ أوْ فوقَهُ ، ولكنْ قدْ غضبَ عليهِ بسببٍ سبقَ منهُ ، فأورثَهُ الغضبُ حقداً ، ورسخَ في قلبِهِ بغضُهُ ؛ فهوَ لذلكَ لا تطاوعُهُ نفسُهُ أنْ

يتواضعَ لهُ وإنْ كانَ عندَهُ مستحقاً للتواضعِ ، فكمْ مِنْ رَذْلٍ لا تطاوعُهُ نفسُهُ على التواضعِ لواحدٍ مِنَ الأكابرِ لحقدِهِ عليهِ ، أو بغضِهِ لهُ ، ويحملُهُ ذلكَ على ردِّ الحقِّ إذا جاءَ مِنْ جهتِهِ ، وعلى الأنفةِ مِنْ قبولِ نصحِهِ ، وعلىٰ أنْ يجتهدَ في التقدُّمِ عليهِ وإنْ علمَ أنَّهُ لا يستحقُّ ذلكَ ، وعلىٰ ألاَّ يستحلَّهُ وإنْ ظلمَهُ ، ولا يعتذرَ إليهِ وإنْ جنىٰ عليهِ ، ولا يسألَهُ عمَّا هوَ جاهلٌ بهِ .

وأمَّا الحسدُ . . فإنَّهُ أيضاً يوجبُ البغضَ للمحسودِ وإنْ لمْ يكنْ مِنْ جهتِهِ إيذاءٌ وسببٌ يقتضي الغضبَ والحقدَ ، ويدعو الحسدُ أيضاً إلىٰ جحدِ الحقِّ ، حتَّىٰ يمتنعُ مِنْ قبولِ النصحِ وتعلُّمِ العلمِ ، فكمْ مِنْ جاهلٍ يشتاقُ إلى العلمِ وقدْ بقيَ في رذيلةِ الجهلِ ؛ لاستنكافِهِ أنْ يستفيدَ مِنْ واحدٍ مِنْ أهلِ بلدِهِ أوْ أقاربِهِ ؛ حسداً وبغياً عليهِ ، فهوَ يعرضُ عنهُ ويتكبَّرُ عليهِ معَ معرفتِهِ بأنَّهُ يستحقُّ التواضعَ بفضلِ علمِهِ ، ولكنَّ الحسدَ يبعثُهُ علىٰ أنْ يعاملَهُ بأخلاقِ المتكبِّرينَ وإنْ كانَ في باطنِهِ ليسَ يرىٰ نفسَهُ فوقَهُ .

وأمَّا الرياءُ . . فهوَ أيضاً يدعو إلىٰ أخلاقِ المتكبِّرينَ ، حتَّىٰ إنَّ الرجلَ ليناظرُ مَنْ يعلمُ أنَّهُ أفضلُ منهُ ، وليسَ بينَهُ وبينَهُ معرفةٌ ولا محاسدةٌ ولا حقدٌ ، ولكنْ يمتنعُ مِنْ قبولِ الحقِّ منهُ ، ولا يتواضعُ لهُ في الاستفادةِ ؛ خيفةً مِنْ أنْ يقولَ الناسُ : إنَّهُ أفضلُ منهُ ، فيكونُ باعثُهُ على التكبُّرِ عليهِ الرياءَ المجرَّدَ ، ولوْ خلا معَهُ بنفسِهِ . لكانَ لا يتكبَّرُ عليهِ ، وأمَّا الذي يتكبَّرُ بالعجبِ أوِ الحسدِ أوِ الحقدِ . . فإنَّهُ يتكبَّرُ أيضاً عندَ الخلوةِ بهِ مهما لمْ يكنْ معَهُما ثالثٌ ، وكذلكَ قدْ ينتمي إلىٰ نسبٍ شريفٍ كاذباً وهوَ يعلمُ أنَّهُ كاذبٌ

ثمَّ يتكبَّرُ بهِ علىٰ مَنْ ليسَ ينتسبُ إلىٰ ذلكَ النسبِ ، ويترفَّعُ عليهِ في المجالسِ ، ويتقدَّمُ عليهِ في الطرقِ ، ولا يرضىٰ بمساواتِهِ في الكرامةِ والتوقيرِ ، وهوَ عالمٌ باطناً بأنَّهُ لا يستحقُّ ذلكَ ، ولا كبْرَ في باطنِهِ ؛ لمعرفتِهِ بأنَّهُ كاذبٌ في دعوى النسبِ ، ولكنْ يحملُهُ الرياءُ علىٰ أفعالِ المتكبِّرينَ .

وكأنَّ اسمَ المتكبِّرِ إنَّما يُطلقُ في الأكثرِ علىٰ مَنْ يفعلُ هـٰذهِ الأفعالَ عنْ كبْرٍ في الباطنِ صادرٍ عَنِ العُجْبِ والنظرِ إلى الغيرِ بعينِ الاستحقارِ ، وهوَ إنْ سُمِّيَ متكبِّراً فلأجلِ التشبُّهِ بأفعالِ المتكبِّرينَ ، نسألُ اللهَ حسنَ التوفيقِ ، واللهُ تعالىٰ أعلمُ .

* * *

بيان أخلاق المتواضعين ومجامع ما يظهر فيه أثر التواضع والتكبر

اعلمْ : أنَّ التكبُّرَ يظهرُ في شمائلِ الرجلِ ؛ كصَعَرٍ في وجهِهِ ، ونظرِهِ شَزْراً ، وإطراقِهِ رأسَهُ ، وجلوسِهِ متربِّعاً أو متكئاً ، وفي أقوالِهِ حتَّىٰ في صوتِهِ ونغمتِهِ ، وصيغتِهِ في الإيرادِ ، ويظهرُ في مِشْيتِهِ وتبخترِهِ ، وقيامِهِ وجلوسِهِ ، وفي حركاتِهِ وسكناتِهِ ، وفي تعاطيهِ لأفعالِهِ ، وفي سائرِ تقلُّباتِهِ في أحوالِهِ وأقوالِهِ وأعمالِهِ .

فمِنَ المتكبرينَ مَنْ يجمعُ ذلكَ كلَّهُ ، ومنهُمْ مَنْ يتكبَّرُ في بعضٍ ويتواضعُ في بعضٍ .

* * *

فمنها : التكبُّرُ بأنْ يحبَّ قيامَ الناسِ لهُ أوْ بينَ يديهِ ، وقدْ قالَ عليٌّ كرمَ اللهُ وجهَهُ : (مَنْ أرادَ أنْ ينظرَ إلىٰ رجلٍ مِنْ أهلِ النارِ . . فلينظرْ إلىٰ رجلٍ قاعدٍ وبينَ يديهِ قومٌ قيامٌ) .

وقالَ أنسٌ : لمْ يكنْ شخصٌ أحبَّ إليهِمْ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وكانوا إذا رأَوْهُ . . لمْ يقوموا لهُ ؛ لما يعلمونَ مِنْ كراهتِهِ لذلكَ)[1] .

* * *

---

(١) رواه الترمذي (٢٧٥٤) .

ومنها : ألاَّ يمشيَ إلا ومعَهُ غيرُهُ يمشي خلفَهُ ، قالَ أبو الدرداءِ : (لا يزالُ العبدُ يزدادُ مِنَ اللهِ بُعداً ما مُشيَ خلفَهُ)(١) .

وكانَ عبدُ الرحمانِ بنُ عوفٍ لا يُعرفُ مِنْ عبيدِهِ ؛ إذْ كانَ لا يتميَّزُ عنهُمْ في صورةٍ ظاهرةٍ .

ومشىٰ قومٌ خلفَ الحسنِ البصريِّ ، فمنعَهُمْ وقالَ : (ما يُبقي هاذا مِنْ قلبِ العبدِ ؟) .

وكانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في بعضِ الأوقاتِ يمشي معَ بعضِ الأصحابِ ، فيأمرُهُمْ بالتقدُّمِ ، ويمشي في غمارِهِمْ(٢) ؛ إمَّا لتعليمِ غيرِهِ ، أوْ لينفيَ عنْ نفسِهِ وساوسَ الشيطانِ بالكبْرِ والعجبِ ، كما خلعَ الثوبَ الجديدَ في الصلاةِ وأبدلَهُ بالخليعِ(٣) ؛ لأحدِ هاذينِ المعنيينِ .

* * *

ومنها : ألاَّ يزورَ غيرَهُ وإنْ كانَ يحصلُ مِنْ زيارتِهِ خيرٌ لغيرِهِ في الدينِ ، وهوَ ضدُّ التواضعِ ، رُويَ أنَّ سفيانَ الثوريَّ قدمَ الرملةَ ، فبعثَ إليهِ إبراهيمُ بنُ أدهمَ : أنْ تعالَ فحدِّثْنا ، فجاءَهُمْ سفيانُ ، فقيلَ لهُ : يا أبا

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٣٩٤) .

(٢) رواه ابن ماجه (٢٤٥) .

(٣) قال الحافظ العراقي : (المعروف نزع الشراك الجديد ورد الشراك الخلق ، أو نزع الخميصة ولبس الأنبجانية) . « إتحاف » (٨/ ٣٧٨ـ ٣٧٩) . **قلت** : أما الأول . . فرواه ابن المبارك في « الزهد » (٤٠٢) ، وأما الثاني . . فرواه البخاري (٣٧٣) ، ومسلم (٥٥٦/ ٦٢) .

إسحاقَ ؛ تبعثُ إليهِ بمثلِ هـٰذا ؟! فقالَ : أردتُ أنْ أنظرَ كيفَ تواضعُهُ[1] .

❋ ❋ ❋

ومنها : أن يستنكفَ مِنْ جلوسِ غيرِهِ بالقربِ منهُ إلاَّ أنْ يجلسَ بينَ يديهِ ، والتواضعُ خلافُهُ ، قالَ ابنُ وهبٍ : جلستُ إلىٰ عبدِ العزيزِ بنِ أبي رَوَّادٍ ، فمسَّ فخذي فخذَهُ ، فنحَّيتُ نفسي عنهُ ، فأخذ بثيابي فجرَّني إلىٰ نفسِهِ وقالَ لي : لِمَ تفعلونَ بي ما تفعلونَ بالجبابرةِ ، وإنِّي لا أعرفُ رجلاً منكُمْ شرّاً منِّي ؟!

وقالَ أنسٌ : كانَتِ الوليدةُ مِنْ ولائدِ المدينةِ تأخذُ بيدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فلا ينزعُ يدَهُ مِنْ يدِها حتَّىٰ تذهبَ بهِ حيثُ شاءَتْ[2] .

❋ ❋ ❋

ومنها : أنْ يتوقَّىٰ مجالسةَ المرضىٰ والمعلولينَ ، ويتحاشىٰ عنهُمْ ، وهوَ مِنَ الكبرِ ؛ دخلَ رجلٌ عليهِ جدريٌّ قدْ تقشَّرَ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وعندَهُ ناسٌ منْ أصحابِهِ يأكلونَ ، فما جلسَ إلىٰ أحدٍ إلاَّ قامَ مِنْ جنبِهِ ، فأجلسَهُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بجنبِهِ[3] .

وكانَ عبدُ اللهِ بنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما لا يحبسُ عنْ طعامِهِ مجذوماً

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/٣٦٧) .
(٢) رواه البخاري (٦٠٧٢) معلقاً ، ورواه ابن ماجه (٤١٧٧) موصولاً ، ولفظه هنا رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١٢٢) .
(٣) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٥٠٢٥) ، وابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٨١) .

ولا أبرصَ ولا مبتلىً إلا أقعدَهُمْ علىٰ مائدتِهِ[1] .

* * *

ومنها : ألاَّ يتعاطىٰ بيدِهِ شغلاً في بيتِهِ ، والتواضعُ خلافُهُ ؛ رُوِيَ أنَّ عمرَ بنَ عبدِ العزيزِ أتاهُ ليلةً ضيفٌ وكانَ يكتبُ ، فكادَ السراجُ يطفأُ ، فقالَ الضيفُ : أقومُ إلى المصباحِ فأصلحَهُ ؟ فقالَ : ليسَ مِنْ كرمِ الرجلِ أنْ يستخدمَ ضيفَهُ ، قالَ : أفأُنبِّهُ الغلامَ؟ قالَ : هيَ أوَّلُ نومةٍ نامَها ، فقامَ وأخذَ البطَّةَ وملأَ المصباحَ زيتاً[2]، فقالَ الضيفُ : قمتَ أنتَ بنفسِكَ يا أميرَ المؤمنينَ ؟! فقالَ : ذهبتُ وأنا عمرُ ، ورجعتُ وأنا عمرُ ، ما نقصَ منِّي شيءٌ ، وخيرُ الناسِ مَنْ كانَ عندَ اللهِ متواضعاً[3] .

* * *

ومنها : ألاَّ يأخذَ متاعَهُ ويحملَهُ إلىٰ بيتِهِ ، وهوَ خلافُ عادةِ المتواضعينَ ، كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يفعلُ ذلكَ[4] ، وقالَ عليٌّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ : [من الرجز]

لا يَنْقُصُ ٱلْكامِلَ مِنْ كمالِهِ		ما جَرَّ مِنْ نَفْعٍ إلىٰ عيالِهِ[5]

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٦١١) .
(٢) البطة : إناء كالقارورة .
(٣) رواه البيهقي في « الشعب » (٩١٩٤) .
(٤) روىٰ ذلك أبو يعلىٰ في « مسنده » (٦١٦٢) ، والطبراني في « الأوسط » (٦٥٩٠) .
(٥) وسياق الخبر في « القوت » (٢/ ٢٣٣) : (وعلي رضي الله عنه كان يحمل التمر =

وكانَ أبو عبيدةَ بنُ الجراحِ وهوَ أميرٌ يحملُ سطلاً لهُ مِنْ خشبٍ إلى الحمامِ(١) .

وقالَ ثابتُ بنُ أبي مالكٍ : رأيتُ أبا هريرةَ أقبلَ مِنَ السوقِ يحملُ حزمةَ حطبٍ وهوَ يومئذٍ خليفةٌ لمروانَ ، فقالَ : أوسعِ الطريقَ للأميرِ يا بنَ أبي مالكٍ(٢) .

وعنِ الأصبغِ بنِ نباتةَ قالَ : (كأنِّي أنظرُ إلىٰ عمرَ بنِ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ معلِّقاً لحماً في يدِهِ اليسرىٰ ، وفي يدِهِ اليمنى الدِّرَّةُ يدورُ في الأسواقِ حتَّىٰ دخلَ رحلَهُ)(٣) .

وقالَ بعضُهُمْ : رأيتُ علياً رضيَ اللهُ عنهُ اشترىٰ لحماً بدرهمٍ فحملَهُ في ملحفتِهِ ، فقلتُ لهُ : أحملُ عنكَ يا أميرَ المؤمنينَ ؟ قالَ : لا ؛ أبو العيالِ أحقُّ أنْ يحملَ(٤) .

* * *

= والملح في ثوبه ويده ويقول. . .) وذكر البيت ، وانظر « ديوان سيدنا علي » (ص٢١٢) ، ورواه ابن أبي الدنيا في « العيال » (٣١) عن محمد بن أبي محمد بن كناسة ، وانظر « الأغاني » (١٣/ ٤٨٥١) .

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٩٧) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٣٨٤) ، ونبَّه الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٨/ ٣٨٠) إلىٰ أن ابن أبي مالك هو ثعلبة ، وليس ثابتاً .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٩٩) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١٠٢) ، وفيه : (تمراً) بدل (لحماً).

ومنها : اللباسُ ؛ إذْ يظهرُ بهِ التكبُّرُ والتواضعُ ، وقدْ قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « البذاذةُ مِنَ الإيمانِ »(١) .

قالَ هارونُ : سألتُ مَعْناً عنِ البذاذةِ فقالَ : هوَ الدونُ مِنَ اللباسِ(٢) .

وقالَ زيدُ بنُ وهبٍ : (رأيتُ عمرَ بنَ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ خرجَ إلى السوقِ وبيدِهِ الدرَّةُ وعليهِ إزارٌ فيهِ أربعَ عشرةَ رقعةً بعضُها مِنْ أدمٍ)(٣) .

وعُوتبَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ في إزارٍ مرقوعٍ فقالَ : (يقتدي بهِ المؤمنُ ، ويخشعُ لهُ القلبُ)(٤) .

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (جودةُ الثيابِ خيلاءُ القلبِ)(٥) .

وقالَ طاووسٌ : (إنِّي لأغسلُ ثوبيَّ هـٰذينِ ، فأنكرُ قلبي ما داما نقيَّينِ)(٦) .

ويُروىٰ أنَّ عمرَ بنَ عبدِ العزيزِ رحمَهُ اللهُ كانَ قبلَ أنْ يُستخلَفَ تُشترىٰ لهُ الحلَّةُ بألفِ دينارٍ فيقولُ : ما أجودَها ! لولا خشونةٌ فيها ، فلمَّا استُخلِفَ . .

---

(١) رواه أبو داوود (٤١٦١) ، وابن ماجه (٤١١٨) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١٢٩) عقب روايته للحديث .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١٣٠) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١٣٣) .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١٤٥) .
(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١٤٦) .

كان يُشترىٰ لهُ الثوبُ بخمسةِ دراهمَ فيقولُ : ما أجودَهُ ! لولا لينُهُ ، فقيلَ لهُ : أينَ لباسُكَ ومركبُكَ وعطرُكَ يا أميرَ المؤمنينَ ؟ فقالَ : إنَّ لي نفساً ذوَّاقةً تواقةً ، وإنَّها لمْ تذقْ مِنَ الدنيا طبقةً إلا تاقَتْ إلى الطبقةِ التي فوقَها ، حتَّىٰ إذا ذاقَتِ الخلافةَ وهيَ أرفعُ الطبقاتِ .. تاقَتْ إلىٰ ما عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ[1] .

وقالَ سعيدُ بنُ سويدٍ : صلَّىٰ بنا عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ الجمعةَ ، ثمَّ جلسَ وعليهِ قميصٌ مرقوعُ الجيبِ مِنْ بينِ يديهِ ومِنْ خلفِهِ ، فقالَ لهُ رجلٌ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ إنَّ اللهَ تعالىٰ قدْ أعطاكَ فلوْ لبستَ ، فنكسَ رأسَهُ ملياً ، ثمَّ رفعَ رأسَهُ فقالَ : إنَّ أفضلَ القصدِ عندَ الجدَةِ ، وإنَّ أفضلَ العفوِ عندَ القدرةِ[2] .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ تركَ زينةَ الدنيا ووضعَ ثياباً حسنةً تواضعاً للهِ وابتغاءَ وجهِهِ .. كانَ حقّاً على اللهِ تعالىٰ أنْ يدَّخرَ لهُ مِنْ عبقريِّ الجنَّةِ »[3] .

* * *

فإنْ قلتَ : فقدْ قالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (جودةُ الثيابِ خيلاءُ

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٣٢٣ ، ٣٣٢) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١٥١) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١٥٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٤٤) .

القلبِ)[١] ، وقدْ سُئِلَ نبيُّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنِ الجمالِ في الثيابِ هلْ هوَ مِنَ الكبرِ ؟ فقالَ : « لا ، ولكنْ مَنْ سَفِهَ الحقَّ وغَمَصَ الناسَ »[٢] ، فكيفَ طريقُ الجمعِ بينَهُما ؟

فاعلمْ : أنَّ الثوبَ الجيِّدَ ليسَ مِنْ ضرورتِهِ أنْ يكونَ مِنَ التكبُّرِ في حقِّ كلِّ أحدٍ في كلِّ حالٍ ، وهوَ الذي أشارَ إليهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وهوَ الذي عرفَهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنْ حالِ ثابتِ بنِ قيسٍ ؛ إذْ قالَ : إنِّي امرؤٌ حُبِّبَ إليَّ مِنَ الجمالِ ما ترىٰ[٣] ، فعرفَ أنَّ ميلَهُ إلى النظافةِ وجودةِ الثيابِ ، لا ليتكبَّرَ علىٰ غيرِهِ ، فإنَّهُ ليسَ مِنْ ضرورتِهِ أنْ يكونَ مِنَ الكبْرِ ، وقدْ يكونُ ذلكَ مِنَ الكبرِ ؛ كما أنَّ الرضا بالثوبِ الدونِ قدْ يكونُ مِنَ التواضعِ .

وعلامةُ المتكبِّرِ : أنْ يطلبَ التجمُّلَ إذا رآهُ الناسُ ، ولا يباليَ إذا انفردَ بنفسِهِ كيفَ كانَ ، وعلامةُ طلبِ الجمالِ : أنْ يحبَّ الجمالَ في كلِّ شيءٍ ولوْ في خلوتِهِ ، وحتَّىٰ في سُتُورِ دارِهِ ، فذلكَ ليسَ مِنَ التكبُّرِ .

فإذا انقسمَتِ الأحوالُ . . نُزِّلَ قولُ عيسىٰ عليهِ السلامُ علىٰ بعضِ

---

(١) تقدم قريباً .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٤/ ١٣٣) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (٥٤٨) ، وابن حبان في « صحيحه » (٥٤٦٧) ، وهو عند مسلم (٩١) بلفظ : « الكبر بطر الحق وغمط الناس » .

(٣) هو الحديث المذكور قبله .

الأحوالِ ؛ علىٰ أنَّ قولَهُ : (هوَ خيلاءُ القلبِ) يعني : قدْ تورثُ خيلاءَ في القلبِ ، وقولَ نبيِّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّهُ ليسَ مِنَ الكبرِ » يعني : أنَّ الكبرَ لا يوجبُهُ ، ويجوزُ ألاَّ يوجبَهُ الكبْرُ ، ثمَّ يكونُ هوَ موْرِثاً للكبْرِ .

وبالجملةِ : فالأحوالُ تختلفُ في مثلِ هـٰذا ، والمحبوبُ الوسطُ مِنَ اللباسِ ، الذي لا يوجبُ شهرةً بالجودةِ ولابالرداءةِ ، وقد قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كلوا واشربوا والْبَسوا وتصدَّقوا في غيرِ سَرَفٍ ولا مَخِيلَةٍ ، إنَّ اللهَ يحبُّ أنْ يرىٰ أثرَ نعمتِهِ علىٰ عبدِهِ »[1] .

وقالَ بكرُ بنُ عبدِ اللهِ المزنيُّ : (الْبَسوا ثيابَ الملوكِ ، وأميتوا قلوبَكُمْ بالخشيةِ)[2] ، وإنَّما خاطبَ بهـٰذا قوماً يطلبونَ التكبُّرَ بثيابِ أهلِ الصلاحِ ، وقدْ قالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (ما لكم تأتوني وعليكُمْ ثيابُ الرهبانِ وقلوبُكُمْ قلوبُ الذئابِ الضواري ؟! الْبَسوا ثيابَ الملوكِ ، وألينوا قلوبَكُمْ بالخشيةِ)[3] .

* * *

ومنها[4] : أنْ يتواضعَ بالاحتمالِ إذا سُبَّ وأُوذيَ وأُخِذَ حقُّهُ ، فذلكَ هوَ

---

(١) رواه بتمامه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ١٣٥) ، وصدره رواه النسائي (٥/ ٧٩) ، وابن ماجه (٣٦٠٥) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١٥٨) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١٥٣) .

(٤) أي : من أخلاق المتواضعين . « إتحاف » (٨/ ٣٨٣) .

الأصلُ وقدْ أوردنا ما نُقِلَ عنِ السلفِ مِنِ احتمالِ الأذىٰ في كتابِ الغضبِ والحسدِ .

وبالجملةِ : فمجامعُ حسنِ الأخلاقِ والتواضعِ سيرةُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فبهِ ينبغي أنْ يُقتدىٰ ، ومنهُ ينبغي أنْ يُتعلَّمَ .

وقدْ قالَ أبو سلمةَ[1] : قلتُ لأبي سعيدٍ الخدريِّ : ما ترىٰ فيما أحدثَ الناسُ مِنَ الملبسِ والمشربِ والمركبِ والمطعمِ ؟

فقالَ : يا بنَ أخي ؛ كُلْ للهِ ، واشربْ للهِ ، والبَسْ للهِ ، وكلُّ شيءٍ مِنْ ذلكَ دخلَهُ زهوٌ أوْ مباهاةٌ أوْ رياءٌ أو سمعةٌ . . فهوَ معصيةٌ وسرَفٌ ، وعالجْ في بيتِكَ مِنَ الخدمةِ ما كان رسولُ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يعالجُ في بيتِهِ ، كانَ يعلفُ الناضحَ ، ويعقلُ البعيرَ ، ويقمُّ البيتَ ، ويحلبُ الشاةَ ، ويخصِفُ النعلَ ، ويرقعُ الثوبَ ، ويأكلُ معَ خادمِهِ ، ويطحنُ عنهُ إذا أعيا ، ويشتري الشيءَ مِنَ السوقِ ، ولا يمنعُهُ الحياءُ أنْ يعلِّقَهُ بيدِهِ ، أوْ يجعلَهُ في طرفِ ثوبِهِ ، وينقلبُ إلىٰ أهلِهِ ، يصافحُ الغنيَّ والفقيرَ ، والصغيرَ والكبيرَ ، ويسلِّمُ مبتدئاً علىٰ كلِّ مَنِ استقبلَهُ ؛ مِنْ صغيرٍ أوْ كبيرٍ ، أسودَ أوْ أحمرَ ، حرٍّ أوْ عبدٍ مِنْ أهلِ الصلاةِ ، ليسَتْ لهُ حُلَّةٌ لمدخلِهِ وحلةٌ لمخرجِهِ ، لا يستحيي مِنْ أنْ يجيبَ إذا دُعيَ وإنْ كانَ أشعثَ أغبرَ ، ولا يحقرُ ما دُعِيَ إليهِ وإنْ لمْ يجدْ إلا

(١) في النسخ : (ابن أبي سلمة) ، وأبو سلمة هو ابن عبد الرحمـٰن بن عوف كما سيأتي .

حَشَفَ الدَّقَلِ ، لا يرفعُ غداءً لعشاءٍ ، ولا عشاءً لغداءٍ ، هيِّنُ المؤنةِ ، ليِّنُ الخُلُقِ ، كريمُ الطبيعةِ ، جميلُ المعاشرةِ ، طليقُ الوجهِ ، بسَّامٌ مِنْ غيرِ ضحكٍ ، محزونٌ مِنْ غيرِ عبوسٍ ، شديدٌ مِنْ غيرِ عنفٍ ، متواضعٌ مِنْ غيرِ مذلَّةٍ ، جوادٌ مِنْ غيرِ سَرَفٍ ، رحيمٌ لكلِّ ذي قربىٰ ومسلمٍ ، رقيقُ القلبِ ، دائمُ الإطراقِ ، لم يبشَمْ[1] قطُّ مِنْ شبعٍ ، ولمْ يمدَّ يدَهُ إلىٰ طمعٍ .

قالَ أبو سلمةَ : فدخلتُ علىٰ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها ، فحدَّثتُها بما قالَ أبو سعيدٍ في زهدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَتْ : ما أخطأَ منهُ حرفاً ، ولقدْ قصَّرَ ؛ إذْ ما أخبركَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمْ يمتلئْ قطُّ شبعاً ، ولمْ يبثَّ إلىٰ أحدٍ شكوىٰ ، وإنْ كانَتِ الفاقةُ لأحبَّ إليهِ مِنَ اليسارِ والغنىٰ ، وإنْ كانَ ليظلُّ جائعاً يلتوي ليلتَهُ حتَّىٰ يصبحَ ، فما يمنعُهُ ذلكَ عنْ صيامِ يومِهِ ، ولوْ شاءَ أنْ يسألَ ربَّهُ فيُؤتىٰ بكنوزِ الأرضِ وثمارِها ورغدِ عيشِها مِنْ مشارقِها ومغاربِها . . لفعلَ ، وربَّما بكيتُ رحمةً لهُ ممَّا أُوتي مِنَ الجوعِ ، فأمسحُ بطنَهُ بيدي ، وأقولُ : نفسي لكَ الفداءُ ؛ لوْ تبلَّغتَ مِنَ الدنيا بقدْرِ ما يقوتُكَ ويمنعُكَ مِنَ الجوعِ ، فيقولُ : « يا عائشةُ ؛ إخواني مِنْ أولي العزمِ مِنَ الرسلِ قدْ صبروا علىٰ ما هوَ أشدُّ مِنْ هـٰذا ، فمضَوا علىٰ حالِهِمْ ، وقدموا علىٰ ربِّهِمْ ، فأكرمَ مآبَهُمْ ، وأجزلَ ثوابَهُمْ ، فأجدُني أستحيي إنْ ترفَّهتُ في معيشتي أنْ يقصرَ بي دونَهُمْ ، فأصبرُ أياماً يسيرةً أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ ينقصَ حظِّي

---

(١) في (د ، ك) : (لم يتجشأ) بدل (لم يبشم) .

غداً في الآخرةِ ، وما مِنْ شيءٍ أحبَّ إليَّ مِنَ اللحوقِ بإخواني وأخلائي » ، قالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : فواللهِ ؛ ما استكملَ بعدَ ذلكَ جمعةً حتَّىٰ قبضَهُ اللهُ عز وجلَّ[1] .

فمَا نُقلَ مِنْ أحوالِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يجمعُ جملةَ أخلاقِ المتواضعينَ ، فمَنْ طلَبَ التواضعَ . . فليقتدِ بهِ ، ومَنْ رأىٰ نفسَهُ فوقَ محلِّهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ولمْ يرضَ لنفسِهِ بما رضيَ هوَ بهِ . . فما أشدَّ جهلَهُ !! فلقَدْ كانَ أعظمَ خلقِ اللهِ منصباً في الدنيا والدينِ ، فلا عزَّ ولا رفعةَ إلا في الاقتداءِ بهِ ، ولذلكَ قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (إنا قومٌ أعزَّنا اللهُ بالإسلامِ ، فلا نطلبُ العزَّ في غيرِهِ) لمَّا عُوتبَ في بذاذةِ هيئتِهِ عندَ دخولِهِ الشامَ[2] .

وقالَ أبو الدرداءِ : (اعلمْ أنَّ للهِ عباداً يُقالُ لهُمُ الأبدالُ ، خلفٌ مِنَ الأنبياءِ ، همْ أوتادُ الأرضِ ، فلمَّا انقضَتِ النبوةُ . . أبدلَ اللهُ مكانَهُمْ قوماً مِنْ أمَّةِ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، لمْ يفضلوا الناسَ بكثرةِ صومٍ ولا صلاةٍ ولا حسنِ حليةٍ ، ولكنْ بصدقِ الورعِ ، وحسنِ النيةِ ، وسلامةِ الصدرِ لجميعِ المسلمينَ ، والنصيحةِ لهُمْ ؛ ابتغاءَ مرضاةِ اللهِ ، بصبرٍ حسنٍ[3] ،

---

(1) ساق الخبر بتمامه ومرفوعه الحافظ الشامي في « سبل الهدىٰ والرشاد » (٧/ ٦٧) عن أبي الحسن بن الضحاك ، عن أبي سلمة بن عبد الرحمـٰن بن عوف ، وقال : (في سنده ميسرة بن عبد ربه) .

(2) رواه الحاكم في « المستدرك » (١/ ٦١) .

(3) في (ب) : (بغير تجبر) ، وفي (ب ، ك ، م) : (بصبير ثخين) بدل (بصبر حسن) .

وتواضعٍ في غيرِ مذلَّةٍ ، وهمْ قومٌ اصطفاهُمُ اللهُ واستخلصَهُمْ لنفسِهِ ، وهمْ أربعونَ صدِّيقاً ، أوْ ثلاثونَ رجلاً ، قلوبُهُمْ علىٰ مِثْلِ يقينِ إبراهيمَ خليلِ الرحمـٰنِ عليهِ السلامُ ، لا يموتُ الرجلُ منهُمْ حتَّىٰ يكونَ اللهُ قدْ أنشأَ مَنْ يخلفُهُ .

واعلمْ يا بنَ أخي أنَّهُمْ لا يلعنونَ شيئاً ، ولا يؤذونَهُ ، ولا يحقرونهُ ، ولا يتطاولونَ عليهِ ، ولا يحسدونَ أحداً ، ولا يحرصونَ على الدنيا ، همْ أطيبُ الناسِ خُبْراً ، وألينُهُمْ عريكةً ، وأسخاهُمْ نفساً ، علامتُهُمُ السخاءُ ، وسجيتُهُمُ البشاشةُ ، وصفتُهُمُ السلامةُ ، ليسوا اليومَ في خشيةٍ وغداً في غفلةٍ ، ولكنْ دائمونَ علىٰ حالِهِمُ الظاهرِ ، وهمْ فيما بينَهُمْ وبينَ ربِّهِمْ لا تدركُهُمُ الرياحُ العواصفُ ، ولا الخيلُ المجراةُ ، قلوبُهُمْ تصعدُ ارتياحاً إلى اللهِ ، واشتياقاً إليهِ ، وقدماً في استباقِ الخيراتِ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ .

قالَ الراوي : فقلتُ : يا أبا الدرداءِ ؛ ما سمعتُ بصفةٍ أشدَّ عليَّ مِنْ هـٰذهِ الصفةِ ، فكيفَ لي أنْ أبلغَها ؟ فقالَ : ما بينَكَ وبينَ أنْ تكونَ في أوسعِها إلا أنْ تبغضَ الدنيا ؛ فإنَّكَ إذا أبغضتَ الدنيا . . أقبلتَ علىٰ حبِّ الآخرةِ ، وبقدْرِ حبِّكَ للآخرةِ تزهدُ في الدنيا ، وبقدْرِ ذلكَ تبصرُ ما ينفعُكَ ، وإذا علمَ اللهُ مِنْ عبدٍ حسنَ الطلبِ . . أفرغَ عليهِ السدادَ ، واكتنفَهُ بالعصمةِ ، واعلمْ يا بنَ أخي أنَّ ذلكَ في كتابِ اللهِ المنزَّلِ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ .

قالَ يحيىٰ بنُ كثيرٍ : فنظرنا في ذلكَ ، فما تلذَّذَ المتلذذونَ بمثلِ حبِّ اللهِ وطلبِ مرضاتِهِ[1] .

اللهمَّ ؛ اجعلْنا منْ محبِّي المحبِّينَ لكَ يا ربَّ العالمينَ ؛ فإنَّهُ لا يصلحُ لحبِّكَ إلا مَنِ ارتضيتَهُ ، وصلَّى اللهُ علىٰ سيدِنا محمدٍ وعلىٰ آلِهِ وصحبِهِ وسلَّمَ .

* * *

(١) الخبر عند الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص٦٩) بتمامه ، وأما حديث الأبدال . . فقد أورد تخريجه وطرقه الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٨/ ٣٨٥) .

بيان الطريق في معالجة الكبر واكتساب التواضع

اعلمْ : أنَّ الكبْرَ مِنَ المهلكاتِ ، ولا يخلو أحدٌ مِنَ الخلْقِ عنْ شيءٍ منهُ ، وإزالتُهُ فرضُ عينٍ ، ولا يزولُ بمجرّدِ التمنّي ، بلْ بالمعالجةِ واستعمالِ الأدويةِ القامعةِ لهُ .

وفي معالجتِهِ مقامانِ :

أحدُهُما : استئصالُ أصلِهِ مِنْ سِنْخِهِ ، وقلعُ شجرتِهِ مِنْ مغرسِها في القلبِ .

والثاني : دفعُ العارضِ منهُ بالأسبابِ الخاصةِ التي بها يتكبَّرُ الإنسانُ على غيرِهِ .

المقامُ الأولُ : في استئصالِ أصلِهِ :

وعلاجُهُ : علميٌّ وعمليٌّ ، ولا يتمُّ الشفاءُ إلا بمجموعِهِما .

أمَّا العلميُّ : فهوَ أنْ يعرفَ نفسَهُ ، ويعرفَ ربَّهُ تعالىٰ ، ويكفيهِ ذلكَ في إزالةِ الكبرِ ، فإنَّهُ مهما عرفَ نفسَهُ حقَّ المعرفةِ . . علمَ أنَّهُ أذلُّ مِنْ كلِّ ذليلٍ ، وأقلُّ مِنْ كلِّ قليلٍ ، وأنَّهُ لا يليقُ بهِ إلا التواضعُ والذلَّةُ والمهانةُ ، وإذا عرفَ ربَّهُ . . علمَ أنَّهُ لا تليقُ العظمةُ والكبرياءُ إلا باللهِ .

أما معرفتُهُ ربَّهُ وعظمتَهُ ومجدَهُ . . فالقولُ فيهِ يطولُ ، وهو منتهىٰ علمِ المكاشفةِ .

وأمَّا معرفتُهُ نفسَهُ . . فهوَ أيضاً يطولُ ، ولكنَّا نذكرُ مِنْ ذلكَ ما ينفعُ في إثارةِ التواضعِ والمذلَّةِ ، ويكفيهِ أنْ يعرفَ معنىٰ آيةٍ واحدةٍ في كتابِ اللهِ ، فإنَّ في القرآنِ علمَ الأولينَ والآخرينَ لمَنْ فُتحَتْ بصيرتُهُ ، وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝ مِنْ أَيِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۝ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۝ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ۝ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴾ .

فقدْ أشارَتِ الآيةُ إلىٰ أوَّلِ خلقِ الإنسانِ ، وإلىٰ آخرِ أمرِهِ ، وإلىٰ وسطِهِ ، فلينظرِ الإنسانُ ذلكَ ليفهمَ معنىٰ هٰذهِ الآيةِ .

أمَّا أوَّلُ الإنسانِ . . فهوَ أنَّهُ لمْ يكنْ شيئاً مذكوراً ، وقدْ كانَ في حيِّزِ العدمِ دهوراً ، بلْ لمْ يكنْ لعدمِهِ أوَّلٌ ، وأيُّ شيءٍ أخسُّ وأقلُّ مِنَ المحوِ والعدمِ ؟! وقدْ كانَ كذلكَ في القدمِ ، ثمَّ خلقَهُ اللهُ مِنْ أذلِّ الأشياءِ ، ثمَّ مِنْ أقذرِها ؛ إذ قدْ خلقَهُ مِنْ ترابٍ ، ثمَّ مِنْ نطفةٍ ، ثمَّ مِنْ علقةٍ ، ثمَّ مِنْ مضغةٍ ، ثمَّ جعلَهُ عظماً ، ثمَّ كسا العظمَ لحماً ، فقدْ كانَ هٰذا بدايةَ وجودِهِ ، حيثُ صارَ شيئاً مذكوراً ، فما صارَ شيئاً مذكوراً إلا وهوَ علىٰ أخسِّ الأوصافِ والنعوتِ ؛ إذْ لمْ يُخلقْ في ابتدائِهِ كاملاً ، بلْ خلقَهُ جماداً ميتاً لا يسمعُ ولا يبصرُ ، ولا يحسُّ ولا يتحركُ ، ولا ينطقُ ولا يبطشُ ، ولا يدركُ ولا يعلمُ ، فبدأ بموتِهِ قبلَ حياتِهِ ، وبضعفِهِ قبلَ قوتِهِ ، وبجهلِهِ

قبلَ علمِهِ ، وبعماهُ قبلَ بصرِهِ ، وبصممِهِ قبلَ سمعِهِ ، وببكمِهِ قبلَ نطْقِهِ ، وبضلالتِهِ قبلَ هداهُ ، وبفقرِهِ قبلَ غناهُ ، وبعجزِهِ قبلَ قدرتِهِ .

فهٰذا معنىٰ قولِهِ : ﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ۝ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴾ ، ومعنىٰ قوله : ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ ﴾ ، كذلك خلقه أوّلاً ، ثمَّ امتنَّ عليهِ فقالَ : ﴿ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴾ ، وهٰذا إشارةٌ إلىٰ ما تيسَّرَ لهُ في مدَّةِ حياتِهِ إلى الموتِ .

وكذلكَ قالَ : ﴿ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ ، ومعناهُ : أنَّهُ أحياهُ بعدَ أنْ كانَ جماداً ميتاً ؛ تراباً أوّلاً ، ونطفةً ثانياً ، وأسمعَهُ بعدَما كانَ أصمَّ ، وبصَّرَهُ بعدَما كانَ فاقداً للبصرِ ، وقوّاهُ بعدَ الضعفِ ، وعلَّمَهُ بعدَ الجهلِ ، وخلقَ لهُ الأعضاءَ بما فيها مِنَ العجائبِ والآياتِ بعدَ الفقدِ لها ، وأغناهُ بعدَ الفقرِ وأشبعَهُ بعدَ الجوعِ ، وكساهُ بعدَ العرْيِ ، وهداهُ بعدَ الضلالِ .

فانظرْ كيفَ دبَّرَهُ وصوَّرَهُ ، وإلى السبيلِ كيفَ يسَّرَهُ ، وإلىٰ طغيانِ الإنسانِ ما أكفرَهُ ، وإلىٰ جهلِ الإنسانِ كيفَ أظهرَهُ ، فقالَ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ ، ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ .

فانظرْ إلىٰ نعمةِ اللهِ عليهِ كيفَ نقلَهُ مِنْ تلكَ الذلَّةِ والقلَّةِ والخسَّةِ والقذارةِ إلىٰ هٰذهِ الرفعةِ والكرامةِ ، فصارَ موجوداً بعدَ العدمِ ، وحيّاً بعدَ الموتِ ،

وناطقاً بعد البكمِ ، وبصيراً بعدَ العمىٰ ، وقوياً بعدَ الضعفِ ، وعالماً بعدَ الجهلِ ، ومهتدياً بعدَ الضلالِ ، وقادراً بعدَ العجزِ ، وغنياً بعدَ الفقرِ ، فكانَ في ذاتِهِ لا شيءَ ، وأيُّ شيءٍ أخسُّ مِنْ لا شيءَ ؟! وأيُّ قلَّةٍ أقلُّ مِنَ العدمِ المحضِ ؟! ثمَ صارَ باللهِ شيئاً .

وإنَّما خلقَهُ مِنَ الترابِ الذليلِ الذي يوطأُ بالأقدامِ ، والنطفةِ القذرةِ بعدَ العدمِ المحضِ ؛ ليعرِّفَهُ خسَّةَ ذاتِهِ ، فيعرفَ بهِ نفسَهُ ، وإنَّما أكملَ النعمةَ عليهِ ؛ ليعرفَ بها ربَّهُ ، ويعلمَ بها عظمتَهُ وجلالَهُ ، وأنَّهُ لا يليقُ الكبرياءُ إلا بهِ جلَّ وعلا ، ولذلكَ امتنَّ عليهِ فقال : ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ وعرفَّهُ خسَّتَهُ أولاً فقالَ : ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۝ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً ﴾ ، ثمَّ ذكرَ منَّتَهُ عليهِ فقالَ : ﴿ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴾ ليدومَ وجودُهُ بالتناسلِ كما حصلَ وجودُهُ ابتداءً بالاختراعِ .

فمَنْ كانَ هٰذا بدأَهُ وهٰذهِ أحوالَهُ .. فمِنْ أينَ لهُ البطَرُ والكبرياءُ ، والفخرُ والخيلاءُ ، وهوَ على التحقيقِ أخسُّ الأخساءِ ، وأضعفُ الضعفاءِ ؟! .

ولكنْ هٰذهِ عادةُ الخسيسِ إذا رُفِعَ منْ خسَّتِهِ .. شمخَ بأنفِهِ وتعظَّمَ ؛ وذلكَ لدلالةِ خسَّةِ أوَّلِهِ ، ولا حولَ ولا قوةَ إلا باللهِ .

نعمْ ، لوْ أكملَهُ وفوَّضَ إليهِ أمرَهُ ، وأدامَ لهُ الوجودَ باختيارِهِ .. لجازَ أنْ يطغىٰ ، وينسى المبتدأَ والمنتهىٰ ، ولكنَّهُ سلَّطَ عليهِ في دوامِ وجودِهِ

الأمراضَ الهائلةَ ، والأسقامَ العظيمةَ ، والآفاتِ المختلفةَ ، والطبائعَ المتضادَّةَ ؛ مِنَ المِرَّةِ ، والبلغمِ ، والريحِ ، والدمِ ، يهدمُ البعضُ مِنْ أجزائِهِ البعضَ ، شاءَ أمْ أبىٰ ، رضيَ أم سَخِطَ ، فيجوعُ كرهاً ، ويعطشُ كرهاً ، ويمرضُ كرهاً ، ويموتُ كرهاً ، لا يملكُ لنفسِهِ نفعاً ولا ضراً ، ولا خيراً ولا شرّاً ، يريدُ أنْ يعلمَ الشيءَ فيجهلُهُ ، ويريدُ أنْ يذكرَ الشيءَ فينساهُ ، ويريدُ أنْ ينسى الشيءَ ويغفُلَ عنهُ فلا يغفُلُ عنهُ ، ويريدُ أن يصرفَ قلبَهُ إلىٰ ما يهمُّهُ فيجولُ في أوديةِ الوسواسِ والأفكارِ بالاضطرارِ ، فلا يملكُ قلبُهُ قلبَهُ ، ولا نفسُهُ نفسَهُ ، يشتهي الشيءَ وربَّما يكونُ هلاكُهُ فيهِ ، ويكرهُ الشيءَ وربَّما تكونُ حياتُهُ فيهِ ، يستلذُّ الأطعمةَ وهيَ تهلكُهُ وتُرْديهِ ، ويستبشعُ الأدويةَ وهيَ تنفعُهُ وتحييهِ ، ولا يأمنُ في لحظةٍ مِنْ ليلِهِ أوْ نهارِهِ أنْ يُسلبَ سمعُهُ وبصرُهُ ، وتُفلجَ أعضاؤُهُ ، ويُختلسَ عقلُهُ ، ويُختطفَ روحُهُ ، ويُسلبَ جميعُ ما يهواهُ في دنياهُ ، فهوُ مضطرٌّ ذليلٌ ، إنْ تركَ . . بقيَ ، وإنِ اختطفَ . . فنيَ ، عبدٌ مملوكٌ لا يقدرُ علىٰ شيءٍ مِنْ نفسِهِ ، ولا مِنْ غيرِهِ ، فأيُّ شيءٍ أذلُّ منهُ لوْ عرفَ نفسَهُ ؟! وأنَّىٰ يليقُ الكبرُ بهِ لولا جهلُهُ ؟!

فهٰذا أوسطُ أحوالِهِ ، فليتأملْهُ .

وأمَّا آخرُهُ وموردُهُ . . فهوَ الموتُ المشارُ إليهِ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ۝ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴾ ومعناهُ : أنَّهُ يسلبُ روحَهُ ، وسمعَهُ وبصرَهُ ، وعلمَهُ وقدرتَهُ ، وحسَّهُ ، وإدراكَهُ وحركتَهُ ، فيعودُ جماداً كما كانَ أوَّلَ مرةٍ ، لا يبقىٰ إلا شكلُ أعضائِهِ وصورتُهُ ، لا حسَّ فيهِ ولا حركةَ ، ثمَّ يُوضعُ في

الترابِ فيصيرُ جيفةً منتنةً قذرةً ؛ كما كانَ في الأوَّلِ نطفةً مذرةً ، ثمَّ تبلىٰ أعضاؤُهُ ، وتتفتَّتُ أجزاؤُهُ ، وتنخرُ عظامُهُ فتصيرُ رميماً ورفاتاً ، ويأكلُ الدودُ أجزاءَهُ ، فيبتدىءُ بحدقتَيهِ فيقلعُهُما ، وبخدَّيهِ فيقطعُهُما ، وبسائرِ أجزائِهِ فيصيرُ روثاً في أجوافِ الديدانِ ، ويكونُ جيفةً يهربُ منهُ الحيوانُ ، ويستقذرُهُ كلُّ إنسانٍ ويهربُ منهُ لشدَّةِ الإنتانِ ، وأحسنُ أحوالِهِ أنْ يعودَ إلىٰ ما كانَ ، فيصيرَ تراباً يُعملُ منهُ الكيزانُ ، ويعمرُ بهِ البنيانُ ، ويصيرُ مفقوداً بعدَما كانَ موجوداً ، وصارَ كأنْ لمْ يغنَ بالأمسِ حصيداً ؛ كما كانَ في أوَّلِ أمرِهِ أمداً مديداً .

وليتَهُ بقيَ كذلكَ، فما أحسنَهُ لوْ تُركَ تراباً ! لا بلْ يحييهِ بعدَ طولِ البلىٰ ؛ ليقاسيَ شدائدَ البلاءِ ، فيخرجُ مِنْ قبرِهِ بعدَ جمعِ أجزائِهِ المتفرقةِ ، ويُخرجُ إلىٰ أهوالِ القيامةِ ، فينظرُ إلىٰ قيامةٍ قائمةٍ ، وسماءٍ ممزقةٍ مشققةٍ ، وأرضٍ مبدَّلةٍ ، وجبالٍ مسيرةٍ ، ونجومٍ منكدرةٍ ، وشمسٍ منكسفةٍ ، وأحوالٍ مظلمةٍ ، وملائكةٍ غلاظٍ شدادٍ وجحيمٍ تزفرُ ، وجنةٍ ينظرُ إليها المجرمُ فيتحسَّرُ ، ويرىٰ صحائفَ منشورةً ، فيُقالُ لهُ : اقرأْ كتابَكَ ، فيقولُ وما هوَ ؟ فيُقالُ : كانَ قدْ وُكِّلَ بكَ في حياتِكَ التي كنتَ تفرحُ بها وتتكبَّرُ بنعيمِها وتفتخرُ بأسبابِها ملكانِ رقيبانِ ، يكتبانِ عليكَ ما كنتَ تنطقُ بهِ أوْ تعملُهُ ؛ مِنْ قليلٍ وكثيرٍ ، وصغيرٍ وكبيرٍ ، ونقيرٍ وقطميرٍ ، وأكلٍ وشربٍ ، وقيامٍ وقعودٍ، قدْ نسيتَ ذلكَ وأحصاهُ اللهُ تعالىٰ عليكَ ، فهلمَّ إلى الحسابِ ، واستعدَّ للجوابِ، أوْ تُساقَ إلىٰ دارِ العذابِ ، فينقطعُ قلبُهُ فزعاً

مِنْ هولِ هٰذا الخطابِ ، قبلَ أنْ تُنشرَ الصحيفةُ ويشاهدَ ما فيها مِنْ مخازيهِ ، فإذا شاهدَهُ . . قالَ : ﴿ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَا ﴾ ، فهٰذا آخرُ أمرِهِ وهوَ معنىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴾ .

فما لِمَنْ هٰذا حالُهُ وللتكبُّرِ ؟! بلْ ما لَهُ وللفرحِ في لحظةٍ واحدةٍ فضلاً عنِ البطرِ والتجبرِ ؟! فقدْ ظهرَ لهُ أوَّلُ حالِهِ ووسطُهُ ، ولوْ ظهرَ آخرُهُ والعياذُ باللهِ تعالىٰ . . ربَّما اختارَ أنْ يكونَ كلباً أوْ خنزيراً ؛ ليصيرَ مع البهائمِ تراباً ، ولا يكونَ إنساناً يسمعُ خطاباً ويلقىٰ عذاباً ، وإنْ كانَ عند اللهِ مستحقاً للنارِ . . فالخنزيرُ أشرفُ منهُ وأطيبُ وأرفعُ ؛ إذْ أوَّلُهُ الترابُ ، وآخرُهُ الترابُ ، وهوَ بمعزلٍ عنِ الحسابِ والعذابِ ، والكلبُ والخنزيرُ لا يهربُ منهُ الخلقُ ، ولوْ رأىٰ أهلُ الدنيا العبدَ المذنبَ في النارِ . . لصعقوا من وحشةِ خلقتِهِ وقبحِ صورتِهِ ، ولوْ وجدوا ريحَهُ . . لماتوا مِنْ نتنِهِ ، ولوْ وقعَتْ قطرةٌ مِنْ شرابِهِ الذي يُسقىٰ منهُ في بحارِ الدنيا . . لصارَتْ أنتنَ مِنَ الجيفةِ ، فمَنْ هٰذا حالُهُ في العاقبةِ ـ إلا أن يعفوَ عنهُ مولاهُ وهوَ علىٰ شكٍّ مِنَ العفوِ ـ كيفَ يفرحُ ويبطرُ ، وكيفَ يتكبَّرُ ويتجبَّرُ ؟! وكيفَ يرىٰ نفسَهُ شيئاً حتىٰ يعتقدَ لهُ فضلاً ؟! وأيُّ عبدٍ لمْ يذنبْ ذنباً استحقَّ بهِ العقوبةَ إلا أنْ يعفوَ الكريمُ بفضلِهِ ، ويجبرَ الكسرَ بمنِّهِ ؟! والرجاءُ منهُ ذلكَ ؛ لكرمِهِ وحسنِ الظنِّ بهِ ، ولا حولَ ولا قوةَ إلا باللهِ .

أرأيتَ مَنْ جنىٰ علىٰ بعضِ الملوكِ فاستحقَّ بجنايتِهِ ضربَ ألفِ سوطٍ ، فحُبسَ في السجنِ وهوَ ينتظرُ أنْ يُخرجَ إلى العرضِ ، وتُقامَ عليهِ العقوبةُ علىٰ

ملأٍ مِنَ الخلقِ ، وليسَ يدري أيُعفىٰ عنهُ أمْ لا . . كيفَ يكونُ ذلُّهُ في السجنِ ؟ أفترىٰ أنَّهُ يتكبَّرُ علىٰ مَنْ في السجنِ ؟ وما مِنْ عبدٍ مذنبٍ إلا والدنيا سجنُهُ ، وقدِ استحقَّ العقوبةَ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، ولا يدري كيفَ يكونُ آخرُ أمرِهِ ؟ فيكفيهِ ذلكَ حزناً ، وخوفاً وإشفاقاً ، ومهانةً وذلاً .

فهـٰذا هوَ العلاجُ العلميُّ القامعُ لأصلِ الكبرِ .

وأمَّا العلاجُ العمليُّ : فهوَ التواضعُ بالفعلِ للهِ ولسائرِ الخلقِ ؛ بالمواظبةِ علىٰ أخلاقِ المتواضعينَ ، كما وصفناهُ وحكيناهُ مِنْ أحوالِ الصالحينَ ، ومِنْ أحوالِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، حتَّىٰ إنَّهُ كانَ يأكلُ على الأرضِ ويقولُ : « إنَّما أنا عبدٌ آكلُ كما يأكلُ العبدُ »[1] .

وقيلَ لسلمانَ : لِمَ لا تلبسُ ثوباً جديداً ؟ فقالَ : إنَّما أنا عبدٌ ، فإذا أُعتقتُ يوماً . . لبستُ جديداً[2] ، أشارَ بهِ إلى العتقِ في الآخرةِ ، ولا يتمُّ التواضعُ بعدَ المعرفةِ إلا بالعملِ .

ولذلكَ أُمِرَ العربُ الذينَ تكبَّروا على اللهِ ورسولِهِ بالإيمانِ وبالصلاةِ جميعاً ، وقيلَ : الصلاةُ عمادُ الدينِ[3] ، وفي الصلاةِ أسرارٌ لأجلِها كانَتْ

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٥٣) من زيادات نعيم بن حماد ، وعبد الرزاق في « المصنف » (١٠/ ٤١٥) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١٤٨) .

(٣) رواه البيهقي في « الشعب » (٢٥٥٠) .

عماداً ، ومِنْ جملتِها : ما فيها مِنَ التواضعِ بالمثولِ قائماً ، وبالركوعِ والسجودِ ، وقدْ كانَتِ العربُ قديماً يأنفونَ مِنَ الانحناءِ ، فكانَ يسقطُ مِنْ يدِ الواحدِ سَوطُهُ فلا ينحني لأخذِهِ ، وينقطعُ شراكُ نعلِهِ فلا ينكِّسُ رأسَهُ لإصلاحِهِ ، حتَّىٰ قالَ حكيمُ بنُ حزامٍ : بايعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علىٰ ألاَّ أَخِرَّ إلا قائماً[1] ، فبايعَهُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ثمَّ فقهَ وكملَ إيمانُهُ بعدَ ذلكَ ، فلمَّا كانَ السجودُ عندَهُمْ هوَ منتهى المذلَّةِ والضَعَةِ . . أُمروا بهِ ؛ لينكسرَ بذلكَ خيلاؤُهُمْ ، ويزولَ كِبْرُهُمْ ، ويستقرَّ التواضعُ في قلوبِهِمْ ، وبهِ أُمرَ سائرُ الخلقِ ؛ فإنَّ الركوعَ والسجودَ والمثولَ قائماً هو العملُ الذي يقتضيهِ التواضعُ .

فكذلكَ مَنْ عرفَ نفسَهُ . . فلينظرْ كلَّ ما يتقاضاهُ الكبرُ مِنَ الأفعالِ فليواظبْ علىٰ نقيضِهِ ، حتَّىٰ يصيرَ التواضعُ لهُ خُلُقاً ، فإنَّ القلوبَ لا تتخلَّقُ بالأخلاقِ المحمودةِ إلا بالعلمِ والعملِ جميعاً ؛ وذلكَ لخفاءِ العلاقةِ بينَ القلبِ والجوارحِ ، وسرِّ الارتباطِ الذي بينَ عالمِ الملكِ وعالمِ الملكوتِ ، والقلبُ مِنْ عالمِ الملكوتِ .

❁ ❁ ❁

المقامُ الثاني : فيما يعرضُ مِنَ التكبرِ بالأسبابِ السبعةِ المذكورةِ :

وقدْ ذكرنا في كتابِ ذمِّ الجاهِ أنَّ الكمالَ الحقيقيَّ هوَ العلمُ والعملُ ، فأمَّا

---

(١) رواه النسائي (٢/ ٢٠٥) .

ما عداهُ ممَّا يفنىٰ بالموتِ . . فكمالٌ وهميٌّ ، فمِنْ هـٰذا يعسرُ على العالمِ ألاَّ يتكبَّرَ ، ولكنَّا نذكرُ طريقَ العلاجِ مِنَ العلمِ والعملِ في جميعِ الأسبابِ السبعةِ .

❀ ❀ ❀

الأولُ : النسبُ :

فمَنْ يعتريهِ الكبرُ مِنْ جهةِ النسب . . فليداوِ قلبَهُ بمعرفةِ أمرينِ :

أحدُهما : أنَّ هـٰذا جهلٌ مِنْ حيثُ إنَّهُ تعزُّزٌ بكمالِ غيرِهِ ؛ ولذلكَ قيلَ[1] : [من البسيط]

لَئِـنْ فَخـرْتَ بِـآبـاءٍ ذَوِي شَـرَفٍ   لَقَدْ صَدَقْتَ وَلَـٰكِنْ بِئْسَ ما وَلَدُوا

فالمتكبِّرُ بالنسبِ إنْ كانَ خسيساً في صفاتِ ذاتِهِ . . فمِنْ أينَ يجبرُ خسَّتَهُ بكمالِ غيرِهِ ؟ بلْ لوْ كانَ الذي ينتسبُ إليهِ حيّاً . . لكانَ لهُ أنْ يقولَ : الفضلُ لي ، ومَنْ أنتَ ؟ وإنَّما أنتَ دودةٌ خُلقَتْ مِنْ بولي ، أفترىٰ أنَّ الدودةَ التي خُلِقَتْ مِنْ بولِ الإنسانِ أشرفُ مِنَ الدودةِ التي مِنْ بولِ فرسٍ ؟ هيهاتَ ! فهُما متساويتانِ ، والشرفُ للإنسانِ لا للدودةِ .

الثاني : هوَ أنْ يعرفَ نسبَهُ الحقيقيَّ ، فيعرفَ أباهُ وجدَّهُ ، فإنَّ أباهُ القريبَ نطفةٌ قذرةٌ ، وجدَّهُ البعيدَ ترابٌ ذليلٌ ، وقدْ عرَّفَهُ اللهُ تعالىٰ نسبَهُ

---

(١) البيت لابن الرومي في « ديوانه » (٢/٨٠٨) .

فقالَ : ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۞ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴾ ، فمَنْ أصلُهُ مِنَ الترابِ المهينِ الذي يُداسُ بالأقدامِ ، ثمَّ خُمِّرَ طينُهُ حتَّىٰ صارَ حمأً مسنوناً . . كيفَ يتكبَّرُ وأخسُّ الأشياءِ ما إليهِ انتسابُهُ ؛ إذ يُقالُ : يا أذلَّ مِنَ الترابِ ، ويا أنتنَ مِنَ الحمأةِ ، ويا أقذرَ مِنَ المضغةِ ؟!

فإنْ كانَ كونُهُ مِنْ أبيهِ أقربَ مِنْ كونِهِ مِنَ الترابِ . . فنقولُ : افتخرْ بالقريبِ دونَ البعيدِ ، فالنطفةُ والمضغةُ أقربُ إليهِ مِنَ الأبِ ، فليحقرْ نفسَهُ بذلكَ ، ثمَّ إنْ كانَ ذلكَ يوجبُ رفعةً لقربهِ . . فالأبُ الأعلىٰ مِنَ الترابِ ؛ فمِنْ أينَ رفعتُهُ ؟! وإذا لمْ يكنْ لهُ رفعةٌ . . فمِنْ أينَ جاءَتِ الرفعةُ لولدِهِ ؟! .

فإذاً ؛ أصلُهُ مِنَ الترابِ ، وفصلُهُ مِنَ النطفةِ ، فلا أصلَ لهُ ولا فصلَ ، وهـٰذا غايةُ خسَّةِ النسبِ ، فالأصلُ يُوطأُ بالأقدامِ ، والفصلُ تُغسلُ منهُ الأبدانُ ، فهـٰذا هوَ النسبُ الحقيقيُّ للإنسانِ ، ومَنْ عرفَهُ . . لمْ يتكبَّرْ بالنسبِ ، ويكونُ مثالُهُ بعدَ هـٰذهِ المعرفةِ وانكشافِ الغطاءِ لهُ عنْ حقيقةِ أصلِهِ كرجلٍ لمْ يزلْ عندَ نفسِهِ مِنْ بني هاشمٍ وقدْ أخبرَهُ بذلكَ والداهُ ، فلمْ تزلْ فيهِ نخوةُ الشرفِ ، فبينَما هوَ كذلكَ إذْ أخبرَهُ عدولٌ لا يشكُّ في قولِهِمْ أنَّهُ ابنُ هنديٍّ حجَّامٍ يتعاطى القاذوراتِ ، وكشفوا لهُ وجهَ التلبيسِ عليهِ ، فلمْ يبقَ لهُ شكٌّ في صدقِهِمْ ، أفترىٰ أنَّ ذلكَ يُبقي شيئاً مِنْ كبرِهِ ؟ لا بلْ يصيرُ

عندَ نفسِهِ أحقرَ الناسِ وأذلَّهُمْ ، فهوَ مِنِ استشعارِ الخزيِ لخسَّتِهِ في شغلٍ عنْ أنْ يتكبَّرَ علىٰ غيرِهِ .

فهـٰذا حالُ البصيرِ إذا تفكَّرَ في أصلِهِ ، وعلمَ أنَّهُ مِنَ النطفةِ والمضغةِ والترابِ ؛ إذْ لوْ كانَ أبوهُ ممَّنْ يتعاطىٰ نقلَ الترابِ ، أوْ يتعاطى الدمَ بالحجامةِ أوْ غيرِها . . لكانَ يعلمُ بهِ خسَّةَ نفسِهِ ؛ لمماسَّةِ أعضاءِ أبيهِ للترابِ والدمِ ، فكيفَ إذا عرفَ أنَّهُ في نفسِهِ مِنَ الترابِ والدمِ والأشياءِ القذرةِ التي يتنزَّهُ منها هوَ في نفسِهِ ؟!

❀ ❀ ❀

السببُ الثاني : التكبُّرُ بالجمالِ :

ودواؤُهُ : أنَّ ينظرَ إلىٰ باطنِهِ نظرَ العقلاءِ ، ولا ينظرَ إلى الظاهرِ نظرَ البهائمِ ، ومهما نظرَ إلىٰ باطنِهِ . . رأىٰ مِنَ القبائحِ ما يكدِّرُ عليهِ تعزُّزَهُ بجمالِهِ ؛ فإنَّهُ وُكلَ بهِ الأقذارُ في جميعِ أجزائِهِ ، الرجيعُ في أمعائِهِ ، والبولُ في مثانتِهِ ، والمخاطُ في أنفِهِ ، والبزاقُ في فيهِ ، والوسخُ في أذنيهِ ، والدمُ في عروقِهِ ، والصديدُ تحتَ بشرتِهِ ، والصُّنانُ تحتَ إبطيهِ ، يغسلُ الغائطَ بيدِهِ كلَّ يومٍ دفعةً أوْ دفعتينِ ، ويتردَّدُ إلى الخلاءِ كلَّ يومٍ مرةً أوْ مرتينِ ؛ ليخرجَ مِنْ باطنِهِ ما لوْ رآهُ بعينِهِ . . لاستقذَرَهُ ، فضلاً عن أنْ يمسَّهُ أوْ يشَمَّهُ ، كلُّ ذلكَ ليعرفَ قذارتَهُ وذلَّهُ ، هـٰذا في حالِ توسُّطِهِ .

وفي أولِ أمرِهِ خُلقَ مِنَ الأقذارِ الشنيعةِ الصورِ ؛ مِنَ النطفةِ ودمِ الحيضِ ،

وأُخرجَ مِنْ مجرى الأقذارِ ؛ إذْ خرجَ مِنَ الصُّلبِ ثمَّ مِنَ الذكرِ مجرى البولِ ، ثمَّ مِنَ الرحمِ مُفيضِ دمِ الحيضِ ، ثمَّ خرجَ مِنْ مجرى القذرِ .

قالَ أنسٌ رحمهُ اللهُ : كانَ أبو بكرٍ الصديقُ رضيَ اللهُ عنهُ يخطبُنا ، فيقذِّرُ إلينا أنفسَنا ويقولُ : (خرجَ أحدُكُمْ مِنْ مجرى البولِ مرتينِ)[1] .

وكذلكَ قالَ طاووسٌ لعمرَ بنِ عبدِ العزيزِ : ما هٰذهِ مشيةُ مَنْ في بطنِهِ خرءٌ ؛ إذْ رآهُ يتبخترُ ، وكانَ ذلكَ قبلَ خلافتِهِ[2] .

هٰذا أولُهُ ووسطُهُ ، ولو تركَ نفسَهُ في حياتِهِ يوماً لمْ يتعهدْها بالتنظيفِ والغسلِ .. لثارَتْ منهُ الأنتانُ والأقذارُ ، وصارَ أقذرَ وأنتنَ مِنَ الدوابِّ المهملةِ التي لا تتعهدُ نفسَها قطُّ .

فإذا نظرَ أنَّهُ خُلِقَ مِنْ أقذارٍ ، وأُسكنَ في أقذارٍ ، وسيموتُ فيصيرُ جيفةً أقذرَ مِنْ سائرِ الأقذارِ .. لمْ يفتخرْ بجمالِهِ الذي هوَ كخضراءِ الدمنِ ، وكلَونِ الأزهارِ في البوادي ، بينَما هوَ كذلكَ إذْ صارَ هشيماً تذروهُ الرياحُ ، كيفَ ولوْ كانَ جمالُهُ باقياً وعنْ هٰذهِ القبائحِ خالياً .. لكانَ يجبُ ألاَّ يتكبَّرَ بهِ على القبيحِ ؛ إذْ لمْ يكنْ قبحُ القبيحِ إليهِ فينفيَهُ ، ولا كانَ جمالُ الجميلِ إليهِ حتَّىٰ يُحمدَ عليهِ ، كيفَ ولا بقاءَ لهُ ؟! بلْ هوَ في كلِّ حالةٍ يُتصوَّرُ أنْ يزولَ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٠٠) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٤١) .

بمرضٍ ، أوْ جدريٍّ ، أوْ قرحةٍ ، أوْ سببٍ مِنَ الأسبابِ ، فكَمْ مِنْ وجوهٍ جميلةٍ قدْ سمِجَتْ بهٰذهِ الأسبابِ .

فمعرفةُ هٰذهِ الأمورِ تنزعُ مِنَ القلبِ داءَ الكبرِ بالجمالِ لمَنْ أكثرَ تأمُّلَها .

❀ ❀ ❀

السببُ الثالثُ : التكبرُ بالقوَّةِ والأيْدِ[1] :

ويمنعُهُ مِنْ ذلكَ أنْ يعلمَ ما سُلِّطَ عليهِ مِنَ العللِ والأمراضِ ، وأنَّهُ لوْ توجَّعَ عرْقٌ واحدٌ في بدنِهِ . . لصارَ أعجزَ مِنْ كلِّ عاجزٍ ، وأذلَّ مِنْ كلِّ ذليلٍ ، وأنَّهُ لوْ سلبَهُ الذبابُ شيئاً . . لم يستنقذْهُ منهُ ، وأنَّ بقَّةً لوْ دخلَتْ أنفَهُ ، أوْ نملةً دخلَتْ أذنَهُ . . لقتلَتْهُ ، وأنَّ شوكةً لوْ دخلَتْ رجلَهُ . . لأعجزَتْهُ ، وأنَّ حمَّىٰ يومٍ تحللُ مِنْ قوَّتِهِ ما لا ينجبرُ في مدةٍ ، فمَنْ لا يطيقُ شوكةً ، ولا يقاومُ بقَّةً ، ولا يقدرُ علىٰ أنْ يدفعَ عنْ نفسِهِ ذبابةً . . فلا ينبغي أنْ يفتخرَ بقوَّتِهِ .

ثمَّ إنَّ أقوىٰ إنسانٍ لا يكونُ أقوىٰ مِنْ حمارٍ أوْ بقرةٍ أو فيلٍ أو جملٍ ، وأيُّ افتخارٍ في صفةٍ تسبقُكَ البهائمُ فيها ؟!

❀ ❀ ❀

---

(١) الأيد : القوة ، قال سبحانه : ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٍ﴾ .

السببُ الرابعُ والخامسُ : الغنىٰ وكثرةُ المالِ :

وفي معناهُ كثرةُ الأتباعِ والأنصارِ ، والتكبُّرُ بولايةِ السلاطينِ ، والتمكنُ مِنْ جهتِهِمْ ، وكلُّ ذلكَ تكبُّرٌ بمعنىً خارجٍ عنْ ذاتِ الإنسانِ ، لا كالجمالِ والقوَّةِ والعلمِ ، وهـٰذا أقبحُ أنواعِ التكبُّرِ ، فإنَّ المتكبِّرَ بمالِهِ كأنَّهُ متكبِّرٌ بفرسِهِ ودارِهِ ، ولوْ ماتَ فرسُهُ وانهدمَتْ دارُهُ . . لعادَ ذليلاً ، والمتكبِّرُ بتمكينِ السلطانِ وولايتِهِ لا بصفةٍ في نفسِهِ . . بنىٰ أمرَهُ علىٰ قلبٍ هوَ أشدُّ غلياناً مِنَ القدْرِ ، فإنْ تغيَّرَ عليهِ . . كانَ أذلَّ الخلقِ ، وكلُّ متكبِّرٍ بأمرٍ خارجٍ عنْ ذاتِهِ . . فهوَ ظاهرُ الجهلِ .

كيفَ والمتكبِّرُ بالغنىٰ لوْ تأمَّلَ . . لرأىٰ في اليهودِ مَنْ يزيدُ عليهِ في الغنىٰ والثروةِ والتجمُّلِ ؟! فأفٍّ لشرفٍ يسبقُكَ بهِ اليهودُ ، وأفٍّ لشرفٍ يأخذُهُ السارقُ في لحظةٍ واحدةٍ فيعودُ صاحبُهُ ذليلاً مفلساً .

فهـٰذهِ أسبابٌ ليسَتْ في ذاتِهِ ، وما هوَ في ذاتِهِ ليسَ إليهِ دوامُ وجودِهِ ، وهوَ في الآخرةِ وبالٌ ونكالٌ ، فالتفاخرُ بهِ غايةُ الجهلِ ، وكلُّ ما ليسَ إليكَ فليسَ لكَ ، وشيءٌ مِنْ هـٰذهِ الأمورِ ليسَ إليكَ ، بلْ إلىٰ واهبِهِ ؛ إنْ أبقاهُ . . بقيَ لكَ ، وإنْ استرجعَهُ . . زالَ عنكَ ، وما أنتَ إلا عبدٌ مملوكٌ لا تقدرُ علىٰ شيءٍ ، فمَنْ عرفَ ذلكَ . . لا بدَّ وأنْ يزولَ كبرُهُ .

ومثالُهُ : أنْ يفتخرَ الغافلُ بقوَّتِهِ ، وجمالِهِ ، ومالِهِ ، وحريَّتِهِ ، واستقلالِهِ ، وسعةِ منازلِهِ ، وكثرةِ خيولِهِ وغلمانِهِ ؛ إذْ شهدَ عليهِ شاهدانِ

عدلانِ عندَ حاكمٍ منصفٍ بأنَّهُ رقيقٌ لفلانٍ ، وأنَّ أبويهِ كانا مملوكينِ لهُ ، فعلمَ ذلكَ وحكمَ بِهِ الحاكمُ ، فجاءَ مالكُهُ فأخذَهُ وأخذَ جميعَ ما في يدِهِ ، وهوَ يخشىٰ معَ ذلكَ أنْ يعاقبَهُ وينكِّلَ بِهِ لتفريطِهِ في أموالِهِ ، وتقصيرِهِ في طلبِ مالكِهِ ليعرفَ أنَّ لهُ مالكاً ، ثمَّ نظرَ العبدُ فرأىٰ نفسَهُ محبوساً في منزلٍ ، قدْ أحدقَتْ بهِ الحياتُ والعقاربُ والهوامُّ ، وهوَ في كلِّ حالٍ علىٰ وَجَلٍ مِنْ كلِّ واحدةٍ منها ، وقدْ بقيَ لا يملكُ نفسَهُ ولا مالَهُ ، ولا يعرفُ طريقاً إلى الخلاصِ ألبتةَ ، أفترىٰ أنَّ مَنْ هـٰذا حالُهُ هلْ يفتخرُ بقدرتِهِ وثروتِهِ وقوتِهِ وكمالِهِ ، أمْ يذلُّ في نفسِهِ ويخضعُ ؟

وهـٰذا حالُ كلِّ عاقلٍ بصيرٍ ، فإنَّهُ يرىٰ نفسَهُ كذلكَ ، فإنَّهُ لا يملكُ رقبتَهُ وبدنَهُ ومالَهُ وأعضاءَهُ ، وهوَ معَ ذلكَ بينَ آفاتٍ ، وشهواتٍ وأمراضٍ وأسقامٍ هيَ كالعقاربِ والحياتِ يخافُ منها الهلاكَ ، فمَنْ هـٰذا حالُهُ لا يتكبَّرُ بقدرتِهِ وقوتِهِ ؛ إذْ يعلم أنَّهُ لا قدرةَ لهُ ولا قوَّةَ .

فهـٰذا طريقُ علاجِ التكبُّرِ بالأسبابِ الخارجةِ ، وهوَ أهونُ مِنْ علاجِ التكبُّرِ بالعلمِ والعملِ ؛ فإنَّهما كمالانِ في النفسِ ، جديرانِ بأنْ يُفرحَ بهِما ، ولكنْ في التكبُّرِ بهِما أيضاً نوعٌ مِنَ الجهلِ خفيٌّ كما سنذكرُهُ .

❀ ❀ ❀

السببُ السادسُ : **الكبرُ بالعلمِ** :

وهوَ أعظمُ الآفاتِ ، وأغلبُ الأدواءِ ، وأبعدُها عنْ قبولِ العلاجِ إلا بشدَّةٍ

شديدةٍ وجهدٍ جهيدٍ ؛ وذلكَ لأنَّ قدْرَ العلمِ عظيمٌ عندَ اللهِ ، عظيمٌ عندَ الناسِ ، وهوَ أعظمُ مِنْ قدرِ المالِ والجمالِ وغيرِهِما ، بلْ لا قدْرَ لهُما أصلاً إلا إذا كانَ معَهُما علمٌ وعملٌ .

ولذلكَ قالَ كعبُ الأحبارِ : (إنَّ للعلمِ طغياناً كطغيانِ المالِ)[1] .

ولذلكَ قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (العالِمُ إذا زلَّ . . زلَّ بزلَّتِهِ عالَمٌ)[2] ، فيعجزُ العالمُ عنْ ألاَّ يستعظمَ نفسَهُ بالإضافةِ إلى الجاهلِ ؛ لكثرةِ ما نطقَ الشرعُ بفضائلِ العلمِ .

ولنْ يقدرَ العالمُ علىٰ دفعِ الكبرِ إلا بمعرفةِ أمرينِ :

أحدُهما : أنْ يعلمَ أنَّ حجةَ اللهِ علىٰ أهلِ العلم آكدُ ، وأنَّهُ يحتملُ مِنَ الجاهلِ ما لا يُحتملُ عشرُهُ مِنَ العالِمِ ، وأنَّ مَنْ عصى اللهَ تعالىٰ عنْ معرفةٍ وعلمٍ . . فجنايتُهُ أفحشُ ؛ إذْ لمْ يقضِ حقَّ نعمةِ اللهِ عليهِ في العلمِ .

ولذلكَ قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يُؤتىٰ بالعالمِ يومَ القيامةِ فيُلقىٰ في النارِ ، فتندلقُ أقتابُهُ ، فيدورُ بها كما يدورُ الحمارُ بالرحىٰ ، فيطيفُ بهِ أهلَ النارِ فيقولونَ : ما لكَ ؟ فيقولُ : كنتُ آمرُ

---

(١) كذا في « الرعاية » (ص٤٠٦) ، ورواه ابن المبارك في « الزهد » (٥٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤/٥٥) عن وهب بن منبه .

(٢) كذا في « الرعاية » (ص٤٠٦) قاله لتميم الداري رضي الله عنهما ، ورواه ابن المبارك في « الزهد » (١٤٧٤) من قول سيدنا عيسىٰ عليه السلام .

بالخيرِ ولا آتيهِ ، وأنهىٰ عنِ الشرِّ وآتيهِ »[1] .

وقدْ مثَّلَ اللهُ سبحانَهُ وتعالىٰ مَنْ يعلمُ ولا يعملُ بالحمارِ والكلبِ ، فقالَ : ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ أرادَ بهِ علماءَ اليهودِ ، وقالَ في بَلْعَمَ بنِ باعوراءَ : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾ ، قالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : (أُوتيَ بلعمُ كتاباً فأخلدَ إلىٰ شهواتِ الأرضِ)[2] أي : سكنَ حبُّهُ إليها ، فمثَّلَهُ بالكلبِ ، ﴿ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾ أيْ : سواءٌ آتيتُهُ الحكمةَ أوْ لمْ أوتِهِ فلا يدعُ شهوتَهُ .

ويكفي العالمَ هٰذا الخطرُ ، فأيُّ عالمٍ لمْ يتبعْ شهوتَهُ ؟ وأيُّ عالمٍ لمْ يأمرْ بالخيرِ الذي لا يأتيهِ ؟ فمهما خطرَ للعالمِ عظمُ قدرِهِ بالإضافةِ إلى الجاهلِ . . فليتفكَّرْ في الخطرِ العظيمِ الذي هوَ بصددِهِ ، فإنَّ خطرَهُ أعظمُ مِنْ خطرِ غيرِهِ ؛ كما أنَّ قدرَهُ أعظمُ مِنْ قدرِ غيرِهِ ، فهٰذا بذاكَ ، وهوَ كالملكِ المخاطرِ بروحِهِ في ملكِهِ لكثرةِ أعدائِهِ ، فإنَّهُ إذا أُخِذَ وقُهِرَ . . اشتهىٰ أنْ يكونَ قدْ كانَ فقيراً ، فكمْ مِنْ عالمٍ يشتهي في الآخرةِ سلامةَ الجهَّالِ والعياذُ باللهِ منهُ .

---

(1) رواه البخاري (٣٢٦٧) ، ومسلم (٢٩٨٩) ، والأقتاب : الأمعاء .

(2) الرعاية (ص٤٠٨) ، وانظر مجمل الأقوال عند الطبري في « تفسيره » (١٥٤/٩/٦) .

فهٰذا الخطرُ يمنعُ منَ التكبُّرِ ؛ لأنَّهُ إنْ كانَ مِنْ أهلِ النارِ . . فالخنزيرُ أفضلُ منهُ ، فكيفَ يتكبَّرُ مَنْ هٰذا حالُهُ ؟

فلا ينبغي أنْ يكونَ العالمُ عندَ نفسِهِ أكبرَ مِنَ الصحابةِ وقدْ كانَ بعضُهُمْ يقولُ : (يا ليتَني لمْ تلدْني أمِّي)(١) .

ويأخذُ الآخرُ تبنةً مِنَ الأرضِ ويقولُ : (يا ليتَني كنتُ هٰذهِ التبنةَ)(٢) .

ويقولُ الآخرُ : (يا ليتَني كنتُ طيراً أُوكَلُ)(٣) .

ويقولُ الآخرُ : (ليتَني لمْ أكُ شيئاً مذكوراً)(٤) .

كلُّ ذلكَ خوفاً مِنْ خطرِ العاقبةِ ، فكانوا يرونَ أنفسَهُمْ أسوأَ حالاً مِنَ الطيرِ ومِنَ الترابِ .

ومهما أطالَ فكرَهُ في الخطرِ الذي هوَ بصددِهِ . . زالَ بالكليَّةِ كبرُهُ ، ورأىٰ نفسَهُ كأنَّهُ شرُّ الخلقِ .

ومثالُهُ مثالُ عبدٍ أمرَهُ سيِّدُهُ بأمورٍ فشرعَ فيها ، فتركَ بعضَها وأدخلَ

---

(١) روىٰ ذلك عن سيدنا عمر رضي الله عنه ابن المبارك في « الزهد » (٢٣٤) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٦٢١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٤/ ٣١٣).
(٢) هو الخبر المروي عن سيدنا عمر رضي الله عنه المذكور آنفاً .
(٣) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٥٧٣) ، وهناد في « الزهد » (٤٤٩) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٦٨) عن سيدنا أبي بكر رضي الله عنه .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « المتمنين » (٢٨) عن عبد العزيز بن مروان .

النقصانَ في بعضِها ، وشكَّ في بعضِها أنَّهُ هلْ أدَّاها كما يرتضيهِ مولاهُ أمْ لا ؟ فأخبرَهُ مخبرٌ أنَّ مولاهُ مرسلٌ إليهِ رسولاً يخرجُهُ مِنْ كلِّ ما هوَ فيهِ عرياناً ذليلاً ، ويلقيهِ علىٰ بابِهِ في الشمسِ والحرِّ زماناً طويلاً ، حتَّىٰ إذا ضاقَ عليهِ الأمرُ ، وبلغَ بهِ الجهدُ . . أمرَ برفعِ حسابِهِ وفتشَ عنْ جميعِ أعمالِهِ قليلِها وكثيرِها ، ثمَّ أمرَ بهِ إلىٰ سجنٍ ضيِّقٍ وعذابٍ دائمٍ لا يُروَّحُ عنهُ ساعةً ، وقدْ علم أنَّ سيِّدَهُ قدْ فعلَ بطوائفَ مِنْ عبيدِهِ مثلَ ذلكَ وعفا عنْ بعضِهِمْ ، وهوَ لا يدري أنَّه مِنْ أيِّ الفريقينِ يكونُ ، فإذا تفكَّرَ في ذلكَ . . انكسرَتْ نفسُهُ وذلَّ ، وبطلَ عزُّهُ وكبْرُهُ ، وظهرَ حزنُهُ وخوفُهُ ، ولمْ يتكبَّرْ علىٰ أحدٍ مِنَ الخلقِ ، بلْ تواضعَ رجاءَ أنْ يكونَ هوَ مِنْ شفعائِهِ عندَ نزولِ العذابِ بهِ ، فكذلكَ العالمُ إذا تفكَّرَ فيما ضيَّعَهُ مِنْ أوامرِ ربِّهِ بجناياتٍ علىٰ جوارحِهِ ، وبذنوبٍ في باطنِهِ مِنَ الرياءِ ، والحسدِ والحقدِ والعُجْبِ ، والنفاقِ ، وغيرِهِ ، وعلمَ ما هوَ بصددِهِ مِنَ الخطرِ العظيمِ . . فارقَهُ كبرُهُ لا محالةَ .

الأمرُ الثاني : أنَّ العالِمَ يعرفُ أنَّ الكبرَ لا يليقُ إلا باللهِ عزَّ وجلَّ وحدَهُ ، وأنَّهُ إذا تكبَّرَ . . صارَ ممقوتاً عندَ اللهِ تعالىٰ بغيضاً ، وقدْ أحبَّ اللهُ منهُ أنْ يتواضعَ ، وقالَ لهُ : إنَّ لكَ عندي قدراً ما لمْ ترَ لنفسِكَ قدراً ، فإنْ رأيتَ لنفسِكَ قدراً . . فلا قدرَ لكَ عندي ، فلا بدَّ وأنْ يكلِّفَ نفسَهُ ما يحبُّهُ مولاهُ ، وهـٰذا يزيلُ التكبُّرَ عنْ قلبِهِ وإنْ كانَ يستيقنُ أنَّهُ لا ذنبَ لهُ مثلاً إنْ تُصُوِّرَ ذلكَ ، وبهـٰذا زالَ التكبُّرُ عنِ الأنبياءِ عليهِمُ السلامُ ؛ إذْ علموا أنَّ مَنْ نازعَ اللهَ تعالىٰ في رداءِ الكبرياءِ . . قصمَهُ ، وقدْ أمرَهُمُ اللهُ بأنْ يستصغروا

أنفسَهُمْ حتَّىٰ يعظُمَ عندَ اللهِ محلُّهُمْ ، فهـٰذا أيضاً ممَّا يبعثُهُ على التواضعِ لا محالةَ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فكيفَ يتواضعُ للفاسقِ الظاهرِ الفسقِ وللمبتدعِ ؟ وكيفَ يرىٰ نفسَهُ دونَهُمْ وهوَ عالمٌ عابدٌ ؟ وكيفَ يَجهلُ فضلَ العلمِ والعبادةِ عندَ اللهِ تعالى ؟ وكيفَ يعنيهِ أنْ يخطرَ ببالِهِ خطرُ العلم وهوَ يعلمُ أنَّ خطرَ الفاسقِ والمبتدعِ أكثرُ ؟

فاعلم : أنَّ ذلكَ إنَّما يمكنُ بالتفكُّرِ في خطرِ الخاتمةِ ، بلْ لوْ نظرَ إلىٰ كافرٍ . . لمْ يمكنْهُ أنْ يتكبَّرَ عليهِ ؛ إذْ يُتصوَّرُ أنْ يسلمَ الكافرُ فيُختمَ لهُ بالإيمانِ ، ويضلَّ هـٰذا العالمُ ويُختمَ لهُ بالكفرِ .

والكبيرُ مَنْ هوَ كبيرٌ عندَ اللهِ في الآخرةِ ، والكلبُ والخنزيرُ أعلىٰ رتبةً ممَّنْ هوَ عندَ اللهِ مِنْ أهلِ النارِ وهوَ لا يدري ذلكَ ، فكمْ مِنْ مسلمٍ نظرَ إلىٰ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ قبلَ إسلامِهِ فاستحقرَهُ وازدراهُ لكفرِهِ ، وقدْ رزقَهُ اللهُ الإسلامَ ، وفاقَ جميعَ المسلمينَ إلا أبا بكرٍ وحدَهُ !

فالعواقبُ مطويةٌ عنِ العبادِ ، ولا ينظرُ العاقلُ إلا إلى العاقبةِ ، وجميعُ الفضائلِ في الدنيا تُرادُ للعاقبةِ .

❁ ❁ ❁

فإذاً ؛ حقُّ العبدِ ألاَّ يتكبَّرَ علىٰ أحدٍ ، بلْ إنْ نظرَ إلىٰ جاهلٍ . . قالَ :

هـٰذا عصى اللهَ بجهلٍ وأنا عصيتُهُ بعلمٍ ، فهوَ أعذرُ منِّي ، وإنْ نظرَ إلىٰ عالمٍ . . قالَ : هـٰذا قدْ علمَ ما لمْ أعلمْ ، فكيفَ أكونُ مثلَهُ ؟ وإنْ نظرَ إلىٰ كبيرٍ هوَ أكبرُ منهُ سنّاً . . قالَ : إنَّهُ أطاعَ اللهَ قبلي فكيفَ أكونُ مثلَهُ ؟ وإنْ نظرَ إلىٰ صغيرٍ . . قالَ : إنِّي عصيتُ اللهَ قبلَهُ ، فكيفَ أكونُ مثلَهُ ؟ وإنْ نظرَ إلىٰ مبتدعٍ أوْ كافرٍ قالَ : ما يدريني لعلَّهُ يُختمُ لهُ بالإسلامِ ، ويُختمُ لي بما هوَ عليهِ الآنَ ، فليسَ دوامُ الهدايةِ إليَّ ؛ كما لمْ يكنِ ابتداؤُها إليَّ .

فبملاحظةِ الخاتمةِ يقدرُ علىٰ أنْ ينفيَ الكبرَ عنْ نفسِهِ ، وكلُّ ذلكَ بأنْ يعلمَ أنَّ الكمالَ في سعادةِ الآخرةِ والقربِ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، لا فيما يظهرُ في الدنيا ممَّا لا بقاءَ لهُ ، ولعمري ؛ هـٰذا الخطرُ مشتركٌ بينَ المتكبِّرِ والمتكبَّرِ عليهِ ، ولكنْ حقٌّ علىٰ كلِّ واحدٍ أنْ يكونَ مصروفَ الهمِّ إلىٰ نفسِهِ ، مشغولَ القلبِ بخوفِهِ لعاقبتِهِ ، لا أنْ يشتغلَ بخوفِ غيرِهِ ، فإنَّ الشفيقَ بسوءِ الظنِّ مولعٌ ، وشفقةُ كلِّ إنسانٍ علىٰ نفسِهِ ، فإذا حُبسَ جماعةٌ في جنايةٍ ووُعدوا بأنْ تُضربَ رقابُهُمْ . . لمْ يتفرَّغوا للتكبُّرِ بعضُهُمْ علىٰ بعضٍ وإنْ عمَّهُمُ الخطرُ ؛ إذْ شغلَ كلَّ واحدٍ منهُمْ همُّ نفسِهِ عنِ الالتفاتِ إلىٰ همِّ غيرِهِ ، حتَّىٰ كأنَّ كلَّ واحدٍ هوَ وحدَهُ في مصيبتِهِ وخطرِهِ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فكيفَ أبغضُ المبتدعَ في اللهِ وأبغضُ الفاسقَ وقدْ أُمرتُ ببغضِهِما ، ثمَّ معَ ذلكَ أتواضعُ لهُما ، والجمعُ بينَهُما متناقضٌ ؟

فاعلمْ : أنَّ هـٰذا أمرٌ مشتبهٌ يلتبسُ علىٰ أكثرِ الخلقِ ؛ إذْ يمتزجُ غضبُكَ للهِ

في إنكارِ البدعةِ والفسقِ بكبْرِ النفسِ والإدلالِ بالعلمِ والورعِ ، فكمْ مِنْ عابدٍ جاهلٍ وعالمٍ مغرورٍ إذا رأىٰ فاسقاً جلسَ بجنبِهِ . . أزعجَهُ مِنْ عندِهِ ، وتنزَّهَ منهُ بكبْرٍ باطنٍ في نفسِهِ ، وهوَ ظانٌّ أنَّهُ قدْ غضبَ للهِ ؛ كما وقعَ لعابدِ بني إسرائيلَ معَ خليعِهِم[1] ، وذلكَ لأنَّ الكبْرَ على المطيعِ ظاهرٌ كونُهُ شرّاً ، والحذرُ منهُ ممكنٌ ، والكبْرُ على الفاسقِ والمبتدعِ يشبهُ الغضبَ للهِ وهوَ خيرٌ ؛ فإنَّ الغضبانَ أيضاً يتكبَّرُ علىٰ مَنْ غضبَ عليهِ ، والمتكبِّرُ يغضبُ ، وأحدُهُما يثمرُ الآخرَ ويوجبُهُ ، وهما ممتزجانِ ملتبسانِ لا يميِّزُ بينَهُما إلا الموفَّقونَ .

❀ ❀ ❀

والذي يخلصُكَ عنْ هـٰذا : أنْ يكونَ الحاضرُ علىٰ قلبِكَ عندَ مشاهدةِ المبتدعِ أوِ الفاسقِ أوْ عندَ أمرِهِما بالمعروفِ ونهيِهِما عنِ المنكرِ ثلاثةَ أمورٍ :

أحدُها : التفاتُكَ إلىٰ ما سبقَ مِنْ ذنوبِكَ وخطاياكَ ؛ ليصغرَ عندَ ذلكَ قدرُكَ في عينِكَ .

والثاني : أنْ تكونَ ملاحظتُكَ لما أنتَ متميِّزٌ بهِ مِنَ العلمِ واعتقادِ الحقِّ والعملِ الصالحِ مِنْ حيثُ إنَّها نعمةٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ عليكَ ، فلهُ المنَّةُ فيهِ لا لكَ ، فترىٰ ذلكَ منهُ ؛ حتَّىٰ لا تعجبَ بنفسِكَ ، وإذا لمْ تعجبْ . . لمْ تتكبَّرْ .

---

(١) أورده المحاسبي في « الرعاية » (ص ٣٨٨)، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٢٢٦).

والثالثُ : ملاحظةُ إبهامِ عاقبتِكَ وعاقبتِهِ ؛ وأنَّهُ ربَّما يُختمُ لكَ بالسوءِ ويُختمُ لهُ بالحسنىٰ ، حتَّىٰ يشغلَكَ الخوفُ عنِ التكبُّرِ عليهِ .

❀ ❀ ❀

فإنْ قلتَ : فكيفَ أغضبُ معَ هـٰذهِ الأحوالِ ؟

فأقولُ : تغضبُ لمولاكَ وسيِّدِكَ ؛ إذْ أمرَكَ أنْ تغضبَ لهُ لا لنفسِكَ ، وأنتَ في غضبِكَ لا ترىٰ نفسَكَ ناجياً وصاحبَكَ هالكاً ، بلْ يكونُ خوفُكَ علىٰ نفسِكَ بما علمَ اللهُ مِنْ خفايا ذنوبِكَ أكثرَ مِنْ خوفِكَ عليهِ معَ الجهلِ بالخاتمةِ ، وأعرِّفُكَ ذلكَ بمثالٍ ؛ لتعلمَ أنَّهُ ليسَ مِنْ ضرورةِ الغضبِ للهِ أنْ تتكبَّرَ على المغضوبِ عليهِ وترىٰ قدرَكَ فوقَ قدرِهِ ، فأقولُ :

إذا كانَ للملكِ غلامٌ وولدٌ هوَ قرَّةُ عينِهِ ، وقدْ وكلَ الغلامَ بالولدِ ليراقبَهُ ، وأمرَهُ أنْ يضربَهُ مهما أساءَ أدبَهُ واشتغلَ بما لا يليقُ بهِ ويغضبَ عليهِ ، فإنْ كانَ الغلامُ مطيعاً محبّاً لمولاهُ . . فلا يجدُ بداً مِنْ أنْ يغضبَ مهما رأىٰ ولدَهُ قدْ أساءَ الأدبَ وإنَّما يغضبُ عليهِ لمولاهُ ؛ لأنَّهُ أمرَهُ بهِ ، ولأنَّهُ يريدُ التقرُّبَ بامتثالِ أمرِهِ إليهِ ، ولأنَّهُ جرىٰ مِنْ ولدِهِ ما يكرهُ مولاهُ ؛ فيضربُ ولدَهُ ويغضبُ عليهِ مِنْ غيرِ تكبُّرٍ عليهِ ، بلْ هوَ متواضعٌ لهُ ، يرىٰ قدرَهُ عندَ مولاهُ فوقَ قدْرِ نفسِهِ ؛ لأنَّ الولدَ أعزُّ لا محالةَ مِنَ الغلامِ .

❀ ❀ ❀

فإذاً ؛ ليسَ مِنْ ضرورةِ الغضبِ التكبُّرُ وعدمُ التواضعِ ، فكذلكَ يمكنُكَ أنْ تنظرَ إلى المبتدعِ والفاسقِ ، وتظنَّ أنَّهُ ربَّما كانَ قدرُهُما عندَ اللهِ أعظمَ في الآخرةِ ؛ لما سبقَ لهُما مِنَ الحسنىٰ في الأزلِ ، ولما سبقَ لكَ مِنْ سوءِ القضاءِ في الأزلِ ، وأنتَ غافلٌ عنهُ ، ومعَ ذلكَ فتغضبُ بحكمِ الأمرِ محبةً لمولاكَ ؛ إذْ جرىٰ ما يكرهُهُ ، معَ التواضعِ لمَنْ يجوزُ أنْ يكونَ عندَهُ أقربَ منكَ في الآخرةِ .

فهكذا يكونُ بغضُ العلماءِ الأكياسِ ، فينضمُّ إليهِ الخوفُ والتواضعُ ، وأمَّا المغرورُ . . فإنَّهُ يتكبَّرُ ، ويرجو لنفسِهِ أكثرَ ممَّا يرجوهُ لغيرِهِ معَ جهلِهِ بالعاقبةِ ، وذلكَ غايةُ الغرورِ .

فهٰذا سبيلُ التواضعِ لمَنْ عصى اللهَ تعالىٰ أوِ اعتقدَ البدعةَ معَ الغضبِ عليهِ ومجانبتِهِ بحكمِ الأمرِ .

❀ ❀ ❀

السبَبُ السابعُ : التكبرُ بالورعِ والعبادةِ :

وذلكَ أيضاً فتنةٌ عظيمةٌ على العبادِ ، وسبيلُهُ : أنْ يلزمَ قلبَهُ التواضعَ لسائرِ العبادِ ، وهوَ أنْ يعلمَ أنَّ مَنْ يتقدَّمُ عليهِ بالعلمِ لا ينبغي أنْ يتكبَّرَ عليهِ كيفَما كانَ ؛ لما عرفَهُ مِنْ فضيلةِ العلمِ ، وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « فضلُ العالمِ على العابدِ

كفضلي علىٰ أدنىٰ رجلٍ مِنْ أصحابي »[1] ، إلىٰ غيرِ ذلكَ ممَّا وردَ في فضلِ العلمِ .

فإنْ قالَ العابدُ : ذلكَ لعالمٍ عاملٍ بعلمِهِ ، وهٰذا عالمٌ فاجرٌ . . فيُقالُ لهُ : أما علمتَ أنَّ الحسناتِ يذهبنَ السيئاتِ ، وكما أنَّ العلمَ يمكنُ أنْ يكونَ حجَّةً على العالمِ فكذلكَ يمكنُ أنْ يكونَ وسيلةً لهُ وكفارةً لذنوبِهِ ، وكلُّ واحدٍ منهُما ممكنٌ ، وقدْ وردَتِ الأخبارُ بما يشهدُ لذلكَ ، وإذا كانَ هٰذا أمراً غائباً عنهُ . . لمْ يجزْ لهُ أنْ يحتقرَ عالماً ، بلْ يجبُ عليهِ أن يتواضعَ لهُ .

❀ ❀ ❀

فإنْ قلتَ : فإنْ صحَّ هٰذا . . فينبغي أنْ يكونَ للعالمِ أنْ يرىٰ نفسَهُ فوقَ العابدِ ؛ لقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « فضلُ العالمِ على العابدِ كفضلي علىٰ أدنىٰ رجلٍ مِنْ أصحابي » .

فاعلم : أنَّ ذلكَ كانَ ممكناً لوْ علمَ العالمُ عاقبةَ أمرِهِ ، وخاتمةُ الأمرِ مشكوكٌ فيها ، فيحتملُ أنْ يموتَ بحيثُ يكونُ حالُهُ عندَ اللهِ أشدَّ مِنْ حالِ الجاهلِ الفاسقِ ؛ لذنبٍ واحدٍ كانَ يحسبُهُ هيناً وهوَ عندَ اللهِ عظيمٌ ، وقدْ مقتَهُ بهِ ، وإذا كانَ هٰذا ممكناً . . كانَ علىٰ نفسِهِ خائفاً .

❀ ❀ ❀

فإذاً ؛ كانَ كلُّ واحدٍ مِنَ العالمِ والعابدِ خائفاً علىٰ نفسِهِ ، وقدْ كُلِّفَ أمرَ

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٨٥) .

نفسِهِ لا أمرَ غيرِهِ ، فينبغي أنْ يكونَ الغالبُ عليهِ في حقِّ نفسِهِ الخوفَ ، وفي حقِّ غيرِهِ الرجاءَ ، وذلكَ يمنعُهُ مِنَ الكبْرِ بكلِّ حالٍ ، فهٰذا حالُ العابدِ معَ العالمِ .

فأمَّا معَ غيرِ العالمِ .. فهُمْ منقسمونَ في حقِّهِ إلىٰ مستورينَ وإلىٰ مكشوفينَ ، فينبغي ألاَّ يتكبَّرَ على المستورِ فلعلَّهُ أقلُّ منهُ ذنوباً ، وأكثرُ منهُ عبادةً ، وأشدُّ منهُ حبّاً للهِ تعالىٰ ، وأمَّا المكشوفُ حالُهُ إنْ لمْ يظهرْ لكَ مِنَ الذنوبِ إلا ما تزيدُ عليهِ ذنوبُكَ في طولِ عمرِكَ .. فلا ينبغي أنْ تتكبَّرَ عليهِ ، ولا يمكنُ أنْ تقولَ : هوَ أكثرُ منِّي ذنباً ؛ لأنَّ عددَ ذنوبِكَ وذنوبِ غيرِكَ في طولِ العمرِ لا تقدرُ علىٰ إحصائِها حتىٰ تعلمَ الكثرةَ .

نعمْ ، يمكنُ أنْ تعلمَ أنَّ ذنوبَهُ أشدُّ ؛ كما لو رأيتَ منهُ القتلَ والشربَ والزنا ، ومعَ ذلكَ فلا ينبغي أنْ تتكبَّرَ عليهِ ؛ إذْ ذنوبُ القلوبِ مِنَ الكبرِ ، والحسدِ ، والرياءِ ، والغلِّ ، واعتقادِ الباطلِ ، والوسوسةِ في صفاتِ اللهِ تعالىٰ ، وتخيُّلِ الخطأِ في ذلكَ .. كلُّ ذلكَ شديدٌ عندَ اللهِ ، فربَّما جرىٰ عليكَ في باطنِكَ مِنْ خفايا الذنوبِ ما صرتَ بهِ عندَ اللهِ ممقوتاً ، وقدْ جرىٰ للفاسقِ الظاهرِ الفسقِ مِنْ طاعاتِ القلوبِ ؛ مِنْ حبِّ للهِ ، وإخلاصٍ ، وخوفٍ ، وتعظيمِ ما أنتَ خالٍ عنهُ ، وقدْ كفَّرَ اللهُ بذلكَ عنهُ سيئاتِهِ ، فينكشفُ الغطاءُ يومَ القيامةِ ، فتراهُ فوقَ نَفسِكَ بدرجاتٍ ، فهٰذا ممكنٌ ، والإمكانُ البعيدُ فيما عليكَ ينبغي أنْ يكونَ قريباً عندَكَ إنْ كنتَ مشفقاً علىٰ نفسِكَ ، فلا تتفكرْ فيما هوَ ممكنٌ لغيرِكَ ، بلْ فيما هوَ مَخُوفٌ في حقِّكَ ؛

فإنَّهُ لا تزرُ وازرةٌ وزرَ أخرىٰ ، وعذابُ غيرِكَ لا يخفِّفُ شيئاً مِنْ عذابِكَ .

فإذا تفكرتَ في هٰذا الخطرِ . . كانَ عندَكَ شغلٌ شاغلٌ عنِ التكبُّرِ ، وعنْ أنْ ترىٰ نفسَكَ فوقَ غيرِكَ ، وقدْ قالَ وهبُ بنُ منبِّهٍ : (ما تمَّ عقلُ عبدٍ حتَّىٰ يكونَ فيهِ عشرُ خصالٍ ، فعدَّ تسعةً حتَّىٰ بلغَ العاشرةَ ، فقالَ : العاشرةُ وما العاشرةُ ؟ بها سادَ مجدُهُ وعلا ذكرُهُ ؛ أنْ يرى الناسَ كلَّهُمْ خيراً منهُ ، وإنَّما الناسُ عندَهُ فرقتانِ ؛ فرقةٌ هيَ أفضلُ منهُ وأرفعُ ، وفرقةٌ هيَ شرٌّ منهُ وأدنىٰ ، فهوَ يتواضعُ للفرقتينِ جميعاً بقلبِهِ ، فإنْ رأىٰ مَنْ هوَ خيرٌ منهُ . . سرَّهُ ذلكَ ، وتمنَّىٰ أنْ يلحقَ بهِ ، وإنْ رأىٰ مَنْ هوَ شرٌّ منهُ . . قالَ : لعلَّ هٰذا ينجو وأهلِكُ أنا ، فلا تراهُ إلا خائفاً مِنَ العاقبةِ ، ويقولُ : لعلَّ بِرَّ هٰذا باطنٌ فذلكَ خيرٌ لهُ ، ولا أدري ، ولعلَّ فيهِ خُلُقاً كريماً بينَهُ وبينَ اللهِ فيرحمَهُ اللهُ ويتوبَ عليهِ ويختمَ لهُ بأحسنِ الأعمالِ ، وبرِّي ظاهرٌ فذلكَ شرٌّ لي ، فلا يأمنُ فيما أظهرَهُ مِنَ الطاعةِ أنْ يكونَ دَخَلَها الآفاتُ فأحبطَتْها ، ثمَّ قالَ : فحينَئذٍ كملَ عقلُهُ ، وسادَ أهلَ زمانِهِ)(١) ، فهٰذا كلامُهُ .

وبالجملةِ : فمَنْ جُوِّزَ أنْ يكونَ عندَ اللهِ شقياً وقدْ سبقَ القضاءُ الأزليُّ بشقوتِهِ . . فما لهُ سبيلٌ أنْ يتكبَّرَ بحالٍ مِنَ الأحوالِ .

نعمْ ، إذا غلبَ عليهِ الخوفُ . . رأىٰ كلَّ أحدٍ خيراً مِنْ نفسِهِ ، وذلكَ هوَ

---

(١) أورده المحاسبي في « الرعاية » (ص٤٢١) ، ورواه عنه ابن أبي الدنيا في « مداراة الناس » (٣٧) في ذكر الخصال المتبقية .

الفضيلةُ ؛ كما رُوِيَ أنَّ عابداً أوىٰ إلىٰ جبلٍ ، فقيلَ لهُ في النومِ : ائتِ فلاناً الإسكافَ فسلْهُ أنْ يدعوَ لكَ ، فأتاهُ فسألَهُ عنْ عملِهِ ، فأخبرَهُ أنَّهُ يصومُ النهارَ ويكتسِبُ فيتصدَّقُ ببعضِهِ ، ويطعمُ عيالَهُ بعضَهُ ، فرجعَ وهوَ يقولُ : إنَّ هـٰذا لحسنٌ ، ولكنْ ليسَ هـٰذا كالتفرُّغِ لطاعةِ اللهِ تعالىٰ ، فأُتيَ في النومِ ثانياً فقيلَ لهُ : ائتِ فلاناً الإسكافَ فقلْ لهُ : ما هـٰذا الصفارُ الذي بوجهِكَ ، فأتاهُ فسألهُ ، فقالَ لهُ : ما رأيتُ أحداً مِنَ الناسِ إلا وقعَ لي أنَّهُ سينجو وأهلِكُ أنا ، فقالَ العابدُ : بهـٰذهِ[1] .

والذي يدلُّ علىٰ فضيلةِ هـٰذهِ الخصلةِ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ أيْ : يُؤتونَ الطاعاتِ وهمْ علىٰ وَجَلٍ عظيمٍ مِنْ قبولِها .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾ .

وقدْ وصفَ اللهُ تعالى الملائكةَ عليهمُ السلامُ معَ تقدُّسِهِمْ عنِ الذنوبِ ومواظبتِهِمْ على العبادةِ على الدؤوبِ بالإشفاقِ ، فقالَ تعالىٰ مخبراً عنهُمْ : ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ وقالَ : ﴿ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴾ .

فمتىٰ زالَ الإشفاقُ والحذرُ ممَّا سبقَ بهِ القضاءُ في الأزلِ ، وينكشفُ عندَ خاتمةِ الأجلِ . . غلبَ الأمنُ مِنْ مكرِ اللهِ ، وذلكَ يوجبُ الكبْرَ ، وهوَ سببُ

---

(١) أورده المحاسبي في « الرعاية » (ص٤٢٢) .

الهلاكِ ، فالكبْرُ دليلُ الأمنِ ، والأمنُ مُهلكٌ ، والتواضعُ دليلُ الخوفِ ، وهو مسعدٌ .

فإذاً ؛ ما يفسدُهُ العابدُ بإضمارِ الكبْرِ ، واحتقارِ الخلقِ ، والنظرِ إليهِمْ بعينِ الاستصغارِ . . أكثرُ ممَّا يصلحُهُ بظاهرِ الأعمالِ .

❀ ❀ ❀

فهٰذهِ معارفُ بها يُزالُ داءُ الكبْرِ عنِ القلبِ لا غيرُ ، إلا أنَّ النفسَ بعدَ هٰذهِ المعرفةِ قدْ تضمرُ التواضعَ وتدَّعي البراءةَ مِنَ الكبرِ وهيَ كاذبةٌ ، فإذا وقعَتِ الواقعةُ . . عادَتْ إلىٰ طبعِها ، ونسيَتْ وعدَها ، فعَنْ هٰذا ؛ لا ينبغي أنْ يكتفيَ في المداواةِ بمجردِ المعرفةِ ، بلْ ينبغي أنْ تُكمَّلَ بالعملِ ، وتُجرَّبَ بأفعالِ المتواضعينَ في مواقعِ هيجانِ الكبْرِ مِنَ النفسِ .

وبيانُهُ : أنْ يمتحنَ النفسَ بخمسِ امتحاناتٍ هيَ أدلةٌ على استخراجِ ما في الباطنِ وإنْ كانتِ الامتحاناتُ كثيرةً .

الامتحانُ الأولُ : أنْ يناظرَ في مسألةٍ معَ واحدٍ مِنْ أقرانِهِ ، فإنْ ظهرَ شيءٌ مِنَ الحقِّ علىٰ لسانِ صاحبِهِ ، فثقُلَ عليهِ قبولُهُ ، والانقيادُ لهُ ، والاعترافُ بهِ ، والشكرُ لهُ علىٰ تنبيهِهِ وتعريفِهِ وإخراجِهِ الحقَّ . . فذلكَ يدلُّ علىٰ أنَّ فيهِ كبراً دفيناً ، فليتَّقِ اللهَ فيهِ ، وليشتغلْ بعلاجِهِ .

أمَّا مِنْ حيثُ العلمُ . . فبأنْ يذكِّرَ نفسَهُ خسَّةَ نفسِهِ ، وخطرَ عاقبتِهِ ، وأنَّ الكبْرَ لا يليقُ إلا باللهِ تعالىٰ .

وأمَّا العملُ . . فبأنْ يكلِّفَ نفسَهُ ما ثَقُلَ عليهِ مِنَ الاعترافِ بالحقِّ ، وأنْ يطلقَ اللسانَ بالحمدِ والثناءِ ، ويقرُّ علىٰ نفسِهِ بالعجزِ ، ويشكرُهُ على الاستفادةِ ، ويقولُ : ما أحسنَ ما فطنتَ لهُ وقدْ كنتُ غافلاً عنهُ ، فجزاكَ اللهُ خيراً كما نبَّهتَني لهُ ، فالحكمةُ ضالَّةُ المؤمنِ ؛ فإذا وجدَها . . ينبغي أنْ يشكرَ مَنْ دلَّهُ عليها ، فإذا واظبَ علىٰ ذلكَ مرَّاتٍ متواليةً . . صارَ ذلكَ لهُ طبعاً ، وسقطَ ثقَلُ الحقِّ عنْ قلبِهِ ، وطابَ لهُ قبولُهُ .

ومهما ثقُلَ عليهِ الثناءُ علىٰ أقرانِهِ بما فيهِمْ . . ففيهِ كبرٌ ، فإنْ كانَ ذلكَ لا يثقلُ عليهِ في الخلوةِ ، ويثقلُ عليهِ في الملأِ . . فليسَ فيهِ كبرٌ ، وإنَّما فيهِ رياءٌ ، فليعالجِ الرياءَ بما ذكرناهُ مِنْ قطعِ الطمعِ عنِ الناسِ ، ويذكِّرِ القلبَ بأنَّ منفعتَهُ في كمالِهِ في ذاتِهِ ، وعندَ اللهِ لا عندَ الخلقِ ، إلىٰ غيرِ ذلكَ مِنْ أدويةِ الرياءِ ، وإنْ ثقُلَ عليهِ في الخلوةِ والملأِ جميعاً . . ففيهِ الكبرُ والرياءُ جميعاً ، ولا ينفعُهُ الخلاصُ مِنْ أحدِهِما ما لمْ يتخلَّصْ مِنَ الثاني ، فليعالجْ كلا الداءينِ ؛ فإنَّهما جميعاً مهلكانِ .

❊ ❊ ❊

الامتحانُ الثاني : أنْ يجتمعَ معَ الأقرانِ والأمثالِ في المحافلِ ويقدِّمَهُمْ علىٰ نفسِهِ ، ويمشيَ خلفَهُمْ ، ويجلسَ في الصدورِ تحتَهُمْ ، فإنْ ثقُلَ ذلكَ عليهِ . . فهوَ متكبِّرٌ ، فليواظبْ عليهِ تكلُّفاً حتَّىٰ يسقطَ عنهُ ثقلُهُ ، فبذلكَ يزايلُهُ الكبرُ .

وهٰهنا للشيطانِ مكيدةٌ ، وهوَ أنْ يجلسَ في صفِّ النعالِ ، أوْ يجعلَ بينَهُ وبينَ الأقرانِ بعضَ الأرذالِ ، فيظنُّ أنَّ ذلكَ تواضعٌ وهوَ عينُ الكبْرِ ؛ فإنَّ ذلكَ يخفُّ علىٰ نفوسِ المتكبرينَ ؛ إذْ يوهمونَ أنَّهُمْ تركوا مكانَهُمْ بالاستحقاقِ والتفضُّلِ ، فيكونُ قدْ تكبَّرَ ، وتكبَّرَ بإظهارِ التواضعِ أيضاً ، بلْ ينبغي أنْ يقدِّمَ أقرانَهُ ويجلسَ بجنبِهِمْ ، ولا ينحطُّ عنهُمْ إلىٰ صفِّ النعالِ ، فذلكَ هوَ الذي يُخرجُ خبثَ الكبْرِ مِنَ الباطنِ .

* * *

الامتحانُ الثالثُ : أنْ يجيبَ دعوةَ الفقيرِ ، ويمرَّ إلى السوقِ في حاجةِ الرفقاءِ والأقاربِ ، فإنْ ثقُلَ ذلكَ عليهِ . . فهوَ كبْرٌ ؛ فإنَّ هٰذهِ الأفعالَ مِنْ مكارمِ الأخلاقِ ، والثوابُ عليها جزيلٌ ، فنفورُ النفسِ عنها ليسَ إلا لخبثٍ في الباطنِ ، فليشتغلْ بإزالتِهِ بالمواظبةِ عليهِ ، معَ تذكُّرِ جميعِ ما ذكرناهُ مِنَ المعارفِ التي تزيلُ داءَ الكبرِ .

* * *

الامتحانُ الرابعُ : أنْ يحملَ حاجةَ نفسِهِ وحاجةَ أهلِهِ ورفقائِهِ مِنَ السوقِ إلى البيتِ ، فإنْ أبتْ نفسُهُ ذلكَ . . فهوَ كبْرٌ أوْ رياءٌ ، فإنْ كانَ يثقلُ ذلكَ عليهِ معَ خلوِّ الطريقِ . . فهوَ كبْرٌ ، وإنْ كانَ لا يثقُلُ عليهِ إلا عندَ مشاهدةِ الناسِ . . فهوَ رياءٌ .

وكلُّ ذلكَ مِنْ أمراضِ القلبِ وعللِهِ المهلكةِ لهُ إنْ لم تتداركْ ، وقدْ أهملَ

الناسُ طبَّ القلوبِ ، واشتغلوا بطبِّ الأجسادِ ، معَ أنَّ الأجسادَ قدْ كُتبَ عليها الموتُ لا محالةَ ، والقلوبُ لا تُدرَكُ السعادةُ إلا بسلامتِها ؛ إذْ قالَ تعالىٰ : ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ .

ويُروىٰ عنْ عبدِ اللهِ بنِ سلامٍ أنَّهُ حملَ حزمةَ حطبٍ ، فقيلَ لهُ : يا أبا يوسفَ ؛ قدْ كانَ في غلمانِكَ وبنيكَ ما يكفونَكَ ، قالَ : أجلْ ، ولكنْ أردتُ أنْ أجرِّبَ نفسي هلْ تنكرُ ذلكَ[1] .

فلمْ يقنعْ منها بما أعطتْهُ مِنَ العزمِ علىٰ تركِ الأنفةِ حتَّىٰ جرَّبَها أهيَ صادقةٌ أمْ كاذبةٌ .

وفي الخبرِ : « مَنْ حملَ الفاكهةَ أوِ الشيءَ .. فقدْ برىءَ مِنَ الكِبْرِ »[2] .

❀ ❀ ❀

الامتحانُ الخامسُ : أنْ يلبسَ ثياباً بذلةً ؛ فإنَّ نفورَ النفسِ عنْ ذلكَ في الملأِ رياءٌ ، وفي الخلوةِ كِبْرٌ .

وكانَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رضيَ اللهُ عنهُ لهُ مِسْحٌ يلبسُهُ بالليلِ[3] .

---

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (٣/٤١٦) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٩/١٣٣) ، ولفظه عند صاحب « الرعاية » (ص٤١٣) .

(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (٧٨٥٣) ، وفيه : « من حمل بضاعته » بدل « من حمل الفاكهة أو الشيء » ، ورواه أبو نعيم في « تاريخ أصبهان » (١/٢٠٢) بلفظ : « من حمل سلعته ... » .

(٣) **المِسْح** : كساء من صوف أسود . « إتحاف » (٨/٤٠٥) .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنِ اعتقلَ البعيرَ ولبسَ الصوفَ . . فقدْ بريءَ مِنَ الكبرِ »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّما أنا عبدٌ آكلُ بالأرضِ وألبسُ الصوفَ وأعقِلُ البعيرَ ، وألعقُ أصابعي ، وأجيبُ دعوةَ المملوكِ ، فمَنْ رغبَ عنْ سنَّتي . . فليسَ منِّي »[2] .

ورُوِيَ أنَّ أبا موسى الأشعريَّ قيلَ لهُ : إنَّ أقواماً يتخلَّفونَ عنِ الجمعةِ بسببِ ثيابِهِمْ ، فلبسَ عباءةً فصلَّىٰ فيها بالناسِ .

وهٰذهِ مواضعُ يجتمعُ فيها الرياءُ والكبرُ ، فما يختصُّ بالملأِ . . فهوَ الرياءُ ، وما يكونُ في الخلوةِ . . فهوَ الكبرُ ، فليُعرفْ ، فإنَّ مَنْ لا يعرفُ الشرَّ لا يتقيهِ ، ومَنْ لا يدركُ المرضَ لا يداويهِ .

* * *

---

(١) كذا في « الرعاية » (ص٤١٢) ، وفيه : « من اعتقل العنز . . . » ، ورواه أبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٢/ ٦٥٠) من حديث جحدم وكانت له صحبة : « من حلب شاته ، ورقع قميصه ، وخصف نعله ، وواكل خادمه ، وحمل من سوقه . . فقد بريء من الكبر » .

(٢) كذا في « الرعاية » (ص٤١٢) ، وهٰذا الحديث مشتمل علىٰ عدة أحاديث تقدم بعض منها ، وانظر « الإتحاف » (٨/ ٤٠٥ـ٤٠٦) .

بيان غاية الرياضة في خلق التواضع

اعلمْ : أنَّ هـٰذا الخلُقَ كسائرِ الأخلاقِ ، لهُ طرفانِ وواسطةٌ ، فطرفُهُ الذي يميلُ إلى الزيادةِ يُسمَّىٰ **تكبُّراً** ، وطرفُهُ الذي يميلُ إلى النقصانِ يُسمَّىٰ **تخاسساً ومذلةً**[1] ، والوسطُ يُسمَّىٰ **تواضعاً** .

والمحمودُ أنْ يتواضعَ في غيرِ مذلَّةٍ ومِنْ غيرِ تخاسسٍ ؛ فإنَّ كلا طرفي قصدِ الأمورِ ذميمٌ ، وأحبُّ الأمورِ إلى اللهِ تعالىٰ أوساطُها .

فمَنْ يتقدَّمُ علىٰ أمثالِهِ . . فهوَ متكبِّرٌ ، ومَنْ يتأخَّرُ عنهُمْ . . فهو متواضعٌ ، أيْ : وضعَ شيئاً مِنْ قدْرِهِ الذي يستحقُّهُ ، والعالمُ إذا دخلَ عليهِ إسكافٌ فتنحَّىٰ لهُ عنْ مجلسِهِ وأجلسَهُ فيهِ ، ثمَّ تقدَّمَ وسوَّىٰ لهُ نعلَهُ وغدا إلىٰ بابِ الدارِ خلفَهُ . . فقدْ تخاسسَ وتذلَّلَ ، وهـٰذا أيضاً غيرُ محمودٍ ، بلِ المحمودُ عندَ اللهِ تعالى العدلُ ، وهوَ أنْ يعطيَ كلَّ ذي حقٍّ حقَّهُ ، فينبغي أن يتواضعَ بمثلِ هـٰذا لأمثالِهِ ، ولمَنْ تقربُ منهُ درجتُهُ ، فأمَّا تواضعُهُ للسوقيِّ . . فبالقيامِ ، والبشرِ في الكلامِ ، والرفقِ في السؤالِ ، وإجابةِ دعوتِهِ ، والسعيِ في حاجتِهِ ، وأمثالِ ذلكَ ، وألاَّ يرىٰ نفسَهُ خيراً منهُ ، بلْ يكونُ علىٰ نفسِهِ أخوفَ منهُ علىٰ غيرِهِ ؛ فلا يحقرُهُ ولا يستصغرُهُ وهوَ لا يعرفُ خاتمةَ أمرِهِ وخاتمتَهُ .

---

(١) قوله : **تخاسساً** : هو تفاعل من الخسة ، وهـٰذا هو التفريط ، والتكبر هو الإفراط . « إتحاف » (٨/٤٠٦) .

فإذاً ؛ سبيلُهُ في اكتسابِ التواضعِ : أنْ يتواضعَ للأقرانِ ولمَنْ دونَهُمْ ، حتَّىٰ يخفَّ عليهِ التواضعُ المحمودُ في محاسنِ العاداتِ ؛ ليزولَ بهِ الكبْرُ عنهُ .

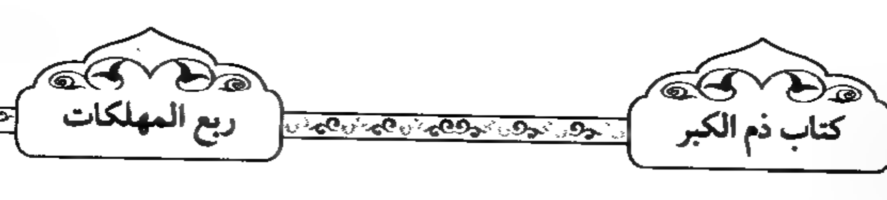
فإنْ خفَّ عليهِ ذلكَ . . فقدْ حصلَ لهُ خُلُقُ التواضعِ ، وإنْ كانَ يثقلُ عليهِ وهوَ يفعلُ ذلكَ . . فهوَ متكلِّفٌ لا متواضعٌ ، بلِ الخلقُ ما يصدرُ عنهُ الفعلُ بسهولةٍ مِنْ غيرِ ثقلٍ ومِنْ غيرِ رويَّةٍ .

فإنْ خفَّ ذلكَ وصارَ بحيثُ يثقلُ عليهِ رعايةُ قدْرِهِ حتَّىٰ أحبَّ التملُّقَ والتخاسُسَ . . فقدْ خرجَ إلىٰ طرفِ النقصانِ ، فليرفَعْ نفسَهُ ؛ إذْ ليسَ للمؤمنِ أنْ يذلَّ نفسَهُ ، إلىٰ أنْ يعودَ إلى الوسطِ الذي هوَ الصراطُ المستقيمُ ، وذلكَ غامضٌ في هٰذا الخُلُقِ وفي سائرِ الأخلاقِ ، والميلُ عنِ الوسطِ إلىٰ طرفِ النقصانِ وهوَ التملُّقُ أهونُ مِنَ الميلِ إلىٰ طرفِ الزيادةِ وهوَ الكبْرُ ؛ كما أنَّ الميلَ إلىٰ طرفِ التبذيرِ في المالِ أحمدُ عندَ الناسِ مِنَ الميلِ إلىٰ طرفِ البخلِ ، فنهايةُ التبذيرِ ونهايةُ البخلِ مذمومانِ ، وأحدُهُما أفحشُ ، وكذلكَ نهايةُ التكبُّرِ ونهايةُ التبَصْبُصِ والتذلُّلِ مذمومانِ[1] ، وأحدُهُما أقبحُ مِنَ الآخرِ ، والمحمودُ المطلقُ هوَ العدلُ ، ووضعُ الأمورِ مواضعَها كما يجبُ ، وعلىٰ ما يجبُ ، علىٰ ما يُعرفُ ذلكَ بالشرعِ والعادةِ ، ولنقتصرْ علىٰ هٰذا القدْرِ مِنْ بيانِ أخلاقِ الكبْرِ والتواضعِ .

* * *

---

(١) التبصبص : التملُّق .



الشَّطرُ الثَّاني مِنَ الكِتَاب
في العُجب

وفيهِ بيانُ ذمِّ العجْبِ وآفتِهِ ، وبيانُ حقيقةِ العجْبِ والإدلالِ وحدِّهما ، وبيانُ علاجِ العجْبِ على الجملةِ ، وبيانُ أقسامِ ما بهِ العجْبُ ، وتفصيلُ علاجِهِ .

بيان ذمّ العُجب وآفته

اعلمْ : أنَّ العجبَ مذمومٌ في كتابِ اللهِ تعالىٰ وسنةِ رسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا ﴾ ، ذكرَ ذلكَ في معرِضِ الإنكارِ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ ﴾ ، فردَّ على الكفارِ في إعجابِهِمْ بحصونِهِمْ وشوكتِهِمْ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ ، وهـٰذا أيضاً يرجعُ إلى العجْبِ بالعملِ ، وقدْ يعجبُ الإنسانُ بعملٍ هوَ مخطىءٌ فيهِ ؛ كما يعجبُ بعملٍ هوَ فيهِ مصيبٌ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ثلاثٌ مهلكاتٌ : شحٌّ مطاعٌ ، وهوىً متَّبعٌ ، وإعجابُ المرءِ بنفسِهِ »[1] .

وقالَ لأبي ثعلبةَ حيثُ ذكرَ آخِرَ هـٰذهِ الأمةِ فقالَ : « إذا رأيتَ شحّاً مطاعاً ، وهوىً متبعاً ، وإعجابَ كلِّ ذي رأيٍ برأيِهِ . . فعليكَ نفسَكَ »[2] .

وقالَ ابنُ مسعودٍ : (الهلاكُ في اثنتينِ : القنوطِ ، والعجبِ)[3] ، وإنَّما جمعَ بينَهُما لأنَّ السعادةَ لا تُنالُ إلا بالسعيِ والطلبِ والجدِّ والتشميرِ ، والقانطُ لا يسعىٰ ولا يطلبُ ، والمعجبُ يعتقدُ أنَّهُ قدْ سُعِدَ ، وقدْ ظفرَ بمرادِهِ ؛ فلا يسعىٰ ، فالموجودُ لا يُطلبُ ، والمحالُ لا يُطلبُ ، والسعادةُ موجودةٌ في اعتقادِ المعجَبِ حاصلةٌ لهُ ، ومستحيلةٌ في اعتقادِ القانطِ ، فمِنْ هنا جمعَ بينَهُما .

وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ ، قالَ ابنُ جُريجٍ : معناهُ : إذا عملتَ خيراً . . فلا تقلْ : عملتُ ، وقالَ زيدُ بنُ أسلمَ : لا تبرِّوها ؛ أيْ : لا تعتقدوا أنَّها بارَّةٌ ، وهوَ معنى العجْبِ[4] .

---

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (٥٤٤٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/٣٤٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٣١) .
(٢) رواه أبو داوود (٤٣٤١) ، والترمذي (٣٠٥٨) ، وابن ماجه (٤٠١٤) .
(٣) أورده المحاسبي في « الرعاية » (ص ٣٣٦) ، والسياق عنده .
(٤) كذا في « الرعاية » (ص ٣٣٧) ، وقول زيد رواه الطبري في « تفسيره » (١٣/٢٧/٨٧) .

ووقىٰ طلحةُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يومَ أحدٍ بنفسِهِ ، فأكبَّ عليهِ حتَّىٰ أُصيبَتْ كفُّهُ[(١)] ، فكأنَّهُ أعجبَهُ فعلُهُ العظيمُ ؛ إذْ فداهُ بروحِهِ حتَّىٰ جُرِحَ ، فتفرَّسَ فيهِ ذلكَ عمرُ ، فقالَ : ما زالَ يُعرفُ في طلحةَ بأْوٌ منذُ أُصيبَتْ إصبعُهُ معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[(٢)] .

والبأْوُ هوَ العجْبُ في اللغةِ ، إلا أنَّهُ لمْ يُنقلْ فيهِ أنَّهُ أظهرَهُ واحتقرَ مسلماً ، ولمَّا كانَ وقتُ الشورىٰ . . قالَ لهُ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُ : أينَ أنتَ مِنْ طلحةَ ، قالَ : ذلكَ رجلٌ فيهِ نخوةٌ[(٣)] .

فإذا كانَ لا يتخلَّصُ مِنَ العجبِ أمثالُهُمْ . . فكيفَ يتخلَّصُ الضعفاءُ إنْ لمْ يأخذوا حذرَهُمْ ؟!

وقالَ مطرفٌ : (لأَنْ أبيتَ نائماً وأصبحَ نادماً . . أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ أبيتَ قائماً وأصبحَ معجباً)[(٤)] .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لوْ لمْ تذنبوا . . لخشيتُ عليكُمْ ما هوَ أكبرُ مِنْ ذلكَ ؛ العجبَ العجبَ »[(٥)] ، فجعلَ العجْبَ أكبرَ مِنَ الذنوبِ .

---

(١) رواه البخاري (٣٧٢٤) ، وقد شَلَّت يده بهٰذا رضي الله عنه .
(٢) رواه البلاذري في « أنساب الأشراف » (١٠/ ٣٤٤) .
(٣) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٤/ ٤٣٨) بنحوه .
(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٢٠٠) .
(٥) رواه البزار في « مسنده » (٦٩٣٦) ، والخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (٥٩٤) .

وكانَ بشرُ بنُ منصورٍ مِنَ الذينَ إذا رُؤوا.. ذُكرَ اللهُ تعالىٰ والدارُ الآخرةُ ؛ لمواظبتِهِ على العبادةِ ، فأطالَ الصلاةَ يوماً ورجلٌ خلفَهُ ينظرُ إليهِ ، ففطنَ لهُ بشرٌ ، فلمَّا انصرفَ مِنَ الصلاةِ.. قالَ لهُ : لا يعجبَنَّكَ ما رأيتَ منِّي ؛ فإنَّ إبليسَ لعنَهُ اللهُ قدْ عبدَ اللهَ تعالىٰ معَ الملائكةِ مدَّةً طويلةً ، ثمَّ صارَ إلىٰ ما صارَ إليهِ[1] .

وقيلَ لعائشةَ رضيَ اللهُ عنها : متَىٰ يكونُ الرجلُ مسيئاً ؟ قالَتْ : إذا ظنَّ أنَّهُ محسنٌ[2] .

وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾ ، والمنُّ نتيجةُ استعظامِ الصدقةِ ، واستعظامُ العملِ هوَ العجبُ ، فظهرَ بهٰذا أنَّ العجبَ مذمومٌ جدّاً .

* * *

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٢٤١) .
(٢) أورده المحاسبي في « الرعاية » (ص ٣٣٧) .

بيان آفة العُجب

اعلمْ : أنَّ آفاتِ العجبِ كثيرةٌ ، فإنَّ العجْبَ يدعو إلى الكبْرِ ؛ لأنَّهُ أحدُ أسبابِهِ كما ذكرناهُ ، فيتولَّدُ مِنَ العجبِ الكبْرُ ، ومِنَ الكبرِ الآفاتُ الكثيرةُ التي لا تخفىٰ ، هـٰذا معَ العبادِ .

وأمَّا معَ اللهِ تعالىٰ . . فالعجبُ يدعو إلىٰ نسيانِ الذنوبِ وإهمالِها ، فبعضُ ذنوبِهِ لا يذكرُها ولا يتفقدُها ؛ لظَنِّهِ أنَّهُ مستغنٍ عنْ تفقُّدِها ، فينساها ، وما يتذكَّرُهُ منها فيستصغرُهُ ولا يستعظمُهُ ؛ فلا يجتهدُ في تداركِهِ وتلافيهِ ، بلْ يظنُّ أنَّهُ يُغفرُ لهُ ، وأمَّا العباداتُ والأعمالُ . . فإنَّهُ يستعظمُها ، ويتبجَّحُ بها ويمنُّ على اللهِ تعالىٰ بفعلِها ، وينسىٰ نعمةَ اللهِ تعالىٰ عليهِ بالتوفيقِ والتمكينِ منها ، ثمَّ إذا أُعجبَ بها . . عميَ عنْ آفاتِها ، ومَنْ لمْ يتفقَّدْ آفاتِ الأعمالِ . . كانَ أكثرُ سعيهِ ضائعاً ؛ فإنَّ الأعمالَ الظاهرةَ إذا لمْ تكنْ خالصةً نقيَّةً عنِ الشوائبِ . . قلمَّا تنفعُ ، وإنَّما يتفقَّدُ مَنْ يغلبُ عليهِ الإشفاقُ والخوفُ دونَ العجْبِ .

والمعجبُ يغترُّ بنفسِهِ وبربِّهِ عزَّ وجلَّ ، ويأمنُ مكرَ اللهِ تعالىٰ وعذابَهُ ، ويظنُّ أنَّهُ عندَ اللهِ بمكانٍ ، وأنَّ لهُ عندَ اللهِ منّةً وحقّاً بأعمالِهِ التي هيَ نعمةٌ مِنْ نعمِهِ ، وعطيَّةٌ مِنْ عطاياهُ ، ويخرجُهُ العجبُ إلىٰ أنْ يثنيَ علىٰ نفسِهِ ويحمدَها ويزكيَها ، وإنْ أُعجبَ برأيِهِ وعقلِهِ وعلمِهِ . . منعَ ذلكَ مِنَ الاستفادةِ ، ومِنَ الاستشارةِ والسؤالِ ؛ فيستبدُّ بنفسِهِ ورأيِهِ ويستنكفُ مِنْ

سؤالِ مَنْ هوَ أعلمُ منهُ ، وربَّما يعجبُ بالرأيِ الخطأِ الذي خطرَ لهُ ، فيفرحُ بكونِهِ مِنْ خواطرِهِ ، ولا يفرحُ بخاطرِ غيرِهِ ، فيصرُّ عليهِ ، ولا يسمعُ نصحَ ناصحٍ ، ولا وعظَ واعظٍ ، بلْ ينظرُ إلىٰ غيرِهِ بعينِ الاستجهالِ ، ويصرُّ علىٰ خطئِهِ ، فإنْ كانَ رأيُهُ في أمرٍ دنيويٍّ . . فيخفقُ فيهِ ، وإنْ كانَ في أمرٍ دينيٍّ لا سيما فيما يتعلَّقُ بأصولِ العقائدِ . . فيهلكُ بهِ ، ولوِ اتَّهمَ نفسَهُ ، ولمْ يثقْ برأيِهِ ، واستضاءَ بنورِ القرآنِ ، واستعانَ بعلماءِ الدينِ ، وواظبَ علىٰ مدارسةِ العلمِ ، وتابعَ سؤالَ أهلِ البصيرةِ . . لكانَ ذلكَ يوصلُهُ إلى الحقِّ .

فهٰذا وأمثالُهُ مِنْ آفاتِ العُجبِ ؛ فلذلكَ كانَ مِنَ المهلكاتِ ، ومِنْ أعظمِ آفاتِهِ أنْ يفترَ في السَّعيِ لظنِّهِ أنَّهُ قدْ فازَ وأنَّهُ قدِ استغنىٰ ، وهوَ الهلاكُ الصريحُ الذي لا شبهةَ فيهِ ، نسألُ اللهَ تعالىٰ العظيمَ حسنَ التوفيقِ لطاعتِهِ .

* * *

بيان حقيقة العُجب والإدلال وحدّهما

اعلمْ : أنَّ العجبَ إنَّما يكونُ بوصفٍ هوَ كمالٌ لا محالةَ ، وللعالِمِ بكمالِ نفسِهِ في علمٍ وعملٍ ومالٍ وغيرِهِ حالتانِ :

إحداهُما : أنْ يكونَ خائفاً علىٰ زوالِهِ ، مشفقاً علىٰ تكدُّرِهِ أوْ سلبِهِ مِنْ أصلِهِ ؛ فهـٰذا ليسَ بمعجبٍ .

والأخرىٰ : ألاَّ يكونَ خائفاً مِنْ زوالِهِ ، لكنْ يكونُ فرحاً بهِ مِنْ حيثُ إنَّهُ نعمةٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ عليهِ ، لا مِنْ حيثُ إضافتُهُ إلىٰ نفسِهِ ، وهـٰذا أيضاً ليسَ بمعجبٍ .

ولهُ حالةٌ ثالثةٌ : هيَ العجبُ ، وهيَ أنْ يكونَ غيرَ خائفٍ عليهِ ، بلْ يكونُ فرِحاً بهِ مطمئناً إليهِ ، ويكونُ فرحُهُ بهِ مِنْ حيثُ إنَّهُ كمالٌ ونعمةٌ ورفعةٌ وخيرٌ ، لا مِنْ حيثُ إنَّهُ عطيَّةٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ ونعمةٌ منهُ ، فيكونُ فرحُهُ بهِ مِنْ حيثُ إنَّهُ صفتُهُ ، ومنسوبٌ إليهِ بأنَّهُ لهُ ، لا مِنْ حيثُ إنَّهُ منسوبٌ إلى اللهِ تعالىٰ بأنَّهُ منهُ ، فمهما غلبَ علىٰ قلبِهِ أنَّهُ نعمةٌ مِنَ اللهِ ، مهما شاءَ سلبَها عنهُ . . زالَ العجبُ بذلكَ عنْ نفسِهِ .

فإذاً ؛ العجبُ : هوَ استعظامُ النعمةِ والركونُ إليها معَ نسيانِ إضافتِها إلى المنعمِ .

فإنِ انضافَ إلىٰ ذلكَ أنْ غلبَ علىٰ نفسِهِ أنَّ لهُ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ حقّاً ، وأنَّهُ منهُ بمكانٍ ، حتَّىٰ توقَّعَ بعملِهِ كرامةً في الدنيا ، واستبعدَ أنْ يجريَ عليهِ

مكروهٌ استبعاداً يزيدُ على استبعادِهِ ما يجري على الفُسَّاقِ . . سُمِّيَ هـٰذا **إدلالاً بالعملِ** ، فكأنَّهُ يرىٰ لنفسِهِ على اللهِ عزَّ وجلَّ دالَّةً .

وكذلكَ قدْ يُعطي غيرَهُ شيئاً فيستعظمُهُ ويمنُّ عليهِ فيكونُ معجباً ، فإنِ استخدمَهُ أوِ اقترحَ عليهِ الاقتراحاتِ ، أوِ استبعدَ تخلُّفَهُ عنْ قضاءِ حقوقِهِ . . كان مُدِلاً عليهِ .

قالَ قتادةُ في قولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ أيْ : لا تدلَّ بعملِكَ[1] .

وفي الخبرِ : (إنَّ صلاةَ المدلِّ لا تُرفَعُ فوقَ رأسِهِ ، ولأَنْ تضحَكَ وأنتَ معترفٌ بذنبِكَ . . خيرٌ مِنْ أنْ تبكيَ وأنتَ مُدِلٌّ بعملِكَ)[2] .

والإدلالُ وراءَ العجْبِ ، فلا مُدِلَّ إلا وهوَ معجبٌ ، وربَّ معجبٍ لا يدِلُّ ؛ إذِ العجبُ يحصلُ بالاستعظامِ ونسيانِ النعمةِ ، دونَ توقُّعِ جزاءٍ عليهِ ، والإدلالُ لا يتمُّ إلا معَ توقُّعِ جزاءٍ ، فإنْ توقَّعَ إجابةَ دعوتِهِ واستنكرَ ردَّها بباطنِهِ وتعجَّبَ منهُ . . كانَ مدلاً بعملِهِ ؛ فإنَّهُ لا يتعجَّبُ مِنْ ردِّ دعاءِ الفاسقِ ، ويتعجَّبُ مِنْ ردِّ دعاءِ نفسِهِ لذلكَ ، فهـٰذا هوَ العجْبُ والإدلالُ ، وهوَ مِنْ مقدِّماتِ الكبرِ وأسبابِهِ ، واللهُ تعالىٰ أعلمُ .

* * *

---

(١) الرعاية (ص ٣٤٦) .

(٢) أورده المحاسبي في « الرعاية » (ص ٣٤٦) عن أيوب وداوود عليهما السلام ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٥٦) عن سفيان عن راهب متعبد .

بيان علاج العُجب على الجملة

اعلمْ : أنَّ علاجَ كلِّ علَّةٍ هوَ مقابَلةُ سببِها بضدِّهِ ، وعلَّةُ العجْبِ الجهلُ المحضُ ، فعلاجُهُ المعرفةُ المضادَّةُ لذلكَ الجهلِ فقطْ .

فلنفرضِ العجْبَ بفعلٍ داخلٍ تحتَ اختيارِ العبدِ ؛ كالعبادةِ والصدقةِ والغزوِ وسياسةِ الخلْقِ وإصلاحِهِمْ ؛ فإنَّ العجْبَ بهٰذا أغلبُ مِنَ العجْبِ بالجمالِ والقوَّةِ والنسبِ وما لا يدخلُ تحتَ اختيارِهِ ولا يراهُ مِنْ نفسِهِ ، فنقولُ : الورعُ والتقوىٰ والعبادةُ والعملُ الذي بهِ يعجبُ إنَّما يعجبُ بهِ مِنْ حيثُ إنَّهُ فيهِ ، فهوَ محلُّهُ ومجراهُ ، أوْ مِنْ حيثُ إنَّهُ منهُ وبسببِهِ ، وبقدرتِهِ وقوَّتِهِ .

فإنْ كانَ يعجبُ بهِ مِنْ حيثُ إنَّهُ فيهِ وهوَ محلُّهُ ومجراهُ ، يجري فيهِ وعليهِ مِنْ جهةِ غيرِهِ . . فهٰذا جهلٌ ؛ لأنَّ المحلَّ مسخَّرٌ ومجرىً لا مدخلَ لهُ في الإيجادِ والتحصيلِ ، فكيفَ يعجبُ بما ليسَ إليهِ ؟!

وإنْ كانَ يعجبُ بهِ مِنْ حيثُ هوَ منهُ وإليهِ ، وباختيارِهِ حصلَ ، وبقدرتِهِ وقوتِهِ تمَّ . . فينبغي أنْ يتأمَّلَ في قدرتِهِ وإرادتِهِ وأعضائِهِ وسائرِ الأسبابِ التي بها يتمُّ عملُهُ أنَّها مِنْ أينَ كانَتْ لهُ ؟ فإنْ كانَ جميعُ ذلكَ نعمةً مِنَ اللهِ سبحانَهُ عليهِ مِنْ غيرِ حقٍّ سبقَ لهُ ، ومِنْ غيرِ وسيلةٍ يدلي بها . . فينبغي أنْ يكونَ إعجابُهُ بجودِ اللهِ تعالىٰ وكرمِهِ وفضلِهِ ؛ إذْ أفاضَ عليهِ ما لا يستحقُّهُ ، وآثرَهُ

بِهِ علىٰ غيرِهِ مِنْ غيرِ سابقةٍ ووسيلةٍ ، فمهما برزَ الملكُ لغلمانِهِ ، ونظرَ إليهِمْ ، فخلعَ مِنْ جملتِهِمْ علىٰ واحدٍ منهُمْ ، لا لصفةٍ فيهِ ولا لوسيلةٍ ، ولا لجمالٍ ولا لخدمةٍ . . فينبغي أنْ يتعجَّبَ المنعَمُ عليهِ مِنْ فضلِ الملكِ وحكمِهِ وإيثارِهِ مِن غيرِ استحقاقٍ ؛ فإعجابُهُ بنفسِهِ مِنْ أينَ ؟ وما سببُهُ ؟ ولا ينبغي أنْ يعجبَ هوَ بنفسِهِ .

نعمْ ، يجوزُ أنْ يعجبَ العبدُ فيقولُ : الملكُ حكمٌ عدْلٌ لا يظلمُ ، ولا يقدِّمُ ولا يؤخِّرُ إلا لسببٍ ، فلولا أنَّهُ تفطَّنَ فيَّ صفةً مِنَ الصفاتِ المحمودةِ الباطنةِ ما اقتضى الإيثارَ بالخلعةِ . . لما آثرَني بها ، فيُقالُ : وتلكَ الصفةُ هيَ أيضاً مِنْ خلعةِ الملكِ وعطيتِهِ التي خصَّكَ بها مِنْ غيرِكَ مِنْ غيرِ وسيلةٍ أوْ هيَ عطيةُ غيرِهِ ؟ فإنْ كانَتْ مِنْ عطيةِ الملكِ أيضاً . . لمْ يكنْ لكَ أنْ تعجبَ بها ، بلْ كانَ كما لوْ أعطاكَ فرساً فلمْ تعجبْ بهِ ، فأعطاكَ غلاماً فصرتَ تعجبُ بهِ وتقولُ : إنَّما أعطاني غلاماً لأنِّي صاحبُ فرسٍ ، وأمَّا غيري . . فلا فرسَ لهُ ، فيُقالُ : وهوَ الذي أعطاكَ الفرسَ ، فلا فرقَ بينَ أنْ يعطيَكَ الفرسَ والغلامَ معاً أوْ يعطيَكَ أحدَهُما بعدَ الآخرِ ، فإذا كانَ الكلُّ منهُ . . فينبغي أنْ يعجبَكَ جودُهُ وفضلُهُ ، لا نفسُكَ .

وأمَّا إنْ كانَتْ تلكَ الصفةُ مِنْ غيرِهِ . . فلا يبعدُ أنْ تعجبَ بتلكَ الصفةِ ، وهاذا يُتصوَّرُ في حقِّ الملوكِ ، ولا يُتصوَّرُ في حقِّ الجبارِ القاهرِ ملكِ الملوكِ ، المتفرِّدِ باختراعِ الجميعِ المنفردِ بإيجادِ الموصوفِ والصفةِ سبحانَهُ وتعالىٰ ؛ فإنَّكَ إنْ أُعجبتَ بعبادتِكَ وقلتَ : وفَّقَني للعبادةِ لحبِّي لهُ . .

فيُقالُ : ومَنْ خلقَ الحبَّ في قلبِكَ ؟ فستقولُ : هوَ ، فيُقالُ : فالحبُّ والعبادةُ كلاهُما نعمتانِ مِنْ عندِهِ ابتدأَكَ بهِما مِنْ غيرِ استحقاقٍ مِنْ جهتِكَ ؛ إذ لا وسيلةَ لكَ ولا علاقةَ ، فيكونُ الإعجابُ بجودِهِ ؛ إذْ أنعمَ بوجودِكَ ووجودِ صفاتِكَ ، وبوجودِ أعمالِكَ وأسبابِ أعمالِكَ .

فإذاً ؛ لا معنىٰ لعجبِ العابدِ بعبادتِهِ ، وعجبِ العالمِ بعلمِهِ ، وعجبِ الجميلِ بجمالِهِ ، وعجبِ الغنيِّ بغناهُ ؛ لأنَّ كلَّ ذلكَ مِنْ فضلِ اللهِ تعالىٰ ، وإنَّما هوَ محلٌّ لفيضانِ فضلِ اللهِ تعالىٰ وجودِهِ ، والمحلُّ أيضاً مِنْ جودِهِ وفضلِهِ .

＊ ＊ ＊

فإنْ قلتَ : لا يمكنُني أنْ أجهلَ أعمالي ، فإنِّي أنا عملتُها ، فإنِّي أنتظرُ عليها ثواباً ، ولولا أنَّها عملي . . لما انتظرتُ الثوابَ ، فإنْ كانَتِ الأعمالُ مخلوقةً للهِ عزَّ وجلَّ علىٰ سبيلِ الاختراعِ . فمِنْ أينَ لي الثوابُ ؟ وإنْ كانَتِ الأعمالُ منِّي وبقدرتي . . فكيفَ لا أعجبُ بها ؟

فاعلمْ أنَّ جوابَكَ مِنْ وجهينِ : أحدُهُما : هوَ صريحُ الحقِّ ، والآخرُ : فيه مسامحةٌ .

أمَّا صريحُ الحقّ . . فهوَ أنَّكَ وقدرتَكَ وإرادتَكَ وحركتَكَ جميعُ ذلكَ مِنْ خلقِ اللهِ واختراعِهِ ، فما عملتَ إذْ عملتَ ، وما صلَّيتَ إذْ صلَّيتَ ، وما رميتَ إذْ رميتَ ، ولكنَّ اللهَ رمىٰ ، فهـٰذا هوَ الحقُّ الذي انكشفَ لأربابِ

القلوبِ بمشاهدةٍ أوضحَ مِنْ إبصارِ العينِ ، بلْ خلقَكَ ، وخلقَ أعضاءَكَ ، وخلقَ فيها القوَّةَ والقدرةَ والصحَّةَ ، وخلقَ لكَ العقلَ والعلمَ ، وخلقَ لكَ الإرادةَ ، ولوْ أردتَ أنْ تنفيَ شيئاً مِنْ هـٰذا عنْ نفسِكَ . . لم تقدرْ عليهِ ، ثمَّ خلقَ الحركاتِ في أعضائِكَ مستبدّاً باختراعِها مِنْ غيرِ مشاركةٍ مِنْ جهتِكَ معَهُ في الاختراعِ ، إلا أنَّهُ خلقَهُ علىٰ ترتيبٍ ، فلمْ يخلقِ الحركةَ ما لمْ يخلقْ في العضوِ قوَّةً ، وفي القلبِ إرادةً ، ولمْ يخلقْ إرادةً ما لمْ يخلقْ علماً بالمرادِ ، ولمْ يخلقْ علماً ما لمْ يخلقِ القلبَ الذي هوَ محلُّ العلمِ ، فتدريجُهُ في الخلقِ شيئاً بعدَ شيءٍ هوَ الذي خيَّلَ إليكَ أنَّكَ أوجدتَ عملَكَ ، وقدْ غلطتَ ، وإيضاحُ ذلكَ وكيفيةِ الثوابِ علىٰ عملٍ هوَ مِنْ خلقِ اللهِ سبحانَهُ سيأتي تقريرُهُ في كتابِ الشكرِ ؛ فإنَّهُ أليقُ بهِ ، فارجعْ إليهِ .

ونحنُ الآنَ نزيلُ إشكالَكَ بالجوابِ الثاني الذي فيهِ مسامحةٌ ما ، وهوَ أنْ تحسبَ أنَّ العملَ حصلَ بقدرتِكَ ، فمِنْ أينَ قدرتُكَ ؟ ولا يُتصوَّرُ العملُ إلا بوجودِكَ وبوجودِ علمِكَ وإرادتِكَ وقدرتِكَ وسائرِ أسبابِ عملِكَ ، وكلُّ ذلكَ مِنَ اللهِ تعالىٰ لا منكَ ، فإنْ كانَ العملُ بالقدرةِ . . فالقدرةُ مفتاحُهُ ، وهـٰذا المفتاحُ بيدِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ومهما لمْ يعطِكَ المفتاحَ . . فلا يمكنُكَ العملُ ، فالعباداتُ خزائنُ بها يُتوصَّلُ إلى السعاداتِ ، ومفاتيحُها القدرةُ والإرادةُ والعلمُ ، وهيَ بيدِ اللهِ عزَّ وجلَّ لا محالةَ ، أرأيتَ لوْ رأيتَ خزائنَ الدنيا مجموعةً في قلعةٍ حصينةٍ ومفاتيحُها بيدِ خازنٍ ، ولوْ جلستَ علىٰ بابِها وحولَ حيطانِها ألفَ سنةٍ . . لمْ يمكنْكَ أنْ تنظرَ إلىٰ دينارٍ ممَّا فيها ، ولوْ

أعطاكَ المفتاحَ . . لأخذتَهُ مِنْ قربٍ ، بأنْ تبسُطَ يدَكَ إليهِ فتأخذَهُ فقطْ ، فإذا أعطاكَ الخازنُ المفاتيحَ ، وسلَّطَكَ عليها ، ومكَّنَكَ منها ، فمددتَ يدَكَ وأخذتَها . . أكانَ إعجابُكَ بإعطاءِ الخازنِ المفاتيحَ أوْ بما إليكَ مِنْ مدِّ اليدِ وأخذِها ؟ فلا شكَّ في أنَّكَ ترىٰ ذلكَ نعمةً مِنَ الخازنِ ؛ لأنَّ المؤنةَ في تحريكِ اليدِ بأخذِ المالِ قريبةٌ ، وإنَّما الشأنُ كلُّهُ في تسليمِ المفاتيحِ .

فكذلكَ مهما خُلقَتِ القدرةُ ، وسُلِّطَتِ الإرادةُ الجازمةُ ، وحُرِّكَتِ الدواعي والبواعثُ ، وصُرِفَ عنكَ الموانعُ والصوارفُ ، حتَّىٰ لمْ يبقَ صارفٌ إلا دُفِعَ ، ولا باعثٌ إلا وُكِّلَ بكَ . . فالعملُ هيِّنٌ عليكَ ، وتحريكُ البواعثِ ، وصرفُ العوائقِ ، وتهيئةُ الأسبابِ كلُّ ذلكَ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، ليسَ شيءٌ منها إليكَ ، فمِنَ العجائبِ أنْ تعجبَ بنفسِكَ ولا تعجبَ بمَنْ إليهِ الأمرُ كلُّهُ ، ولا تعجبَ بجودِهِ وفضلِهِ وكرمِهِ في إيثارِهِ إيَّاكَ على الفسَّاقِ مِنْ عبادِهِ ؛ إذْ سلَّطَ دواعيَ الفسادِ على الفسَّاقِ وصرفَها عنكَ ، وسلَّطَ أخدانَ السوءِ ودعاةَ الشرِّ عليهِمْ وصرفَهُمْ عنكَ ، ومكَّنَهُمْ مِنَ أسبابِ الشهواتِ واللَّذاتِ وزواها عنكَ ، وصرفَ عنهُمْ بواعثَ الخيرِ ودواعيَهِ وسلَّطَها عليكَ ، حتَّىٰ تيسَّرَ لكَ الخيرُ ، وتيسَّرَ لهُمُ الشرُّ ، فعلَ ذلكَ كلَّهُ بكَ مِنْ غيرِ وسيلةٍ سابقةٍ منكَ ، ولا جريمةٍ سابقةٍ مِنَ الفاسقِ العاصي ، بلْ آثرَكَ ، وقدَّمَكَ واصطفاكَ بفضلِهِ ، وأبعدَ العاصيَ وأشقاهُ بعدلِهِ ، فما أعجبَ إعجابَكَ بنفسِكَ إذا عرفتَ ذلكَ !!

❀ ❀ ❀

فإذاً ؛ لا تنصرفُ قدرتُكَ إلى المقدورِ إلا بتسليطِ اللهِ عليكَ داعيةً لا تجدُ سبيلاً إلىٰ مخالفتِها ، فكأنَّهُ الذي اضطرَّكَ إلى الفعلِ إنْ كنتَ فاعلاً تحقيقاً ، فلَهُ الشكرُ والمنَّةُ لا لكَ ، وسيأتي في كتابِ التوحيدِ والتوكُّلِ مِنْ بيانِ تسلسلِ الأسبابِ والمسبباتِ ما تستبينُ بهِ أنَّهُ لا فاعلَ إلا اللهُ تعالىٰ ، ولا خالقَ سواهُ .

والعجبُ ممَّنْ يتعجَّبُ إذا رزقَهُ اللهُ عقلاً وأفقرَهُ ممَّنْ أفاضَ اللهُ عليهِ المالَ مِنْ غيرِ علمٍ ، فيقولُ : كيفَ منعَني قوتَ يومي وأنا العاقلُ الفاضلُ ، وأفاضَ علىٰ هـٰذا نعيمَ الدنيا وهوَ الغافلُ الجاهلُ ؟! حتَّىٰ يكادُ يرىٰ هـٰذا ظلماً ، ولا يدري المغرورُ أنَّهُ لوْ جمعَ لهُ بينَ العقلِ والمالِ جميعاً . . لكانَ ذلكَ بالظلمِ أشبهَ في ظاهرِ الحالِ ؛ إذْ يقولُ الجاهلُ الفقيرُ : يا ربِّ ؛ لِمَ جمعتَ لهُ بينَ العقلِ والغنىٰ وحرمتَني منهُما ؟ فهلاَّ جمعتَهُما لي ، أوْ هلاَّ رزقتَني أحدَهُما .

وإلىٰ هـٰذا أشارَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ حيثُ قيلَ لهُ : ما بالُ العقلاءِ فقراءَ ؟ فقالَ : إنَّ عقلَ الرجلِ محسوبٌ عليهِ مِنْ رزقِهِ .

والعجبُ أنَّ العاقلَ الفقيرَ ربَّما يرى الجاهلَ الغنيَّ أحسنَ حالاً مِنْ نفسِهِ ، ولوْ قيلَ لهُ : هلْ تؤثرُ جهلَهُ وغناهُ عوضاً عنْ عقلِكَ وفقرِكَ . . لامتنعَ عنهُ ، فإذاً ذلكَ يدلُّ علىٰ أنَّ نعمةَ اللهِ عليهِ أكثرُ ؛ فلِمَ يتعجَّبُ مِنَ ذلكَ ؟

والمرأةُ الحسناءُ الفقيرةُ ترى الحليَّ والجواهرَ على الذميمةِ القبيحةِ ،

فتتعجَّبُ وتقولُ : كيف يُحرمُ مثلُ هـٰذا الجمالِ مِنَ الزينةِ ويُخصُّ بهِ مثلُ ذلكَ القبحِ ؟! ولا تدري المغرورةُ أنَّ الجمالَ محسوبٌ عليها مِنْ رزقِها ، وأنَّها لوْ خُيِّرَتْ بينَ الجمالِ وبينَ القبحِ معَ الغنىٰ . . لآثرَتِ الجمالَ ، فإذاً نعمةُ اللهِ عليها أكثرُ .

وقولُ الحكيمِ العاقلِ الفقيرِ بقلبِهِ : يا ربِّ ؛ لمَ حرمتَني الدنيا وأعطيتَ الجهَّالَ ؛ كقولِ مَنْ أعطاهُ الملكُ فرساً فيقولُ : أيُّها الملكُ ؛ لِمَ لا تعطيني الغلامَ وأنا صاحبُ فرسٍ ؟ فيقولُ لهُ : كنتَ لا تتعجبُ مِنَ هـٰذا لوْ لمْ أعطِكَ الفرسَ ، فهَبْ أنِّي ما أعطيتُكَ فرساً . . أصارَتْ نعمتي عليكَ وسيلةً لكَ وحجّةً تطلبُ بها نعمةً أخرى ؟!

فهـٰذهِ أوهامٌ لا تخلو الجهَّالُ عنها ، ومنشأُ جميعِ ذلكَ الجهلُ ، ويُزالُ ذلكَ بالعلمِ المحقَّقِ بأنَّ العبدَ وعملَهُ وأوصافَهُ كلُّ ذلكَ مِنْ عندِ اللهِ تعالىٰ نعمةٌ ابتدأَهُ بها قبلَ الاستحقاقِ ، وهـٰذا ينفي العجبَ والإدلالَ ، ويورثُ الخضوعَ والشكرَ والخوفَ مِنْ زوالِ النعمةِ ، ومَنْ عرفَ هـٰذا . . لمْ يُتصوَّرْ أنْ يعجبَ بعلمِهِ وعملِهِ ؛ إذْ يعلمُ أنَّ ذلكَ مِنَ اللهِ تعالىٰ .

ولذلكَ قالَ داوودُ عليهِ السلامُ : يا ربِّ ؛ ما تأتي ليلةٌ إلا وإنسانٌ مِنْ آلِ داوودَ قائمٌ ، ولا يأتي يومٌ إلا وإنسانٌ مِنْ آلِ داوودَ صائمٌ ، وفي روايةٍ : ما تمرُّ ساعةٌ مِنْ ليلٍ أوْ نهارٍ إلا وعابدٌ مِنْ آلِ داوودَ يعبدُكَ ؛ إمَّا يصلِّي ، وإمَّا يصومُ ، وإمَّا يذكرُكَ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : يا داوودُ ؛ ومِنْ أينَ لهُمْ

ذلكَ ؟ إنَّ ذلكَ لمْ يكنْ إلا بي ، ولولا عوني إيَّاكَ . . ما قويتَ ، وسأكِلُكَ إلىٰ نفسِكَ ، قالَ ابنُ عباسٍ : إنَّما أصابَ داوودَ ما أصابَ مِنَ الذنبِ ؛ لعجبِهِ بعملِهِ ؛ إذْ أضافَ ذلكَ إلىٰ آلِ داوودَ مدلاً بهِ ، حتَّىٰ وكلَ إلىٰ نفسِهِ فأذنبَ ذنباً أورثَهُ الحزنَ والندمَ(١) .

وقالَ داوودُ : يا ربِّ ؛ إنَّ بني إسرائيلَ يسألونكَ بإبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ ، فقالَ : إنِّي ابتليتُهُمْ فصبروا ، فقالَ : يا ربِّ ، وأنا إنِ ابتليتَني . . صبرتُ ، فأدلَّ بالعملِ قبلَ وقتِهِ ، فقالَ تعالىٰ : أما إنِّي لمْ أخبرْهُمْ بأيِّ شيءٍ أبتليهِمْ ، ولا في أيِّ شهرٍ ، ولا في أيِّ يومٍ ، وأنا مخبرُكَ أنِّي أبتليكَ في سنتِكَ هٰذهِ وشهرِكَ هٰذا ، أبتليكَ غداً بامرأةٍ ، فاحذرْ نفسَكَ ، فوقعَ فيما وقعَ فيهِ(٢) .

وكذلكَ لمَّا اتكلَ أصحابُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يومَ حنينٍ علىٰ قوَّتِهِمْ وكثرتِهِمْ ، ونسوا فضلَ اللهِ عليهِمْ ، وقالوا : لا نُغلبُ اليومَ مِنْ قلَّةٍ(٣) . . وُكلوا إلىٰ أنفسِهِمْ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ .

---

(١) كذا في « الرعاية » (ص ٣٤١) ، وقد رواه الحاكم في « المستدرك » (٢/ ٤٣٣) .
(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٢٥٥٥ ، ٣٢٥٥٦) .
(٣) كذا في « الرعاية » (ص ٣٤٣) ، ورواه الطبري في « تفسيره » (٦/ ١٠/ ١٢٨) عن السدي .

وروى ابنُ عيينةَ أَنَّ أيوبَ عليهِ السلامُ قالَ : إلـٰهي ؛ إنَّكَ ابتليتَني بهـٰذا البلاءِ ، وما وردَ عليَّ أمرٌ قطُّ إلا آثرتُ هواكَ علىٰ هوايَ ، فنُوديَ مِنْ غمامةٍ بعشرةِ آلافِ صوتٍ يا أيوبُ ؛ أَنَّىٰ لكَ ذلك ؟ أيْ : مِنْ أينَ لكَ ذلكَ ؟ قالَ : فأخذَ رماداً فوضعَهُ علىٰ رأسِهِ وقالَ : منكَ يا ربِّ ، فرجعَ عنْ نسيانِهِ إضافةَ ذلكَ إلى اللهِ تعالىٰ[1] .

ولهـٰذا قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ .

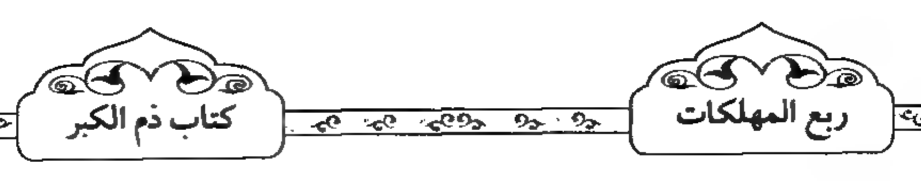
وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لأصحابِهِ وهمْ خيرُ الناسِ : « ما منكُمْ مِنْ أحدٍ ينجيهِ عملُهُ » ، قالوا : ولا أنتَ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « ولا أنا ، إلا أَنْ يتغمَّدَني اللهُ برحمتِهِ »[2] .

ولقدْ كانَ أصحابُهُ مِنْ بعدِهِ يتمنَّونَ أنْ يكونوا تراباً وتبناً وطيراً ، معَ صفاءِ أعمالِهِمْ وقلوبِهِمْ ، فكيفَ يكونُ لذي بصيرةٍ أنْ يعجبَ بعملِهِ أوْ يُدِلَّ بهِ ولا يخافَ علىٰ نفسِهِ ؟!

فإذاً ؛ هـٰذا هوَ العلاجُ القامعُ لمادةِ العجبِ مِنَ القلبِ ، ومهما غلبَ ذلكَ على القلبِ . . شغلَهُ خوفُ سلبِ هـٰذهِ النعمةِ عنِ الإعجابِ بها ، بلْ هوَ ينظرُ إلى الكفَّارِ والفسَّاقِ وقدْ سُلبوا نعمةَ الإيمانِ والطاعةِ بغيرِ ذنبٍ أذنبوهُ

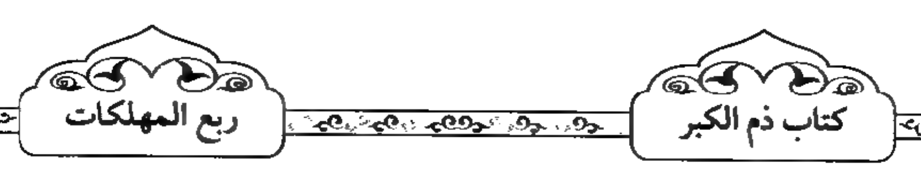
---

(١) كذا في « الرعاية » (ص ٣٤٣) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٢٨٦) .
(٢) رواه البخاري (٥٦٧٣) ، ومسلم (٢٨١٦) .



مِنْ قبلُ ، فيخافُ مِنَ ذلكَ فيقولُ : إنَّ مَنْ لا يبالي أنْ يحرمَ مِنْ غيرِ جنايةٍ ، ويعطيَ مِنْ غيرِ وسيلةٍ . . لا يبالي أنْ يعودَ ويسترجعَ ما وهبَ ، فكمْ مِنْ مؤمنٍ قدِ ارتدَّ ، ومطيعٍ قدْ فسقَ وخُتمَ لهُ بالسوءِ ، وهٰذا لا يبقىٰ معَهُ عجْبٌ بحالٍ ، واللهُ تعالىٰ أعلمُ .

* * *



بيان أقسام ما به العُجب ، وتفصيل علاجه

اعلمْ : أنَّ العجبَ بالأسبابِ التي بها يُتكبَّرُ كما ذكرناهُ ، وقدْ يعجبُ بما لا يُتكبَّرُ بهِ ؛ كعجبِهِ بالرأيِ الخطأِ الذي تزيَّنَ لهُ بجهلِهِ .

فما بِهِ العجبُ ثمانيةُ أقسام :

الأوَّلُ : أنْ يعجبَ ببدنِهِ في جمالِهِ ، وهيئتِهِ ، وصحتِهِ ، وقوَّتِهِ ، وتناسبِ أشكالِهِ ، وحسنِ صورتِهِ ، وحسنِ صوتِهِ ، وبالجملةِ : تفصيلُ خلقتِهِ ، فيلتفتُ إلىٰ جمالِ نفسِهِ ، وينسىٰ أنَّهُ نعمةٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، وهوَ بعرضةِ الزوالِ في كلِّ حالٍ .

وعلاجُهُ : ما ذكرناهُ في الكبْرِ بالجمالِ ، وهوَ التفكُّرُ في أقذارِ باطنِه ، وفي أوَّلِ أمرِهِ وفي آخرِهِ ، وفي الوجوهِ الجميلةِ والأبدانِ الناعمةِ أنَّها كيفَ تمزَّقَتْ في الترابِ ، وأنتنَتْ في القبورِ بحيثُ استقذرَتْها الطباعُ .

* * *

الثاني : القوَّةُ والبطشُ ؛ كما حُكيَ عنْ قومِ عادٍ حينَ قالوا فيما أخبرَ اللهُ عنهُمْ : ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ .

وكما اتَّكلَ عُوجٌ علىٰ قوَّتِهِ وأُعجبَ بها ، فاقتلعَ جبلاً ليطبقَهُ علىٰ عسكرِ موسىٰ عليهِ السلامُ ، فثقبَ اللهُ تعالىٰ تلكَ القطعةَ مِنَ الجبلِ بنقرِ

هدهدٍ ضعيفِ المنقارِ حتَّىٰ صارَتْ في عنقِهِ[1] .

وقدْ يتّكلُ المؤمنُ أيضاً علىٰ قوّتِهِ ؛ كما رُويَ عنْ سليمانَ عليهِ السلامُ أنَّهُ قالَ : لأطوفَنَّ الليلةَ علىٰ مئةِ امرأةٍ ولمْ يقلْ : إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ ، فحُرِمَ ما أرادَ مِنَ الولدِ[2] .

وكذلك قولُ داودَ عليهِ السلامُ : (إنِ ابتليتَني . . صبرتُ) إعجاباً بالقوّةِ[3] ، فلما ابتُليَ بالمرأةِ . . لم يصبرْ .

ويورثُ العجبُ بالقوّةِ الهجومَ في الحروبِ ، وإلقاءَ النفسِ في التهلكةِ ، والمبادرةَ إلى الضربِ والقتلِ لكلِّ مَنْ قصدَهُ بالسوءِ .

وعلاجُهُ : ما ذكرناهُ ، وهوَ أنْ يعلمَ أنَّ حُمَّىٰ يومٍ تضعفُ قوّتَهُ ، وأنَّهُ إذا أُعجبَ بها . . ربَّما سلبَها اللهُ تعالىٰ بأدنىٰ آفةٍ يسلِّطُها عليهِ .

* * *

الثالثُ : العجبُ بالعقلِ والكياسةِ ، والتفطنِ لدقائقِ الأمورِ مِنْ مصالحِ الدينِ والدنيا ، وثمرتُهُ : الاستبدادُ بالرأيِ ، وتركُ المشورةِ ، واستجهالُ الناسِ المخالفينَ لهُ ولرأيِهِ ، ويخرجُ إلىٰ قلّةِ الإصغاءِ إلىٰ أهلِ العلمِ ؛

---

(١) رواه أبو الشيخ في « العظمة » (٥/١٥١٩) ، وانظر « الحاوي للفتاوي » للسيوطي (٢/٢٤١) .

(٢) رواه البخاري (٥٢٤٢) ، ومسلم (١٦٥٤) ، وذكر المئة عند البخاري .

(٣) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٢٥٥٦) .

إعراضاً عنهُمْ بالاستغناءِ بالرأيِ والعقلِ ، واستحقاراً لهُمْ وإهانةً .

وعلاجُهُ : أنْ يشكرَ اللهَ تعالىٰ علىٰ ما رُزقَ مِنَ العقلِ ، ويتفكرَ أنَّهُ بأدنىٰ مرضٍ يصيبُ دماغَهُ كيفَ يوسوسُ ويُجنُّ بحيثُ يُضحكُ منهُ ، فلا يأمنُ أنْ يُسلبَ عقلُهُ إنْ أُعجبَ بهِ ولمْ يقُمْ بشكرِهِ ، وليستصغرْ عقلَهُ وعلمَهُ ، وليعلمْ أنَّهُ ما أُوتيَ مِنَ العلمِ إلا قليلاً وإنِ اتسعَ علمُهُ ، وأنَّ ما جهلَهُ ممَّا عرفَهُ الناسُ أكثرُ ممَّا علمَهُ ؛ فكيفَ بما لمْ يعرفْهُ الناسُ مِنْ علمِ اللهِ تعالى ؟! وأَنْ يتَّهمَ عقلَهُ ، وينظرَ إلى الحمقىٰ كيفَ يعجبونَ بعقولِهِمْ ويضحكُ الناسُ منهُمْ ، فيحذرَ أنْ يكونَ منهُمْ وهوَ لا يدري ، فإنَّ القاصرَ في العقلِ قطُّ لا يعلمُ قصورَ عقلِهِ ؛ فينبغي أنْ يعرفَ مقدارَ عقلِهِ مِنْ غيرِهِ لا مِنْ نفسِهِ ، ومِنْ أعدائِهِ لا مِنْ أصدقائِهِ ؛ فإنَّ مَنْ يداهنُهُ يثني عليهِ فيزيدُهُ عجباً ، وهوَ لا يظنُّ بنفسِهِ إلا الخيرَ ، ولا يفطنُ لجهلِ نفسِهِ فيزدادُ بهِ عجباً .

* * *

الرابعُ : العجبُ بالنسبِ الشريفِ ؛ كعجبِ الهاشميةِ[1] ، حتَّىٰ يظنُّ بعضُهُمْ أنَّهُ ينجو بسببِ شرفِ نسبِهِ ونجاةِ آبائِهِ ، وأنَّهُ مغفورٌ لهُ ، ويتخيَّلُ بعضُهُمْ أنَّ جميعَ الخلقِ لهُ مَوَالٍ وعبيدٌ .

وعلاجُهُ : أنْ يعلمَ أنَّهُ مهما خالفَ آباءَهُ في أفعالِهِمْ وأخلاقِهِمْ ، وظنَّ أنَّهُ ملحقٌ بهِمْ . فقدْ جهلَ ، وإنِ اقتدىٰ بآبائِهِ . فما كانَ مِنْ أخلاقِهِمُ

(١) هم بنو هاشم ، فيشمل العلويين والطالبيين والجعفريين . « إتحاف » (٨/٤١٨) .

العجْبُ ، بلِ الخوفُ ، والإزراءُ على النفسِ ، واستعظامُ الخلقِ ، ومذمَّةُ النفسِ ، ولقدْ شَرُفوا بالطاعةِ والعلمِ والخصالِ الحميدةِ ، لا بالنسبِ ، فليشرفْ بما شرفوا بهِ ، وقدْ ساواهُمْ في النسبِ وشاركَهُمْ في القبائلِ مَنْ لمْ يؤمنْ باللهِ واليومِ الآخرِ ، فكانوا عندَ اللهِ شرّاً مِنَ الكلابِ ، وأخسَّ مِنَ الخنازيرِ ، ولذلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ ﴾ أيْ : لا تفاوتَ في أنسابِكُمْ لاجتماعِكُمْ في أصلٍ واحدٍ ، ثمَّ ذكرَ فائدةَ النسبِ فقالَ : ﴿ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾ ، ثمَّ بينَ أنَّ الشرفَ بالتقوىٰ لا بالنسبِ فقالَ : ﴿ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ ﴾ .

ولمَّا قيلَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : مَنْ أكرمُ الناسِ ؟ مَنْ أكيسُ الناسِ ؟ لمْ يقلْ : مَنْ ينتمي إلىٰ نسبي ، ولكنْ قالَ : « أكثرُهُمْ للموتِ ذِكراً ، وأشدُّهُمْ لهُ استعداداً »(١) .

وإنما أُنزلَتْ هٰذهِ الآيةُ حينَ أذَّنَ بلالٌ يومَ الفتحِ على الكعبةِ ، فقالَ الحارثُ بنُ هشامٍ وسهيلُ بنُ عمرٍو وخالدُ بنُ أسيدٍ : هٰذا العبدُ الأسودُ يؤذِّنُ ؟! فقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ ﴾(٢) .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ قدْ أذهبَ عنكُمْ عُبِّيَّةَ الجاهليةِ

---

(١) رواه ابن ماجه (٤٢٥٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ٣١٣) .
(٢) كذا في « الرعاية » (ص ٣٦٣) ، وهو عند ابن أبي حاتم في « تفسيره » (١٨٦٢٠) عن ابن أبي مليكة بنحوه .

ـ أيْ : كبرَها ـ كلُّكُمْ بنو آدمَ ، وآدمُ مِنْ ترابٍ »[1] .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يا معشرَ قريشٍ ؛ لا تأتي الناسُ بالأعمالِ يومَ القيامةِ وتأتونَ بالدنيا تحملونَها على رقابِكُمْ ، تقولونَ : يا محمدُ يا محمدُ ، فأقولُ هكذا »[2] ؛ أيْ : أعرضُ عنكمْ ، فبيَّنَ أنَّهُمْ إنْ مالوا إلى الدنيا . . لمْ ينفعْهُمْ نسبُ قريشٍ .

ولمَّا نزلَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ . . ناداهُمْ بطناً بعدَ بطنٍ حتَّىٰ قالَ : « يا فاطمةُ بنتَ محمدٍ ؛ يا صفيةُ بنتَ عبدِ المطلبِ عمَّةَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ اعملا لأنفسِكُما ؛ فإنِّي لا أغني عنكُما مِنَ اللهِ شيئاً »[3] .

فمَنْ عرفَ هٰذهِ الأمورَ ، وعلمَ أنَّ شرفَهُ بقدْرِ تقواهُ ، وقدْ كانَ مِنْ عادةِ آبائِهِ التواضعُ . . اقتدىٰ بهِمْ في التقوىٰ والتواضعِ ، وإلا . . كانَ طاعناً في نسبِ نفسِهِ بلسانِ حالِهِ مهما انتمىٰ إليهِمْ ولمْ يشبهْهُمْ في التواضعِ والتقوىٰ والخوفِ والإشفاقِ .

* * *

فإنْ قلتَ : فقدْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بعدَ قولِهِ لفاطمةَ وصفيةَ : « إنِّي لا أُغني عنكُما مِنَ اللهِ شيئاً ، إلا أنَّ لكما رحماً سأَبُلُّها

(١) رواه أبو داوود (٥١١٦) ، والترمذي (٣٩٥٥) .
(٢) رواه البخاري في « الأدب المفرد » (٧٥) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (١٥٧٩) .
(٣) رواه البخاري (٢٧٥٣) ، ومسلم (٢٠٦) .

ببَلالِها »[1] ، وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « أترجو سُلَيمٌ شفاعتي ولا يرجوها بنو عبدِ المطلبِ ؟! »[2] ، فذلكَ يدلُّ علىٰ أنَّهُ سيخصُّ قرابتَهُ بالشفاعةِ .

فاعلمْ : أنَّ كلَّ مسلمٍ فهوَ منتظرٌ شفاعةَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، والنسيبُ أيضاً جديرٌ بأنْ يرجوَها ، لكنْ بشرطِ أنْ يتَّقيَ اللهَ أنْ يغضبَ عليهِ ؛ فإنَّهُ إنْ يغضبْ عليهِ . . فلا يأذنْ لأحدٍ في أنْ يشفعَ لهُ ؛ لأنَّ الذنوبَ منقسمةٌ إلىٰ ما يوجبُ المقتَ فلا يؤذنُ في الشفاعةِ فيهِ ، وإلىٰ ما يُعفىٰ عنهُ بسببِ الشفاعةِ ؛ كالذنوبِ عندَ ملوكِ الدنيا ، فإنَّ كلَّ ذي مكانةٍ عندَ الملكِ لا يقدرُ على الشفاعةِ فيما اشتدَّ عليهِ غضبُ الملكِ ، فمِنَ الذنوبِ ما لا تُنجي منهُ الشفاعةُ ، وعنهُ العبارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾ ، وبقولِهِ : ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ ، وبقولِهِ : ﴿ لَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴾ ، وبقولِهِ : ﴿ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ﴾ ، وبقولِهِ : ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴾ .

---

(١) تتمة الحديث السابق من رواية مسلم (٢٠٤) ولفظه : « غير أن لكم رحماً سأبلها ببلالها » ، قال الإمام النووي في « شرحه لمسلم » (٣/ ٨٠) : (والبلال : الماء ، ومعنى الحديث : سأصلها ، شبهت قطيعة الرحم بالحرارة ، ووصلها بإطفاء الحرارة ببرودة ، ومنه : « بلُّوا أرحامكم » ؛ أي : صلوها) .

(٢) رواه اللالكائي في « اعتقاد أهل السنة » (٢٠٨١) ، وفي (ك) : (سلهم) بدل (سليم) ، ورواه أحمد في « فضائل الصحابة » (١٧٥٦) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٢/ ٤١٣) ، وفي (م) : (سهم) .

وإذا انقسمَتِ الذنوبُ إلىٰ ما يُشفَعُ فيهِ وإلىٰ ما لا يُشفَعُ فيهِ . . وجبَ الخوفُ والإشفاقُ لا محالةَ ، ولوْ كانَ كلُّ ذنبٍ تُقبلُ فيهِ الشفاعةُ . . لما أمرَ قريشاً بالطاعةِ ، ولما نهىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فاطمةَ رضيَ اللهُ عنها عنِ المعصيةِ ، ولكانَ يأذنُ لها في اتباعِ الشهواتِ ؛ لتكملَ لذَّتُها في الدنيا ، ثمَّ يشفعُ لها في الآخرةِ لتكملَ لذَّتُها في الآخرةِ ، فالانهماكُ في الذنوبِ وتركُ التقوى اعتماداً علىٰ رجاءِ الشفاعةِ يضاهي انهماكَ المريضِ في شهواتِهِ اعتماداً علىٰ طبيبٍ حاذقٍ قريبٍ مشفقٍ مِنْ أبٍ أوْ أخٍ أوْ غيرِهِ ، وذلكَ جهلٌ ؛ لأنَّ سعيَ الطبيبِ وهِمَّتَهُ وحذقَهُ ينفعُ في إزالةِ بعضِ الأمراضِ لا في كلِّها ، فلا يجوزُ تركُ الحميةِ مطلقاً اعتماداً علىٰ مجرَّدِ الطبِّ ، بلِ للطِّبِّ أثرٌ على الجملةِ ، ولكنْ في الأمراضِ الخفيفةِ ، وعندَ غلبةِ اعتدالِ المزاجِ .

فهكذا ينبغي أنْ تُفهمَ عنايةُ الشفعاءِ مِنَ الأنبياءِ والصلحاءِ للأقاربِ والأجانبِ ، فإنَّهُ كذلكَ قطعاً ، وذلكَ لا يزيلُ الخوفَ والحذرَ .

وكيفَ يزيلُ وخيرُ الخلقِ بعدَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أصحابُهُ ، وقدْ كانوا يتمنَّونَ أنْ يكونوا بهائمَ مِنْ خوفِ الآخرةِ ، معَ كمالِ تقواهُمْ ، وحسنِ أعمالِهِمْ ، وصفاءِ قلوبِهِمْ ، وما سمعوهُ مِنْ وَعْدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إيَّاهُمْ بالجنَّةِ خاصةً ، وسائرَ المسلمينَ بالشفاعةِ عامةً ، ولمْ يتّكلوا عليهِ ، ولمْ يفارقِ الخشوعُ والخوفُ قلوبَهُمْ ؟! فكيفَ يعجبُ بنفسِهِ ويتّكلُ على الشفاعةِ مَنْ ليسَ لهُ مثلُ صحبتِهِمْ وسابقتِهِمْ ؟!

* * *

الخامسُ : العجبُ بنسبِ السلاطينِ الظلمةِ وأعوانِهِمْ ، دونَ نسبِ الدينِ والعلمِ ، وهٰذا غايةُ الجهلِ .

وعلاجُهُ : أنْ يتفكَّرَ في مخازيهِمْ ، وما جرىٰ لهُمْ مِنَ الظلمِ علىٰ عبادِ اللهِ ، والفسادِ في دينِ اللهِ ؛ فإنَّهُمْ ممقوتونَ عندَ اللهِ تعالىٰ .

ولوْ نظرَ إلىٰ صورِهِمْ في النارِ وأنتانِهِمْ وأقذارِهِمْ . . لاستنكفَ عنهُمْ ، ولتبرَّأَ مِنَ الانتسابِ إليهِمْ ، ولأنكرَ علىٰ مَنْ نَسبَهُ إليهِمْ ؛ استحقاراً لهُمْ واستقذاراً .

ولوِ انكشفَ لهُ ذلُّهُمْ في القيامةِ ، وقدْ تعلَّقَ الخصماءُ بهِمْ ، والملائكةُ آخذونَ بنواصيهِمْ ، يجرونَهُمْ علىٰ وجوهِهِمْ إلىٰ جهنَّمَ في مظالمِ العبادِ . . لتبرَّأَ إلى اللهِ منهُمْ ، ولكانَ انتسابُهُ إلى الكلبِ والخنزيرِ أحبَّ إليهِ مِنَ الانتسابِ إليهِمْ ، فحقُّ أولادِ الظلمةِ إنْ عصمَهُمُ اللهُ تعالىٰ مِنْ ظلمِهِمْ أنْ يشكروا اللهَ تعالىٰ علىٰ سلامةِ دينِهِمْ ، ويستغفروا لآبائِهِمْ إنْ كانوا مسلمينَ ، فأمَّا العجبُ بنسبِهِمْ . . فجهلٌ محضٌ .

* * *

السادسُ : العجبُ بكثرةِ العددِ مِنَ الأولادِ والخدمِ والغلمانِ والعشيرةِ والأقاربِ والأنصارِ والأتباعِ ؛ كما قالَ اللهُ تعالىٰ إخباراً عنِ الكفَّارِ : ﴿ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا ﴾ ، وكما قالَ المؤمنونَ يومَ حنينٍ : (لا نُغلبُ اليومَ منْ قلةٍ)(١) .

---

(١) كذا في « الرعاية » (ص ٣٤٣)، ورواه الطبري في «تفسيره» (٦/ ١٠/ ١٢٨) عن السدي .

وعلاجُهُ : ما ذكرناهُ في الكِبْرِ ، وهوَ أنْ يتفكَّرَ في ضعفِهِ وضعفِهِمْ ، وأنَّ كلَّهُمْ عبيدٌ عجَزَةٌ ، لا يملكونَ لأنفسِهِمْ ضرّاً ولا نفعاً ، وكمْ مِنْ فئةٍ قليلةٍ غلبَتْ فئةً كثيرةً بإذنِ اللهِ .

ثمَّ كيفَ يعجبُ بهِمْ وإنَّهُمْ سيفترقونَ عنهُ إذا ماتَ ، فيُدفنُ في قبرِهِ ذليلاً مَهيناً وحدَهُ ، لا يرافقُهُ ولدٌ ، ولا أهلٌ ، ولا قريبٌ ولا حميمٌ ولا عشيرٌ ، فيسلمونَهُ إلى البِلىٰ والحياتِ والعقاربِ والديدانِ ، ولا يغنونَ عنهُ شيئاً وهوَ في أحوجِ أوقاتِهِ إليهِمْ ، وكذلكَ يهربونَ منهُ يومَ القيامةِ : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ . . . ﴾ الآيةَ ، فأيُّ خيرٍ فيمَنْ يفارقُكَ في أشدِّ أحوالِكَ ويهربُ منكَ ؟! وكيفَ تعجبُ بهِ ولا ينفعُكَ في القبرِ والقيامةِ وعلى الصراطِ إلا عملُكَ وفضلُ اللهِ تعالى ؟! فكيفَ تتّكلُ علىٰ مَنْ لا ينفعُكَ وتنسىٰ نِعَمَ مَنْ يملكُ ضرَّكَ ونفعَكَ ، وموتَكَ وحياتَكَ ؟!

* * *

السابعُ : العجبُ بالمالِ ؛ كما قالَ اللهُ تعالىٰ إخباراً عنْ صاحبِ الجنّتينِ إذْ قالَ : ﴿ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ .

ورأىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ رجلاً غنيّاً جلسَ بجنبِهِ فقيرٌ فانقبضَ عنهُ وجمعَ ثيابَهُ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أخشيتَ أنْ يعدوَ إليكَ فقرُهُ ؟! »[1] ، وذلكَ للعجبِ بالغنىٰ .

---

(١) رواه أحمد في « الزهد » (٢٠٧) .

وعلاجُهُ : أنْ يتفكَّرَ في آفاتِ المالِ ، وكثرةِ حقوقِهِ ، وعظمِ غوائِلِهِ ، وينظرَ إلىٰ فضيلةِ الفقراءِ ، وسبقِهِمْ إلى الجنةِ في القيامةِ ، وإلىٰ أنَّ المالَ غادٍ ورائحٌ ، ولا أصلَ لهُ ، وإلىٰ أنَّ في اليهودِ مَنْ يزيدُ عليهِ في المالِ ، وإلىٰ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « بينَما رجلٌ يتبخترُ في حُلَّةٍ لهُ قدْ أعجبَتْهُ نفسُهُ . . إذْ أمرَ اللهُ الأرضَ فأخذَتْهُ ، فهوَ يتجلْجَلُ فيها إلىٰ يومِ القيامةِ »[1] ، أشارَ بهِ إلىٰ عقوبةِ إعجابِهِ بمالِهِ ونفسِهِ .

وقالَ أبو ذرٍّ رضيَ اللهُ عنهُ : كنتُ معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فدخلَ المسجدَ فقالَ لي : « يا أبا ذرٍّ ؛ ارفعْ رأسَكَ » ، فرفعتُ رأسي ، فإذا رجلٌ عليهِ ثيابٌ جيادٌ ، ثمَّ قالَ : « ارفعْ رأسَكَ » ، فرفعتُ رأسي ، فإذا رجلٌ عليهِ خُلْقانٌ ، فقالَ لي : يا أبا ذرٍّ ؛ هٰذا عندَ اللهِ خيرٌ مِنْ قُرابِ الأرضِ مثلِ هٰذا »[2] .

وجميعُ ما ذكرناهُ في كتابِ الزهدِ ، وكتابِ ذمِّ الدنيا ، وكتابِ ذمِّ المالِ . . يبيِّنُ حقارةَ الأغنياءِ وشرفَ الفقراءِ عندَ اللهِ تعالىٰ ، فكيفَ يُتصوَّرُ مِنَ المؤمنِ أنْ يعجبَ بثروتِهِ ؟ بلْ لا يخلو المؤمنُ عنِ الخوفِ مِنْ تقصيرِهِ في القيامِ بحقوقِ المالِ ، في أخذِهِ مِنْ حِلِّهِ ، ووضعِهِ في حقِّهِ ، ومَنْ لا يفعلْ ذلكَ . . فمصيرُهُ إلى الخزيِ والبوارِ ، فكيفَ يعجبُ بمالِهِ ؟!

* * *

---

(١) رواه البخاري (٥٧٨٩) ، ومسلم (٢٠٨٨) .
(٢) كذا في « الرعاية » (ص ٣٧٠) ، ورواه بألفاظ مقاربة أحمد في « المسند » (٥/ ١٥٧).

الثامنُ : العجبُ بالرأيِ الخطأِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ .

وقدْ أخبرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّ ذلكَ يغلبُ علىٰ آخرِ هٰذهِ الأمةِ[1] ، وبذلكَ هلكَتِ الأممُ السالفةُ ؛ إذِ افترقَتْ فرقاً ، فكلٌّ معجبٌ برأيِهِ ، وكلُّ حزبٍ بما لديهِمْ فرحونَ ، وجميعُ أهلِ البدعِ والضلالِ إنَّما أصرُّوا عليها لعجبِهِمْ بآرائِهِمْ ، والعجبُ بالبدعةِ هوَ استحسانُ ما يسوقُ إليهِ الهوىٰ والشهوةُ معَ ظنِّ كونِهِ حقاً .

وعلاجُ هٰذا العجبِ أشدُّ مِنْ علاجِ غيرِهِ ؛ لأنَّ صاحبَ الرأيِ الخطأِ جاهلٌ بخطئِهِ ، ولوْ عرفَهُ . . لتركَهُ ، ولا يُعالجُ الداءُ الذي لا يُعرفُ ، والجهلُ داءٌ لا يُعرفُ ، فتعسَّرَ مداواتُهُ جدّاً ، إلا أنَّ العارفَ يقدرُ علىٰ أنْ يبيِّنَ للجاهلِ جهلَهُ ، ويزيلَهُ عنهُ ، إلا إذا كانَ معجباً برأيِهِ وجهلِهِ ؛ فإنَّهُ لا يُصغي إلى العارفِ ويتَّهمُهُ ، فقدْ سلَّطَ اللهُ تعالىٰ عليهِ بليَّةً تهلكُهُ ، وهوَ يظنُّها نعمةً ، فكيفَ يمكنُ علاجُهُ ؟

وكيفَ يطلبُ الهربَ ممَّا هوَ سببُ سعادتِهِ في اعتقادِهِ ؟

---

(١) تقدم ، ولفظه : « إذا رأيت شحاً مطاعاً ، وهوىً متبعاً ، وإعجاب كل ذي رأي برأيه . . فعليك بخاصة نفسك » .

وإنَّما علاجُهُ على الجملةِ : أنْ يكونَ متَّهِماً لرأيِهِ أبداً ، لا يغترُّ بهِ إلا أنْ يشهدَ لهُ قاطعٌ مِنْ كتابٍ ، أوْ سنَّةٍ ، أوْ دليلٍ عقليٍّ صحيحٍ جامعٍ لشروطِ الأدلَّةِ ، ولنْ يعرفَ الإنسانُ أدلةَ الشرعِ والعقلِ وشروطَها ومكامنَ الغلطِ فيها إلا بقريحةٍ تامَّةٍ ، وعقلٍ ثاقبٍ ، وجدٍّ وتشميرٍ في الطلبِ ، وممارسةٍ للكتابِ والسنةِ ، ومجالسةٍ لأهلِ العلمِ طولَ العمرِ ، ومدارسةٍ للعلومِ ، ومعَ ذلكَ فلا يُؤمنُ عليهِ الغلطُ في بعضِ الأمورِ .

والصوابُ لمَنْ لمْ يتفرَّغْ لاستغراقِ عمرِهِ في العلمِ : ألاَّ يخوضَ في المذاهبِ ، ولا يصغيَ إليها ولا يسمعَها ، ولكنْ يعتقدُ أنَّ اللهَ تعالىٰ واحدٌ لا شريكَ لهُ ، وأنَّهُ ليسَ كمثلِهِ شيءٌ وهوَ السميعُ البصيرُ ، وأنَّ رسولَهُ صادقٌ فيما أخبرَ بهِ ، ويتبعُ سنةَ السلفِ ، ويؤمنُ بجملةِ ما جاءَ بهِ الكتابُ والسنةُ مِنْ غيرِ بحثٍ وتنقيرٍ وسؤالٍ عنْ تفصيلٍ ، بلْ يقولُ : آمنَّا وصدَّقنا ، ويشتغلُ بالتقوىٰ ، واجتنابِ المعاصي ، وأداءِ الطاعاتِ ، والشفقةِ على المسلمينَ ، وسائرِ الأعمالِ ، فإنْ خاضَ في المذاهبِ والبدعِ والتعصبِ في العقائدِ . . هلكَ مِنْ حيثُ لا يشعرُ ، هـٰذا حقُّ كلِّ مَنْ عزمَ علىٰ أنْ يشتغلَ في عمرِهِ بشيءٍ غيرِ العلمِ .

فأمَّا الذي عزمَ على التجرُّدِ للعلمِ . . فأوَّلُ مهمٍّ لهُ معرفةُ الدليلِ وشروطِهِ ، وذلكَ ممَّا يطولُ الأمرُ فيهِ ، والوصولُ إلى اليقينِ والمعرفةِ في أكثرِ المطالبِ شديدٌ ، لا يقدرُ عليهِ إلا الأقوياءُ المؤيدونَ بنورِ اللهِ تعالىٰ ،

وهوَ عزيزُ الوجودِ جدّاً ، فنسألُ اللهَ تعالى العصمةَ مِنَ الضلالِ ، ونعوذُ بهِ مِنَ الاغترارِ بخيالاتِ الجهَّالِ .

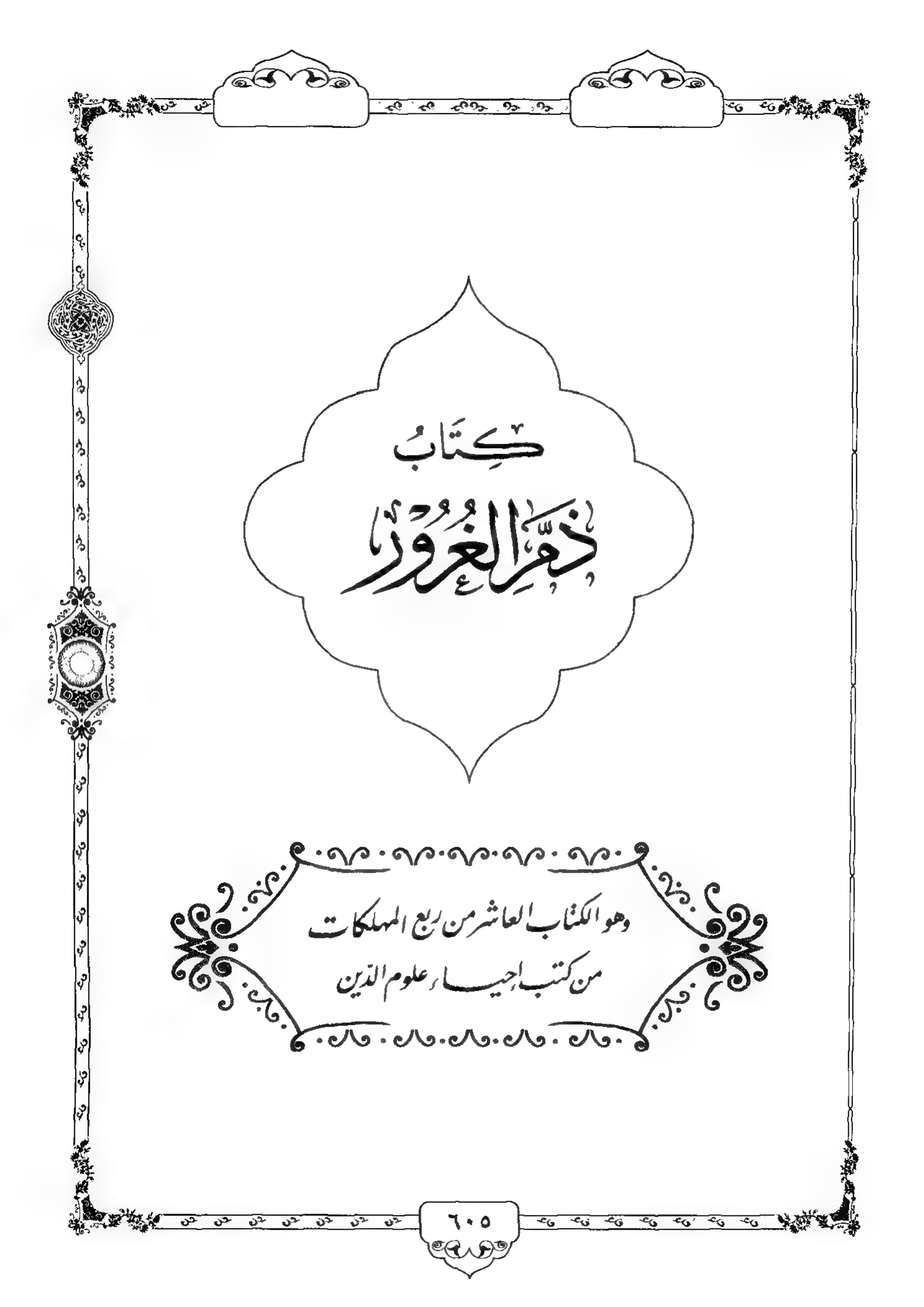
* * *

تمّ كتاب ذمّ الكبر والعجب

وهو الكتاب التّاسع من ربع المهلكات من كتب إحياء علوم الدّين

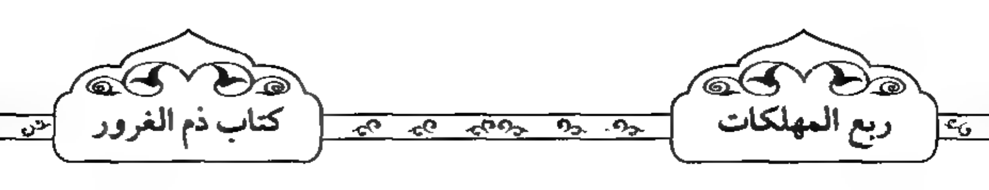
وصلّى الله على سيّدنا محمّد النّبيّ العربيّ المصطفى وعلى آله وصحبه وسلّم

يتلوه كتاب ذمّ الغرور



كتاب ذمِّ الغرور

وهو الكتاب العاشر من ربع المهلكات
من كتب إحياء علوم الدين



كتاب ذمّ الغرور

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ الذي بيدِهِ مقاليدُ الأمورِ ، وبقدرتِهِ مفاتيحُ الخيراتِ والشرورِ ، مخرجِ أوليائِهِ مِنَ الظلماتِ إلى النورِ ، وموردِ أعدائِهِ ورَطاتِ الغرورِ .

والصلاةُ علىٰ محمدٍ مخرجِ الخلائقِ مِنَ الديجورِ ، وعلىٰ آلهِ وأصحابِهِ الذينَ لمْ تغرَّهُمُ الحياةُ الدنيا ولمْ يغرَّهُمْ باللهِ الغَرورُ ، صلاةً تتوالىٰ علىٰ ممرِّ الدهورِ ، ومكرِّ الساعاتِ والشهورِ .

أما بعد :

فمفتاحُ السعادةِ التيقُّظُ والفطنةُ ، ومنبعُ الشقاوةِ الغرورُ والغفلةُ ، فلا نعمةَ للهِ علىٰ عبادِهِ أعظمُ مِنَ الإيمانِ والمعرفةِ ، ولا وسيلةَ إليهِ سوى انشراحِ الصدرِ بنورِ البصيرةِ ، ولا نقمةَ أعظمُ مِنَ الكفرِ والمعصيةِ ، ولا داعيَ إليهما سوىٰ عمى القلبِ بظلمةِ الجهالةِ ، فالأكياسُ وأربابُ البصائرِ قلوبُهُمْ ﴿ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ ، والمغترونَ قلوبُهُمْ ﴿ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن

فَوْقِهِۦ سَحَابٌۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ .

فالأكياسُ همُ الذينَ أرادَ اللهُ أنْ يهديَهُمْ ، فشرحَ صدورَهُمْ للإسلامِ والهدىٰ ، والمغترُّونَ هُمُ الذينَ أرادَ اللهُ أنْ يضلَّهُمْ ، فجعلَ صدرَهُمْ ضيِّقاً حرجاً كأنَّما يصَّعَّدُ في السماءِ ، والمغرورُ هوَ الذي لمْ تنفتحْ بصيرتُهُ ليكونَ بهدايةِ نفسهِ كفيلاً ، وبقيَ في العمىٰ فاتخذَ الهوىٰ قائداً والشيطانَ دليلاً ، ﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ .

وإذا عُرفَ أنَّ الغرورَ هوَ أمُّ الشقاواتِ ، ومنبعُ المهلكاتِ . . فلا بدَّ مِنْ شرحِ مداخلِهِ ومجاريهِ ، وتفصيلِ ما يكثرُ وقوعُ الغرورِ فيهِ ؛ ليحذرَهُ المريدُ بعدَ معرفتِهِ فيتقيهُ ، فالموفَّقُ مِنَ العبادِ مَنْ عرفَ مداخلَ الآفاتِ والفسادِ فأخذَ منها حذرَهُ ، وبنىٰ على الحزمِ والبصيرةِ أمرَهُ .

ونحنُ نشرحُ أجناسَ مجاري الغرورِ ، وأصنافَ المغترِّينَ مِنَ العصاةِ والعلماءِ والصالحينَ ، الذينَ اغترُّوا بمبادي الأمورِ الجميلةِ ظواهرُها ، القبيحةِ سرائرُها ، ونشيرُ إلىٰ وجهِ اغترارِهِمْ بها وغفلتِهِمْ عنها ؛ فإنَّ ذلكَ وإنْ كانَ أكثرَ ممَّا يُحصىٰ ، ولكنْ يمكنُ التنبيهُ علىٰ أمثلةٍ تُغني عنِ الاستقصا .

وفِرَقُ المغترينَ كثيرةٌ ، ولكنْ يجمعُهُمْ أربعةُ أصنافٍ :

الصنفُ الأولُ : مِنَ العلماءِ ، الصنفُ الثاني : مِنَ العبّادِ ، الصنفُ

الثالثُ : مِنَ المتصوِّفَةِ ، الصنفُ الرابعُ : مِنْ أربابِ الأموالِ .

والمغترُّ مِنْ كلِّ صنفٍ فرقٌ كثيرةٌ ، وجهاتُ غرورِهِمْ مختلفةٌ ؛ فمنهُمْ مَن رأى المنكرَ معروفاً ؛ كالذي يتَّخذُ المساجدَ ويزخرفُها مِنَ المالِ الحرامِ ، ومنهُمْ مَنْ لمْ يميِّزْ بينَ ما يسعىٰ فيهِ لنفسِهِ وبينَ ما يسعىٰ فيهِ للهِ تعالىٰ ؛ كالواعظِ الذي غرضُهُ القبولُ والجاهُ ، ومنهُمْ مَنْ يتركُ الأهمَّ ويشتغلُ بغيرِهِ ، ومنهُمْ مَنْ يتركُ الفرضَ ويشتغلُ بالنافلةِ ، ومنهُمْ مَنْ يتركُ اللُّبابَ ويشتغلُ بالقشرِ ؛ كالذي يكونُ همُّهُ في الصلاةِ مقصوراً علىٰ تصحيحِ مخارجِ الحروفِ ، إلىٰ غيرِ ذلكَ مِنْ مداخلَ لا تتضحُ إلا بتفصيلِ الفِرَقِ وضربِ الأمثلةِ .

ولنبدأْ أوَّلاً بذكرِ غرورِ العلماءِ ، ولكنْ بعدَ بيانِ ذمِّ الغرورِ ، وبيانِ حقيقتِهِ وحدِّهِ .

* * *

بيان ذمّ الغرور وحقيقته وأمثلته

اعلمْ : أنَّ قولَهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ ، وقولَهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ. . . ﴾ الآيةَ . . كافٍ في ذمِّ الغرورِ .

وقدْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « حبَّذا نومُ الأكياسِ وفطرُهُمْ ، كيفَ يغبنونَ سهرَ الحمقىٰ واجتهادَهُمْ ولمثقالُ ذرَّةٍ مِنْ صاحبِ تقوىٰ ويقينٍ أفضلُ مِنْ ملءِ الأرضِ مِنَ المغترِّينَ ؟! »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الكيِّسُ مَنْ دانَ نفسَهُ وعملَ لما بعدَ الموتِ ، والأحمقُ مَنْ أتبعَ نفسَهُ هواها وتمنَّىٰ على اللهِ »(٢) .

وكلُّ ما وردَ في فضلِ العلمِ وذمِّ الجهلِ . . فهوَ دليلٌ علىٰ ذمِّ الغرورِ ؛ لأنَّ الغرورَ عبارةٌ عنْ بعضِ أنواعِ الجهلِ ؛ إذِ الجهلُ هوَ أنْ يعتقدَ الشيءَ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « اليقين » (٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢١١) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه موقوفاً عليه ، قال الحافظ العراقي : (ولم أجده مرفوعاً) . « إتحاف » (٨/ ٤٢٨) .

(٢) رواه الترمذي (٢٤٥٩) ، وابن ماجه (٤٢٦٠) ، وفيهما : « العاجز » بدل « الأحمق » ، وورد لفظ (الأحمق) عند ابن سلاَّم في « غريب الحديث » (٣/ ١٣٤) ، دان نفسه : جعلها منقادة مطيعة لربِّها تعالىٰ ، وتمنَّىٰ على الله : فهو مع تقصيره في طاعة الله واتباع الشهوات . . لا يعتذر ولا يرجع ، بل يتمنىٰ على الله العفو والجنة مع الإصرار وترك التوبة والاستغفار . انظر « الإتحاف » (٧/ ٤٤) .

ويراهُ علىٰ خلافِ ما هوَ بهِ ، والغرورُ هوَ جهلٌ ، إلا أنَّ كلَّ جهلٍ ليسَ بغرورٍ ، بلْ يستدعي الغرورُ مغروراً فيهِ مخصوصاً ، ومغروراً بهِ وهوَ الذي يغرُّهُ ، فمهما كانَ المجهولُ المعتقَدُ شيئاً يوافقُ الهوىٰ ، وكانَ السببُ الموجبُ للجهلِ شبهةً ومَخِيلةً فاسدةً يظنُّ أنَّها دليلٌ ولا تكونُ دليلاً . . سُميَ الجهلُ الحاصلُ بهِ غروراً .

فالغرورُ : هوَ سكونُ النفسِ إلىٰ ما يوافقُ الهوىٰ ويميلُ إليهِ الطبعُ عنْ شبهةٍ وخدعةٍ مِنَ الشيطانِ ؛ فمَنِ اعتقدَ أنَّهُ علىٰ خيرٍ إمَّا في العاجلِ أوْ في الآجلِ عنْ شبهةٍ فاسدةٍ . . فهوَ مغرورٌ ، وأكثرُ الناسِ يظنُّونَ بأنفسِهِمُ الخيرَ وهمْ مخطئونَ فيهِ ، فأكثرُ الناسِ إذاً مغرورونَ وإنْ اختلفَتْ أصنافُ غرورِهِمْ واختلفَتْ درجاتُهُمْ ، حتَّىٰ كانَ غرورُ بعضِهِمْ أظهرَ وأشدَّ مِنْ بعضٍ ، وأظهرُها وأشدُّها غرورانِ ؛ غرورُ الكفارِ ، وغرورُ العصاةِ والفسَّاقِ ، فلنوردْ أمثلةً لحقيقةِ الغرورِ :

المثالُ الأولُ : غرورُ الكفارِ :

فمنهُمْ مَنْ غرَّتْهُمُ الحياةُ الدنيا ، ومنهُمْ مَنْ غرَّهُ باللهِ الغَرورُ .

أمَّا الذينَ غرَّتْهُمُ الحياةُ الدنيا . . فهمُ الذينَ قالوا : النقدُ خيرٌ مِنَ النسيئةِ ، والدنيا نقدٌ والآخرةُ نسيئةٌ ، فإذاً هيَ خيرٌ ، فلا بدَّ مِنْ إيثارِها ، وقالوا : اليقينُ خيرٌ مِنَ الشكِّ ، ولذَّاتُ الدنيا يقينٌ ، ولذَّاتُ الآخرةِ شكٌّ ؛ فلا نتركُ اليقينَ بالشكِّ .

وهٰذهِ أقيسةٌ فاسدةٌ ؛ تشبهُ قياسَ إبليسَ حيثُ قالَ : ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ ، وإلىٰ هؤلاءِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ .

وعلاجُ هٰذا الغرورِ : إمَّا بتصديقِ الإيمانِ ، وإمَّا بالبرهانِ .

أمَّا التصديقُ بمجرَّدِ الإيمانِ . . فهوَ أنْ يصدِّقَ اللهَ تعالىٰ في قولِهِ : ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾ ، وفي قولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ ، وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ ، وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ ، وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾ .

وقدْ أخبرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بذلكَ طوائفَ مِنَ الكفارِ ، فقلَّدوهُ وصدَّقوهُ وآمنوا بهِ ، ولمْ يطالبوهُ بالبرهانِ[1] ، ومنهُمْ مَنْ قالَ : نشدتُكَ اللهَ ؛ أبعثَكَ اللهُ رسولاً ؟ فكانَ يقولُ : « نعمْ »[2] ، فيصدِّقُ ، وهٰذا إيمانُ العامَّةِ ، وهوَ مخرجٌ مِنَ الغرورِ ، ويُنزَّلُ هٰذا منزلةَ تصديقِ الصبيِّ والدَهُ في أنَّ حضورَ المكتبِ خيرٌ مِنْ حضورِ الملعبِ ، معَ أنَّهُ لا يدري وجهَ كونِهِ خيراً .

---

(١) كإيمان كثير من الأنصار ، وقد روىٰ أحمد في « المسند » (٣/ ٣٢٢) من حديث جابر رضي الله عنه يحكي خبرهم : (فيخرج الرجل منَّا فيؤمن به ، ويقرئه القرآن ، فينقلب إلىٰ أهله فيسلمون بإسلامه . . .) .

(٢) وكان ذلك في قصة إيمان ضِمَام بن ثعلبة رضي الله عنه ، وهي عند البخاري (٦٣) .

وأمَّا المعرفةُ بالبيانِ والبرهانِ. . فهوَ أنْ يعرفَ وجهَ فسادِ هـٰذا القياسِ الذي نظمَهُ في قلبِهِ الشيطانُ ، فإنَّ كلَّ مغرورٍ فلغرورِهِ سببٌ ، وذلكَ السببُ هوَ دليلٌ ، وكلُّ دليلٍ فهوَ نوعُ قياسٍ يقعُ في النفسِ ، ويورثُ السكونَ إليهِ وإنْ كانَ صاحبُهُ لا يشعرُ بهِ ولا يقدرُ علىٰ نظمِهِ بألفاظِ العلماءِ ، فالقياسُ الذي نظمَهُ الشيطانُ فيهِ أصلانِ : أحدُهُما : أنَّ الدنيا نقدٌ والآخرةُ نسيئةٌ ، وهـٰذا صحيحٌ ، والآخرُ : قولُهُ : إنَّ النقدَ خيرٌ مِنَ النسيئةِ ، وهـٰذا محلُّ التلبيسِ ؛ فليسَ الأمرُ كذلكَ ، بلْ إنْ كانَ النقدُ مثلَ النسيئةِ في المقدارِ والمقصودِ. . فهوَ خيرٌ ، وإنْ كانَ أقلَّ منهُ. . فالنسيئةُ خيرٌ ، فإنَّ هـٰذا الكافرَ المغرورَ يبذلُ في تجارتِهِ درهماً ليأخذَ عشرةً نسيئةً ولا يقولُ : النقدُ خيرٌ مِنَ النسيئةِ فلا أتركُهُ ، وإذا حذَّرَهُ الطبيبُ الفواكهَ ولذائذَ الأطعمةِ. . تركَ ذلكَ في الحالِ ؛ خوفاً مِنْ ألمِ المرضِ في المستقبلِ ، فقدْ تركَ النقدَ ورضيَ بالنسيئةِ ، والتجارُ كلُّهُمْ يركبونَ البحارَ ويتعبونَ في الأسفارِ نقداً لأجلِ الراحةِ والربحِ نسيئةً ، فإنْ كانَ عشرةٌ في ثاني الحالِ خيراً مِنْ واحدٍ في الحالِ. . فانسبْ لذَّةَ الدنيا مِنْ حيثُ مدَّتُها إلىٰ مدَّةِ الآخرةِ ؛ فإنَّ أقصىٰ عمرِ الإنسانِ مئةُ سنةٍ ، وليسَ هوَ عُشرَ عَشيرٍ مِنْ جزءٍ مِنْ ألفِ ألفِ جزءٍ مِنَ الآخرةِ ، فكأنَّهُ قدْ تركَ واحداً ليأخذَ ألفَ ألفٍ ، بلْ ليأخذَ ما لا نهايةَ لهُ ولا حدَّ ، وإنْ نظرَ مِنْ حيثُ النوعُ. . رأىٰ لذَّاتِ الدنيا مكدَّرةً مشوبةً بأنواعِ المنغِّصاتِ ، ولذاتِ الآخرةِ صافيةً غيرَ مكدَّرةٍ .

فإذاً ؛ قدْ غلطَ في قولِهِ : النقدُ خيرٌ مِنَ النسيئةِ ، وهـٰذا غرورٌ منشؤُهُ

قبولُ لفظٍ عامٍّ مشهورٍ أُطلقَ وأريدَ بهِ خاصٌّ ، فغفلَ المغرورُ عنْ خصوصِ معناهُ ، فإنَّ مَنْ قالَ : النقدُ خيرٌ مِنَ النسيئةِ . . أرادَ بهِ خيراً مِنْ نسيئةٍ هيَ مثلُهُ وإنْ لم يصرِّح بهِ .

وعندَ هٰذا يفزعُ الشيطانُ إلى القياسِ الآخرِ ، وهوَ قولُهُ : اليقينُ خيرٌ مِنَ الشكِّ ، والآخرةُ شكٌّ ، وهٰذا القياسُ أكثرُ فساداً مِنَ الأولِ ؛ لأنَّ كِلا أصليهِ باطلٌ ؛ إذِ اليقينُ خيرٌ مِنَ الشكِّ إذا كانَ مثلَهُ ، وإلا . . فالتاجرُ في تعبِهِ علىٰ يقينٍ وفي ربحِهِ علىٰ شكٍّ ، والمتفقِّهُ في اجتهادِهِ علىٰ يقينٍ وفي إدراكِهِ رتبةَ العلمِ علىٰ شكٍّ ، والصيَّادُ في تردُّدِهِ في المقتنصِ علىٰ يقينٍ وفي الظَّفَرِ بالصيدِ علىٰ شكٍّ ، وكذا الحزمُ دأبُ العقلاءِ بالاتفاقِ ، وكلُّ ذلكَ تركٌ لليقينِ بالشكِّ ، ولكنَّ التاجرَ يقولُ : إنْ لمْ أتَّجرْ . . بقيتُ جائعاً وعَظُمَ ضرري ، وإنِ اتَّجرتُ . . كانَ تعبي قليلاً وربحي كثيراً ، وكذلكَ المريضُ يشربُ الدواءَ البشعَ الكريهَ وهوَ مِنَ الشفاءِ علىٰ شكٍّ ومِنْ مرارةِ الدواءِ علىٰ يقينٍ ، ولكنْ يقولُ : ضررُ مرارةِ الدواءِ قريبٌ بالإضافةِ إلىٰ ما أخافُهُ مِنَ المرضِ والموتِ ؛ فكذلكَ مَنْ شكَّ في الآخرةِ فواجبٌ عليهِ بحكمِ الحزمِ أنْ يقولَ : الصبرُ أياماً قلائلَ وهوَ منتهى العمرِ قريبٌ بالإضافةِ إلىٰ ما يُقالُ مِنْ أمرِ الآخرةِ ، فإنْ كانَ ما قيلَ فيهِ كذباً . . فما يفوتُني إلا التنعُّمُ أيامَ حياتي ، وقدْ كنتُ في العدمِ مِنَ الأزلِ إلى الآنَ لا أتنعَّمُ ، فأحسِبُ أنِّي بقيتُ في العدمِ ، وإنْ كانَ ما قيلَ صدقاً . . فأبقىٰ في النارِ أبدَ الآبادِ ، وهٰذا لا يُطاقُ .

ولذلكَ قالَ عليٌّ كرمَ اللهُ وجهَهُ لبعضِ الملحدينَ : (إنْ كانَ ما قلتَهُ حقّاً . . فقدْ تخلَّصتَ وتخلَّصنا ، وإنْ كانَ ما قلناهُ حقّاً . . فقدْ تخلَّصنا وهلكتَ)[1] ، وما قالَ هـٰذا عن شكٍّ منهُ في الآخرةِ ، ولكنْ كلَّمَ الملحدَ علىٰ قدْرِ عقلِهِ ، وبيَّنَ لهُ أنَّهُ وإنْ لمْ يكنْ متيقناً . . فهوَ مغرورٌ .

وأمَّا الأصلُ الثاني مِنْ كلامِهِ وهوَ أنَّ الآخرةَ شكٌّ . . فهوَ أيضاً خطأٌ ، بلْ ذلكَ يقينٌ عندَ المؤمنينَ ، وليقينِهِ مدركانِ :

أحدُهُمَا : الإيمانُ والتصديقُ ؛ تقليداً للأنبياءِ والعلماءِ ، وذلكَ أيضاً يزيلُ الغرورَ ، وهوَ مدركُ يقينِ العوامِّ وأكثرِ الخواصِّ ، ومثالُهُمْ مثالُ مريضٍ لا يُعرَفُ دواءُ علَّتِهِ ، وقدِ اتفقَ الأطباءُ وأهلُ الصناعةِ مِنْ عندِ آخرِهِمْ علىٰ أنَّ دواءَهُ النبتُ الفلانيُّ ؛ فإنَّهُ تطمئنُّ نفسُ المريضِ إلىٰ تصديقِهِمْ ، ولا يطالبُهُمْ بتصحيحِ ذلكَ بالبراهينِ الطبيَّةِ ، بلْ يثقُ بقولِهِمْ ويعملُ بهِ ، ولوْ بقيَ سواديٌّ أوْ معتوهٌ يكذِّبُهُمْ في ذلكَ وهوَ يعلمُ بالتواترِ وقرائنِ الأحوالِ أنَّهُمْ أكثرُ منهُ عدداً ، وأغزرُ منهُ فضلاً ، وأعلمُ بالطبِّ منهُ ، بلْ لا علمَ لهُ بالطبِّ . . فيعلمُ كذبَهُ بقولِهِمْ ، ولا يعتقدُ كذبَهُمْ بقولِهِ ، ولا يفتُرُ في عملِهِ بسببِهِ[2] ، ولوِ اعتمدَ قولَهُ وتركَ قولَ الأطباءِ . . كانَ معتوهاً مغروراً .

فكذلكَ مَنْ نظرَ إلى المقرِّينَ بالآخرةِ والمخبرينَ عنها ، والقائلينَ بأنَّ

---

(١) أورده الشريف في « نهج البلاغة » . « إتحاف » (٨/ ٤٣٢) وسيأتي .

(٢) وفي نسخة الحافظ الزبيدي (٨/ ٤٣٢) : (ولا يغتر في عمله) .

التقوىٰ هوَ الدواءُ النافعُ في الوصولِ إلىٰ سعادتِها . . وجدَهُمْ خيرَ خلقِ اللهِ ، وأعلاهُمْ رتبةً في البصيرةِ والمعرفةِ والعقلِ ، وهمُ الأنبياءُ والأولياءُ والحكماءُ والعلماءُ ، واتَّبَعَهُمْ عليهِ الخلقُ علىٰ أصنافِهِمْ ، وشذَّ منهُمْ آحادٌ مِنَ البطَّالينَ غلبَتْ عليهِمُ الشهوةُ ، ومالَتْ نفوسُهُمْ إلى التمتُّعِ ، فعظُمَ عليهِمْ تركُ الشهواتِ ، وعظُمَ عليهِمُ الاعترافُ بأنَّهُمْ مِنْ أهلِ النارِ ، فجحدوا الآخرةَ وكذَّبوا الأنبياءَ ، فكما أنَّ قولَ الصبيِّ وقولَ السواديِّ لا يزيلُ طمأنينةَ القلبِ إلىٰ ما اتفقَ عليهِ الأطباءُ . . فكذلكَ قولُ هـٰذا الغبيِّ الذي استرقَّتْهُ الشهواتُ لا يشكِّكُ في صحةِ أقوالِ الأنبياءِ والأولياءِ والعلماءِ .

وهـٰذا القدْرُ مِنَ الإيمانِ كافٍ لجملةِ الخلقِ ، وهوَ يقينٌ جازمٌ يستحثُّ على العملِ لا محالةَ ، والغرورُ يزولُ بهِ .

وأمَّا المدركُ الثاني لمعرفةِ الآخرةِ . . فهوَ الوحيُ والإلهامُ ، والوحيُ للأنبياءِ ، والإلهامُ للأولياءِ ، ولا تظنَّنَّ أنَّ معرفةَ النبيِّ لأمرِ الآخرةِ ولأمورِ الدينِ تقليدٌ لجبريلَ عليهِ السلامُ بالسماعِ منهُ ؛ كما أنَّ معرفتكَ تقليدٌ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حتَّىٰ تكونَ معرفتُكَ كمعرفتِهِ ، وإنَّما يختلفُ المقلَّدُ فقطْ ، هيهاتَ ! فإنَّ التقليدَ ليسَ بمعرفةٍ ، بلْ هوَ اعتقادٌ صحيحٌ ، والأنبياءُ عارفونَ ، ومعنىٰ معرفتِهِمْ أنَّهُ كُشِفَ لهُمْ حقيقةُ الأشياءِ كما هيَ عليها ، فشاهدوها بالبصيرةِ الباطنةِ كما تشاهدُ أنتَ المحسوساتِ بالبصرِ الظاهرِ ، فيخبرونَ عنْ مشاهدةٍ لا عنْ سماعٍ وتقليدٍ ، وذلكَ بأنْ يُكشفَ لهُمْ عنْ حقيقةِ الروحِ ، وأنَّهُ مِنْ أمرِ اللهِ تعالىٰ ، وليسَ المرادُ بكونِهِ مِنْ أمرِ اللهِ

الأمرَ الذي يقابلُ النهيَ ؛ لأنَّ ذلكَ الأمرَ كلامٌ ، والروحُ ليسَ بكلامٍ ، وليسَ المرادُ بالأمرِ الشأنَ حتَّىٰ يكونَ المرادُ بهِ أنَّهُ مِنْ خلقِ اللهِ تعالىٰ فقطْ ، لأنَّ ذلكَ عامٌّ في جميعِ المخلوقاتِ ، بلِ العالَمُ عالمانِ : عالمُ الأمرِ ، وعالمُ الخلقِ ، وللهِ الخلقُ والأمرُ ، فالأجسامُ ذواتُ الكميةِ والمقاديرِ مِنْ عالمِ الخلقِ ؛ إذِ الخلقُ عبارةٌ عنِ التقديرِ في وضعِ اللسانِ ، وكلُّ موجودٍ منزَّهٌ عنِ الكميةِ والمقدارِ فإنَّهُ مِنْ عالمِ الأمرِ ، وشرحُ ذلكَ سرُّ الروحِ ، ولا رخصةَ في ذكرِهِ ؛ لاستضرارِ أكثرِ الخلقِ بسماعِهِ ؛ كسرِّ القدرِ الذي منعَ مِنْ إفشائِهِ ، فمَنْ عرفَ سرَّ الروحِ . . فقدْ عرفَ نفسَهُ ، وإذا عرفَ نفسَهُ . . فقدْ عرفَ ربَّهُ ، وإذا عرفَ نفسَهُ وربَّهُ . . عرفَ أنَّهُ أمرٌ ربانيٌّ بطبعِهِ وفطرتِهِ ، وأنَّهُ في العالمِ الجسمانيِّ غريبٌ ، وأنَّ هبوطَهُ إليهِ لمْ يكنْ بمقتضىٰ طبعِهِ في ذاتِهِ ، بلْ بأمرٍ عارضٍ غريبٍ مِنْ ذاتِهِ ، وذلكَ العارضُ الغريبُ وردَ علىٰ آدمَ عليهِ السلامُ وعُبِّرَ عنهُ بالمعصيةِ ، وهيَ التي حطَّتْهُ عنِ الجنةِ التي هيَ أليقُ بهِ بمقتضىٰ ذاتِهِ ؛ فإنَّها في جوارِ الربِّ تعالىٰ ، وأنَّهُ أمرٌ ربانيٌّ ، وحنينُهُ إلىٰ جوارِ الربِّ تعالىٰ لهُ طبعيٌّ ذاتيٌّ إلا أنْ يصرفَهُ عنْ مقتضىٰ طبعِهِ عوارضُ العالمِ الغريبِ مِنْ ذاتِهِ ، فينسىٰ عندَ ذلكَ نفسَهُ وربَّهُ ، ومهما فعلَ ذلكَ . . فقدْ ظلمَ نفسَهُ ؛ إذْ قيل له : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾(١) أي :

---

(١) أي : تركوا معرفة الله تعالىٰ ولم يذكروه ، فجعلهم ناسين لأنفسهم فلم يعرفوها ، ففيه أن نسيان النفس من ثمرات نسيان الرب ، كما أن نسيان النفس يورث نسيان الرب ، =

الخارجونَ عنْ مقتضىٰ طبعِهِمْ وَمظِنَّةِ استحقاقِهِمْ ، يُقالُ : فسقَتِ الرطبةُ عنْ كِمامِها ؛ إذا خرجَتْ عنْ معدنِها الفطريِّ .

وهٰذهِ إشارةٌ إلىٰ أسرارٍ يهتزُّ لاستنشاقِ روائِحها العارفونَ ، وتشمئزُّ منْ سماعِ ألفاظِها القاصرونَ ، فإنَّها تضرُّ بهِمْ كما تضرُّ رياحُ الوردِ بالجُعَلِ ، وتبهرُ أعينَهُمُ الضعيفةَ كما تبهرُ الشمسُ أبصارَ الخفافيشِ ، وانفتاحُ هٰذا البابِ مِنْ سرِّ القلبِ إلىٰ عالمِ الملكوتِ يُسمَّىٰ معرفةً وولايةً ، ويُسمَّىٰ صاحبُهُ وليّاً وعارفاً ، وهيَ مبادي مقاماتِ الأنبياءِ ، وآخرُ مقاماتِ الأولياءِ أوَّلُ مقاماتِ الأنبياءِ .

ولنرجعْ إلى الغرضِ المطلوبِ ؛ فالمقصودُ أنَّ غرورَ الشيطانِ بأنَّ الآخرةَ شكٌّ يُدفَعُ إمَّا بيقينٍ تقليديٍّ ، وإمَّا ببصيرةٍ ومشاهدةٍ مِنْ جهةِ الباطنِ ، والمؤمنونَ بألسنتِهِمْ وبعقائدِهِمْ إذا ضيَّعوا أوامرَ اللهِ تعالىٰ ، وهجروا الأعمالَ الصالحةَ ، ولابسوا الشهواتِ والمعاصيَ . . فهُمْ مشاركونَ للكفَّارِ في هٰذا الغرورِ ؛ لأنَّهُمْ آثروا الحياةَ الدنيا على الآخرةِ .

نعمْ ، أمرُهُمْ أخفُّ ؛ لأنَّ أصلَ الإيمانِ يعصمُهُمْ عنْ عقابِ الأبدِ ، فيخرجونَ مِنَ النارِ ولوْ بعدَ حينٍ ، ولكنَّهُمْ أيضاً مِنَ المغرورينَ ، فإنَّهُمُ اعترفوا بأنَّ الآخرةَ خيرٌ مِنَ الدنيا ، ولكنَّهُمْ مالوا إلى الدنيا وآثروها ، ومجرَّدُ الإيمانِ لا يكفي للفوزِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ

= والمطلوب : معرفتهما جميعاً ، فتضمحل النفس ويبقى الرب . « إتحاف » (٨/ ٤٣٤) .

وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ ، ثمَّ قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الإحسانُ أنْ تعبدَ اللهَ كأنَّكَ تراهُ »[1] ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ۞ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۞ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ﴾ ، فوعدُ المغفرةِ في جميعِ كتابِ اللهِ تعالىٰ منوطٌ بالإيمانِ والعملِ الصالحِ جميعاً ، لا بالإيمانِ وحدَهُ ، فهؤلاءِ أيضاً مغرورونَ ؛ أعني : المطمئنينَ إلى الدنيا ، الفرحينَ بها ، المترفينَ بنعيمِها ، المحبِّينَ لها ، الكارهينَ للموتِ خيفةَ فواتِ لذاتِ الدنيا ، دونَ الكارهينَ لهُ خيفةً لما بعدَهُ .

فهٰذا مثالُ الغرورِ بالدنيا مِنَ الكفارِ والمؤمنينَ جميعاً .

ولنذكرْ للغرورِ باللهِ تعالىٰ مثالينِ مِنْ غرورِ الكافرينَ والعاصينَ :

فأمَّا غرورُ الكفارِ باللهِ . . فمثالُهُ : قولُ بعضِهِمْ في أنفسِهِمْ وبألسنتِهِمْ : إنَّهُ إنْ كانَ للهِ مِن معادٍ . . فنحنُ أحقُّ بهِ مِنْ غيرِنا ، ونحنُ أوفرُ حظّاً فيهِ وأسعدُ حالاً ؛ كما أخبرَ اللهُ تعالىٰ عنهُ مِنْ قولِ الرجلينِ المتحاورينِ ؛ إذْ قالَ : ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرًا مِّنۡهَا مُنقَلَبًا ﴾ ، وجملةُ أمرِهِما كما نُقِلَ في التفسيرِ : أنَّ الكافرَ منهُما بنىٰ قصراً بألفِ دينارٍ ، واشترىٰ بستاناً بألفِ دينارٍ ، وخدماً بألفِ دينارٍ ، وتزوَّجَ امرأةً علىٰ ألفِ دينارٍ ، وفي ذلك كلِّهِ يعظُهُ المؤمنُ ويقولُ : اشتريتَ قصراً يخربُ ويفنىٰ ،

---

(١) رواه البخاري (٤٧٧٧) ، ومسلم (٩) .

ألا اشتريتَ قصراً في الجنةِ لا يفنىٰ ، واشتريتَ بستاناً يخربُ ويفنىٰ ، ألا اشتريتَ بستاناً في الجنةِ لا يفنىٰ ، وخدماً لا يفنونَ ولا يموتونَ ، وزوجةً مِنَ الحورِ العينِ لا تموتُ ، وفي كلِّ ذلكَ يردُّ عليهِ الكافرُ ويقولُ : ما هناكَ شيءٌ ، وما قيلَ مِنْ ذلكَ . . فهوَ أكاذيبُ ، وإنْ كانَ . . فليكوننَّ لي في الآخرةِ خيرٌ مِنْ هـٰذا[1] .

وكذلكَ وصفَ اللهُ تعالىٰ قولَ العاصِ بنِ وائلٍ إذْ يقولُ : ﴿ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ ، فقالَ اللهُ تعالىٰ ردّاً عليهِ : ﴿ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴾ ، ورُوِيَ عنْ خبابِ بنِ الأرتِّ أنَّهُ قالَ : كانَ لي على العاصِ بنِ وائلٍ دينٌ ، فجئتُ أتقاضاهُ ، فلمْ يقضني ، فقلتُ : إنِّي آخذُهُ في الآخرةِ ، فقالَ لي : إذا صرتُ إلى الآخرةِ . . فإنَّ لي هناكَ مالاً وولداً فأقضيكَ منهُ ، فأنزلَ اللهُ تعالىٰ قولَهُ : ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴾[2] .

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ﴾ .

وهـٰذا كلُّهُ مِنَ الغرورِ باللهِ ، وسببُهُ قياسٌ مِنْ أقيسةِ إبليسَ ، وذلكَ لأنَّهُمْ ينظرونَ مرَّةً إلىٰ نعمِ اللهِ تعالىٰ عليهِمْ في الدنيا ، فيقيسونَ عليها نعمةَ الآخرةِ ، وينظرونَ مرَّةً إلىٰ تأخيرِ العذابِ عنهُمْ ، فيقيسونَ عليهِ عذابَ

---

(١) انظر « تفسير البغوي » (٣/ ١٦١) .

(٢) رواه البخاري (٢٠٩١) ، ومسلم (٢٧٩٥) .

الآخرةِ ؛ كما قالَ تعالىٰ : ﴿ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ ، ومرَّةً ينظرونَ إلى المؤمنينَ وهمْ فقراءُ شعثٌ غبرٌ ؛ فيزدرونَ بهِمْ ويستحقرونَهُمْ فيقولونَ : ﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ﴾ ، ويقولونَ : ﴿ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ﴾ .

وترتيبُ القياسِ الذي نظمَهُ الشيطانُ في قلوبِهِمْ أنَّهُمْ يقولونَ : قدْ أحسنَ اللهُ إلينا بنعيمِ الدنيا ، وكلُّ محسنٍ فهوَ محبٌّ ، وكلُّ محبٍّ فإنَّهُ يحسنُ في المستقبلِ أيضاً ؛ كما قال الشاعرُ[1] : [من المتقارب]

لَقَدْ أَحْسَنَ اللهُ فِيما مَضَى		كَذَلِكَ يُحْسِنُ فِيما بَقِي

وإنَّما يقيسُ المستقبلَ على الماضي بواسطةِ الكرامةِ والحبِّ ؛ إذْ يقولُ : لولا أنِّي كريمٌ عندَ اللهِ تعالىٰ ومحبوبٌ . . لما أحسنَ إليَّ ، والتلبيسُ تحتَ ظنِّهِ أنَّ كلَّ محسنٍ محبٌّ ، لا بلْ تحتَ ظنِّهِ أنَّ إنعامَهُ عليهِ في الدنيا إحسانٌ ، فقدِ اغترَّ باللهِ تعالىٰ ؛ إذْ ظنَّ أنَّهُ كريمٌ عندَهُ بدليلٍ لا يدلُّ على الكرامةِ ، بلْ عندَ ذوي البصائرِ يدلُّ على الهوانِ .

ومثالُهُ أنْ يكونَ للرجلِ عبدانِ صغيرانِ يبغضُ أحدَهُما ويحبُّ الآخرَ ، فالذي يحبُّهُ يمنعُهُ مِنَ اللعبِ ويلزمُهُ المكتبَ ، ويحبسُهُ فيهِ ليعلِّمَهُ الأدبَ ، ويمنعُهُ مِنَ الفواكهِ وملاذِّ الأطعمةِ التي تضرُّهُ ، ويسقيهِ الأدويةَ التي تنفعُهُ ،

---

(١) البيت مما نسب إلىٰ سيدنا علي في « ديوانه » الموسوم بـ« أنوار العقول لوصي الرسول » (ص ١٨٢) ، ولشهاب الدين التلعفري في « ديوانه » (ص ٥٨٨) ، ولمنصور بن إسماعيل الفقيه . انظر « زهر الآداب » (٢/ ٨٢٧) .

والذي يبغضُهُ يهملُهُ ليعيشَ كيفَ يريدُ ، فيلعبُ ، ولا يدخلُ المكتبَ ، ويأكلُ كلَّ ما يشتهي ، فيظنُّ هٰذا الصبيُّ المهملُ أنَّهُ عندَ سيِّدِهِ محبوبٌ كريمٌ ؛ لأنَّهُ مكَّنَهُ مِنْ شهواتِهِ ولذاتِهِ ، وساعدَهُ علىٰ جميعِ أغراضِهِ ، فلمْ يمنعْهُ ولم يحجُرْ عليهِ ، وذلكَ محضُ الغرورِ ، وهٰكذا نعيمُ الدنيا ولذاتُها ؛ فإنَّها مهلكاتٌ ومبعداتٌ مِنَ اللهِ ، وإنَّ اللهَ يحمي عبدَهُ الدنيا وهوَ يحبُّهُ كما يحمي أحدُكُمْ مريضَهُ مِنَ الطعامِ والشرابِ وهوَ يحبُّهُ ، هٰكذا وردَ في الخبرِ عنْ سيِّدِ البشرِ[1] .

وكانَ أربابُ البصائرِ إذا أقبلَتْ عليهِمُ الدنيا . . حزنوا وقالوا : ذنبٌ عُجِّلَتْ عقوبتُهُ ، ورأَوا ذلكَ أمارةَ المقتِ والإهمالِ ، وإذا أقبلَ عليهِمُ الفقرُ . . قالوا : مرحباً بشعارِ الصالحينَ[2] .

والمغرورُ إذا أقبلَتْ عليهِ الدنيا . . ظنَّ أنَّها كرامةٌ مِنَ اللهِ ، وإذا صُرِفَتْ عنهُ . . ظنَّ أنَّهُ هوانٌ ؛ كما أخبرَ اللهُ تعالىٰ عنهُ إذْ قالَ : ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ۝ كَلَّا ﴾ أيْ : ليسَ كما قالَ ، إنَّما هوَ ابتلاءٌ ، نعوذُ باللهِ مِنْ شرِّ البلاءِ ، ونسألُ اللهَ التثبيتَ ، فبيَّنَ أنَّ ذلكَ غرورٌ ، قالَ الحسنُ : كذَّبَهُما

(١) رواه الترمذي (٢٠٣٦) .
(٢) كما روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٥) عن كعب قال : (إن الرب تعالىٰ قال لموسىٰ عليه السلام : يا موسىٰ ؛ إذا رأيت الغنىٰ مقبلاً . . فقل : ذنب عجلت عقوبته ، وإذا رأيت الفقر مقبلاً . . فقل : مرحباً بشعار الصالحين) .

جميعاً بقولِهِ : ﴿ كَلَّا ﴾ يقولُ : ليسَ هٰذا بكرامتي ، ولا هٰذا بهواني ، ولكنَّ الكريمَ مَنْ أكرمتُهُ بطاعتي ، غنياً كانَ أوْ فقيراً ، والمهانُ مَنْ أهنتُهُ بمعصيتي ، غنياً كانَ أو فقيراً[1] .

وهٰذا الغرورُ علاجُهُ : معرفةُ دلائلِ الكرامةِ والهوانِ ، إمَّا بالبصيرةِ وإمَّا بالتقليدِ .

أمَّا البصيرةُ . . فبأنْ يعرفَ وجهَ كونِ الالتفاتِ إلىٰ شهواتِ الدنيا مبعداً عنِ اللهِ ، ووجْهَ كونِ التباعدِ عنها مقرباً إلى اللهِ ، ويُدرِكُ ذلكَ بالإلهامِ في منازلِ العارفينَ والأولياءِ ، وشرحُهُ مِنْ جملةِ علومِ المكاشفةِ ، ولا يليقُ بعلمِ المعاملةِ .

وأمَّا معرفتُهُ بطريقِ التقليدِ والتصديقِ . . فهوَ أنْ يؤمنَ بكتابِ اللهِ تعالىٰ ، ويصدِّقَ رسولَهُ ، وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ .

وفي تفسيرِ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ : أنَّهُمْ كلَّما

---

(١) بنحوه رواه عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن الحسن ، كما في « الدر المنثور » (٨/٥٠٩) .

أحدثوا ذنباً.. أحدثنا لهُمْ نعمةً[1] ؛ ليزيدَ غرورُهُمْ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ ، إلىٰ غيرِ ذلكَ ممَّا وردَ في كتابِ اللهِ سبحانَهُ وسنةِ رسولِهِ ، فمَنْ آمنَ بهِ.. تخلَّصَ مِنْ هٰذا الغرورِ ؛ فإنَّ منشأَ هٰذا الغرورِ الجهلُ باللهِ وبصفاتِهِ ، فإنَّ مَنْ عرفَهُ سبحانَهُ.. لا يأمنُ مكرَهُ ، ولا يغترُّ بأمثالِ هٰذهِ الخيالاتِ الفاسدةِ ، وينظرُ إلىٰ فرعونَ وهامانَ وقارونَ وإلىٰ ملوكِ الأرضِ وما جرىٰ لهُمْ كيفَ أحسنَ اللهُ إليهِمْ ابتداءً ثمَّ دمَّرَهُمْ تدميراً فقالَ تعالىٰ : ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ... ﴾ الآيةَ .

وقدْ حذَّرَ اللهُ تعالىٰ مكرَهُ واستدراجَهُ فقالَ تعالىٰ : ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴾ .

فكما لا يجوزُ للعبدِ المهملِ أنْ يستدلَّ بإهمالِ السيدِ إيَّاه وتمكينِهِ مِنَ النعمِ علىٰ حبِّ السيدِ ، بلْ ينبغي أنْ يحذرَ أنْ يكونَ ذلكَ مكراً منهُ وكيداً معَ

(١) رواه البيهقي في « الأسماء والصفات » (ص٤٥١) .

أنَّ السيدَ لمْ يحذِّرْهُ مكرَ نفسِهِ.. فبأنْ يجبَ ذلكَ في حقِّ اللهِ تعالىٰ معَ تحذيرِهِ استدراجَهُ أولىٰ .

فإذاً ؛ مَنْ أمِنَ مكرَ الله تعالىٰ.. فهوَ مغترٌّ ، ومنشأُ هٰذا الغرورِ أنَّهُ استدلَّ بنعمِ الدنيا علىٰ أنَّهُ كريمٌ عندَ ذلكَ المنعمِ ، واحتملَ أنْ يكونَ ذلكَ دليلَ الهوانِ ، ولكنَّ ذلكَ الاحتمالَ لا يوافقُ الهوىٰ ، فالشيطانُ بواسطةِ الهوىٰ يميلُ بالقلبِ إلىٰ ما يوافقُهُ ، وهوَ التصديقُ بدلالتِهِ على الكرامةِ ، وهٰذا هوَ حدُّ الغرورِ .

* * *

المثالُ الثاني : غرورُ العصاةِ مِنَ المؤمنينَ :

بقولِهِمْ : إنَّ اللهَ كريمٌ ، وإنَّا نرجو عفوَهُ ، واتكالُهُمْ علىٰ ذلكَ ، وإهمالُهُمُ الأعمالَ ، وتحسينُ ذلكَ بتسميةِ تمنِّيهِمْ واغترارِهِمْ رجاءً ، وظنُّهُمْ أنَّ الرجاءَ مقامٌ محمودٌ في الدينِ ، وأنَّ نعمةَ اللهِ واسعةٌ ، ورحمتُهُ شاملةٌ وكرمُهُ عميمٌ ، وأينَ معاصي العبادِ في بحارِ رحمتِهِ ؟ وإنَّا موحِّدونَ ومؤمنونَ ؛ فنرجوهُ بوسيلةِ الإيمانِ ، وربَّما كانَ مستندُ رجائِهِمُ التمسكَ بصلاحِ الآباءِ وعلوِّ رتبتِهِمْ ؛ كاغترارِ العلويَّةِ بنسبِهِمْ ومخالفتِهِمْ سيرةَ آبائِهِمْ في الخوفِ والتقوىٰ والورعِ ، وظنِّهِمْ أنَّهُمْ أكرمُ على اللهِ مِنْ آبائِهِمْ ؛ إذْ آباؤُهُمْ معَ غايةِ الورعِ والتقوىٰ كانوا خائفينَ ، وهُمْ معَ غايةِ الفجورِ والفسوقِ آمنونَ ، وذلكَ نهايةُ الاغترارِ باللهِ تعالىٰ .

فقياسُ الشيطانِ للعلويَّةِ أنَّ مَنْ أحبَّ إنساناً أحبَّ أولادَهُ ، وأنَّ اللهَ تعالىٰ قدْ أحبَّ آباءَكُمْ فيحبُّكُمْ ، فلا تحتاجونَ إلى الطاعةِ ، وينسى المغرورُ أنَّ نوحاً صلواتُ اللهِ عليهِ أرادَ أنْ يستصحبَ ولدَهُ معَهُ في السفينةِ ، ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى ﴾ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ﴾ ، وأنَّ إبراهيمَ عليهِ السلامُ استغفرَ لأبيهِ فلمْ ينفعْهُ ، وأنَّ نبيَّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ استأذنَ ربَّهُ في أنْ يزورَ قبرَ أمِّهِ ويستغفرَ لها ، فأُذِنَ لهُ في الزيارةِ ولمْ يُؤْذَنْ لهُ في الاستغفارِ ، فجلسَ يبكي علىٰ قبرِ أمِّهِ لرقَّتِهِ لها بسببِ القرابةِ ، حتىٰ أبكىٰ مَنْ حولَهُ[1] .

فهٰذا أيضاً اغترارٌ باللهِ تعالىٰ ، وهٰذا لأنَّ اللهَ تعالىٰ يحبُّ المطيعَ ويبغضُ العاصيَ ، فكما أنَّهُ لا يبغضُ الأبَ المطيعَ ببغضِهِ للولدِ العاصي . . فكذلكَ لا يحبُّ الولدَ العاصيَ بحبِّه للأبِ المطيعِ ، ولوْ كانَ الحبُّ يسري مِنَ الأبِ إلى الولدِ . . لأوشكَ أنْ يسريَ البغضُ أيضاً ، بلِ الحقُّ أنْ لا تزرَ وازرةٌ وزرَ أخرىٰ[2] .

ومَنْ ظنَّ أنَّهُ ينجو بتقوىٰ أبيهِ كمَنْ ظنَّ أنَّهُ يشبعُ بأكلِ أبيهِ ، ويَروىٰ بشربِ أبيهِ ، ويصيرُ عالماً بعلمِ أبيهِ ، ويصلُ إلى الكعبةِ ويراها بمشيِ أبيهِ ،

---

(١) رواه مسلم (٩٧٦) .

(٢) وله سبحانه وتعالىٰ أن يتفضل على الفرع إكراماً لأصله ؛ لأمور خفية لا ينبغي أن يعوِّل الإنسان علىٰ توقعها ، بل يتمسك بالأسباب المنجيات التي أومأ الحق له فيأخذ بها ، وإن كانت هٰذه أيضاً فضلاً من الله ورحمة ، وإلىٰ هٰذا أشار عز شأنه وعلا : ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا ﴾ ، وقال جل من قائل : ﴿ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ﴾ .

فالتقوىٰ فرضُ عينٍ ؛ فلا يجزي والدٌ فيهِ عنْ ولدِهِ شيئاً ، وكذا العكسُ ، وعندَ اللهِ جزاءُ التقوىٰ ، يومَ يفرُّ المرءُ من أخيهِ وأمِّهِ وأبيهِ ، إلا علىٰ سبيلِ الشفاعةِ لمَنْ لمْ يشتدَّ غضبُ اللهِ تعالىٰ عليهِ ، فيأذنَ لهُ في الشفاعةِ ؛ كما سبقَ في كتابِ الكبرِ والعجبِ .

❀ ❀ ❀

فإنْ قلتَ : فأينَ الغلطُ في قولِ العصاةِ والفجارِ : إنَّ اللهَ كريمٌ ، وإنَّا نرجو مغفرتَهُ ورحمتَهُ ، وقدْ قالَ : « أنا عندَ ظنِّ عبدِي بي ، فليظنَّ بي خيراً »[1] ، فما هـٰذا إلا كلامٌ صحيحٌ مقبولُ الظاهرِ في القلوبِ .

فاعلمْ : أنَّ الشيطانَ لا يغوي الإنسانَ إلا بكلامٍ مقبولُ الظاهرِ مردودِ الباطنِ ، ولولا حسنُ ظاهرِهِ .. لما انخدَعَتْ بهِ القلوبُ ، ولكنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كشفَ عنْ ذلكَ فقالَ : « الكيِّسُ مَنْ دانَ نفسَهُ ، وعمِلَ لما بعدَ الموتِ ، والأحمقُ مَنْ أتبعَ نفسَهُ هواها ، وتمنَّىٰ على اللهِ »[2] ، وهـٰذا هوَ التَّمنِّي على اللهِ تعالىٰ ، غيَّرَ الشيطانُ اسمَهُ فسمَّاهُ رجاءً ، حتىٰ خدعَ بهِ الجهَّالَ ، وقدْ شرحَ اللهُ تعالى الرجاءَ فقالَ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ يعني : أنَّ الرجاءَ بهِمْ أليقُ ، وهـٰذا لأنَّهُ ذكرَ أنَّ ثوابَ الآخرةِ أجرٌ وجزاءٌ على الأعمالِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ وقالَ عزَّ وجلَّ :

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « حسن الظن بالله » (٨٣) .

(٢) رواه الترمذي (٢٤٥٩) ، وابن ماجه (٤٢٦٠) .

﴿ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ ، أفترىٰ أنَّ مَنِ استؤجرَ علىٰ إصلاحِ أوانٍ وشُرِطَ لهُ أجرةٌ عليها ، وكانَ الشارطُ كريماً يفي بالوعدِ مهما وعدَ ولا يخلفُ ، بلْ يزيدُ ، فجاءَ الأجيرُ وكسرَ الأوانيَ وأفسدَ جميعَها ، ثمَّ جلسَ ينتظرُ الأجرَ ، ويزعمُ أنَّ المستأجِرَ كريمٌ لا يخلفُ الوعدَ ، أفيراهُ العقلاءُ في انتظارِهِ متمنِّياً مغروراً أوْ راجياً ؟ وهـٰذا للجهلِ بالفرقِ بينَ الرجاءِ وبينَ الغِرَّةِ .

❁ ❁ ❁

قيلَ للحسنِ : قومٌ يقولونَ : نرجو اللهَ ويضيِّعونَ العملَ ، فقالَ : هيهاتَ ، هيهاتَ ! تلكَ أمانيُّهُمْ يترجحونَ فيها ، مَنْ رجا شيئاً . . طلبَهُ ، ومَنْ خاف شيئاً . . هربَ منهُ[(١)] .

وقالَ مسلمُ بنُ يسارٍ : لقدْ سجدتُ البارحةَ حتَّىٰ سقطَتْ ثنيَّتايَ ، فقالَ لهُ رجلٌ : إنَّا لنرجو اللهَ ، فقالَ مسلمٌ : هيهاتَ ، هيهاتَ ! مَنْ رجا شيئاً . . طلبَهُ ، ومَنْ خافَ شيئاً . . هربَ منهُ[(٢)] .

وكما أنَّ الذي يرجو في الدنيا ولداً وهوَ بعدُ لمْ ينكحْ ، أوْ نكحَ ولمْ يجامعْ ، أوْ جامعَ ولمْ ينزلْ . . فهوَ معتوهٌ ؛ فكذلكَ مَنْ رجا رحمةَ اللهِ وهوَ لمْ يؤمنْ ، أوْ آمنَ ولمْ يعملْ صالحاً ، أوْ عملَ ولمْ يتركِ المعاصيَ . . فهوَ

---

(١) أورده المحاسبي في « الرعاية » (ص٤٣٥) .

(٢) أورده المحاسبي في « الرعاية » (ص٤٣٥) ، ورواه ابن المبارك في « الزهد » (٣٠٥) .

مغرورٌ ، وكما أنَّهُ إذا نكحَ ووطئَ وأنزلَ . . بقيَ متردداً في حصولِ الولدِ ، يخافُ ويرجو فضلَ اللهِ في خلقِ الولدِ ودفعِ الآفاتِ عنِ الرحمِ وعنِ الأمِّ إلىٰ أنْ يتمَّ . . فهوَ كيِّسٌ ؛ فكذلكَ إذا آمنَ وعملَ الصالحاتِ وتركَ السيئاتِ ، وبقيَ متردِّداً بينَ الخوفِ والرجاءِ ، يخافُ ألاَّ يُقبلَ منهُ ، وألاَّ يدومَ عليهِ إلى الموتِ ، وأنْ يُختمَ لهُ بالسوءِ ، ويرجو مِنْ فضلِ اللهِ تعالىٰ أنْ يثبِّتَهُ بالقولِ الثابتِ ، ويحفظَ دينَهُ مِنْ صواعقِ سكراتِ الموتِ حتَّىٰ يموتَ على التوحيدِ ، ويحرسَ قلبَهُ عنِ الميلِ إلى الشهواتِ بقيَّةَ عمرِهِ حتَّىٰ لا يميلَ إلى المعاصي . . فهوَ كيِّسٌ ، ومَنْ عدا هؤلاءِ فهُمُ المغرورونَ باللهِ ، وسوفَ يعلمونَ حينَ يرونَ العذابَ مَنْ أضلُّ سبيلاً ، ولتعلمُنَّ نبأَهُ بعدَ حينٍ ، وعندَ ذلكَ يقولونَ ما أخبرَ اللهُ تعالىٰ عنهُمْ : ﴿ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ أيْ : علمنا أنَّهُ كما لا يُولدُ ولدٌ إلا بوقاعٍ ونكاحٍ ، ولا ينبتُ زرعٌ إلا بحراثةٍ وبثِّ بذرٍ . . فكذلكَ لا يحصلُ في الآخرةِ ثوابٌ وأجرٌ إلا بعملٍ صالحٍ ، فارجعْنا نعملْ صالحاً ، فقدْ علمنا الآنَ صدقَكَ في قولِكَ : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ۝ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾ ، و﴿ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ ألمْ يسمعْكُمْ سنَّةَ اللهِ في عبادِهِ ، وأنَّهُ تُوفَّىٰ كلُّ نفسٍ ما كسبَتْ ، وأنَّ كلَّ نفسٍ بما كسبَتْ رهينةٌ ؟ فما الذي غرَّكُمْ باللهِ بعدَ أنْ سمعتُمْ وعقلتُمْ ؟ ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فأينَ مَظِنَّةُ الرجاءِ وموضعُهُ المحمودُ ؟

فاعلمْ : أنَّهُ محمودٌ في موضعينِ :

أحدُهُما : في حقِّ العاصي المنهمكِ إذا خطرَتْ لهُ التوبةُ ، فقالَ لهُ الشيطانُ : وأنَّىٰ تُقبَلُ توبتُكَ ؟ فيقنِّطُهُ مِنْ رحمةِ اللهِ تعالىٰ ، فيجبُ عندَ هٰذا أنْ يقمعَ القنوطَ بالرجاءِ ، ويتذكَّرَ أنَّ اللهَ يغفرُ الذنوبَ جميعاً ، وأنَّ اللهَ كريمٌ يقبلُ التوبةَ عنْ عبادِهِ ، وأنَّ التوبةَ طاعةٌ تكفِّرُ الذنوبَ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۞ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ ، أمرَهُمْ بالإنابةِ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ ، فإذا توقَّعَ المغفرةَ معَ التوبةِ . . فهوَ راجٍ ، وإنْ توقَّعَ المغفرةَ معَ الإصرارِ . . فهوَ مغرورٌ ؛ كما أنَّ مَنْ ضاقَ عليهِ وقتُ الجمعةِ وهوَ في السوقِ ، فخطَرَ لهُ أنْ يسعىٰ إلى الجمعةِ ، فقالَ لهُ الشيطانُ : إنكَ لا تدركُ الجمعةَ ، فأقمْ علىٰ موضعِكَ ، فكذَّبَ الشيطانَ وقامَ يعدو وهوَ يرجو أنْ يدركَ الجمعةَ . . فهوَ راجٍ ، وإنِ استمرَّ على التجارةِ ، وأخذَ يرجو تأخيرَ الإمامِ الصلاةَ لأجلِهِ إلىٰ وسطِ الوقتِ ، أوْ لأجلِ غيرِهِ ، أوْ لسببٍ مِنَ الأسبابِ التي لا يعرفُها . . فهوَ مغرورٌ .

والثاني : أنْ تفترَ نفسُهُ عنْ فضائلِ الأعمالِ ، وتقتصرَ على الفرائضِ ، فيرجِّي نفسَهُ نعيمَ اللهِ تعالىٰ ، وما وعدَ بهِ الصالحينَ ، حتَّىٰ ينبعثَ مِنَ الرجاءِ نشاطُ العبادةِ ، فيقبلَ على الفضائلِ ، ويتذكَّرَ قولَهُ تعالىٰ :

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ إلىٰ قولِهِ : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ .

❋ ❋ ❋

فالرجاءُ الأولُ يقمعُ القنوطَ المانعَ مِنَ التوبةِ ، والرجاءُ الثاني يقمعُ الفتورَ المانعَ مِنَ النشاطِ والتشمُّرِ ، فكلُّ توقُّعٍ حثَّ علىٰ توبةٍ وعلىٰ تشمرٍ في العبادةِ . . فهوَ رجاءٌ ، وكلُّ توقُّعٍ أوجبَ فتوراً في العبادةِ وركوناً إلى البطالةِ . . فهو غِرَّةٌ ؛ كما إذا خطرَ لهُ أنْ يتركَ الذنبَ ويشتغلَ بالعملِ ، فيقولُ لهُ الشيطانُ : ما لكَ وإيذاءَ نفسِكَ وتعذيبَها ولكَ ربٌّ كريمٌ ، غفورٌ رحيمٌ ، فيفترُ بذلكَ عنِ التوبةِ والعبادةِ . . فهوَ غِرَّةٌ ، وعندَ هٰذا واجبٌ على العبدِ أنْ يستعملَ الخوفَ ، فيخوِّفَ نفسَهُ بغضبِ اللهِ وعظيمِ عقابِهِ ، ويقولَ لها : إنَّهُ معَ أنَّهُ غافرُ الذنبِ وقابلُ التوبِ شديدُ العقابِ ، وإنَّهُ معَ أنَّهُ كريمٌ خلَّدَ الكفارَ في النارِ أبدَ الآبادِ معَ أنَّهُ لمْ يضرَّهُ كفرُهُمْ ، بلْ سلَّطَ العذابَ والمحنَ والأمراضَ والعللَ والفقرَ والجوعَ علىٰ جملةٍ مِنْ عبادِهِ في الدنيا وهوَ قادرٌ علىٰ إزالتِها ، فمَنْ هٰذِهِ سنَّتُهُ في عبادِهِ وقدْ خوَّفَني عقابَهُ . . فكيفَ لا أخافُهُ ، وكيفَ أغترُّ بهِ ؟

والخوفُ والرجاءُ قائدانِ وسائقانِ يبعثانِ الناسَ على العملِ ، فما لا يبعثُ على العملِ . . فهوَ تمنٍّ وغرورٌ ، ورجاءُ كافَّةِ الخلقِ هوَ سببُ فتورِهِمْ وسببُ إقبالِهِمْ على الدنيا وسببُ إعراضِهِمْ عنِ اللهِ تعالىٰ وإهمالِهِمُ

السعيَ للآخرةِ ، وذلكَ غرورٌ ، فقدْ أخبرَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وذكرَ أنَّ الغرورَ سيغلبُ علىٰ قلوبِ آخرِ هـٰذهِ الأمَّةِ[١] ، وقدْ كانَ ما وعدَ بهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقدْ كانَ الناسُ في الأعصارِ الأُوَلِ يواظبونَ على العباداتِ ، ويؤتونَ ما آتوا وقلوبُهُمْ وجلةٌ أنهُمْ إلىٰ ربهِمْ راجعونَ ، يخافونَ علىٰ أنفسِهِمْ وهُمْ طولَ الليلِ والنهارِ في طاعةِ اللهِ تعالىٰ ، يبالغونَ في التقوىٰ والحذرِ مِنَ الشبهاتِ والشهواتِ ، ويبكونَ علىٰ أنفسِهِمْ في الخلواتِ ، وأمَّا الآنَ . . فترى الخلقَ آمنينَ مسرورينَ ، مطمئنينَ غيرَ خائفينَ ، معَ إكبابِهِمْ على المعاصي ، وانهماكِهِمْ في الدنيا ، وإعراضِهِمْ عنِ اللهِ تعالىٰ ، زاعمينَ أنهُمْ واثقونَ بكرمِ اللهِ تعالىٰ وفضلِهِ ، راجونَ لعفوِهِ ومغفرتِهِ ؛ كأنَّهُمْ يزعمونَ أنَّهُمْ عرفوا مِنْ كرمِ اللهِ تعالىٰ وفضلِهِ ما لمْ يعرفْهُ الأنبياءُ والصحابةُ والسلفُ الصالحونَ ، فإنْ كانَ هـٰذا الأمرُ يُدركُ بالمنىٰ ويُنال بالهوينىٰ . فعلىٰ ماذا كانَ بكاءُ أولئكَ وخوفُهُمْ وحزنُهُمْ ؟! وقدْ ذكرنا تحقيقَ هـٰذهِ الأمورِ في كتابِ الخوفِ والرجاءِ .

وقدْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيما رواهُ معقلُ بنُ يسارٍ : « يأتي على الناسِ زمانٌ يَخْلَقُ فيهِ القرآنُ في قلوبِ الرجالِ كما تَخْلَقُ الثيابُ على الأبدانِ ، يكونُ أمرُهُمْ كُلُّهُ طمعاً لا خوفَ معَهُ ، إنْ أحسنَ أحدُهُمْ . .

(١) تقدم ، وهو حديث أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه ، وفيه : « وإعجاب كل ذي رأي برأيه » الذي رواه أبو داوود (٤٣٤١) ، والترمذي (٣٠٥٨) ، وابن ماجه (٤٠١٤) .

قالَ : يُتقبَّلُ منِّي ، وإنْ أساءَ . . قالَ : يُغفرُ لي »[1] ، فأخبرَ أنَّهُمْ يضعونَ الطمعَ موضعَ الخوفِ ؛ لجهلِهِمْ بتخويفاتِ القرآنِ وما فيهِ .

وبمثلِهِ أخبرَ عنِ النصارىٰ إذْ قالَ تعالىٰ : ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا ﴾ ، ومعناهُ : أنَّهُمْ ورثوا الكتابَ ؛ أيْ : هُمْ علماءُ ويأخذونَ عَرَضَ هٰذا الأدنىٰ ؛ أيْ : شهواتِهِمْ مِنَ الدنيا حلالاً كانَ أوْ حراماً ، وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ ، ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ .

والقرآنُ مِنْ أوَّلِهِ إلىٰ آخرِهِ تحذيرٌ وتخويفٌ ، لا يتفكَّرُ فيهِ متفكِّرٌ إلا ويطولُ حزنُهُ ويعظمُ خوفُهُ إنْ كانَ مؤمناً بما فيهِ ، وترى الناسَ الآنَ يهذُّونَهُ هذّاً ، يخرجونَ الحروفَ مِنْ مخارجِها ، ويتناظرونَ علىٰ رفعِها وخفضِها ونصبِها ؛ كأنَّهُمْ يقرؤونَ شعراً مِنْ أشعارِ العربِ ، لا يهمُّهُمُ الالتفاتُ إلىٰ معانيهِ ، والعملُ بما فيهِ فهلْ في العالمِ غرورٌ يزيدُ علىٰ هٰذا ؟!

فهٰذهِ أمثلةُ الغرورِ باللهِ عزَّ وجلَّ ، وبيانُ الفرقِ بينَ الرجاءِ والغرورِ .

ويقربُ منهُ غرورُ طوائفَ لهُمْ طاعاتٌ ومعاصٍ ، إلا أنَّ معاصيَهُمْ أكثرُ وهُمْ يتوقَّعونَ المغفرةَ ، ويظنونَ أنَّهُمْ تترجَّحُ كِفَّةُ حسناتِهِمْ معَ أنَّ ما في كِفَّةِ السيئاتِ أكثرُ ! وهٰذا غايةُ الجهلِ . فترى الواحدَ يتصدَّقُ بدراهمَ معدودةٍ مِنَ الحلالِ والحرامِ ويكونُ ما يتناولُ مِنْ أموالِ المسلمينَ والشبهاتِ أضعافَهُ ،

---

(١) رواه الحارث بن أسامة في « مسنده » (٧٦٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٥٩) .

ولعلَّ ما تصدَّقَ بهِ هوَ مِنْ مالِ المسلمينَ ، وهوَ يتكلُ عليهِ ويظنُّ أنَّ أكلَ ألفِ درهمٍ حرامٍ يقاومُهُ التصدُّقُ بعشرةٍ مِنَ الحلالِ أوِ الحرامِ ، وما هوَ إلا كمَنْ وضعَ عشرةَ دراهمَ في كِفَّةِ ميزانٍ وفي الكِفَّةِ الأخرىٰ ألفاً ، وأرادَ أنْ تشيلَ الكِفَّةُ الثقيلةُ بالكِفَّةِ الخفيفةِ ! وذلكَ غايةُ الجهلِ .

نعمْ ، ومنهُمْ مَنْ يظنُّ أنَّ طاعاتِهِ أكثرُ مِنْ معاصيهِ ؛ لأنَّهُ لا يحاسبُ نفسَهُ ولا يتفقَّدُ معاصيَهُ ، وإذا عملَ طاعةً . . حفظَها واعتدَّ بها ؛ كالذي يستغفرُ اللهَ بلسانِهِ أوْ يسبِّحُ اللهَ في اليومِ مئةَ مرَّةٍ ثمَّ يغتابُ المسلمينَ ، ويمزِّقُ أعراضَهُمْ ، ويتكلَّمُ بما لا يرضاهُ اللهُ طولَ النهارِ مِنْ غيرِ حصرٍ وعددٍ ، ويكونُ نظرُهُ إلىٰ عددِ سبحتِهِ أنَّهُ استغفرَ اللهَ مئةَ مرَّةٍ ، وغفلَ عنْ هذيانِهِ طولَ نهارِهِ الذي لوْ كتبَهُ . . لكانَ مثلَ تسبيحِهِ مئةَ مرَّةٍ أوْ ألفَ مرَّةٍ ، وقدْ كتبَها الكرامُ الكاتبونَ ، وقدْ أوعدَهُ اللهُ تعالىٰ بالعقابِ علىٰ كلِّ كلمةٍ فقالَ جلَّ جلالُهُ : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ ، فهوَ أبداً يتأمَّلُ في فضائلِ التسبيحاتِ والتهليلاتِ ، ولا يلتفتُ إلىٰ ما وردَ في عقوبةِ المغتابينَ والكذابينَ ، والنمَّامينَ والمنافقينَ بذكرِ ما لا يضمرونَهُ ، إلىٰ غيرِ ذلكَ مِنْ آفاتِ اللسانِ ، وذلكَ محضُ الغرورِ .

ولعمْرِي ؛ لوْ كانَ الكرامُ الكاتبونَ يطلبونَ منهُ أجرةَ النسخِ لما يكتبونَهُ مِنْ هذيانِهِ الذي زادَ علىٰ تسبيحِهِ . . لكانَ عندَ ذلكَ يكفُّ لسانَهُ حتَّىٰ عنْ جملةٍ مِنْ مهماتِهِ ، وما نطقَ بهِ في فتراتِهِ كانَ يعدُّهُ ويحسبُهُ ويوازنُهُ بتسبيحاتِهِ ؛ حتَّىٰ لا يفضلَ عليهِ أجرةُ نسخِهِ ، فيا عجباً لمَنْ يحاسبُ نفسَهُ

ويحتاطُ خوفاً علىٰ قيراطٍ يفوتهُ في الأجرةِ على النسخِ ، ولا يحتاطُ خوفاً مِنْ فوتِ الفردوسِ الأعلىٰ ونعيمِها ! ما هٰذهِ إلا مصيبةٌ عظيمةٌ لمَنْ تفكَّرَ فيها ؛ فقدْ دُفعنا إلىٰ أمرٍ إنْ شككنا فيهِ . . كنَّا مِنَ الكفرةِ الجاحدينَ وإنْ صدَّقنا بهِ . . كنَّا مِنَ الحمقى المغرورينَ ، فما هٰذهِ أعمالُ مَنْ يصدِّقُ بما جاءَ بهِ القرآنُ ، وإنَّا نبرأُ إلى اللهِ تعالىٰ أنْ نكونَ مِنْ أهلِ الكفرانِ ، فسبحانَ مَنْ صدَّنا عنِ التنبُّهِ والتبيُّنِ معَ هٰذا البيانِ ! وما أجدرَ مَنْ يقدرُ علىٰ تسليطِ مثلِ هٰذهِ الغفلةِ والغرورِ على القلوبِ أنْ يخشىٰ ويُتَّقىٰ ، ولا يُغترَّ بهِ اتكالاً علىٰ أباطيلِ المنىٰ ، وتعاليلِ الشيطانِ والهوىٰ ، واللهُ أعلمُ .

* * *

بيان أصناف المغترين، وأقسام فرق كل صنف

وهمْ أربعةُ أصنافٍ :

الصنف الأول : أهل العلم

والمغترُّونَ منهُمْ فرقٌ :

ففرقةٌ منهُمْ أحكموا العلومَ الشرعيَّةَ والعقليةَ ، وتعمَّقوا فيها ، واشتغلوا بها ، وأهملوا تفقُّدَ الجوارحِ ، وحفْظَها عنِ المعاصي ، وإلزامَها الطاعاتِ ، واغترُّوا بعلمِهِمْ ، وظنُّوا أنَّهُمْ عندَ اللهِ بمكانٍ ، وأنَّهُمْ قدْ بلغوا مِنَ العلمِ مبلغاً لا يعذِّبُ اللهُ مثلَهُمْ ، بلْ يقبلُ في الخلقِ شفاعتَهُمْ ، وأنَّهُ لا يطالبُهُمْ بذنوبِهِمْ وخطاياهُمْ لكرامتِهِمْ على اللهِ .

وهمْ مغرورونَ ؛ فإنَّهُمْ لوْ نظروا بعينِ البصيرةِ.. علموا أنَّ العلمَ علمانِ :

علمُ معاملةٍ ، وعلمُ مكاشفةٍ ؛ وهوَ العلمُ باللهِ وصفاتِهِ ، المسمَّىٰ بالعادةِ علمَ المعرفةِ .

فأمَّا العلمُ بالمعاملةِ ؛ كمعرفةِ الحلالِ والحرامِ ، ومعرفةِ أخلاقِ النفسِ المذمومةِ والمحمودةِ ، وكيفيَّةِ علاجِها والفرارِ منها.. فهيَ علومٌ لا تُرادُ إلا للعملِ ، ولولا الحاجةُ إلى العملِ.. لمْ يكنْ لهٰذهِ العلومِ قيمةٌ ؛ فكلُّ علمٍ يُرادُ للعملِ فلا قيمةَ لهُ دونَ العملِ .

فمثالُ هٰذا : كمريضٍ بهِ علَّةٌ لا يزيلُها إلا دواءٌ مركَّبٌ مِنْ أخلاطٍ كثيرةٍ ، لا يعرفُها إلا حذَّاقُ الأطباءِ .

فيسعىٰ في طلبِ الطبيبِ بعدَ أنْ هاجرَ عنْ وطنِهِ حتَّىٰ عثرَ علىٰ طبيبٍ حاذقٍ ، فعلَّمَهُ الدواءَ ، وفصَّلَ لهُ الأخلاطَ وأنواعَها ومقاديرَها ، ومعادنَها التي منها تُجلبُ ، وعلَّمَهُ كيفيَّةَ دقِّ كلِّ واحدٍ منها ، وكيفيَّةَ الخلطِ والعجنِ ، فتعلَّمَ ذلكَ منهُ ، وكتبَ منهُ نسخةً حسنةً بخطٍّ حسنٍ ، ورجعَ إلىٰ بيتِهِ وهوَ يكرِّرُها ويقرؤُها ويعلِّمُها المرضىٰ ، ولمْ يشتغلْ بشربِها واستعمالِها ، أفترىٰ أنَّ ذلكَ يغني عنهُ مِنْ مرضِهِ شيئاً ؟

هيهاتَ هيهاتَ ! لوْ كتبَ منهُ ألفَ نسخةٍ ، وعلمَهُ ألفَ مريضٍ حتَّىٰ شُفيَ جميعُهُمْ وكرَّرَهُ كلَّ ليلةٍ ألفَ مرَّةٍ . . لم يغنهِ ذلكَ مِنْ مرضِهِ شيئاً ، إلا أنْ يزنَ الذهبَ ، ويشتريَ الدواءَ ، ويخلطَهُ كما تعلَّمَ ، ويشربَهُ ويصبرَ علىٰ مرارتِهِ ، ويكونَ شربُهُ في وقتِهِ ، وبعدَ تقديمِ الاحتماءِ وجميعِ شروطِهِ ، فإذا فعلَ جميعَ ذلكَ . . فهوَ علىٰ خطرٍ مِنْ شفائِهِ ، فكيفَ إذا لم يشربْهُ أصلاً ؟! فمهما ظنَّ أنَّ ذلكَ يكفيهِ ويشفيهِ . . فقدْ ظهرَ غرورُهُ .

وهكذا الفقيهُ الذي أحكمَ علمَ الطاعاتِ ولمْ يعملْها ، وأحكمَ علمَ المعاصي ولمْ يجتنبْها ، وأحكمَ علمَ الأخلاقِ المذمومةِ وما زكَّىٰ نفسَهُ منها ، وأحكمَ علمَ الأخلاقِ المحمودةِ ولمْ يتَّصفْ بها ، فهوَ مغرورٌ ، إذْ قالَ تعالىٰ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ ، ولمْ يقلْ : قدْ أفلحَ مَنْ تعلَّمَ كيفيَّةَ تزكيتِها وكتبَ علمَ ذلكَ وعلَّمَهُ الناسَ .

وعندَ هٰذا يقولُ له الشيطانُ : لا يغرنَّكَ هٰذا المثالُ ؛ فإنَّ العلمَ بالدواءِ لا يزيلُ المرضَ ، وإنَّما مطلبُكَ القربُ مِنَ اللهِ تعالىٰ وثوابُهُ ، والعلمُ يجلبُ الثوابَ ، ويتلو عليهِ الأخبارَ الورادةَ في فضائلِ العلمِ .

فإنْ كانَ المسكينُ معتوهاً مغروراً . . وافقَ ذلكَ مرادَهُ وهواهُ ، فاطمأنَّ إليهِ وأهملَ العملَ .

وإنْ كانَ كيِّساً . . فيقولُ للشيطانِ : أتذكِّرُني فضائلَ العلمِ وتنسيني ما وردَ في العالمِ الفاجرِ الذي لا يعملُ بعلمِهِ ؛ كقولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾ ، وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ ؟

فأيُّ خزيٍ أعظمُ مِنَ التمثيلِ بالكلبِ والحمارِ ؟!

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « منِ ازدادَ علماً ولمْ يزددْ هدىً . . لمْ يزددْ مِنَ اللهِ إلاَّ بُعداً »[1] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ أيضاً : « يُلقى العالمُ في النارِ فتندلقُ أقتابُهُ ، فيدورُ بها في النارِ كما يدورُ الحمارُ في الرحىٰ »[2] .

وكقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « شرُّ الناسِ العلماءُ السوءُ »[3] .

---

(١) رواه الديلمي في « مسند الفردوس » (٥٨٨٧) ، قال الحافظ العراقي : (والمشهور أن هٰذا الحديث من قول الحسن البصري) . « إتحاف » (١/ ٣٥١) .

(٢) رواه البخاري (٣٢٦٧) ، ومسلم (٢٩٨٩) ، والأقتاب : الأمعاء .

(٣) روىٰ بنحوه الدارمي في « سننه » (٣٨٢) .

وقولِ أبي الدرداءِ : (ويلٌ للذي لا يعلمُ مرَّةً ولوْ شاءَ اللهُ . . لعلَّمَهُ ، وويلٌ للذي يعلمُ ولا يعملُ سبعَ مراتٍ)(١) أيْ : إنَّ العلمَ حجَّةٌ عليهِ ؛ إذْ يُقالُ لهُ : ماذا عملتَ فيما علمتَ ؟ وكيفَ قضيتَ شكرَ اللهِ ؟

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أشدُّ الناسِ عذاباً يومَ القيامةِ عالمٌ لمْ ينفعْهُ اللهُ بعلمِهِ »(٢) .

فهٰذا وأمثالُهُ ممَّا أوردناهُ في كتابِ العلمِ في بابِ علامةِ علماءِ الآخرةِ أكثرُ مِنْ أنْ يُحصىٰ ، إلا أنَّ هٰذا لا يُوافقُ هوى العالِمِ الفاجرِ ، وما وردَ في فضلِ العلمِ يوافقُهُ ، فيُميلُ الشيطانُ قلبَهُ إلىٰ ما يهواهُ ، وذلكَ عينُ الغرورِ ؛ فإنَّهُ إنْ نظرَ بالبصيرةِ . . فمثالُهُ ما ذكرناهُ ، وإنْ نظرَ بعينِ الإيمانِ ، فالذي أخبرَهُ بفضيلةِ العلمِ هوَ الذي أخبرَهُ بذمِّ العلماءِ السوءِ ، وأنَّ حالَهُمْ عندَ اللهِ أشدُّ مِنْ حالِ الجهَّالِ ، فبعدَ ذلكَ اعتقادُهُ أنَّهُ علىٰ خيرٍ معَ تأكُّدِ حجةِ اللهِ عليهِ غايةُ الغرورِ .

وأمَّا الذي يدَّعي علومَ المكاشفةِ ؛ كالعلمِ باللهِ وصفاتِهِ وأسمائِهِ ، وهوَ معَ ذلكَ يهملُ العملَ ، ويضيِّعُ أمرَ اللهِ تعالىٰ وحدودَهُ . . فغرورُهُ أشدُّ .

ومثالُهُ : مثالُ مَنْ أرادَ خدمةَ مَلِكٍ ، فعرفَ الملكَ ، وعرفَ أخلاقَهُ وأوصافَهُ ، ولونَهُ وشكلَهُ ، وطولَهُ وعرضَهُ ، وعادتَهُ ومجلسَهُ ، ولمْ يتعرَّفْ

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢١١) .

(٢) رواه الطبراني في « الصغير » (١/ ١٨٢) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (١١٢٢) ، والبيهقي في « الشعب » (١٦٤٢) .

ما يحبُّهُ ويكرهُهُ ، وما يغضبُ مِنْ أجلِهِ وما يرضىٰ بهِ ، أوْ عرفَ ذلكَ إلا أنَّهُ قصدَ خدمتَهُ وهوَ ملابسٌ لجميعِ ما يغضبُ بهِ ، وعاطلٌ عنْ جميعِ ما يحبُّهُ ؛ مِنْ زيٍّ وهيئةٍ وكلامٍ ، وحركةٍ وسكونٍ ، فوردَ على الملكِ وهوَ يريدُ التقرُّبَ منهُ والاختصاصَ بهِ متلطِّخاً بجميعِ ما يكرهُهُ الملكُ ، عاطلاً عنْ جميعِ ما يحبُّهُ ، متوسِّلاً إليهِ بمعرفتِهِ لهُ ولنسبِهِ واسمِهِ ، وبلدِهِ وشكلِهِ وصورتِهِ ، وعادتِهِ في سياسةِ غلمانِهِ ومعاملةِ رعيتِهِ ، فهٰذا مغرورٌ جدّاً ؛ إذْ لوْ تركَ جميعَ ما عرفَهُ ، واشتغلَ بمعرفتِهِ فقطْ ومعرفةِ ما يحبُّهُ ويكرهُهُ . . لكانَ ذلكَ أقربَ إلىٰ نيلِهِ المرادَ مِنْ قربِهِ والاختصاصِ بهِ .

بلْ تقصيرُهُ في التقوىٰ واتباعُهُ للشهواتِ يدلُّ علىٰ أنَّهُ لمْ ينكشفْ لهُ مِنْ معرفةِ اللهِ تعالىٰ إلا الأسامي دونَ المعاني ؛ إذْ لوْ عرفَ اللهَ حقَّ معرفتِهِ . . لخشيَهُ واتَّقاهُ ، فلا يُتصوَّرُ أنْ يعرفَ الأسدَ عاقلٌ ثمَّ لا يتقيهِ ولا يخافُهُ ، وقدْ أوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ داوودَ عليهِ السلامُ : (خفْني كما تخافُ السبُعَ الضاريَ)[1] .

نعمْ ، مَنْ يعرفُ مِنَ الأسدِ لونَهُ وشكلَهُ واسمَهُ ولمْ يعرفْ سطوتَهُ قدْ لا يخافُهُ ، وكأنَّهُ ما عرفَ الأسدَ ، فمَنْ عرفَ اللهَ تعالىٰ . . عرفَ مِنْ صفاتِهِ أنَّهُ يهلِكُ العالمينَ ولا يبالي ، ويعلمُ أنَّهُ مسخَّرٌ في قدرةِ مَنْ لوْ أهلكَ مثلَهُ آلافاً مؤلفةً وأبَّدَ عليهِمُ العذابَ أبدَ الآبادِ . . لمْ يؤثِّرْ ذلكَ فيهِ أثراً ، ولمْ

(١) قوت القلوب (١/ ٢٤١) .

تأخذُهُ عليهِ رقَّةٌ ، ولا اعتراهُ جزعٌ ، ولهٰذا قالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ .

وفاتحةُ الزبورِ : (رأسُ الحكمةِ خشيةُ اللهِ)[1] .

وقالَ ابنُ مسعودٍ : (كفىٰ بخشيةِ اللهِ علماً ، وكفىٰ بالاغترارِ باللهِ جهلاً)[2] .

واستُفتيَ الحسنُ عنْ مسألةٍ ، فأجابَ عنها ، فقيلَ لهُ : إنَّ فقهاءَنا لا يقولونَ ذلكَ ، فقالَ للسائلِ : وهلْ رأيتَ فقيهاً قطُّ ؟ إنَّما الفقيهُ القائمُ ليلَهُ ، الصائمُ نهارَهُ ، الزاهدُ في الدنيا[3] .

وقالَ مرَّةً : (الفقيهُ يداري ولا يماري ، ينشرُ حكمةَ اللهِ ، فإنْ قُبلَتْ منهُ . . حمدَ اللهَ ، وإنْ رُدَّتْ عليهِ . . حمدَ اللهَ)[4] .

فإذاً ؛ الفقيهُ مَنْ فقِهَ عنِ اللهِ أمرَهُ ونهيَهُ ، وعلمَ مِنْ صفاتِهِ ما أحبَّهُ وما كرهَهُ ، وهوَ العالمُ ، ومَنْ يردِ اللهُ بهِ خيراً . . يفقهْهُ في الدينِ ، فإذا لمْ يكنْ بهٰذهِ الصفةِ . . فهوَ مِنَ المغرورينَ .

❁ ❁ ❁

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٣٩٣) عن خالد الربعي .
(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٤٦) .
(٣) قوت القلوب (١/١٥٣) ، وهو بلفظه هنا عند المحاسبي في « الرعاية » (ص٤٤٧) .
(٤) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٣٠) ومعه القول قبله .

وفرقةٌ أخرىٰ أحكموا العلمَ والعملَ ، فواظبوا على الطاعاتِ الظاهرةِ ، وتركوا المعاصيَ ، إلا أنَّهُمْ لمْ يتفقَّدوا قلوبَهُمْ ليمحوا عنها الصفاتِ المذمومةَ عندَ اللهِ ؛ مِنَ الكبرِ والحسدِ والرياءِ ، وطلبِ الرئاسةِ والعلاءِ ، وإرادةِ السوءِ للأقرانِ والشركاءِ ، وطلبِ الشهرةِ في البلادِ والعبادِ ، وربَّما لمْ يعرفْ بعضُهُمْ أنَّ ذلكَ مذمومٌ ، فهوَ مكبٌّ عليها ، غيرُ محترزٍ منها .

ولا يلتفتُ إلىٰ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أدنى الرياءِ شركٌ »[1] ، وإلىٰ قولِهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « لا يدخلُ الجنةَ مَنْ في قلبِهِ مثقالُ ذرَّةٍ مِنْ كبْرٍ »[2] ، وإلىٰ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الحسدُ يأكلُ الحسناتِ كما تأكلُ النارُ الحطبَ »[3] ، وإلىٰ قولِهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « حبُّ المالِ والشرفِ ينبتانِ النفاقَ في القلبِ كما ينبتُ الماءُ البقلَ » ، إلىٰ غيرِ ذلكَ مِنَ الأخبارِ التي أوردناها في جميعِ ربعِ المهلكاتِ في الأخلاقِ المذمومةِ .

فهؤلاءِ زيَّنوا ظواهرَهُمْ وأهملوا بواطنَهُمْ ، ونسوا قولَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ لا ينظرُ إلىٰ صورِكُمْ ولا إلىٰ أموالِكُمْ ، وإنَّما ينظرُ إلىٰ قلوبِكُمْ وأعمالِكُمْ »[4] ، فتعهَّدوا الأعمالَ وما تعهَّدوا القلوبَ ، والقلبُ هوَ الأصلُ ؛ إذْ لا ينجو إلا مَنْ أتى اللهَ بقلبٍ سليمٍ .

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (٢٠/ ٣٦) ، وبنحوه رواه ابن ماجه (٣٩٨٩) .
(٢) رواه مسلم (٩١) ، والترمذي (١٩٩٨) .
(٣) رواه أبو داوود (٤٩٠٣) ، وابن ماجه (٤٢١٠) .
(٤) رواه مسلم (٢٥٦٤) .

ومثالُ هؤلاءِ كبئرِ الحُشِّ[1] ؛ ظاهرُها جصٌّ وباطنُها نَتْنٌ ، أوْ كقبورِ الموتىٰ ؛ ظاهرُها مزيَّنٌ وباطنُها جيفةٌ ، أوْ كبيتٍ مظلمٍ باطنُهُ ؛ وُضِعَ السراجُ علىٰ سطحِهِ فاستنارَ ظاهرُهُ وباطنُهُ مظلمٌ ، أوْ كرجلٍ قصدَ ضيافةَ الملكِ ، فدعاهُ إلىٰ دارِهِ ، فجصَّصَ بابَ دارِهِ ، وتركَ المزابلَ في صدرِ دارِهِ ! ولا يخفىٰ أنَّ ذلكَ غرورٌ .

بلْ أقربُ مثالٍ إليهِ رجلٌ زرعَ زرعاً ، فنبتَ ونبتَ معَهُ حشيشٌ يفسدُهُ ، فأمرَ بتنقيةِ الزرعِ عنِ الحشيشِ بقلعِهِ مِنْ أصلِهِ ، فأخذَ يجزُّ رؤوسَهُ وأطرافَهُ ، فلا تزالُ تقوىٰ أصولُهُ وتنبتُ ؛ لأنَّ مغارسَ المعاصي هيَ الأخلاقُ الذميمةُ في القلبِ ، فمَنْ لا يطهِّرُ القلبَ منها . . لا تتمُّ لهُ الطاعاتُ الظاهرةُ إلا معَ الآفاتِ الكثيرةِ .

بلْ هوَ كمريضٍ ظهرَ بهِ الجربُ وقدْ أُمِرَ بالطِّلاءِ وشربِ الدواءِ ، فالطِّلاءُ ليزيلَ ما علىٰ ظاهرِهِ ، والدواءُ ليقطعَ مادَّتَهُ مِنْ باطنِهِ ، فقنعَ بالطِّلاءِ وتركَ الدواءَ ، وبقيَ يتناولُ ما يزيدُ في المادةِ ، فلا يزالُ يطلي الظاهرَ والجربُ دائمٌ بهِ ، يتفجَّرُ مِنَ المادةِ التي في الباطنِ .

❊ ❊ ❊

وفرقةٌ أخرىٰ علموا هٰذهِ الأخلاقَ الباطنةَ ، وعلموا أنَّها مذمومةٌ مِنْ جهةِ

---

(١) الحشُّ ـ بضم الحاء المهملة ويفتح ـ : مكان قضاء الحاجة هنا ، وفي الأصل يطلق على البستان ، وبئره يحفر في الدار ضيق الرأس ، يتعهَّد بالتفريغ كلما امتلأ .

الشرعِ ، إلا أنَّهُمْ لعجْبِهِمْ بأنفسِهِمْ يظنُّونَ أنَّهُمْ منفكُّونَ عنها ، وأنَّهُمْ أرفعُ عندَ اللهِ مِنْ أنْ يبتليَهُمْ بذلكَ ، وإنَّما يُبتلىٰ بهِ العوامُّ دونَ مَنْ بلغَ مبلغَهُمْ في العلمِ ، فأمَّا هوَ . . فأعظمُ عندَ اللهِ مِنْ أنْ يبتليَهُ ، ثمَّ إذا ظهرَ عليهِ مخايلُ الكبْرِ[1] والرئاسةِ وطلبِ العلوِّ والشرفِ . . قالَ : ما هٰذا كبْرٌ ، وإنما هوَ طلبُ عزِّ الدينِ ، وإظهارُ شرفِ العلمِ ، ونصرةُ دينِ اللهِ ، وإرغامُ أنفِ المخالفينَ مِنَ المبتدعينَ ، فإنِّي لوْ لبستُ الدونَ مِنَ الثيابِ ، وجلستُ في الدونِ مِنَ المجالسِ . . لشَمِتَ بي أعداءُ الدينِ وفرحوا بذلكَ ، وكانَ ذلِّي ذلاًّ على الإسلامِ !

ونسيَ المغرورُ أنَّ عدوَّهُ الذي حذَّرَهُ منهُ مولاهُ هوَ الشيطانُ ، وأنَّهُ يفرحُ بما يفعلُهُ ويسخرُ منهُ ، وينسىٰ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بماذا نصرَ الدينَ ، وبماذا أرغمَ الكافرينَ ، وينسىٰ ما رُوِيَ عَنِ الصحابةِ مِنَ التواضعِ والتبذُّلِ ، والقناعةِ بالفقرِ والمسكنةِ ، حتَّىٰ عُوتبَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ في بذاذةِ زِيِّهِ عندَ قدومِهِ إلى الشامِ ، فقالَ : (إنَّا قومٌ أعزَّنا اللهُ بالإسلامِ ؛ فلا نطلبُ العزَّ في غيرِهِ)[2] .

ثمَّ هٰذا المغرورُ يطلبُ عزَّ الدينِ بالثيابِ الرقيقةِ مِنَ القصبِ والدَّيْبَقيِّ والإبريسمِ المحرَّمِ والخيولِ والمراكبِ ، ويزعمُ أنَّهُ يطلبُ بهِ عزَّ العلمِ وشرفَ الدينِ .

---

(١) في (ب) : (فأما هم . . فأعظم عند الله من أن يبتليهم بمثل ذلك ثم إذا ظهر علىٰ أحدهم مخايل الكبر . . .) .

(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » (١/ ٦١) .

وكذلكَ مهما أطلقَ اللسانَ بالحسدِ في أقرانِهِ ، أوْ فيمَنْ ردَّ عليهِ شيئاً مِنْ كلامِهِ.. لمْ يظنَّ بنفسِهِ أنَّ ذلكَ حسدٌ ، ولكنْ قالَ : إنَّما هٰذا غضبٌ للحقِّ ، وردٌّ على المبطلِ في عدوانِهِ وظلمِهِ ، ولمْ يظنَّ بنفسِهِ الحسدَ ، حتَّىٰ يعتقدُ أنَّهُ لوْ طُعِنَ في غيرِهِ مِنْ أهلِ العلمِ أوْ مُنِعَ غيرُهُ مِنْ رئاسةٍ وزُوحِمَ فيها.. هلْ كانَ غضبُهُ وعداوتُهُ مثلَ غضبِهِ الآنَ فيكونَ غضبُهُ للهِ ؟ أمْ لا يغضبُ مهما طُعِنَ في عالمٍ آخرَ ومُنِعَ ، بلْ ربَّما يفرحُ بهِ فيكونَ غضبُهُ لنفسِهِ ، وحسدُهُ لأقرانِهِ مِنْ خبثِ باطنِهِ ؟

وهكذا يرائي بأعمالِهِ وعلومِهِ، وإذا خطرَ لهُ خاطرُ الرياءِ.. قالَ : هيهاتَ ! إنَّما غرضي مِنْ إظهارِ العلمِ والعملِ اقتداءُ الخلقِ بي ؛ ليهتدوا إلىٰ دينِ اللهِ تعالىٰ ، ويتخلَّصوا مِنْ عقابِ اللهِ تعالىٰ ، ولا يتأملُ المغرورُ أنَّهُ ليسَ يفرحُ باقتداءِ الناسِ بغيرِهِ كما يفرحُ باقتدائِهِمْ بهِ ، فلوْ كانَ غرضُهُ صلاحَ الخلقِ.. لفرحَ بصلاحِهِمْ علىٰ يدِ مَنْ كانَ ؛ كمَنْ لهُ عبيدٌ مرضىٰ يريدُ معالجتَهُمْ؛ فإنَّهُ لا يفرِّقُ بينَ أنْ يحصلَ شفاؤُهُمْ علىٰ يدِهِ أوْ علىٰ يدِ طبيبٍ آخرَ.

وربَّما يُذكرُ لهُ هٰذا ، فلا يخلِّيهِ الشيطانُ أيضاً ، ويقولُ : إنَّما ذلكَ لأنَّهُمْ إذا اهتدَوا بي.. كانَ الأجرُ لي والثوابُ لي ، وإنَّما فرحي بثوابِ اللهِ ، لا بقبولِ الخلقِ قولي ، هٰذا ما يظنُّه بنفسِهِ ، واللهُ مطَّلعٌ مِنْ ضميرِهِ علىٰ أنَّهُ لوْ أخبرَهُ نبيٌّ بأنَّ ثوابَهُ في الخمولِ وإخفاءِ العلمِ أكثرُ مِنْ ثوابِهِ في الإظهارِ ، وحُبِسَ معَ ذلكَ في سجنٍ ، وقُيِّدَ بالسلاسلِ.. لاحتالَ في هدمِ السجنِ وحلِّ

السلاسلِ ؛ حتَّىٰ يرجعَ إلىٰ موضعِهِ الذي به تظهرُ رئاستُهُ ، مِنْ تدريسٍ أوْ وعظٍ أوْ غيرِهِ .

وكذلكَ يدخلُ على السلطانِ ويتودَّدُ إليهِ ، ويثني عليهِ ويتواضعُ لهُ ، وإذا خطرَ لهُ أنَّ التواضعَ للسلاطينِ الظلمةِ حرامٌ . . قالَ لهُ الشيطانُ : هيهاتَ ! إنَّما ذلكَ عندَ الطمعِ في مالِهِمْ ، فأمَّا أنتَ . . فغرضُكَ أنْ تشفعَ للمسلمينَ ، وتدفعَ الضررَ عنهُمْ ، وتدفعَ شرَّ أعدائِكَ عنْ نفسِكَ ، واللهُ يعلمُ مِنْ باطنِهِ أنَّهُ لوْ ظهرَ لبعضِ أقرانِهِ قبولٌ عندَ ذلكَ السلطانِ ، فصارَ يشفِّعُهُ في كلِّ مسلمٍ ، حتَّىٰ دفعَ الضررَ عنْ جميعِ المسلمينَ . . ثقلَ ذلكَ عليهِ ، ولوْ قدرَ علىٰ أنْ يقبِّحَ حالَهُ عندَ السلطانِ بالطعنِ فيهِ والكذبِ عليهِ . . لفعلَ .

وكذلكَ قدْ ينتهي غرورُ بعضِهِمْ إلىٰ أنْ يأخذَ مِنْ مالِهِمْ ، فإذا خطرَ لهُ أنَّهُ حرامٌ . . قالَ لهُ الشيطانُ : هـٰذا مالٌ لا مالكَ لهُ ، وهوَ لمصالحِ المسلمينَ ، وأنتَ إمامُ المسلمينَ وعالِمُهُمْ ، وبكَ قوامُ الدينِ ، أفلا يحلُّ لكَ أنْ تأخذَ منهُ بقدْرِ حاجتِكَ ، فيغترُّ بهـٰذا التلبيسِ في ثلاثةِ أمورٍ :

أحدُها : في أنَّهُ مالٌ لا مالكَ لهُ ؛ فإنَّهُ يعرفُ أنَّهُ يأخذُ الخراجَ مِنَ المسلمينَ وأهلِ السوادِ ، والذينَ أخذَ منهُمْ أحياءٌ قيامٌ ، وأولادُهُمْ وورثتُهُمْ أحياءٌ ، وغايةُ الأمرِ وقوعُ الخلطِ في أموالِهِمْ ، ومَنْ غصبَ مئةَ دينارٍ مِنْ عشرةِ أنفسٍ وخلطَها بمالِ نفسِهِ . . فلا خلافَ في أنَّهُ مالٌ حرامٌ ، ولا يُقالُ : هوَ مالٌ لا مالكَ لهُ ، ويجبُ أنْ يقسمَهُ بينَ العشرةِ ويردَّ إلىٰ كلِّ واحدٍ عُشرَهُ

وإنْ كانَ مالُ كلٍّ واحدٍ قدِ اختلطَ بالآخرِ .

الثاني : في قولِهِ : إنَّهُ مِن مصالحِ المسلمينَ ، وبكَ قوامُ الدينِ ، ولعلَّ الذينَ فسدَ دينُهُمْ واستحلُّوا أموالَ السلاطينِ ، ورغبوا في طلبِ الدنيا ، والإقبالِ على الرئاسةِ ، والإعراضِ عنِ الآخرةِ بسببِهِ . أكثرُ مِنَ الذينَ زهدوا في الدنيا ورفضوها وأقبلوا على اللهِ ، فهوَ على التحقيقِ دجَّالُ الدينِ ، وقوامُ مذهبِ الشياطينِ ، لا إمامُ الدينِ ؛ إذِ الإمامُ هوَ الذي يُقتدىٰ بهِ في الإعراضِ عنِ الدنيا والإقبالِ على اللهِ تعالىٰ ؛ كالأنبياءِ عليهِمُ السلامُ والصحابةِ وعلماءِ السلفِ ، والدجَّالُ هوَ الذي يُقتدىٰ بهِ في الإعراضِ عنِ اللهِ والإقبالِ على الدنيا ، فلعلَّ موتَ هـٰذا أنفعُ للمسلمينَ مِنْ حياتِهِ ، وهوَ يزعمُ أنَّهُ قوامُ الدينِ ، ومثلُهُ كما قالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (العالمُ السوءُ كصخرةٍ وقعَتْ في فمِ الوادي ، فلا هيَ تشربُ الماءَ ، ولا هيَ تتركُ الماءَ يخلصُ إلى الزرعِ)[1] .

وأصنافُ غرورِ أهلِ العلمِ في هـٰذهِ الأعصارِ المتأخرةِ خارجةٌ عنِ الحصرِ ، وفيما ذكرناهُ تنبيهٌ بالقليلِ على الكثيرِ .

* * *

وفرقةٌ أخرىٰ أحكموا العلومَ ، وطهَّروا الجوارحَ ، وزيَّنوها بالطاعاتِ ، واجتنبوا ظاهرَ المعاصي ، وتفقَّدوا أخلاقَ النفسِ وصفاتِ القلبِ ؛ مِنَ الرياءِ والحسدِ والحقدِ والكبرِ وطلبِ العلوِّ ، وجاهدوا أنفسَهُمْ في التبرّي

(١) قوت القلوب (١/ ١٤١) .

منها ، وقلعوا مِنَ القلوبِ منابتَها الجليّةَ القويَّةَ ، ولكنَّهُمْ بعدُ مغرورونَ ؛ إذْ بقيَتْ في زوايا القلبِ مِنْ خفايا مكايدِ الشيطانِ وخبايا خداعِ النفسِ ما دَقَّ وغمُضَ مدركُهُ ، فلمْ يفطنوا لها وأهملوها .

وإنَّما مثالُهُ مثالُ مَنْ يريدُ تنقيةَ الزرعِ مِنَ الحشيشِ ، فدارَ عليهِ ، وفتَّشَ عنْ كلِّ حشيشٍ رآهُ فقلعَهُ ، إلا أنَّهُ لمْ يفتِّشْ عمَّا لمْ يخرجْ رأسُهُ بعدُ مِنْ تحتِ الأرضِ ، وظنَّ أنَّ الكلَّ قدْ ظهرَ وبرزَ ، وكانَ قدْ نبتَ مِنْ أصولِ الحشيشِ شُعَبٌ لِطافٌ ، فانبسطَتْ تحتَ الترابِ ، فأهملَها وهوَ يظنُّ أنَّهُ قدْ قلعَها وطهَّرَها ، فإذا هوَ بها في غفلتِهِ وقدْ نبتَتْ وقويَتْ ، وأفسدَتْ أصولَ الزرعِ مِنْ حيثُ لا يدري ، فكذلكَ العالمُ قدْ يفعلُ جميعَ ذلكَ ، ويذهلُ عنِ المراقبةِ للخفايا ، والتفقُّدِ للدقائقِ ، فتراهُ يسهرُ ليلَهُ ويتعبُ نهارَهُ في جمعِ العلومِ وترتيبِها ، وتحسينِ ألفاظِها وجمعِ التصانيفِ فيها ، وهوَ يرىٰ أنَّ باعثَهُ الحرصُ علىٰ إظهارِ دينِ اللهِ ونشرِ شريعتِهِ ، ولعلَّ باعثَهُ الخفيَّ هوَ طلبُ الذكرِ ، وانتشارُ الصيتِ في الأطرافِ ، وكثرةُ الرحلةِ إليهِ مِنَ الآفاقِ ، وانطلاقُ الألسنةِ عليهِ بالثناءِ والمدحِ بالزهدِ والورعِ والعلمِ ، والتقديمُ لهُ في المهمَّاتِ ، وإيثارُهُ في الأغراضِ ، والاجتماعُ حولَهُ للاستفادةِ ، والتلذُّذُ بحسنِ الإصغاءِ عندَ حسنِ اللفظِ والإيرادِ ، والتمتعُ بتحريكِ الرؤوسِ إلىٰ كلامِهِ ، والبكاءُ عليهِ ، والتعجبُ منهُ ، والفرحُ بكثرةِ الأصحابِ والأتباعِ والمستفيدينَ ، والسرورُ بالتخصُّصِ بهٰذهِ الخاصيَّةِ مِنْ بينِ سائرِ الأقرانِ والأشكالِ ، للجمعِ بينَ العلمِ والورعِ وظاهرِ الزهدِ ، والتمكنِ بهِ مِنْ إطلاقِ

لسانِ الطعنِ في الكافَّةِ المقبلينَ على الدنيا ، لا عنْ تفجُّعٍ بمصيبةِ الدينِ ، ولكنْ عنْ إدلالٍ بالتمييزِ ، واعتدادٍ بالتخصيصِ .

ولعلَّ هـٰذا المسكينَ المغرورَ حياتُهُ في الباطنِ بما انتظمَ لهُ مِنْ أمرٍ وإمارةٍ ، وعزٍّ وانقيادٍ ، وتوقيرٍ وحسنِ ثناءٍ ، فلوْ تغيَّرَتْ عليهِ القلوبُ ، واعتقدوا فيهِ خلافَ الزهدِ بما يظهرُ مِنْ أعمالِهِ .. فعساهُ يتشوَّشُ عليهِ قلبُهُ ، وتختلطُ عليهِ أورادُهُ ووظائفُهُ .

وعساهُ يعتذرُ بكلِّ حيلةٍ لنفسِهِ ، وربَّما يحتاجُ إلىٰ أنْ يكذبَ في تغطيةِ عيبِهِ ، وعساهُ يؤثرُ بالكرامةِ والمراعاةِ مَنِ اعتقدَ فيهِ الزهدَ والورعَ وإنْ كانَ قدِ اعتقدَ فيهِ فوقَ قدرِهِ ، وينبو قلبُهُ عمَّنْ عرفَ حدَّ فضلِهِ وورعِهِ وإنْ كانَ ذلكَ علىٰ وَفْقِ حالِهِ .

وعساهُ يؤثرُ بعضَ أصحابِهِ علىٰ بعضٍ وهوَ يرىٰ أنَّهُ يؤثرُهُ لتقدُّمِهِ في الفضلِ والورعِ ، وإنَّما ذلكَ لأنَّهُ أطوعُ لهُ وأتبعُ لمرادِهِ ، وأكثرُ ثناءً عليهِ وأشدُّ إصغاءً إليهِ ، وأحرصُ علىٰ خدمتِهِ ، ولعلَّهُمْ يستفيدونَ منهُ ، ويرغبونَ في العملِ ، وهوَ يظنُّ أنَّ قبولَهُمْ لهُ لإخلاصِهِ وصدقِهِ ، وقيامِهِ بحقِّ علمِهِ ، فيحمدُ اللهَ تعالىٰ علىٰ ما يسَّرَ علىٰ لسانِهِ مِنْ منافعِ خلقِهِ ، ويرىٰ أنَّ ذلكَ مكفِّرٌ لذنوبِهِ ، ولمْ يتفقَّدْ معَ نفسِهِ تصحيحَ النيةِ فيهِ .

وعساهُ لوْ وُعِدَ بمثلِ ذلكَ الثوابِ في إيثارِ الخمولِ والعزلةِ وإخفاءِ العلمِ .. لمْ يرغبْ فيهِ ؛ لفقدِهِ في العزلةِ ، ولاختفاءِ لذةِ القبولِ وعزِّ

الرئاسةِ ، ولعلَّ مثلَ هـٰذا هوَ المرادُ بقولِ الشيطانِ : مَنْ زعمَ مِنْ بني آدمَ أنَّهُ بعلمِهِ امتنعَ منِّي . . فبجهلِهِ وقعَ في حبائلي[1] .

وعساهُ يصنِّفُ ويجتهدُ فيهِ[2] ، ظاناً أنَّهُ يجمعُ علمَ اللهِ لِيُنتفعَ بهِ ، وإنَّما يريدُ بهِ استطارةَ اسمِهِ بحسنِ التصنيفِ ، فلوِ ادَّعىٰ مُدَّعٍ تصنيفَهُ ، ومحا عنهُ اسمَهُ ، ونسبَهُ إلىٰ نفسِهِ . . ثقُلَ ذلكَ عليهِ ، معَ علمِهِ بأنَّ ثوابَ الاستفادةِ مِنَ التصنيفِ إنَّما يرجعُ إلى المصنِّفِ ، واللهُ عالمٌ بأنَّهُ هوَ المصنِّفُ لا مَنِ ادَّعاهُ .

ولعلَّهُ في تصنيفِهِ لا يخلو مِنَ الثناءِ علىٰ نفسِهِ ، إمَّا صريحاً بالدعاوى الطويلةِ العريضةِ ، وإمَّا ضمناً بالطعنِ في غيرِهِ ؛ ليستبينَ مِنْ طعنِهِ في غيرِهِ أنَّهُ أفضلُ ممَّنْ طعنَ فيهِ وأعظمُ منهُ علماً ، ولقدْ كانَ في غُنيةٍ عنِ الطعنِ فيهِ ، ولعلَّهُ يحكي مِنَ الكلامِ المزيفِ ما يزيدُ تزييفَهُ فيعزوهُ إلىٰ قائلِهِ ، وما يستحسنُهُ لعلَّهُ لا يعزوهُ إليهِ ؛ ليظنَّ أنَّهُ مِنْ كلامِهِ ، فينقلُهُ بعينِهِ كالسارقِ لهُ ، أوْ يغيِّرُهُ أدنىٰ تغييرٍ ؛ كالذي يسرقُ قميصاً مِنْ غيرِهِ فيتخذُهُ قَباءً حتَّىٰ لا يُعرفَ أنَّهُ مسروقٌ ، ولعلَّهُ يجتهدُ في تزيينِ ألفاظِهِ ، وتسجيعِهِ وتحسينِ نظمِهِ ؛ كيْ لا ينسبَ إلى الركاكةِ ، ويرىٰ أنَّ غرضَهُ ترويجُ الحكمةِ وتحسينُها وتزيينُها ؛ ليكونَ أقربَ إلىٰ نفعِ الناسِ ، وعساهُ غافلٌ عما رُويَ أنَّ بعضَ الحكماءِ وضعَ ثلاثَ مئةِ مصحفٍ في الحكمةِ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٩/ ٣١٧) عن أبي عبد الله الساجي .
(٢) أي : في تصنيفه . « إتحاف » (٨/ ٤٥٣) .

نبيِّ زمانِهِ : قلْ لهُ : قدْ ملأتَ الأرضَ نفاقاً ، وإنِّي لا أقبلُ مِنْ نفاقِكَ شيئاً[1] .

ولعلَّ جماعةً مِنْ هـٰذا الصنفِ مِنَ المغترينَ إذا اجتمعوا . . ظنَّ كلُّ واحدٍ بنفسِهِ السلامةَ عنْ عيوبِ القلبِ وخفاياهُ ، فلوِ افترقوا واتَّبعَ كلَّ واحدٍ منهُمْ فرقةً مِنْ أصحابِهِ . . نظرَ كلُّ واحدٍ منهُمْ إلىٰ كثرةِ مَنْ يتبعُهُ ، وأنَّهُ أكثرُ تبعاً أَمْ غيرُهُ ، فيفرحُ إنْ كانَ أتباعُهُ أكثرَ وإنْ علمَ أنَّ غيرَهُ أحقُّ بكثرةِ الأتباعِ منهُ ، ثمَّ إذا تفرَّقوا واشتغلوا بالإفادةِ . . تغايروا وتحاسدوا .

ولعلَّ مَنْ يختلفُ إلىٰ واحدٍ منهُمْ إذا انقطعَ عنهُ إلىٰ غيرِهِ . . ثقُلَ علىٰ قلبِهِ ووجدَ في نفسِهِ نفرةً منهُ ، فبعدَ ذلكَ لا يهتزُّ باطنُهُ لإكرامِهِ ، ولا يتشمَّرُ لقضاءِ حوائجِهِ كما كانَ يتشمَّرُ مِنْ قبلُ ، ولا يحرصُ على الثناءِ عليهِ كما كانَ يثني ، معَ علمِهِ بأنَّهُ مشغولٌ بالاستفادةِ ، ولعلَّ التحيُّزَ منهُ إلىٰ فئةٍ أخرىٰ كانَ أنفعَ لهُ في دينِهِ ؛ لآفةٍ مِنَ الآفاتِ كانَتْ تلحقُهُ في هـٰذهِ الفئةِ ، وسلامتِهِ منها في تلكَ الفئةِ ، ومعَ ذلكَ لا تزولُ النفرةُ عنْ قلبِهِ .

ولعلَّ واحداً منهُمْ إذا تحرَّكَتْ فيهِ مبادي الحسدِ . . لمْ يقدرْ علىٰ إظهارِهِ ، فيتعلَّلُ بالطعنِ في دينِهِ وفي ورعِهِ ؛ ليحملَ غضبَهُ علىٰ ذلكَ ، ويقولُ : إنَّما غضبتُ لدينِ اللهِ لا لنفسي ، ومهما ذُكِرَتْ عيوبُهُ بينَ يديهِ . . ربَّما فرحَ بهِ ، وإنْ أُثنيَ عليهِ . . ربَّما ساءَهُ وكرهَهُ ، وربَّما قطَّبَ وجهَهُ إذا

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٣٣) .

ذُكِرَتْ عيوبُهُ[1] ، يظهرُ أنَّهُ كارهٌ لغيبةِ المسلمينَ وسرُّ قلبِهِ راضٍ بهِ ومريدٌ لهُ ، واللهُ مُطَّلِعٌ عليهِ في كلِّ ذلكَ .

فهٰذا وأمثالُهُ مِنْ خفايا العيوبِ لا يفطنُ لهُ إلا الأكياسُ ، ولا يتنزَّهُ منهُ إلا الأقوياءُ ، ولا مطمعَ فيهِ لأمثالِنا مِنَ الضعفاءِ ، إلا أنَّ أقلَّ الدرجاتِ أنْ يعرفَ الإنسانُ عيوبَ نفسِهِ ، ويسوءَهُ ذلكَ ويكرهَهُ ، ويحرصَ علىٰ إصلاحِهِ ، فإذا أرادَ اللهُ بعبدٍ خيراً . . بصَّرَهُ بعيوبِ نفسِهِ ، ومَنْ سرَّتْهُ حسنتُهُ وساءَتْهُ سيئتُهُ . . فهوَ مرجوُّ الحالِ ، وأمرُهُ أقربُ مِنَ المغرورِ المزكِّي لنفسِهِ ، الممتنِّ على اللهِ بعملِهِ وعلمِهِ ، الظانِّ أنَّهُ مِنْ خيارِ خلقِهِ ، فنعوذُ باللهِ مِنَ الغفلةِ والاغترارِ ، ومِنَ المعرفةِ بخفايا العيوبِ معَ الإهمالِ .

هٰذا غرورُ الذينَ حصَّلوا العلومَ المهمَّةَ ، ولكنْ قصَّروا في العملِ بالعلمِ .

❀ ❀ ❀

ولنذكرِ الآنَ غرورَ الذينَ قنعوا مِنَ العلومِ بما لمْ يهمَّهُمْ ، وتركوا المهمَّ وهمْ بهِ مغترُّونَ ؛ إما لاستغنائِهِمْ عنْ أصلِ ذلكَ العلمِ ، وإمَّا لاقتصارِهِمْ عليهِ .

فمنهُمْ فرقةٌ اقتصروا علىٰ علمِ الفتاوىٰ في الحكوماتِ والخصوماتِ ، وتفاصيلِ المعاملاتِ الدنيويةِ الجاريةِ بينَ الخلقِ لمصالحِ المعاشِ ،

(١) أي : عيوب المحسود .

وخصَّصوا اسمَ الفقهِ بها ، وسمَّوهُ الفقهَ وعلمَ المذهبِ ، وربَّما ضيعوا معَ ذلكَ الأعمالَ الظاهرةَ والباطنةَ ؛ فلمْ يتفقَّدوا الجوارحَ ، ولمْ يحرسوا اللسانَ عنِ الغيبةِ ، ولا البطنَ عنِ الحرامِ ، ولا الرجلَ عن المشيِ إلى السلاطينِ ، وكذا سائرُ الجوارحِ ، ولمْ يحرسوا قلوبَهُمْ عنِ الكبرِ والحسدِ والرياءِ وسائرِ المهلكاتِ ، **فهؤلاءِ مغرورونَ مِنْ وجهينِ** : أحدُهُما مِنْ حيثُ العملُ ، والآخرُ مِنْ حيثُ العلمُ .

أمَّا العملُ . . فقدْ ذكرنا وجهَ الغرورِ فيهِ ، وأنَّ مثالَهُمْ مثالُ المريضِ إذا تعلَّمَ نسخةَ الدواءِ ، واشتغلَ بتكرارِهِ وحفظِهِ وتعليمِهِ ، لا بلْ مثالُهُمْ مثالُ مَنْ بهِ علَّةُ البواسيرِ والبرسامِ وهوَ مشرفٌ على الهلاكِ ، ومحتاجٌ إلىٰ تعلُّمِ الدواءِ واستعمالِهِ ، فاشتغلَ بتعلُّمِ دواءِ الاستحاضةِ ، وتكرارِ ذلكَ ليلاً ونهاراً ، معَ علمِهِ بأنَّهُ رجلٌ لا يحيضُ ولا يُستحاضُ ، ولكنْ يقولُ : ربَّما تقعُ علَّةُ الاستحاضةِ لامرأةٍ وتسألُني عنهُ ، وذلكَ غايةُ الغرورِ ، فكذلكَ المتفقِّهُ المسكينُ قدْ تسلَّطَ عليهِ حبُّ الدنيا ، واتباعُ الهوىٰ والشهواتِ والحسدِ والكبرِ والرياءِ وسائرِ المهلكاتِ الباطنةِ ، وربَّما يختطفُهُ الموتُ قبلَ التوبةِ والتلافي ، فيلقى اللهَ وهوَ عليهِ غضبانُ ، فتركَ ذلكَ كلَّهُ واشتغلَ بعلمِ السلَمِ والإجارةِ ، والظهارِ واللعانِ ، والجراحاتِ والدياتِ ، والدعاوىٰ والبيناتِ ، وبكتابِ الحيضِ ، ولا يحتاجُ إلىٰ شيءٍ مِنْ ذلكَ قطُّ في عمرِهِ لنفسِهِ ، وإذا احتاجَ غيرُهُ . . كانَ في المفتينَ كثرةٌ ، فيشتغلُ بذلكَ ويحرصُ عليهِ ؛ لما فيهِ مِنَ الجاهِ والمالِ والرئاسةِ ، وقدْ دهاهُ الشيطانُ وما يشعرُ ؛ إذْ

يظنُّ المسكينُ المغرورُ بنفسِهِ أنَّهُ مشغولٌ بفرضِ دينِهِ ، وليسَ يدري أنَّ الاشتغالَ بفرضِ الكفايةِ قبلَ الفراغِ مِنْ فرضِ العينِ معصيةٌ ، هٰذا لوْ كانَتْ نيَّتُهُ صحيحةً كما قالَ ، وكانَ قدْ قصدَ بالفقهِ وجهَ اللهِ تعالىٰ ، فإنَّهُ وإنْ قصدَ وجهَ اللهِ . . فهوَ باشتغالِهِ بهِ معرضٌ عنْ فروضِ عينِهِ في جوارحِهِ وقلبِهِ ، فهٰذا غرورُهُ مِنْ حيثُ العملُ .

وأمَّا غرورُهُ مِنْ حيثُ العلمُ . . فحيثُ اقتصرَ علىٰ علمِ الفتاوىٰ ، وظنَّ أنَّهُ علمُ الدينِ ، وتركَ علمَ كتابِ اللهِ وسنةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وربَّما طعنَ على المحدِّثينَ ، وقالَ : إنَّهُمْ نَقَلَةُ أخبارٍ ، وحَمَلةُ أسفارٍ لا يفقهونَ ما فيها ، وتركَ أيضاً علمَ تهذيبِ الأخلاقِ ، وتركَ الفقهَ عنِ اللهِ تعالىٰ بإدراكِ جلالِهِ وعظمتِهِ ، وهوَ العلمُ الذي يورثُ الخوفَ والهيبةَ والخشوعَ ، ويحملُ على التقوىٰ ، فتراهُ آمناً مِنَ اللهِ ، مغترّاً بهِ ، متَّكلاً علىٰ أنَّهُ لا بدَّ وأنْ يرحمَهُ ، فإنَّهُ قوامُ دينِهِ ، وإنَّهُ لوْ لمْ يشتغلْ بالفتاوىٰ . . لتعطَّلَ الحلالُ والحرامُ ، فقدْ تركَ العلومَ التي هيَ أهمُّ وهوَ غافلٌ مغرورٌ ، وسببُ غرورِهِ ما سمعَ في الشرعِ مِنْ تعظيمِ الفقهِ ، ولمْ يدرِ أنَّ ذلكَ الفقهَ هوَ الفقهُ عنِ اللهِ ، ومعرفةُ صفاتِهِ المَخُوفَةِ والمرجوةِ ؛ ليستشعرَ القلبُ الخوفَ ويلازمَ التقوىٰ ؛ إذْ قالَ تعالىٰ : ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ ، والذي يحصلُ بهِ الإنذارُ غيرُ هٰذا العلمِ ؛ فإنَّ مقصودَ هٰذا العلمِ حفظُ الأموالِ بشروطِ المعاملاتِ ، وحفظُ الأبدانِ بالأموالِ وبدفعِ القتلِ والجراحاتِ ، والمالُ في

طريقِ اللهِ آلةٌ ، والبدنُ مركبٌ ، وإنَّما العلمُ المهمُّ هوَ معرفةُ سلوكِ الطريقِ ، وقطعُ عقباتِ القلبِ التي هيَ الصفاتُ المذمومةُ ، فهيَ الحجابُ بينَ العبدِ وبينَ اللهِ تعالىٰ ، وإذا ماتَ ملوَّثاً بتلكَ الصفاتِ . . كانَ محجوباً عنِ اللهِ ، فمثالُهُ في الاقتصارِ علىٰ علمِ الفقهِ مثالُ مَنِ اقتصرَ مِنْ سلوكِ طريقِ الحجِّ علىٰ علمِ خرزِ الراويةِ والخفِّ ، ولا شكَّ في أنَّهُ لوْ لمْ يكنْ . . . لتعطَّلَ الحجُّ ، ولكنَّ المقتصرَ عليهِ ليسَ مِنَ الحجِّ في شيءٍ ، وقدْ ذكرنا شرحَ ذلكَ في كتابِ العلمِ .

ومِنْ هؤلاءِ مَنِ اقتصرَ مِنْ علمِ الفقهِ على الخلافياتِ ، ولمْ يهمَّهُ إلا تعلُّمُ طريقِ المجادلةِ والإلزامِ وإفحامِ الخصومِ ودفعِ الحقِّ ؛ لأجلِ الغلبةِ والمباهاةِ ؛ فهوَ طولَ الليلِ والنهارِ في التفتيشِ عنْ مناقضاتِ أربابِ المذاهبِ ، والتفقُّدِ لعيوبِ الأقرانِ ، والتلقفِ لأنواعِ التسبيباتِ المؤذيةِ ، وهؤلاءِ همْ سباعُ الإنسِ ، طبعُهُمُ الإيذاءُ ، وهمُّهُمُ السفهُ ، ولا يقصدونَ العلمَ إلا لضرورةِ ما يلزمُهُمْ لمباهاةِ الأقرانِ ، فكلُّ علمٍ لا يحتاجونَ إليهِ في المباهاةِ ؛ كعلمِ القلبِ ، وعلمِ سلوكِ الطريقِ إلى اللهِ تعالىٰ ، بمحوِ الصفاتِ المذمومةِ ، وتبديلِها بالمحمودةِ . . فإنَّهُمْ يستحقرونَهُ ، ويسمُّونَهُ التزويقَ وكلامَ الوعَّاظِ ، وإنَّما التحقيقُ عندَهُمْ معرفةُ تفاصيلِ العربدةِ التي تجري بينَ المتصارعينَ في الجدلِ ، وهؤلاءِ قدْ جمعوا ما جمعَهُ الذينَ مِنْ قبلِهِمْ في علمِ الفتاوىٰ ، لكنْ زادوا إذِ اشتغلوا بما ليسَ مِنْ فروضِ الكفاياتِ أيضاً ، بلْ جميعُ دقائقِ الجدلِ في الفقهِ بدعةٌ لمْ يعرفْها السلفُ .

وأمَّا أدلةُ الأحكامِ . . فيشتملُ عليها علمُ المذهبِ ، وهوَ كتابُ اللهِ وسنةُ رسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وفهمُ معانيهِما ، وأمَّا حِيَلُ الجدلِ ؛ مِنَ الكسرِ والقلبِ وفسادِ الوضعِ والتركيبِ والتعديةِ . . فإنَّما أُبدِعَتْ لإظهارِ الغلبةِ والإفحامِ ، وإقامةِ سوقِ الجدلِ بها ، فغرورُ هؤلاءِ أشدُّ كثيراً وأقبحُ مِنْ غرورِ مَنْ قبلَهُمْ .

❀ ❀ ❀

وفرقةٌ أخرىٰ اشتغلوا بعلمِ الكلامِ والمجادلةِ في الأهواءِ ، والردِّ على المخالفينَ ، وتتبُّعِ مناقضاتِهِمْ ، واستكثروا مِنْ معرفةِ المقالاتِ المختلفةِ ، واشتغلوا بتعلُّمِ الطرقِ في مناظرةِ أولئكَ وإفحامِهِمْ ، وافترقوا في ذلكَ فرقاً كثيرةً ، واعتقدوا أنَّهُ لا يكونُ لعبدٍ عملٌ إلا بإيمانٍ ، ولا يصحُّ إيمانٌ إلا بتعلُّمِ جدلِهِمْ وما قدْ سمَّوهُ أدلةَ عقائدِهِمْ ، وظنُّوا أنَّهُ لا أحدَ أعرفُ باللهِ وبصفاتِهِ منهُمْ ، وأنَّهُ لا إيمانَ لمَنْ لمْ يعتقدْ مذهبَهُمْ ولمْ يتعلَّمْ علمَهُمْ ، ودعتْ كلُّ فرقةٍ منهُمْ إلىٰ نفسِها .

ثمَّ همْ فرقتانِ : ضالَّةٌ ومحقَّةٌ ، فالضالَّةُ هيَ التي تدعو إلىٰ غيرِ السنةِ ، والمحقَّةُ هيَ التي تدعو إلى السنةِ ، والغرورُ شاملٌ لجميعِهِمْ :

أمَّا الضالةُ . . فلغفلتِها عنْ ضلالتِها ، وظنِّها بنفسِها النجاةَ ، وهمْ فرقٌ كثيرةٌ يكفِّرُ بعضُهُمْ بعضاً ، وإنَّما أُتِيَتْ مِنْ حيثُ إنَّها لمْ تتهمْ رأيَها ، ولمْ تُحْكِمْ أوَّلاً شروطَ الأدلَّةِ ومنهاجَها ، فرأَتِ الشبهةَ دليلاً ، والدليلَ شبهةً .

وأمَّا الفرقةُ المحقَّةُ . . فإنَّما اغترارُها مِنْ حيثُ إنَّها ظنَّتْ بالجدلِ أنَّهُ أهمُّ

الأمورِ ، وأفضلُ القرباتِ في دينِ اللهِ ، وزعمَتْ أنَّهُ لا يتمُّ لأحدٍ دينُهُ ما لمْ يفحصْ ولمْ يبحثْ ، وأنَّ مَنْ صدَّقَ اللهَ ورسولَهُ مِنْ غيرِ بحثٍ وتحريرِ دليلٍ .. فليسَ بمؤمنٍ ، أوْ ليسَ بكاملِ الإيمانِ ولا مقربٍ عندَ اللهِ ، فلهٰذا الظنِّ الفاسدِ قطعَتْ أعمارَها في تعلُّمِ الجدلِ ، والبحثِ عنِ المقالاتِ وهذياناتِ المبتدعةِ ومناقضاتِهِمْ ، وأهملَتْ أنفسَها وقلوبَها ، حتَّىٰ عميَتْ عليها ذنوبُها وخطاياها الظاهرةُ والباطنةُ ، وهيَ تظنُّ أن اشتغالَها بالجدلِ أولىٰ وأقربُ عندَ اللهِ تعالىٰ وأفضلُ ، ولكنَّها لالتذاذِها بالغلبةِ والإفحامِ ولذَّةِ الرئاسةِ وعزِّ الانتماءِ إلى الذَّبِّ عنْ دينِ اللهِ .. عميَتْ بصيرتُها ، فلمْ تلتفتْ إلى القرنِ الأولِ ، وأنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ شهدَ لهُمْ بأنَّهُمْ خيرُ الخلقِ ، وأنَّهُمْ قدْ أدركوا كثيراً مِنْ أهلِ البدعِ والأهواءِ ، فما جعلوا أعمارَهُمْ ودينَهُمْ غرضاً للخصوماتِ والمجادلاتِ ، وما اشتغلوا بذلكَ عنْ تفقُّدِ قلوبِهِمْ وجوارحِهِمْ وأحوالِهِمْ ، بلْ لمْ يتكلَّموا فيهِ إلا مِنْ حيثُ رأَوا حاجةً ، وتوسَّموا مخايلَ قبولٍ ، فذكروا بقدْرِ الحاجةِ ما يدلُّ الضالَّ علىٰ ضلالتِهِ ، وإذا رأَوا مصرّاً علىٰ ضلالةٍ .. هجروهُ وأعرضوا عنهُ ، وأبغضوهُ في اللهِ ، ولمْ يلزموا الملاحَّةَ معَهُ طولَ العمرِ ، بلْ قالوا : إنَّ الحقَّ هوَ الدعوةُ إلى السنةِ ، ومِنَ السنةِ تركُ الجدلِ في الدعوةِ إلى السنةِ ؛ إذْ روىٰ أبو أمامةَ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « ما ضلَّ قومٌ قطُّ بعدَ هدىً كانوا عليهِ إلا أُوتوا الجدلَ »(١) .

---

(١) رواه الترمذي (٣٢٥٣) ، وابن ماجه (٤٨) .

وخرجَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يوماً علىٰ أصحابِهِ وهمْ يتجادلونَ ويختصمونَ ، فغضبَ عليهِمْ حتَّىٰ كأنَّهُ فُقِىءَ في وجهِهِ حبُّ الرمانِ حمرةً مِنَ الغضبِ ، فقالَ : « ألهـٰذا بُعثتُمْ أمْ بهـٰذا أُمرتُمْ أنْ تضربوا كتابَ اللهِ بعضَهُ ببعضٍ ؟! انظروا إلىٰ ما أُمرتُمْ بهِ فاعملوا ، وما نُهيتُمْ عنهُ فانتهوا »[١] .

فقدْ زجرَهُمْ عنْ ذلكَ ، وكانوا أولىٰ خلقِ اللهِ بالحجاجِ والجدالِ .

ثمَّ إنَّهُمْ رأَوا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وقدْ بُعثَ إلىٰ كافَّةِ أهلِ المللِ ، فلمْ يقعدْ معَهُمْ في مجلسِ مجادلةٍ لإلزامٍ وإفحامٍ وتحقيقِ حجَّةٍ ودفعِ سؤالٍ وإيرادِ إلزامٍ فما جادلَهُمْ إلا بتلاوةِ القرآنِ المنزلِ عليهِمْ ، ولمْ يزدْ في المجادلةِ عليهِ ؛ لأنَّ ذلكَ يشوشُ القلوبَ ، ويستخرجُ منها الإشكالاتِ والشبهَ ، ثمَّ لا يَقدرُ علىٰ محوِها مِنْ قلوبِهِمْ ، وما كانَ يعجزُ عنْ مجادلتِهِمْ بالتقسيماتِ ودقائقِ الأقيسةِ ، وأنْ يعلِّمَ أصحابَهُ كيفيةَ الجدلِ والإلزامِ ، ولكنَّ الأكياسَ وأهلَ الحزمِ لمْ يغترُّوا بهـٰذا ، وقالوا : لوْ نجا أهلُ الأرضِ وهلكنا . . لمْ تنفعْنا نجاتُهُمْ ، ولوْ نجونا وهلكوا . . لمْ يضرَّنا هلاكُهُمْ ، وليسَ علينا في المجادلةِ أكثرُ ممَّا كانَ على الصحابةِ معَ اليهودِ والنصارىٰ وأهلِ المللِ ، وما ضيَّعوا العمرَ بتحريرِ مجادلاتِهِمْ ، فما لنا نضيِّعُ العمرَ ولا نصرفُهُ إلىٰ ما ينفعُنا في يومِ فقرِنا وفاقتِنا ؟ ولِمَ نخوضُ فيما لا نأمنُ علىٰ أنفسِنا الخطأَ في تفاصيلِهِ ؟ ثمَّ نرىٰ أنَّ المبتدعَ ليسَ يتركُ بدعتَهُ

---

(١) رواه ابن ماجه (٨٥) .

بجدالِهِ ، بلْ يزيدُهُ التعصبُ والخصومةُ تشدُّداً في بدعتِهِ ، فاشتغالي بمخاصمةِ نفسي ومجادلتِها ، ومجاهدتِها لتتركَ الدنيا للآخرة أولىٰ ، هـٰذا لوْ كنتُ لمْ أُنهَ عنِ الجدلِ والخصومةِ ، فكيفَ وقدْ نُهيتُ عنهُ ؟! فكيفَ أدعو إلى السنةِ بتركِ السنةِ ؟ فالأولىٰ أنْ أتفقَّدَ نفسي ، وأنظرَ مِنْ صفاتِها ما يبغضُهُ اللهُ تعالىٰ وما يحبُّهُ ؛ لأتنزَّهَ عمَّا يبغضُهُ وأتمسَّكَ بما يحبُّهُ .

❁ ❁ ❁

وفرقةٌ أخرىٰ اشتغلوا بالوعظِ والتذكيرِ ، وأعلاهُمْ رتبةً مَنْ يتكلَّمُ في أخلاقِ النفسِ وصفاتِ القلبِ ؛ مِنَ الخوفِ ، والرجاءِ ، والصبرِ ، والشكرِ ، والتوكلِ ، والزهدِ ، واليقينِ ، والإخلاصِ ، والصدقِ ، ونظائرِها ، وهمْ مغرورونَ يظنُّونَ بأنفسِهِمْ أَنَّهُمْ إذا تكلَّموا بهـٰذهِ الصفاتِ ودعَوُا الخلقَ إليها . . فقدْ صاروا موصوفينَ بهـٰذهِ الصفاتِ ، وهمْ منفكونَ عنها عندَ اللهِ تعالىٰ ، إلا عنْ قدْرٍ يسيرٍ لا ينفكُّ عنهُ عوامُّ المسلمينَ .

وغرورُ هؤلاءِ أشدُّ الغرورِ ؛ لأنَّهُمْ يُعجبونَ بأنفسِهِمْ غايةَ الإعجابِ ، ويظنُّونَ أَنَّهُمْ ما تبحَّروا في علمِ المحبةِ إلا وهمْ محبُّونَ للهِ ، وما قدروا علىٰ تحقيقِ دقائقِ الإخلاصِ إلا وهمْ مخلصونَ ، وما وقفوا علىٰ خفايا عيوبِ النفسِ إلا وهمْ عنها منزَّهونَ ، ولولا أنَّهُ مقرَّبٌ عندَ اللهِ . . لما عرفَ معنى القربِ والبعدِ ، وعلمَ السلوكِ إلى اللهِ ، وكيفيةَ قطعِ المنازلِ في طريقِ اللهِ ، فالمسكينُ بهـٰذهِ الظنونِ يرىٰ أنَّهُ مِنَ الخائفينَ وهوَ آمنٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، ويرىٰ

أَنَّهُ مِنَ الراجينَ وهوَ مِنَ المغترِّينَ المضيِّعينَ ، ويرىٰ أَنَّهُ من الراضينَ بقضاءِ اللهِ وهوَ مِنَ الساخطينَ ، ويرىٰ أَنَّهُ مِنَ المتوكلينَ على اللهِ وهوَ مِنَ المتَّكلينَ على العزِّ والجاهِ والمالِ والأسبابِ ، ويرىٰ أَنَّهُ مِنَ المخلصينَ وهوَ مِنَ المرائينَ ، بلْ يصفُ الإخلاصَ فيتركُ الإخلاصَ في الوصفِ ، ويصفُ الرياءَ ويذكرُهُ وهوَ يرائي بذكرِهِ ؛ ليعتقدَ فيهِ أَنَّهُ لولا أَنَّهُ مخلصٌ . . لما اهتدىٰ إلىٰ دقائقِ الرياءِ ، ويصفُ الزهدَ في الدنيا لشدَّةِ حرصِهِ على الدنيا وقوةِ رغبتِهِ فيها ، فهوَ يظهرُ الدعاءَ إلى اللهِ وهوَ منهُ فارٌّ ، ويخوِّفُ باللهِ تعالىٰ وهوَ منهُ آمنٌ ، ويذكِّرُ باللهِ تعالىٰ وهوَ لهُ ناسٍ ، ويقرِّبُ إلى اللهِ وهوَ منهُ متباعدٌ ، ويحثُّ على الإخلاصِ وهوَ غيرُ مخلصٍ ، ويذمُّ الصفاتِ المذمومةَ وهوَ بها متصفٌ ، ويصرفُ الناسَ عنِ الخلقِ وهوَ على الخلقِ أشدُّهُمْ حرصاً ، لوْ مُنِعَ أحدُهُمْ عنْ مجلسِهِ الذي يدعو فيهِ الناسَ إلى اللهِ . . لضاقَتْ عليهِ الأرضُ بما رحُبَتْ ، ويزعُمُ أَنَّ غرضَهُ إصلاحُ الخلقِ ، ولوْ ظهرَ مِنْ أقرانِهِ مَنْ أقبلَ الخلقُ عليهِ ، وصلحوا علىٰ يديهِ . . لماتَ غمّاً وحسداً ، ولوْ أثنىٰ أحدٌ مِنَ المتردِّدينَ إليهِ علىٰ بعضِ أقرانِهِ . . لكانَ أبغضَ خلقِ اللهِ إليهِ !

فهؤلاءِ أعظمُ الناسِ غِرَّةً ، وأبعدُهُمْ عنِ التنبُّهِ والرجوعِ إلى السدادِ ؛ لأَنَّ المرغبَ في الأخلاقِ المحمودةِ والمنفرَ عنِ المذمومةِ هوَ العلمُ بغوائلِها وفوائدِها ، وهـٰذا قدْ علمَ ذلكَ ولمْ ينفعْهُ ، وشغلَهُ حبُّ دعوةِ الخلقِ عنِ العملِ بهِ ، فبعدَ ذلكَ بماذا يُعالَجُ ؟! وكيفَ سبيلُ تخويفِهِ وإنما المخوفُ ما يتلوهُ علىٰ عبادِ اللهِ فيخافونَ وهوَ ليسَ بخائفٍ ؟!

نعمْ ، إنْ ظنَّ بنفسِهِ أنَّهُ موصوفٌ بهٰذهِ الصفاتِ المحمودةِ يمكنُ أنْ يُدلَّ علىٰ طريقِ الامتحانِ والتجربةِ ، وذلكَ أنَّهُ إنْ كانَ يدَّعي مثلاً حبَّ اللهِ[1] . . فما الذي تركَهُ مِنْ محابِّ الدنيا لأجلِهِ ؟ وإنْ كانَ يدَّعي الخوفَ . . فما الذي امتنعَ منهُ بالخوفِ ، وإنْ كانَ يدَّعي الزهدَ . . فما الذي تركَهُ معَ القدرةِ عليهِ لوجهِ اللهِ تعالى ؟ وإنْ كانَ يدَّعي الأنسَ باللهِ . . فمتىٰ طابَتْ لهُ الخلوةُ ؟ ومتى استوحشَ مِنْ مشاهدةِ الخلقِ ؟ لا بلْ يرىٰ قلبَهُ يمتلئُ بالحلاوةِ إذا أحدقَ بهِ المريدونَ ، وتراهُ يستوحشُ إذا خلا باللهِ تعالىٰ ، فهلْ رأيتَ محبّاً آنساً يستوحشُ مِنْ محبوبِهِ ، ويستروحُ منهُ إلىٰ غيرِهِ ؟!

فالأكياسُ يمتحنونَ أنفسَهُمْ في هٰذهِ الصفاتِ ، ويطالبونَها بالحقيقةِ ، ولا يقنعونَ منها بالتزويقِ ، بلْ بموثقٍ مِنَ اللهِ غليظٍ ، والمغترُّونَ يحسنونَ بأنفسِهِمُ الظنونَ ، فإذا كُشفَ الغطاءُ عنهُمْ في الآخرةِ . . يفتضحونَ ، بلْ يُطرحونَ في النارِ فتندلقُ أقتابُهُمْ ، فيدورُ بها أحدُهُمْ كما يدورُ الحمارُ بالرحىٰ ، كما وردَ بهِ الخبرُ[2] ؛ لأنَّهُمْ يأمرونَ بالخيرِ ولا يأتونَهُ ، وينهونَ عنِ الشرِّ ويأتونَهُ .

وإنَّما وقعَ الغرورُ لهؤلاءِ مِنْ حيثُ إنَّهُمْ يصادفونَ في قلوبِهِمْ شيئاً ضعيفاً مِنْ أصولِ هٰذهِ المعاني ، وهوَ حبُّ اللهِ ، والخوفُ منهُ ، والرضا بفعلِهِ ،

---

(١) كذا في (ب) ، وفي بقية النسخ : (وهو أنه يدَّعي مثلاً حب الله عز وجل) .
(٢) رواه البخاري (٣٢٦٧) ، ومسلم (٢٩٨٩) ، والأقتاب : الأمعاء .

ثمَّ قدروا معَ ذلكَ علىٰ وصفِ المنازلِ العاليةِ في هٰذهِ المعاني ، فظنُّوا أنَّهُمْ ما قدروا علىٰ وصفِ ذلكَ ، وما رزقَهُمُ اللهُ علمَهُ ، وما نفعَ الناسُ بكلامِهِمْ فيها إلا لاتصافِهِمْ بها ، وذهبَ عليهِمْ أنَّ القبولَ للكلامِ ، والكلامَ للمعرفةِ وجريانِ اللسانِ ، والمعرفةَ للتعلمِ ، وأنَّ كلَّ ذلكَ غيرُ الاتصافِ بالصفةِ ، فلمْ يفارقْ آحادَ المسلمينَ في الاتصافِ بصفةِ الحبِّ والخوفِ ، بلْ في القدرةِ على الوصفِ ، بلْ ربَّما زادَ أمنُهُ وقلَّ خوفُهُ ، وظهرَ إلى الخلقِ ميلُهُ ، وضَعُفَ في قلبِهِ حبُّ اللهِ تعالىٰ .

وإنَّما مثالُهُ مثالُ مريضٍ يصفُ المرضَ ، ويصفُ دواءَهُ بفصاحتِهِ ، ويصفُ الصحةَ والشفاءَ ، وغيرُهُ مِنَ المرضىٰ لا يقدرُ علىٰ وصفِ الصحةِ والشفاءِ وأسبابِهِ ودرجاتِهِ وأصنافِهِ ؛ فهوَ لا يفارقُهُمْ في صفةِ المرضِ والاتصافِ بهِ ، وإنَّما يفارقُهُمْ في الوصفِ والعلمِ بالطبِّ ، فظنُّهُ عندَ علمِهِ بحقيقةِ الصحةِ أنَّهُ صحيحٌ . . غايةُ الجهلِ ، فكذلكَ العلمُ بالخوفِ والحبِّ والتوكلِ والزهدِ وسائرِ هٰذهِ الصفاتِ . . غيرُ الاتصافِ بحقائقِها ، ومَنِ التبسَ عليهِ وصفُ الحقائقِ بالاتصافِ بالحقائقِ . . فهوَ مغرورٌ ، فهٰذهِ حالةُ الوعَّاظِ الذينَ لا عيبَ في كلامِهِمْ ، بلْ منهاجُ وعظِهِمْ منهاجُ وعظِ القرآنِ والأخبارِ ، ووعظِ الحسنِ البصريِّ وأمثالِهِ رحمةُ اللهِ عليهِمْ .

❀ ❀ ❀

وفرقةٌ أخرىٰ منهُمْ عدلوا عنِ المنهاجِ الواجبِ في الوعظِ ، وهمْ وعَّاظُ

أهلِ هـٰذا الزمانِ كافةً إلا مَنْ عصمَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ على الندورِ في بعضِ أطرافِ البلادِ إنْ كانَ ولسنا نعرفُهُ ، فاشتغلوا بالطامَّاتِ والشطحِ ، وتلفيقِ كلماتٍ خارجةٍ عنْ قانونِ الشرعِ والعقلِ ؛ طلباً للإغرابِ .

وطائفةٌ شُغفوا بطيَّاراتِ النُّكَتِ[1] ، وتسجيعِ الألفاظِ وتلفيقِها ، فأكثرُ همَّتِهِمْ في الإسجاعِ ، والاستشهادِ بأشعارِ الوصالِ والفراقِ ، وغرضُهُمْ أنْ تكثرَ في مجالسِهِمْ الزعقاتُ والتواجدُ ، ولوْ علىٰ أغراضٍ فاسدةٍ ، فهؤلاءِ شياطينُ الإنسِ ضلُّوا وأضلُّوا عنْ سواءِ السبيلِ ، فإنَّ الأوَّلينَ وإنْ لمْ يصلِحوا أنفسَهُمْ فقدْ أصلحوا غيرَهُمْ ، وصحَّحوا كلامَهُمْ ووعظَهُمْ ، وأمَّا هؤلاءِ . . فإنَّهُمْ يصدونَ عنْ سبيلِ اللهِ ويجرُّونَ الخلقَ إلى الغرورِ باللهِ بلفظِ الرجاءِ ، فيزيدُهُمْ كلامُهُمْ جراءةً على المعاصي ، ورغبةً في الدنيا ، لا سيما إذا كانَ الواعظُ متزيِّناً بالثيابِ والخيلِ والمراكبِ ، فإنَّهُ يشهدُ مِنْ فَرْقِهِ إلىٰ قدمِهِ بشدَّةِ حرصِهِ على الدنيا ، فما يفسدُهُ هـٰذا المغرورُ أكثرُ ممَّا يصلحُهُ ، بلْ لا يصلحُ أصلاً ، ويضلُّ خلقاً كثيراً ، فلا يخفىٰ وجهُ كونِهِ مغروراً .

❀ ❀ ❀

وفرقةٌ أخرىٰ منهُمْ قنعوا بحفظِ كلامِ الزهَّادِ وأحاديثِهِمْ في ذمِّ الدنيا ، فهمْ يحفظونَ الكلماتِ علىٰ وجهِها ، ويؤدُّونَها مِنْ غيرِ إحاطةٍ بمعانيها ، فبعضُهُمْ يفعلُ ذلكَ على المنابرِ ، وبعضُهُمْ في المحاريبِ ، وبعضُهُمْ في

---

(١) وهي المسائل الدقيقة التي تتعب الخواطر في استنباطها من مكانها . «إتحاف» (٨/ ٤٦٠) .

الأسواقِ معَ الجلساءِ ، وكلٌّ منهُمْ يظنُّ أنَّهُ إذا تميَّزَ بهـٰذا القدْرِ عنِ السوقةِ والجنديَّةِ ؛ إذْ حفظَ كلامَ الزهَّادِ وأهلِ الدينِ دونَهُمْ . . فقدْ أفلحَ ونالَ الغرضَ ، وصارَ مغفوراً لهُ ، وأمنَ مِنْ عقابِ اللهِ مِنْ غيرِ أنْ يحفظَ ظاهرَهُ وباطنَهُ عنِ الآثامِ ، ولكنَّهُ يظنُّ أنَّ حفظَهُ لكلامِ الزهادِ أهلِ الدينِ يكفيهِ ، وغرورُ هؤلاءِ أظهرُ مِنْ غرورِ مَنْ قبلَهُمْ .

❀ ❀ ❀

وفرقةٌ أخرىٰ استغرقوا أوقاتَهُمْ في علمِ الحديثِ ؛ أعني في سماعِهِ ، وجمعِ الرواياتِ الكثيرةِ منهُ ، وطلبِ الأسانيدِ الغريبةِ العاليةِ ، فهمَّةُ أحدِهِمْ أنْ يدورَ في البلادِ ويرى الشيوخَ ليقولَ : أنا أروي عنْ فلانٍ وفلانٍ ، ولقدْ لقيتُ فلاناً وفلاناً ، ومعي من الأسانيدِ ما ليسَ معَ غيري .

وغرورُهُمْ مِنْ وجوهٍ :

منها : أنَّهُمْ كحملةِ أسفارٍ ؛ فإنَّهُمْ لا يصرفونَ العنايةَ إلىٰ فهمِ معاني السنةِ ، فعلمُهُمْ قاصرٌ ، وليسَ معَهُمْ إلا النقلُ ، ويظنُّونَ أنَّ ذلكَ يكفيهِمْ .

ومنها : أنَّهُمْ إذا لمْ يفهموا معانيَها . . لا يعملونَ بها ، وقدْ يفهمونَ بعضَها أيضاً ولا يعملونَ بهِ .

ومنها : أنَّهُمْ يتركونَ العلمَ الذي هوَ فرضُ عينِهِمْ ـ وهوَ معرفةُ معالجةِ القلبِ ـ ويشتغلونَ بتكثيرِ الأسانيدِ وطلبِ العالي منها ، ولا حاجةَ بهِمْ إلىٰ شيءٍ مِنْ ذلكَ .

ومنها ـ وهوَ الذي أكبَّ عليهِ أهلُ الزمانِ ـ : أنَّهُمْ أيضاً لا يقومونَ بشرط السماعِ ، فإنَّ السماعَ بمجردِهِ وإنْ لمْ يكنْ لهُ فائدةٌ ، ولكنَّهُ مهمٌّ في نفسِهِ للوصولِ إلىٰ إثباتِ الحديثِ ؛ إذِ التفهُّمُ بعدَ الإثباتِ ، والعملُ بعدَ التفهُّمِ ، فالأوَّلُ السماعُ ، ثمَّ التفهُّمُ ، ثمَّ الحفظُ ، ثمَّ العملُ ، ثمَّ النشرُ ، وهؤلاءِ اقتصروا مِنَ الجملةِ على السماعِ ، ثمَّ تركوا حقيقةَ السماعِ ، فترى الصبيَّ يحضرُ في مجلس الشيخِ والحديثُ يُقرأُ ، والشيخُ ينامُ والصبيُّ يلعبُ ، ثمَّ يُكتبُ اسمُ الصبيِّ في السماعِ[1] ، فإذا كبِرَ . . تصدَّىٰ ليُسمَعَ منهُ ، والبالغُ الذي يحضرُ ربَّما يغفُلُ ولا يسمعُ ، ولا يصغي ولا يضبطُ ، وربَّما يشتغلُ بحديثٍ أوْ نسخٍ ، والشيخُ الذي يُقرأُ عليهِ لوْ صُحِّفَ وغُيِّرَ ما يُقرأُ عليهِ . . لمْ يشعرْ بهِ ولمْ يعرفْهُ[2] ، وكلُّ ذلكَ جهلٌ وغرورٌ ؛ إذِ الأصلُ في الحديثِ أنْ تسمعَهُ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فتحفظَه كما سمعتَهُ ، وترويَهُ كما حفظتَهُ ، فتكونُ الروايةُ عنِ الحفظِ ، والحفظُ عنِ السماعِ ، فإنْ عجزتَ عنْ سماعِهِ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . سمعتَهُ مِنَ الصحابةِ أوِ التابعينَ ، وصارَ سماعُكَ عنِ الراوي كسماعِ مَنْ سمعَ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وهوَ أنْ تصغيَ لتسمعَ فتحفظَ وترويَ كما حفظتَ ، وتحفظَ كما سمعتَ ؛ بحيثُ لا تغيِّرُ منهُ حرفاً ، ولوْ غيَّرَ غيرُكَ منهُ حرفاً وأخطأَ . . علمتَ خطأَهُ .

---

(١) أي : يكتبه المستملي أو كاتب السماع في الطباق .
(٢) إما لثقل في سمعه ، أو لكثرة ازدحام ، أو لأمر آخر شغله . « إتحاف » (٨/ ٤٦١) .

ولحفظِكَ طريقانِ :

أحدُهُما : أنْ تحفظَ بالقلبِ ، وتستديمَهُ بالذكرِ والتكرارِ ؛ كما تحفظُ ما جرىٰ علىٰ سمعِكَ في مجاري الأحوالِ .

والثاني : أنْ تكتبَ كما تسمعُ ، وتصححَ المكتوبَ وتحفظَهُ حتَّىٰ لا تصلَ إليهِ يدُ مَنْ يغيِّرُهُ ، ويكونَ حفظُكَ للكتابِ معَكَ وفي خزانتِكَ ، فإنَّهُ لوِ امتدَّتْ إليهِ يدُ غيرِكَ . . ربَّما غيَّرَهُ ، فإذا لمْ تحفظْهُ . . لمْ تشعُرْ بتغييرِهِ ، فيكونُ محفوظاً بقلبِكَ أوْ بكتابِكَ ، فيكونُ كتابُكَ مذكِّراً لما سمعْتَهُ ، وتأمنُ فيهِ مِنَ التغييرِ والتحريفِ .

فإذا لمْ تحفظْ لا بالقلبِ ولا بالكتابِ وجرىٰ علىٰ سمعِكَ صوتٌ غُفْلٌ وفارقتَ المجلسَ ، ثمَّ رأيتَ نسخةً لذلكَ الشيخِ ، وجوَّزتَ أنْ يكونَ ما فيهِ مغيَّراً ، أوْ يفارقَ حرفٌ منهُ النسخةَ التي سمعتَها . . لمْ يجزْ لكَ أنْ تقولَ : سمعتُ هـٰذا الكتابَ ؛ فإنَّكَ لا تدري لعلَّكَ لمْ تسمعْ ما فيهِ ، بلْ سمعتَ شيئاً يخالفُ ما فيهِ ولوْ في كلمةٍ .

فإذا لمْ يكنْ معَكَ حفظٌ بقلبِكَ ولا نسخةٌ صحيحةٌ استوثقتَ عليها لتقابلَ بها . . فمِنْ أينَ تعلمُ أنَّكَ سمعتَ ذلكَ ، وقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ ؟! وقولُ الشيوخِ كلِّهِمْ في هـٰذا الزمانِ : إنا سمعْنا ما في هـٰذا الكتابِ إذا لمْ يُوجدِ الشرطُ الذي ذكرناهُ . . فهوَ كذبٌ صريحٌ .

وأقلُّ شروطِ السماعِ : أنْ يجريَ الجميعُ على السمعِ معَ نوعٍ مِنَ الحفظِ

يشعرُ معَهُ بالتغييرِ ، ولوْ جازَ أَنْ يُكتبَ سماعُ الصبيِّ والغافلِ والنائمِ والذي ينسخُ . . لجازَ أَنْ يُكتبَ سماعُ الصبيِّ في المهدِ وسماعُ المجنونِ ، ثمَّ إذا بلغَ الصبيُّ وأفاقَ المجنونُ . . سمعَ عليهِ ، ولا خلافَ في عدمِ جوازِهِ ، ولوْ جازَ ذلكَ . . لجازَ أَنْ يُكتبَ سماعُ الجنينِ في البطنِ ، فإنْ كانَ لا يُكتبُ سماعُ الصبيِّ في المهدِ لأنَّهُ لا يفهمُ ولا يحفظُ . . فالصبيُّ الذي يلعبُ والغافلُ والمشغولُ بالنسخِ عنِ السماعِ ليسَ يفهمُ ولا يحفظُ ، فإنِ استجرأَ جاهلٌ فقالَ : يُكتبُ سماعُ الصبيِّ في المهدِ . . فليُكتبْ سماعُ الجنينِ في البطنِ ، فإنْ فرَّقَ بينَهُما بأنَّ الجنينَ لا يسمعُ الصوتَ وهـٰذا يسمعُ الصوتَ . . فماذا ينفعُ هـٰذا وهوَ إنَّما ينقلُ الحديثَ دونَ الصوتِ ؟!

فليقتصرْ إذْ صارَ شيخاً علىٰ أَنْ يقولَ : سمعتُ بعدَ بلوغي أنِّي في صبايَ حضرتُ مجلساً يُروىٰ فيهِ حديثٌ كانَ يقرعُ سمعي صوتُهُ ، ولا أدري ما هوَ ، ولا خلافَ في أنَّ الروايةَ كذلكَ لا تصحُّ ، وما زادَ عليهِ فهوَ كذبٌ صريحٌ ، ولوْ جازَ إثباتُ سماعِ التركيِّ الذي لا يفهمُ العربيةَ ؛ لأنَّهُ سمعَ صوتاً غُفْلاً . . لجازَ إثباتُ سماعِ صبيٍّ في المهدِ ، وذلكَ غايةُ الجهلِ ، ومِنْ أينَ يُؤخذُ هـٰذا ؟ وهلْ للسماعِ مستندٌ إلا قولُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « نضَّرَ اللهُ امرأً سمعَ مقالتي فوعاها فأدَّاها كما سمعَها »[1] ، وكيفَ يؤدِّي كما سمعَ مَنْ لا يدري ما سمعَهُ ؟!

---

(١) رواه أبو داوود (٣٦٦٠) ، والترمذي (٢٦٥٦) ، وابن ماجه (٢٣٠) .

فهٰذا أفحشُ أنواعِ الغرورِ ، وقدْ بُلِيَ بهٰذا أهلُ الزمانِ ، ولوِ احتاطَ أهلُ الزمانِ . . لمْ يجدوا شيوخاً إلا الذي سمعوهُ في الصِّبا علىٰ هٰذا الوجهِ معَ الغفلةِ ، إلا أنَّ للمحدثينَ في ذلكَ جاهاً وقبولاً ، فخافَ المساكينُ أنْ يشترطوا ذلكَ ، فيقلَّ مَنْ يجتمعُ لذلكَ في حِلَقِهِمْ ، فينقصَ جاهُهُمْ ، وتقلَّ أيضاً أحاديثُهُمْ التي قدْ سمعوها بهٰذا الشرطِ ، بلْ ربَّما عدموا ذلكَ وافتضحوا ، فاصطلحوا علىٰ أنَّهُ ليسَ يُشترطُ إلا أنْ يقرعَ سمعَهُ دمدمةٌ وإنْ كانَ لا يدري ما يجري .

وصحةُ السماعِ لا تُعرفُ مِنْ قولِ المحدثينَ ؛ لأنَّهُ ليسَ مِنْ علمِهِمْ ، بلْ مِنْ علمِ علماءِ أصولِ الفقهِ ، وما ذكرناهُ مقطوعٌ بهِ في قوانينِ أصولِ الفقهِ[1] .

فهٰذا غرورُ هؤلاءِ ، ولوْ سمعوا على الشرطِ . . لكانوا أيضاً مغرورينَ في اقتصارِهِمْ على النقلِ ، وفي إفناءِ أعمارِهِمْ في جمعِ الرواياتِ والأسانيدِ ، وإعراضِهِمْ عنْ مهمَّاتِ الدينِ ، ومعرفةِ معاني الأخبارِ ، بلِ الذي يقصِدُ مِنَ الحديثِ سلوكَ طريقِ الآخرةِ ربَّما يكفيهِ الحديثُ الواحدُ عمراً ؛ كما رُوِيَ عنْ بعضِ الشيوخِ أنَّهُ حضرَ مجلسَ السماعِ ، فكانَ أوَّلَ حديثٍ رُوِيَ قولُهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مِنْ حُسنِ إسلامِ المرءِ تركُهُ ما لا يعنيهِ »[2] ، فقامَ

---

(١) إلا أن المحدثين شاركوهم في الكلام علىٰ هٰذه المسألة استطراداً ؛ لشدة احتياجهم إلىٰ معرفتها . « إتحاف » (٨/ ٤٦٥) .

(٢) رواه الترمذي (٢٣١٧) ، وابن ماجه (٣٩٧٦) .

وقالَ : يكفيني هٰذا حتَّىٰ أفرغَ منهُ ، ثمَّ أسمعُ غيرَهُ[1] .

فهكذا يكونُ سماعُ الأكياسِ الذينَ يحذَرونَ الغرورَ .

***

وفرقةٌ أخرىٰ اشتغلوا بعلمِ النحوِ واللغةِ ، والشعرِ وغريبِ اللغةِ ، واغترُّوا بهِ ، وزعموا أنَّهُمْ قدْ غُفرَ لهُمْ ، وأنَّهُمْ مِنْ علماءِ الأمَّةِ ؛ إذْ قوامُ الدينِ بالكتابِ والسنةِ ، وقوامُ الكتابِ والسنةِ بعلمِ اللغةِ والنحوِ ، فأفنىٰ هؤلاءِ أعمارَهُمْ في دقائقِ النحوِ ، وفي صناعةِ الشعرِ ، وفي غرائبِ اللغةِ .

ومثالُهُمْ كمَنْ يفني جميعَ العمرِ في تعلُّمِ الخطِّ وتصحيحِ الحروفِ وتحسينِها ، ويزعمُ أنَّ العلومَ لا يمكنُ حفظُها إلا بالكتابةِ ، فلا بدَّ مِنْ تعلُّمِها وتصحيحِها ، ولوْ عقلَ . . لعلمَ أنَّهُ يكفيهِ أنْ يتعلَّمَ أصلَ الخطِّ ؛ بحيثُ يمكنُ أنْ يُقرأ كيفما كانَ ، والباقي زيادةٌ على الكفايةِ ، وكذلكَ الأديبُ لوْ عقلَ . . لعرفَ أنَّ لغةَ العربِ كلغةِ التركِ ، والمضيِّعُ عمرَهُ في لغةِ العربِ كالمضيِّعِ عمرَهُ في لغةِ التركِ والهندِ ، وإنَّما فارقَتْها لغةُ العربِ لأجلِ ورودِ الشريعةِ بها ، فيكفي مِنَ اللغةِ علمُ الغريبينِ في الأحاديثِ والكتابِ ، ومِنَ النحوِ ما يتعلَّقُ بالحديثِ والكتابِ ، فأمَّا التعمُّقُ فيهِ إلىٰ درجاتٍ

---

(١) وهو شيخ شيخ المصنف ، أبو القاسم الكركاني رحمه الله تعالىٰ ، وسيأتي ذكره ، وخبره رواه ابن الصلاح في « طبقات الشافعية » (١/٣٩٩) .

لا تتناهىٰ . . فهوَ فضولٌ مستغنىً عنهُ ، ثمَّ لوِ اقتصرَ عليهِ وأَعرضَ عنْ معرفةِ المعاني الشرعية والعملِ بها . . فهـٰذا أيضاً مغرورٌ .

بلْ مثالُهُ مثالُ مَنْ ضيَّعَ عمرَهُ في تصحيحِ مخارجِ الحروفِ في القرآنِ واقتصرَ عليهِ ، وهوَ غرورٌ ؛ إذِ المقصودُ مِنَ الحروفِ المعاني ، وإنَّما الحروفُ ظروفٌ وأدواتٌ ، ومَنِ احتاجَ إلىٰ أنْ يشربَ السكنجبينَ ليزولَ ما بهِ مِنَ الصفراءِ ، فضيَّعَ أوقاتَهُ في تحسينِ القدحِ الذي يشربُ فيهِ السكنجبينَ . . فهوَ مِنَ الجهَّالِ المغرورينَ ؛ فكذلكَ غرورُ أهلِ النحوِ واللغةِ والأدبِ والقراءاتِ والتدقيقِ في مخارجِ الحروفِ مهما تعمَّقوا فيها ، وتجرَّدوا لها وعرَّجوا عليها أكثرَ ممَّا يُحتاجُ إليهِ في تعلُّمِ العلومِ التي هيَ فرضُ عينٍ ، فاللُّبُّ الأقصىٰ هوَ العملُ ، والذي فوقَهُ هوَ معرفةُ العملِ ، وهوَ كالقشرِ للعملِ ، وكاللُّبِّ بالإضافةِ إلىٰ ما فوقَهُ ، وما فوقَهُ هوَ سماعُ الألفاظِ وحفظُها بطريقِ الروايةِ ، وهوَ قشرٌ بالإضافةِ إلى المعرفةِ ، ولبٌّ بالإضافةِ إلىٰ ما فوقَهُ ، وما فوقَهُ هوَ العلمُ باللغةِ والنحوِ ، وفوقَ ذلكَ وهوَ القشرُ الأعلى العلمُ بمخارجِ الحروفِ ، والقانعونَ بهـٰذهِ الدرجاتِ كلُّهُمْ مغترُّونَ ، إلا مَنِ اتخذَ هـٰذهِ الدرجاتِ منازلَ ، فلمْ يعرِّجْ عليها إلا بقدْرِ حاجتِهِ ، فتجاوزَ إلىٰ ما وراءَهُ حتَّىٰ وصلَ إلىٰ لبابِ العملِ ، وطالبَ بحقيقةِ العملِ قلبَهُ وجوارحَهُ ، وزجَّىٰ عمرَهُ في حملِ النفسِ عليهِ ، وتصحيحِ الأعمالِ وتصفيتِها عنِ الشوائبِ والآفاتِ ، فهـٰذا هوَ المقصودُ المخدومُ مِنْ جملةِ علومِ الشرعِ ، وسائرُ العلومِ خدمٌ لهُ ووسائلُ إليه وقشورٌ لهُ ومنازلُ بالإضافةِ

إليهِ ، وكلُّ مَنْ لمْ يبلغِ المقصدَ . . فقدْ خابَ ، سواءٌ كانَ في المنزلِ القريبِ أوْ في المنزلِ البعيدِ .

وهاذهِ العلومُ لمَّا كانَتْ متعلِّقةً بعلومِ الشرعِ . . اغترَّ بها أربابُها ، فأمَّا علمُ الطبِّ والحسابِ والصناعاتِ وما يُعلمُ أنَّهُ ليسَ مِنْ علومِ الشرعِ . . فلا يعتقدُ أصحابُها أنَّهُمْ ينالونَ المغفرةَ بها مِنْ حيثُ إنَّها علومٌ ؛ فكانَ الغرورُ بها أقلَّ مِنَ الغرورِ بعلومِ الشرعِ ؛ لأنَّ العلومَ الشرعيَّةَ مشتركةٌ في أنَّها محمودةٌ ؛ كما يشاركُ القشرُ اللُّبَّ في كونِهِ محموداً ، ولكنَّ المحمودَ منهُ لعينِهِ هوَ المنتهىٰ ، والثاني محمودٌ للوصولِ بهِ إلى المقصودِ الأقصىٰ ، فمَنِ اتخذَ القشرَ مقصوداً وعرَّجَ عليهِ . . فقدِ اغترَّ بهِ .

❋ ❋ ❋

وفرقةٌ أخرىٰ عَظُمَ غرورُهُمْ في فنِّ الفقهِ ، فظنُّوا أنَّ حكمَ العبدِ بينَهُ وبينَ اللهِ تعالىٰ يتبعُ حكمَهُ في مجلسِ القضاءِ ، فوضعوا الحيلَ في دفعِ الحقوقِ ، وأساؤوا تأويلَ الألفاظِ المبهمةِ ، واغترُّوا بالظواهرِ وأخطؤوا فيها ، وهاذا مِنْ قبيلِ الخطأِ في الفتوىٰ والغرورِ فيهِ ، والخطأُ في الفتاوىٰ ممَّا يكثرُ ، ولكنْ هاذا نوعٌ عمَّ الكافةَ إلا الأكياسَ منهُمْ ، فنشيرُ إلىٰ أمثلةٍ لهُ :

فمِنْ ذلكَ : فتواهُمْ بأنَّ المرأةَ مهما أبرأَتِ الزوجَ مِنَ الصداقِ . . برىءَ الزوجُ بينَهُ وبينَ اللهِ تعالىٰ ، وذلكَ خطأٌ ، بلِ الزوجُ قدْ يسيءُ إلى الزوجةِ

بحيثُ يضيِّقُ عليها الأمورَ بسوءِ الخُلُقِ ، فتُضطرُّ إلىٰ طلبِ الخلاصِ ، فتبرىءُ الزوجَ لتتخلَّصَ منهُ ، فهوَ إبراءٌ لا عنْ طيبةِ نفسٍ ، وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴾ وطيبةُ النفسِ غيرُ طيبةِ القلبِ ، فالقلبُ قدْ يريدُ ما لا تطيبُ بهِ النفسُ ؛ فالإنسانُ يريدُ الحجامةَ بقلبِهِ ، ولكنْ تكرهُها نفسُهُ ، وإنَّما طيبةُ النفسِ أنْ تسمحَ نفسُها بالإبراءِ لا عنْ ضرورةٍ تقابلُهُ ، حتَّىٰ إذا رُدِّدَتْ بينَ ضررينِ . . اختارَتْ أهونَهُما ، فهـٰذهِ مصادرةٌ على التحقيقِ بإكراهِ الباطنِ .

نعمِ ، القاضي في الدنيا لا يطلعُ على القلوبِ والأغراضِ ، فينظرُ إلى الإبراءِ الظاهرِ ، وأنَّها لمْ تُكرَهْ بسببٍ ظاهرٍ ، والإكراهُ الباطنُ ليسَ يطَّلعُ الخلقُ عليهِ ، ولكنْ مهما تصدَّى القاضي الأكبرُ في صعيدِ القيامةِ للقضاءِ . . لمْ يكنْ هـٰذا محسوباً ولا مفيداً في تحصيلِ الإبراءِ .

وكذلكَ : لا يحلُّ أنْ يُؤخذَ مالُ الإنسانِ إلا بطيبةِ نفسٍ منهُ ، فلوْ طلبَ مِنْ إنسانٍ مالاً علىٰ ملأٍ مِنَ الناسِ ، فاستحيا مِنَ الناسِ ألاَّ يعطيَهُ ، وكانَ يودُّ أنْ يكونَ سؤالُهُ في خلوةٍ حتَّىٰ لا يعطيَهُ ، ولكنْ خافَ ألمَ مذمَّةِ الناسِ ، وخافَ ألمَ تسليمِ المالِ ، وردَّدَ نفسَهُ بينَهُما ، فاختارَ أهونَ الألمينِ وهوَ ألمُ التسليمِ فسلَّمَهُ . . فلا فرقَ بينَ هـٰذا وبينَ المصادرةِ ؛ إذْ معنى المصادرةِ إيلامُ البدنِ بالسوطِ ، حتَّىٰ يصيرَ ذلكَ أقوىٰ مِنْ ألمِ القلبِ ببذلِ المالِ ، فيختارُ أهونَ الألمينِ ، والسؤالُ في مَظِنَّةِ الحياءِ والرياءِ ضربٌ للقلبِ بالسوطِ ، ولا فرقَ بينَ ضربِ الباطنِ وضربِ الظاهرِ عندَ اللهِ ، فإنَّ الباطنَ

عندَ اللهِ ظاهرٌ ، وإنَّما حاكمُ الدنيا هوَ الذي يحكمُ بالملكِ بظاهرِ قولِه : وهبتُ ؛ لأنَّهُ لا يمكنُهُ الوقوفُ علىٰ ما في القلبِ .

وكذلكَ : مَنْ يُعطى اتقاءَ لشرِّ لسانِهِ ، أوْ لشرِّ سعايتِهِ ؛ فهوَ حرامٌ عليهِ .

وكذلكَ كلُّ مالٍ يُؤخَذُ علىٰ هٰذا الوجهِ فهوَ حرامٌ ، ألا ترىٰ إلىٰ ما جاءَ في قصةِ داوودَ عليهِ السلامُ حيثُ قالَ بعدَ أنْ غُفِرَ لهُ : يا ربِّ ؛ كيفَ لي بخصمي فأُمِرَ بالاستحلالِ منهُ وكانَ خصمُهُ ميتاً ، فأُمِرَ بندائِهِ في صخرةِ بيتِ المقدسِ ، فنادىٰ يا أوريا ؛ فأجابَهُ : لبيكَ يا نبيَّ اللهِ ، أخرجتَني مِنَ الجنةِ فماذا تريدُ ؟ قالَ : إنِّي أسأتُ إليكَ في أمرٍ فهبْهُ لي ، قالَ : قدْ فعلتُ ذلكَ يا نبيَّ اللهِ ، فانصرفَ وقدْ ركنَ إلىٰ ذلكَ ، فقالَ لهُ جبريلُ عليهِ السلامُ : هلْ ذكرتَ لهُ ما فعلتَ : قالَ : لا ، قالَ : فارجعْ إليهِ فبيِّنْ لهُ ، فرجعَ فناداهُ ، فقالَ لهُ : لبيكَ يا نبيَّ اللهِ ، فقالَ : إنِّي أذنبتُ إليكَ ذنباً ، فقالَ : ألمْ أهبْهُ لكَ ؟ قالَ أوَلا تسألُني ما ذلكَ الذنبُ ؟ قالَ : ما هوَ يا نبيَّ اللهِ ؟ قالَ : كذا وكذا ، وذكرَ شأنَ المرأةِ ، فانقطعَ الجوابُ ، فقالَ : يا أوريا ؛ ألا تجيبُني ؟ قالَ : يا نبيَّ اللهِ ؛ ما هٰكذا يفعلُ الأنبياءُ ، حتَّىٰ أقفَ معَكَ بينَ يدي اللهِ تعالىٰ ، فاستقبلَ داوودُ البكاءَ والصراخَ مِنَ الرأسِ حتَّىٰ وعدَهُ اللهُ أنْ يستوهبَهُ منهُ في القيامةِ(١) .

---

(١) الخبر بنحوه رواه الطبري في « تفسيره » (١٢/٢٣/١٧٩) ، وفيه : فأوحى الله إليه : إذا كان ذلك . . دعوت أهريا ، فأستوهبك منه ، فيهبك لي ، فأثيبه بذلك الجنة .

فهٰذا ينبِّهُكَ أنَّ الهبةَ مِنْ غيرِ طيبةِ قلبٍ لا تفيدُ ، وأنَّ طيبةَ القلبِ لا تحصلُ إلا بالمعرفةِ ، فكذلكَ طيبةُ القلبِ لا تكونُ في الإبراءِ والهبةِ وغيرِهِ ، إلا إذا خُلِّيَ الإنسانُ واختيارَهُ حتَّىٰ تنبعثَ الدواعي مِنْ ذاتِ نفسِهِ ، لا أنْ تُضطرَّ دواعيهِ إلى الحركةِ بالحيلِ والإلزامِ .

ومِنْ ذلكَ : هبةُ الرجلِ مالَ الزكاةِ في آخرِ الحولِ مِنْ زوجتِهِ واتِّهابُهُ مالَها ؛ لإسقاطِ الزكاةِ ، فالفقيهُ يقولُ : سقطَتِ الزكاةُ ، فإنْ أرادَ بهِ أنَّ مطالبةَ السلطانِ والساعي قدْ سقطَتْ عنهُ . . فقدْ صدقَ ، فإن مطمحَ نظرِهِمْ إلىٰ ظاهرِ المُلْكِ وقدْ زالَ ، وإنْ ظنَّ أنَّهُ يسلمُ في القيامةِ ويكونُ كمَنْ لمْ يملكِ المالَ ، أوْ كمَنْ باعَ لحاجتِهِ إلى البيعِ لا علىٰ هٰذا القصدِ . . فما أعظمَ جهلَهُ بفقهِ الدينِ وسرِّ الزكاةِ ، فإنَّ سرَّ الزكاةِ تطهيرُ القلبِ عنْ رذيلةِ البخلِ ، فإنَّ البخلَ مهلكٌ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ثلاثٌ مهلكاتٌ شحٌّ مُطاعٌ ، وهوىً متَّبعٌ ، وإعجابُ المرءِ بنفسِهِ »[1] ، وإنَّما صارَ شحُّهُ مُطاعاً بما فعلَهُ ، وقبْلَهُ لمْ يكنْ مُطاعاً ، فقدْ تمَّ هلاكُهُ بما يظنُّ أنَّ فيهِ خلاصَهُ ، فإنَّ اللهَ مطلعٌ علىٰ قلبِهِ وحبِّهِ للمالِ وحرصِهِ عليهِ ، وأنَّهُ قدْ بلغَ مِنْ حرصِهِ على المالِ أنِ استنبطَ الحيلَ حتَّىٰ يسدَّ علىٰ نفسِهِ طريقَ الخلاصِ مِنَ البخلِ بالجهلِ والغرورِ .

---

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (٥٤٤٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/٣٤٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٣١) .

ومِنْ ذلكَ : إباحةُ اللهِ مالَ المصالحِ للفقيهِ وغيرِهِ بقدْرِ الحاجةِ ، والفقهاءُ المغرورونَ لا يميِّزونَ بينَ الأمانيِّ والفضولِ والشهواتِ وبينَ الحاجاتِ ، بلْ كلُّ ما لا تتمُّ رعونتُهُمْ إلا بهِ يرونَهُ حاجةً ، وهوَ محضُ الغرورِ ، بلِ الدنيا خُلقَتْ لحاجةِ العبادِ إليها في العبادةِ ، وسلوكِ طريقِ اللهِ تعالىٰ ، فكلُّ ما تناولَهُ العبدُ للاستعانةِ بهِ على الدينِ والعبادةِ فهوَ حاجتُهُ ، وما عدا ذلكَ فهوَ فضولُهُ وشهوتُهُ ، ولوْ ذهبنا نَصِفُ غرورَ الفقهاءِ في أمثالِ هٰذا . لملأنا فيهِ مجلداتٍ ، والغرضُ التنبيهُ علىٰ أمثلةٍ تعرِّفُ الأجناسَ دونَ الاستيعابِ ؛ فإنَّ ذلكَ يطولُ .

* * *

الصنف الثاني : أرباب العبادة والعمل

والمغرورونَ منهمْ فرقٌ كثيرةٌ : فمنهُمْ مَنْ غرورُهُ في الصلاةِ ، ومنهُمْ مَنْ غرورُهُ في تلاوةِ القرآنِ ، ومنهُمْ في الحجِّ ، ومنهُمْ في الغزوِ ، ومنهُمْ في الزهدِ .

وكذلكَ كلُّ مشغولٍ بمنهجٍ مِنْ مناهجِ العملِ فليسَ خالياً عنْ غرورٍ إلا الأكياسَ وقليلٌ ما همْ .

❁ ❁ ❁

فمنهُمْ فرقةٌ أهملوا الفرائضَ ، واشتغلوا بالفضائلِ والنوافلِ ، وربَّما تعمَّقوا في الفضائلِ ، حتَّىٰ خرجوا إلى العدوانِ والسرفِ ؛ كالذي تغلِبُ عليهِ الوسوسةُ في الوضوءِ ، فيبالغُ فيهِ ، ولا يرتضي الماءَ المحكومَ بطهارتِهِ في فتوى الشرعِ ، ويقدِّرُ الاحتمالاتِ البعيدةَ قريبةً في النجاسةِ ، وإذا آلَ الأمرُ إلىٰ أكلِ الحلالِ . . قدَّرَ الاحتمالاتِ القريبةَ بعيدةً ، وربَّما أكلَ الحرامَ المحضَ ، ولوِ انقلبَ هـٰذا الاحتياطُ مِنَ الماءِ إلى الطعامِ . . . لكانَ أشبهَ بسيرةِ الصحابةِ ؛ إذْ توضَّأَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ بماءٍ في جرَّةِ نصرانيةٍ معَ ظهورِ احتمالِ النجاسةِ(١) ، وكان مَعَ هـٰذا يدعُ أبواباً مِنَ الحلالِ خوفاً مِنَ الوقوعِ في الحرامِ .

---

(١) رواه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١/ ٣٢) ، وعلقه البخاري قبل الحديث (١٩٣) إذ قال : (باب وضوء الرجل مع امرأته وفضلِ وضوء المرأة ، وتوضأ عمر بالحميم من بيت نصرانية) .

ثمَّ في هؤلاءِ مَنْ يخرجُ إلى الإسرافِ في صبِّ الماءِ ، وذلكَ منهيٌّ عنهُ ، وقدْ يطولُ الأمرُ حتَّىٰ يضيِّعَ الصلاةَ ويخرجَها عنْ وقتِها ، وإنْ لمْ يخرجْها أيضاً عنْ وقتِها . . فهوَ مغرورٌ ؛ لما فاتَهُ مِنْ فضيلةِ أوَّلِ الوقتِ ، وإنْ لمْ يفتْهُ . . فهوَ مغرورٌ لإسرافِهِ في الماءِ ، وإنْ لمْ يسرفْ . . فهوَ مغرورٌ لتضييعِهِ العمرَ الذي هوَ أعزُّ الأشياءِ فيما لهُ مندوحةٌ عنهُ ، إلا أنَّ الشيطانَ يصدُّ الخلقَ عنِ اللهِ تعالىٰ بطرقٍ شتَّىٰ ، ولا يقدرُ علىٰ صدِّ العبَّادِ إلا بما يخيِّلُ إليهِمْ أنَّهُ عبادةٌ ، فيبعدُهُمْ عنِ اللهِ بمثلِ ذلكَ .

❁ ❁ ❁

وفرقةٌ أخرىٰ غلبَتْ عليها الوسوسةُ في نيَّةِ الصلاةِ ، فلا يدعُهُ الشيطانُ حتَّىٰ يعتقدَ نيَّةً صحيحةً ، بلْ يشوِّشُ عليهِ حتَّىٰ تفوتَهُ الجماعةُ وتخرجَ الصلاةُ عنِ الوقتِ ، وإنْ تمَّ تكبيرُهُ فيكونُ في قلبِهِ بعدُ تردُّدٌ في صحةِ نيَّتِهِ ، وقدْ يوسوسونَ في التكبيرِ حتَّىٰ يغيِّروا صيغةَ التكبيرِ لشدةِ الاحتياطِ فيهِ ، يفعلونَ ذلكَ في أوَّلِ الصلاةِ ، ثمَّ يغفُلونَ في جميعِ الصلاةِ ، ولا يحضرونَ قلوبَهُمْ ويغترُّونَ بذلكَ ، ويظنُّونَ أنَّهُمْ إذا أتعبوا أنفسَهُمْ في تصحيحِ النيةِ في أوَّلِ الصلاةِ ، وتميَّزوا عنِ العامَّةِ بهـٰذا الجهدِ والاحتياطِ . . فهُمْ علىٰ خيرٍ عندَ ربِّهِمْ !

❁ ❁ ❁

وفرقةٌ أخرىٰ تغلبُ عليها الوسوسةُ في إخراجِ حروفِ الفاتحةِ وسائرِ

الأذكارِ مِنْ مخارجِها ، فلا يزالُ أحدُهُمْ يحتاطُ في التشديداتِ ، والفرقِ بينَ الضادِ والظاءِ ، وتصحيحِ مخارجِ الحروفِ في جميعِ صلاتِهِ ، لا يهمُّهُ غيرُهُ ، ولا يتفكَّرُ فيما سواهُ ، ذاهلاً عنْ معنى القرآنِ والاتعاظِ بهِ ، وصرفِ الفهمِ إلىٰ أسرارِهِ .

وهـٰذا مِنْ أقبحِ أنواعِ الغرورِ ؛ فإنَّهُ لمْ يُكلَّفِ الخلقُ في تلاوةِ القرآنِ مِنْ تحقيقِ مخارجِ الحروفِ إلا بما جرتْ بهِ عادتُهُمْ في الكلامِ .

ومثالُ هؤلاءِ مثالُ مَنْ حملَ رسالةً إلىٰ مجلسِ سلطانٍ ، وأمرَ أنْ يؤدِّيَها علىٰ وجهِها ، فأخذَ يؤدي الرسالةَ ويتأنَّقُ في مخارجِ الحروفِ ، ويكرِّرُها ويعيدُها مرّةً بعدَ أخرىٰ ، وهوَ في ذلكَ غافلٌ عنْ مقصودِ الرسالةِ ، ومراعاةِ حرمةِ المجلسِ ، فما أحراهُ بأنْ تُقامَ عليهِ السياسةُ ، ويُردَّ إلىٰ دارِ المجانينِ ، ويُحكمَ عليهِ بفقدِ العقلِ .

❀ ❀ ❀

وفرقةٌ أخرىٰ اغترُّوا بقراءةِ القرآنِ ، فيهذُّونَهُ هذّاً ، وربَّما يختمونَهُ في اليومِ والليلةِ مرّةً ، وربَّما يزيدُ أحدُهُمْ علىٰ ذلكَ ، ولسانُ أحدِهِمْ يجري بهِ ، وقلبُهُ يتردَّدُ في أوديةِ الأمانيِّ ؛ إذْ لا يتفكَّرُ في معاني القرآنِ لينزجرَ بزواجرِهِ ، ويتعظَ بمواعظِهِ ، ويقفَ عندَ أوامرِهِ ونواهيهِ ، ويعتبرَ بمواضعِ الاعتبارِ فيهِ ، إلىٰ غيرِ ذلكَ ممَّا ذكرناهُ في كتابِ آدابِ تلاوةِ القرآنِ مِنْ مقاصدِ التلاوةِ ، فهوَ مغرورٌ يظنُّ أنَّ المقصودَ مِنْ إنزالِ القرآنِ الهمهمةُ بهِ معَ الغفلةِ عنهُ .

ومثالُهُ مثالُ عبدٍ كتبَ إليهِ مولاهُ ومالكُهُ كتاباً ، وأشارَ عليهِ فيهِ بالأوامرِ والنواهي ، فلمْ يصرِفْ عنايتَهُ إلىٰ فهمِهِ والعملِ بهِ ، ولكنِ اقتصرَ علىٰ حفظِهِ ، فهوَ مستمرٌّ علىٰ خلافِ ما أمرَهُ بهِ مولاهُ ، إلا أنَّهُ مكرِّرٌ للكتابِ بنغمتِهِ وصوتِهِ كلَّ يومٍ مئةَ مرَّةٍ ، فهوَ مستحقٌّ للعقوبةِ ، ومهما ظنَّ أنَّ ذلكَ هوَ المرادُ منهُ . . فهوَ مغرورٌ .

نعمْ ، تلاوتُهُ إنَّما تُرادُ لكيلا يُنسىٰ ، بلْ لحفظِهِ ، وحفظُهُ يُرادُ لمعناهُ ، ومعناه يُرادُ للعملِ بهِ والانتفاعِ بمعانيهِ ، وقدْ يكونُ لهُ صوتٌ طيِّبٌ ، فهوَ يقرؤُهُ ويلتذُّ بهِ ، ويغترُّ باستلذاذِهِ ، ويظنُّ أنَّ ذلكَ لذَّةُ مناجاةِ اللهِ تعالىٰ وسماعِ كلامِهِ ، وإنَّما هيَ لذَّتُهُ بحُسْنِ صوتِهِ ونغمَتِهِ ، ولوْ ردَّدَ ألحانَهُ بشعرٍ أوْ كلامٍ آخرَ . . لالتذَّ بهِ ذلكَ الالتذاذَ ، فهوَ مغرورٌ إذا لمْ يتفقَّدْ قلبَهُ ليعرفَ أنَّ لذَّتَهُ بكلامِ اللهِ تعالىٰ مِنْ حيثُ حسنُ نظمِهِ ومعانيهِ أوْ بصوتِهِ .

❀ ❀ ❀

وفرقةٌ أخرىٰ منهُمُ اغترُّوا بالصومِ ، وربَّما صاموا الدهرَ ، أوْ صاموا الأيامَ الشريفةَ ، وهمْ فيها لا يحفظونَ ألسنتَهُمْ عنِ الغيبةِ ، وخواطرَهُمْ عنِ الرياءِ ، وبطونَهُمْ عنِ الحرامِ عندَ الإفطارِ ، وألسنتَهُمْ عن الهذيانِ بأنواعِ الفضولِ طولَ النهارِ ، وهوَ معَ ذلكَ يظنُّ بنفسِهِ الخيرَ ، فيهملُ الفرائضَ ويطلبُ النفلَ ، ثمَّ لا يقومُ بحقِّهِ ، وذلكَ غايةُ الغرورِ .

❀ ❀ ❀

وفرقةٌ أخرىٰ اغتروا بالحجِّ ، فيخرجونَ إلى الحجِّ مِنْ غيرِ خروجٍ عنِ المظالمِ ، وقضاءِ الديونِ ، واسترضاءِ الوالدينِ ، وطلبِ الزادِ الحلالِ ، وقدْ يفعلونَ ذلكَ بعدَ سقوطِ حجَّةِ الإسلامِ ، ويضيِّعونَ في الطريقِ الصلاةَ والفرائضَ ، ويعجزونَ عنْ طهارةِ الثوبِ والبدنِ ، ويتعرَّضونَ لمكسِ الظلمةِ حتَّىٰ يُؤخذَ منهُمْ[1] ، ولا يحذرونَ في الطريق مِنَ الرفثِ والخصامِ ، وربَّما جمعَ بعضُهُمُ الحرامَ وأنفقَهُ على الرفقاءِ في الطريقِ ، وهوَ يطلبُ بهِ السمعةَ والرياءَ ، فيعصي اللهَ تعالىٰ في كسبِ الحرامِ أوَّلاً ، وفي إنفاقِهِ بالرياءِ ثانياً ، فلا هوَ أخذَهُ مِنْ حِلِّهِ ، ولا هوَ وضعَهُ في حقِّهِ ، ثمَّ يحضرُ البيتَ بقلبٍ ملوَّثٍ برذائلِ الأخلاقِ وذميمِ الصفاتِ ، لمْ يقدِّمْ تطهيرَهُ علىٰ حضورِهِ ، وهوَ معَ ذلكَ يظنُّ أنَّهُ علىٰ خيرٍ مِنْ ربِّهِ ، فهوَ مغرورٌ .

* * *

وفرقةٌ أخرىٰ أخذَتْ في طريقِ الحسْبةِ والأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عنِ المنكرِ ، ينكرُ على الناسِ ويأمرُهُمْ بالخيرِ وينسىٰ نفسَهُ ، فإذا أمرَهُمْ بالخيرِ . . عنَّفَ ، وطلبَ الرئاسةَ والعزَّةَ ، وإذا باشرَ مُنكراً فرُدَّ عليهِ . . غضبَ وقالَ : أنا المحتسبُ ، فكيف يُنكرُ عليَّ ؟! وقدْ يجمعُ الناسَ إلىٰ مسجدِهِ ، ومَنْ تأخَّرَ عنهُ . . أغلظَ القولَ عليهِ ، وإنَّما غرضُهُ الرياءُ

---

(١) ولا يرجعون عن الطريق ، والمراد بالظلمة أمراء البلاد الذين يمرون عليهم ، وفي معناهم الأعراب الصادُّون عن الطريق إلا بدفع شيء من المال علىٰ كل إنسان ، فحكمه حكم المكس . « إتحاف » (٨/ ٤٧٥) .

والرئاسةُ ، ولوْ قامَ بتعهُّدِ المسجدِ غيرُهُ . . لحردَ عليهِ ، بلْ منهُمْ مَنْ يؤذِّنُ ويظنُّ أنَّهُ يؤذِّنُ للهِ ، ولوْ جاءَ غيرُهُ وأذَّنَ في وقتِ غيبتِهِ . . قامَتْ عليهِ القيامةُ ، وقالَ : لمْ آخذْ حقِّي ، وزُوحمتُ علىٰ مرتبتي ، وكذلكَ قدْ يتقلَّدُ إمامةَ مسجدٍ ويظنُّ أنَّهُ علىٰ خيرٍ ، وإنَّما غرضُهُ أنْ يُقالَ : إنَّهُ إمامُ المسجدِ ، فلوْ تقدَّمَ غيرُهُ وإنْ كانَ أورعَ وأعلمَ منهُ . . ثقُلَ عليهِ .

* * *

وفرقةٌ أخرىٰ جاوروا بمكةَ أوِ المدينةِ واغترُّوا بذلكَ ، ولمْ يراقبوا قلوبَهُمْ ، ولمْ يطهِّروا ظاهرَهُمْ وباطنَهُمْ ، فقلوبُهُمْ معلَّقةٌ ببلادِهِمْ ، ملتفتةٌ إلىٰ قولِ الناسِ : إنَّ فلاناً مجاورٌ بمكةَ ! وتراهُ يتحدَّىٰ ويقولُ : قدْ جاورتُ بمكةَ كذا وكذا سنةً ، وإذا سمعَ أنَّ ذلكَ قبيحٌ . . تركَ صريحَ التحدِّي وأحبَّ أنْ يعرفَهُ الناسُ بذلكَ .

ثمَّ إنَّهُ قدْ يجاورُ ويمدُّ عينَ الطمعِ إلىٰ أوساخِ أموالِ الناسِ ، فإذا جمعَ منْ ذلكَ شيئاً . . شحَّ بهِ وأمسكَهُ ، ولمْ تسمحْ نفسُهُ بلقمةٍ يتصدَّقُ بها علىٰ فقيرٍ ، فيظهرُ فيهِ الرياءُ والبخلُ والطمعُ ، وجملةٌ مِنَ المهلكاتِ كانَ عنها بمعزلٍ لوْ تركَ المجاورةَ ، ولكنَّ حبَّ المحمدةِ ، وأنْ يُقالَ : إنَّهُ مِنَ المجاورينَ . . ألزمَهُ المجاورةَ معَ التضمُّخِ بهٰذهِ الرذائلِ ، فهوَ أيضاً مغرورٌ .

وما مِنْ عملٍ مِنَ الأعمالِ أو عبادةٍ مِنَ العباداتِ إلا وفيها آفاتٌ ، فمَنْ لمْ يعرفْ مداخلَ آفاتِها واعتمدَ عليها . . فهوَ مغرورٌ ، ولا يُعرفُ شرحُ ذلكَ إلا مِنْ جملةِ كتبِ « إحياءِ علومِ الدينِ » ؛ فيعرفُ مداخلَ الغرورِ في الصلاةِ

مِنْ كتابِ الصلاةِ ، وفي الحجِّ مِنْ كتابِ الحجِّ ، والزكاةِ والتلاوةِ وسائرِ القرباتِ مِنَ الكتبِ التي رتَّبناها فيها ، وإنَّما الغرضُ الآنَ الإشارةُ إلىٰ مجامعِ ما سبقَ في الكتبِ .

❁ ❁ ❁

وفرقةٌ أخرىٰ زهدَتْ في المالِ ، وقنعَتْ مِنَ اللباسِ والطعامِ بالدونِ ، ومِنَ المسكنِ بالمساجدِ ، وظنَّتْ أنَّها أدركَتْ رتبةَ الزهَّادِ ، وهوَ معَ ذلكَ راغبٌ في الرئاسةِ والجاهِ ؛ إمَّا بالعلمِ أوْ بالوعظِ أوْ بمجرَّدِ الزهدِ ، فقدْ تركَ أهونَ الأمرينِ ، وباءَ بأعظمِ المهلكينِ ؛ فإنَّ الجاهَ أطمُّ مِنَ المالِ ، ولوْ تركَ الجاهَ وأخذَ المالَ . . كانَ إلى السلامةِ أقربَ .

فهٰذا مغرورٌ ؛ إذْ ظنَّ أنَّهُ مِنَ الزهَّادِ في الدنيا وهوَ لمْ يفهمْ معنى الدنيا ، ولمْ يدركْ أنَّ منتهىٰ لذَّاتِها الرئاسةُ ، وأنَّ الراغبَ فيها لا بدَّ وأنْ يكونَ منافقاً ، وحسوداً ، ومتكبِّراً ، ومرائياً ، ومتَّصفاً بجميعِ خبائثِ الأخلاقِ .

نعمْ ، وقدْ يتركُ الرئاسةَ ، ويؤثرُ الخلوةَ والعزلَةَ ، وهوَ معَ ذلكَ مغرورٌ ؛ إذْ يتطاولُ بذلكَ على الأغنياءِ ، ويخشنُ معَهُمُ الكلامَ ، وينظرُ إليهِمْ بعينِ الاستحقارِ ، ويرجو لنفسِهِ أكثرَ مما يرجو لهُمْ ، ويعجبُ بعملِهِ ، ويتَّصفُ بجملةٍ مِنْ خبائثِ القلوبِ وهوَ لا يدري ، وربَّما يُعطى المالَ فلا يأخذُهُ ، خيفةً مِنْ أنْ يُقالَ : بطلَ زهدُهُ ، ولوْ قيلَ لهُ : إنَّهُ حلالٌ فخذْهُ في الظاهرِ وردَّهُ في الخفيةِ . . لمْ تسمحْ بهِ نفسُهُ ؛ خوفاً مِنْ ذمِّ الناسِ ، فهوَ

راغبٌ في حمدِ الناسِ ، وهوَ مِنْ ألذِّ أبوابِ الدنيا ، ويرىٰ نفسَهُ أنَّهُ زاهدٌ في الدنيا ، وهوَ مغرورٌ ، ومعَ ذلكَ فربَّما لا يخلو عنْ توقيرِ الأغنياءِ وتقديمِهِمْ على الفقراءِ ، والميلِ إلى المريدينَ لهُ والمثنينَ عليهِ ، والنفرةِ عنِ المائلينَ إلىٰ غيرِهِ مِنَ الزهَّادِ ، وكلُّ ذلكَ خدعةٌ وغرورٌ مِنَ الشيطانِ ، نعوذُ باللهِ منهُ .

وفي العبَّادِ مَنْ يشدِّدُ علىٰ نفسِهِ في أعمالِ الجوارحِ ، حتَّىٰ ربَّما يصلِّي في اليومِ والليلةِ مثلاً ألفَ ركعةٍ ، ويختمُ القرآنَ ، وهوَ في جميعِ ذلكَ لا يخطرُ لهُ مراعاةُ القلبِ وتفقُّدُهُ وتطهيرُهُ مِنَ الرياءِ والكبرِ والعجبِ وسائرِ المهلكاتِ ، فلا يدري أنَّ ذلكَ مهلكٌ ، وإنْ علمَ ذلكَ . . فلا يظنُّ بنفسِهِ ذلكَ ، وإنْ ظنَّ بنفسِهِ ذلكَ . . توهَّمَ أنَّهُ مغفورٌ لهُ لعملِهِ الظاهرِ ، وأنَّهُ غيرُ مؤاخذٍ بأحوالِ القلبِ ، وإنْ توهَّمَ ذلكَ فيظنُّ أنَّ العباداتِ الظاهرةَ تترجَّحُ بها كِفَّةُ حسناتِهِ ، وهيهاتَ ! وذرةٌ مِنْ ذي تقوىٰ ، وخُلُقٌ واحدٌ مِنْ أخلاقِ الأكياسِ . . أفضلُ مِنْ أمثالِ الجبالِ عملاً بالجوارحِ .

ثمَّ لا يخلو هـٰذا المغرورُ معَ سوءِ خُلُقِهِ معَ الناسِ وخشونتِهِ وتلوُّثِ باطنِهِ عنِ الرياءِ وحبِّ الثناءِ ، فإذا قيلَ لهُ : أنتَ مِنْ أوتادِ الأرضِ ، وأولياءِ اللهِ وأحبابِهِ . . فرحَ المغرورُ بذلكَ ، وصدَّقَ بهِ ، وزادَهُ ذلكَ غروراً ، وظنَّ أنَّ تزكيةَ الناسِ لهُ دليلٌ علىٰ كونِهِ مرضيّاً عندَ اللهِ تعالىٰ ، ولا يدري أنَّ ذلكَ لجهلِ الناسِ بخبائثِ باطنِهِ .

❁ ❁ ❁

وفرقةٌ أخرىٰ حرصَتْ على النوافلِ ولمْ يعظمِ اعتدادُها بالفرائضِ ، ترىٰ أحدَهُمْ يفرحُ بصلاةِ الضحىٰ وصلاةِ الليلِ وأمثالِ هـٰذهِ النوافلِ ولا يجدُ للفريضةِ لذّةً ، ولا يشتدُّ حرصُهُ على المبادرةِ بها في أوّلِ الوقتِ ، وينسىٰ قولَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيما يرويهِ عنْ ربِّهِ : « ما تقرَّبَ المتقربونَ إليَّ بمثلِ أداءِ ما افترضتُ عليهِمْ »(١) .

وتركُ الترتيبِ بينَ الخيراتِ مِنْ جملةِ الغرورِ ، بلْ قدْ يتعيَّنُ على الإنسانِ فرضانِ : أحدُهُما يفوتُ ، والآخرُ لا يفوتُ ، أوْ فضلانِ أحدُهُما يضيقُ وقتُهُ ، والآخرُ يتَّسعُ وقتُهُ ، فإنْ لمْ يحفظِ الترتيبَ فيهِ . . كانَ مغروراً .

ونظائرُ ذلكَ أكثرُ مِنْ أنْ تُحصىٰ ؛ فإنَّ المعصيةَ ظاهرةٌ والطاعةَ ظاهرةٌ ، وإنَّما الغامضُ تقديمُ بعضِ الطاعاتِ علىٰ بعضٍ ؛ كتقديمِ الفرائضِ كلِّها على النوافلِ ، وتقديمِ فروضِ الأعيانِ علىٰ فروضِ الكفاياتِ ، وتقديمِ فرضِ كفايةٍ لا قائمَ بهِ علىٰ ما قامَ بهِ غيرُهُ ، وتقديمِ الأهمِّ مِنَ فروضِ الأعيانِ علىٰ ما دونَهُ ، وتقديمِ ما يفوتُ علىٰ ما لا يفوتُ ، وهـٰذا كما يجبُ أنْ يقدِّمَ حاجةَ الوالدةِ علىٰ حاجةِ الوالدِ ؛ إذْ سُئِلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقيلَ لهُ : مَنْ أبرُّ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « أمَّكَ » ، قالَ : ثمَّ مَنْ ؟ قالَ : « أمَّكَ » ، قالَ : ثمَّ مَنْ : قال : « أمَّكَ » ، قالَ : ثمَّ منْ ؟ قالَ :

---

(١) رواه البخاري (٦٥٠٢) بلفظ : « . . . وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ مما افترضت عليه » .

« أباكَ » ، قالَ : ثمَّ مَنْ ؟ قالَ : « أدناكَ فأدناكَ »[1] ، فينبغي أنْ يبدأَ في الصلةِ بالأقربِ ؛ فإنِ استويا.. فبالأحوجِ ، فإنِ استويا.. فبالأتقىٰ والأورعِ .

وكذلكَ مَنْ لا يفي مالُهُ بنفقةِ الوالدينِ والحجِّ فربَّما يحجُّ وهوَ مغرورٌ ، بلْ ينبغي أنْ يقدِّمَ حقَّهُما على الحجِّ ، وهـٰذا مِنْ تقديمِ فرضٍ أهمَّ علىٰ فرضٍ هوَ دونَهُ .

وكذلكَ إذا كانَ على العبدِ ميعادٌ ودخلَ وقتُ الجمعةِ.. فالجمعةُ تفوتُ ، والاشتغالُ بالوفاءِ بالوعدِ معصيةٌ وإنْ كانَ هوَ طاعةً في نفسِهِ .

وكذلكَ قدْ تصيبُ ثوبَهُ النجاسةُ ، فيغلظُ القولَ علىٰ أبويهِ وأهلِهِ بسببِ ذلكَ ، فالنجاسةُ محذورةٌ ، وإيذاؤهُما محذورٌ ، والحذرُ مِنَ الإيذاءِ أهمُّ مِنَ الحذرِ مِنَ النجاسةِ[2] .

وأمثلةُ تقابلِ المحذوراتِ والطاعاتِ لاتنحصرُ ، ومَنْ تَركَ الترتيبَ في جميعِ ذلكَ.. فهوَ مغرورٌ ، وهـٰذا غرورٌ في غايةِ الغموضِ ؛ لأنَّ المغرورَ فيهِ في طاعةٍ ، إلا أنَّهُ لا يفطنُ لصيرورةِ الطاعةِ معصيةً ، حيثُ تركَ بها طاعةً واجبةً هيَ أهمُّ منها .

---

(١) رواه الترمذي (١٨٩٧) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/ ١٥٠) .
(٢) لأن زوال الأذىٰ عن قلوبهم عسرٌ ، بخلاف إزالة النجاسة من الثوب . « إتحاف » (٨/ ٤٧٨) .

ومِنْ جملتِهِ : الاشتغالُ بالمذهبِ والخلافِ مِنَ الفقهِ في حقِّ مَنْ بقيَ عليهِ شغلٌ مِنَ الطاعاتِ والمعاصي الظاهرةِ والباطنةِ المتعلقةِ بالجوارحِ والمتعلقةِ بالقلبِ ؛ لأنَّ مقصودَ الفقهِ معرفةُ ما يحتاجُ إليهِ غيرُهُ في جوارحِهِمْ ، فمعرفةُ ما يحتاجُ هوَ إليهِ في قلبِهِ أولىٰ بهِ ، إلا أنَّ حبَّ الرئاسةِ والجاهِ ، ولذةَ المباهاةِ وقهرِ الأقرانِ والتقدُّمِ عليهِمْ يعمِي عليهِ ، حتَّىٰ يغترَّ بهِ معَ نفسِهِ ، ويظنَّ أنَّهُ مشغولٌ بمهمِّ دينِهِ .

* * *

الصّنف الثالث : المتصوّفة

وما أغلبَ الغرورَ عليهِمْ ! والمغترُّونَ منهُمْ فرقٌ كثيرةٌ :

ففرقةٌ منهُمْ ـ وهُمْ متصوفةُ أهلِ الزمانِ إلا مَنْ عصمَهُ اللهُ ـ اغترُّوا بالزِّيِّ والمنطقِ والهيئةِ ، فساعدوا الصادقينَ مِنَ الصوفيةِ في زِيِّهِمْ وهيئتِهِمْ ، وفي ألفاظِهِمْ وفي آدابِهِمْ ، ومراسمِهِمْ واصطلاحاتِهِمْ ، وفي أحوالِهِمُ الظاهرةِ في السماعِ والرقصِ ، والطهارةِ والصلاةِ ، والجلوسِ على السجاداتِ معَ إطراقِ الرأسِ ، وإدخالِهِ في الجيبِ كالمتفكِّرِ ، وفي تنفسِ الصعداءِ ، وفي خفضِ الصوتِ في الحديثِ ، إلىٰ غيرِ ذلكَ مِنَ الشمائلِ والهيئاتِ .

فلمَّا تكلَّفوا هـٰذهِ الأمورَ ، وتشبَّهوا بهِمْ فيها . . ظنُّوا أنَّهُمْ أيضاً صوفيةٌ ، ولمْ يتعبوا أنفسَهُمْ قطُّ في المجاهدةِ والرياضةِ ومراقبةِ القلبِ ، وتطهيرِ الباطنِ والظاهرِ مِنَ الآثامِ الخفيَّةِ والجليَّةِ ، وكلُّ ذلكَ مِنْ أوائلِ منازلِ التصوُّفِ ، ولوْ فرغوا مِنْ جميعِها . . لما جازَ لهُمْ أنْ يعدوا أنفسَهُمْ مِنَ الصوفيةِ .

كيفَ ولمْ يحوموا قطُّ حولَها ، ولمْ يسوموا أنفسَهُمْ شيئاً منها ؟!

بلْ يتكالبونَ على الحرامِ والشبهاتِ وأموالِ السلاطينِ ، ويتنافسونَ في الرغيفِ والفَلْسِ والحبَّةِ ، ويتحاسدونَ على النقيرِ والقطميرِ ، ويمزِّقُ بعضُهُمْ أعراضَ بعضٍ مهما خالفَهُ في شيءٍ مِنْ غرضِهِ !

وهؤلاءِ غرورُهُمْ ظاهرٌ ، ومثالُهُمْ مثالُ امرأةٍ عجوزٍ ، سمعَتْ أنَّ الشجعانَ والأبطالَ مِنَ المقاتلينَ ثبتَتْ أسماؤُهُمْ في الديوانِ ، ويُقطَعُ لكلِّ واحدٍ منهُمْ قطرٌ مِنْ أقطارِ المملكةِ[1] .

فتاقَتْ نفسُها إلىٰ أنْ تُقطَعَ لها مملكةٌ ، فلبسَتْ درعاً ، ووضعَتْ علىٰ رأسِها مِغْفراً ، وتعلَّمَتْ مِنْ رَجْزِ الأبطالِ أبياتاً ، وتعوَّدَتْ إيرادَ تلكَ الأبياتِ بنغماتِهِمْ حتَّىٰ تيسَّرَتْ عليها ، وتعلَّمَتْ كيفيةَ تبخترِهِمْ في الميدانِ ، وكيفَ تحريكُهُمْ الأيديَ ، وتلقَّفَتْ جميعَ شمائِلِهِمْ في الزِّيِّ والمنطقِ والحركاتِ والسكناتِ .

ثمَّ توجَّهَتْ إلى المعسكرِ ليثبتَ اسمُها في ديوانِ الشجعانِ ، فلمَّا وصلَتْ إلى المعسكرِ .. أُنفذَتْ إلىٰ ديوانِ العرضِ ، وأُمرَ بأنْ تُجرَّدَ عنِ المغفرِ والدرعِ ويُنظرَ ما تحتَهُ ، وتُمتحنَ بالمبارزةِ معَ بعضِ الشجعانِ ؛ ليُعرفَ قدْرُ عنائِها في الشجاعةِ ، فلمَّا جُرِّدَتْ عنِ المِغْفَرِ والدرعِ .. فإذا هيَ عجوزةٌ ضعيفةٌ زمنةٌ ، لا تطيقُ حملَ الدرعِ والمِغْفَرِ .

فقيلَ لها : أجئتِ للاستهزاءِ بالملكِ وللاستخفافِ بأهلِ حضرتِهِ والتلبيسِ عليهِمْ ؟! خذوها فألقوها قدَّامَ الفيلِ ليثخنَها[2] ، فأُلقيَتْ إلى الفيلِ .

---

(١) أي : يكتب له إقطاعات في البلاد تحت شجاعته . « إتحاف » (٨/ ٤٧٩) .
(٢) أي : يهلكها وطئاً بأقدامه . « إتحاف » (٨/ ٤٧٩) .

وهكذا يكونُ حالُ المدَّعينَ للتصوُّفِ في القيامةِ إذا كُشِفَ عنهُمُ الغطاءُ ، وعُرضوا على القاضي الأكبرِ الذي لا ينظرُ إلى الزِّيِّ والمرقَّعِ ، بلْ إلىٰ سرِّ القلبِ .

وفرقةٌ أخرىٰ : زادَتْ علىٰ هؤلاءِ في الغرورِ ، إذْ شقَّ عليها الاقتداءُ بهِمْ في بذاذةِ الثيابِ والرضا بالدونِ ، وأرادَتْ أنْ تتظاهرَ بالتصوُّفِ ولمْ تجدْ بُدّاً مِنَ التزيُّنِ بزِيِّهِمْ ، فتركوا الخزَّ والإبريسمَ وطلبوا المرقَّعاتِ النفيسةَ والفوطَ الرفيعةَ والسجاداتِ المصبوغةَ ، ولبسوا مِنَ الثيابِ ما هوَ أرفعُ قيمةً مِنَ الخزِّ والإبريسمِ .

وظنَّ أحدُهُمْ معَ ذلكَ أنَّهُ متصوِّفٌ بمجرَّدِ لونِ الثوبِ وكونِهِ مرقَّعاً ، ونسيَ أنَّهُمْ إنَّما لوَّنوا الثيابَ لئلا يطولَ عليهِمْ غسلُها كلَّ ساعةٍ ؛ لإزالةِ الوسخِ ، وإنَّما لبسوا المرقَّعاتِ إذْ كانَتْ ثيابُهُمْ مخرَّقةً ، فكانوا يرقِّعونَها ولا يلبسونَ الجديدَ ، فأمَّا تقطيعُ الفوطِ الرفيعةِ قطعةً قطعةً وخياطةُ المرقعاتِ منها . . فمنْ أينَ يشبهُ ما اعتادَهُ أولئكَ ؟!

فهؤلاءِ أظهرُ حماقةً مِنْ كافَّةِ المغرورينَ ؛ فإنَّهُمْ يتنعَّمونَ بنفيسِ الثيابِ ولذيذِ الأطعمةِ ، ويطلبونَ رغدَ العيشِ ، ويأكلونَ أموالَ السلاطينِ ، ولا يجتنبونَ المعاصيَ الظاهرةَ فضلاً عنِ الباطنةِ ، وهمْ معَ ذلكَ يظنُّونَ بأنفسِهِمُ الخيرَ ، وشرُّ هؤلاءِ ممّا يتعدَّىٰ إلى الخلقِ ، إذْ يهلكُ مَنْ يقتدي بِهِمْ ، ومَنْ لا يقتدي بهِمْ تفسدُ عقيدتُهُ في أهلِ التصوُّفِ كافَّةً ، ويظنُّ أنَّ

جميعَهُمْ كانوا مِنْ جنسِهِ ، فيطوِّلُ اللسانَ في الصادقينَ منهُمْ ، وكلُّ ذلكَ مِنْ شؤمِ المتشبهينَ وشرِّهِمْ .

❁ ❁ ❁

وفرقةٌ أخرىٰ ادَّعتْ علمَ المعرفةِ ، ومشاهدةَ الحقِّ ، ومجاوزةَ المقاماتِ والأحوالِ ، والملازمةَ في عينِ الشهودِ ، والوصولَ إلى القربِ ، ولا يعرفُ هـٰذهِ الأمورَ إلا بالأسامي والألفاظِ ، إلاَّ أنَّهُ تلقَّفَ مِنْ ألفاظِ الطَّامَّاتِ كلماتٍ فهوَ يردِّدُها ، ويظنُّ أنَّ ذلكَ أعلىٰ مِنْ علمِ الأوَّلينَ والآخرينَ ، فهوَ ينظرُ إلى الفقهاءِ والمفسِّرينَ والمحدِّثينَ وأصنافِ العلماءِ بعينِ الإزراءِ فضلاً عنِ العوامِّ ، حتَّىٰ إنَّ الفلاحَ ليتركُ فلاحتَهُ ، والحائكَ يتركُ حياكتَهُ ويلازمُهُمْ أياماً معدودةً ، ويتلقَّفُ منهُمْ تلكَ الكلماتِ المزيَّفةَ ، فيردِّدُها كأنَّهُ يتكلَّمُ عنِ الوحيِ ، ويخبرُ عنْ سرِّ الإسرارِ ، ويستحقرُ بذلكَ جميعَ العبَّادِ والعلماءِ .

فيقولُ في العبَّادِ : إنَّهُمْ أجراءُ متعبونَ .

ويقولُ في العلماءِ : إنَّهُمْ بالحديثِ عنِ اللهِ محجوبونَ .

ويدَّعي لنفسِهِ أنَّهُ الواصلُ إلى الحقِّ ، وأنَّهُ مِنَ المقرَّبينَ ، وهوَ عندَ اللهِ مِنَ الفجَّارِ المنافقينَ ، وعندَ أربابِ القلوبِ مِنَ الحمقى الجاهلينَ ، لمْ يُحْكِمْ قطُّ عِلماً ، ولمْ يهذِّبْ خُلُقاً ، ولمْ يرتِّبْ عملاً ، ولمْ يراقبْ قلباً ، سوى اتباعِ الهوىٰ ، وتلقُّفِ الهذيانِ وحفظِهِ .

❁ ❁ ❁

وفرقةٌ أخرىٰ وقعَتْ في الإباحةِ ، فطوَوا بساطَ الشرعِ ، ورفضوا الأحكامَ ، وسوَّوا بينَ الحلالِ والحرامِ .

فبعضُهُمْ يزعمُ أنَّ اللهَ مستغنٍ عنْ عملي ، فلِمَ أُتعِبُ نفسي ؟

وبعضُهُمْ يقولُ : قدْ كُلِّفَ الناسُ تطهيرَ القلبِ عنِ الشهواتِ وعنْ حبِّ الدنيا ، وذلكَ محالٌ ؛ فقدْ كُلِّفوا ما لا يمكنُ ، وإنَّما يغترُّ بهِ مَنْ لمْ يجرِّبْ ، وأمَّا نحنُ . . فقدْ جرَّبنا وأدركنا أنَّ ذلكَ محالٌ ، ولا يعلمُ الأحمقُ أنَّ الناسَ لمْ يُكلَّفوا قلعَ الشهوةِ والغضبِ مِنْ أصلِهما ، بلْ إنَّما كُلِّفوا قلعَ مادَّتِهما ، بحيثُ ينقادُ كلُّ واحدٍ منهُما لحكمِ العقلِ والشرعِ .

وبعضُهُمْ يقولُ : الأعمالُ بالجوارحِ لا وزنَ لها ، وإنَّما النظرُ إلى القلوبِ ، وقلوبُنا والهةٌ بحبِّ اللهِ ، وواصلةٌ إلىٰ معرفةِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وإنَّما نخوضُ في الدنيا بأبدانِنا وقلوبُنا عاكفةٌ في الحضرةِ الربوبيَّةِ ، فنحنُ معَ الشهواتِ بالظواهرِ لا بالقلوبِ .

ويزعمونَ أنَّهُمْ قدْ ترقَّوا عَنْ رتبةِ العوامِّ ، واستغنَوا عن تهذيبِ النفسِ بالأعمالِ البدنيَّةِ ، وأنَّ الشهواتِ لا تصدُّهُمْ عنْ طريقِ اللهِ تعالىٰ لقوتِهِمْ فيها .

ويرفعونَ درجةَ أنفسِهِمْ عنْ درجةِ الأنبياءِ صلواتُ اللهِ عليهِمْ ؛ إذْ كانَتْ تصدُّهُمْ عنْ طريقِ اللهِ خطيئةٌ واحدةٌ ، حتَّىٰ كانوا يبكونَ عليها ، وينوحونَ سنينَ متواليةً .

وأصنافُ غرورِ أهلِ الإباحةِ مِنَ المتشبِّهينَ بالصوفيةِ لا تُحصىٰ ، وكلُّ ذلكَ بناءً علىٰ أغاليطَ ووساوسَ خدعَهُمُ الشيطانُ بها ؛ لاشتغالِهِمْ بالمجاهدةِ قبلَ إحكامِ العلمِ ، ومِنْ غيرِ اقتداءٍ بشيخٍ متقنٍ في الدينِ والعلمِ ، صالحٍ للاقتداءِ بهِ ، وإحصاءُ أصنافِهِمْ يطولُ .

❁ ❁ ❁

وفرقةٌ أخرىٰ جاوزَتْ حدَّ هؤلاءِ ، وأحسنَتِ الأعمالَ[1] ، وطلبتِ الحلالَ ، واشتغلَتْ بتفقُّدِ القلبِ ، وصارَتْ تدَّعي المقاماتِ مِنَ الزهدِ والتوكُّلِ والرضا والحبِّ مِنْ غيرِ وقوفٍ علىٰ حقيقةِ هٰذهِ المقاماتِ ، وشروطِها وعلاماتِها وآفاتِها .

فمنهُمْ مَنْ يدَّعي الوجدَ والحبَّ للهِ تعالىٰ ، ويزعمُ أنَّهُ والهٌ باللهِ ، ولعلَّهُ قدْ تخيَّلَ في اللهِ خيالاتٍ هيَ بدعةٌ أوْ كفرٌ ، فيدَّعي حبَّ اللهِ قبلَ معرفتِهِ ، ثمَّ إنَّهُ لا يخلو مِنْ مقارفةِ ما يكرهُ اللهُ تعالىٰ ، وعنْ إيثارِ هوىٰ نفسِهِ علىٰ أمرِ اللهِ ، وعنْ تركِ بعضِ الأمورِ حياءً مِنَ الخلقِ ، ولوْ خلا . . لما تركَهُ حياءً مِنَ اللهِ تعالىٰ ، وليسَ يدري أنَّ كلَّ ذلكَ يناقضُ الحبَّ .

وبعضُهُمْ ربَّما يميلُ إلى القناعةِ والتوكُّلِ ، فيخوضُ البواديَ مِنْ غيرِ زادٍ ؛ ليصحِّحَ دعوى التوكُّلِ ، وليسَ يدري أنَّ ذلكَ بدعةٌ لمْ تُنقلْ عنِ السلفِ والصحابةِ ، وقدْ كانوا أعرفَ بالتوكُّلِ منهُ ، فما فهموا أنَّ التوكُّلَ

---

(١) في (ق) : (واجتنبت الأعمال) بدل (وأحسنت الأعمال) .

المخاطرةُ بالروحِ وتركِ الزادِ ، بلْ كانوا يأخذونَ الزادَ وهمْ متوكِّلونَ على اللهِ تعالىٰ لا على الزادِ ، وهـٰذا ربَّما يتركُ الزادَ وهوَ متوكِّلٌ علىٰ سببٍ مِنَ الأسبابِ واثقٌ بهِ .

وما مِنْ مقامٍ مِنَ المقاماتِ المنجياتِ إلا وفيهِ غرورٌ وقدِ اغترَّ بهِ قومٌ ، وقدْ ذكرنا مداخلَ الآفاتِ في ربعِ المنجياتِ مِنَ الكتابِ ؛ فلا يمكنُ إعادتُها .

❊ ❊ ❊

وفرقةٌ أخرىٰ ضيَّقَتْ علىٰ نفسِها في أمرِ القوتِ ، حتَّىٰ طلبَتْ منهُ الحلالَ الخالصَ وأهملَتْ تفقُّدَ القلبِ والجوارحِ في غيرِ هـٰذهِ الخصلةِ الواحدةِ .

ومنهُمْ مَنْ أهملَ الحلالَ في مطعمِهِ وملبسِهِ ومسكنِهِ وأخذَ يتعمَّقُ في غيرِ ذلكَ ، وليسَ يدري المسكينُ أنَّ اللهَ تعالىٰ لمْ يرضَ مِنْ عبدِهِ بطلبِ الحلالِ فقطْ ، ولا يرضىٰ بسائرِ الأعمالِ دونَ طلبِ الحلالِ ، بلْ لا يرضيهِ إلا تفقُّدُ جميعِ الطاعاتِ والمعاصي ، فمَنْ ظنَّ أنَّ بعضَ هـٰذهِ الأمورِ يكفيهِ وينجيهِ . . فهوَ مغرورٌ .

❊ ❊ ❊

وفرقةٌ أخرىٰ منهُمْ ادعَوا حُسنَ الخُلقِ والتواضعَ والسماحةَ ، فتصدَّوا لخدمةِ الصوفيَّةِ ، فجمعوا قوماً وتكلَّفوا بخدمتِهِمْ ، واتخذوا ذلكَ شبكةً للرئاسةِ وجمعِ المالِ ، وإنَّما غرضُهُمُ التكبُّرُ وهُمْ يظهرونَ الخدمةَ والتواضعَ ،

وغرضُهُمُ الارتفاقُ وهمْ يظهرونَ أنَّ غرضَهُمُ الإرفاقُ ، وغرضُهُمُ الاستتباعُ وهمْ يظهرونَ أنَّ غرضَهُمُ الخدمةُ والتبعيَّةُ .

ثم إنَّهُمْ يجمعونَ مِنَ الحرامِ والشبهاتِ وينفقونَ عليهِمْ لتكثرَ أتباعُهُمْ ، وينتشرَ بالخدمةِ اسمُهُمْ .

وبعضُهُمْ يأخذُ أموالَ السلاطينِ وينفقُ عليهِمْ .

وبعضُهُمْ يأخذُها لينفقَ في طريقِ الحجِّ على الصوفيَّةِ ويزعمُ أنَّ غرضَهُ البرُّ والإرفاقُ ، وباعثُ جميعِهِمُ الرياءُ والسمعةُ ، وآيةُ ذلكَ إهمالُهُمْ لجميعِ أوامرِ اللهِ تعالىٰ عليهِمْ ظاهراً وباطناً ، ورضاهُمْ بأخذِ الحرامِ والإنفاقِ منهُ .

ومثالُ مَنْ ينفقُ الحرامَ في طريقِ الحجِّ لإرادةِ الخيرِ كمَنْ يعمُرُ مساجدَ اللهِ فيطيِّنُها بالعذِرَةِ ، ويزعمُ أنَّ قصدَهُ العمارةُ !

❁ ❁ ❁

وفرقةٌ أخرىٰ منهُمُ اشتغلوا بالمجاهدةِ ، وتهذيبِ الأخلاقِ ، وتطهيرِ النفسِ مِنْ عيوبِها ، وصاروا يتعمَّقونَ فيها ، فاتخذوا البحثَ عنْ عيوبِ النفسِ ومعرفةِ خدعِها علماً وحرفةً ؛ فهمْ في جميعِ أحوالِهِمْ مشغولونَ بالفحصِ عنْ عيوبِ النفسِ ، وباستنباطِ دقيقِ الكلامِ في آفاتِها ، فيقولونَ : هـٰذا في النفسِ عيبٌ ، والغفلةُ عنْ كونِهِ عيباً عيبٌ ، والالتفاتُ إلىٰ كونِهِ عيباً عيبٌ ، ويشغفونَ فيهِ بكلماتٍ مسلسلةٍ تضيعُ الأوقاتُ في تلفيقِها ، ومَنْ جعلَ طولَ عمرِهِ في التفتيشِ عنِ العيوبِ وتحريرِ علمِ علاجِها . كانَ كمَنِ اشتغلَ بالتفتيشِ عنْ عوائقِ الحجِّ وآفاتِهِ ولمْ يسلكْ طريقَ الحجِّ ، فذلكَ لا يغنيهِ .

❁ ❁ ❁

وفرقةٌ أخرىٰ جاوزوا هـٰذهِ الرتبةَ ، وابتدؤوا سلوكَ الطريقِ ، وانفتحَ لهُمْ أبوابُ المعرفةِ ، فكلَّما تشمَّموا مِنَ مبادي المعرفةِ رائحةً . . تعجَّبوا منها ، وفرحوا بها ، وأعجبتهُمْ غرائبُها ، فتقيَّدَتْ قلوبُهُمْ بالالتفاتِ إليها والتفكُّرِ فيها ، وفي كيفيةِ انفتاحِ بابِها عليهِمْ ، وانسدادِها علىٰ غيرِهِمْ .

وكلُّ ذلكَ غرورٌ ؛ لأنَّ عجائبَ طريقِ اللهِ ليسَ لها نهايةٌ ، فلوْ وقفَ السالكُ معَ كلِّ أعجوبةٍ وتقيَّدَ بها . . قصرَتْ خُطاهُ ، وحُرِمَ الوصولَ إلى المقصدِ ، وكانَ مثالُهُ مثالَ مَنْ قصدَ ملكاً ، فرأىٰ علىٰ بابِ ميدانِهِ روضةً فيها أزهارٌ وأنوارٌ لمْ يكنْ قدْ رأىٰ قبلَ ذلكَ مثلَها ، فوقفَ ينظرُ إليها ويتعجَّبُ حتَّىٰ فاتَهُ الوقتُ الذي يمكنُ فيهِ لقاءُ الملكِ .

❁ ❁ ❁

وفرقةٌ أخرىٰ جاوزوا هؤلاءِ ، ولم يلتفتوا إلىٰ ما يفيضُ عليهِمْ مِنَ الأنوارِ في الطريقِ ، ولا إلىٰ ما تيسَّرَ لهُمْ مِنَ العطايا الجزيلةِ ، ولمْ يعرِّجوا على الفرحِ بها والالتفاتِ إليها ، جادِّينَ في السيرِ حتَّىٰ قاربوا ، فوصلوا إلىٰ حدِّ القربةِ إلى اللهِ تعالىٰ ، فظنُّوا أنَّهُمْ قدْ وصلوا إلى اللهِ ، فوقفوا وغلطوا ؛ فإنَّ للهِ تعالىٰ سبعينَ حجاباً مِنْ نورٍ ، ولا يصلُ السالكُ إلىٰ حجابٍ مِنْ تلكَ الحجبِ في الطريقِ إلا ويظنُّ أنَّهُ قدْ وصلَ .

وإليهِ الإشارةُ بقولِ إبراهيمَ عليهِ السلامُ ؛ إذْ قالَ اللهُ تعالىٰ إخباراً عنهُ : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ﴾ ، وليسَ المعنيُّ بِهِ هـٰذهِ الأجسامَ المضيئةَ ، فإنَّهُ كانَ يراها في الصِّغرِ ويعلمُ أنَّها ليسَتْ آلهةً ، وهيَ كثيرةٌ وليسَتْ

واحدةً ، والجهّالُ يعلمونَ أنَّ الكوكبَ ليسَ بإلـٰهٍ .

فمثلُ إبراهيمَ عليهِ السلامُ لا يغرُّهُ الكوكبُ الذي لا يغرُّ السواديَّةَ ، ولكنَّ المرادَ بهِ أنَّهُ نورٌ مِنَ الأنوارِ التي هيَ مِنْ حُجُبِ اللهِ تعالىٰ ، وهيَ علىٰ طريقِ السالكينَ ، ولا يُتصوَّرُ الوصولُ إلى اللهِ تعالىٰ إلاَّ بالوصولِ إلىٰ هـٰذهِ الحجبِ ، وهيَ حجبٌ مِنَ النورِ ، بعضُها أعظمُ مِنْ بعضٍ ، وأصغرُ النَّيِّراتِ الكوكبُ ، فاستُعيرَ لهُ لفظُهُ ، وأعظمُها الشمسُ ، وبينَهُما رتبةُ القمرِ .

فلمْ يزلْ إبراهيمُ عليهِ السلامُ لمَّا أُريَ ملكوتَ السماواتِ حيثُ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ يصلُ إلىٰ نورٍ بعدَ نورٍ ، ويُتخيَّلُ إليهِ في أوَّلِ ما كانَ يلقاهُ أنَّهُ قدْ وصلَ ، ثمَّ كانَ يُكشَفُ لهُ أنَّ وراءَهُ أمراً ، فيترقَّىٰ إليهِ ويقولُ : قدْ وصلتُ ، فيُكشفُ لهُ ما وراءَهُ ، حتَّىٰ وصلَ إلى الحجابِ الأقربِ الذي لا وصولَ إلا بعدَهُ ، فقالَ : هـٰذا أكبرُ ، فلمَّا ظهرَ لهُ أنَّهُ معَ عِظَمِهِ غيرُ خالٍ عنِ الهُوِيِّ في حضيضِ النقصِ والانحطاطِ عنْ ذروةِ الكمالِ . . قالَ : لا أحبُّ الآفلينَ ؛ إنِّي وجَّهتُ وجهيَ للذي فطرَ السماواتِ والأرضَ[1] .

وسالكُ هـٰذهِ الطريقِ قدْ يغترُّ في الوقوفِ علىٰ بعضِ هـٰذهِ الحجبِ ، وقدْ يغترُّ بالحجابِ الأوَّلِ ، وأوَّلُ الحجبِ بينَ اللهِ وبينَ العبدِ هوَ نفسُهُ ؛ فإنَّهُ أيضاً أمرٌ ربَّانيٌّ ، وهوَ نورٌ مِنْ أنوارِ اللهِ تعالىٰ ؛ أعني : سرَّ القلبِ الذي

---

(١) مشكاة الأنوار (ص٥٥) .

تتجلَّىٰ فيهِ حقيقةُ الحقِّ كلِّهِ ، حتَّىٰ إنَّهُ ليتسعُ لجملةِ العالمِ ويحيطُ بهِ ، ويتجلىٰ فيه صورةُ الكلِّ .

وعندَ ذلكَ يشرقُ نورُهُ إشراقاً عظيماً ؛ إذ يظهرُ فيهِ الوجودُ كلُّهُ علىٰ ما هوَ عليهِ ، وهوَ في أوَّلِ الأمرِ محجوبٌ بمشكاةٍ هيَ كالساترِ لهُ ، فإذا تجلَّىٰ نورُهُ ، وانكشفَ جمالُ القلبِ بعدَ إشراقِ نورِ اللهِ عليهِ.. ربَّما التفتَ صاحبُ القلبِ إلى القلبِ ، فيرىٰ مِنْ جمالِهِ الفائقِ ما يدهشُهُ ، فربَّما يسبقُ لسانُهُ في هـٰذهِ الدهشةِ فيقولُ : أنا الحقُّ ، فإنْ لمْ يتضحْ لهُ ما وراءَ ذلكَ.. اغترَّ بهِ ، ووقفَ عليهِ وهلكَ ، وكانَ قدِ اغترَّ بكوكبٍ صغيرٍ مِنْ أنوارِ الحضرةِ الإلـٰهيَّةِ ، ولمْ يصلْ بعدُ إلى القمرِ فضلاً عنِ الشمسِ ؛ فهوَ مغرورٌ .

وهـٰذا محلُّ الالتباسِ ؛ إذِ المتجلِّي يلتبسُ بالمتجلَّىٰ فيهِ كما يلتبسُ لونُ ما يتراءىٰ في المرآةِ بالمرآةِ ، فيظنُّ أنَّهُ لونُ المرآةِ ، وكما يلتبسُ ما في الزجاجِ بالزجاجِ ؛ كما قيلَ[1] : [من الكامل]

رَقَّ ٱلزُّجَاجُ وَرَقَّتِ ٱلْخَمْرُ ... فَتَشَابَهَا فَتَشَاكَلَ ٱلأَمْرُ
فَكَأَنَّمَا خَمْرٌ وَلا قَدَحٌ ... وَكَأَنَّمَا قَدَحٌ وَلا خَمْرُ

وبهـٰذهِ العينِ نظرَ النصارىٰ إلى المسيحِ عليهِ السلامُ ، فرأَوا إشراقَ نورِ اللهِ قدْ تلألأَ فيهِ ، فغلطوا فيهِ ؛ كمَنْ يرىٰ كوكباً في مرآةٍ أوْ في ماءٍ فيظنُّ

---

(١) البيتان للصاحب بن عباد في « ديوانه » (ص ١٧٦) .

أنَّ الكوكبَ في المرآةِ أوْ في الماءِ ، فيمدُّ يدَهُ إليهِ ليأخذَهُ وهوَ مغرورٌ .

وأنواعُ الغرورِ في طريقِ السلوكِ إلى اللهِ تعالىٰ لا تُحصىٰ في مجلداتٍ ، ولا تُستقصىٰ إلا بعدَ شرحِ جميعِ علومِ المكاشفةِ ، وذلكَ ممّا لا رخصةَ في ذكرِهِ .

ولعلَّ القدرَ الذي ذكرناهُ أيضاً كانَ الأولىٰ بنا تركَهُ ؛ إذِ السالكُ لهٰذا الطريقِ لا يحتاجُ إلىٰ أنْ يسمعَهُ مِنْ غيرِهِ ، والذي لمْ يسلكْهُ لا ينتفعُ بسماعِهِ ، بلْ ربَّما يستضرُّ بهِ ؛ إذْ يورثُهُ ذلكَ دهشةً مِنْ حيثُ يسمعُ ما لا يفهمُ .

ولكنْ فيهِ فائدةٌ ؛ وهوَ إخراجُهُ مِنَ الغرورِ الذي هوَ فيهِ ؛ إذْ ربَّما يصدِّقُ بأنَّ الأمرَ أعظمُ ممَّا يظنُّهُ ، وممَّا يتخيَّلُهُ بذهنِهِ المختصرِ وخيالِهِ القاصرِ وجدلِهِ المزخرفِ ، ويصدِّقُ أيضاً بما يُحكىٰ مِنَ المكاشفاتِ التي أخبرَ عنها أولياءُ اللهِ ، ومِنْ عِظَمِ غرورِهِ ربَّما أصرَّ مكذِّباً بما يسمعُهُ الآنَ كما يكذِّبُ بما سمعَهُ مِنْ قبلُ !

* * *

الصّنف الرّابع : أرباب الأموال

والمغترُّونَ منهُمْ فرقٌ :

ففرقةٌ منهُمْ يحرصونَ علىٰ بناءِ المساجدِ والمدارسِ والرباطاتِ والقناطرِ وما يظهرُ للناسِ كافَّةً ، ويكتبونَ أساميَهُمْ عليها بالآجرِّ[1] ؛ ليتخلَّدَ ذكرُهُمْ ، ويبقىٰ بعدَ الموتِ أثرُهُمْ ، وهمْ يظنُّونَ أنَّهُمْ قدِ استحقُّوا المغفرةَ بذلكَ .

وقدِ اغترُّوا فيهِ مِنْ وجهينِ :

أحدُهُما : أنَّهُمْ يبنونَها مِنْ أموالٍ اكتسبوها مِنَ الظلمِ والنهبِ والرِّشا والجهاتِ المحظورةِ ، فهمْ قدْ تعرَّضوا لسخطِ اللهِ في كسبِها ، وتعرَّضوا لسخطِهِ في إنفاقِها ، وكانَ الواجبُ عليهِمُ الامتناعَ عنْ كسبِها .

فإذا قدْ عصَوُا اللهَ بكسبِها . . كانَ الواجبُ عليهِمُ التوبةَ والرجوعَ إلى اللهِ تعالىٰ ، وردَّها إلىٰ مُلاَّكِها ؛ إمَّا بأعيانِها أوْ بردِّ بدلِها عندَ العجزِ .

فإنْ عجزوا عنِ المُلاَّكِ . . كانَ الواجبُ ردَّها إلى الورثةِ ، فإنْ لمْ يبقَ للمظلومِ وارثٌ . . فالواجبُ صرفُها إلىٰ أهمِّ المصالحِ .

---

(١) وتارة على الرخام حفراً ، مع ذكر تاريخ عمارتها ، وتارة يكتبون ما صرف عليها من الأموال . « إتحاف » (٨/ ٤٨٥) .

وربَّما يكونُ الأهمُّ التفرقةَ على المساكينِ ، وهمْ لا يفعلونَ ذلكَ ؛ خيفةً مِنْ ألا يظهرَ ذلكَ للناسِ ، فيبنونَ الأبنيةَ بالآجرِّ وغرضُهُمْ مِنْ بنائِها الرياءُ وجلبُ الثناءِ ، وحرصُهُمْ علىٰ بقائِها لبقاءِ أسمائِهِمُ المكتوبةِ فيها ، لا لبقاءِ الخيرِ .

والوجهُ الثاني : أنَّهُمْ يظنُّونَ بأنفسِهِمُ الإخلاصَ وقصدَ الخيرِ في الإنفاقِ على الأبنيةِ ولوْ كُلِّفَ واحدٌ منهُمْ أنْ ينفقَ ديناراً ولا يُكتبَ اسمُهُ على الموضعِ الذي أنفقَ عليهِ . . لشقَّ ذلكَ عليهِ ولمْ تسمحْ بهِ نفسُهُ .

واللهُ مُطلعٌ عليهِ ، كتبَ اسمَهُ أوْ لمْ يكتبْ ، فلولا أنَّهُ يريدُ بهِ وجهَ الناسِ لا وجهَ اللهِ . . لما افتقرَ إلىٰ ذلكَ .

* * *

وفرقةٌ أخرىٰ ربَّما اكتسبَتِ المالَ مِنَ الحلالِ ، وأنفقَتْ على المساجدِ ، وهيَ أيضاً مغرورةٌ مِنْ وجهينِ :

أحدُهُما : الرياءُ وطلبُ الثناءِ ؛ فإنَّهُ ربَّما يكونُ في جوارِهِ أوْ في بلدِهِ فقراءُ وصرفُ المالِ إليهِمْ أهمُّ وأفضلُ وأولىٰ مِنَ الصرفِ إلى بناءِ المساجدِ وزينتِها ، وإنَّما يخفُّ عليهِمُ الصرفُ إلى المساجدِ ليَظهرَ ذلكَ بينَ الناسِ .

والثاني : أنَّهُ يُصرفُ إلىٰ زخرفةِ المسجدِ وتزيينِهِ بالنقوشِ التي هيَ منهيٌّ عنها[1] ، وشاغلةٌ قلوبَ المصلينَ ، ومختطفةٌ أبصارَهُمْ ، والمقصودُ مِنَ

---

(١) فقد روى البخاري معلقاً (كتاب الصلاة/ باب بنيان المسجد) ، قبل (٤٤٦) : (وأمر =

الصلاةِ الخشوعُ وحضورُ القلبِ ، وذلكَ يفسدُ قلوبَ المصلينَ ، ويحبطُ ثوابَهُمْ بذلكَ .

ووبالُ ذلكَ كلِّهِ يرجعُ إليهِ ، وهوَ معَ ذلكَ يغترُّ بهِ ، ويرىٰ أنَّهُ مِنَ الخيراتِ ويعدُّ ذلكَ وسيلةً إلى اللهِ تعالىٰ ، وهوَ بذلكَ قدْ تعرَّضَ لسخطِ اللهِ تعالىٰ وهوَ يظنُّ أنَّهُ مطيعٌ للهِ تعالىٰ وممتثلٌ لأمرِهِ ، وقدْ شوشَ قلوبَ عبادِ اللهِ بما زخرفَهَ مِنَ المسجدِ .

وربَّما شوَّقَهُمْ بهِ إلىٰ زخارفِ الدنيا ، فيشتهونَ مثلَ ذلكَ في بيوتِهِمْ ، ويشتغلونَ بطلبِهِ ، ووبالُ ذلكَ كلِّهِ في رقبتِهِ ؛ إذِ المسجدُ للتواضعِ ولحضورِ القلبِ معَ اللهِ تعالىٰ .

قالَ مالكُ بنُ دينارٍ : أتىٰ رجلانِ مسجداً ، فدخلَ أحدُهُما ، ووقفَ الآخرُ على البابِ .

فقالَ لهُ صاحبُهُ : ألا تدخلُ ؟

قالَ : مثلي يدخلُ بيتَ اللهِ وقدْ عصيتُهُ !! فكُتِبَ على المكانِ عندَ اللهِ صديقاً[1] .

= عمر ببناء المسجد وقال : أَكِنَّ الناسَ ، وإياكَ أن تحمِّر أو تصفِّر فتفتن الناس) ، قال الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » (١/ ٥٣٩) : (هو طرف من قصة في ذكر تجديد المسجد النبوي) ، وروى ابن ماجه (٧٤١) من حديث الفاروق رضي الله عنه مرفوعاً : « ما ساء عمل قوم قط إلا زخرفوا مساجدهم » .

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٤٧٨) .

فهكذا ينبغي أنْ تعظَّمَ المساجدُ ، وهوَ أنْ يرىٰ تلويثَ المسجدِ بنفسهِ جنايةً على المسجدِ ، لا أنْ يرىٰ تلويثَ المسجدِ بالحرامِ أو بزخرفِ الدنيا منَّةً على اللهِ تعالىٰ .

وقال الحواريونَ للمسيحِ عليهِ السلامُ :

انظرْ إلىٰ هـٰذا المسجدِ ما أحسنَهُ !

فقالَ : أمَّتي أمَّتي ؛ بحقٍّ أقولُ لكُمْ : لا يتركُ اللهُ مِنْ هـٰذا المسجدِ حجراً قائماً علىٰ حجرٍ إلا أهلكَهُ بذنوبِ أهلِهِ .

إنَّ اللهَ لا يعبأُ بالذهبِ والفضةِ ، ولا بهـٰذهِ الحجارةِ التي تعجبُكُمْ شيئاً ، وإنَّ أحبَّ الأشياءِ إلى اللهِ تعالى القلوبُ الصالحةُ ، بها يعمرُ اللهُ الأرضَ ، وبها يخربُ إذا كانَتْ علىٰ غيرِ ذلكَ[1] .

وقالَ أبو الدرداءِ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا زخرفتُمْ مساجدَكُمْ وحلَّيتُمْ مصاحفَكُمْ . . فالدَّمارُ عليكُمْ »[2] .

وقالَ الحسنُ : إنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمَّا أرادَ أن يبنيَ مسجدَ المدينةِ . . أتاهُ جبريلُ عليهِ السلامُ فقالَ لهُ : ابنِهِ سبعةَ أذرعٍ طولاً في

---

(١) رواه أحمد في « الزهد » (٤٨٨) .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٧٩٧) ، وابن أبي داوود في « المصاحف » (٤٧٥) ، عن أبي الدرداء رضي الله عنه موقوفاً عليه ، ورفعه من حديثه الحكيمُ الترمذي في « نوادر الأصول » (ص٣٣٤) .

السماءِ ولا تزخرفْهُ ولا تنقشْهُ(١) .

فغرورُ هـٰذا مِنْ حيثُ إنَّهُ رأى المنكرَ معروفاً واتَّكلَ عليهِ .

* * *

وفرقةٌ أخرىٰ ينفقونَ الأموالَ في الصدقاتِ على الفقراءِ والمساكينِ ، ويطلبونَ بهِ المحافلَ الجامعةَ ، ومِنَ الفقراءِ مَنْ عادتُهُ الشكرُ والإفشاءُ للمعروفِ ، ويكرهونَ التصدُّقَ في السِّرِّ ، ويرونَ إخفاءَ الفقيرِ لما يأخذُهُ منهُمْ جنايةً عليهِمْ وكفراناً .

وربَّما يحرصونَ علىٰ إنفاقِ المالِ في الحجِّ ، فيحجُّونَ مرّةً بعدَ أخرىٰ ، وربَّما تركوا جيرانَهُمْ جياعاً .

ولذلكَ قالَ ابنُ مسعودٍ : (في آخرِ الزمانِ يكثرُ الحاجُّ بلا سببٍ ؛ يهونُ عليهِمُ السفرُ ، ويُبسطُ لهُمْ في الرزقِ ، ويرجعونَ محرومينَ مسلوبينَ ، يهوي بأحدِهِمْ بعيرُهُ بينَ القفارِ والرمالِ وجارُهُ مأسورٌ إلىٰ جنبِهِ لا يواسيهِ) .

وروىٰ أبو نصرٍ التمَّارُ : أنَّ رجلاً جاءَ يودِّعُ بشرَ بنَ الحارثِ وقالَ : قدْ عزمتُ على الحجِّ ، فتأمرُني بشيءٍ ؟

فقالَ لهُ : كمْ أعددتَ للنفقةِ ؟

---

(١) قال الحافظ العراقي : (لم أجده هـٰكذا ، وفي « قصر الأمل » [٢٨٦] لابن أبي الدنيا : « ابنوه كعريش موسىٰ » ، وليس فيه مجيء جبريل) .

فقالَ ألفي درهمٍ ، فقالَ بشرٌ :

فأيُّ شيءٍ تبتغي بحجِّكَ تزهُّداً أوِ اشتياقاً إلى البيتِ ، أوِ ابتغاءَ مرضاةِ اللهِ ؟

قالَ : ابتغاءَ مرضاةِ اللهِ ، قالَ : فإنْ أصبتَ مرضاةَ اللهِ تعالىٰ وأنتَ في منزلِكَ ، وتنفقُ ألفي درهمٍ ، وتكونُ علىٰ يقينٍ مِنْ مرضاةِ اللهِ تعالىٰ ، أتفعلُ ذلكَ ؟ قالَ : نعمْ ، قالَ :

اذهبْ فأعطها عشرةَ أنفسٍ ؛ مديونٌ يقضي دينَهُ ، وفقيرٌ يَرُمُّ شعثَهُ ، ومعيلٌ يحيي عيالَهُ ، ومربِّي يتيمٍ يفرحُهُ ، وإنْ قويَ قلبُكَ أنْ تعطيَها واحداً . . فافعلْ ؛ فإنَّ إدخالَكَ السرورَ علىٰ قلبِ المسلمِ وإغاثةَ اللهفانِ وكشفَ الضُّرِّ ، وإعانةَ الضعيفِ . . أفضلُ مِنْ مئةِ حجةٍ بعدَ حجةِ الإسلامِ ، قمْ فأخرجْها كما أمرناكَ ، وإلا . . فقلْ لنا ما في قلبِكَ ، فقالَ :

يا أبا نصرٍ[1] ؛ سفري أقوىٰ في قلبي ، فتبسَّمَ بشرٌ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ وأقبلَ عليهِ فقالَ لهُ :

المالُ إذا جُمعَ مِنْ وسخِ التجاراتِ والشبهاتِ . . اقتضتِ النفسُ أنْ تقضيَ بهِ وطراً ، فأظهرَتِ الأعمالَ الصالحاتِ ، وقدْ آلى اللهُ تعالىٰ علىٰ نفسِهِ ألاَّ يقبلَ إلا عملَ المتقينَ[2] .

❊ ❊ ❊

---

(١) هي كنية بشر . « إتحاف » (٨/ ٤٨٧) ، وليس الخطاب لأبي نصر التمار .
(٢) قوت القلوب (١/ ٩٢) .

وفرقةٌ أخرىٰ مِنْ أربابِ الأموالِ يحفظونَ الأموالَ ويمسكونَها بحكمِ البخلِ ، ثمَّ يشتغلونَ بالعباداتِ البدنيَّةِ التي لا يُحتاجُ فيها إلىٰ نفقةٍ ؛ كصيامِ النهارِ ، وقيامِ الليلِ ، وختمِ القرآنِ .

وهمْ مغرورونَ ؛ لأنَّ البخلَ المهلكَ قدِ استولىٰ علىٰ بواطنِهِمْ ، فهوَ يحتاجُ إلىٰ قمعِهِ بإخراجِ المالِ ، فقدِ اشتغلَ بطلبِ فضائلَ هوَ مستغنٍ عنها .

ومثالُهُ مثالُ مَنْ دخلَ في ثوبِهِ حيَّةٌ وقدْ أشرفَ على الهلاكِ ، وهوَ مشغولٌ بطبخِ السَّكنجبينِ ليسكِّنَ بهِ الصفراءَ ، ومَنْ قتلَتْهُ الحيةُ متىٰ يحتاجُ إلى السكنجبينِ ؟!

ولذلكَ قيلَ لبشرٍ : إنَّ فلاناً الغنيَّ كثيرُ الصومِ والصلاةِ .

فقالَ : المسكينُ تركَ حالَهُ ودخلَ في حالِ غيرِهِ .

إنَّما حالُ هـٰذا إطعامُ الطعامِ للجياعِ ، والإنفاقُ على المساكينِ ، فهـٰذا أفضلُ لهُ مِنْ تجويعِهِ نفسَهُ ، ومِنْ صلاتِهِ لنفسِهِ معَ جمعِهِ للدنيا ومنعِهِ للفقراءِ[1] .

* * *

وفرقةٌ أخرىٰ غلبَهُمُ البخلُ ، فلا تسمحُ نفوسُهُمْ إلا بأداءِ الزكاةِ فقطْ .

ثمَّ إنَّهُمْ يُخرجونَ مِنَ المالِ الخبيثَ الرديءَ الذي يرغبونَ عنهُ ، ويطلبونَ

---

(١) قوت القلوب (١/ ٩٣) .

مِنَ الفقراءِ مَنْ يخدمُهُمْ ويتردَّدُ في حاجاتِهِمْ ، أوْ مَنْ يحتاجونَ إليهِ في المستقبلِ للاستسخارِ في خدمةٍ ، أوْ مَنْ لهُمْ فيهِ على الجملةِ غرضٌ ، أوْ يسلِّمونَ ذلكَ إلىٰ مَنْ يعينُهُ واحدٌ مِنَ الأكابرِ ممَّنْ يستظهرُ بحشمِهِ ؛ لينالَ بذلكَ عندَهُ منزلةً ، فيقومَ بحاجاتِهِ .

وكلُّ ذلكَ مفسداتٌ للنيَّةِ ، ومحبطاتٌ للعملِ ، وصاحبُهُ مغرورٌ ، ويظنُّ أنَّهُ مطيعٌ للهِ تعالىٰ وهوَ فاجرٌ ؛ إذْ طلبَ بعبادةِ اللهِ عوضاً مِنْ غيرِهِ .

فهٰذا وأمثالُهُ مِنْ غرورِ أربابِ الأموالِ أيضاً لا يُحصىٰ ، وإنَّما ذكرنا هٰذا القدْرَ ؛ للتنبيهِ علىٰ أجناسِ الغرورِ .

* * *

وفرقةٌ أخرىٰ مِنْ عوامِّ الخلقِ وأربابِ الأموالِ أوِ الفقراءِ اغترُّوا بحضورِ مجالسِ الذكرِ ، واعتقدوا أنَّ ذلكَ يغنيهِمْ ويكفيهِمْ ، واتخذوا ذلكَ عادةً ، ويظنُّونَ أنَّ لهُمْ علىٰ مجردِ سماعِ الوعظِ دونَ العملِ ودونَ الاتعاظِ أجراً ، وهمْ مغرورونَ ؛ لأنَّ فضلَ مجلسِ الذكرِ لكونِهِ مرغِّباً في الخيرِ ، فإنْ لمْ يهيِّجِ الرغبةَ . . فلا خيرَ فيهِ .

والرغبةُ محمودةٌ ؛ لأنَّها تبعثُ على العملِ ، فإنْ ضعُفَتْ عنِ الحملِ على العملِ ، فلا خيرَ فيها .

وما يُرادُ لغيرِهِ فإذا قصَّرَ عنِ الأداءِ إلىٰ ذلكَ الغيرِ . . فلا قيمةَ لهُ .

وربَّما يغترُّ بما يسمعُهُ مِنَ الواعظِ مِنْ فضلِ حضورِ المجلسِ ، وفضلِ

البكاءِ ، وربَّما تدخلُهُ رقَّةٌ كرقَّةِ النساءِ فيبكي ، وربَّما يسمعُ كلاماً مخوِّفاً فلا يزيدُ علىٰ أنْ يصفقَ بيديهِ ويقولَ : يا سلامُ ؛ سلِّمْ[1] ، أوْ نعوذُ باللهِ ، أوْ سبحانَ اللهِ ، ويظنُّ أنَّهُ قدْ أتىٰ بالخيرِ كلِّهِ ، وهوَ مغرورٌ .

وإنَّما مثالُهُ مثالُ المريضِ الذي يحضرُ مجالسَ الأطباءِ فيسمعُ ما يجري ، أوِ الجائعِ الذي يحضرُ عندَ مَنْ يصفُ لهُ الأطعمةَ اللذيذةَ الشهيَّةَ ثمَّ ينصرفُ ، وذلكَ لا يُغني عنهُ مِنْ مرضِهِ وجوعِهِ شيئاً .

فكذلكَ سماعُ وصفِ الطاعاتِ دونَ العملِ بها لا يغني مِنَ اللهِ شيئاً .

فكلُّ وعظٍ لمْ يغيِّرْ منكَ صفةً تغييراً يغيِّرُ أفعالَكَ حتَّىٰ تقبلَ على اللهِ تعالىٰ إقبالاً قوياً أوْ ضعيفاً وتعرضَ عنِ الدنيا . . فذلكَ الوعظُ زيادةُ حجَّةٍ عليكَ ، فإذا رأيتَهُ وسيلةً لكَ . . كنتَ مغروراً .

* * *

فإنْ قلتَ : فما ذكرتَهُ مِنْ مداخلِ الغرورِ أمرٌ لا يتخلَّصُ منهُ أحدٌ ، ولا يمكنُ الاحترازُ عنهُ ، وهٰذا يوجبُ اليأسَ ؛ إذْ لا يقوىٰ أحدٌ مِنَ البشرِ على الحذرِ مِنْ خفايا هٰذهِ الآفاتِ .

فأقولُ : الإنسانُ إذا فترَتْ همَّتُهُ في شيءٍ . . أظهرَ اليأسَ منهُ ، واستعظمَ الأمرَ ، واستوعَرَ الطريقَ ، وإذا صحَّ منهُ الهوىٰ . . اهتدىٰ إلى الحيلِ ،

---

(١) في (أ) : (يا سلام ؛ سلِّم سلِّم) ، وفي (ج) : (يا ربِّ ؛ سلِّمْ سلِّمْ) .

واستنبطَ بدقيقِ النظرِ خفايا الطرقِ في الوصولِ إلى الغرضِ .

حتَّىٰ إنَّ الإنسانَ إذا أرادَ أنْ يستنزلَ الطيرَ المحلِّقَ في جوِّ السماءِ معَ بُعدِهِ منهُ . . استنزلَهُ .

وإذا أرادَ أنْ يُخرِجَ الحوتَ مِنْ أعماقِ البحارِ . . استخرجَهُ .

وإذا أرادَ أنْ يستخرجَ الذهبَ أوِ الفضةَ من تحتِ الجبالِ . . استخرجَهُ .

وإذا أرادَ أنْ يقتنصَ الوحوشَ المطلقةَ في البراري والصحاري . . اقتنصَها .

وإذا أرادَ أنْ يستسخرَ السباعَ والفيلةَ وعظيمَ الحيواناتِ . . استسخرَها ، وإذا أرادَ أنْ يأخذَ الأفاعيَ والحيَّاتِ ويعبثَ بها . . أخذَها ، واستخرجَ الترياقَ مِنْ أجوافِها .

وإذا أرادَ أنْ يتَّخِذَ الديباجَ الملوَّنَ المنقَّشَ مِنْ ورقِ التوتِ . . اتخذَهُ .

وإذا أرادَ أنْ يعرفَ مقاديرَ الكواكبِ وطولَها وعرْضَها . . استخرجَ بدقيقِ الهندسةِ ذلكَ وهوَ مستقرٌّ على الأرضِ .

وكلُّ ذلكَ باستنباطِ الحيلِ ، وإعدادِ الآلاتِ ، فسخَّرَ الفرسَ للركوبِ ، والكلبَ للصيدِ ، وسخَّرَ البازيَ لاقتناصِ الطيورِ ، وهيَّأَ الشبكةَ لاصطيادِ السمكِ ، إلىٰ غيرِ ذلكَ مِنْ دقائقِ حيلِ الآدميِّ .

وكلُّ ذلكَ لأنَّ همَّهُ أمرُ دنياهُ ، وذلكَ معينٌ لهُ علىٰ دنياهُ .

فلوْ أهمَّهُ أمرُ آخرتِهِ . . فليسَ عليهِ إلا شغلٌ واحدٌ ؛ وهوَ تقويمُ قلبِهِ[1] ، فعجزَ عنْ تقويمِ قلبِهِ وتخاذلَ وقالَ : هٰذا محالٌ ، ومَنِ الذي يقدرُ عليهِ ؟

وليسَ ذلكَ بمحالٍ لوْ أصبحَ وهمُّهُ هٰذا الهمُّ الواحدُ ، بلْ هوَ كما يُقالُ : (لوْ صَحَّ مِنْكَ ٱلْهَوَىٰ أُرْشِدتَ لِلْحِيَلِ).

فهٰذا شيءٌ لمْ يعجزْ عنهُ السلفُ الصالحونَ ومَنِ اتبعَهُمْ بإحسانٍ ، فلا يعجزُ عنهُ أيضاً مَنْ صدقَتْ إرادتُهُ ، وقويَتْ همَّتُهُ ، بلْ لا يحتاجُ إلىٰ عُشرِ تعبِ الخلقِ في استنباطِ حيلِ الدنيا ونظمِ أسبابِها .

* * *

فإنْ قلتَ : فقدْ قرَّبتَ الأمرَ فيهِ بعدَ أنْ أكثرتَ في ذكرِ مداخلِ الغرورِ ، فبمَ ينجو العبدُ مِنَ الغرورِ ؟

فاعلمْ : أنَّهُ ينجو منهُ بثلاثةِ أمورٍ : بالعقلِ ، والعلمِ ، والمعرفةِ ، فهٰذهِ ثلاثةُ أمورٍ لا بدَّ منها .

أمَّا العقلُ : فأعني بهِ الفطرةَ الغريزيَّةَ ، والنورَ الأصليَّ الذي بهِ يدركُ الإنسانُ حقائقَ الأشياءِ ، فالفطنةُ والكيْسُ فطرةٌ ، والحمقُ والبلادةُ فطرةٌ ، والبليدُ لا يقدرُ على التحفُّظِ مِنَ الغرورِ .

---

(١) فقط ، وهو تسويته وتعديله وتنظيفه عن الخواطر الرديئة ؛ حتىٰ يكون مهبطاً لأنوار الله تعالىٰ . « إتحاف » (٨/ ٤٨٩) .

فصفاءُ العقلِ وذكاءُ الفهمِ لا بدَّ منهُ في أصلِ الفطرةِ ، وهـٰذا إنْ لمْ يُفطَرْ عليهِ الإنسانُ . . فاكتسابُهُ غيرُ ممكنٍ .

نعمْ ، إذا حصلَ أصلُهُ . . أمكنَ تقويتُهُ بالممارسة ، فأساسُ السعاداتِ كلِّها العقلُ والكياسةُ .

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تباركَ اللهُ الذي قسَّمَ العقلَ بينَ عبادِهِ أشتاتاً ، إنَّ الرجلينِ ليستوي عملُهُما وبرُّهُما وصومُهُما وصلاتُهُما ، ولكنَّهُما يتفاوتانِ في العقلِ كالذَّرَّةِ في جنبِ أُحُدٍ ، وما قسمَ اللهُ لخلقِهِ حظّاً هوَ أفضلَ مِنَ العقلِ واليقينِ »(١) .

وعنْ أبي الدرداءِ أنَّهُ قيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ أرأيتَ الرجلَ يصومُ النهارَ ، ويقومُ الليلَ ، ويحجُّ ، ويعتمرُ ، ويتصدَّقُ ، ويغزو في سبيلِ اللهِ ، ويعودُ المريضَ ، ويشيِّعُ الجنائزَ ، ويعينُ الضعيفَ ، ولا يعلمُ منزلتَهُ عندَ اللهِ يومَ القيامةِ .

فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّما يُجزىٰ علىٰ قدْرِ عقلِهِ »(٢) .

---

(١) الحديث عند الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص٢٤١) بروايتين ، وبنحوه رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٣٦١) .
(٢) رواه الحارث في « مسنده » (٨٢٧) ، وهو من أحاديث داوود بن المحبر ، ورواه عن ابن عمر رضي الله عنهما البيهقي في « الشعب » (٤٣١٥) .

وقالَ أنسٌ رضيَ اللهُ عنهُ : أُثنيَ علىٰ رجلٍ عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالوا خيراً .

فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كيفَ عقلُهُ ؟ »

قالوا : يا رسولَ اللهِ ؛ نقولُ مِنْ عبادتِهِ وفضلِهِ وخلقِهِ .

فقالَ : « كيفَ عقلُهُ ؟ فإنَّ الأحمقَ يصيبُ بحمقِهِ أعظمَ مِنْ فجورِ الفاجرِ ، وإنَّما يُقرَّبُ الناسُ يومَ القيامةِ علىٰ قدْرِ عقولِهِمْ »[١] .

وقالَ أبو الدرداءِ : كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا بلغَهُ عنْ رجلٍ شدَّةُ عبادةٍ . . سألَ عنْ عقلِهِ ، فإذا قالوا : حسنٌ . . قالَ : « أرجوهُ » ، وإنْ قالوا غيرَ ذلكَ . . قالَ : « لنْ يبلغَ » .

قالَ : وذُكرَ لهُ شدَّةُ عبادةِ رجلٍ ، فقالَ : « كيفَ عقلُهُ ؟ »

قالوا : ليسَ بشيءٍ ، قالَ : « لنْ يبلغَ صاحبُكُمْ حيثُ تظنُّونَ »[٢] .

فالذكاءُ وصحةُ غريزةِ العقلِ نعمةٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ في أصلِ الفطرةِ ، فإنْ فاتَتْ ببلادةٍ وحماقةٍ . . فلا تَدارُكَ لها .

الثاني المعرفةُ : وأعني بالمعرفةِ : أنْ يعرفَ أربعةَ أمورٍ : يعرفَ نفسَهُ ، ويعرفَ ربَّهُ ، ويعرفَ الدنيا ، ويعرفَ الآخرةَ .

---

(١) هو عند الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص ٢٤٢) .

(٢) رواه الطبراني في « مسند الشاميين » (٩٦٥) ، وابن عدي في « الكامل » (٦/ ٣٨٤) ، والبيهقي في « الشعب » (٤٣٢٤) .

فيعرفُ نفسَهُ بالعبوديةِ والذُّلِّ ، وبكونِهِ غريباً في هـٰذا العالمِ ، وأجنبياً مِنْ هـٰذهِ الشهواتِ البهيميَّةِ ، وإنَّما الموافقُ لهُ طبعاً هوَ معرفةُ اللهِ تعالىٰ ، والنظرُ إلىٰ وجهِهِ الكريمِ فقطْ .

فلا يُتصوَّرُ أنْ يعرفَ هـٰذا ما لمْ يعرفْ نفسَهُ ولمْ يعرفْ ربَّهُ .

فليستعنْ علىٰ هـٰذا بما ذكرناهُ في كتابِ المحبَّةِ ، وفي كتابِ شرحِ عجائبِ القلبِ ، وكتابِ التفكُّرِ ، وكتابِ الشكرِ ؛ إذْ فيها إشاراتٌ إلىٰ وصفِ النفسِ ، وإلىٰ وصفِ جلالِ اللهِ .

ويحصلُ بهِ التنبيهُ على الجملةِ ، وكمالُ المعرفةِ وراءَهُ ؛ فإنَّ هـٰذا مِنْ علومِ المكاشفةِ ، ولم نطنبْ في هـٰذا الكتابِ إلا في علومِ المعاملةِ .

وأمَّا معرفةُ الدنيا والآخرةِ . . فيستعينُ عليها بما ذكرناهُ في كتابِ ذمِّ الدنيا وكتابِ ذكرِ الموتِ ؛ ليتبيَّنَ لهُ أنْ لا نسبةَ للدنيا إلى الآخرةِ .

فإذا عرفَ نفسَهُ وربَّهُ ، وعرفَ الدنيا والآخرةَ . . ثارَ مِنْ قلبِهِ بمعرفةِ اللهِ حبُّ اللهِ .

وبمعرفةِ الآخرةِ شدَّةُ الرغبةِ فيها .

وبمعرفةِ الدنيا الرغبةُ عنها .

فيصيرُ أهمُّ أمورِهِ ما يوصلُهُ إلى اللهِ تعالىٰ وينفعُهُ في الآخرةِ .

وإذا غلبَتْ هـٰذه الإرادةُ علىٰ قلبِهِ . . صحَّتْ نيتهُ في الأمورِ كلِّها .

فإنْ أكلَ مثلاً أوِ اشتغلَ بقضاءِ الحاجةِ . . كانَ قصدُهُ منهُ الاستعانةَ علىٰ سلوكِ طريقِ الآخرةِ ، وصحَّتْ نيَّتُهُ ، واندفعَ عنهُ كلُّ غرورٍ منشؤُهُ تجاذبُ الأغراضِ ، والنزوعُ إلى الدنيا والجاهِ والمالِ ؛ فإنَّ ذلكَ هوَ المفسدُ للنيَّةِ .

وما دامتِ الدنيا أحبَّ إليهِ مِنَ الآخرةِ ، وهوىٰ نفسهِ أحبَّ إليهِ مِنْ رضا اللهِ تعالىٰ . . فلا يمكنُهُ الخلاصُ مِنَ الغرورِ .

فإذا غلبَ حبُّ اللهِ علىٰ قلبهِ بمعرفتِهِ باللهِ وبنفسهِ الصادرةِ عنْ كمالِ عقلِهِ . . فيحتاجُ إلى **المعنى الثالثِ** ، **وهوَ العلمُ** : أعني : العلمَ بكيفيةِ سلوكِ الطريقِ إلى اللهِ ، والعلمَ بما يقرِّبُهُ مِنَ اللهِ وما يبعدُهُ عنهُ ، والعلمَ بآفاتِ الطريقِ وعقباتِهِ وغوائلِهِ ، وجميعُ ذلكَ قدْ أودعناهُ كتبَ « إحياءِ علومِ الدينِ » .

فيعرفُ مِنْ **ربعِ العباداتِ** شروطَها فيراعيها ، وآفاتِها فيتقيها .

ومِنْ **ربعِ العاداتِ** أسرارَ المعايشِ وما هوَ مضطرٌّ إليهِ فيأخذُهُ بأدبِ الشرعِ ، وما هوَ مستغنٍ عنهُ فيعرضُ عنهُ .

ومِنْ **ربعِ المهلكاتِ** يعلمُ جميعَ العقباتِ المانعةِ في طريقِ اللهِ ؛ فإنَّ المانعَ مِنَ اللهِ الصفاتُ المذمومةُ في الخلقِ ، فيعلمُ المذمومَ ويعلمُ طريقَ علاجِهِ .

ويعرفُ مِنْ **ربعِ المنجياتِ** الصفاتِ المحمودةَ التي لا بدَّ وأنْ تُوضعَ خَلَفاً عنِ المذمومةِ بعدَ محوِها .

فإذا أحاطَ بجميعِ ذلكَ . . أمكنَهُ الحذرُ مِنَ الأنواعِ التي أشرنا إليها مِنَ الغرورِ .

وأصلُ ذلكَ كلِّهِ : أنْ يغلبَ حبُّ اللهِ على القلبِ ، ويسقطَ حبُّ الدنيا منهُ ؛ حتَّىٰ تقوىٰ بهِ الإرادةُ ، وتصحَّ بهِ النيَّةُ ، ولا يحصلُ ذلكَ إلا بالمعرفةِ التي ذكرناها .

* * *

فإن قلتَ : فإذا فعلَ جميعَ ذلكَ . . فما الذي يُخافُ عليهِ ؟

فأقولُ : يُخافُ عليهِ أنْ يخدعَهُ الشيطانُ ، ويدعوَهُ إلىٰ نصحِ الخلقِ ونشرِ العلمِ ، ودعوةِ الناسِ إلىٰ ما عرفَهُ مِنْ دينِ اللهِ .

فإنَّ المريدَ المخلصَ إذا فرغَ مِنْ تهذيبِ نفسِهِ وأخلاقِهِ ، وراقبَ القلبَ حتَّىٰ صفَّاهُ منْ جميعِ الكدوراتِ ، واستوىٰ على الصراطِ المستقيمِ ، وصغُرَتِ الدنيا في عينِهِ فتركَها ، وانقطعَ طمعُهُ عنِ الخلقِ فلمْ يلتفِتْ إليهِمْ ، ولمْ يبقَ لهُ إلا همٌّ واحدٌ ؛ وهوَ اللهُ تعالىٰ ، والتلذُّذُ بذكرِهِ ومناجاتِهِ ، والشوقُ إلىٰ لقائِهِ ، وقدْ عجزَ الشيطانُ عنْ إغوائِهِ .

إذْ يأتيهِ مِنْ جهةِ الدنيا وشهواتِ النفسِ فلا يطيعُهُ ، فيأتيهِ مِنْ جهةِ الدينِ ، ويدعوهُ إلى الرحمةِ علىٰ خلقِ اللهِ ، والشفقةِ علىٰ دينِهِمْ بالنصحِ لهُمْ ، والدعاءِ إلى اللهِ .

فينظرُ العبدُ برحمتِهِ إلى العبيدِ ، فيراهُمْ حيارىٰ في أمرِهِمْ ، سكارىٰ في دينِهِمْ ، صمّاً عمياً ، قدِ استولىٰ عليهِمُ المرضُ وهمْ لا يشعرونَ ، وفقدوا الطبيبَ ، وأشرفوا على العطبِ ، فغلبَ علىٰ قلبِهِ الرحمةُ لهُمْ ، وقدْ كانَ عندَهُ حقيقةُ المعرفةِ بما يهديهِمْ ويبيِّنُ لهمْ ضلالَهُمْ ، ويرشدُهُمْ إلىٰ سعادتِهِمْ ، وهوَ يقدرُ علىٰ ذكرِها مِنْ غيرِ تعبٍ ومؤنةٍ ولزومِ غرامةٍ .

فكانَ مثلُهُ كمثلِ رجلٍ كانَ بهِ داءٌ عظيمٌ لا يُطاقُ ألمُهُ ، وقدْ كانَ لذلكَ يسهرُ ليلَهُ ويقلقُ نهارَهُ ، لا يأكلُ ولا يشربُ ، ولا يتحرَّكُ ولا يتصرَّفُ ؛ لشدَّةِ ضَرَبانِ الألمِ ، فوجدَ لهُ دواءً عفواً صفواً مِنْ غيرِ ثمنٍ ولا تعبٍ ولا مرارةٍ في تناولِهِ ، فاستعملَهُ ، فبرئَ وصحَّ ، وطابَ نومُهُ بالليلِ بعدَ طولِ سهرِهِ ، وهدأَ بالنهارِ بعدَ شدَّةِ القلقِ ، وطابَ عيشُهُ بعدَ نهايةِ الكربِ ، وأصابَ لذَّةَ العافيةِ بعدَ طولِ السقامِ .

ثمَّ نظرَ إلىٰ عددٍ كثيرٍ مِنَ المسلمينَ وإذا بهِمْ تلكَ العلَّةُ بعينِها ، وقدْ طالَ سهرُهُمْ ، واشتدَّ قلقُهُمْ ، وارتفعَ إلى السماءِ أنينُهُمْ ، فتذكَّرَ أنَّ دواءَهُمْ هوَ الذي يعرفُهُ ، وأنَّهُ يقدرُ علىٰ شفائِهِمْ بأسهلِ ما يكونُ ، وفي أوحىٰ زمانٍ[1] يقدرُ ، فأخذَتْهُ الرحمةُ والرِّقَّةُ ، ولمْ يجدْ فسحةً مِنْ نفسِهِ في التراخي عنِ الاشتغالِ بعلاجِهِمْ .

فكذلكَ العبدُ المخلصُ بعدَ أنِ اهتدىٰ إلى الطريقِ ، وشُفِيَ مِنْ أمراضِ

---

(١) أوحىٰ ـ هنا ـ : أسرع .

القلوبِ . . شاهدَ الخلقَ وقدْ مرضَتْ قلوبُهُمْ ، وأعضلَ داؤُهُمْ ، وقرُبَ هلاكُهُمْ وشقاؤُهُمْ ، وسَهُلَ عليهِ دواؤُهُمْ .

فانبعثَ مِنْ ذاتِ نفسِهِ عزمٌ جازمٌ في الاشتغالِ بنصحِهِمْ ، وحرَّضَهُ الشيطانُ علىٰ ذلكَ ؛ رجاءَ أنْ يجدَ مجالاً للفتنةِ .

فلمَّا اشتغلَ بذلكَ . . وجدَ الشيطانُ مجالاً للفتنةِ ، فدعاهُ إلى الرئاسةِ دعاءً خفيّاً أخفىٰ مِنْ دبيبِ النملِ لايشعرُ بهِ المريدُ ، فلمْ يزلْ ذلكَ الدبيبُ في قلبِهِ حتَّىٰ دعاهُ إلى التصنُّعِ والتزيُّنِ للخلقِ ، بتحسينِ الألفاظِ والنغماتِ والحركاتِ ، والتصنُّعِ في الزِّيِّ والهيئةِ .

فأقبلَ الناسُ إليهِ يعظمونَهُ ويبجلونَهُ ويوقرونَهُ توقيراً يزيدُ علىٰ توقيرِ الملوكِ ؛ إذْ رأوهُ شافياً لأدوائِهِمْ بمحضِ الشفقةِ والرحمةِ مِنْ غيرِ طمعٍ ، فصارَ أحبَّ إليهِمْ مِنْ آبائِهِمْ وأمهاتِهِمْ وأقاربِهِمْ ، فآثروهُ بأبدانِهِمْ وأموالِهِمْ ، وصاروا لهُ خَوَلاً كالخدمِ والعبيدِ ، فخدموهُ وقدَّموهُ في المحافلِ ، وحكَّموهُ على الملوكِ والسلاطينِ .

فعندَ ذلكَ انتشرَ الطبعُ ، وارتاحتِ النفسُ ، وذاقَتْ لذَّةً يا لها مِنْ لذَّةٍ ! وأصابَتْ مِنَ الدنيا شهوةً يُستحقرُ معَها كلُّ شهوةٍ ، فكانَ قدْ تركَ الدنيا فوقعَ في أعظمِ لذاتِها ، فعندَ ذلكَ وجدَ الشيطانُ فرصةً ، وامتدَّتْ إلىٰ قلبِهِ يدُهُ ، فهوَ يَستعملُهُ في كلِّ ما يحفظُ عليهِ تلكَ اللذةَ .

وأمارةُ انتشارِ الطبعِ وركونِ النفسِ إلى الشيطانِ أنَّهُ لوْ أخطأَ فرُدَّ عليهِ بينَ

يدي الخلقِ . . غضبَ ، فإذا أنكرَ علىٰ نفسِهِ ما وجدَهُ مِنَ الغضبِ . . بادرَ الشيطانُ فخيَّلَ إليهِ أنَّ ذلكَ غضبٌ للهِ ؛ لأنَّهُ إذا لمْ يحسُنِ اعتقادُ المريدينَ فيهِ . . انقطعوا عنْ طريقِ اللهِ ، فوقعَ في الغرورِ .

فربَّما أخرجَهُ ذلكَ إلى الوقيعةِ فيمَنْ ردَّ عليهِ ، فوقعَ في الغيبةِ المحظورةِ بعدَ تركِهِ الحلالَ المتسعَ ، ووقعَ في الكبرِ الذي هوَ تمرُّدٌ عنْ قبولِ الحقِّ والشكرِ عليهِ بعدَ أنْ كانَ يحذرُ مِنْ طوارقِ الخطراتِ .

وكذلكَ إذا سبقَهُ الضحكُ ، أوْ فتَرَ عنْ بعضِ الأورادِ . . جزعَتْ نفسُهُ أن يطلعوا عليهِ فيسقطَ قبولُهُ فأتبعَ ذلكَ بالاستغفارِ وتنفُّسِ الصعداءِ .

وربَّما زادَ في الأعمالِ والأورادِ لأجلِهِمْ ، والشيطانُ يخيِّلُ إليهِ : إنَّكَ إنَّما تفعلُ ذلكَ كي لا يفترَ رأيُهُمْ عنْ طريقِ اللهِ ، فيتركونَ الطريقَ بتركِهِ .

وإنَّما ذلكَ خدعةٌ وغرورٌ ، بلْ هوَ جزعٌ مِنَ النفسِ خيفةَ فوتِ الرئاسةِ ؛ ولذلكَ لا تجزعُ نفسُهُ مِنَ اطلاعِ الناسِ علىٰ مثلِ ذلكَ مِنْ أقرانِهِ .

بلْ ربَّما يحبُّ ذلكَ ويستبشرُ بهِ ، ولوْ ظهرَ مِنْ أقرانِهِ مَنْ مالتِ القلوبُ إلىٰ قبولِهِ وزادَ أثرُ كلامِهِ في القبولِ علىٰ كلامِهِ . . شقَّ ذلكَ عليهِ ، ولولا أنَّ النفسَ قدِ استبشرَتْ واستلذَّتِ الرئاسةَ . . لكانَ يغتنمُ ذلكَ .

إذْ مثالُهُ أنْ يرى الرجلُ جماعةً مِنْ إخوانِهِ قدْ وقعوا في بئرٍ وتغطَّىٰ رأسُ البئرِ بحجرٍ كبيرٍ ، فعجزوا عن الرُّقيِّ مِنَ البئرِ بسببِهِ ، فرقَّ قلبُهُ لإخوانِهِ ، فجاءَ ليرفعَ الحجرَ عنْ رأسِ البئرِ ، فشقَّ عليهِ ، فجاءَ مَنْ أعانَهُ علىٰ ذلكَ

حتَّىٰ تيسَّرَ عليهِ ، أوْ كفاهُ ذلكَ ونحَّاهُ بنفسِهِ ، فيعظُمُ بذلكَ فرحُهُ لا محالةَ ؛ إذْ غرضُهُ خلاصُ إخوانِهِ مِنَ البئرِ .

فإنْ كانَ غرَضُ الناصحِ خلاصَ إخوانِهِ المسلمينَ مِنَ النارِ ، فإذا ظهرَ مَنْ أعانَهُ أوْ كفاهُ ذلكَ . . لمْ يثقلْ عليهِ ، أرأيتَ لوِ اهتدَوا جميعُهُم بأنفسِهِمْ أكانَ ينبغي أنْ يثقلَ ذلكَ عليهِ إنْ كانَ غرضُهُ هدايتَهُمْ ؟ فإذا اهتدَوا بغيرِهِ . . فلِمَ يثقلُ عليهِ ؟

ومهما وجدَ ذلكَ في نفسِهِ . . دعاهُ الشيطانُ إلىٰ جميعِ كبائرِ القلوبِ ، وفواحشِ الجوارحِ ، وأهلكَهُ ، فنعوذُ باللهِ مِنْ زيغِ القلوبِ بعدَ الهدىٰ ، ومِنِ اعوجاجِ النفسِ بعدَ الاستواءِ .

❊ ❊ ❊

فإنْ قلتَ : فمتىٰ يصحُّ لهُ أنْ يشتغلَ بنصحِ الناسِ ؟

فأقولُ : إذا لمْ يكنْ لهُ قصدٌ سوىٰ هدايتِهِمْ للهِ تعالىٰ ، وكانَ يودُّ لوْ وجدَ مَنْ يعينُهُ أوْ لوِ اهتدَوا بأنفسِهِمْ ، وانقطعَ بالكليَّةِ طمعُهُ عنْ ثنائِهِمْ وعنْ أموالِهِمْ ، فاستوىٰ عندَهُ حمدُهُمْ وذمُّهُمْ ، فلمْ يبالِ بذمِّهِمْ إذا كانَ اللهُ يحمدُهُ ، ولمْ يفرحْ بحمدِهِمْ إذا لمْ يقترنْ بهِ حمدُ اللهِ تعالىٰ ، ونظرَ إليهِمْ كما ينظرُ إلى الساداتِ وإلى البهائمِ .

أمَّا إلى الساداتِ . . فمِنْ حيثُ إنَّهُ لا يتكبَّرُ عليهِمْ ، ويرىٰ كلَّهُمْ خيراً منهُ ؛ لجهلِهِ بالخاتمةِ .

وأمَّا إلى البهائمِ.. فمِنْ حيثُ انقطاعُ طمعِهِ عنْ طلبِ المنزلةِ في قلوبِهِمْ ؛ فإنّهُ لا يبالي كيفَ تراهُ البهائمُ ؛ فلا يتزيَّنُ لها ولا يتصنَّعُ ، بلْ راعي الماشيةِ إنَّما غرضُهُ رعايةُ الماشيةِ ودفعُ الذئبِ عنها دونَ نظرِ الماشيةِ إليهِ ، فما لمْ يرَ سائرَ الناسِ كالماشيةِ التي لا يُلتفَتُ إلىٰ نظرِها ولا يُبالىٰ بها.. لا يسلمُ مِنَ الاشتغالِ بإصلاحِهِمْ ؟

نعمْ ، ربَّما يصلحُهُمْ ولكنْ يفسدُ نفسَهُ بإصلاحِهِمْ ، فيكونُ كالشمعِ الذي يضيءُ لغيرِهِ ويحترقُ في نفسِهِ .

* * *

فإنْ قلتَ : فلوْ تركَ الوعَّاظُ الوعظَ إلا عندَ نيلِ هٰذهِ الدرجةِ.. لخلتِ الدنيا عنِ الوعظِ وخربَتِ القلوبُ !

فأقولُ : قدْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « حبُّ الدنيا رأسُ كلِّ خطيئةٍ »[1] .

ولوْ لمْ يحبَّ الناسُ الدنيا.. لهلكَ العالَمُ ، وبطلَتِ المعايشُ ، وهلكَتِ القلوبُ والأبدانُ جميعاً ، إلا أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علمَ أنَّ حبَّ الدنيا مهلكٌ ، وأنَّ ذكرَ كونِهِ مهلكاً لا ينزعُ الحبَّ مِنْ قلوبِ الأكثرينَ ، لا الأقلينَ الذينَ لا تخربُ الدنيا بتركِهِمْ ، فلم يتركِ النصحَ ، وذكرَ ما في حبِّ الدنيا

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٩) عن الحسن مرسلاً .

مِنَ الخطرِ ، ولمْ يترك ذكرَهُ خوفاً مِنْ أن تُترَكَ ؛ ثقةً بالشهواتِ المهلكةِ التي سلَّطَها اللهُ علىٰ عبادِهِ ليسوقَهُمْ بها إلىٰ جهنَّمَ ؛ تصديقاً لقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ .

فكذلكَ لا تزالُ ألسنةُ الوعَّاظِ مطلقةً لحبِّ الرئاسةِ ، ولا يدَعونَها بقولِ مَنْ يقولُ : إنَّ الوعظَ لحبِّ الرئاسةِ حرامٌ ؛ كما لمْ يدعِ الخلقُ الشربَ والزنا والسرقةَ والربا والظلمَ وسائرَ المعاصي بقولِ اللهِ تعالىٰ ورسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : إنَّ ذلكَ حرامٌ .

فانظرْ لنفسِكَ ، وكنْ فارغَ القلبِ مِنْ حديثِ الناسِ ، فإنَّ اللهَ تعالىٰ يصلحُ خلقاً كثيراً بإفسادِ شخصٍ واحدٍ وأشخاصٍ .

ولولا دفعُ اللهِ الناسَ بعضَهُمْ ببعضٍ . . لفسدتِ الأرضُ .

وإنَّ اللهَ يؤيِّدُ هٰذا الدينَ بأقوامٍ لا خلاقَ لهُمْ .

فإنَّما يُخشىٰ أنْ ينسدَّ طريقُ الاتِّعاظِ ، فأمَّا أنْ تخرسَ ألسنةُ الوعَّاظِ ووراءَهُمْ باعثُ الرئاسةِ وحبُّ الدنيا . . فلا يكونُ ذلكَ أبداً .

* * *

فإنْ قلتَ : فإنْ علمَ المريدُ هٰذهِ المكيدةَ مِنَ الشيطانِ ، فاشتغلَ بنفسِهِ وتركَ النصحَ ، أوْ نصحَ وراعىٰ شرطَ الصدقِ والإخلاصِ فيهِ . . فما الذي يُخافُ عليهِ ؟ وما الذي بقيَ بينَ يديهِ مِنَ الأخطارِ وحبائلِ الاغترارِ ؟

فاعلمْ : أنَّهُ بقيَ عليهِ أعظمُهُ ، وهوَ أنَّ الشيطانَ يقولُ لهُ : قدْ أعجزتَني ، وأفلَتَّ منِّي بذكائِكَ وكمالِ عقلِكَ ، وقدْ قدرتُ علىٰ جملةٍ مِنَ الأولياءِ والكبراءِ ، وما قدرتُ عليكَ ، فما أصبرَكَ ! وما أعظمَ عندَ اللهِ قدرَكَ ومحلَّكَ ! إذْ قوَّاكَ علىٰ قهري ، ومكَّنَكَ مِنَ التفطُّنِ لجميعِ مداخلِ غروري .

فيصغي إليهِ ويصدِّقُهُ ، ويعجبُ بنفسِهِ في فرارِهِ مِنَ الغرورِ كلِّهِ ، فيكونُ إعجابُهُ بنفسِهِ غايةَ الغرورِ ، وهوَ المهلكُ الأكبرُ .

فالعجْبُ أعظمُ مِنَ كلِّ ذنبٍ ، ولذلكَ قالَ الشيطانُ : (يا بنَ آدمَ ؛ إذا ظننتَ أنَّكَ بعلمِكَ تخلَّصتَ منِّي.. فبجهلِكَ قدْ وقعتَ في حبائلي)(١) .

* * *

فإنْ قلتَ : فلوْ لمْ يعجبْ بنفسِهِ إذْ علمَ أنَّ ذلكَ مِنَ اللهِ تعالىٰ لا منهُ ، وأنَّ مثلَهُ لا يقوىٰ علىٰ دفعِ الشيطانِ إلا بتوفيقِ اللهِ ومعونتِهِ ، ومَنْ عرفَ ضعفَ نفسِهِ وعجزَهُ عنْ أقلِّ القليلِ : فإذا قدرَ علىٰ مثلِ هٰذا الأمرِ العظيمِ.. علمَ أنَّهُ لمْ يقوَ عليهِ بنفسِهِ ، بلْ باللهِ تعالىٰ ، فما الذي يُخافُ عليهِ بعدَ نفيِ العجبِ ؟

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٩/ ٣١٧) عن أبي عبد الله الساجي .

فأقولُ : يُخافُ عليهِ الغرورُ بفضلِ اللهِ ، والثقةِ بكرمِهِ ، والأمنِ مِنْ مكرِهِ ، حتَّىٰ يظنَّ أنَّهُ يبقىٰ علىٰ هـٰذهِ الوتيرةِ في المستقبلِ ، ولا يخافُ مِنَ الفترةِ والانقلابِ فيكونُ حالُهُ الاتّكالَ علىٰ فضلِ اللهِ فقطْ ، دونَ أنْ يقارنَهُ الخوفُ مِنْ مكْرِهِ ، ومَنْ أمِنَ مكرَ اللهِ . . فهوَ خاسرٌ جداً .

بلْ سبيلُهُ أنْ يكونَ مشاهداً لجملةِ ذلكَ أنَّهُ مِنْ فضلِ اللهِ ، ثمَّ خائفاً علىٰ نفسِهِ أنْ يكونَ قدْ شذَّتْ عنهُ صفةٌ مِنْ صفاتِ قلبِهِ ؛ مِنْ حبِّ دنيا ، ورياءٍ ، وسوءِ خُلُقٍ ، والتفاتٍ إلىٰ عزٍّ وهو غافلٌ عنهُ .

ويكونُ خائفاً أنْ يُسلَبَ حالُهُ في كلِّ طرفةِ عينٍ ، غيرَ آمنٍ مِنْ مكرِ اللهِ ، ولا غافلٍ عنْ خطرِ الخاتمةِ ، وهـٰذا خطرٌ لا محيصَ عنهُ وخوفٌ لا نجاةَ منهُ إلا بعدَ مجاوزةِ الصراطِ .

ولذلكَ لمَّا ظهرَ الشيطانُ لبعضِ الأولياءِ في وقتِ النزعِ وكانَ قدْ بقيَ لهُ نفسٌ ، فقالَ لهُ : أفلتَّ منِّي يا فلانُ ، فقالَ : لا ، بعدُ .

ولذلكَ قيلَ : (الناسُ كلُّهُمْ هلكىٰ إلا العالمونَ ، والعالمونَ كلُّهُمْ هلكىٰ إلا العاملونَ ، والعاملونَ كلُّهُمْ هلكىٰ إلا المخلصونَ ، والمخلصونَ علىٰ خطرٍ عظيمٍ)[1] .

* * *

(١) قوت القلوب (١/ ١٥٨) ، واقتضاء العلم العمل (٢٢) بنحوه .

فإذاً ؛ المغرورُ هالكٌ ، والمخلصُ الفارُّ مِنَ الغرورِ علىٰ خطرٍ ؛ فلذلكَ لا يفارقُ الخوفُ والحذرُ قلوبَ أولياءِ اللهِ أبداً ، فنسألُ اللهَ سبحانَهُ وتعالىٰ العونَ والتوفيقَ وحسنَ الخاتمةِ ؛ فإنَّ الأمورَ بخواتيمِها ، والسلامُ .

* * *

تمّ كتاب ذمّ الغرور

وهو آخر ربع المهلكات من كتب إحياء علوم الدّين

بحمد الله وحسن توفيقه

والصّلاة على خير خلقه محمّدٍ وآله وصحبه وسلّم تسليماً

يتلوه ربع المنجيات

وهو الرّبع الرّابع من كتاب إحياء علوم الدّين





مُحتَوى الكِتَاب
رُبعُ المُهلِكَاتِ / القِسمُ الثَّاني